سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث
جامعة عين شمس

البحر الأحمر

في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة

أبحاث الأسبوع العلمي الثالث
١٠ - ١٥ مارس ١٩٧٩

اشراف
الأستاذ الدكتور احمد عزت عبد الكريم

القاهرة ١٩٨٠

البحر الأحمر

في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة

ساعدت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

على طبع هـــذا الكتاب

سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث
جامعة عين شمس

البحر الأحمر

في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة

أبحاث الأسبوع العلمي الثالث
١٠ - ١٥ مارس ١٩٧٩

اشراف
الأستاذ الدكتور احمد عزت عبد الكريم

القاهرة ١٩٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

للأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

فى العالم بقاع شديدة « الحساسية » اذ تكمن فيها عوامل تهيئها للانفجار فى اللحظة التى تدنو منها القوى الكبرى المتصارعة ، فيحدث الانفجار فيها جميعا أو فى بعضها دون البعض الآخر ، من هذه العوامل : أهمية الموقع أو وفرة المواد اللازمة لتوفير الطاقة ، هذا مع تنوع عناصر السكان ، وشيوع الطائفية أو العنصرية ، واتجاه أنظارها الى الخارج طلبا للمعونة • من هذه البقاع منطقتان شهد العالم فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية صراعا عنيفا على أرضها ، قد يبدو فى بعض الأحيان صراعا محليا ولكنه فى حقيقة الأمر ممتزج بعناصر خارجية نتيجة لتدخل الدول الكبرى • هاتان المنطقتان هما منطقة الشرق الأوسط ومنطقة جنوب شرق آسيا ، وقد يأتى وقت يهدأ فيه الصراع فى هذه المناطق على نحو قد يخدع أنظار المراقبين ، ولكنه فى الواقع ينتقل الى مناطق أخرى قريبة من قلب الصراع ، فيقع فيها الانفجار كالألم الذى يصيب الانسان فى جزء من جسمه ، ولكنه ينتقل الى جزء آخر قريب أو بعيد عن موطن الألم الأصلى ، وحينئذ نقول أن الألم « يسمع » فى جزء آخر من جسم الانسان • وما جرى ويجرى فى الشرق الأوسط يؤيد ما نقول فقد اشتعل الصراع فى الشرق الأوسط عدة مرات ثم هدأ الصراع لينتقل الى مناطق أخرى قريبة من قلب الشرق الأوسط على نحو ما شهدنا فى السنوات الأخيرة من اضطراب وصراع فى منطقة البحر

الأحمر ، وما نشهده فى أيامنا هـذه من الصراع فى ايران وأفغانستان ونعتقد أنها جميعا تستمد عوامل انفجارها من منطقة الصراع الحقيقية فى الشرق الأوسط •

لهـذا أعتقد اننا كنا موفقين حين أوصينا فى التوصيات التى أقرها سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث بجامعة عين شمس فى ختام أسبوعه العلمى الثانى (٧ — ١٢ مايو ١٩٧٧) الذى نوقش فيه موضوع « وثائق تاريخ العرب الحديث » ، فى اختيار موضوع « البحر الأحمر فى التاريخ » ليكون موضـوع النـدوة التى يعقدها السمنار فى أسبوعه العلمى الثالث عام ١٩٧٨ م ، ولكن مضى هذا العام دون أن نتمكن من عقد هـذه الندوة فى الموعد الذى اتفقنا عليه وذلك لأسباب خارجة عن ارادتنا ، أهمها أن بعض اخواننا من أساتذة التاريخ فى جامعة أم درمان الاسلامية ألحوا فى أن تكون جامعتهم مقرا لهذه الندوة ، ولكن مضى العام دون أن يتمكنوا من عقد هـذه الندوة ، لهذا عدنا الى الاعداد لها فى جامعة عين شمس واستطعنا عقدها فى الفترة من ١٠ الى ١٥ مارس سنة ١٩٧٩ م •

وهذا الكتاب الذى يسرنا أن نقدمه اليوم الى جمهور القـارئين جاء ثمرة هـذه الندوة • ويضم هـذا الكتاب أربعة وثلاثين بحثـا منها ثلاثة بحوث فى التاريخ القديم للبحر الأحمر ، وستة بحوث فى تاريخه فى العصور الوسطى وستة بحوث فى العصر العثمانى ، ثم أحد عشر بحثا فى تاريخه الحديث •

أما القسم الخامس والأخير من الكتاب فيضم البحوث التى تتصل بالسـياسة الدوليـة وصلتها بالبحر الأحمـر وخاصـة فى السنوات الأخيرة •

وقد ساهم فى تقديم هـذه الأبحاث أساتذة التاريخ والعـلوم السياسية فى أكثر الجامعات المصرية وفى بعض مراكز البحوث العلمية

كمعهد البحوث والدراسات العربية ومعهد البحوث والدراسات الأفريقية ومركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام ، ومركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، كما أن بعض الجامعات العربية الشقيقة قد أوفدت على نفقتها بعض أساتذتها ومعيديها لحضور الندوة والاشتراك فى أبحاثها أو مناقشاتها .

وعلى هذا النحو يكون الكتاب مرجعا لتاريخ البحر الأحمر والعوامل التى أثرت فى أحواله الداخلية والخارجية منذ تاريخه القديم حتى الوقت الحاضر والمتتبع لهذه العوامل فى مختلف العصور يخرج بحقيقة أساسية هامة توضح أن هذا البحر كان مسرحا لأحداث تشابهت فى كثير من عصور التاريخ التى مرت عليه ، فالمسرح واحد وان اختلفت عليه شخوص الممثلين . فقد جاء وقت اصطرعت فيه كبرى الدول فى التاريخ القديم وهما دولتا الفرس والروم ، وبعد قرون شهد صراعا بين البرتغاليين والعثمانيين ، واليوم يشهد صراعا بين الدولتين الكبريين فى العالم وهما : الولايات المتحدة الأمريكية ، والاتحاد السوفيتى مستغلتين عوامل النزاع المحلية .

ولم يكن من الممكن أن يظهر هذا الكتاب الى حيز الوجود بدون المعونة المالية التى قدمتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم للسمنار ، فلها منا كل الشكر والتقدير .

أما زملائى وأبنائى الذين أشرفوا على جمع البحوث وطبعها فلا أعتقد أنهم — وهم أصحاب الدار — ينتظرون مديحا أو شكرا .

وعلى الله قصد السبيل .

منشية البكرى فى ١٩٨٠/٤/٢٦

أحمد عزت عبد الكريم

القســم الأول

البحر الأحمر فى التاريخ القديم

١

البحر الأحمر فى « العهد القديم »

على ضوء قصة خروج بنى اسرائيل من مصر

للدكتور رشـــاد الشامى

كلية الآداب - جامعـــة عين شمس

يرد اسم البحر الأحمـــر فى كتاب « العهـــد القـــديم » تحت اسم « يم سوف » (بحر سوف) وكلمة « سوف تعنى في العبرية النبات المعروف باسم نبات البردى الذى كان ينمو بغزارة على ضفاف الانهار والبحيرات والـــذى يعـــرف بالانجليزية باسم Reed ، ولذلك فان البعض يرى أن التسمية Red Sea هى تحريف لكلمة Reed أي « بحر البردي » ويكون المقصود به ليس البحر الأحمر كما هو معروف اليوم بل « بحيرة البردي » Papyrus Lake « أو مستنقع البردى » Papyrus marsh والذى يرد ذكرها فى الوثائق المصرية القديمة التى ترجع الى القرن الثالث عشر ق.م ، والتى تقع بالقرب من تانيس (١).

واسم « بحر سوف » « لايرد فىالعهد القديم » الا من خلال قصة خروج بنىاسرائيل منمصر فىسفر الخروج،وخلالالاشارة الىمعجزة شق البحر فى الأسفار الأخرى من « العهد القديم » ويربط رجال الدين سواء اليهودي أو المسيحى بين « بحر سوف » والبحر الأحمر ، بالرغم من عدم وضوح هـــذا الربط فى ثنـــايا قصـــة الخروج والتى ترتبط ارتباطا وثيقا بعبور بني اسرائيل للبحر عن طريق معجزة شقه يوجد تداخل أوقع الباحثين فى حيرة شديدة يتجلى فى الاشارة حينا الى ذلك البحر على انه البحـــر

---

(1) W. F. Nbright : O. T. Commentary, Phila, 1948, P. 142.

فقط دون تمييز وأحيانا أخرى على أنه « بحر سوف » ، بالاضافة الى عدم التحديد الدقيق لموقع « بحر سوف » هذا .

وقد وردت كلمة « بحر » بشكل مطلق دون تحديد لاسم هذا البحر فى قصة خروج بنى اسرائيل من مصر فى عدة مواضع :

« وكلم الرب موسى قائلا . كلم بنى اسرائيل أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون . مقابله تنزلون عند البحر » (خروج ١٤/١ — ٢) « فسعى المصريون وراءهم وأركبوهم ، جميع خيل مركبات فرعون وفرسانه وجيشه وهم نازلون عند البحر عند فم الحيروث أمام بعل صفون » (خروج ١٤ : ٩) .

« وارفع أنت عصاك ومد يدك على البحر وشقه . فيدخل بنو اسرائيل فى وسط البحر على اليابسة » (خروج ١٤ : ١٦) .

« ومد موسى يده على البحر فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء . فدخل بنوا اسرائيل فى وسط البحر على اليابسة ، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه الى وسط البحر » (خروج ١٤ : ٢١ — ٢٤) ، وكذلك أيضا : (خروج ١٤ : ٢٦ — ٣١) .

وتأتى الاشارة الى هذا البحر الذى عبره موسى بقومه مميزا بكلمة « سوفا » فى مواضع أخرى من أسفار « العهد القديم » هى : (خروج ١٣ : ١٨ ، وخروج ١٥ : ٤ ، ٢٢ ، خروج ٢٣ : ٣١ ، والعدد ١٤ : ٢٦ ، ٢١ : ٤ ، والتثنية ١ : ٤٠ ، ٢ : ١ ، والقضاة ١١ : ١٦ — ١٧ ، وسفر يشوع ٢ : ١٠ ، ٤ : ٢٣ ، ٢٤ : ٦ ، والمزمور ١٠٦ : ٧ ، ٩ ، ٢٢ ، والمزمور ١٣٦ ، وسفر نحميا (٩ : ٩) واذا كان اسم « يم سوف » يدل فى العبرية الآن على البحر الأحمر فانه بالنسبة للدراسات التوراتية ثار جدل كبير بين العلماء حول تحديد المقصود « ببحر سوف » ، وذلك لارتباط هذا التحديد بقضية خروج بنى اسرائيل من مصر وتتبع مسار الطريق الذى سلكوه فى خروجهم منها حتى وصلوا الى برية سيناء وقد ذهب بعض العلماء الى أن المقصود « ببحر سوف »

هو خليج ايلات (العقبة) ، وذلك استنادا الى ما جاء فى وصف حدود أرض اسرائيل فى سفر الخروج : « اجعل تخومك من بحر سوف الى بحر فلسطين » (خروج ٢٣ : ٣١) . والربط بين هـذا وبين أسطول الملك سليمان ، وهو الأسطول الذى صنعه فى « عصيون جابر » التى بجانب أيلة على شاطىء بحر سوف فى أرض آدوم (٩ : ٢٦) .

ويستند أصحاب هـذا الرأى كذلك الى وصف رحلات بنى اسرائيل فى طريق بحر سوف قبل أن يدوروا فى أرض آدوم .

« وارتحلوا من جبل هور فى طريق بحر سوف ليدوروا فى أرض آدوم » (عدد ١٤ : ٣٦ ، ٢١ : ٤) وكذلك :

« وأما أنتم فتحولوا (وارتحلوا) الى البرية فى طريق بحر سوف » (تثنية ٢ : ١) ، « لأنه عنـد صعود اسرائيل من مصر سـار فى القفر الى بحر سوف وأتى الى قادش وأرسل اسرائيل رسلا الى ملك آدوم » (قضاة . ١١ : ١٦ — ١٧) .

وهـذا ما يقابل النص التالى الوارد فى سفر العدد :

« ثم ارتحلوا من عبرونه ونزلوا فى عصيون جابر . ثم ارتحلوا من عصيون جابر ونزلوا فى برية صين وهى قادش ثم ارتحلوا من قادش ونزلوا فى جبل هور فى طرف أرض آدوم » (العدد ٣٣ : ٣٥ — ٣٧) .

وعلى هذا الأساس فانه يكون من المحتمل أن يكون المقصود « ببحر سوف » هنا هو خليج ايلات (العقبة) .

ولكن وجهة النظر هـذه ليست حاسمة ، وذلك لأن « بحر سوف » بالنسبة للتقاليد التوارتية هو خليج السويس ، وليس خليج ايلات ، وبذلك يكون خليج السويس هو البحر المقصود ، وهو البحر الذى شـقه الرب أمام بنى اسرائيل .

ويتفق هـذا الرأى مع ما ذهب اليه الباحثون الذين بحثوا فى مكان شق الميـاه المحتمل ، وتوصلوا الى أنه موقع فى شمال خليج السويس . ولكن وجهة النظر هـذه واجهت هى الأخرى عدة اعتراضات . وقد حدد

المعترضون عليها مكان « بحر سوف » الذى عبره بنوا اسرائيل الى اليابسة بجميع البحيرات التى تقع على تخوم مصر الشرقية ، فى الجهة اليمنى من البحيرات المرة أو فى شمالها فى بحيرة التمساح أو حتى فى احدى البحيرات التى تقع على المصب الشرقى لنهر النيل فى ضواحى فيلوسيون ، ومن هنا اتجهوا الى شرق البحيرة السربونية التى تقع شمال شبه جزيرة سيناء .

والسبب الأساسى فى تعدد الآراء استنادا الى القصـــة التوارتية، يرجع الى عدم وضوح موقع الأماكن الثلاثة التى ارتحل اليها بنوا اسرائيل قبل عبورهم البحر وهى :

فم الحيروث ومجدل وبعل صيفون ، بالاضافة الى عدم حسم موضوع ما اذا كان بنوا اسرائيل قـــد عبروا الى جزيرة ســـيناء من الجنوب أو من الشمال .

وهنـــا تجدر الاشارة الى أن فرضـــيات الربط بين هـــذه الأماكن وبحر سوف « ترتبط بمحاولات ايجاد تفسير لسبب حدوث عملية شـــق البحر ، وربط عملية الشق هـــذه بالمعلومات عن دوران المـــد والجـــزر فى خليج السويس ، أى أن بنى اسرائيل عبروا البحر اثناء عملية الجزر ، وأن المصريون غرقوا أثناء عملية المـــد ، ولكن بعض الباحثين من مؤيدى نظرية المعجزة ، لاحظوا أن الفرق فى كمية المـــاء أثناء عملية المـــد والجزر فى البحر الأحمر تصل الى مترين تقريبا ، وعلى العكس من ذلك فى البحر المتوسط حيث أن الفرق لا يزيد عن ٤٠ سنتيمتر ، ثم لاحظوا أيضا أن الجزر فى مياه الخليج لا يستمر طويلا وبرهنوا على ذلك بما حدث لجيش نابليون بونابرت عندما حاول عبور البحر الأحمر ونجـــا جنوده من الغرق بأعجوبة ولكن هؤلاء وجدوا صعوبة فى تفسير الاشارة الواردة فى سفر الخـــروج الى الريح الشرقية الشديدة التى هبت طوال الليل قبل أن يعبر بنو اسرائيل البحر (خروج ١٤ : ١٢) . ونظرا لأن الرياح الشرقية التى تهب على مصر من ساحل البحر المتوسط ، تقل كلما اقتربت من خليج الســـويس ، فان أصحاب هـــذا الرأى يستندون الى الرأى القائل بأن بنى اسرائيل رجعوا من طريقهم فى البداية قبـــل أن يرتحلوا الى « بحـــر ســـوف » (خروج ١٤ : ٢ ، وعدد ٣٣ : ٧) .

ثم تتضح هـذه الظاهرة حسب رأيهم من خلال افتراض ، أن بنى اسرائيل قـد ضلوا الطريق فى الصحراء ووصلوا الى السـاحل الغربى لخليج السويس ، وعندما أرادوا الرجوع من أجل الوصول الى السـاحل الشرقى من اليابسـة ، كان الجيش المصرى الفرعونى قـد أغلق عليهم الطريق ومنعهم من العبور الى الاتجاه الشمالى من الخليج .

هـذا ويوجد بين أصحاب نظرية الارتحال من الجنوب باحثون ينقلون « يم سوف » الى البحيرات المرة التى تقع شمال خليج السويس أو الى بحيرة التمساح ، التى تنحرف أكثر الى الشمال ، ويستدلون على هـذا بأن بنى اسرائيل أسرعوا من أجل الابتعاد عن مصر الى الشرق ولم يقوموا برحلات طويلة فى الاتجاه الجنوبى داخل مصر . ورأيهم هـذا يقوم على تخمين غير مؤكد بأنه كان هناك اتصال طبيعى بين البحر الأحمر وبين هذه البحيرات عند حدوث عملية الخروج من مصر ، وبذلك يكونون ، وفقا لرأيهم قـد طبقوا قوانين المـد والجزر فى البحر الأحمر على البحيرات المـرة وعلى بحيرة التمساح أيضا . وهؤلاء النفر من الباحثين يزعمون بأن نظريتهم تعتبر تفسيرا كافيا بأن الاسم « بحر سوف » هو البحر الأحمر ، وذلك لعـدم وجود نبـات البردى على سواحله الا فى أماكن قليلة بسبب عدم وجود مياه عذبة فيه ، بينما يكثر هـذا النبات فى سواحله الداخليـة . ومن هنـا فقد توصلوا ، من خلال هـذا الافتراض الى أن اسم « بحـر سوف » كان يطلق أولا على البحيرات المرة أو على بحيرة التمسـاح ، وبعـد فترة من الزمن أطلق على البحر الأحمر أيضا ، وذلك بسبب الصلة الطبيعية بينه وبين هـذه البحيرات الداخلية . ولكن هـذا التفسير رفض بأكمله ، لصعوبة قبول الرأى الذى يقول بأن بحرا كبيرا قـد سمى باسم بحيرات ذات أهمية ضئيلة . وبالاضافة الى هـذا فان هـذه الآراء ليس فيها ما يمكن أن نعتبره اجابة كافية وشاملة على السؤال الخاص عن سبب عودة بنى اسرائيل من طريقهم فى البداية قبـل أن يرتحلوا الى سـاحل « بحر سوف » .

وبصدد ربط « بحر سـوف » بالبحر الأحمر أو بالبحـيرات المـرة أو ببحيرة التمسـاح ، فان بنى اسرائيل بنـاء على ذلك ، يكونون قـد اتجهوا الى جنوب سيناء ، أما ربط « بحر سوف » باحدى البحيرات التى تقع عنـد مصب نهر النيل الشرقى أو بالخليج السيربونى فى شمال شبه

جزيرة سيناء ، فان معناه يكون أن بنى اسرائيل قد عبروا الى شبه جزيرة سيناء من الشمال .

وسواء صدق رأى هذا الفريق أو ذاك فان كلا منهما قد واجهه سؤالا صعبا وهو السبب فى تسمية « البحر الأحمر » « ببحر سوف » وقد قدم أخيرا تفسير لهذا الأمر لا يستند الى المعتقدات الدينية وهو أن ربط البحر الأحمر الذى عبره بنوا اسرائيل فى طريق خروجهم من مصر بالبحر الأحمر ، انما تم من أجل المبالغة فى الثناء على الرب الذى قام بشق هذا البحر الشاسع لينقذهم من جيش فرعون وليغرق فيه فرعون بمركباته وجنوده ويجد هؤلاء الباحثون سندا معقولا لرأيهم فى بعض النصوص الواردة فى سفر العدد اصحاح ٣٣ حيث جاء فى الآية التاسعة « وعبروا من البحر الى الصحراء » بينما يرد فى الآية العاشرة من نفس الاصحاح : « وارتحلوا الى بحر سوف » كما لو كان البحر الذى عبروه يختلف عن « بحر سوف » المذكور فى بقية القصة . وفى رأيهم ان الفقرات التى تتناول شق « بحر سوف » انما يقصد بها البحر الأحمر .

٢

دور البحر الأحمر في تاريخ مصر

على عهد البطالمة

الأستاذ الدكتور مصطفى كمال عبد العليم
كلية الآداب - جامعة عين شمس

تحكم موقع مصر بين بحرين ، البحر المتوسط الذى اطلق عليه المصريون القدماء اسم « البحر الأخضر العظيم » ، والبحر الاحمر الذى عرفوه فى عصر الدولة الفرعونية الوسطى باسم المحيط العظيم أو الدائرة العظمى ، فى تاريخها واقتصادياتها وأملى عليها منذ وقت باكر استراتيجية معينة .

ولم تكن مصر هى الدولة الوحيدة المطلة على البحر الأحمر ، فقد شاركتها قوى أخرى سيطرت على جانبى هذا البحر . بل ان الاهتمام بالبحر الاحمر تعدى دوله الى الشعوب القديمة المطلة على الخليج (الفارسى) والمحيط الهندى وبحر العرب جنوب الجزيرة العربية . وكل هذه القوى على جانبى البحر الأحمر او خارجه كانت تسعى الى أن تتصل فيما بينها ، وتتبادل عبره سلعها ومنتجاتها . ولكن ذلك لم يكن بالأمر السهل اذ كانت هناك عقبات وصعوبات جعلت اجتياز بوغاز باب المندب منذ العصر الفرعوني وحتى قرب نهاية عصر البطالمة فى القرن الأول ق.م. أمرا عسيرا .

ولعل مؤرخى اليونان وجغرافييهم لم يتجاوزا حدهم عندما أطلقوا على البحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندى اسما واحدا هو البحر الأروثري . وان كان هذا الاسم قد ضاق مدلوله حتى أصبح استعماله مقصورا على البحر الأحمر فقط .

وكان من الطبيعى أن تهتم شعوب البحر الأحمر بارتياد سواحله والتعرف الى مرافئه ومواني ومحاولة تسيير سفنها لتحمل سلعها الثمينة

من الطيب والأفاويه والبخور والذهب وغير ذلك مما كان مطمح الشعوب القديمـــة .

فى عام ٣٢٢ ق. م. قـــدم الى مصر بطلميوس ليكون واليـــا عليها من قبل أسرة الاسكندر . وكان فى معية ذلك الملك العظيم عندما وصـــل الى مصب نهر السند . ولابد وأن يكون قـد استشعر ما كان يدور بخلد سيده عن أهميـــة تلك البحار المحيطة بامبراطوريتـــه وانهـــا لو ارتبطت فيما بينها بحيث يتصل المحيط الهندى ببحر أيجـــة ، فان ذلك سيضمن لهذه الامبراطورية ترابطا متينا قويا . وذلك لن يتم الا اذا كان البحر الأحمـــر هو واسطة العقد والسبيل الى تحقيق هـــذا الاتصال .

وقد كان الاسكندر ، ونوبات الحمى تعتريه وتعاوده وهو فى بابل ، لايفتأ يناقش قادته البحريين ، ويسأل عن أخبار البعثات الاستكشافية التى أرسلها فى محاولة للتعرف على الطريق البحرى الذى يربط بين بابل ومصر . ولعل الاسكندر قـد ورث هـــذا الطموح عن الفرس وملكهم دارا الأول الذى كان يحلم بربط مصر بفارس . ومن السهل أن نتصور أنه بعـــد أن سار فى وادى طليمات بعد أن عبر صحراء العرب فى عام ٥١٨ ق. م. لاحظ وجود القناة التى كان الفرعون تخاو من الأسرة السادسة والعشرين قـــد بدأ فى حفرها ولم يكملها ، فأعاد دارا حفرها ووصلها برأس خليج السويس . وسجل فى أحـــد لوحاته التى نصبها عاليـــا فى منطقة القناة لتراها السفن التى تعبرها الى فارس « انى فارسى ومن فارس استوليت على مصر وأمرت بحفر هذه القناة من النهر المسمى بالنيل الذى يجرى فى مصر الى البحر الذى يأتى من فارس .. وتم حفر هذه القناة حسبما أمرت وصـــارت السفن تذهب من مصر الى فارس عبر هذه القنـــاة على نحو ما قضت ارادتى » .

وبديهى الا تكون هذه أول مرة اتصلت فيها مصر بالبحر الاحمر عبر قنـــاة تخرج من النيل ، فقد كانت هناك فيما يرجح قنـــاة سبقتها وسلكتها سفن الملـــكة حتشبسوت لتذهب الى بلاد بنت (الصومال وما يقابلهـــا على الشاطىء العربى) محملة بسلع مصر ولتعود من البحر الأحمر مـــرة أخرى لتصل عن طريق هذه القناة بحمولتها الثمينـــة من البخور والعطور والأشجار الثمينة لترسو على رصـــيف طيبـــة . وقد صـــور فنانو عصر

حتشبسوت مناظر الرحلة احسن تصوير على جدران معبد الدير البحرى .

ولم يقتصر استخدام البحر الأحمر على جلب سلع بلاد بنت ، بل إن السفن كانت تخرج من بعض موانى مصر على النحو الذى أسلفنا بيانه لتذهب الى أماكن فى شمال السودان تطل على سواحل البحر لجلب الذهب والمعادن النفيسة الأخرى . وقد كانت ميناء جواسيس فى عهد الدولة الوسطى هو مخرج السفن المصرية الى تلك المناطق لجلب هذه المواد ثم نقلها عبر وديان الصحراء الشرقية الى النيل .

وقد أعطى غزو الاسكندرية للشرق لتجارة العالم القديم دفعة جديدة وحققت التجارة البحرية قدرا كبيرا من النجاح وأصبحت موضع اهتمام خلفاء الإسكندر . واذا كان السلوقيون قد نظموا رحلات كشفية الى الهند وبحر قزوين والخليج (الفارسى) فان البطالمة اهتموا بارسال البعثات الكشفية الى البحر الأحمر وبلاد العرب وشرق أفريقيا .

ولا شك ان البطالمة قد ساروا على نهج الفراعنة ذلك لأنهم ورثتهم بحق . ولا يمكن أن نتصور أن ملوك البطالمة ابتداء من بطلميوس الأول بدأوا من فراغ بل كانت أمامهم خبرة المصريين الطويلة فى ارتياد البحر الأحمر والتى عرفها الفرس وأفادوا منها .

وكانت دول البحر المتوسط قد عرفت سلع الشرق من طيب وبخور فى القرنين الخامس والرابع ق.م. عندما كان الفرس يسيطرون على الشرق وينقلون سلعة من الهند وجنوب بلاد العرب الى موانى الأناضول وفلسطين وفينيقيا . ولكن آهتمام الاغريق بالمواطن التى تأتى منها هذه السلع والطريق اليها انما بدأت بعد أن أصبحت مصر مركزا للدولة البطلمية الاغريقية . وقد كان جنوب بلاد العرب مجهولا للاغريق من قبل . ولم يقدر للاسكندر أو لأى من خلفائه غزو بلاد العرب . وكل الذى استطاعوه هو محاولة السيطرة على طرق القوافل والطرق البحرية القادمة من الشرق .

كانت السلع القادمة من الهند تجد طريقها الى مخازن فى جنوب شبه الجزيرة العربية وتصبح بعد ذلك جزءا من تجارتها . وقد حافظت الشعوب التى عاشت بها على احتكارها لتلك التجارة بكل أوتيت من حيلة وقوة فلم يكن يسمح لأى سفينة بتجاوز باب المندب الى البحر الأحمر .

وبالمقابل حرص أهل بونت على عدم السماح للسفن المصرية بتجاوز باب المندب الى المحيط الهنـــدى وذلك منذ أيام حتشبسوت . ولم يفلح قادة الملكة المصرية فى اغراء زعيم بنت بأن يسهل لهم الوصول الى الأراضى العربية المنتجة لهذه السلع الثمينة التى كانت مصر فى أشد الحاجة اليها .

وأصبح على البطالمة ، ولديهم كما أسلفنا خبرة المصريين الطويلة ، والجهود المتواصلة التى بذلها فراعنة مصر للخروج من بوغاز باب المندب ، متابعة ما قام به أولئك الفراعنة وخصوصا وإنهم أصبحوا فى حاجة ملحة الى جلب السلع التى أسلفنا الاشارة اليها والى الذهب والمعادن وخاصة الحديد والى الفيلة الافريقية التى يستطيعون بها مواجهة الفيلة الهندية التى كانت لدى منافسيهم السلوقيين . وتحقيقا لهذه الأهداف أخذ اهتمام البطالمة بالبحر الأحمر يتجه نحو معرفة الطرق الصالحة للملاحة وتأمينها، والكشف عن الأماكن الصالحة لانشاء الموانى والمرافىء والاهتمام بالطرق التى تؤدى من وادى النيل الى البحر الأحمر .

وقـــد ساعد البطالمـة على تحقيق أهـــدافهم ماقدمته علوم العصر الهلينستى وخاصـــة فى مجال بنـــاء الســـفن وفنـــون الملاحـــة ودوائر الاسكندرية العلمية الى ممارسة الكشف الجغرافى وجمع الأخبـــار عن البلاد المطلة على البحر الأحمر وعن شعوبها ومنتجاتها ، ولـــكن يجب أن يكون واضحا أن هذه المدينة الحديثة الاسكندرية لم تكن لتبدأ تجارة جديدة مع الشرق عبر البحر الأحمر ، وانما ازدادت أهمية الاسكنـــدرية كمركز لتجارة الترانسيت والتى تزايدت أهميتها بعد أن فقد البطالمة سيطرتهم على جنوب ســـوريا ، ومركزهم الممتاز فى البحر المتوسط . لذلك لا يدهشنا هذا الثبت الطويل بأسماء المستكشفين الذين دأب البطالمة على ارسالهم لارتياد السواحل الشرقية والغربية للبحر الأحمر وذلك ابتـــداء من عصر بطليموس الأول . وكان خلفه بطليموس الثانى أكثر نشاطا فى ارســـال المستكشفين وفى انشاء الموانى على طول ســـاحل البحر الأحمر الغربى وحتى بوغاز باب المندب . وكانت بعض هذه الموانى أصلا مرافىء مصرية ، وعلى سبيل المثال ميناء فيلوتيرا ومكانه يتأرجح بين مـــرسى جاسسوس ومرسى جواسيس وكلاهما يقع الى الجنوب من سفاجة ، وكان هذا الميناء يخدم حركة التعدين فى مناجم الذهب والمعادن الأخرى وكانت قريبـــة من البحر . وقد وصف أجاثارخيدس Agatharchides الظروف القاسية

التي كان يعمل فيها أسرى الحرب في تلك المناجم . وقد كان فراعنة الدولة الوسطى يستخدمون الموقع القديم لميناء فيلوتيرا . وجاء في أحد النقوش الهيروغليفية الحديث عن خروج السفن المصرية الى (بيا — ان — بونت) وعودتها سالمة وفي رأى بعض الباحثين أن (بيا — أن — بونت) ماهي الا مناجم الذهب في المنطقة الممتدة من بورسودان وسواكن شمالا الى عقيق جنوبا . وربما كانت حدود بنت غير بعيدة .

والى الجنوب من هذه المنطقة امتد نشاط البطالمة في عهد بطلميوس الثاني حيث أسس بعض الموانى مثل ميناء بطوليمايس ثيرون الصيد Ptolemais Theron أو بطوليمايس ابيتيريس Ptolemais Epitheres

وربما يكون موقعه الحالى ميناء عقيق الواقع الى الجنوب من سواكن على خليج يحميه من تيارات البحر . وكان بطليموس الثاني يهدف من وراء انشاء هذا الميناء وغيره أن يكون مركزا لاصطياد الفيلة بهدف استخدامها في الحرب وليس بهدف استئناسها . وكانت المنطقة التي يقع هذا الميناء في نطاقها تعرف في النصوص الهيروغليفية التي ترجع الى أوائل عصر البطالمة باسم « أقصى الحد الجنوبي للسود » . وقد يكون هذا غريبا بالنسبة لعصر البطالمة بعد أن امتد نشاطهم الى مابعد هذه المنطقة فلعله تعبير من الماضي ورد في النصوص المصرية الهيروغليفية فدرج البطالمة على استعماله على هذا النحو .

أما العمل الأساسي الذى قام به فيلادلفوس فهو حفر القناة التي عرفت باسمه التي تربط النيل بالبحر الأحمر . وسجل ذلك في لوحة بيثوم باللغة المصرية بقوله : « انه في السنة السادسة عشرة من حكمه (٢٧٠/٢٦٩ ق.م) حفر الملك قناة ليدخل البهجة على قلب أبيه آتوم الاله الأعظم .. وأول القناة فرع النهر شمال هليوبوليس ونهايته في بحيرة العقرب (البحيرات المرة) وذلك لابعاد العصاة » . وبيثوم هي مدينة هيرونوبوليس عند الاغريق ، تل المسخوطة حاليا .

وحوالي الوقت الذى فتح فيه بطليموس القناة اهتم بتنشيط الملاحة في البحر الأحمر كما اهتم بالتعامل مع عرب اليمن السبائيين وارتياد الساحل العربي ، وكان عليه أن ينظم علاقته بالأنباط الذين كانوا يقومون بأعمال القرصنة . وربما زاد خطر الأنباط عندما كثرت اغاراتهم على

السفن التى كانت تبحر من هيرونوبوليس وايلة .. وربما تكون قوات بطليموس قد توغلت فى أراضى الأنباط فاستولى على الشاطىء الشرقى للبحر الميت . ولعل الجدال المشار اليه فى نفس بيثوم يوحى بأن الغرض منه مقاومة الأنباط ودفعهم بعيدا عن مدينة هيرونوبوليس .

واهتم بطليموس الثانى أيضا باقامة علاقات طيبة مع دولة لحيان، وهى التى ذكرها بلينى باسم لخينى ، وكان نفوذ اللحيانيين قد انتشر فى المنطقة الممتدة غربى النفود شمال يثرب الى مايحاذى خليج العقبة ، بل ربما كانت دولتهم قد امتدت حتى شملت نجدا ووصلت الى الأحساء . وقد حرص اللحيانيون على حماية الطريق التجارى شمال الحجاز، وتطلب ذلك منهم أن يبسطوا سيطرتهم على البتراء وخليج العقبة الذى عرف باسم خليج لحيان . وبذلك أمنوا الطريق البحرى الى ايلة ، وفرضوا الضرائب على السفن التى تبحر فى المياه التى يسيطرون عليها . ولعل الدليل الواضح على توثق علاقتهم بالبطالمة أن تسمى ملوكهم بأسماء اغريقية كان من بينها لقب طولماى وواضح أنه مشتق من اسم بطلميوس .

وأراد بطلميوس أن يحد من خطر الأنباط فأوعز الى أهل ميليتوس بأن يؤسسوا مستوطنة باسم أمبيلونى Ampelone على الشاطىء العربى، ومصدرنا الوحيد عن هذه المستوطنة هو بلينى الذى ذكرها باسم Colonia Milesiorum - Ampelone oppidum ولعلها كانت على الطريق الموصل الى ددان (العلا) عاصمة مملكة اللحيانيين . ولعل ددان كانت تقع الى الشمال من جدة .

وقد يكون من نتائج اهتمام بطلميوس الثانى بالجانب العربى من البحر الأحمر أن نشطت الاتصالات التجارية المباشرة بين العرب والبطالمة ، اذ عثر فى موضع قصر البنات على طريق قنا ومنطقة ادفو على نقوش بالقلم الحميرى ، وعلى نقش آخر فى الجيزة مؤرخ بالعام الثانى والعشرين من حكم بطلميوس بن بطلميوس يرجح أنه كتب قبل عام ٢٦١ ق.م. أى فى عهد بطلميوس الثانى وهو خاص بتاجر معينى اسمه زيدايل ، والذى كان فى الوقت نفسه كاهنا فى أحد المعابد المصرية ، وتشهد باستيراده بسفينة يملكها بعض المر والبخور لهذا المعبد .

مقابل نوع من المنسوجات Byssos كان يصنع به . ولعل ذلك يعكس وجود جالية معينية فى مصر . والمعروف أن المعينيين على درجة كبيرة من النشاط حتى أنه كان لهم جالية فى جزيرة ديلوس حيث مركز التبادل التجاري فى شرق البحر المتوسط فقد عثر على نقش مزدوج اللغة كرسه تجار معينيون لربهم ود . واذا كان قد ورد فى البردى البطلمى ذكر لبان معينى فانه يرجح أن يكون قد أتى من ميناء العلا .

وقد حرص فيلادلفوس أن تكون له علاقات وثيقة مع الهند فأرسل سفيره ديونيسيوس الى اسوكا ملك البنجاب فيما يروى بلينى . وسجل هذا الملك أنه أرسل سفارة الى بطلميوس الثانى وذلك فى نقش باللغتين الآرامية والاغريقية فى السنوات الأخيرة فى الهند . ولكننا لا نملك الدليل على وصول هذه السفارة الى بلاد الملك البطلمى . ويلاحظ أيضا أن الملك السلوقى انطيوخوس الأول أرسل ميجاسثينيس Megasthenes أحد الجغرافيين البارزين فى عصره الى بلاط الملك أسوكا . وكل ذلك يدل على وجود تأثير حضارى اغريقى فى الهند وعن اهتمام من جانب بطالمة مصر وسليوقى سوريا على اقامة علاقات مع الهند . ومع ذلك فان البعض يشكك فى وجود اتصالات منتظمة بين مصر والهند وان كثيرا من مثقفى العصر البطلمى فى القرن الثالث ق.م. كانوا يجهلون الهند ، وانهم كانوا يعتقدون أن بلاد العرب كانت مصدر التوابل التى لايمكن أن يكون مصدرها غير الهند . ومن هؤلاء اراتوسثينيس Eratosthenes كان يعتبر بلاد العرب هى مصدر القرفة وهى انتاج هندى صميم . وعلى اى حال فان المهرجان Pompé الذى نظمه فيلادلفوس فى عام ٢٧٤ ق.م احتفالا بعيد البطوليمايا Ptolemaieia والذى عرض فيه كميات هائلة من الطيب والبخور والمواد العطرية والعاج والحيوانات الهندية لتنهض دليلا على اهتمام الملك بطلميوس الثانى بتنشيط الاتجار فى مواد مصدرها الهند سواء أجاءت الى مصر من موانى تلك البلاد أو من موانى بلاد العرب . وفى بعض برديات العصر البطلمى يظهر أشخاص يحملون صفة هندى أو حيوانات تحمل تلك الصفة .

وقد تابع بطلميوس الثالث جهود سلفه فأكمل مابداه من محاولة الكشف عن بلاد القرفة ، أى شاطئ الصومال غرب جاردافوى

(القرن الأفريقي) الى جانب محاولة استكشاف مواقع لاصطياد الفيلة .
وكان الملك تبذ جعل من اصطياد الفيلة عملا عسكريا . وقد لعبت الفيلة دورا هاما فى موقعة رفح عام ٢١٧ ق.م. عندما اصطدمت فيلة بطلميوس الرابع الأفريقية وفيلة أنطيوخوس الأسيوية والتى كانت لها الغلبة . وهذا ملجأ بالملك الى متابعة الاهتمام بمصايد الفيلة فى الجنوب فأرسل خاريمورتوس Charimortus وكان لقبه حاكم أرض الفيلة ليأتى بمزيد منها ، واستلزم الأمر ارسال قوات عسكرية لحماية صائدي الفيلة .

ولعل من المهم أن نشير الى أن بطلميوس الثالث فى فترة سيطرته على بابل أرسل عددا من السفن لارتياد نهر الفرات والخليج (الفارسى) للتعرف على الطريق الى الهند كمنافس تجارى للسلوقيين ، ولكن سفنه لم تستطع تجاوز ذلك الخليج .

وإذا انتقلنا الى بطالمة القرن الثانى فأول ما يستوقفنا ما أصاب البيت البطلمى من تدهور لم يحل دون استمرار عملية الكشف الجغرافى . وكان من الطبيعى ان يتوقف الاهتمام بصيد الفيلة . وأصبح فى استطاعة التجار التردد على الموانى العربية ، وربما كان فى استطاعتهم القيام برحلات خارج البحر الأحمر . وازدادت معرفتهم بسكان الشعوب المطلة على البحر الأحمر على الساحل الأفريقى فهناك أكلة السمك وأكلة الفيلة وأكلة العشب وأكلة الحبوب وأكلة النعام وأكلة الجراد . حقيقة ان هؤلاء البطالمة عانوا من الانبساط عندما امتد نشاطهم جنوبا على ساحل بلاد العرب وقضوا على مستعمرة أمبيلونى وأقاموا منطقة قديما يرجع لوكى كومى Leuke Kome .

ولدينا بردية هامة مؤرخة بعام ١٤٦ ق.م من عصر بطلميوس أيوارجيتيس الثانى تشير الى خمسة أشخاص اقترضوا من ايطالى فى الاسكندرية مبلغا من المال ، وأبحروا من الاسكندرية الى أرض البخور محملين بسلع مصرية لتبادلها مع تجار جنوب بلاد العرب ثم العودة بالسلع الشرقية ، كان من أهمها نباتات عطرية . وكانوا سيبيعونها فى الاسكندرية لتصنع على هيئة عطور . وكان عليهم اذا تأخروا عن سداد القرض فى موعده دفع غرامة قيمتها خمسون فى المائة من قيمة القرض .

ثم كان هذا التطور الهائل الذى يمثله نجاح يودوكسوس من مواطنى مدينـــة كيزيكوس (على بحـــر مرمرة) الــذى جاء مصر على عهــد الملك بطلميوس ايوراجيتيس الثانى ، وصادف كما يذكر بوسيدونوس نقلا عن استرابون أن حراس خليج السويس أحضروا الى الملك رجلا هنــديا وجدوه ملقى على الساحل وحيدا مشرفا على الموت يتكلم لغة لايفهمونها. فعلموه الأغريقية ومن ثم عرفوا أنه قادم من الهنــد وانه ضل طريقـــه . فلما حملوه الى الاسكندرية وعد أن يكون مرشدا لجماعة يرسلها الملك. فعين الملك يودوكسوس مرافقا لتلك الجماعة وحمله بعض الهــدايا الى الهند . وعاد يودوكسوس بشحنة من المواد العطرية والأحجار الكريمية ولــكن ظنه خاب اذ سلبه الملك شحنته لدى عودته الى مصر .

وعاد يودوكسوس مرة ثانية الى الهند مكلفا من الملكة الليوباترة التى خلفت ايوارجيتيس على عرش مصر . ولــكنه وهو فى طريق العــودة حملته الرياح الى ماوراء أثيوبيــا . ويرجح أن هــذه الرياح هى الرياح الموسمية الشرقيــة . وقدر له أن يعود الى الاسكنــدرية فسلبت منـــه شحنته مرة أخرى ، ولذلك قرر أن يجد طريقا آخر الى الهند بأن يتجـــه من أسبانيا الى جنوب أفريقيا ومنها الى الهند . ولم نعرف من استرابون ان كان يودوكسوس قــد وصـــل بالفعل الى الهند ، وان كان من الممكن أن يكون قد وصل الى نهر السند على الأقل ، ولـــا كان قد مات دون أن يسجل مذكراته فان أخبار رحلاته قــد تكون موضع شك . وربما تكون الرياح الموسمية قــد القت به الى الشاطىء جنوب جاردافوى (القرن الأفريقى) . واذا سلمنا بامكان الوصـــول مباشرة الى الهند ، فلابد أن يكون ذلك قد تم بدون ارادة القوى العربيــة فى جنوب شـــبه الجزيرة العربيــة .

وجاءت المرحلة الأخيرة بكشف هيبالوس عن الرياح الموســمية التى فتحت الطريق الى الهنــد حوالى عام ١١٦ ق.م. وصادف ذلك انهيـــار مملـــكة سبأ ، ولم يقــدر للبطالمة الافادة من هذا الــكشف المثير . وقبل انهيـــار دولة البطالمة الذى دخل دوره النهـــائى ابتداء من عام ٨٠ ق.م كان نفر من الملاحين من اغريق الاسكندرية قد وصلوا الى جزيرة ستوقطرة واطلقوا عليها اسم Diocuridu Mesos ولعلهم استقروا بالجزيرة واختلطوا

بسكانها ، وفى رأى بعض المؤرخين أنه لو كان البطالمة الأواخر على قدر أكبر من الحيويةوالقوة والتماسك وأفادوا من كشفحركة الرياحالموسمية لقدر لدولتهم مصير آخر غير المصير الذى انتهت اليه .

وقــد وصل التجار الاغريق الى أكيلا Acila فى عمان ، وهــو الميناء الذى تبحر منه السفن الى الهند . وتظهر النقوش من عهد الملك بطلميوس أوليتيس (والد الملكة كليوباتره السابعة آخــر ملــكات البيت البطلمى) انه حوالى عام ٦٥ ق.م. شملت الحماية العسكرية التجــارة البطلمية فى بحر الهنــد . وتعرف أيضا أنه فى أواخر القرنالثانى وأوائل القرن الأول ق.م. ظهر فى جنوب مصر موظف يحمل لقب حاكم طيبــة والمشرف على البحر الأحمر والمحيط الهندى Epistrategos tês Thebaides kai epi tês Erythras kai Indikês Thalàssès.

وقد يعيد هذا اللقب الى الذاكرة ماورد فى أحد نصوص الدولة الوسطى عن موظف يحمل لقب « القــاضى وحاكم مقاطعة المحيط » الذى كان ، فيما يرجح ، يختص بحكم تلك المنطقة من الصحراء الشرقيــة التى يدخل ساحل البحر الأحمر وما به من موان فى نطاقها ، ويبدو أنه كان أيضــا مختصا بتجهيز البعثــات المتجهة الى بلاد بنت بل وربما كان يشترك فيها أيضا . على أى حال فان صــاحب لقب « المشرف على البحــر الأحمر والمحيط الهنــدى » كان أيضا مسئولا عن الطرق التى كانت تربط البحر الأحمر ووادى النيل وأنه كان على صلة بحكم اقليم طيبة . ووجود هــذه الوظيفة فى فترة متأخرة من حكم البطالمة يدل على اهتمام ملوكهم بتنمية الاتصــالات مع بلاد العرب وما وراءها والتى تأتى متاجرها وسلعها عن طريق البحر الأحمر وذلك بعد أن فقدوا امبراطوريتهم فى بحر ايجــة فى أوائل القرن الثانى ق.م. وهم فى ذلك يتابعون السياسـة التى انتهجها بطلميوس الثــانى . الذى كان قــد خصص فى فلسطين ، عنــدما كان اقليم جوف ســوريا تحت ســيطرته ، موظفــا يحمــل لقب « المشرف على ادارة البخور » . ho epi tês libanotikês

واهتمام البطالمة بالبحر الأحمر وبتجارة بلاد العرب والهنــد بــل ومحاولة الوصول الى تلك البــلاد دون وسطاء ، ابان قوتهم وفى فترة انهيــار حكمهم ليــدل دلالة واضحة على أنهم كانوا ورثة فراعنــة مصر بحــق . ولنــا أن نقول ان نشــاطهم التجــارى والاستكشــافى فى

البحر الأحمر وما وراءه من بحار وأقطار انما كانوا ينتهجون سياسة مصرية تقليدية .

وقد نافس السلوقيون بطالمة مصر على تجارة الهند وبلاد العرب ، وليس هنا مجال الحديث عن علاقة السلوقيين بالهند منذ أيام سلوقس الأول مؤسس دولتهم الذى سار على نهج الاسكندر الأكبر فى استكشاف الخليج (الفارسى) . وقد احتفظ سلوقس بأسطول دائم فى ذلك الخليج، وأنشأ عددا من المستوطنات على طول القسم الأدنى من نهر دجلة وحول منطقة مصبه فى الخليج . وفضلا عن ذلك أقام سلوقس علاقاتطيبة مع الجيرانيين الذين كانوا يقيمون على الشاطىء الشرقى للخليج والذين كان لهم نشاط ملحوظ فى نقل التوابل وسلع الشرق الى دولة السلوقيين. ويتصل بهذا النشاط السلوقى الصراع بين السلوقيين والبطالمة للسيطرة على منطقة جوف سوريا ذات الأهمية الاقتصادية الواضحة والذى استمر حتى عام ١٩٨ ق.م. فى صورة حروب عرفت باسم الحروب السورية ، وذلك لأنه كانت تنتهى اليه الطرق التى تحمل سلع الهند وبلاد العرب من الطيب والبخور وغيرها فلو تحقق لبطالمة مصر السيطرة على اقليم جوف سوريا لتم لهم التحكم فى أكبر قدر من انتاج هذه المواد بعد أن سهلت لهم سيطرتهم على البحر الأحمر اجتذاب تجارة الهند وبلاد العرب . ويكفى أن نشير الى نشاط انطيوخوس الرابع ابيفانيس (١٧٦ — ١٦٤ ق.م.) فى مجال توحيد صلات بلاده مع الهند وبلاد العرب ، فقد قام فى عام ١٦٥ ق.م. بعد أن أرهقه دور الوسيط الذى قام به الفرس والعرب بدراسة للشاطىء الجنوبى ، ولعله أراد أنيبعد الفرس عن الخليج ، ولعل السلوقيين كانوا لايرغبون فى الابحار حول بلاد العرب قادمين من الخليج فى طريقهم الى مدخل البحر الأحمر من الجنوب وان كنا لا نملكالدليل الواضح علىذلك ، والا لعجل ذلكبالصدام مع منافسيهم البطالمة عند مداخل البحر الأحمر الجنوبية كما حدث بالنسبة لمنطقة جوف سوريا . وانما كا نهدف السلوقيين السيطرة على مدخل الخليج منطقة عمان أو على الأقل اقامة مركز تجارى فى اكيلا Acila عند هذا المدخل .

وبعد وفاة أنطيوخوس الرابع فى عام ١٦٤ ق.م. بدأ الانهيار يدب الى امبراطورية السلوقيين وكان عليهم مواجهة خصومهم البارثيين الأقوياء الذن سيطروا تدريجيا على الخليج الفارسى .

وعموما ليس من الحكمة القول ان الاغريق السلوقيين لم يصلوا الى الهند . ولكن من المرجح أنهم عرفوا تلك البلاد وان كانوا لم يذهبوا اليها كثيرا ولم يعرفوا عن الهند أكثر مما عرف منافسوهم البطالمة . ولم يوفق السلوقيون كما لم يوفق البطالمة فى فتح سواحل الهند أمام تجارة الاغريق .

وقد قدمنا أول هذا الحديث ان البطالمة فى اهتمامهم بالبحر الأحمر حددوا لأنفسهم ثلاثة أهداف ، معرفة الطرق الصالحة للملاحة وتأمينها ، والكشف عن الأماكن الصالحة لانشاء الموانى والمرافىء والاهتمام بالطرق التى تؤدى من وادى النيل الى البحر الأحمر ، وفى اعتقادنا أنهم وفقوا الى تحقيق ماهو أكثر من ذلك . فقد نجحوا فى الوصول الى خارج هذا البحر للابحار الى بلاد العرب والهند مباشرة دون وسطاء ولو أنهم لم يجنوا ثمرة جهدهم لأن دولتهم كانت تدخل فى دور الأفول .

واذا كان ظهور روما على مسرح الأحداث فى الشرق بزعامة اغسطس قد وجه الاهتمام مرة أخرى بتجارة الشرق والاتصال المباشر ببلاد العرب والهند فانه ينبغى الا نغفل ما بذله البطالمة من جهد صادق وما وفقوا اليه من استغلال كل الامكانيات المادية والعلمية والبشرية التى كانت متاحة لهم فى فترة قوتهم وفترة ضعفهم .

اضافات وتعليقات

كان هرووت يطلق على البحر الأحمر أحيانا اسم الخليج العربى Arabios kolpos وأحيانا اسم البحر الأروثرى Erythre Thalassa وهو اسم كان يستعمله أيضا عند الحديث عن بحر العرب . ويبدو أنه لم يكن يعرف خليج العقبة ولم يكتمل له التصور الكامل لخليج السويس . وكان البحر الأحمر فى تصوره لا يزيد فى اتساعه فى أى منطقة من مناطقه عن اتساع خليج السويس . وظل اتساع البحر الأحمر أمرا يجهله الملاحون

لأنهم كانوا لا يبتعدون عن الساحل الأفريقى أثناء ابحارهم . أنظر هردوت، الكتاب الثانى فقرة ٨ ، ١١ ، ١٠٢ . وراجع :

J. Ball, Egypt. inthe Classical Geographers, Ceuirs, 1942, P. 13 ff.

ومنذ وقت باكر اعتاد الاغريق اطلاق كلمـــة **erythra** بمعنى أحمر على البحر الضيق بين مصر وبلاد العـــرب . ولكن مع مضى الوقت شمل اسم البحر الأحمر ، أيضا بحر العرب والخليج الفارسى . وفى القرن الخامس ق. م. تحدث الشاعر الاغريقى بنداروس فى البوثية الرابعـــة عن Pontos Erythros بوصفه البحر الأحمر فقط . ولكن ديودروس الصقلى (القـــرن الأول ق. م.) عاد فأطلق اسم البحـــر الأروثرى على الخليج الفـــارسى اذ ذكر أن نهـــر الفـــرات يصب فى البحـــر الأروثرى Diod II. II. XIX, 100 وكلمة أروثرا erythra تعنى الحمرة أو اللون الأحمر

وقـــد رفض الجغرافى الاسكندرى أجاثارخيدس الكنيدى (النصف الثـــانى من القرن الثانى ق. م.) فى ما كتبه عن البحر الأحمر De Mare Erythraeo Muller, Geog. Gr. Minl ما ذكره البعض من أن صفة الحمرة انمـــا جاءت من انعكاس لون الجبال الأحمـــر على الساحل الغربى للبحر على مياهه والتى تعطى لون الفحم المتوهج ومن اللون الأحمر الباهت للرمال hypery thrai على الساحل الشرقى . ورفض أيضا تفسير اللون الأحمر بأنه نتيجة لانعكاس أشعة الشمس الحمراء لحظـــة شروقها على ميـــاه البحر . والغريب أنه سلم بقصة رواها له فى أثينا فارسى متأغرق يدعى بوكسـوس Boxos وخلاصتها أن فارسيا يدعى أروثراس Erythras فقد فى البحر قطيعا من الخيـــل . وفى بحثه عن القطيع وجـــد جزيرة من الرمال أقام بهـــا مدينة وتجمع فيه بعض المهاجرين وأقام مزيدا من المواطن على الجزر الرملية الأخرى فذاع صيته واستحق أن يطلق اسمه على البحر . ورفض أسطورة رددها دينياس Deinias مؤلف Argolica من أن برسيوس Perseos أعطى اسم أحـــد أبنائه برسيس Perses الى بلاد فارس فى حين أنه أعطى اسم ابنه الآخـــر أروثراس Erythras للبحر . راجع :

P. M. Fraser, Ptolemaic Alexandria, Oxford, 1972, vol. P. 540 f., vol. il, Note No. 167 P. 774 f., M. Carys E. H. Warmington, The Ancient Explorers, Pelican Book, 1963, P. 73 ff.

ونضيف الى ما تقدم رأيا طريفا يجعل صفة اللون الأحمر مأخوذة من اسم حمير بطل الحميريين الذين سيطروا على جنوب بلاد العرب أنظـــر المرجع الأخير ص ٧٥ كما وأن بعض الاغريق

نسبوا اللون الى الحمرة التى اكتسبتها جلود الفينيقيين التى تعرضت لأشعة الشمس قوية التأثير عندما استقروا فى الخليج الفارسى وانتشروا على شواطىء البحر العربى وذلك قبل عام ٦٥٠ ق. م. راجع المرجع السابق ص ٧٤ ، ٧٦ وحاشيته ص ٢٦١ . وقد كان للفينيقيين منذ عهد الملك داود ، ان لم يكن قبل ذلك على اتصال دائم منتظم مع المعينيين والسبأيين فى جنوب بلاد العرب ومع أوفير Ophir التي ربما كان اسمها العربى القديم (عفرة) ، ويقصد بها اسما شاملا لساحل شرق أفريقيا وسواحل بلاد العرب الجنوبية راجع : محمد بيومى مهران ، دراسات فى تاريخ العرب القديم ، الرياض ، ١٩٧٧ ص ١٠٤ ، وللمؤلف نفسه ، اسرائيل ، القاهرة ١٩٧٣ ص ٤٤٤ وما يليها .

اهتمام الفراعنة بارتياد البحر الأحمر : المشهور لدينا بعثة الملكة حتشبسوت الى بلاد بونت والتى سجلت مناظرها على جدران معبد الدير البحرى فى طيبة والتى تصور سفن البعثة وهى راسية على رصيف طيبة محملة بأشجار البخور والتوابل . من أحدث الدراسات :

Abdel - Aziz Saleh, "Some Problems Relating to the PWENT Reliefs at Deir El - Bahri," JEA, vol. 58, 1972, PP. 140 - 153.

الا أن هناك من الشواهد ما يدل على رأى البعض ، على وجود اتصال بين مصر وسومر فى العراق عن طريق البحر وذلك قبل ظهور أى قوة تهدد هذا الاتصال على الساحل العربى .

وكان المصريون ينطلقون فى عهد الدولة القديمة من ميناء ساو Sauu الى بلاد بونت (الصومال فيما يلى غرب رأس جاردافوى وربما ساحل اليمن أيضا) وأرض الاله (جنوب غرب بلاد العرب) . وقد زار هذه المنطقة للمرة الأولى سحورع من فراعنة الأسرة الخامسة راجع M. Cary & E. H. Warmington, op. cit. P. 75 ، عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم الجزء الأول ، مصر والعراق ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٢٨ . وعاد الاهتمام بالبحر الأحمر والوصول الى بلاد بونت فى عهد الدولة الوسطى . لوحة خنت . خاتى . ور من عصر الملك امنمحات الثانى تسجل عودة بعثة تجارية من نبت كانت فى حراسة قوات عسكرية الى مرسى جاسوس . وفى عهد الدولة الوسطى أيضا ومن مرسى جواسيس كانت الحملات تخرج الى ز بيبا د

أن — بونت) أو منـاجم بونت . وأشـير فى لوحة أخرى الى القاضى وحاكم مقاطعـة المحيط ، ولعله كان لقب حاكم منطقـة الصـحراء الشرقية التى يدخل فى نطاقها ساحل البحر الأحمر . راجع : عبد المنعم عبد الحليم سيد ، الكشف عن موقع ميناء الأسرة الثانية عشرة الفرعونية فى منطقة وادى جواسيس على ساحل البحر الأحمر، الاسكندرية ١٩٧٨، ص ٨ وما يليها ، وعبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٥٨ ومايليها. ويظن البعض أن المصريين فى عهـد الدولة الوسطى وصلوا أيضا الى جزيرة سوقطرة. راجع : M. Carys E. H. Warmington, op. cit., P. 75.

أما ماذكره هردوت ، الكتاب الثـانى فقرة ١٠٢ ، عن حملة للملك سنوسرت أو سنوسرة الثالث من ملوك هـذه الأسرة لاخضاع السكان على سواحل بحر أروثرى (البحر الأحمر) فان ذلك أمر غير مؤكـد . راجع ، محمد صقر خفاجة ، واحمد بدوى ، هردوت يتحدث عن مصر ، القـاهرة ١٩٦٦ ، حاشية ٢ ص ٢١٧ ، وكان مصريو الدولة الوسـطى يسافرون أحيانا الى سيناء عن طريق البحر راجع : عبد المنعم عبد الحليم، المرجع السابق ص ٥٤ .

ولابد وأن يكون الاهتمام بالبحر الأحمر قـد تجـدد فى عهد الدولة الحديثة ، وبصفة خاصـة فى عهـد الملكة حتشبسوت كما أسلفنا ، وتثور بين المؤرخين مسألة القناة التى تنسب الى الملك نخـاو من ملوك الأسرة السادسة والعشرين بداية العمل فى حفرها وأن الملك دارا الأول الفارسى حاول اتمامها .

ويتساءل المؤرخون عن الطريق الذى سلكته بعثة الملكة حتشبسوت فى ذهابها الى بلاد بنت والطريق الذى عادت منه لأن صور الدير البحرى انما تصـور السفن راسية على رصيف طيبة ، فقال البعض بوجود طريق مائى كان يربط الفرع الشرقى من الدلتا ، وهو الفرع البوبسـطى بالبحر الأحمر ، وهنـاك من يرجح أن ثمة قنـاة كانت تربط النيل بالبحر الأحمر عبر وادى طميلات وبحيرة التمساح . فاذا سلمنا بوجود قناة ما فالتصور هو أن بعثة الملكة حتشبسوت سلكت طـريق البحـر الأحمـر من خليج السويس . واذا لم تكن القناة موجودة فهـل معنى ذلك أن السفن كانت تبنى فى قفط ثم تحمل مفككة الى ميناء مرسى جواسيس مثلا حيث أعيـد بناؤها ، وانها ولدى عودتها فكت وحملت مرة أخرى مع السلع التى أتت بها الى شاطىء النيل وهذا ما كان يرجح حدوثه فى عهد الدولة الوسطى

(راجع : عبد المنعم عبد الحليم سيد المرجع السابق ، ص ٦٦ وما يليها)، راجع : سليم حسن ، مصر القديمة ج ١٣ ص ٦٩٥ وما يليها حيث ناقش قصة القناة من أقدم العهود حتى نهاية القرن التاسع عشر . وراجع المناقشة الممتعة للأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح فى :

Some Problems Relating to the PWENT Reliefs at Deir El - Bahri, JEA. vol. 58, 1972, P. 157.

وراجع : محمد صقر خفاجة ، وأحمد بدوى ، المرجع السابق حاشية ٢ ص ٢٩٠ وراجع أيضا :

G. Posner, "Le Canal Du Nil à la Mer Rouge avant Les Ptolémées," Chron. d'Egypte, 13, 1938, PP. 259 - 273.

وعن قناة نخاو التى لم تتم راجع هردوت ، الكتاب الثانى ، فقرة ١٥٨ ، ١٥٩ ، وفى الفقرة الأخيرة تحدث هردوت عن بناء نخاو لسفن فى بحر أروثرى . هل معنى هذا وجود ترسانة لبناء السفن فى أحد موانى البحر الأحمر ، وليكن بناء مرسى جواسيس ، فتكون بعثة الملكة حتشبسوت قد بدأت منه ، وعادت اليه ، ويكون ما صوره الفنان من رسو سفنها على رصيف طيبة كان محض خيال . راجع : عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ص ١٥٧ .

وعن القناة التى حفرها الملك دارا الأول الفارسى ، راجع هردوت، الكتاب الثانى فقرة ١٥٨ ، ومحمد صقر خفاجة ، وأحمد بدوى ، المرجع السابق ص ٢٩٠ ،

A. T. Olmstead, History. of the Persian Empire (Phoenix Books), Chicago, 1943, P. 145.

عن الشعوب التى كانت على الساحل العربى للبحر الأحمر راجع : جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، عشرة أجزاء بيروت ١٩٦٨ — ١٩٧١ ؛ لطفى عبد الوهاب يحيى ، العرب فى العصور القديمة، بيروت ١٩٧٩ ؛ محمد بيومى مهران ، دراسات فى تاريخ العرب القديم ، الرياض ، ١٩٧٧ ،

P. M. Costa, The Pre - Islamic Antiquities at the Yenen National Maseum, L'Erma, Roma, 1978, P. 18 ff., Abdel - Aziz Saleh, "The

Gnbtyw of Thutmosis III's Annals and the South Arabian Geb (b) anitae of the Classical Writers," BIFAO, t. LXXII, PP. 245 - 262, idem, An Open Question on Intermediaries in the Incense Trade during the Pharaonic Times", Orientalia, vol. 42, Fasc. 3, 1973, PP. 370 - 382,

عن وجود نقوش عربية بمصر . راجع :

M. I. Rostovtzeff, SEHHW, P. 702, 1492, P.M. Fraser op. cit. vol. II. P. 310 No. 381.

عن جهود البطالمة فى تنشيط عمليات الاستكشاف والتجارة فى البحر الأحمر وانشاء الموانى . راجع : ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ج ٣ ، ص ٤١ ، القاهرة ١٩٧٦ ص ٤٥ وما يليها ، ج ٤ ص ٢٦٢ وما يليها .

W.W. Tarn, Hellenistic Civilisation, 3rded. (University Paperbacks), Lond., 1966, P. 239, P. M. Fraser, op. cit. vol. I,P. 176, A. Bernand, Les Inscriptions Grecques De Philae, Paris, 1969, Tome I, M. Cary, E. H. Warmington, op. cit. PP. 87 - 92 & Notes P. 261 ff.

اهتم بطليوس الأول بالملاحة فى البحر الأحمر واستكشاف سواحله وبنى سفنا كثيرة ، وأرسل القائد البحرى فيلون لاستكشاف سواحله ويبدو أنه اهتم بالساحل الأفريقى . راجع : Pliny, vii, 208, XXXVII, 108

وقــد كتب تفاصيل رحلته التى نقل عنهـا علمـاء الاسكندرية وخاصـة اراتوشينس . ونقل عنه فيما بعد استرابون وبلينى .

وقــد اهتم كذلك الملك بطلميوس الثانى فيلادفوس بتنمية العلاقات التجارية مع عرب اليمن السبأيين واهتم أيضا بعلاقات مصر مع الصومال ومحاولة الوصول الى أفريقيا عن طريق البحر الأحمر . وحتى تنجح خططه فى هــذه المنطقة أنشأ عددا من الموانى التجارية على طول ساحل البحر الأحمر من السويس وحتى رأس بانياس مع انشاء طرق تربط بينها وبين النيل ، وأرسل أريستون حوالى عام ٢٨٠ ق. م. للتعرف على شواطىء بلاد العرب من أيلة النبطية (على خليج العقبة) حتى بوغاز باب المندب . وذلك قبل أن يرسل أسـاطيله الى هــذه Diod. III, 42, 1 السواحل .

وأرسل Satyrus لارتيــاد ســواحل منــاطق ســاكنى الكهوف Trogodytes على الساحل الأفريقى بهدف انشاء محطات مناسبة ينطلق منهــا الصيادون لاصطياد الفيلة . وأرسل فيثاغوراس الذى ارتاد بعض الجزر المتاخمة للساحل العربى . وقــد اضطر فيــلادلفوس الى قتــال القراصنة الأنباط حفاظا على تجارة مصر فى البخور والتوابل . وفى الوقت نفسه اهتم باستكشاف أرض القرفة أى شــاطىء جاردافوى وأكمل خلفه بطلميوس الثالث ايوارجيتيس الأول هــذا الكشف الهــام . وواصــل هــذا الملك مقاتلة القراصنة والاهتمام بانشاء محطات لصيد الفيلة . وجعل من صيد الفيلة عملا عسكريا منظما . وأسهم القادة العسكريون فى انشاء محطات الصيد كان من بينهم ليخاس Lichas وخاريمورتوس Charimortus وقد أطلقوا أسماءهم على المناطق التى استكشفوها Strabo XVI OGI. 86

وتعرف من أحــد النقــوش أن ليخــاس أرسل مرة أخــرى على عهــد بطلميوس الرابع اهداء الى الالهين فيلوباتور وسيرابيس وايزيس من ليخاس بن بيرهوس الأكارنانى الذى أرسل ليقود القوات العاملة فى أرض الفيلة والذى أعطى القيادة للمرة الثانية OGI. I. 82, = SB. 8866,
P. M. Fraser, op. cit. vol. I. P. 179, vol. II. P. 308.

وفى عهد هــذا الملك كان الطريق الى عدن قــد أصبح معروفا ولكن بسفن البطالمة لم تكن قــد تجاوزت بوغاز باب المنــدب الى ماوراءه وذلك لأن السبأيين لم يمكنوا البطالمة من انتزاع تجارة البخور من أيديهم . وفى القرن الثانى وفى عهد الملك بطلميوس ايوارجيتيس الثانى كان الملاحون والتجار قــد نجحوا فى التعرف على الشعوب المطلة على البحر الأحمــر من جانبين ولعلهم عرفوا أيضا الطــريق الى الخــروج من باب المنــدب M. Cary & E. H. Warmington, op. cit. P. 90. وعن الأشخاص الخمسة الذين اقترضوا من ايطالى لتبادل التجارة مع تجــار جنوب بلاد العرب

SB III, 7196, R. Bogaret, "Banquiers, Courtiers et Pret maritimes à Athens et à Alexandrie," Chron. d'Egypte, tome XL No. 79, 1965 PP. 140 - 156.

عن حماية الملاحة والتجارة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى انظــر على سبيل المثال : OGI, I, 186 وقد أعيد نشره حديثا : راجع :
A. Bernand, op. cit, tome I, P. 306, P. 311, No. 53.

والنقشان من عهد بطلميوس نيوس ديونيسوس أوليتيس ويتحدث النقشان عن كاليماخوس ووظيفته :

Ho Syngenes kai e'pistrategos kai strategos tes Indikes kaï Erythras Tha lases.

وقد ورد ذكر مواد البخــور والعطور والتوابل المستوردة من بلاد العرب والهند فى أوراق البردى البطالى . أنظر :

M. G. Raschke, Papyrological Evidence for Proiemaic and Roman Trade With India, M. K. Abdelalim, Alexandrian Trade in Aromatics in the Graeco - Roman Times, (M. A. Thesis), Alexandria University, 1952.

مصطفى كمال عبد العليم

٣

الرومان والبحر الأحمر

الأستاذ الدكتور سيد أحمد على الناصرى

كلية الآداب . جامعة القاهرة وجامعة الرياض

وصل الرومان الى مياه البحر الأحمر لأول مرة ، وبدأوا يدخلون ميدان السباق فيه بهدف فرض هيبة الأمبراطورية السياسية والاقتصادية وتطبيق « السلام الرومانى » بالسلم والحرب ، وبدأت فى اخضاع القوى القائمة فى حوض البحر الأحمر لسلطانها واحدة تلو الأخرى . وظلت السيادة الرومانية لا تنافس حتى مطلع القرن الثالث الميلادى عندما بدأت الامبراطورية تضعف من الداخل . بينما حدثت تطورات سياسية فى البحر الأحمر مثل ظهور دولة أكسوم فى الحبشة كمنافس جديد وظهور الدولة الساسانية فى فارس والتى عملت على طرد الرومان من الشرق كله ، ولما انقسمت الأمبراطورية الرومانية الى شطرين بيزنطة فى الشرق وروما فى الغرب ، حاولت بيزنطة احياء النفوذ الرومانى فى البحر الأحمر على أساس استخدام نفوذها كمركز للعقيدة المسيحية ، وجعلت دولة أكسوم المسيحية قاعدتها بينما انتشر فى اليمن والجنوب الغربى حركة تهويد بعد هجرة عدد كبير من اليهود من فلسطين الى جنوب الجزيرة والى الحجاز ، وتعاطف الفرس مع اليمنيين والعرب المتهودين ردا على تعاطف الأكسوميين مع بيزنطة ، ومن ثم تحول الصراع الدولى بين القوتين الكبيرتين فارس وبيزنطة في القرنين الخامس والسادس الميلاديين الى صراع دينى بين اليهودية والمسيحية ، الى أن وضع الاسلام لذلك حدا ، وبرزت قوته لتفرض نفوذها على البحر الأحمر كله .

تلك نبذة تاريخية منذ مجيء الرومان الى مصر ولنبدأ الآن فى معالجتها بشيء من التفصيل والتحليل .

بدأ اقتراب الرومان من البحر الأحمر تدريجيا بعد تدمير قرطاجة وكورنثة عام ١٤٦ ق. م. وتحقيق سيادتهم الكاملة على البحر المتوسط وبدأت روما بعدها تتعامل مع الممالك الهللينستية وتتطلع لنشر نفوذها فى دويلات شرق البحر المتوسط خاصة فى مصر همزة الوصل بين البحرين .

غير أنه لم يكن للرومان فى البداية مخطط سياسى منظم من أجل السيطرة على البحر الأحمر ، وقد بدأ تعرفهم على هذه المنطقة أثناء حملة لوكوللوس فى أسيا الصغرى فى القرن الأخير ق.م. ، ثم حروب سولا فى الشرق ووصول بومبى الى سوريا وضمها للرومان ، ثم التغلغل التدريجى للنفوذ الرومانى فى مصر حيث كانت تجارة البحر الأحمر تمر عبرها ، كل ذلك أدى الى تعرف الرومان على بعض طرق الحياة الهللينستية والشرقية التى أعجبوا بها خاصة بعد تزايد موجة الرخاء فى روما نتيجة للغنائم والضرائب التى دفعتها الشعوب الشرقية المغلوبة ، ومن ثم أدى ذلك الى تغيير كامل فى حياة الرومان ، اذ بدأت البساطة القديمة تختفى ، وحل محلها تسابق على سلع الشرق وكمالياته وترفه ، وتطورت أذواقهم سواء فى الطعام أو الملبس ، أو حتى فى الشعر والأدب . وبدأت التوابل الشرقية التى كانت تعتبر قبل ذلك شيئا مقدسا باهظ التكاليف تصل الى الرومان عبر أسواق الاسكندرية ، وأصبح الطعام الرومانى يعتمد على هذه التوابل لدرجة انه لأول مرة يضع متخصص مؤلفا عن فن الطهى عند الرومان وهو مؤلف أبيكيوس Apicius الشهير والذى أصبح عماد المطابخ الرومانية (1) حتى القرن الثالث الميلادى ، وكنتيجة أيضا لوصول العطارة الشرقية ازدهرت مدرسة العقاقير والطب وبرز أطباء مشهورون يضعون التذاكر العلاجية التى تقوم على الأعشاب المستوردة من الشرق — كما انعكس ذلك حتى على الأدب اللاتينى نفسه اذ نجد فى مسرحيات

---

(1) Apicius, De Arte Conquinarie : J. I. Miller, The Spice Trade of The Roman Empire 29 B. C. to A. D. 641 Oxford The Clarendon Press, 1969, P. 10 note 2.

بلاوتوس Plautus وتيرينتيوس تلميحات الى أنواع البهـارات والتوابل بأسمائها الشرقية الغربية .

ولم يكن الرومان بالشعب المغامر المغرم بالخيال وحب الاستكشاف، بل كانوا شعبا واقعيا يتميز بالعبقرية العسكرية والقدرة الفائقة على خلق ادارة علمية منظمة وقوانين معقدة هى التى خلقت الامبراطورية وحققت « السلام الرومانى » سـواء فى ايطاليا أو فى الشرق الأوسـط ، وفى ظلال هذا السلام ترعرعت التجارة العالمية . ولقد ساهم أباطرة الرومان بمجهودات كبيرة من أجل خلق هيبة سياسية ،وثقة تعاملية فى الامبراطورية خاصة عن طريق عملتها كما حرصت روما على اظهـار حسن النوايا مع الأمم الأجنبية مادامت صـديقة وحليفة . وبفضـل حكمة وذكاء واخلاص أباطرتهم ، ونشاط تجارهم وحرصهم على سمعة بلادهم وتعاملهم الأمين مع غيرهم من الشعوب ، نجح الرومان فى بنـاء هيبة لامبراطوريتهم فى الشرق ، وحققت لهم الثقة والاحترام فظلت قوية فى القرن الثالث الميلادى.

وبفتح أغسطس لمصر وبقيام « السـلام الرومانى » الذى وضـع اساسه أغسطس ساد بين الرومان ميل شـديد الى الـكسب المـادى بلا حدود (٢) مستغلين النظام السياسى الجديد ، وكان الدافع لتنشيط التجارة فى البحر الأحمر عقب الاستيلاء على مصر دافعا ماديا بحتا، وبعكس الحال أيام البطالـة حيث كان للرومانسـية والخيـال العلمى وحب المعرفـة والاكتشاف دور كبير فى ارتيـاد مجاهل ذلك البحر ، ولعل الذى ساعد على ذلك هو ازدياد تدفق الثراء على روما بعد نهب خزائن الملكة كليوباترا، فضلا عن استغلال مناجم الفضـة والذهب فى اسبانيا مما خلق عنـد الرومان روحا جـديدة تتمثل فى الاقبال على الترف والميل الى الاستهلاك الـكمالى للسلع الشرقيـة مثل العطور والأحجـار الـكريمة والحـرير والتوابل .

وبالرغم من هذا لم تكن الامبراطورية الرومانيـة تميل الى احتكار

---

(2) M. Cary & ,E. H. Warmington, The Ancient Explorers (Regised edition published in Plican Books), 1964, P. 94 F.

التجارة لنفسها كما فعلت مصر فى عهد ملوك البطالمة ، بل آثروا ترك المشروعات حرة لمن يريد ، ولكنهم كانوا يدعمون ويحمون التجارةخاصة الشرقية سواء بالنفوذ أو برأس المال ، اذ كانت الدولة ممثلة فى القانون الرومانى تضمن معاملات المواطن الرومانى أو المتمتع بالجنسية الرومانية ، وهذا أعطى الثقة للتجار الشرقيين أن يشركوا معهم رؤوس أموال رومانية ، وكانت السفينة التجارية عادة ملكا لصاحب رأس المال الرومانى الذى كان يؤجرها أو يوكل أمرها الى تاجر سكندرى أو شرقى Mercator عادة له خبرة بتجارة الشرق والطريق البحرى الى الهند ، أما طاقم بحارة السفينة فكانوا عادة من اغريق مصر المتمصرين الذين يعرفون موانىء مصر جيدا (٣) . وفى ظل هذه الظروف الجديدة (٤) تفتحت روح العمل والاستكشاف البحرى من أجل الكسب ، وشهد البحرالأحمر نشاطا تجاريا محموما ، وعلى حد قول سينيكا « ان الرغبة فى الكسب قد دفعت الانسان الى الترحال الى كل أرض وجعلته يجوب كل بحر بحثا عن الكسب » (٥) ، لأن سطوة الامبراطورية الرومانية كما يقول بلينى الأكبر « قد حققت للعالم الوحدة ، كما يجب أن يتفق الجميع أن الحياة الانسانية قد استفادت كثيرا من جراء الاتصال بالعالم الذى أصبح سهلا وكذلك من الاستمتاع بثمار السلام » (٦) .

هكذا بقيام الامبراطورية وباستيلائها على مصر ورثت روما مشروعات الفراعنة والبطالمة فى البحر الأحمر ، وأصبح للامبراطورية سياسة محددة مع دول البحر الأحمر ، فقد رأى أغسطس ضرورة تحويل طريق التجارة فى البحر الأحمر الى الموانى المصرية مثل بيرينيكى (الهرلس) ، وميوس هورموس (أبو شعر القبلى) وأرسينوى (السويس) ووجدت الامبراطورية نفسها وهى تدخل بثقل مجال الصراع من أجل تحقيق سيادتها الكاملة على البحر الأحمر « فمنذ اللحظة الأولى بعد فتح مصر بدأ عهد

---

(3) Miller, Op. cit, P. 190.

(4) M. P. Charlesworth, Trade - Routes and Commerce of The Roman Empire, George Olms, Verlagsbuchnandlung, Hildesheim, 1961, P. 224.

(5) Seneca, ad Paul. 2.

(6) Pliny Historia Naturalis, XTV, 2.

جديد فى تاريخ البحر الأحمر والتجارة مع الهند ، اذ « فرض السلام الرومانى » فى البحر الأحمر ، وشرعت الامبراطورية فى تطهير ذلك البحر من القراصنة الذين استحفل خطرهم منذ تدهور السلطة البطلمية ، وعندما كتب مفاخرا فى سجل أعماله « لقد طهرت البحر من القراصنة » (٧) فانه كان يعنى البحرين الأبيض والأحمر ، ولكى يحقق ذلك وجد أغسطس أنه من المحتم عليه أن يحقق السيادة البحرية وأن يبنى أسطولا من السفن التجارية بل وأن يمتلك قواعد بحرية ثابتة تكون فى خدمة الخط الملاحى بين مصر والهند .

كانت استراتيجية أوكتافيوس أغسطس فى البحر الأحمر تقوم على تشديد القبضة على مصر لأنها همزة الوصل بين البحرين الأبيض والأحمر ، فضلا عن أن مصر تمتلك مساحات شاسعة من سواحل البحر الأحمر ، ولقد سعى فراعنتها منذ الأسرة الخامسة الى ارتياد البحر الأحمر خاصة أن كان لمصر علاقات قوية مع الساحل الأفريقى ، ولهذا شقوا طرقا فى الصحراء الشرقيـة تربط مابين الموانىء النيل خاصة ميناء قفط الشهير ، بل حاول أحد فراعنة الأسرة السادسة والعشرين وهو نيخو (نخاو) ٦١٠ — ٥٩٥ ق.م أن يشق قناة تربط بين النيل وخليج السويس تبدأ من تل بسطة (Boubestis) محافظة الشرقية مارة بمدينة بيثوم القديمة (تل المسخوطة) وعبر وادى الطميلات فالبحيرات المرة فخليج السويس (٨) ، ولقد ذكر هيرودت أن نخاو هجر المشروع بناء على نبوءة بعد أن فقد ١٢٠,٠٠٠ عامل ، وعندما احتل الفرس مصر عام ٥٢٥ ق.م . قام الملك دارا باكمال شق القناة التى بدأها نخاو ولم يخرج عما رسمه ، الفرعون المصرى (٩) ، ولما قامت أسرة البطالمة فى مصر أدرك بطليموس الثانى أهمية هذه القناة فأعاد حفرها كما نفهم من لوحة بيثوم الشهيرة والتى ترجع الى العام السادس عشر من حكمه . وقد كان من الطبيعى أن

(7) Charlesworth, Op. cit, P. 227.

(8) Alan B. LLoyd, "Necho and the Red Sea : Some Considerations", Journal of Egyptian Archaeology, Vol 63 (1977) PP. 142 - 155.

(9) Posener, "Le Canal du Nil a'la Mer rouge avant les Ptolemees, Chronique d'Egypte, XIII (1938), P,

يعيد الامبراطور أغسطس تطهير هذه القنـــاة بعد أن أهملت فى أواخر عصر البطالمة حتى يعطى فرصـــة لتجارة البحر الأحمر أن تجد طريقهـــا الى الاسكندرية عبر النيل ، غير أن استخدام هـــذه القنـــاة في العصر الرومانى أصبح أقل بكثير من استخدام طرق القوافل فى الصحراءالشرقية خاصة طريق ميوس هورموس — قفط .

ولهذا اعتنى الامبراطور أغسطس بمدينة «قفط» لأنها كانتمستودع تجميع وتوزيع البضائع الآتية من ميناء ميوس هورموس وميناء بيرينيكى، فأعاد بنـــاءها ، وطور ميناءها كذلك اهتم أغسطس بمنطقة ميناء بيرينيكى لوجود عدد من منـــاجم الذهب ومحاجر الرخام بالقـــرب منها ، وأمر بأن توضع تحت أمره ضـــابط يحمل لقب قائد بيرينيكى أو قائد جبل بيرينيكى أو قائد الحاميات وجبل بيرينيكى وكان هذا القائد يتولى الى جانب ادارة المنطقة والاشراف على المنـــاجم والمحـــاجر بمساعدة مشرف يتولى قيادة الحاميات التي وضعت لحراسة هذه المنـــاجم ولتـــأمين طريق القوافل بين البحر الأحمر والنيل ، والعنـــاية ببنـــاء صهاريج الميـــاه وحفـــر الآبار على جانبيه (١٠) .

وكما نرى بدأ أغسطس سياسته ازاء البحر الأحمر باستغلال موقع مصر الاستراتيجى كشريك كبير بين البلدان التى تقع على سواحله ، وكان هـــدفه هو جنى أكبر دخل مادى للامبراطورية من الضرائب والمـــكوس التى فرضها على تجارة المرور من الشرق الى الغرب عبر الاسكندريةالتى أصبحت مستودع التوزيع الأول لبضـــائع الشرق فى البحـــر المتوســـط حيث ازدحمت أسواقها بالبضـــائع والسلع الشرقيـــة مثل الحرير والقطن والعـــاج والجلود والتوابل والعطـــارة واللؤلؤ والمـــاس بل والعبيـــد الأفريقيين ، ومن أشهر التوابل الشرقية التى كان عليها طلب شـــديد فى الغرب ، الفلفل الأسود والقرفة والحنظل والزنجبيل والذى كانيصدر الى روما (١١) وكذلك الـــكندر والطيب والبخور والقواقع الحمراء المستخدمة

---

(١٠) عبد اللطيف أحمد على — مصر والامبراطورية الرومانيـــة فى ضوء الأوراق البردية ، ١٩٧١ ، ص ٤٥ — ٤٦ .

(١١) Diossofides, 11, 160, Charlesworth, op. cit, P. 66.

عن أسماء هذه المنتجاتوالسلع كما ذكرت فى الوثائقالعربية، أنظر : دكتور محمد يوسف « علاقات العرب التجارية بالهند منذ أقـــدم العصور الى القرن الرابع الهجرى » مجلة كلية الآداب — مجلد ١٥ جزء أول ١٩٥٣ ، ص ٢٧ — ٣٥ .

فى الصباغة. لقد راجت التجارة فى الاسكندرية بعد الفتح الرومانى رواجا منقطع النظير ، وكان هذا يعنى أيضا دخلا وفيرا للامبراطورية من ضرائب المكوس والجمارك التى كانت تصل أحيانا الى ٢٠٪ .

ولقد قام بترونيوس ثالث الولاة فى مصر باجراءات أمنية هامة ضد النوبيين فى الجنوب ، وكان هدفه من ذلك اجبارهم على عدم ازعاج الحكم الرومانى لمصر وابعادهم عن التعرض لتجارة البحر الأحمر خاصة فى المنطقة الساحلية الموازية لبلاد النوبة .

ولقد كشف المسح الأثرى لصحراء مصر الشرقية عن مدى الاهتمام الكبير الذى أبداه الرومان لهذه الصحراء الغنية بمحاجزها ومعادنها، ولقد لاحظ الأثريون أن الطرق الرومانية فى الصحراء الشرقية هى نفس الطرق التى بدأها الفراعنة وطورها البطالمة (١٢) ، وهى عبارة عن مدقات صغيرة غير معبدة ، وعلى مسافات معينة أقيمت علامات لتحديد المسافات ومحطات لمياه الشرب ، وهى ذات نظام واحد عبارة عن بناء مربع له بوابة يعلوها برجان للحراسة (١٣) ، ولقد أثبتت الأبحاث الأثرية أن طريق ميوس هورموس — قفط كان من أهم طرق نقل بضاعة البحر الأحمر خلال عصر الرومان ، بل كان لهذا الطريق طريق آخر ممهد صغير يربط بينه وبين محاجر جبل كلاوديوس ، حيث كانت العربات تحمل الرخام والأحجار المنحوتة عبر هذا الطريق المعبد الى الطريق غير المعبد والذى كانت الجمال أهم وسائل النقل لاتحتاج الى طريق ممهد ، ويتراوح عرض ذلك الطريق مابين ١٥ و٣٥ ياردة ، وقد قدر استرابون طوله بمسيرة ستة أو سبعة أيام (١٤) ، كما نوه بلينى بصهاريج المياه ومحطات الاستراحة للتجار

(12) G. W. Murry "Romen Roads and Stations in the Eastern Desert of Egypt", Journal of Egyptian Archaeology, 21. 11, P. 139.

(13) D. Meredith, "Romains in the Eastern Desert", Journal of Egyptian Archaeology, vol 38 (1952), P. 101, and J. E. A., Vol 39 (1953) P. 95., Charlesworth, Op. cit, P. 61 FF.

(14) Strabo XVIII, 1, 26.

ونقاط الحراسة (١٥) ، بل عثر على اطلال معابد ترجع لعصور البطالمة والرومان مثل معبد سرابيس مما يدل على أن هذه المنطقة كانت عامرة بالحركة والتجارة (١٦) ، وكانت المحطة التجارية فى ميوس هوموس ذات بناء محصن بأبراج مثل القلاع تماما وبجوارها معبد صغير ، وهذا البناء يرجع فى الأصل الى عصر البطالمة ، لكن حجمه زاد فى عصر الرومان. كما كان هناك طريق يبدأ من ميناء بيرينيكى جنوبا ويتجه الى قفط. وقبل دخول قفط كان هذا الطريق يلتقى بالطريق القادم من ميوس هورموس. ويرجع تأسيس ميناء بيرينيكى الى عصر بطليموس الثانى وهو يقع على مسيرة أحد عشر يوما من قفط ، وكانت بيرنيكى الميناء الرئيسى أيام البطالمة لكن الرومان أدركوا بعدها النسبى عن النيل ووعورة الكثبان الرملية عند مداخلها وكثرة هبوب العواصف الرملية عليها ، ففضلوا طريق ميوس هورموس قفط والذى قدر طوله بمسيرة سبعة أيام ، وهكذا كان ميناءا بيرينيكى وبيوس هورموس من اهم الموانىء التى استخدمت فى الفترة مابين ٦ — ٦٢ م . ونظرا لقلة الاشارة فى العصر الرومانى الى مينائى « ليوكوس ليمن » وفيلوتيرلس التابعين للادارة العسكرية فى طيبة فيرجح أن استخدامهما قد قل بدرجة كبيرة بالرغم من أن مناجم الذهب بالقرب من فيلوتيراس لم تتوقف منذ عصر اغسطس حتى عصر انطونينوس . وكان هناك طريق يربط بين فيلوتيراس ومدينة كاينوبوليس Kainopolis (قنا) لكنه لم يكن بأهمية كبيرة ، كذلك اهمل ميناء ارسينوى بالقرب من خليج السويس لأن الرومان اكتشفوا — نتيجة لتقدم علم الملاحة البحرية والجغرافيا بفضل علماء الاسكندرية — أنه غير موات للملاحة .

ونلاحظ أن الرومان لم يقيموا أى موانىء جديدة على الساحل المصرى على البحر الأحمر لأنهم وجدوا أن ما بناه البطالمة من موانىء يزيد عن الحد المطلوب وفضلوا التركيز على مينائى ميوس هورموس وبيرينيكى منعا للتهرب من دفع الجمارك ، ولهذا ركزوا جهودهم على تطوير وتحسين هذه الطرق وتأمينها تحت ادارة ورقابة حازمة وتيسير حركة التجارة

(15) Pliny, Ibid, VI, 165.

(16) Meredith, J. E. A., Vol 38. (1952) P. 98 FF,

وتقديم كافة التسهيلات للقوافل التى تحمل عاج أفريقيا وتوابل ولبان بلاد العرب ولؤلؤ وحرير وقطن الهند وسيلان .

وفى أعقاب فتح مصر قام ايليوس جاللوس ثانى ولاة مصر ببناء أسطول فى البحر الأحمر من نوع جديد من السفن الحربية ويعتقد المتخصصون فى أنواع السفن القديمة أنه كان تطويرا للبوارج البطلمية الحربية ذات الأربعة طوابق التى بناها بطليموس الثانى على أحدث ماأنتجت ترسانات العصر الهللينستى (١٧) وكان ظهور الأسطول الرومانى الحربى فى مياه البحر الأحمر فى أعقاب فتح مصر بمثابة اعلان قيام سيادة روما على البحر الأحمر وعلى الدويلات التجارية الواقعة على جانبيه واعلان انتهاء عصور الصراع بين هذه الدويلات من أجل ملىء الفراغ الذى تركه البطالمة فى ذلك الممر المائى الحيوى ، كما أن الأسطول الرومانى حرص على تعقب القراصنة الذين انتشر خطرهم فى البحر الأحمر فى أواخر عصر البطالمة حتى أن الأسطول البطلمى كان يسير لحماية السفن التجارية حتى باب المندب ، بل أن كل سفينة كانت تحتفظ بقوة مقاتلة للدفاع عنها ،وتتحاشى السير قرب السواحل الشرقيـة للبحر الأحمر خوفا من أوكار القراصنة، لكن ظهور الرومان فى البحر الأحمر أعاد للبحر الأحمر شيئا من السلام ولهذا استرخت السفن فى اجراءاتها الأمنية التى كانت تتخذها قبل ذلك مما خفض من تكاليف نقل السلع الشرقية الى أسواق الغرب .

واذا ماتركنا السواحل المصرية على البحر الأحمر نجد بعض الموانىء الهامة التى لعبت دورا كبيرا فى التجارة مثل ميناء أدوليس (ميناء زولا قرب مصوع) وهو الميناء الرئيسى لدولة أكسوم (١٨) التى كانت لاتزال ناشئة فى ذلك الوقت وكان هذا الميناء مركزا لتجارة الجلود والقواقع الحمراء المستخدمة فى الصباغة ، وكذلك العبيد وعاج وحيد القرن وعاج الأفيال ، لكنها كانت تبعد عن العاصمة أكسوم (بالقرب من

---

(17) L. Casson, Ship and Seamanship in the Ancient world (Princeton 1971) P. 97, Diodorus Siculus I, 55.

(18) cf. Pliny Historia Vaturalis, VI, 173, Miller op. cit P. 168 nate 2.

عطبرة) حوالى ثمانيــة أيام ، وبالرغم من أن الدولة الأكسوية الناشــئة كانت تفرض مكوسا عالية على التجــار ة، الا أنها لم تحاول أبدا تحدى روما أو تعطيل مصالحها ، بلحاولت اظهار حسنالنوايا بعلاقتها التجارية مع مصر الرومانية حيث كانت تستورد القماش المصرى والزجاج والزيوت والنبيذ والأسلحة والأدوات المعدنيــة (١٩) . ومن الواضح أن تفاهمــا معينــا كان قائما بين الامبراطورية الرومانية وأكسوم بدليــل أن مينــاء ادول قد ورد ذكره فى دليل الملاحة فى البحر الأحمر كميناء معترف به .

واذا ماسرنا جنوبا بحذاء الساحل الصومالى نجد عدة موانىء لعبت دورها فى حركة النشاط التجارى فى البحر الأحمر فى عصر الرومان مثل ميناء أوبونى Opone فىبلاد الصومال والذى كان يصدر القواقعالحمراء وأجود أنواع الرقيق (٢٠) والقرفة والحنظل واللبــان خاصــة من مينــاء قرب آخر هو ميناء موندوس Mundus

وتحت مظلة « السلام الرومانى » وصل التجــار جنوبا حتىسواحل أوغندا حيث كان ميناء رابتا Rhapta الشهير وهو آخر ميناء عرفه دليل الملاحة فبعده « بدأ المحيــط الذى لا يعــرف مداه أحد » على حــد قول الدليل (٢١) ، وكان ميناء رابتــا يمثل محطة الوصــول الأولى للسفن القــادمة عبر المحيط الهنــدى ومنه تتجه شمالا لتــدخل البحر الأحمــر حتى ميوس هورموس ، وكانت هــذه المنطقــة من الساحل الأفريقى تقع تحت النفوذ المبــاشر للدولة السبئية ــ الحميرية فى الجنوب العــربى حيث هاجر عــدد كبير من اليمنيين ــ ربما بسبب الاضطرابات السياسية الداخلية (٢٢) أو تحت ضــغط البــارثين فى شمال شبه الجزيرة العربية وحضرموت فى القرن الأول الميلادى واختلطوا بالأفريقيين، غير أنالرومان لم يسمحوا للدولة السبئية ــ الحميرية باقامة أى وجود أو سيادة مباشرة لها على الســاحل الأفريقى المواجه لمضــايق البحر الأحمر حتى لايعطى

---

(19) Charlesworth, P. 64.

(20) Periplus 13, Miller Op. cit, P. 185, 199.

(21) Charlesworth Op. cit, P. 65.

(٢٢) د. احمد فخرى : اليمن ماضيها وحاضرها ــ المعهد العــالى للدراسات العربية جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٧٠ .

ذلك فرصــة لملوك الجنوب العربى لعرقلة النفوذ البحرى الرومانى (٢٣). أما فيما عدا ذلك لم يكن للوجود السبئى ــ الحميرى أى تأثير سياسى على الملاحة فى البحر الأحمر . بالرغم من أن الرومان لم يتدخلوا فى تجارتهم الأفريقية ، اذ ذكر دليل الملاحة أن خطا ملاحيا دائما كان يصل بين ميناء موزا فى سبأ وميناء رابتا فى أوغندا (٢٤) .

أما بخصوص سياسة الرومان مع الدول الواقعة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر فقد تطلبت موقفا ايجابيا ، اذ كان هناك قوتان واحدة فى شمال شرق البحر الأحمر وهم الأنبــاط والأخرى فى الجنوب الغربى منه وهم السبئيون ــ الحميريون . وكانت هاتان الدولتان تعتمدان فى وجودهمــا على التجارة خاصــة دولة العرب انبــاط لأنهــا كانت قليلة السكان وبلادهم قليلة الأهمية الا من طريق القوافل التى تمر بها(٢٥) ومن أواخر القرن الرابع ق.م بدأ الأنبــاط يتوسعون حول « البتراء » التى أصبحت مدينــة حيوية ومركز تجميع وخلط وتوزيع وتسعير للبضائع القــادمة من جرها والخليج وميناء أبو لوجوس عنــد مصب الفرات عبر طريق القوافل المتجه الى البحر المتوسط كما كانت ملتقى طريق القوافل الجنوبى القــادم من سبأ وساحل البحر الأحمر ، ولهذا كانت البطراء مقرا لعدد كبير من الأجانب (٢٦) .

ولمــا قامت الـدولة البطلميــة فى مصر على أشــلاء امبراطورية الاسكندر كان الأنباط من أشــد المنــافسين لهم فى السيطرة التجــارية على البحر الأحمر وقــد بدأ هــذا العداء واضحا منــذ عصر بطليموس فيلادلفوس عندما شرع فى احيــاء السيادة المصرية القديمة على البحر الأحمر ، وأرسل أســطولا من البوارج الحديثــة ذات الأربعــة طوابق والسفن الصغيرة trieremiolis حاصرت سفن الأنبــاط ودمرتهــا فى معركة بحرية ساحقة ربما فى عام ٢٧ ــ ٢٧٧ ق.م ، وقد زاد شكوك الأنبــاط عندما شرع بطليموس الثــانى فى ارسال بعثــات استكشافية

---

(23) Charlesworth, Ibid, R. 65 - 66.

(24) Miller Op. cit, P. 147.

(25) Philip. K. Hitti, History of The Arabs, Fifth edition revised, London Macmillan 1951, P. 67 F.

(26) Miller, Op. cit. P. 134 F.

لسواحل البحر الأحمر الشرقية لاختيار مواقع لبنــاء موانىء ومستوطنات جديدة ، ووصل أحد المستكشفين واسمه أرســطون الى منطقــة خليج العقبـــة . ربما ليختار مكانا لبنــاء ميناء يلغى أهمية ميناء ايلانا **Aelana** النبطى عند خليج العقبــة ، ولقد أثار هذا التصرف من جانب بطليموس الثانى شكوك الأنبــاط الذين كانوا يحتكرون وينفردون بالتجارة بين موانىء سبأ فى اليمن ــ حيث محطة وصــول البضــائع من الهند ــ وبين ميناء ايلانا ، بل كان ساحل الحجاز كله مليئــا بالمحطات التجارية وقد ذكر استرابون أن رحلة القوافل من معين Minaea فى اليمن حتى ميناء ايلانا كانت تستغرق مسيرة سبعين يوما(٢٧) ، ولهذا السبب كان الأنباط يخافون من وجود حكم قوى فى مصر ويفضلون بقــاءها ضــعيفة . وجدير بالذكر أيضا أن بطليموس الثــانى كان أول من أقام مستوطنــات على الساحل الشرقى للبحر الأحمر عنــدما دعى ســكان ميليتوس ــ التى كانت جزءا من امبراطوريته وقتذاك ــ لبنــاء مستوطنة لهم ، وبالفعل أقاموا مينــاء أمبيلونى Ampelene الذى يعتقد « تارن » أنه كان يقع بالقرب من ميناء جدة الحــالى ، حيث يسهل الوصــول الى حليفتهم ديدان (العلا) برا والى ميناء ميوس هورموس بحرا . ومنذ حملة بطليموس الثانى بدأ نفوذ الأنبــاط ينحسر سواء من النــاحية الاقتصادية أو العسكرية أمام المــد البطلمى ، ولهذا لم ينس الأنباط أبدا ذلك ، ولهــذا نجدهم ينضمون الى ملوك السليوكيون فى حروبهم ضــد البطــالمة حول جوف سوريا ، ولقد شجع السليوكيون حلفــاءهم الأنبــاط لكى يقوموا بمقاومة نفوذ البطالمة فى البحر الأحمر نيــابة عنهم ، وكرد على تحــالف السليوكيين مع الأنباط شرع بطليموس الثــانى فى اقامة تحالفات مع مدينــة ديدان (العــلا) والعرب اللحيانيين الذين كانت تربطهم صــلات ثقافيــة وحضارية قديمة مع البطالمة (٢٨) وصلت الى قمتهــا ما بين عام ٢٨٠ ــ ٢٠٠ ق.م. وكانت

---

(27) Strabo XVI, Chopter 414.

(٢٨) مثلا لوحظ أن أربعة أو خمسة من ملوك اللحيانيين حملوا لقب طولمــاى الذى هو الصيغة العربية لاسم بطلميوس .

Tarn. Loc. cit. P. 120 F. Cf. Pierre Grimal and Others, Hellenism and the Rise of Rome, Weidenfeld and Niedson 1968. P. 291.

ديدان والعرب اللحيانيون يجدون فى الأسطول البطلمى حماية لهم من التوسع النبطى .

ولقد ظل ميزان القوى فى صالح مصر حتى نجح السلوكيون فى هزيمة البطالمة وطردهم من سوريا عام ١٩٧ ق.م. ، وبدأ الضعف والتحلل يدبان فى أوصال الدولة البطلمية ، وبالتالى بدأوا يفقدون اهتمامهم بالساحل الشرقى لشبه جزيرة العرب وبدأوا يركزون على الساحل الأفريقى الصومالى (٢٩) ونتيجة للانحسار البطلمى بدأ النبطيون يتوسعون على طول الساحل الشرقى ، واستوعبوا القبائل العربية التى كانت ساحل الحجاز ، كما استولى الأنباط على « الحجر » (مدائن صالح) وجعلوها قاعدة للانطلاق والتوسع ، وبالرغم من هذا تصدى اللحيانيون بمساعدة البطالمة للتوسع النبطى والذى بدأ على يد ملكهم الحارث الأول عام ١٦٩ ق.م ، وبلغ أشده عندما تولى أريطاس الثالث العرش (٨٧ — ٦٢ ق.م) ، ويبدو أن الأنباط وصلوا الى ميناء أمبيلونى بالفعل وخربوه وأعادوا بناءه أو بنو بجواره ميناء جديدا لهم اسموه « ليوكى كومى » (الحوراء) أى القرية البيضاء ، ثم ربطوا بين مينائهم الجديد وبين مدينة يثرب التجارية بطريق قوافل وبذلك حولوا التجارة عن مدينة ديدان خليفة البطالمة وكان ذلك ضربة اقتصادية كبرى للنفوذ البطلمى فى البحر الأحمر والذى تقلص تماما .

ولم تتوقف سياسة الأنباط عند هذا الحد بل سعوا الى اسقاط الحكم البطلمى ذاته بالتدخل فى الصراعات الأسرية حول العرش ، ومن الواضح أن الأنباط قد أدركوا نفوذ الرومان المتزايد فى مصر منذ منتصف القرن الثانى ق.م. وأدركوا طمع الرومان فى الاستيلاء عليها يوما ما لأنها كانت مصدرا هاما للقمح الذى لا غنى عنه لاطعام شعبهم ، ومن ثم لجأ الأنباط — مثلما فعل اليهود — الى سياسة جديدة وهى اقامة جسور من الصداقة مع الرومان وتحريضهم على القدوم الى الشرق

---

(٢٩) أنظر : على عبد الله الخاتم ، أثيوبيا والأثيوبيون : بين المصادر الأغريقية الرومانية والأدلة الأثرية : رسالة ماجستير (غير منشورة) آداب القاهرة ١٩٧٦ : ص ٩٢ — ٩٤ .

الأوسط ، ولقـد بدأت الصـداقة الرومانيـة — النبطية فى عهد الملك أريطاس الثالث (الحارث الثالث ٨٧ — ٦٢ ق٠م) والذى نجح فىانتزاع سـوريا الخاليـة من أيدى ملوك السـليوكيين الضـعفاء ، والذى فى عهده ظهرت أول عملة لدولة الأنبـاط (٣٠) ، والذى فى عهده أيضـا فتح القـائد الرومانى بومبى سـوريا ، وليس من المستبعد أن يكون ذلك قد تم بمساعدته ، وعندما حوصر يوليوس قيصر فى الاسكندرية عام ٤٧ق٠م وجه الدكتاتور الرومانى نداء الى ملك الأنباط الملك مالخوس Melchos لتقديم العون اليه (٣١) ، فأرسل اليه قوة من الفرسان هى التى ساعدت يوليوس قيصر على الافلات من هزيمة محققة ، ومن المؤكد أن الأنبـاط قـدموا مساعدتهم لأوكتافيوس عنـدما قرر فتح مصر خاصـة أنهم قاموا بحرق أسطول كليوباترا بالقرب من هيرونوبوليس (تل المسخوطـة وهى بيثوم الفرعونيـة) حتى يمنعوها من الهرب جنوبا فى البحر الأحمـر ، وكأنهم كانوا ينتقمون من تدمير بطليموس الثـانى الأسـطولهم عام ٢٧٨ ق٠م (٣٢) وبعد موت مالخوس تولى الملك عبادة الثالث Obadas III (٢٨ — ٩ ق٠م) والذى تعاون مع الرومان ايجابيا واشـترك فى حملة أيليوس جاللوس ضـد ملوك حمير وسبأ . ولهـذا لم يشـأ اكتافيوس أغسطس أن يلحق أى أذى بالأنبـاط نظير خدماتهم الطويلة لروما ، لأن روما كانت تلاتنسى أصـدقاءها . واسـتفاد الأنبـاط من ذلك الوضـع الجديد ففى ظل الحمـاية الرومانيـة وصـلت دولة الأنبـاط الى أقصى اتساعها فى عهد الحارث الرابع (٩ ق٠م — ٤٠ م) ، وقد سبب هـذا التأييد ازعاجا لدى الأمبراطور تيبريوس ففكر فى ضم الأنباط ضما شاملا، لولا صـداقته للحارث الرابع ، وحرصـه على اتباع سياسة أغسطس وبعد الحارث الرابع تولى الملك مالخوس الثـانى الذى سار على نفس سياسة الصداقة مع الرومان ، والذى ساعد تيتوس Titus بألف فارس و٥٠٠ من المشاة لـكى يهاجم أورشليم وتدمير دولة يهودية (٣٣) ، لقـد وصلت البطراء الى أقصى اتساع لها فى القرن الأول الميلادى لأن سياسة

---

(30) Cf Hitti, Op. cit, P. 68.

(31) Ibid, P. 68.

(32) W. W. Tarn, Loc. cit, P. 25.

(33) Josephus, Jewih wars, Book III, 4, 2, Book I, 14.

أغسطس وخلفائه كانت تهــدف الى جعل دولة الأنبــاط دولة مواليــة للرومان وعازلة بين حدود الامبراطورية وبين دولة البارثيين ، وقد رضى الأنبـــاط بذلك الدور لأنهم اعتقدوا أن الرومان سوف يكافئونهم بأن يطلقوا يدهم فى تجــارة البحر الأحمر وينفردون بها ، لــكن الرومان عنــدما وصلوا الى الميــاه الشرقيــة بدأوا يغيرون فــكرتهم وظهر الأســطول الحربى الرومانى فى ميــاه البحر الأحمر ببوارجه الحديثة ، وبدأ الرومان يقلمون أظافر حلفــائهم حتى لا يتحولوا الى خطر يهدد مصالحهم فى هذه المنطقــة ، وبالتالى بدأ تدولة الأنبــاط تنكمش لتعــود الى حــدودها الطبيعية بعد منتصف القرن الأول الميلادى خاصة أن « السلام الرومانى » كان قــد اســتتب تماما فى البحر الأحمر ووصلت روما الى اتفــاق مع البارثيين ، ولم يعد هنــاك حاجة الى الأنبــاط بعد أن أصبح طريق الملاحة الى الهند آمنا ومؤمنا (٣٤) ، وربما اتخذ الرومان اجراءات أمنيــة ضــد الأنبـــاط فوضعوا حامية رومانيــة بقيادة قائد مائة Centurion فى ميناء ليوكى كــومى لجمــع المــكوس لصــالح الامبراطورية (٣٥) وليس من المستبعد أن يكون الرومان وراء تغيير طريق القوافل بين الخليج (الفارسى) والبحر الأبيض ليمر عبر مدينــة بالمورا بعيدا عن أرض الأنباط لأننا نجد فى نفس الوقت تقريبا طريق التجارة البرية على ســاحل البحر الأحمر يتخذ طريقا أبعد نحو الداخل بعيدا عن نفوذ الأنبــاط فى نفس الطريق الذى أقام فيه العثمانيون سكة حديد الحجاز ، كل هــذا لابد وأن يكون تخطيطا دقيقا لاضــعاف الأنبــاط اقتصاديا ، وبالفعل بدأت دولة الأنباط تتدهور اقتصاديا وسياسيا فى عهد آخر ملوكهم رابيل الثانى (٧١ـ١٠٦م)

---

(34) Hitti, Op. cit, P. 73.

(٣٥) جاء فى دليل الملاحــة Periplus, 19 وعنــد استرابون XVI, 4, 21, 24 وبلينى Historia Naturalis, XII, 63, 5

ولــكن هناك جدلا حول تفسير ماورد فى دليل الملاحة فقرة ١٩ ، اذ يرى وارمنجتون ويشــاركه فى ذلك آخرون أن قائد المــائة والحامية الموجودة الموجودة فى البطراء كانت رومانية

E. Warmington, The Commerce setween the Roman Empire and India, (Cambridge 1928) PP. 16 and 309 (with notes).

بينما يرى شتوف فى تعليقه على الفقرة أن النص لا يثبت أن قائد المــاية والحامية كانوا رومانا Millar, Op. cit, P. 225 neta 1.

الى أن رأى الامبراطور تراجانوس فى عام ١٠٦ م انهاء وجود دولةمستقلة للانبساط وتنفيذا مشروع تيبريوس القـديم فى نفس العام الذى استولى فيه على بلاد البارثيين ودخل عاصمتهم طيسفون (المـدائن) ، وهكذا تحولت بلاد الأنبـاط الى (ولاية بلاد العرب الرومانيـة) وينتهى بذلك سفر طويل من علاقات الرومان بالأنبـاط انتهى بالتخلص التدريجى منهم لتنفرد روما بالسيادة المطلقة على البحر الأحمـر لأن سـياسة الرومان الدفاعية لم تكن لتسمح بوجود حليف قوى قـد يتحـول الى خطر عليهم مستقبلا وهى نفس السياسـة التى جعلت روما تدمر قرطاجة وكورنثه .

وإذا ما غادرنا ميناء ليوكى كومى (الحوراء) جنوبا فى اتجاه مضيق باب المنـدب وجدنا ساحل شبه الجزيرة الشرقى وعرا لا يصلح لرسـو السفن وتسكن كهوفه عصابات قراصنـة البحار (٣٦) ، ولهذا كانت السفن تتجنب السير بحذاء الساحل وتفضل ان تتخذ مسارها وسط البحر بل أن كل سفينة كانت تحرص على حمل قوة حراسه مسلحة للدفاع عنها ، مما يزيد من تكاليف نقل البضـائع . ولقد رأينـا كيف أن الأسطول الحربى فى عصر البطالمة اضطر لمصـاحبة السفن التجـارية حتى باب المنـدب وساحل حضرموت لـكن بظهور الأسـطول الحربى الرومانى تغير الحال تماما حيث أصبح البحر الأحمر آمنا تماما .

ولقـد روى استرابون نقلا عن صديقه ايليوس جاللوس والى مصر الثانى أن مايقرب من ١٢٠ سفينة أصبحت تمخر عبا بالبحر غداة الفتح الرومانى لمصر وتقلع من ميناء ميوس هورموس فى طريقها الى الهند بينما فى أيام البطالمة لم تكن سوى عشرين سفينة على الأكثر تجرؤ على الخروج من البحر الأحمر (٣٧) ، ونفهم من دليل الملاحة أن هذا العدد من السفن لم يكن سكندريا بل شمل قوميـات أخرى مثل العرب والهنود (٣٨) ، ولم تعد السفن فى حاجة الى تسليح نفسها كما كان قبل ذلك .

وإذا ما اقتربنا من باب المندب تتغير طبيعة الساحل فيصـبح أقـل

---

(36) Charlesworth, Op. cit, P. 66, P. 227.

(37) Strabo XV. 1. 22.

(٣٨) عبد اللطيف احمد على — المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

وعورة حيث يكثر هطول الأمطار وتنمو الزراعة ويقوم العمران والحضارة وحيث قامت عدة امارات مثل المعينيـة والقتبانية والسبئية والحضرموتية نجحت كل بدورها فى توحيد اليمن وخلق الدولة المتحدة المنظمة .

وغير أنه بقدوم القرن السابع ق.م نجد احدى هذه الامارات اليمنية وهى دولة سبأ تخضع الدولة المعينيـة وتفرض سلطانها على ساحل شبه الجزيرة الجنوبى والغربى كله ، بل امتد ، سلطان السبئيين الى مراكز المعينيين فى الشمال ، وبذلك تحولت الى أيديهم زمام القوافل التجارية ، واتخذت الدولة السبئية مأرب حاضرة لها . غير أن نشاط بطليموس الثانى فى البحر الأحمر عام ٢٧٠ ق.م . الحق ضربة اقتصـادية بالسبئيين ولهذا وتفقوا مع السليوكيين ضـد بطليموس الرابع فى معركة رفح عام ٢١٧ ق.م كما نفهم من احدى النقوش اللحيانية والتى تبين أن اللحيـانيين حلفـاء البطالمة تعرضوا لعدوان السبئيين خلال هـذه الحرب (٣٩) . لـكن دولة السبئيين سرعان ماتدهورت على أيدى ملوك ريدان أصحاب ظفار والذين فرضوا سلطانهم على الساحل الجنوبى والجنوبى الغربى لشبه الجزيرة فى عام ١١٥ ق.م ، وسيطروا على طريق (البخور) القديم ، وقد عرفوا باسم الحميريين ، ولـكنهم تمسكوا باطلاق اسم السبئيين على أنفسهم ولهذا ستماهم العلماء باسم السبئيين — الحميريين وهم الـذين وجـدهم الرومان يسيطرون على جنوب البحر الأحمر غداة فتحهم لمصر ، خاصـة وقد كان لهم موانىء هامة مثل ميناء موزا Muza (موخا الحالية) على الساحل الجنوبى الغربى ، وكان هذا الميناء هاما لدرجة أن مؤلف دليل الملاحة اثنى عليه وعلى تجارته الرائجة (٤٠) حيث كان يتجمع فيه محصول القرفة المجلوبة من الصومال ، وكان لهم ميناء اخر قرب باب المندب هـو ميناء «أوكيليس» Ocelis والذى كان يتمتع بمزايا مثالية لرسو السفن التى كانت تتزود من مصادر مياهه العذبة قبل اقلاعها الى عرض المحيط الهندى فى طريقها الى الهنـد . وقـد اثنى بلينى أيضـا على مزايا هذا الميناء (٤١) ،

(39) Pierre Grimal, Op. cit, P. 293.

(40) Periplus 21, 24., Phillip Hitti, Op. cit, P. 49, Schoff, Periplus, (New York) P. 24.

(41) Pliny, Historia Naturalis, XII, 62.

وعلى مسافة ليست بالبعيدة من ميناء اوكيليس يقع ميناء عــدن (Adana) والذى منه كانت السفن تقلع مباشرة الى الهند . ولقــد أطلق الــكتاب الأغريق والرومان على ميناء عدن اسم بلاد العرب السعيدة- Arabi Felix Arabia Eudaimon وعمموا هذا الاسم على منطقة جنوب غرب شبه الجزيرة العربية كلها ، ولقد ذكر استرابون أن بلاد السبئيين كانت أكثر البلاد يمنا ، وأن سكانها كانوا أثرياء يحتكرون تجــارة التوابل والكندر والقرفة والبلسم ويكنزون الذهب والفضــة ويقتنون الأحجار الــكريمة ، كما أن بلادهم كانت تربح كثيرا من التوابل (٤٢) .

ولقد كان العرب اليمنيون تجارا مهرة مثل الفينيقيون ، تمتد تجارتهم من الهند شرقا حتى مصر شمالا ، كما أن موقع بلادهم أتاح لهم السيطرة على جنوب البحر الأحمر وساحل شــبه الجــزيرة الجنوبى حتى الخليج الفــارسى شرقا ، كما سيطروا على ساحل آفريقيا المواجه لساحلهم من باب المندب شرقا حتى « رابتــا » فى أوغندا ، والى رأس « غار دافوى » جنوبا ، كما كان هنــاك خط ملاحى دائم بين ميناء موزا وميناء رابتا ، بل كان لهم مركز تجارى آخر فى جزيرة سقطره (٤٣) ، وكان اليمنيون اول من استخدموا الجمال كوسيلة لنقل البضــائع عبر مدقات الصحراء وعبر طريق البخور القديم ويتخلله حوالى ٦٥ محطة تجــارية (٤٤) وقــد ذكر استرابون أن المــكوس والضرائب كانت تجبى من هذه القوافل عند هذه المحطــات حسب مرورها من نفوذ قبيــلة الى اخــرى مقــابل حمــاية الركب (٤٥) .

وعندما سمع اغسطس الذى كان يقتفى سيرة الاسكندر بثراء اهل اليمن قرر أن ينال للامبراطورية نصيبها من هــذا الثراء ولــكى يكمل سيطرة الامبراطورية على البحر الأحمر كان لابد من اخضاع هؤلاء العرب وهو أمر كان قــد هم به الأسكندر ولم يعش لتحقيقه عندما تحدوه ورفضوا

---

(42) Strabo XVI, 4, 19.

(43) Charlesworth, Op. cit, P. 67.

وكان اسمها بالسنسكريتية « دريبا سخودارا » أى الجزيرة المقدسة .

(44) W. Philips, Qataban and Sheba (1955) P. 24, 27.

(45) Miller, P. 16.

الاذعان له (٤٦) ، وارسال الهدايا مثل غيرهم من الشعوب ، كما هدف اغسطس الى كسر احتكارهم للتجارة الشرقية وتحويل مسارها الى صالح الموانىء المصرية (٤٧) التابعة رسميا للامبراطورية الرومانية ؛ وهذا ينطبق مع روح السياسة المادية البحته للامبراطورية ، خاصة أن تجارة العطور والتوابل كانت في نظره يمكن أن تشكل مصدرا جديدا من مصادر الدخل المالى لصالح الامبراطورية من أجل العبور بها الى عصر الرخاء بعد الأزمات والحروب الأهلية التى قضت على اقتصادها ، فضلا عن ازدياد الطلب على العطور والتوابل والحرير وغيرها من المنتجات الشرقية بعد التغير الذى يحدث فى ذوق الشعب الرومانى . وتماشيا مع السياسة الأوغسطية التى تهدف الى تقليم أظافر دويلات البحر الأحمر التى كانت تتصارع على ملىء الفراغ الذى خلفه سقوط مصر البطلمية قبل وصول روما الى مياه البحر الأحمر ، كان على أغسطس أن يقوم بعمل عسكرى حاسم ضد الدولة السبئية — الحميرية خاصة أنه لم يكن لها أى اتصال أو صداقة أو تحالف بالرومان يشفع لها ، هذا هو الدافع الذى جعله يخرج عن السياسة العامة التى وضعها وهى عدم التوسع .

ومن اجل ذلك عهد الى ايليوس جاللوس ثانى ولاته على مصر (٢٦ — ٢٤ ق.م) لكى يقوم بحملة على اليمن ، وحشد الوالى عشرة آلاف جندى وبعض الوحدات المساعدة التى سحبت من القوات الرومانية المعسكرة فى مصر ، كما ساهم الملك عبادة الثالث ملك الأنباط وحليف الرومان بعشرة آلاف جندى وبعدد من الأدلاء يقودهم وزيره الخبيث سيلايوس Syllaeus ونستشف من حديث سترابون مؤرخ الحملة أن القوات النبطية اشتركت فيها على مضض لأن الحملة تعرضت للغدر والخيانة عدة مرات (٤٨) ، ومن المعروف أن الأنباط كانوا يتعاونون مع اليمنيين منذ زمن بعيد لاحتكار تجارة البحر الأحمر ، كما أن سيلايوس وجنوده كانوا يعلمون أن هدف هذه الحملة — اذا ما نجحت — هو سيطرة الرومان الكاملة على تجارة البحر الأحمر وحرمانهم واليمنيين من مصدر ثرائهم

---

(٤٦) احمد فخرى — اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ٦٩
Strabo XVI, 4, 27.

(٤٧) عبد اللطيف احمد على — المرجع السابق ، ص ٦٣ .
(48) Cary and Warmington, Op. cit, P. 192 - 193.

الوحيد ، كما اشترك هيرودوس الاكبر حليف الرومان ايضا بقوة من ٥٠٠ مقاتل ، وكان جاللوس قـد بنى عددا من البوارج الحربية الحديثة المطورة من البوارج البطلمية بلغ عددها ٨٠بارجة بنيت وأعدت فيمصر بالاضافة الى ١٣٠ حاملة للجنود ، ومن الواضح أن الحملة أعدت على عجل ودون دراسة لطبيعة حرب الصحراء ، وكأن الحملة قامت على أساس الاعتماد الـكامل على معاونة الأنباط .

وفي عام ٢٥ ق.م أقلعت الحملة من ميناء كليوباتريس (قـرب السويس) وأقلعت مباشرة الى ميناء ليوكي كومى النبطى ، ومن اللافت للنظر أن جاللوس فضـل أن يبدأ رحلته من الساحل الشرقى للبحرالأحمر ومن ميناء نبطى يبعـد مايقرب من ٩٠٠ ميل عن أرض سبـأ ، بدلا من أن يبـدأها من ميناء بيرينيكى على الساحل المصرى التابع للرومان ، لكن المقصود بذلك هو القيـام بمظاهرة عسكرية استعراضية للقوة الرومانية فى الساحل الشرقى للبحر الأحمر ، وهو المنافسللساحل المصرى وموانيه وذلك لارهاب الأنبـاط والسبئيين معـا لأن مخطط الحمـلة هو أن تسير أكبر قدر ممكن عبر أراضى الأنبـاط والعرب الجنوبيين ، وبعد ١٥ يوما وصلت الحملة الى ميناء ليوكى كومى بعد أن تكبدت خسائر فادحـة فى السفن والأرواح بسبب صـعوبة الملاحة فى هذا الجزء من البحر الأحمر، ومن ثم اضطر جاللوس أن يستريح بقيـة الصيف وشتاء العام كله ، ولم يستأنف السير الا فى ربيع عام٢٤ ق.م ، وسلك دروب الصحراءمستخدما الجمـال لنقل المياه والمؤن والعتاد وبالطبع كان الأدلاء النبطيون يرشدون الحملة عبر مجاهل الصحراء ، حتى بلغوا سـهل نجران حيث تمكنوا من الاستيلاء على بعض المدن الصغيرة ، وبعد أن تزودوا بالميـاه استأنفوا السير نحو ماريابا Mariaba (سد مأرب) عاصـمة السبئيين ومقر ملكهم وضرب جاللوس الحصار حول مأرب ، ولـكنه فشل فى الاستيلاء عليها بسبب نفاذ المـاء والمؤن ، فاضطر الى رفع الحصار عنها ، وعرف جاللوس أنه على مسيرة يومين من أرض أروما (سهل حضرموت ، وبعد مسيرة ستة أشهر تعرض خلالها لغـدر الأدلاء الأنبـاط ومقاومةالسكان، قرر الانسحاب عائدا الى نجران ، ثم سار أحد عشر يوما أخرى حتىوصل الى منطقة الآبار السبعة ، ثم اخترق الصحراء والحضر حتى وصل الى ميناء اجرا على البحر الأحمر ومنـه ركب البحر عائدا الى ميناء ميوس

هورموس ، ثم عبر طريق القوافل حتى قفط ومنها ركب النيل الى الاسكندرية ، وقد استغرقت رحلة العودة ستين يوما بينما استغرقت رحلة الذهاب مايقرب من ستة أشهر .

لقد أخفقت حملة جاللوس تماما من الناحية العسكرية لأنها تكبدت خسائر فادحة في الرجال والعتاد بسبب المرض والجوع والخيانة ، وفشلت في احتلال اليمن ، ولكنها من الناحية السياسية والاقتصادية حققت نجاحا منقطع النظير ، وذلك لأنها مزقت الحجب والغموض اللذان كانا يحيطان بشبه الجزيرة العربية ، وبدأ الأغريق والرومان يعرفون ويكتبون عن سكان جنوب شبه الجزيرة ، ويقول بليني الأكبر « اننا بفضل هذه الحملة عرفنا شيئا عن المعينيين والسبئيين والحمريين » ، ومن خلال وصف سترابون مؤرخ الحملة وصديق جاللوس قائدها ـ نستطيع أن نتخيل أنها اندفعت وسط هضبة نجد والحجر الى حدود حضرموت واليمن ، وكما يقول أغسطس نفسه في أثر أنقرة أنه وصل الى حدود السبئيين وسد مأرب ، كما أن سكان الجنوب العربي رأوا الرومان لأول مرة وجها لوجه وأعجبوا بهم وبقوتهم ، وبدأ عهد جديد من الصداقة الوطيدة بين الأباطرة وأمراء المشايخ العرب تبادلوا فيها الهدايا والوفود ، وعقدت اتفاقيات الصداقة(٤٩) . ومن الناحية الاقتصادية كانت هذه الحملة بداية عهد جديد للملاحة في البحر الأحمر ، اذ حققت السيادة الرومانية على جانبي البحر الأحمر ، وقضت على القوي القديمة التي كانت تتصارع عليه والغت احتكار العرب ، وحولت التجارة الى الموانيء الواقعة على الساحل المصري التابع لهم خاصة ميناء ميوس هورموس ، كما أعطت للرومان حقوقا في استخدام بعض الموانيء على الساحل كما رتبت الموانيء حسب درجات صلاحيتها ووضعها القانوني مع حكامها بالنسبة للأمبراطورية وذلك حسب اتفاقيات محلية عقدتها روما وكما يشري ليس من المستبعد أن تكون الأمبراطورية قد فرضت مكوسا مقابل حفظ السلام في البحر الأحمر . .

والحاقا بهذه الحملة الفريدة من نوعها في تاريخ الامبراطورية شرع

(49) Periplus, 24, 20.

اغسطس فى العام الأول الميلادى فى تنفيذ مشروع الاسكندر القديم وهو استكمال الدوران حول شبه الجزيرة العربية من الخليج الفارسى حتى البحر الأحمر ، واتبع فى ذلك أسلوبا علميا لا يقوم على الخيال الرومانسى، ولهـذا قام بمسح واستكشاف جانبى الخليج (الفارسى) ، ولا شك أن هـذه الحملة قـد تمت بالتفاهم مع البارثين . وربمـا كان من نتائجها هو تلك الغارة السريعة المدمرة على ميناء عدن .

ولقد لاحظ العلماء أن الميناء الوحيد الذى أسقط مؤلف دليل الملاحة فى البحر الأحمر ذكره من قائمة الموانىء القائمة وقت كتابة هـذا العمل الشهير هو ميناء عدن ، والذى كان يعرف عند الرومان باسم بلاد العرب السعيدة ، وقد ذكر مؤلف دليل الملاحة أن هـذا الميناء كان ذات يوم مدينة عامرة زاهرة بالتجارة والحركة قبل أن يدمره قيصر Caesar ويتركه كما وجـده مؤلف الدليل قرية ساحلية لا أهمية لهـا بالرغم من أن موقعها كان لا يزال وقتذاك مناسبا لمينـاء جيد مزود بمصادر ميـاه عذبة لتزويد السفن وتفوق فى جودتها ميـاه ميناء أوكيليس Ocelis الذى انتقلت اليه الأهمية ، كذلك ذكر مؤلف الدليل أن فى الأيام السابقة على عصره كان ميناء عدن محطـة عالميـة كبرى لتجـارة أعالى البحـار بين الشرق والمغرب .

ولقـد دار جدل بين العلماء حول من هو « قيصر » الذى دمر ميناء عدن حتى إنه لم يعد له قائمة منذ ذلك التاريخ مثلمـا اختفت قرطاجـة وكورنثه ، ومتى حدث ذلك ؟ وما هى الأسباب وراء ذلك العمل ؛ وقـد قدم العلماء اجتهادات وافتراضات مختلفة .

أرجحها أن كلمـة « قيصر » تعنى جايوس قيصر اغسطس . وبالفعل فان لدينا أدلة على أن جايوس قيصر أغسطس قـد كلف فى العام الأول الميلادى بقيادة حملة سريعة لتدعيم مركزه كوريث مرتقب لأغسطس ، وأن السبب فى تدمير عدن يتفق والاستراتيجية العامة لأغسطس بعدم التوسع مع السماح بالحروب المحدودة الدفاعية ، وأن خوف الامبراطور من خطورة هـذا الميناء على مصالح الامبراطور الاقتصادية فى البحـر الأحمر وعلى السلام الرومانى هى التى دفعته لمثل هذا التصرف قبل أن يستفحل خطره ، ويدعم هـذا الرأى الذى نميل اليه أن هناك سوابق تاريخية لأعمال مماثلة

قامت بها الامبراطورية لتدمير موانىء تجارية فى البحر الأبيض كانت تخشى ازدياد خطورتها على السلام والمصالح الرومانية ، مثل قرطاجة كورنثه .

ان الرأى القائل أن النص خلط بين جاللوس وبين قيصر المجهول أمر بعيد الاحتمال لأن ايليوس جاللوس — وكما نفهم من نص استرابون لم يصل الى ساحل شبه الجزيرة الجنوبى حيث تقع عدن ، بل عاد قبل ذلك وكان على مسافة مسيرة عشرة أيام من « أرض الأروما » والمقصود بهـا سهل حضرموت وبالتالى نرفض ما جاء فى الموسوعة البريطانيـة بأن الرومان عرفوا عدن واستولوا عليها عام ٢٤ ق. م (٥٠) .

ان هناك أكثر من دليل على أن قيصر أغسطس الذى كان العمر قد تقدم به وقتذاك . قـد كلف حفيده الذى تبناه وأعده للعرش بالاشراف على تنفيذ مخطط استراتيجى مدروس هدفه دعم « الرومانى » فى البحر ودعم المصالح الاقتصادية للأمبراطورية ومن بينها كما يبدو مشروع الدوران حول شبه الجزيرة العربية والذى كان امتدادا لحلم الاسكندر القديم ، كما نعرف ان جايوس قيصر ذهب بأوامر من جده فى العام الأول الميلادى فى مهمـة عاجلة الى الشرق الأوسط وأن الامبراطور الجد كان قـد كلف احد الخبراء وهو مؤلف كتاب « وصف العالم » بجمع كل المعلومات الجغرافية والسكانية عن هـذه المنطقة لتكون فى خدمة الحفيد قبـل أن يبدأ رحلته الى أرمينيا وبلاد العرب (٥١) .

وهناك دليل آخر يؤكد أن ميناء عدن قد دمر فعلا وأن الذى قام بذلك هو الحفيد جايوس وهو ما ذكره بلينى فى كتابه الثانى عشر أثناء الحديث عن شبه جزيرة العرب وأهم النباتات التى تنمو فيها خاصة الكندر (اللبان) حيث ذكر أن جايوس كان أول رومانى شاهد بنفسه شجر الكندر ودرسه عن قرب . وهذا يؤكد بلا شك أن جايوس كان يشكل خطرا على مصالح الامبراطورية الرومانية فى البحر الأحمر وأن الثراء المتزايد لدى سكان عدن قد يدفعهم الى توحيد صفوفهم ومقاومة الرومان فى منطقة اشتهرت بأعمال المقاومة على طول التاريخ ، ولقـد حققت هـذه الحملة هدفها فى ذلك ،

(50) Millar, Op. cit, P. 15, note 1.

(51) Pliny, Historia Naturalis, VI, 31.

بل وأصبح منذ تلك الحملة لروما نفوذ ووجود مباشر على البحر الأحمر ، وحققت السيادة الكاملة عليه بل وبدأت فى فرض مكوس على المـوانىء التجارية الهامة فيـه كدخل جديد لخزانة الامبراطورية (٥٢) .

وقبل أن نستطرد فى بحث التطورات السياسية خلال القرون التالية لابد أن نتوقف للحديث عن ذلك المؤلف الهام « دليل الملاحـة فى البحـر الأحمر » وما يمكن أن نستخرجه من نصوصه من معلومات تخص سياسة الرومان فى البحر الأحمر .

تباينت آراء المؤرخين حول التاريخ الذى كتبت فيـه هـذه الوثيقة الهامة وقد ضمن لنـا شوف قائمة كاملة بهذه الآراء حتى عام ١٩١٢ (٥٣) ، كما أنه بعد ذلك التاريخ حدثت اجتهادات وآراء جديدة (٥٤) لكن باستعراض هـذه الآراء يمكن أن نقول أن الحد الأدنى للتاريخ المقترح لظهور دليـل الملاحة هو عصر الامبراطـور كلاوديوس (٤١ — ٥٤ م) لأنه حتى عصر كلاوديوس لم يعرف أحد شيئا عن الرياح الموسمية ، ويقترح « شـوف » ويوافقه على ذلك ورمنجتون Warmington تاريخيا أبعد قليلا وهو مطلع عصر نيرون (٥٤ — ٦٨ م) (٥٥) ، أما الحـد الأقصى لهذه الآراء فهو رأى بيرين Pirenne التى تقترح عام ١٠٦ ميلادية بعـد ضم تراجان لمملكة الانباط وانشاء ولاية بلاد العرب غير أن الآنسة بيين ذهبت أبعد من اللازم لأن هنـاك ثلاث اشارات تؤكد أن التاريخ الذى كتب فيه الدليل قبل ذلك

---

(٥٢) تدل النقوش أن أغسطس فرض ضريبة قدرها ٢٥ ٪ على بعض السلع من الشرق بالاضافة الى مكوس الجمارك Portoria ومن أجل ذلك عين قائدا Strategos له سلطات عسكرية وادارية لتحصيل مكوس البحر الأحمر وكان هذا القائد يشرف على جميع المكوس الجمركية فى موانىء البحر الأحمر ، أنظـر : C. I. G. 5675 نقش من عصر أغسطس كتبه جامع المكوس أبولونيوس ومساعده أدينليوس وهو عبارة عن صـلاة شكر للرب هرميس رب التجار انظـر :

(53) Schoff, Op. cit PP. 290 - 293.

(54) Millar, Op. cit, P. 16. Note 2.

(55) Schoff, P. 67, Millar, Op. cit, P. 16 F.

بكثير . منها وصف مؤلف الدليل للبطراء عاصمة النبطيين وذكره أنها مقر مالخوس ملك الانباط . وقد سبق أن أشرنا وعرفنا من المؤرخ اليهـودى يوسف السكندرى أن مالخوص ملك الأنباط هـذا قد ساعد تيتوس فى قمع ثورة اليهود فى فلسطين ، وأنه تولى عرش الأنباط من (٤٠ — ٧١ م) . وعندما تحدث المؤلف عن مينـاء عدن ذكر أنه قد دمر فى وقت « لا يبعد كثيرا عن وقتنا هـذا » وبالتالى فان هـذا الوقت لا يمكن أن يزيد عن قرن من الزمان ، والاشارة الثالثة ما ورد فى الدليـل من ذكـر إسـم الملك زوسكاليس Koscales ملك أكسوم (الحبشة) والذى تعرف عليه علمـاء النقوش بأنه هو الملك زا — ها — كالى Za-Ha-Kale والذى حدد مولار فترة حكمه ما بين ٧٧ — ٨٩ م ، فضلا عن اشارات أخرى وردت فيـه حوليات ملوك الهند والصين القديمة ، وبنـاء على كل هـذه الأدلة فان أغلب المؤرخين يتفقون على أن الدليل كتب أو على الأقل صيغت نصوصه من نصوص وملاحظات سابقة ما بين ٨٠ — ٨٥ ميلادية وقـد وصل الى هـذه النتيجة ماكرنيدال وسميث وميللار (٥٦) وغيرهم .

أما عن هوية المؤلف فقد دار فيها أيضـا جدل كثير ، فقـد اقترح بعضهم إسـم آريانوس حاكم كبادوكيا والأديب الـذى عاش فى عصر هادريانوس وهو أول من وصف الملاحة فى البحر الأسود والذى منه طور العمل الشهير Peripls Maris Euxini دليل الملاحـة فى البحـر الأسود (٥٧) وربما يكون مؤلف الدليل بحارا سكندريا كان اسمه آريانوس السكندرى . لـكن ذلك مجـرد احتمال ، غير أن أغلب الظن يرجح أن دليل الملاحة حول البحر الأحمر لم يكن مؤلفا عاما من فعل مؤلف ، بل كان أشبه بوثيقة رسمية خاصة كتبت كبحث حتى ترسم على ضوئه سـياسة ومصالح الامبراطورية التجارية فى الشرق وتحدد فى ضوئها الأموال التى تأتى لخزينة الامبراطورية . أى أنها كانت وثيقة رسـمية تابعـة لادارة الخزانة الرومانية أو بحثا رسميا كلف أحد الخبراء بعمله لصالحها . ومن هنا يكون اسقاط هوية المؤلف أمرا متعمدا ، أو أنه ربما كان تقريرا اشترك

(56) Millar, Ibid, P. 18.

(57) C. Muller, Geographici Graeci Minores (1855 - 61) vol. 1., Prolegomena, XCVIII.

فى كتابته أكثر من خبير وبالتالى فان اسم آريانوس هو اضافة أضـــافها النساخون الى النص فى وقت لاحق ، وأيا كان الأمر فانكاتب هذا البحث بحار أغريقى الجنسية أن اللسان وأغلب الظن أنه كان من سكان مدينة الاسكندرية وذلك لأن الدليل يصف ويسجل مجموعة من الرحلات البحرية كلها تبدأ من الموانىء المصرية على ساحل البحر الأحمر وتنتهى بجنـــوب الهند ، وبذلك فهو أول وثيقة أصلية عن موانىء البحـــر الأحمـــر وشرق أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية وسواحل الهند الشرقيـــة والجنوبية أما السبب فى أن الدليل عالج بسرعة عابرة منطقة الساحل الأفريقى جنوب أبونى Opone فى أوغندا ومنطقة الخليج (الفارسى) فهذا مرجعه الى أن هاتين المنطقتين كانتا خارج حوزة الامبراطورية وفى أيدى الحكام العرب الجنوبيين وليس لهما ارتباط مباشر بخط مصر — الهند الملاحى(٥٨)

لقد وصف الدليل موانىء البحر الأحمر بالتفصـــيل العلمى الدقيق ، ورصد ظاهرة المد والجزر ومواقيت هبوب العواصف والأعاصير وكيفية التنبؤ بها ، ثم أحوال رسو السفن فى هذه الموانىء ، ثم حجم التجارةفى كل ميناء وطبيعة سكانه ومدى مايتوقعه التاجر البحرى من تعـــاون من السلطات الحاكمة فيها فىضوء العلاقات التعاهدية بين هذه الموانىء وبين الامبراطورية الرومانية ، ويذكر جنسية الســـفن التى تتردد على هـــذه الموانىء فالى جانب سفن السكندريين كانت هناك سفن الهنود والعرب، ويؤكد الدليل أن أهم السلع التجارية فى هذه الموانىء هى التوابل مثـــل الحنظل (المر) والكندر (اللبان الدكر) والقرفـــة Cinnamon والفلفل الأسود وعطر الناردين ، وكلها كانت تحملها الســـفن الى موانىء مصر خاصة ميناء ميوس هورموس (٥٩) . وكما هو واضح كان مؤلف أو مؤلفو الدليل على معرفة جيدة بالطرق الملاحية وتردد التجار السكندريين عليها، ووجود روح التعامل والتفاهم بين القوميات المختلفة من اغريق ومصريين وعرب وهنود تحت مظلة (السلام الرومانى) وان حركة تجـــارية نشطة كانت قائمة من ميناء أرسينوى قرب خليج السويس حتى ميناء تاميل فى جنوب الهند ، كما يعدد الدليل أسماء الموانىء والأســـواق البحرية على

---

(58) Millar, Op. cit, P. 19 - 20.

(59) Charlesworth, Op. cit, P. 63, Millar, P. 20.

ول جانبى البحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندى وهو المجال الجنوبى للاقتصاد الرومانى فى الشرق. وذكر أن عدد هذه الموانىء يبلغ سبع وعشرين ميناء لكنها يصنفها الى ثلاث فئات حسب علاقاتها التعاهدية مع الامبراطورية وهى :

١ — موانى صالحة للاستخدام وتلتزم بالقانون وهى موانى الدرجة الأولى التى تضمن فيها حقوق المتعاملين وتؤكد صلاحية هذه الموانىء للرسو والاقلاع وهذه الموانى هى ميوس هورموس وبيرينيكى فى مصر وميناء موسخا فى حضرموت وهو أحد مراكز تصدير الكندر(٦٠)

٢ — موانىء ملتزمة بالقوانين لكنها ليست فى الخط الملاحى الدائم ، وتشمل هذه الفئة موانىء عدول (زيلا قرب مصوع) على ساحل الحبشة ، وميناء موزا (موخا) فى جنوب شرق الجزيرة العربية وميناء أبو لوجوس Abologos عند مصب الفرات (٦١) .

٣ — موانىء قائمة من الناحية الطبيعية والواقعية مثل ميناء كالليينا Calliena الميناء الأول لملكة أندهرا Andhra فى وسط الهند وبالقرب من بومباى (٦٢) وربما يعنى ذلك أنه مرخص باستخدامها لكن على مسئولية التجار .

ويذكر الدليل أن هذه السفن التى كانت تتردد بين موانىء البحر الأحمر كانت تحمل الى مصر لحاء القرفة من الصومال والفلفل والتوابل والحرير والقطن واللؤلؤ والأحجار الكريمة من الهند .

ومن الملاحظ أن الفئة الممتازة كانت موانىء مصر وهى موانىء معروفة منذ أيام البطالمة ، وربما سعى البطالمة الى نفس الشىء لكن فى حيز محدود ، أما الموانىء التى كانت تقع خارج حدود الامبراطورية فنجد وضعها تحدده معاهدات ثنائية عقدتها الامبراطورية مع حكامها . أما الهدف الأساسى من هذه المعاهدات فهو ضمان الخط الملاحى التجارى بين ميوس

---

(60) Periplus I, and 35.

(61) Periplus IV, 21 and 25.

(62) Periplus 52.

هوزملوسن وليريفيكى فى مصر وميناء موسنخا فى حضرموت ثم بين ميناء عدول (مصوع) وميناء موزا فى اليمن وميناء أبو لوجوس عند مصب الفرات وميناء كالليتا فى وسط الهند . ويقول الدليل ان ملوك سبأ وحمير صاروا أصدقاء للاباطرة .

وبعد موت أغسطس ورث خلفاؤه امبراطورية ذات سيادة فعلية على البحر الأحمر وتتمتع بدخل اقتصادى كبير ولهذا سار الخلفاء على نفس سياسته ولم يأل أحدهم جهدا فى دعم الاهتمام بطرق التجارة ، فمثلا أمر تيبريوس بخلع ملك الأنباط لتشككه فى ولاياه ، وكان يزمع ضم بلاد العرب الأنباط ضما مباشرا الى حوزة الامبراطورية وانشاء ولاية بلاد العرب ولفرض السيطرة المباشرة على طريق القوافل الذى يربط بين ميناء ليوكى كومى وبين البطراء ، غير أن هذا المشروع لم ينفذ الا بعد سبعين عاما من موت تيبريوس وعلى يد تراجانوس ، لكن الامبراطور العجوز الشحيح أبدى قلقه وعدم ارتياحه ازاء النزيف الاقتصادى للذهب الرومانى المتجه الى الشرق مقابل الكماليات خاصة الحرير الذى انتشر ارتداؤه بين الرومان سواء الرجال أو النساء ، ففى خطاب مفتوح موجه الى السناتو ونقله لنا المؤرخ تاكيتوس لفت تيبريوس نظر الأعضاء الى المبالغة فى الترف والاقبال على شراء الحرير — مما يسبب نزفا للذهب الذى يذهب « حتى الى أعداء الامبراطورية » (وهو هنا يقصد البارثين) مقابل استيراد سلع « ذات طبيعة ترضى أذواق (المخنثين) » ولهذا وجه لومه للرجال والنساء على السواء (٦٣) ، وكان من بين سياسة أغسطس جعل الدينار الرومانى رمزا لسيادة وعظمة الامبراطورية بين شعوب العالم ولذا دعم التجارة بكميات كبيرة من الذهب الجيد الذى سك فى شكل عملات ، كما أن رغبة الشرقيين فى اكتناز الدينار الرومانى وقلة طلبهم على منتجات الامبراطورية وهبوط مستوى المعيشة بينهم حول ميزان المدفوعات — لو جاز لنا استخدام هذا التعبير الحديث — الى صالحهم (٦٤) . ولقد حاول

---

63) Tacitus, Annoles, 11, 33, III, 53, also of Cassius Dio, LVII, 5, also. cf J. Carcopino, La vie quotidienne à Rome a L'apogee de L'empire (1947), P. 200, English translation by E. O. Lorimer, P. 172.

Millar, Op. cit, P. 222, Charles worth, P. 50, Warmington & Cary, P. 44 F.

تيبريوس وضع بعض الإجراءات للحد من استخدام الحرير والأحجار الكريمة لكنه لم ينجح فى محاولاته . وفى عصر الامبراطور كلاوديوس نجد زيادة فى الاهتمام بالطرق الصحراوية التى تربط بين ميوس هورموس وقفط (٦٥) ، واصبح الميناء الرئيسى لتجارة مصر فى البحر الأحمر ، فمثلا أعيد رصف الطريق وزود بالعلامات التى تحدد المسافات وحفرت الابار وأقيمت خزانات المياه ونقاط الحراسة ومحطات استراحة للتجار ، كما أنه فى عصر كلاوديوس استخدمت محاجر الصحراء الشرقية التى كانت تقع على بعد ثلاثين ميلا من ميوس هورموس وسمى أحد المحاجر باسم الامبراطور أى جبل كلاوديوس Nons claudianus .

كما بدأ فى عصر كلاوديوس حركة استكشاف لنهر الأردن وحدود فلسطين وسوريا وشمال شبه الجزيرة العربية والطرق التى تمر عبرها الى بلاد ما بين النهرين وكان ذلك تمهيدا لضم مملكة العرب النبطيين لإكمال السيطرة المباشرة على البحر الأحمر (٦٦) ونتيجة لهذه الحركة الكشفية زادت الرحلات التجارية حول سواحل شبه الجزيرة وبدأت المعلومات تتزايد عنها وعن طرقها وآبارها وأسرارها كما يظهر من وصف بطليموس الجغرافى (٦٧) .

ولقد أبدى نيرون اهتماما زائدا (٦٨) بالتجارة مع الشرق والعناية بالطرق التى كانت فى خدمة هذه التجارة وكان هذا الاهتمام مثار اهتمام البحث العلمى والجغرافى عن الشرق ، والذى لم يتوقف منذ أسترابون وصدور دليل للملاحة فى البحر الأحمر ، بل استمر ولقى التشجيع من جانب الأباطرة . لقد كتب الأديب بلينى الأكبر الذى عاش فى عصر نيرون عن التوابل والعطور والنباتات الطبية التى وضع قوائم مطولة بأسمائها ومصادر انتاجها ، بل واسعارها وطريقة زراعتها وفوائدها . كما أعطانا صورة حية عن الترف والبذخ الذى عاش فيه الرومان خاصة القصر

---

(65) Charlesworth, P. 21.

(66) Warmington Cary, P. 193 = Dio cassius LXVIII, 14, LXXXV, 1, 2, Eutropius VIII, 18, Pliny VI, 140, 77, 80.

(67) Ptolemy, VI, 7, 1 - 47., Warmington & Cary P. 194.

(68) Charlesworth, P. 34.

الامبراطورى ، والذى ينعكس فى استهلاك كميات كبيرة من المنتجات الشرقية من عطور وعطارة وحرير ولؤلؤ ، فقد حرق جثمان بوبايا سابينا زوجة نيرون وسط أكداس من الأعشاب العطرية النادرة المستوردة من الشرق ، وقدرت كمية ما استهلك لهذا الغرض مايساوى الكمية التى تستوردها العاصمة من الشرق فى عام واحد (٦٩) ولقد أبدى بلينى اعجابه بذكاء نيرون عندما خفض وزن الدينار الذهبى (الأورايوس) وقلل من وزنه فجعله ١/٤٥ من الرطل الرومانى بعد أن كان ١/٤٢ فى عصر أغسطس ، كما خفض وزن الدينار الفضى من ١/٨٤ الى ١/٩٦ من الرطل الرومانى ، كما خلط فضة الدينار بمعادن أخرى ، وقد فعل نيرون ذلك بعد أن فشلت فكرة سلفه كلاوديوس فى سك عملة رومانية ذات قشرة فضية فقط ، وقد أوقف نيرون هذه المحاولة واتخذ قراره السابق ذكره والذى كان يهدف الى محاولة وقف نزيف الذهب الى شبه جزيرة (٧٠) العرب والهند ، ومن الأشياء الهامة التى ذكرها بلينى أن حاكم قتبان فى جنوب الجزيرة كان الرجل الوحيد الذى بيده تحديد أسعار القرفة عالميا ، ولم يكن أحد ليستطيع تحديد سعر معين لها فقد وصلت حينا الى الف دينار للرطل الرومانى بحجة شبوب حريق فى أشجارها أما فى الأوقات العادية فكان الرطل يباع بنصف ذلك الثمن ، كما ذكر أن الاسكندرية كانت السوق الدولية التى يشترى منها الغرب توابل الشرق (٧١) .

ومن أجل البحث عن طرق جديدة للتجارة مع الشرق أرسل نيرون بعثة استكشافية الى النوبة عام ٦١ م عادت بخريطة مفصلة وتقرير شامل (٧٢) عام ٦٤ م ، وقد قابلت السلطات النوبية هذه البعثة بالترحاب ويسرت لها مهمتها حتى بلغت النيل الأبيض اذ كان هناك علاقات صداقة بين أباطرة الرومان وملوك بلاد النوبة التى ذكر التقرير أنها فى حالة انهيار شديد وانها فقيرة السكان مليئة بغرائب المخلوقات ، ولقد تعددت الآراء حول الغرض من ايفاد بعثة الى النوبة ، فقال بعضهم أن نيرون كان يهدف

---

(69) Pliny Historia Naturalis, XII, 84, = Millar, Op. cit, P. 14 - 20.

(70) Millar, Op. cit, P. 218.

(71) Pliny, Historia Noturalis, XII, 93.

(72) Chorlesworth, P. 33.

الى نصر رخيص. وقال آخرون أنه أرسل هذه البعثة تنفيذا لرغبة سينيكا وبليينى لجمع المعلومات الجغرافية والنباتية والحيوانية ، وقال فريق ثالث أنها كانت تمهيدا لحملة رومانية للاستيلاء على النوبة ، لكن أفضل الاراء هو الرأى القائل بأن البعثة استعراض قصد به انذار مملكة أكسوم التى كانت تهدف الى احتلال سواحل النوبة المطلة على البحر مما يهدد مصالح الامبراطورية التجارية خاصة أن ميناء عدول كان مركز تجارة العاج ، كذلك قصد بالحملة تأييد معنوى لملوك النوبة الأصدقاء ، ولقد وردت الاشارة الى أطماع أكسوم الحبشية لأول مرة فى دليل الملاحة عندما ذكر أن مؤسسها المجهول الاسم أقام قبل عام ٦٠ ميلادية نصبا تذكاريا عند ميناء عدول لذكرى انتصاراته وروى فيه كيف أنه بسط سلطانه شمالا من الحبشة حتى حدود مصر الجنوبية ، وجنوبا حتى ساحل الصومال ، بل ادعى أنه عبر البحر الأحمر واحتل الساحل الجنوبى الغربى لبلاد السبئيين ووصل الى ميناء ليوكى كومى (٧٣)، ولا شك أن الملك الأكسومى بالغ وهول من حجم انتصاراته لكنها أثارت قلق الرومان الذين توجسوا خيفة أن يكون هدف ذلك الملك البعيد هو غزو بلاد سبأ والتحكم فى تجارة البحر الأحمر مما دعى الرومان الى اتخاذ خطوات ايجابية ، اذا فبعثة نيرون الى النوبة كانت تصرفا منطقيا لاهتمام الرومان المتزايد بالتجارة فى البحر الأحمر وحماية (السلام الرومانى) فيه من خطر الدويلات المحلية المطلة على شواطئه ، ووقف أى تغيير فى موازين القوى حتى لايحدث أى خلل فى الميزان العسكرى . وأود أن أضيف الى ذلك الرأى رأيا آخرا هو أن نيرون أرسل هذه البعثة للبحث عن مناجم الذهب لأنه كان أكثر الأباطرة قلقا على استمرار نزيف الذهب الرومانى الى الشرق ، وهذا التفسير يتفق وتفهم الغرض من حملة مماثلة فيما بعد وهى حملة تراجان على داكيا .

من المعروف أنه منذ وصول روما الى البحر الأحمر ، كانت السفن التى تقلع الى الهند تسير بحذاء الساحل بعد خروجها من باب المندب ، ومن ثم فقد كسبت بعض موانىء شبه الجزيرة العربية الجنوبية مثل أوكيليس Ocelis وموزا Moza وعدن أهمية تجارية كبيرة كمركز للتبادل

---

(٧٣) عبد اللطيف أحمد على — المرجع السابق — ص ١٣٤ — ١٣٥

التجارى ، وهذا جعل التجارة الشرقية فى أيدى العرب وهو أمر أقلق الامبراطورية بالرغم من أن العرب كانوا مسالمين وأصدقاء للرومان (٧٤) ، غير أن تطورا هاما حدث أثناء حياة بلينى وهو اكتشاف الرياح الموسمية بواسطة أحد البحارة السكندريين واسمه هيبالوس الذى استطاع أن يرصد توقيت هبوبها على البحر الأحمر والمحيط الهندى اذ لاحظ أن من مايو حتى أكتوبر تهب الرياح من الجنوب الغربى فى اتجاه الشمال الشرقى ، ومن نوفمبر الى مارس تهب عكس ذلك الاتجاه ثم استخدم ذلك فى رحلة قام بها الى سواحل الهند ونجح فكان ذلك نقطة تحول بالنسبة لأحداث البحر الأحمر ، اذ أصبح بامكان البحار أن يقلع مباشرة الى الى الهند دون أن يتوقف عدة مرات عند الموانىء العربية ويدفع المكوس عما يزيد من تكاليف السلع كما أن الامبراطورية لم تعد تخاف وتترصد الجنوب العربى لأن ذلك الاكتشاف الفنى أفقد الكثير من أهمية هذه الموانى كمحطات وصول واقلاع ، كما أدى هذا الاكتشاف الى سرعة الاتصال بالهند اذ أصبح بامكان السفينة أن تقلع مثل من مصر فى شهر يوليو وأن تصل الى موانى الهند فى أواخر شهر سبتمبر ، وبعد أن تنتهى من التفريغ والشحن تقلع عائدة مستخدمة هبوب الرياح الشمالية الشرقية لتصل الى أوكيليس أو عدن ثم الى ميناء ميوس هورموس ، أو تستمر شمالا الى خليج السويس ثم تمر بقناة سيزوستريس الى النيل ، وعلى أى حال كانت العودة فى شهر فبراير . لقد كسر هذا الاكتشاف احتكار العرب للتجارة وأصبحت روما تتاجر مباشرة مع الهند بلا وساطة ، كما أن سرعة الرحلة وعدم التوقف عند الموانىء العربية ودفع المكوس لها خفف من تكاليف السلع الشرقية فانخفض سعرها مما أدى الى كثرة الطلب عليها (٧٥) وبالتالى زاد الاستهلاك وزاد نزيف الذهب الرومانى الى الشرق .

---

(74) Charlesworth, P. 60.

(٧٥) من الأمثلة على ذلك أن سعر قارورة عطر النارين انخفض سعرها من ٣٠٠ دينار رومانى فى أول القرن الأول كما جاء فى الانجيل (مرقص اصحاح ١٤ آية ٣ ، انجيل يوحنا اصحاح ١٢ آية ٣) الى ١٠٠ دينار فقط فى عصر بلينى فى أواخر نفس القرن .

هكذا حقق هيبالوس — كولومبوس القرن الأول ق.م — شهرة عالمية وتاريخية وأطلق اسمه على الرياح الجنوبية الغربية ، وعلى رأس عند الساحل الأفريقي وعلى جزء من بحر العرب بالقرب من الخليج (الفارسى) (٧٦) .

وقد لاحظ المختصون بدراسة العملة الرومانية وامكان انتشارها وجود النقود الرومانية التى ترجع حتى عصر نيرون فى جنوب الهند حيث يكثر اللؤلؤ والحرير والعطور والأحجار الكريمة ، ولكن بعد عصر نيرون قلت هذه العملة فى جنوب الهند وتظهرت فى شمالها حيث مناطق انتاج القطن والجوت مما يدل على أن اجراءات نيرون الحازمة للحد من السلع الاستهلاكية الكمالية قد نجحت الى حد ما والتى أكملها من بعده فسباسيانوس (٧٧) .

كان فسباسيانوس (٦٩ — ٧٩ م) يعرف الشرق الأوسط جيداً ، كما كان مدركاً لمشاكله ، فقد شغل منصب القائد الأعلى للقوات الرومانية التى سحقت ثورة اليهود ولهذا وضع حلولا سريعة لمشاكله مثل توسع البارثيين ومنع وصولهم الى سواحل البحرين الأحمر والأبيض ، كما قام بتأمين جنوب سوريا كجزء من تأمين البحر الأحمر فجنوب الأردن يشكل فى تكوينه سهلا منخفضا يؤدى الى سواحل البحر الأحمر سواء الى ميناء ايلانا على العقبة أو الى طريق القوافل الذى يربط بين البطراء وميناء لوكى كومى .

أما بخصوص قضية النزف الدائم لاحتياط الذهب المتجه الى دول الشرق مقابل الكماليات فيبدو أن فسباسيانوس أكمل ما بدأه تيبريوس ونيرون فى الحد من ارتداء الحرير والأحجار الكريمة ، وقد سبق أن أشرنا الى أن النقود الرومانية بعد عصر نيرون قلت فى جنوب الهند بينما ظهرت فى شمالها حيث منطقة نتاج القطن والجوت ، ولكن بالرغم من

(76) Warmington and Cary, Op. cit, PP. 95 - 96.

(77) Charlesworth, Op. cit, P. 61.

ذلك لم يتوقف استيراد التوابل بل زاد سوقها فى روما حتى أن دوسيتيانوس اضطر الى بناء حى خاص بسوق التوابل (٧٨) .

كان تراجانوس من أكثر الأباطرة اهتماما بالتجارة مع الشرق ، اذ قام باعادة حفر القناة التى تصل بين النيل والبحر الأحمر بالقرب من كلوسون عند خليج السويس عرفت باسم قناة تراجانوس ، وكان اتساعها يقدر بـ ١٥٠ قدما وقادرة على استقبال أكبر السفن التجارية فى ذلك الوقت كما كانت هذه القناة ترتبط بمنف عن طريق قناة صغيرة وبذلك ربطت مصر داخليا وخارجيا بالبحر الأحمر (٧٩) .

واحكاما لقبضة الامبراطورية على البحر الأحمر انهى تراجانوس فكرة وجود دولة مستقلة حتى ولو كانت عميلة ـ للانباط ، وضم بلادها كلها الى الامبراطورية عام ١٠٦ ميلادية وسماها ولاية (بلاد العرب) وتلى ذلك مشروعه باقامة شبكة من الطرق المعبدة التى تبدأ من شرق الأردن لربط المراكز التجارية الهامة وينتهى عند البحر الأحمر كما أقام نقاط الحراسة (٨٠) على طوله ، كما وضع أسطولا حربيا فى البحر الأحمر لمطاردة القراصنة، والقضاء على أى ظاهرة تمرد يقوم بها العرب الساخطون على مشاركة الرومان لهم فى التجارة التى جنوا ثمارها عصور ضاربة فى القدم كوسطاء لها بين الشرق والغرب . ولما كان هؤلاء القراصنة يمثلون تهديدا (للسلام الرومانى) فى البحر الأحمر ولحركة السفن التجارية فقد جعل الامبراطور تراجانوس أسطول الامبراطورية فى خدمة هذه السفن تماما مثلما فعل البطالمة من قبل (٨١) . وبضم مملكة الأنباط الى الامبراطورية تضاءل شأن البطراء العاصمة التجارية القديمة ، وانتقلت الأهمية الى مدن أخرى مثل بوصرى التى ازدهرت وأصبحت العاصمة لدرجة انها سمت نفسها مدينة بوصرى الجديدة التراجانية كما ازدهرت مدنا أخرى على

---

(78) Millar, P. 83; P. 25, Charlesworth, P. 223.

(٧٩) سيد أحمد الناصرى : تاريخ الامبراطورية الرومانية السياسى والاجتماعى الطبعة الثانية ١٩٧٨ ، ص ٢٤٤ .

(80) Charlesworth, P. 41, 43.

(81) Ibid P. 43.

حساب البطراء مثل فيلادلفيا (عمان) وكاناثا . كما أقام وكلاء الامبراطورية في عهد تراجانوس طريقا جديدا يبدأ من حدود سوريا الجنوبية الى البحر الأحمر ، وقد عثر على نقش هناك يتحدث عن بوابة أقامهـا أحد الأثرياء هناك مساهمة منه لرخاء الامبراطورية (٨٢) ، وقد استقبل هـذا الطريق كل أنواع التجارة التي تدفقت على دمشق ومدن الشمال من ميناء ايلانا النبطي وميناء ليوكي كومي على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، ولقـد ساد احساس بالأمن لدى التجار نتيجة لغزوات تراجانوس وحملته الناجحة ضد البارثين واستيلائه على عاصمتهم طيسفون (المدائن) عام ١١٥ م لأن هذه الدولة كانت الخطر الذي يهدد السلام والوجود الروماني في الشرق الأوسط والبحر الأحمر . كما حرص على ربط البحـر الأحمـر بالخليج (الفارسي) ، وكان يتمنى أن يستولي على الهند ليربط بين المحيط الهندي والخليج (٨٣) .

غير أن النزيف الدائم للذهب الروماني المتجه الى الشرق لم يتوقف ولم تأت محاولات نيرون بالهدف المرجو منها ، ولهذا نجد تراجانوس يتجه في غزواته الى منطقة داكيا الشهيرة بمناجم الذهب وذلك في عام ١٠٦م واستطاع أن يستولي على خزائن الملك هناك والتي قيل أنها كانت تحوى ذهبا بما يساوي خمسة ملايين رطل روماني وزنا وضعف هذا الوزن من الفضة (٨٤) ، ونتيجة لتدفق الذهب الجديد هبط سعر الذهب في الأسواق الرومانية بنسبة ٣٪ (٨٥) . بينما ارتفع سعر الفضة مما اضطر الامبراطور الى زيادة نسبة الخلط في الدينـار الروماني باضافة القصدير والنحاس بنسبة معينة ليعيد التوازن بين النقود الذهبية والفضية (٨٦) كما قام بجمع العملات القديمة التي سكها نيرون وهي ذات وزن ثقيل ومعدن صافي وسك منها عملته بل أن زاد نسبة القصدير في الفضة ، ولـكن لا يعطي فرصة

---

(82) Charleswonth. Ibid, P. 231.

(٨٣) الناصري : المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

(84) Oxford Classioal Dictionory sub Trajan.

(85) C. H. C. Sutherland, Jold : Its beauty, Power and allure London (1959) P. 98.

(86) Millar, Op. cit, P. 219 - 220.

لاختزان العملات القديمة (٨٧) . لقد كانت سياسة تراجانوس النقدية جزءا لا يتجزأ من سياسة التوسع التجارى فى البحر الأحمر لأن أغسطس وضع بداية هذه الاستراتيجية وهى أن يقوم الأورايوس الذهبي والدينار الفضى بدورهما فى نشر النفوذ الرومانى فى البلدان الواقعة على جانبى البحر ويغزو أسواقها لأن تداول العملة الرومانية وعليها صورة الامبراطور وشعار الامبراطورية يحقق انتصارا معنويا على شعوب البحر الأحمر يفوق النفوذ السياسى المباشر . ولقد نجح تراجانوس فى ذلك وعاد الوضع طبيعيا فى ميزان المدفوعات (٨٨) ، وقلل الاستهلاك من الكماليات الشرقية، وكان نفوذ روما فى الشرق قد أصبح قويا حتى الهند (٨٩) اذ أرسل الملك الهندى كوشان وفدا رسميا لأول مرة لتهنئة تراجانوس بمناسبة جلوسه على العرش عام ٩٩ م

وبعد تراجانوس قام خليفته هادريانوس بالكثير من الأعمال من أجل دعم الطرق الخاصة بالبحر الأحمر ، ففى مصر قام ببناء طريق جديد فى الصحراء الشرقية يبدأ من مدينته التى شيدها فى مصر على الجانب الشرقى للنيل وهى انطونيبوليس (الشيخ عبادة بالقرب من ملوى محافظة المنيا) وينتهى عند ميناء مصر الأول على البحر الأحمر وهو ميوس هورموس ، وعرف هذا الطريق باسم طريق هاد ريان وزوده بمحطات التموين والمياه وأقام فيه نقاط للحراسة ، وطريق هادريانوس الجديد يمر بمنطقة منبسطة آمنة وأجود بكثير من الطرق القديمة (٩١) ، وكان هدفه بالطبع تحسين الاتصال بين البحر الأحمر والنيل عن طريق تقصير المسافة بقدر الامكان لخفض تكاليف السلع ، وفى نفس الوقت يعطى لمدينته الجديدة شريانا اقتصاديا حيويا للدخل والتجارة . لتزدهر وتنافس مدينة تقطحيث أعفى سكانها من ضرائب المكوس على التجارة . ولقد وصلت تجارة الامبراطورية الى قمة نشاطها فى عصر هادريانوس وأنطونينوس بيوس . وفى عهد ماركوس أوريليوس وضع لأول مرة تعريفة جمركية للمكوس التى

---

(87) Cf. Dio Cassius, LXVIII, 15.
(88) Millar, Op. cit, P. 230.
(89) Charlesworth, P. 61.
(90) Meredith, J. E. A. vol 38 (1952), P. 101.
(91) Charlesworth, Ibid P. 22, P. 62.

تجمع بين موانى البحر الأحمر عرفت أحيانا باسم تعريفة المكوس السكندرية ، وقد تضمنت هذه التعريفة جميع أنواع التوابل والسلع الشرقية وقيمة الضرائب المفروضة على كل منها وهى عادة ٢٥٪ ، ولوحظ أن الفلفل الأسود . أعفى من الجمارك وكذلك الكندر لأن استخدامهما أصبح أساسيا سواء فى الطهى أو الأغراض الدينية ، وبالتالى لم يعتبرا من الكماليات (٩٢) ، ولكن الذى يهمنا هو أن وضع الامبراطورية لتعريفة جمارك لموانىء البحر الأحمر يدل على السيطرة الكاملة وعلى الدخل الوفير الذى كانت تجنيه منه . ومن الطريف أن جستنيانوس استعان بهذه اللائحة عندما وضع لوائح مشابهة .

غير أنه بمقدم القرن الثالث بدأت الأحوال تتغير نتيجة لحدوث تغيرات طرأت على الامبراطورية من ناحية ، وعلى دويلات البحر الأحمر من ناحية أخرى ونتج عن ذلك تدهور ملحوظ فى حجم التجارة عبر البحر الأحمر . والذى يدل عليه انخفاض كمية النقود الرومانية التى عثر عليها فى الهند والتى ترجع الى مابعد القرن الثانى الميلادى (٩٣) ويلاحظ أن العملة الرومانية فى البحر الأحمر فقدت الكثير من مهابتها وقيمتها النقدية فى القرن الثالث الميلادى الذى يمثل بداية الأزمات الاقتصادية بسبب الحروب الخارجية والأهلية وارتفاع الضرائب وقلة الانتاج مما أدى الى ارتفاع الأسعار ووجود الاختناق الاقتصادى فى بعض السلع مما خلق السوق السوداء أو مجتمع الأزمات السلعية ، ونتيجة لذلك اضطر الامبراطور أوريليانوس فى عام ٢٧٤ م الى جمع العملات القديمة التى ترجع الى عهود نيرون تراجانوس وغيرهما واعادة سكها فى عملة جديدة أما ديوقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ م) فقد اضطر الى اصلاح الاقتصاد الرومانى لاعادة الثقة فى العملة الرومانية فيما وراء البحار ، فقام باعادة تثبيت الأورايوس الذهبى لاعادة الثقة فى قيمته المنهارة وذلك فى عام ٢٩٤ م ، اذ جعل وزنه ثابتا وبنسبة ١/٦٠ من الرطل الرومانى ، وتلى ذلك قيامه باصلاحات مالية جذرية ، وقد دعم هذا الاصلاح باصداره قائمة تحدد الأسعار والخدمات

(92) Millar, Op. cit, P. 25.

(93) Charlesworth, P. 61., P. 70.

فى عام ٣٠١ م . ومن المؤكد أن اصلاحات ديوقلديانوس بتوكيدها على الأورايوس الذهبى ـ عملة الشرق المفضلة ـ (مثل الماريا ترايزا فى العصر الحديث) أعاد الثقة المالية والاقتصادية فى الدينار الرومانى وأيقظه من خموله فى الأسواق الشرقية .

لا يمكن فصل التجارة عن السياسة فكلاهما مرتبط ومتأثرا بالاخر، والدينار القوى سفير قسوى للدولة التى يمثلها ، ولقد ذكر بلينى أن القادة الرومان فى حملاتهم العسكرية كانوا يفكرون بعقلية التجار ، كما أن المعسكرات الرومانية كانت تتحول الى أسواق Canabae وبعضها تحول بالفعل الى مدن (٩٤) فيما بعد .

غير أن القرن الثالث والرابع الميلاديين شهد أحداثا وتطورات سياسية هامة كانت بداية نهاية السلام الأوغسطسى فى البحر الأحمر ، اذ بدأ الضعف السياسى والاقتصادى يهاجم الامبراطورية من الداخل ففقدت القوة الدافعة مما ادى الى ضعفها خارج ايطاليا ، وفى البحر الأحمر تزايد خطر ونمو دولة أكسوم التى سمعنا عنها منذ أيام نيرون ، واستطاعت فى القرن الثالث أن تستولى على الدولة الكوشية فى الشمال والصديقة للرومان وبدأت تدخل عالم تجارة البحر الأحمر بفضل مينائها عدول ، بل تطلعت الى الاستيلاء على اليمن لاحكام القبضة على البحر الأحمر . وفى الشرق الأوسط برزت الدولة الساسانية فى فارس والتى احيت القومية والنفوذ الفارسى الذى ضاع منذ أن فتح الاسكندر بلاد الفرس فى الثلث الأخير من القرن الرابع ق.م. وطالبت هذه الأسرة بحق الامبراطورية الفارسية فى الشرق الأوسط كله .

وفى اليمن حدثت تطورات سياسية هامة فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين فمن المعروف أن الدولة الحميرية التى نهضت فى القرن الأول على أنقاض حكم قبيلة الأوسان نجحت فى نهاية القرن الأول فى بسط نفوذها على سبأ وفى اقامة حكم جديد قاعدته ظفار جنوب صنعاء الحالية، كما نجحت فى فرض نفوذها على الساحل الجنوبى والجنوبى الغربى لشبه

---

(94) Ibid P. 232 - 4.

جزيرة العرب بعد أن اسقطت السيادة الحضرموتية على الساحل الجنوبى وخلال هذه الفترة توحد الجنوب العربى كله تحت قيـادة واحـدة ودولة واحدة ، وشهد خلالها اليمن المتحد أسعد أيامه وأكثرها رخاء . حيث أصبح « التبع » ملكا على سبأ وحضرموت ويمنات وتهامة غير أنه من الملاحظ أن اليهودية بدأت تنتشر فى جنوب الجزيرة منذ تدمير هادريانوس لأورشليم عام ١٣٢ م وهجرة عدد كبير من اليهود الى اليمن وبدأت حركة تبشيرية يهودية فى جنوب الجزيرة ، ولا شك أن تزايد النفوذ اليهودى فى اليمن وفى الجنوب بكل ما يحمله اليهود من ذكرى مريرة لتدمير الرومان لأورشليم خلق نوعا من العداء والحقد ازاء الوجود الرومانى ، وهذا العداء أحيا حقد اليمنيين القديم ازاء الرومان ، ولهذا بدأ الاتجـاه العـام فى اليمن يتعاطف مع الدولة الساسانية الفارسية ويمهد لها لطرد الرومان من منطقة البحر الأحمر .

كانت الامبراطورية الرومانية فى ذلك الوقت قد انقسمت الى شطرين وورث الشطر الشرقى الذى كان عاصمته القسطنطينية والذى نعرفـه بالدولة البيزنطية نفوذ روما فى البحر الأحمر ، ولذا سارعت الامبراطورية البيزنطية التى كانت تعتبر نفسها حامية للمسيحية بالتنبه لخطر التبشـير اليهودى فى الجنوب فسارعت بارسال بعثات تبشيرية مسيحية الى اليمن ونجحت فى نشر المسيحية فى نجران ابان القرن الخامس ، وقد نزع ملوك حمير من تغلغل المسـيحية فى ديارهم خـوفا من تحولها الى البيزنطيين بشدة . أما فى الحبشة فقد ثبتت المسيحية أقدامها وقامت علاقات قوية بين بيزنطة والحبشة وتعاون الأحباش مع الامبراطورية البيزنطية وأصبحوا هم المسئولين عن نقل التجارة نيابة عن بيزنطـة التى وقفت من ورائهم وشجعتهم على مقاومة اليهودية فى اليمن وطرد النفوذ الفارسى حيث كان الفرس يساندون العرب الجنوبيين ويوكلون اليهم نقل التجارة بين (الخليج الفارسى) والبحر الأحمر ، ومن ثم بدأ الأحباش يهددون الجنوب العربى كله ويتطلعون الى احتلاله ، أى أن العداء بين الفرس والرومان اتخذ شكل الصراع الدينى بين اليهودية والمسيحية على أرض اليمن (٩٥) بلغ أشـده

---

(95) Philip. K. Hitti, Op. cit, P. 60 F.

خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، ولا نلبث أن نرى ذا نواس آخر الملوك الحميريين يعتنق اليهودية ويحاول القضاء على المسيحيين فى نجران عندئذ أوعزت بيزنطة الى النجاشى ملك الحبشة أن يغـزو اليمن فغزاها سنة خمسماية وخمس وعشرين ميلادية ، واستولى عليها وضمها الى بلاده وظل هنـا الاحتلال الحبشى قائما نحو خمسين عاما ثارت خلالها اليمن ثورة عنيفة ، غير أن الفرس لم يسكتوا على هذه الخطوة من جانب الحبشة وحليفتهم بيزنطة ولما استنجد أهل اليمن بالفرس سارعت الامبراطورية الفارسية بالتدخل وأرسلت جيوشها فاستولت على اليمن عام ٥٧٠ م وطردوا الأحباش والبيزنطيين . وبذلك أصبح البحر الأحمـر ميدان صراع بين قوتين : الفرس ويسيطرون على الساحل الشرقى والبيزنطيين ويسيطرون على الساحل الغربى ، وظل الفرس فى اليمن حتى سنة ثمان وعشرين وستماية ميلادية عندما اعتنق باذان عاملهم فى اليمن الاسلام دينا وبذلك أسدل الستار عن صراع القـوتين الفـارسية والبيزنطية على البحر الأحمر وبدأت السيادة الاسلامية تظهر فى الأفق .

القسم الثانى

البحر الأحمر فى التاريخ الوسيط

٤

البحر الأحمر طريقا للدعوة الإسلامية

دكتور : عبد الشافى غنيم عبد القادر
أستاذ التاريخ الاسلامى بجامعة قطر

لم يكن البحر الأحمر فى أى عصر من عصور التاريخ يحول بين الشعوب الآسيوية المتاخمة للساحل الشرقى منه وبين الشعوب الافريقية المتاخمة لساحله الغربى من الاتصال والاختلاط والاندماج بل والتأثير الأنثربولوجى والعقيدى والتجارى ولذلك كان التفاعل واضحا على مر العصور فى كلا الجانبين وقصة البحر الأحمر بين هاتين المنطقتين تجعل منه — على عكس ما يتصور الكثيرون — وسيلة اتصال سهلة وميسرة منذ عرف الانسان كيف يتنقل على سطح المـاء ويصنع القوارب والمراكب والسفن . وأبرز ظاهرة تاريخية فى ذلك الاتصال غلبة تأثير الشعوب الآسيوية — وبوجه أدق — شعوب شبه الجزيرة العربية على الشعوب الافريقية — وبصفة خاصة — بلاد الصومال والحبشة والسودان ومصر فى التركيبات الجنسية والرسالات السماوية والتأثيرات التجارية والاقتصادية .

ولقد أجمع مؤرخو العرب وعدد غير قليل من المؤرخين والمستشرقين وعلماء الأنثربولوجيا ان الموطن الأول للساميين هو بلاد العرب وعلى وجه أدق شرق وجنوب شرق شبه الجزيرة العربية اعتمادا على أسس كتابية وأركيولوجية وتاريخية وفيلولوجية وأن التأثير الحامى والسامى انتقل من شبه الجزيرة عبر بوغاز باب المندب الى القارة الأفريقية وذلك ما تؤكده الانسيكلوبديا البريطانية بقولها (١) : « ان التقارب فى الميزات الجنسية بين اليمنيين والأحباش أمر طبيعى لأن الأحباش ليسوا الا خليطا من العناصر اليمنية بالأجناس الأخرى ولم تكن الحبشة بلدا منفصلا ولكن كان سكانها

---

(١) Encyclopaedia Britt. XXIV, P. 618.

من مهاجرى العرب وذلك يفسر لنـــا السبب فى أن المؤرخين الأقدمين لم ينظروا الى اليمن والحبشة على أنهما قطران منفصلان ولكن قسمين لقطر واحد أطلقوا عليه « اثيوبيا «Ethiopia» (٢) .

والحقيقة التاريخية التى يجمع عليها كثير من المؤرخين وفى مقدمتهم دى غوية (De Goege) وونكلر (Winchler) ونولدكه (Noldeche) وصمويل لانج (Samuel Laing) وروجر (Rogers) أن قسما كبيرا من الساميين عبر البحر الأحمر فى طريقه الى الحبشة والصومال وشمال السودان ومصر وشمال أفريقية وأن ذلك الوجود السلالى القديم كان أحد العوامل الأساسية فى نشر الاسلام بعد ذلك فى ربوع هذه البلاد .

أما عن العلاقات التجارية وتأثيرها عبر البحر بين الجانبين الشرقى والغربى ان صح هذا التعبير — فيتضح لنـــا ذلك من الدور الكبير الذى كان يلعبه هـــذا البحر فى التجارة العالميـــة فى التاريخين القديم والوسيط وما زال يليه (يلعبه) فى التاريخ الحديث والمعاصر بل لعل طريق الشرق الأقصى عبر الخليج وسواحل شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر كان أبرز هـــذه الطرق ويكفى أن نذكر العلاقات التجارية التى كانت تربط بين سيراف وقيس والبصرة والابله وهرمز وموانى معذر وعدن وعدوليس وجـــده وينبع والقلزم والسويس والطور وعيذاب وايله وبولاق وغيرها لنوضح الى أى حـــد كان الاتصال متاحا بين شرقى البحر وغربه .

أما عن الرسالات السماوية فمن الواضح أن البحر الأحمر كان واحدا من بين القناطر التى عبرتها هـــذه العقائد الروحية العالمية .

ويذكر المؤرخان الرندورف Vellendorff (٣) وترمنجهام Trimingham (٤)

---

(٢) لفظ أثيوبيا اسم قديم جاء ذكره فى كثير من الكتابات الاغريقيـــة القديمة وغيرها من المراجع التاريخية والدينية الهامة ومعنـــاها الاغريقى (الوجه المحروق) ولقد أطلقتها بعض المراجع القديمة وفى مقدمتها العهد القديم على ملك النوبة وامتد اطلاقها على سكان القارة الأفريقية جنوب الصحراء وأعالى النيل .

(٣) The Ethiopians. P. 50.

(٤) Islam In Ethiopia, P. 19.

انه على الرغم من أن هناك بعض المقاطع المتناثرة فى العهد القديم (Old Testament) تشير الى أن اليهود الذين استقروا فى مصر واصل بعضهم مسيرته الى بلاد كوش والنوبة سنة ٥٨١ ق. م الا أن الأرجح أن هؤلاء الذين تسربوا الى هذه البلاد والى بلاد الحبشة كان قليلا لأن الوثائق التاريخية المعتمدة عن دخول الدين اليهودى الى جزيرة العرب قبل الميلاد واستقرارهم فى خيبر ويثرب ووادى القرى وغيرها هاجر كثير منهم مع بقية المهاجرين العرب قبل الميلاد الى الحبشة عبر البحر الأحمر ويبدو أنهم لم يهاجروا على هيئة جماعات ولكنهم انضموا الى مواكب المهاجرين كأفراد ثم كونوا بعد وصولهم جالية مستقلة وبدأ أثرهم يظهر فى ثقافة البلاد وحضارتها بصورة مستقلة وقد أدى ذلك الى اعتناق بعض الأحباش للديانة اليهودية وفى نفس الفترة كان أحفاد سليمان قد بدأوا نشاطهم التجارى فى البحر االحمر بحثا عن الذهب وقد عزز ذلك استقرار الديانة اليهودية فى بلاد الحبشة .

ولا بأس هنا من أن نتعرض لاحدى القصص الأسطورية التى كان يروجها ملوك الأحباش لتثبيت عروشهم وترسيخ قداستهم فى أذهان مواطنيهم ونحن نتعرض لها هنا بسبب ارتباطها بعملية الاتصال القديمة بين شعوب المنطقتين عبر البحر الأحمر ولذلك سنجتزىء منها ما يختص بهذا الجانب مستبعدين الجانب الآخر لأنه يتعارض مع أبسط القواعد الجغرافية ويتنافى مع بعض الآيات القرآنية . يتداول الأحباش بتوجيه من ملوكهم قصة جمعها كتاب بعنوان وادى الملوك (٥) وهو أحد كتبهم المقدسة أنه نتيجة للاتصال الذى تم بين الملكة بلقيس ملكة سبأ (٦) وسليمان فى بيت المقدس أن أنجبا ولدا يدعى « منليك » الذى عين بعد ذلك كأول ملك الأسرة ملوك الأحباش أنه سرق وهو فى طريقه الى الحبشة « تابوت العهد » من أبيه وحفظه فى عاصمته اكسوم التى أطلق عليها « أرض صهيون الجديدة » .

---

(٥) Ullendorff, The Ethiopians, pp. 143 - 144.

(٦) يذكرون خطأ أن سبأ فى اقليم أرتريا وذلك يخالف الواقع الجغرافى والتاريخى وما ورد فى القرآن الكريم .

أما عن دخول المسيحية إلى الحبشة فيتعرض لها ترمنجهام Trimingham بشيء من التفصيل قائلا « بدأت المسيحية تتسرب الى شرقى أفريقيا وخاصة الحبشة على يد تجار المدن الشرقية للبحر المتوسط وفى مقدمتها مدينة صور وتذكر الروايات المسيحية أن الأحباش أسروا ركاب احدى سفن مدينة صور فى أحد الموانى الحبشية على البحر الأحمر وكان من بينهم اثنان من القساوسة أحدهما فرومنتيوس Fromentius والثانى أوديسيوس Odisius وأعجب أزانا Azana ملك الحبشة بالرجلين فقربهما اليه واستطاع هذان القسيسان أن يقنعا الملك الحبشي باعتناق المسيحية وسمح لهما بالدعوة لهما فتعاونا مع التجار اليونانيين المقيمين هناك على بناء الكنائس واقامة الشعائر المسيحية وأخذوا يمهدون لانتشار ونمو المسيحية هناك ولم تمض فترة حتى كانت المسيحية هى الديانة الرسمية فى الحبشة والبلاد المحيطة بها مما جعل كنيسة الاسكندرية تعين المطارنة لرئاسة الكنيسة الحبشية .

وفى عام ٥٢٤ م طلبت الامبراطورية البيزنطية من الأحباش حماية المسيحيين الذين يعيشون فى جنوب الجزيرة العربية من ظلم الملك الحميرى اليهودى ذى نواس وصدع امبراطور الحبشة بالأمر وأرسل جيوشه بقيادة أرياط لغزو اليمن وانتهت الحرب بانتصار الأحباش وهزيمة ذى نواس وعين أبرهة ملكا على اليمن وقد سجلت أيام هذه الحقبة من تاريخ العلاقات بين الحبشة واليمن على سد مأرب (٧) .

الاسلام يعبر البحر الأحمر الى أفريقيا

لقد كانت الدعوة الاسلامية عبر البحر الأحمر الى أفريقية من منابعها الأصلية فى مكة أقصر طريقا وأيسر منالا منها الى كثير من بلدان شبه الجزيرة العربية ومنها يثرب فعندما اشتد الايذاء على السابقين الى الاسلام من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لهم فى الهجرة الى الحبشة قائلا : « لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه (٨) » فكانت أول هجرة فى الاسلام سنة ٦١٥ م (السنة الخامسة بعد الدعوة) (٩) .

(٧) Trimingham, Islam In Ethiopia, pp. 38 - 39.
(٨) ابن هشام : سيرة النبى ، ج ١ ص ٣٤٣
(٩) عبد السلام هارون : تهذيب سيرة ابن هشام ص ٩٢

ويذكر النويرى فى تعليل اختيار الرسول للحبشة دون غيرها من البلاد الكتابية أو الوثنية وفى تبرير وصفه لملك الحبشة أنه ملك لا يظلم عنده أحد رواية عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن نجاشى الحبشة « أصحمه » كان أبوه ملكا على الحبشة وهو فتى صغير فنازعه عمه الملك واستولى عليه من أخيه وتشرد الصبى أصحمه حتى بيع الى رجل عربى من بنى ضمرة فمكث ببلاد العرب مدة تعرف فيها على عاداتهم ولهجاتهم ثم عاد الى الحبشة واستعاد ملك أبيه ومن هنا كان سر التعاطف بينه وبين العرب بوجه عام .

ومهما يكن من أمر فقد أثبت اختيار الرسول للحبشة أنه كان اختيارا سليما لأن معظم المدن والقبائل العربية كانت حتى ذلك الوقت تقف موقف المكابر المعاند من الدعوة الاسلامية بالاضافة الى احتمال مجاملتها لقريش كبرى القبائل فى شبه الجزيرة العربية كما أن ايفادهم الى الحيرة أو الشام محفوف بالخطر لأنها كانت أسواقا يتردد عليها العرب بين حين وآخر أما التفكير فى ارسالهم الى مواطن أهل الكتاب من قبائل العرب المعتنقين للديانات اليهودية والمسيحية فقد استبعد لشدة عدائهم للاسلام والخوف من منافسته لعقائدهم كما جاء فى قوله تعالى : « ذلك أنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل » (١١) .

ويذكر الدكتور حسن ابراهيم حسن أن الحبشة كانت أقرب البلاد المسيحية التى يحكمها ملك مسيحى الى الجزيرة العربية والسفر اليها أهون أمرا وأسلم عاقبة اذ لا يزيد عن كونه عبورا للبحر الأحمر وهو أسلم من اختراق الجزيرة العربية شمالا وجنوبا من خلال القبائل العربية المعادية (١٢) .

وليس من شك فى أن أعداء الدعوة لم يخطر ببالهم أبدا أن يضحى السابقون الى الاسلام بوطنهم ومهد حياتهم وأن يذهبوا الى هذا البلد البعيد عن مواطنهم الأولى .

---

(١٠) نهاية الارب فى فنون الأدب . جـ ٦ ص ٢٥٢

(١١) سورة آل عمران آية ٢٥

(١٢) تاريخ الاسلام . جـ ١ ص ٨٧

ويذكر أبو محمد عبد الملك بن هشام (١٣) عن زياد بن عبد الله البكائى عن محمد بن اسحق المطلبى أن عددا كبيرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج الى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارا الى الله بدينهم ذهبوا فى سفينتين تجاريتين لقاء نصف دينار عن كل واحد منهم ورست السفينتان عند مكان على الشاطىء اسمه (مصدر) جنوبى ميناء « عدوليس » الميناء الأريترى القديم ومن هناك اتجهوا نحو « اكسوم » « الحبشة » وكان مجموع المهاجرين من المسلمين عدا أبنائهم الذين خرجوا معهم صغارا أو ولدوا بها بعد ذلك ثلاثة وثمانين رجلا وسيدة ، ويذكر ابن هشام عددا كبيرا من الأسر العربية المهاجرة فى مقدمتهم عثمان بن عفان ابن أبى العاص وامرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو حذيفة ابن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وامرأته سهيلة بنت سهيل تن عمرو ومن بنى أسد الزبير ابن العوام بن خويلد ومن بنى عبد الدار مصعب بن عمير بن هاشم ومن بنى زهرة عبد الرحمن بن عوف ومن بنى مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة بنت أبى ابن المغيرة ومن بنى جمح عثمان بن مظعون ومن بنى عدى عامر بن ربيعة ومن بنى هذيل عبد الله بن مسعود ومن بنى بهراء المقداد بن الأسود ومن بنى جمح شرحبيل بن حسنة ومن بنى الحارث أبو عبيدة بن الجراح وغيرهم كثيرون من مختلف القبائل(١٤) انما قصدنا بسرد بعض الأسماء والقبائل لنبين الى أى حد جمعت هذه الهجرة من القبائل العربية ومن الرجالات الذين لمعت أسماؤهم فى التاريخ الاسلامى منهم من اعتلى منصب الخلافة كعثمان بن عفان ومن رشح لها كعبد الرحمن بن عوف أحد الستة الذين قدمهم عمر بن الخطاب قبل وفاته ومنهم كبار كتاب الوحى الذين تزعموا تدوين القرآن الكريم كعبد الله بن مسعود ومن كبار قادة الفتوحات الاسلامية كالمقداد بن الأسود وشرحبيل ابن حسنة وأبو عبيدة بن الجراح القائد العام لفتوحات الشام والزبير ابن العوام .

وليس من شك فى أن هذه الموجة الأولى فى فجر الدعوة الاسلامية — سواء منها من عاد الى الوطن الأم فى صحبة رسول الله ومن بقى منهم

---

(١٣) سيرة النبى . جـ ١ من ص ٣٤٣ — ٣٥٧

(١٤) معناها باللغة العربية عطية .

على هـــذه الأرض الجديدة الوفيرة الخير والمعطيات — قد بشروا بالديانة الاسلامية بين أهالى هـــذه البلاد خاصة بعـــد ذلك الحوار الذى دار أمام الجميع فى حضرة النجاشى (١٥) بين رسل قريش عبد الله بن أبى ربيعـــة وعمرو بن العاص (١٦) وبين جعفر بن أبى طالب أحد قادة المهاجرين وفى حضور بطارقة الكنيسة الحبشية وأراد عمرو بن العـــاص وهو المعروف بذكائه وكيده أن يشكك الملك ورجال الكنيسة فى موقف الاسلام من المسيح عليـــه السلام وتصور عمرو أنه بذلك سوف يسوق المهاجرين أمامه ثانية الى مكة ولكن جعفر بن أبى طالب قال لهم : « انما نقول فى عيسى عليـــه السلام ما يقوله نبينا عليه الصلاة والسلام فى ذلك هو عبد الله ورســـوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول (١٧) » ثم قرأ جعفر شيئا مما جاء فى ذلك فى سورة مريم وشرح له شيئا مما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام قائلا : « أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوى منـــا الضعيف حتى بعث الله رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا (١٨) » الخ .

ولسنا هنـــا بصدد الروايات المختلفة التى تتحدث عن أبعاد هـــذه الهجرة وأهدافها أهى هجرة واحدة أم اثنتين أم ثلاث أم أربع وأى هـــذه الهجرات هى التى حملت خطاب رســـول الله صلى الله عليـــه وسلم الى النجاشى ، انمـــا الذى يهمنا فى هـــذا المقام ونحن نتحدث عن « البحـــر طريقا للدعوة الاسلامية » انها حقيقة تاريخية وانها كانت أول بداية اسلامية على طريق الدعوة أما عن كتاب رســـول الله صلى الله عليـــه وسلم الى النجاشى الذى يعرض عليه فيه اعتناق الاسلام وهو أول دعوة اســـلامية

---

(١٥) ابن هشام : ج ١ ص ٣٠٢

(١٦) ابن هشام : ج ١ ص ٣٠٥ — ٣٠٦

(١٧) عبد السلام هارون : تهذيب سيرة ابن هشام : ص ٦٨

(١٨) للاستزادة من هذا الموضوع يمكن الرجوع الى د. عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب . د. عبد السلام هارون : تهذيب السيرة .

صريحة من امام الدعوة الى ملك الحبشة عبر البحر الأحمر (١٩) وقد جاء فى ذلك الخطاب الذى أرسله النبى صلى الله عليه وسلم مع عمـــرو بن أمية الضمرى : « من محمد رسول الله الى النجاشى ملك الحبشة انى احمد اليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن واشهد أن عيسى بن مريم البتول الطيبة الحصينة حملته من روحه ونفخه كما خلق آدم بيـــده وانى أدعوك الى الله وحــده لا شريك له وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فانى رسول الله وانى أدعوك وجنودك الى الله عز وجــل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحى وقد بعثت اليكم ابن عمى جعفرا ومعه نفــر من المسلمين والسلام على من اتبع الهدى » .

ويذكر البعض أن السبب فى اختيار عمرو بن أمية الضمرى لحمــل كتاب الرسول الى النجاشى دون رجال من امثال عثمان بن عفان وجعفر بن ابى طالب وأبى عبيده بن الجراح أن بنى ضمرة هم الذين استضافوا أصحمه فى هجرته وفق القصة التى سبق أن تناولناها بالحديث ومهما يكن من امر فالذى يمكن أن نستنتجه من ذلك كله :

أولا — أن هذه الهجرة الأولى الى الحبشة لم تكن مجــرد استجابة لظروف محلية تعرض فيها المسلمون للاضطهاد والايذاء وانمــا كانت الى جانب ذلك دعوة الى الاسلام فى هــذه البلاد الوثيقة الصلة ببلاد العرب منذ اقدم العصور .

ثانيا — ان اختيار هــذه البلاد غربى البحر الأحمر فى هــذا الوقت من فجر الدعوة الاسلامية انما يدل على أنها ربمــا كانت من أقرب البلاد طريقا الى مهبط الدعوة الاسلامية وأن البحر الأحمر ربمــا كان أسهل على المسافر من قطع الطرق الصحراوية القاحلة المعرضة للأخطار .

ثالثا — أن توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم المهاجرين الأوائل من أصحابه وكتابه الى أرض الحبشة انمــا يدل على توقعات مرضـــية ومطمئنة من جانب النجاشى والا لمــا غامر الرسول بهجرة هــذا النفر الكبير من صحابته فى رفقة أزواجهم وأبنائهم .

---

(١٩) تذكر بعض المراجع انه كان هناك اتصالان كتابيان بين الرسول والملك أولهما مع أصحابه والثانى مع ابنه أرمحه .
Budge, A. History of Ethiopia, p. 198.

رابعا ــ انه ربما يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسل الى النجاشى كتابين أخذهما فى عهد أصحمة مع جعفر بن أبى طالب والثانى فى عهد أريحة مع عمرو بن أمية الضمرى وبذلك يمكن حسم الخلاف بين المؤرخين فى هـــذا الصدد .

خامسا ــ ان فكرة الدعوة الى نشر الاســلام بدأت من فجر البعثة النبوية وكان محمد صلى الله عليه وسلم أول مبشر بها وداعية لها داخل وخارج شبه الجزيرة العربية وكان المسلمون الأولون يعتبرون نشر الدعوة والاعلام الناس بها ركنا من أركان العقيدة لا يختص بها واحد دون آخر ولعل ذلك هو سر انتشار الدعوة فى مختلف أنحاء الأرض وذلك ما سوف نتعرض له بشىء من التفصيل فى نهاية هذا البحث الموجز .

تطور انتشار الدعوة الاسلامية عبر البحر الأحمر :

لقد كانت هذه الهجرة المبكرة عبر البحر الأحمر الى أفريقية الشرقية بداية لانتشار الاسلام فى القارة الأفريقية وربما كان هـــذا البحر المعبر السلمى الكبير الذى عبرت منـــه الدعوة دون ما حاجـــة الى الجيـــوش والأساطيل كما حدث فى عمليات الفتح الاسلامى الواســـعة التى أتاحت للمسلمين فرص نشر الدين الجديد .

والعرب بطبعهم ميالون الى الهجرة حيث يكون الاستقرار سواء كان داخل الجزيرة العربية أو خارجها ميالون الى لم الشمل واستقطاب الأهل والجيرة والعشيرة فما يكادون يستقرون فى مكان يكفل لهم الحياة الهانئة ومطالب المعيشة المستقرة حتى يبعثون فى طلب فروعهم وأبناء مجتمعهم ولم شمل قبائلهم .

وهنا قد يثور تساؤل عن الأسباب التى جعلت المسلمين يغضـــون ابصارهم عن غزو الساحل الشرقى لأفريقية فى فورة الفتوحات الاسلامية كما فعلوا بالنسبة للعراق والشام ومصر وشمالى أفريقية ولعلنا نجد الاجابة على هـــذا التساؤل فيما يلى :

أولا ــ على الرغم من العلاقات التجاريةالتقليدية بين الجانبين الا أن معرفة المسلمين بشرق أفريقية قبل ظهور الاسلام لم يكن يتعدى المنـــاطق

الساحلية بالاضافة الى أن استخدام السفن والأساطيل الحربية لم يظهر بشكله المؤثر الا بعد قيام المسلمين بفتوحاتهم الأخرى .

ثانيا — يذكر صاحب السيرة الحلبية (٢٠) ان علاقات المسلمين بالنجاشى فى فجر الاسلام كان لها أثر فى تجنب الصدام العسكرى بين الجانبين حتى أنه يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم نصح بترك الأحباش وشأنهم طالما أنهم لم يبدأوا بالعدوان وقال : « اتركوا الأحباش ما تركوكم » ونحن نعلم أن أول محاولة لغزو الشام كانت استجابة من أبى بكر الصديق لرغبة من الرسول فى انفاذ أسامة بن زيد .

ثالثا — انتشار التراصنة الأفارقة فى البحر الأحمر فى هذه العصور مما كان يهدد أية محاولة فى هذا السبيل .

ولذلك فانه لما اشتدت أعمال القرصنة فى عهد عمر بن الخطاب وأخذت تهدد تجارة العرب فى البحر الأحمر أوفد حملة بحرية لتأديبهم واستمر نشاط القرصنة هناك الى درجة اضطرت المسلمين فى عام ٨٣ هـ الى اتخاذ خطوة حاسمة لوضع حد لتلك العمليات بأن جردت حملة بحرية فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان احتلت مجموع جزر « وهلك » المجاورة لمدينة يسوع مما أتاح للمسلمين بعد ذلك فرض السيطرة على باقى المراكز البحرية على الشاطىء الافريقى وعلى الانتشار التدريجى للاسلام فى الشرق الافريقى .

ومهما يكن من أمر فانه الى جانب الهجرات المستمرة لبعض القبائل العربية عبر البحر الأحمر لشرق أفريقية التى أخذت تنضم تدريجيا الى فروعها التى سبقتها الى هذه البلاد فان الظروف السياسية التى مرت بالدولة الاسلامية والصراعات الحزبية والطائفية جعلت من البحر الأحمر معبرا للمهاجرين والفارين والمخاطرين الى شرق أفريقية وخاصة بعد الفتنة الكبرى . وعقب الصراع بين على ومعاوية والخلافات والنزاعات القبلية بين القيسنية والكلبية ، ومصارع كبار العلويين وفى مقدمتهم الحسين بن على وزيد بن على زين العابدين وولده يحيى الى غير ذلك من الأحداث السياسية التى فتحت أعين أصحاب هذه المذاهب والطوائف على البحر

---

(٢٠) الجزء الثالث ص ٢٩٤

الاحمر والحياة فى مناطق ارتريا والصومال والحبشة وشمال السودان حيث لا توجد الولايات والامارات التابعة للأمويين أو العباسيين الذين كانوا لا يتركون أعدادهم يستقرون فى أية دولة أو امارة تخضع لحكمهم وكان للعلويين نصيب كبير فى هذا المجال الآمن الفسيح حيث الشعوب الافريقية أقرب الى الفطرة وأيسر فى الاقتناع بالمذاهب والآراء المختلفة وتطور الأمر — كما سنرى — الى تكوين امارات وممالك وسلطنات اسلامية فى هذه البلاد وضعت من الجذور الاسلامية ما زال باقيا وممتدا الى الآن .

اذا أضفنا الى هـذه الظروف السياسية والاجتماعية والدينية التى ساعدت على نشر الاسلام فى أفريقية الشرقية عنصر النشـاط التجارى العربى الذى كان سابقا حتى على ظهور الاسلام أدركنا الى أى حد لعب التجار المسلمون الذين عبروا البحر الأحمر دورا فى نشر الاسـلام نتيجة احتكاكهم بالعناصر المختلفة من المسيحيين والوثنيين وتجولهم فى المنـاطق المختلفة سعيا وراء التجارة ومصادر الرزق فكان هؤلاء التجار هم دعاة الاسلام الذى انتشر على أيديهم أينما تغلغلوا فى أفريقية وكان ما يتصفون به من حسن المعاملة والصدق أثر كبير فى كسب الاحترام والثقة وعن هذا الطريق البسيط انتشر الاسلام انتشارا منقطع النظير وليس من شك أنه كان هناك من العوامل ما ساعد المسلمين على نشر دعوتهم فى أفريقيـة تخص بالذكر منها ما يلى :

أولا — ان ظهور الاسلام كان مواكبا لقمة الخلافات فى داخل الكنيسة المسيحية وخاصة بين الكنيستين الشرقية والغربية حول طبيعة السـيد المسيح والجدل حول المينوفيزية والأيقونية وقد ترك ذلك أثره على المسيحيين فى مختلف أنحاء العالم وتعرض المسيحيون لزعزعة ايمانهم نتيجة للجدل المستمر والمجامع المسكونية المتعاقبة ويروى بعض فلاسفة الفكر أن ظهور الاسلام فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى كانت ضرورة اقتضتها الارادة الالهية لمجابهة هـذه الخلافات ووجد الناس فى تسامحه وبساطته ملجأ من هـذه المجادلات التى لا تنتهى ولا تعرف اللين والتسامح (٢١).

---

(٢١) توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام (ترجمة حسن ابراهيم حسن) ص ٨٨ ، ٨٩

ثانيا — ان الدعوة الى الاسلام كانت على بساطتها جهدا ذاتيا شخصيا لا يستند الى مؤسسات تبشيرية تمدها بالقوة والمال كما هو معهود فى السياسات التبشيرية الكنسية واذا كانت العصور الأخيرة قد شاهدت بعض الجماعات الاسلامية التى أخذت على عاتقها تنظيم نشر الدعوة الاسلامية وتثبيتها الا أنها لم تبلغ فى تأثيرها ما وصل اليه هؤلاء الأشخاص الأوائل الذين كانوا يعملون فرادى بجانب نشاطهم التجارى أو الدينى .

ثالثا — اضطراب الأحوال الداخلية آنذاك فى شرقى أفريقية وكثرة الحروب بين ملك أكسوم وجيرانه بل وأتباعه من حكام المناطق بالاضافة الى ضعف سلطان الكنيسة هناك والخلاف المستمر بين السلطتين الزمنية والدينية وخلو منصب المطرانية فى كثير من الأوقات بسبب الظروف التى كانت تمر بها كنيسة بيزنطة فى ذلك الوقت مما ساعد على تغلغل الاسلام وتسلله الى قلوب الأفراد والجماعات .

رابعا — أن الاسلام كان يواجه فى شرق أفريقية هيكلين ضعيفين ما بين المسيحية والوثنية والأولى كما سبق أن ذكرنا كانت تمر بفترة التمزق من تاريخها بينما كانت الوثنية لا تلبث أن تتداعى أمام قوة الديانة الجديدة وجاذبيتها وبساطتها وشمولها على كل ما يحيط بحاجة الانسان ولذلك كانت الاستجابة لأركانه وتعاليمه مشجعة للمسلمين على المضى فى طريقهم .

ويذكر السير توماس آرنولد (٢٢) أن من الكتب العربية التى تعرضت لانتشار الاسلام فى شرق أفريقية كتابا وجده البرتغاليون فى مدينة كلو Killoa (٢٣) حين اجتاحها دون فرنسيسكو دالميدا Don Francisco d'Almeida سنة ١٥٠٥ م (٢٤) يتحدث ذلك المصدر عن « أن جماعة من العرب تم نفيهم الى أفريقية بسبب تعاليمهم الخارجة على الدين وكان هؤلاء يتبعون شخصا يدعى زيدا من سلالة النبى وقد أطلق على هذه المجموعة المنفية من

---

(٢٢) الدعوة الى الاسلام (ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين) ص ٢٨٦ — ٢٨٧ .

(٢٣) تقع على جزيرة جنوبى زنجبار .

(٢٤) لم يذكر توماس آرنولد اسم هذا المصدر العربى .

المسلمين « أموزيديج » (٢٥) . . . . . . ويظهر أن هذه الجماعة عاشت في خوف عظيم من سكان البلاد الأصليين الوثنيين ولكنها نجحت بالتدريج في بسط مواطنها على طول الساحل حتى جاءتها جماعة أخرى من المهاجرين الذين قدموا من الشاطىء الغربي للخليج الفارسي من مكان لا يبعـــد عن جزيرة البحرين وجاء هؤلاء في سفن ثلاث بزعامة سبعة أخوة هاربين من اضطهاد ملك « لاساه» (٢٦) وهي مدينة قريبة من موطن قبيلتهم وأول مدينة قام المسلمون ببنائها هي « مجدكسو » (٢٧) التي ارتفعت فيما بعد الى تلك القوة التي جعلتها سيدة على كل عرب الساحل ولكن لمـا كان المستوطنون الأصليون وهم « الأموزيديج » من حزب يختلف عن حزب النازحين الجدد حيث كان الأولون من الشيعة والآخرون من أهل السنة أبوا أن يخضعوا لسلطة حكام مقديشيو وارتدوا الى الداخل حيث اندمجوا في الســـكان الأصليين وتزاوجوا معهم وتطبعوا بطباعهم وتخلقوا بأخلاقهم » .

هـــذا النص يؤكد ما ذهبنا اليه من تأثر وانتشار الاسلام في شرقي أفريقية عبر البحر الأحمـــر بالأحداث السياســـية التي حدثت في الدولة الاسلامية ذلك أن ما لقيه زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عن على يد يوسف بن عمر أمير الكوفة في عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ ، ٧٢٤ — ٧٤٣ م) وكيف تم مصرعه والتنكيل بجثته قد أدى لهرب أتباعه من الزيديين الى جنوب وجنوب غربي وشرق شبه الجزيرة العربية ولكن عيون الخليفة الأموى وكان من أشـــد الأمويين تنكيلا بالعلويين (٢٨) جعلت هؤلاء الزيديين يخشون على أنفسهم من عداء الأمويين فعبروا البحر الأحمر واتجهوا نحـــو الاقليم المعـــروف بالصومال حاليا في شرقي افريقية وأسسوا مدينـــة مقديشـــيو واختلطوا بالأفارقة وأسهموا بدور كبير في نشر الدين الاسلامي بوجه عام وآراء الزيدية العلوية بشكل خاص .

ثم توالت بعد ذلك أفواج المسلمين عبر البحر الأحمر الى شرقي أفريقية

---

(٢٥) لعله يقصد أمة زيد بن على زين العابدين بن الحسين .
(٢٦) لعله يقصد الاحساء .
(٢٧) لعله يقصد مقديشيو عاصمة الصومال .
(٢٧) تم في عهده أيضا مصرع يحيى بن زيد في خراسان ١٢٥ هـ (٧٤٣ م) وصلبه واحراقه وذر رماده .
انظر : كتاب فرق الشيعة لأبي الحسن النوبختي . ص ٥٠ — ٥١

ولم يقتصر الأمر على الشيعة الزيدية . وكان فوج الحسا من أهل السنة الذين فروا هاربين من اضطهاد أمير الاحساء ووصلوا الى الصومال قد وصلوا فى اثر الزيدية وعاشوا بالقرب منهم وبعد ذلك وصل فوج آخر يتزعمه أحد أبناء سلاطين شيراز ويدعى حسن من أم حبشية الأصل أبحروا من جزيرة ارمز بزوجاتهم وأولادهم متجاوزين الأقاليم التى سكنها من قبلهم من المسلمين واتجهوا جنوبا صوب ساحل زنجبار وكانوا قد تسامعوا بوجود مناجم الذهب هناك وأسسوا مدينة « كلوا » وعاشوا فى شبه امارة مستقلة عن اخوانهم من الشيعة والسنة فى الصومال (٢٩) .

ولم يمض وقت طويل حتى ظهر عدد من المدن العربية على طول الساحل الشرقى الأفريقية من خليج عدن حتى مدار الجدى على حافة ما كان جغرافيو العرب فى العصور الوسطى يطلقون عليه أرض الزنج وتوجد قصة نقلها توماس آرنولد عن المستشرق الألمانى دى باروز De Barros والمستشرق الانجليزى كلود جورج Claude George (٣٠) تقول القصة « أن سفينة تجارية عربية أقصتها الرياح عن طريق مسارها وأرسلتها الى بلاد الزنج ولما كان البحارة العرب يتصورون من بين الزنج بعض أكلة لحوم البشر فقد توقعوا الموت المحقق هناك غير أنه حدث ما لم يكونوا يتوقعونه حيث تلقاهم ملك الزنج وأحسن وفادتهم وأتاح لهم فرصة بيع تجارتهم فى بلاده غير أن التجار العرب ردوا عليه كرمه بخيانة فأوثقوه مع حاشيته أثناء توديعهم لهم يوم سفرهم وحملوهم الى عمان رقيقا وبعد سنوات قليلة جنحت بهم سفينتهم مرة أخرى الى نفس الشاطىء وعرفهم الأهالى وأسروهم وسيقوا أسرى الى الملك وكم كانت دهشتهم حين وجدوا نفس الملك الذى سبق لهم أن أخذوه أسيرا الى بلادهم غير أن الملك لم يعاملهم بمثل ما عاملوه به وسمح لهم بترويج بضاعتهم ولكنه رفض هديتهم وقص عليهم كيف أنه هرب من مولاه الذى التحق بخدمته فى عمان وكيف اعتنق الاسلام وعاد الى شعبه ينشر بينهم أركان هذا الدين من صلاة وصيام وحج وحلال وحرام وأعلن لهم أنه عفا عنهم لأنهم كانوا السبب فى اعتناقه لدين الاسلام وأنه يرحب بكل مسلم يهاجر الى بلاد » .

---

(٢٩) الدعوة الي الاسلام . ص ٢٨٧

(٣٠) Islam and Missions, pp. 73 - 74.

ومهما يكن من أمر فان الاسلام أخذ ينتشر على السواحل الشرقية لأفريقية من عمان وشرقى الجزيرة العربية .

ومن الحالات الجديرة بالذكر أن عددا كبيرا من تجار العرب عبروا البحر الأحمر في طريقهم الى أوغنده فى النصف الأول من القرن التاسع عشر واستطاعوا أن يقنعوهم باعتناق الإسلام حتى أسلم عدد كبير من الأوغنديين فى عهد ملكهم موتزا Mutesa غير أن المحاولات التبشيرية المسيحية التى حدثت فى هذه البلاد منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر أدت الى صراع كبير بين العقيدتين واستطاعت الارساليات المسيحية الكنسية المدعمة بالمال والرجال أن ترد كثيرا من المسلمين الى النصرانية (٣١) .

وهنا يجب أن نذكر حقيقة هامة هى أن المسيحية وحدها بأسلوبها التبشيرى المنظم لم تكن العائق الوحيد أمام استمرار انتشار الاسلام فى أفريقية ولكن بعض تجار الرقيق المسلمين لم يكن من مصلحتهم الاستمرار فى نشر الدعوة الاسلامية لأن الاسلام يحرم استرقاق المسلمين .

غير أنه الى جانب بعض العوامل السلبية التى جابهت نشر العقيدة الاسلامية من السواحل الشرقية الى داخل القارة الا أنه كانت هناك عوامل ايجابية أسهمت فى نشر الاسلام ليس فقط فى وسط القارة وانما الى كثير من شعوب أفريقية الاستوائية والغربية والجنوبية وتتلخص هذه العوامل فيما يلى :

أولا ـ ان البحر الأحمر لم يكن المعبر الوحيد للعقيدة الاسلامية الى أفريقية ولكن هناك الصلات المباشرة بين شرقى الجزيرة العربية وعلى الأخص عمان ومسقط وبين الساحل الشرقى الجنوبى الأفريقية بالاضافة الى المعبر الأساسى من منطقة الهلال الخصيب الى مصر وشمالى أفريقية متوازيا مع حركة الفتوحات الاسلامية الكبرى .

ثانيا ـ على الرغم من التنافس الواضح بين حركة التبشير المسيحية فى أفريقية وبين حركة الدعوة الاسلامية التلقائية الذاتية الا أن ارتباط

---

(٣١) Rocce, The Bagande, p. 229.

حركة الأسترقاق الكبرى بالاستعمار الأجنبى المسيحى رجحت كفة ميزان أعتناق العقيدة الاسلامية على غيرها من الديانات المسيحية والوثنية .

ثالثا — عمق الوجودين السامى والحامى فى القارة — جعل العقيدة الاسلامية أكثر تقبلا من غيرها بالاضافة الى بساطة الاسلام واتجاه أركانه مباشرة الى عقل وفكر وعاطفة الانسان الأفريقى .

رابعا — انشاء السكك الحديدية والطرق البرية فى عمق القارة من شرقها الى غربها ومن شمالها الى جنوبها ساعد بطريق غير مباشر على حرية الحركة بالنسبة للدعوة الاسلامية خصوصا على يد التجار العرب الذين كانوا لا يفرقون بين واجباتهم العقيدية وواجباتهم التجارية .

خامسا — لم يكن أمام المستعمر الأجنبى للقارة مفر الا استخدام المسلمين المتعلمين والمثقفين فى مختلف مرافق ومؤسسات هذه المستعمرات وفى ذلك يقول المستشرق الألمانى بكر Becker (٣٢) انه لم يكن أمام حكومة أفريقية الشرقية الألمانية الا اسناد آلاف الوظائف الى موظفين من المسلمين كما كان معلمو مدارس الدولة من المسلمين مما أدى الى دخول مدن وقرى بأكملها فى الاسلام .

ويضيف هذا المستشرق الألمانى قوله : « انه قد لوحظ أن المعلمين المسلمين من السواحلية فى مدارس المستعمرة الألمانية كانوا يقومون بنشاط واضح وناجح فى نشر الدعوة الاسلامية بين الأهالى فى أفريقية الشرقية الألمانية وأن هذا النشاط أصبح يسترعى النظر فى مستهل القرن العشرين .

وكان الذين قاموا بنشر هذه الدعوة من التجار والجنود وموظفى الحكومة المسلمين .

وكان الوثنون فى أفريقية يعتبرون أعتناق الاسلام مظهرا من مظاهر الحضارة ودليلا على الترقى بل ان المستعمرين رغم كراهيتهم للاسلام الا أن مصالحهم الأستعمارية كانت تقتضى هذا التغيير ويقال ان الازدراء

(٣٢) Islam In Deutch - Ostafrica, p. 19.

الذى كان ينظر به المسيحيون الى الوثنية كان عاملاً حاسماً فى تحولهم الى الاسلام .

وكان الأهالى ينتظرون بفارغ الصبر مواسم وصول التجار المسلمين الى بلادهم ليس لمجرد التبادل التجارى وانما للاستزادة من تعاليم الاسلام ولما شعرت الكنيسة بخطورة الوضع فى هذه القبائل وسرعة انتشار الاسلام فيهم أرسلت اليهم بعثة تبشيرية يقودها الكاردينال ماساجا Cardinal Massaja ولكن المحاولة باءت بالفشل لدرجة أن القلة التى ظلت على وثنيتها آثرت عدم الاعتراف بالمسيح وبالله معاً (٣٣) .

ومما يدل على سرعة انتشار الاسلام بين شعوب أفريقية الشرقية عبر البحر الأحمر ما يذكره ابن حوقل الجغرافى الرحالة العربى المشهور عن أن أهالى زيلع كانوا يدينون بالمسيحية فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى ، ولما زار أبو الفداء (٣٤)« نفس المنطقة بعده وجدهم جميعاً مسلمين . ويؤكد أبو الفدا الدور الذى قام به التجار المسلمون عبر البحر الأحمر فى نشر العقيدة واستمرارية هذا النشر بدوافع ذاتية نابعة من عمق الايمان عند هؤلاء .

ويقول المستشرق جيوم (٣٥) : « انه فى القرن الخامس عشر هاجر من حضرموت جماعة من العرب المسلمين من أربعة وأربعين للدعوة الى الاسلام عبر البحر الأحمر الى شرقى أفريقية وكان يؤم هذه الجماعة الشيخ ابراهيم أبو زرباى الذى أخذ طريقه الى مدينة هرر حوالى سنة ١٤٣٠ وتمكن بمعاونة اخوانه من تحويل عدد كبير من الأفارقة الى الاسلام ولا يزال قبره الى الآن موضع تبجيل واكرام فى هرر وهناك بالقرب من مدينة بربرة جبل الأولياء الذى لا يزال يخلد ذكرى هؤلاء الأولياء الصالحين الذين يقال أنهم كانوا يجلسون هناك فى خلوة مقدسة قبل أن

---

(٣٣) الدعوة الى الاسلام . ص ٢٩٣ نقلا عن :
Massaja Da Zelle Alle Frontiere del Caffa, Vol. 11, p. 160.

(٣٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر . ج ٢ ص ٢٣١ — ٢٣٢

(٣٥) Documents sur l'Histoire, La Geographie et le Commerce de l'Afrique Orientale, Recueilles, p. 399.

ينتشروا فى طول البلاد وعرضها لتحويل الناس الى الاسلام ، وقد ســاد الاسلام شيئا فشيئا فى جميع أنحاء أفريقية الشمالية الشرقية » .

ولكى نستكمل الحديث عن دور البحر الأحمر كطــريق لنشر الدعوة الاسلامية فى أفريقية يبقى أن نشير الى هــذه الحقيقــة وهى أن الدين الاسلامى شق طريقه الى أقصى جنوب القارة فى مستعمرة الكاب وفى ذلك يذكر تايل « Theal » (٣٦) أن مسلمى الكاب هم من سلالة أهالى الملايو الذين جاءوا الى هــذه البقعة اما فى القرن السابع عشر أو الثامن عشر ، ولعل من أطرف ما يذكره هــذا المستشرق عن هؤلاء المسلمين أنهم كانوا خليطا من العرب المسلمين والملاويين الذين أسلموا على يد التجـــار المسلمين الدائمى التجوال فى جنوب شرقى آســيا بل وبعض الهولنديين المستعمرين الذين أقنعهم المسلمون باعتناق الاسلام وارتبط الجميع بفكرة الدعوة له فى جنوبى أفريقية .

وفى سنة ١٨١٩ لفت كوبورك الأذهان الى نمو الاســـلام فى بعض مذكرات ممتعة عن مستعمرة الكاب قال فيها : « يقال أن الاسلام يتقدم بين العبيد والسود الأحرار من أهالى الكاب ونعنى بذلك أن الذين تحولوا من الوثنية الى الاسلام من بين الزنوج والسود على اختلاف أنواعهم كانوا أكثر عددا من الذين تحولوا من الوثنية الى المسيحية وهــذا على الرغم من الجهود المضنية المنظمة التى تبذلها الارســاليات التبشــيرية الممولة من الكنيسة المسيحية ، وكان الداعية المسلم يستطيع تحويل جموع أكبر من الأفارقة الى الاسلام بمجهود أقل من مجهود المبشرين » (٣٧) .

وكعــادة المسلمين حينما يستقرون فى مكان ما تتوافد عليهم جموع الأهل والأقارب والتجار فى حماسة منقطعة النظير ، وما يكاد يلتئم الشمل حتى يبدأ الجميع فى بناء المساجد والمدارس التى لعبت دورا كبيرا فى نشر الديانة الاسلامية ، ويمكن أن نعزو هــذا النجاح الى العوامل الآتية :

أولا — ان عملية التبشير المسيحية المنظمة الممولة كانت ترتبط فى

---

(٣٦) History and Ethnography of Africa South of Kambesl, Vol. 11, p. 263.

(٣٧) Colebrooke, The Life of Colebrooke, p. 335.

أذهان الأفارقة بالعملية الاستعمارية مما يؤدى الى نفـور الكثيرين منهـا بالاضافة الى عملية التعميد التى لم يكن يتقبلها الأفارقة بسهولة اذا قورنت بسهولة وسماحة ويسر اعتناقهم للاسلام حيث لم تكن تحتاج الى أكثر من النطق بالشهادتين وأداء الأركان الاسلامية المفروضة .

ثانيا — ان عملية التجانس فى الشكل والمظهر والملبس بالاضافة الى تجانس البيئة والابتعاد عن التعالى الذى يحرمه الاسلام كانت تقرب كثيرا بين قلوب الأفارقة وقلوب الدعاة المسلمين لدرجة أن عملية التبشير التى اتبعتها الكنيسة والاستعمار بعد ذلك ارتبطت بالقسر ، ومع ذلك لم يكتب لها النجاح . ان زيارة الأفارقة الى الأراضى المقدسة الاسلامية كانت أشبه بعملية التأصيل التطبيقى للدعوة لاسلامية النظرية بالاضافة الى التجانس الطبيعى والاقليمى والحياتى الذى لم يكن يفرق بين الميدانيين الا عبـور البحر الأحمر .

ولعل ذلك هو سر العمق الكفاحى الذى تخوضه كثير من الشعوب الاسلامية ضد الاستعمار والعنصرية فى أفريقية حيث أنه يحمل فى طياته جذور الخلاف الفكرى والثقافى والعقيدي وهـو ما نشـاهده فى ارتريا والصومال وجنوب غرب القارة الأفريقية .

وكذلك انتشر الاسلام فى جزيرة مدغشقر .

الممالك والامارات الاسلامية التى تكونت فى شرق أفريقية

لم يقتصر نشـاط المسلمين على مجرد نشر الدعوة الاسـلامية فى مختلف مناطق أفريقية الشرقية وانما نتيجة للنجاح الذى أحرزه التجـار والدعاة المسلمون فى هـذه البلاد وبسبب الهجرات العربية المتتالية عبر البحر الأحمر اللاحقة بمقدماتها وعمليات الزواج والمصاهرة التى تمت بين العرب المسلمين وشعوب هـذه البلاد وخاصة قبائل البجة التى كانت تمتد من جنوب مصر (النوبة) وشمال السودان وتتناثر حول سـاحل البحـر الأحمر مكونة الحزام الارترى حول اكسوم (الحبشة) بدأت تتكون امارات وممالك اسلامية بعيدة كل البعد عن مظـاهر التدخل السـياسى للدولة الاسلامية من دمشق أو بغداد .

ومن أهم هـذه الامارات الاسلامية امارة شوا الاسـلامية وامارة أوفات وذوارد وأرابينى وهادية وشرخا وبالى ودارة بالاضافة الى بعض الامارات والسلطنات الاسلامية فى الحبشة والصومل وجنوبى أفريقية .

ويلاحظ أننا هنـا نركز على المراكز والأنشطة الاسلامية التى اتخذت طريقها عبر البحر الأحمر دون التعـرض لغيرها من الامارات والقـوى الاسلامية سواء فى شمالى أفريقية ، ومصر وغرب ووسط أفريقية حيث أن هـذه الافرازات والكيانات الاسلامية جاءت نتيجة معابر اسلامية أخرى وذلك لا يعنى أنه كان هنـاك نوع من الانفصال البشرى بين هذه الكيانات وانمـا كان التنقل والهجرة مستمرين بين الامارات والولايات الاسلامية المختلفة خاصة وقد كانت قبائل البجة تمثل همزة وصل كبرى بين مسلمى الحبشة والسودان ومصر وجنوب أفريقية .

امارة شوا الاسلامية :

بمرور الزمن ومنذ وفد المسـلمون الأوائل الى الحبشة عبر البحر الأحمر واستمرارا لعملية التدفق العربى على المناطق الشرقية لأفريقيـة سواء للاستقرار أو التجارة أو الدعوة للديانة الاسلامية وعلى مر القرون اندمج المسلمون فى القبائل الأفريقية وتمكنوا عن طـريق التفوق الثقافى والتجارى والتنظيمى والعقيدى أن ينشئوا ممالك وسلطنات جديدة بدأت صغيرة ثم أخذت فى النمو والاتساع .

ويذكر مؤلف كتاب « الاسلام والحبشة عبر التاريخ » (٣٨) أن تفصيلا واضحا لهذه الممالك والسلطنات الاسلامية جاء فى وثيقة عربية هامة توصل اليها المستشرق الايطالى شيرولى Carulli وقد أثبتت هذه الوثيقة عددا من الامارات الاسلامية على الهضاب الداخلية والسواحل الغربية للبحر الأحمر فى مقدمتها امارة شوا الاسلامية نسبة الى اقليم شوا المشهور فى هضبة الحبشة وأن سلاطين هـذه الامارة كانوا من بنى مخزوم التى ينتمى اليها القائد الاسلامى الكبير خالد بن الوليد وأن نشأة هذه الدولة يعود الى سنة ٨٩٦ م ، وقد هاجر المخزوميون فى العصر الأموى وتغلغلوا داخـل

---

(٣٨) فتحى غيث : ص ٨٣ وما بعدها .

الهضبة الحبشية وأنشأوا لهم امارة اسلامية فى ذلك الاقليم وكان موقعها من أمنـــع المعاقل فوق مرتفعـــات الحبشـة حيث تقـــع مدينة أديس أبابا الحاليـــة .

ولا يوجد بهذه الوثيقة ما يميط اللثام عن كيفية نشأة هـــذه الامارة الاسلامية ولا تاريخ عهودها الأولى ، ولكنها تنصل السنوات الأخيرة من حكمها حين بدأت عوامل الانحلال تنحر فيها نتيجة التمزق التى قامت بين مشايخها والاضطرابات والصراعات الداخليـــة وأسماء الفرق المتصـــارعة وزعمائها (٣٩) .

وبسبب بعد هـــذه الامارة عن عيون المؤرخين المركزين على أحداث الدولة الاسلامية فى المشرق والمغرب وبسبب عزلتها ومناعتهـــا حتى فى داخل الهضبة الحبشية نفسها ظلت فى معزل عن العالم لأن منطقتها خصبة معتدلة الجو توجد بها كل متطلبات الحياة واشتغل أهلها بالزراعة والرعى كانا يسدان كل احتياجاتهم .

امارة ايفات الاسلامية :

تذكرها بعض المصادر ايفاد Ifat والأخرى تذكرها أوفات والبعض يسميها جبره وهى امارة عربية اسلامية ظهـــرت فى الوقت الذى كانت تتهاوى فيه امارة شوا نتيجة الخلافات والصراعات بين مشايخها وكان رجال هـــذه الامارة يراقبون عن كثب ما يحدث داخل الامارة الســـابقة وما وصل الي أهلها من ضعف وانتهزت الفرصة وجردت على امارة شـــوا أربع حملات انتهت باستيلاء عرب ايفات على شوا وكانت عاصمة هـــذه الامارة مدينة زيلع وتكونت من الامارتين امارة كبيرة مليئة بالمساجد والمدارس كما كان لها حين تكونت مايقرب من خمسة وعشرين ألفا من الجنود نصفهم من الخيالة والنصف الآخر من المشاة (٤٠) وقد بلغ من قوة امارة ايفات أن أميرها كان ينقاد له معظم الامارات الأخرى ما عدا هاديه وان كان الجميع يخضعون لامبراطور الحبشة حتى انه كما تقول بعض المصادر وفى مقدمتهـــا صبح

---

(٣٩) Trimingham, Islam In Ethiopia, P. 58

(٤٠) Ulleudorff, The Ethiopians, P. 36.

الأعشى ومسالك الأمصار ، كانوا لا يتولون أمارتهم الا بعد موافقته ومشورته (٤١) .

مملكة هادية الاسلامية :

وكانت تقع جنوب ايفات وعلى الرغم من ضيق مساحتها اذا ما قورنت بايفات الا أن صاحبها كان أكثر أمراء الامارات الاسلامية مالا ورجالا .

وقد أطلق المؤرخون المسلمون على هذه الممالك الاسلامية الطراز الاسلامى لأنها كانت تشكل على شاطىء البحر الأحمر طرازا اسلامية تتوسطه مدينة زيلع الكبيرة التى كانت عامرة بالجوامع والمساجد .

---

(٤١) صبح الأعشى . جـ ٥ ص، ٣٢٥

٥

البحر الأحمر والفتح العربى لمصر

للأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف
كلية البنات ـــ جامعة عين شمس

اتصل المصريون القدماء بعرب شبه الجزيرة العربية عن طريق البحر الأحمر الذى يحد غربى شبه الجزيرة وشرقى مصر ، كما أن شبه جزيرة العرب كانت تجاور مصر عند شبه جزيرة سيناء . وكما أن البحر الأحمر كان أداة اتصال بين مصر وبين شبه جزيرة العرب ، كذلك لم يكن هناك حد يفصل تماما بين البدو فى شبه جزيرة العرب والبدو فى شبه جزيرة سيناء .

وكان أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب ، وقبل كشف طريق رأس الرجاء الصالح فى القرن التاسع الهجرى والخامس عشر الميلادى ، هو طريق البحر الأحمر . فقد كان طريق البحر الأحمر يقلل الى حـــد كبير المصاعب والنفقات الطائلة التى تنجم عن النقـــل البرى . واذا استثنينا الشريط البرى الضيق بين البحر الأحمر والنيل ، كانت البضائع التى ترسل من بلاد الهند والصين تسلك طريق البحر عابرة بذلك أقصر الطرق للوصول الى موانى أوربا . ونعرف أن المصريين القدماء منذ عهد الأسرة الخامسة (نحو سنة ٢٧٤٠ ق . م) أرسلوا الحملات البحرية فى البحر الأحمر الى بلاد بنت ، التى يرجح أنها بلاد الصومال أو بلاد اليمن ، وذلك لجلب اللبان الذى كانوا يحرقونه فى المعابد ويستعملونه فى التحنيط ، ولجلب الأخشاب والصموغ والعطور . وتكررت حملات مصر البحرية فى البحـــر الأحمـــر ولا سيما فى عهد الأسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة .

أما الطريق البحرى الذى يأتى من الهند الى اليمن مباشرة ، أو الى عمان حيث تنقل السلع بالقوافل الى اليمن ، فكان يتجه بعـــد ذلك الى البحر الأحمر . وكان من عيوب هـــذا الطريق المسافة الطويلة التى كان

على السفن أن تجتازها فى عرض المحيط الهندى من ساحل الهنـد الى البحر الأحمر . وقد أمكن التغلب على هـذه الصعوبة حين كشف الملاحون امكان الافادة من الرياح الموسمية . وكانت السفن تتجه بعـد ذلك الى الشواطىء الشرقية للبحر الأحمر فى شبه الجزيرة العربية أو الى الشواطىء الغربية للبحر . ورغم الصعاب التى كانت تكتنف الملاحة فى البحر الأحمر فانه كان ولا زال قبلة الأنظار للتجارة وللمواصلات بين الشرق والغرب ، وزاد فى أهميته حديثا حفر قناة السويس التى تصل بينه وبين البحـر الأبيض المتوسط .

وقد كانت تجارة البحر الأحمر تنتهى أحيانا الى ميناء الحورة الحالية (Leuce Come) على الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر ومنها تتخذ طريق القوافل الى سوريا . وكانت أحيانا تصل الى أيلة عند العقبة الحالية ومنها أيضا تخرج التجارة الى فلسطين وسوريا . وكثيرا ما كانت التجارة الشرقية تنتهى الى الشاطىء الغربى للبحر الأحمر عند ميناء رأس بناس الحاليـة (Berenic) مقابل مدينة أسوان ، أو القصير الحالية (Leucos Limen) أو ابو شعر الحالية (Myos ttormos) . ومن هذه الموانى الغربية للبحر الأحمر كانت تتجه التجارة عن طريق الصحراء الشرقية فى مصر الى قفط ثم تسير فى النيل الى الاسكندرية ومن الاسكندرية تتصل التجـارة الشرقية بأسواق الغرب عن طريق حوض البحر الأبيض المتوسط . وكانت السفن التجارية تواصل السير أحيانا فى البحر الأحمر الى القلزم (السويس الحالية) ثم تسير فى القناة النيلية التى تصل بين البحر الأحمر والنيـل شمالى القاهرة الحالية عن طريق البحيرات المرة ووادى طميلات . وهذه القناة اهتم بحفرها الفراعنة وأعاد حفرها البطالمة والرومان ، وقد سهلت كثيرا على التجارة والتجار الذين كانوا يستخدمونها للوصول الى الاسكندرية عن طريق النيل بعـد أن ينتهى طريق البحر عند ميناء القلزم .

وهكذا ربط البحر الأحمر منذ القدم بين شبه الجزيرة العربية وبين وادى النيل . وليس من شك فى أن كثيرا من التجار العرب والأعراب كانوا يفدون الى مصر بطريق البحر الأحمر ووديان الصحراء الشرقيـة أو عن طريق شبه جزيرة سيناء .

والمعروف أنه منذ منتصف الألف الرابع قبل الميلاد هاجر من شبـه

الجزيرة العربية الى مصر بطريق البحر الأحمر أو عن طريق سيناء قوم من الجنس السامى اختلطوا بالمصريين القدماء (١) .

ويقول المؤرخ والجغرافى سترابون — المتوفى نحـو سـنة خمس وعشرين بعـد الميـلاد أن مدينة قفط (Koptos) فى صعيد مصر مدينة نصف عربيـة (٢) .

وكما ارتاد العرب مصر منذ أقدم العصور للتجارة أو للاستيطان فقد ارتادها الكثير قبيل ظهور الاسلام . وأشار المؤرخون الى شخصيات دخلت مصر للتجارة فى العصر الجاهلى قبيل الاسلام وكانت لهذه الشخصيات دور كبير بعد ذلك فى حوادث التاريخ الاسلامى نذكر منهم عمرو بن العاص (٣) قائد فتح مصر ، وعثمان بن عفان (٤) ثالث الخلفاء الراشدين ، والمغيرة بن شعبة (٥) أحد أبطال الأسلام ودهاتها المبرزين .

وحين اتجه الرسول عليه الصلاة والسلام الى توحيد شبه الجزيرة العربية تحت لواء الاسلام وتحت زعامة المدينة المنورة عاصمة الاسـلام ، اصطدمت الجيوش الاسلامية الفتية بالدولتين الكبيرتين حينذاك دولة الفرس ودولة الروم — اللتين كانتا تسيطران على الأراضى العربية فى شمال شبه الجزيرة . لكن العرب الذين ألف الاسلام بين قلوبهم ووحد صفوفهم ودفعهم الى التحمس والاستشهاد ، استـطاعوا أن يهـزموا الدولتين العظيمتين حينذاك وأن يندفعوا فى فتوحاتهم لتأمين أراضيهم .

---

(١) راجع : جواد على : العرب قبل الاسلام ، الدكتور سليم حسن : مصر الفرعونية ، الدكتور أحمد فخرى .

(٢) المفتوحة ، جورجى زيدان : بلاد العرب قبل الاسلام ،
Eyd Liistokre du Commerce de Levant au Moyen - Age 2 Vols. Leipzig. 1885 - 1886, Rammerer : La mer Rouge. Tome Premier Le Caire. 1889.

Wiet : Art. Kibt : Encyclopaedia. of Islam. Vol. 11. p. 991 (Leyden - London. 1927).

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها . ص ٥٣ (طبعة تورى Torrey نيوهافن ١٩٢٢ م) ، الكندى ، كتاب الولاة وكتاب القضـاة : ص ٦ — ٧ (طبعة بيروت ١٩٠٨ م (Gibb Memorial Series) [*]

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة . ج ١ ص ٩٢ (القاهرة ١٣٢٧ هـ) .

(٥) المرجع السابق : ص ٩٩

وبعد أن أزال العرب تقريبا ملك الأكاسرة فى العراق وايران عقب انتصارهم فى موقعة القادسية (أواخر سنة ١٦ هـ) واستيلائهم على عاصمتهم المدائن ، وبعد استيلاء العرب على بلاد الشام وفلسطين كان لابد من التفكير فى فتح مصر (٦) .

وذكرت المصادر القديمة الأسباب المختلفة لفتح مصر وغيره من فتوحات العرب المجيدة — لكننا نرى الأسباب التى ذكرها المؤرخون القدامى تقريرا لواقع تم ، أو قصصا حول الفتوحات تذكر العرض ولا تبين الجوهر . أما الأسباب التى ذكرها المستشرقون ومن لف لفهم فهى تركز على رغبة العرب فى نشر الاسلام أو التطلع الى البلاد الغنية الخصبة . وبين المؤرخين القدامى والمحدثين نفتقد التركيز على السبب الجوهرى الذى من أجله اصطدم العرب بجحافل الفرس والروم الا وهو توحيد شبه الجزيرة العربيـة تحت لواء الاسلام .

أما فتح مصر فيظهر الأول مرة فى المصادر العربية القديمة حين قدم الخليفة عمر بن الخطاب الى الجابية بالقرب من دمشق فى سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) للاشراف على ما تم من فتوح بلاد الشام وفلسطين ولتسليم مفاتيح بيت المقدس من بطريركها . وهنا تظهر لأول مرة فى المصادر العربية القديمة فكرة فتح مصر كأنها فكرة طارئة عنت لعمرو بن العاص — أحد أبطال الفتح فى فلسطين — وحسمها للخليفة عمر بن الخطاب كذلك تذكر هـذه المصـادر أن الفكرة ترجع الى الخليفة عمر بن الخطاب نفسه الذى أمر عمرو بن العاص بالمسير الى مصر .

ويذكرون أيضا أن الخليفة عمر بن الخطاب تردد فى فتح مصر بدليل أنه قال لعمرو بن العاص أنه مرسل اليه كتابا ان أدركه قبل دخوله فى حدود مصر رجع ثانية ، وأن كان قد دخل فى حدودها استمر فى سيره . بل أن المؤرخين القدامى يذكرون أيضا فيما يذكرون من روايات تاريخية أن عمرو بن العاص خرج سرا الى مصر مع جيش صغير بدون استئذان

---

(٦) أنظر : دكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسلام . ص ٧ (القاهرة ١٩٤٧ م — الطبعة الأولى) .

الخليفة عمر بن الخطاب (٧) .

والحق انه لا يعقل ابدا أن فتح مصر كان بهــذه السهولة وبهــذا الاستخفاف — مهما كانت الظروف السيئة الاقتصادية والدينية والسياسية والادارية التى كانت تجتازها مصر حينذاك ولا يعقل أن يسير عمرو بن العاص الى مصر سرا بدون استئذان الخليفة عمر بن الخطاب لكن الصحيح أن فتح مصر أصبح ضروريا بعــد فتح الشام وفلســطين وذلك لتأمين تلك الفتوح . وفى اعتقادنا أن البحر الأحمر كان من أهم أســباب فتــح مصر حينذاك . فشبه جزيرة سيناء تصل الشام وفلسطين بمصر كما أن البحر الأحمر يطل بشاطئيه على شبه جزيرة العرب بمصر ، وقد ربط هذا البحر بين العرب والمصريين منذ أقدم العصور . وحين أصبح للمسلمين السيادة على شبه الجزيرة العربية .

وعلى الشام ومصر ، كان لابد لهم أن يتجهوا الى الشاطىء الغربى للبحر الأحمر حيث تقع مصر وذلك ليس فقط لتأمين الفتوح الاسلامية فى الشام وفلسطين ولكن لتأمين المدينة المنورة نفسها مركز الخلافة الاسلامية . ولم يكن من المستبعد أن يرسل الروم — الذين كانوا يبسطون سلطانهم على مصر حينذاك — حملة الى شبه الجزيرة عن طريق شمال البحر الأحمر أو جنوبه لمنع العرب من بسط سلطانهم على مصر ، ولاسترداد سيطرتهم على الشام وفلسطين .

وسار عمرو بن العاص فعلا من قيسارية بفلسطين الى مصر على رأس جيش عربى لفتحها فى سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) وانتهت حوادث فتح العرب لمصر بتسلم العرب لمدينة الاسكندرية فى أواخــر ســنة ٢١ هـ (أواخر سنة ٦٤٢ م) (٨) .

---

(٧) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها . ص ٥١ — ٥٣ (طبعة المعهد العلمى الفرنسى . القاهرة ١٩١٤ م) ، وتاريخ اليعقوبى ج٢ ص ١٦٨ — ١٦٩ (ليدن ١٨٨٣ م) ، والبلاذرى ، فتوح البلدان . ص ٢١٢ (ليدن ١٨٦٦ م) ، والمقريزى : الخطط . ج ١ ص ٢٨٨ — ٢٨٩ و ٣٢٨ (بولاق ١٢٧٠ هـ) ، الكندى : الولاة والقضاة . ص ٧ — ٨

(٨) انظر : دكتورة سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام . ص ٧—١٦ (م ٧ — البحر الأحمر)

ويبدو أن القناة التى كانت تصل بين البحر الأحمر وبين النيل فى مصر كانت قد أهملت وأصبحت غير صالحة للملاحة فى بداية القرن السابع الميلادى (٩) .

ويبدو أيضا مما تذكره الروايات التاريخية أن العرب اهتموا باصلاح هذه القناة واعادة حفرها بعد فتح مصر . فتذكر المصادر القديمة أن أهل المدينة المنورة أصابهم جهد شديد فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وذلك فى عام الرمادة (١٠) . فبعث عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص يستنجده ، فبعث اليه عيرا عظيمة ، حتى قيل ان أولها بالمدينة وآخرها بمصر يتبع بعضها بعضا ، فلما قدمت على الخليفة وسع بها على الناس فأعطى أهل كل بيت بالمدينة وما حولها بعيرا بما عليه من الطعام (١١) ولكن ونحن وان كنا نلمس فى هذه الرواية شيئا كثيرا من المبالغة الا انها تدل على أن بلاد العرب أصبحت تعتمد على مصر بعد فتحها اعتمادا رئيسيا لأطعام أهلها .

ويذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب أمر بحفر قناة توصل بين النيل والبحر الأحمر وذلك ليسهل حمل الطعام من مصر الى المدينة ومكة . فأعاد عمرو بن العاص حفر القناة التى كانت توصل النيل بالبحر الأحمر ، ولم يمض على ذلك عام حتى جرت السفن فى القناة وحمل الطعام الى أهل الحرمين .

---

(٩) Munier : L'Egypte Byzantine. P. 82 (Precis de L'histoire d'Egypte T. 11 1932).

(١٠) يذكر المؤرخ ابن الأثير فى كتابه « الكامل فى التاريخ » ج ٢ ص ٤٣٣ — ٤٣٤ (ليدن ١٨٦٦ — ١٨٧٤ م) أنه فى سنة ١٨ هـ أصاب الناس مجاعة شديدة وجدب وقحط ، وهو عام الرمادة .
وكانت الريح تسفى ترابا كالرمادة . وفى هذه السنة أيضا كان طاعون عمواس . فكتب عمر بن الخطاب الى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدهم ، ومن بين الذين إستغاث بهم عمرو بن العاص أمير مصر .

(١١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها (طبعة تورى) ص ١٦٢ الى ١٦٤ ، المقريزى : الخطط . ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة . ج ١ ص ٦٨ .

وسميت هـــذه القناة باسم خليج أمير المؤمنين نسبة الى عمر بن الخطاب . وذكر المقريزى نقلا عن الكندى فى « كتاب الجند العربى » أن عمرا حفره فى سنة ثلاث وعشرين وفرغ منه فى ستة أشهر وجرت فيـــه السفن ووصلت الى الحجاز فى الشهر السابع (١٢) . ويظهر أن العـــرب استعملوا السخرة فى حفر هـــذا الخليج ، أو القناة ، كما انهم استخدموا عددا عظيما من أهل البلاد وذلك لأن عمرا أعاد حفرها فى وقت قصير ذكر المؤرخون أنه لم يتجاوز السنة .

ويؤكد هذا المعنى المؤرخ المصرى حنا — أسقف نقيوس — الذى توفى أواخر القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) اذ يذكر فى تاريخـــه أن العرب فرضوا على المصريين اعادة حفر قناة تراجان (١٣) من بابليون الى البحر الأحمر وأن نيرهم على المصريين كان أشد وطأة من نير فرعون على بنى اسرائيل (١٤) وبالرغم مما ذكره المؤرخون من أن عمر بن الخطاب انما اهتم بحفر قناة تراجان لتسهيل حمل الغلال والطعام من مصر الى الحجاز ، الا أن اعادة حفر القناة أفادت التجارة والتجار فيذكر المقريزى (١٥) نقلا عن ابن الطوير أن هـــذا الخليج كان مسلكا للتجار وغيرهم . ويذكر أيضا أن السفن كانت تسير فيه الى البحر الأحمر وتمر فى البحر الى الحجاز واليمن والهند . ولم يزل على ذلك الى أن قدم محمـــد النفس الزكية ثائرا فى الحجاز الى الخليفة أبى جعفر المنصور العباسى (١٣٦ — ١٢٨ هـ) فكتب المنصور الى عامله على مصر يأمره بطم الخليج حتى لا تحمل الميرة من مصر الى المدينة فطمه وانقطع من حينئذ اتصاله ببحر القلزم (١٦) وهو البحـــر الأحمـــر .

ويقال ان ولاة مصر أهملوا أمر هـــذا الخليج بعد عهد الخليفة الأموى

---

(١٢) المقريزى : الخطط . جـ ٢ ص ١٤٣

(١٣) اهتم الامبراطور الرومانى تراجان فى القرن الثامن الميـــلادى (٩٨ — ١١٧ م) باصـــلاح تلك القنـــاة وتعميقها ولذلك سميت باسمه حينذاك .

(١٤) تاريخ حنا النقيوسى . ص ٥٧٧ :

Ghronique de yean, évèque de nikiou Texte Ethiopien Publié et traduit par Zotenberg. Paris. 1883.

(١٥) خطط المقريزى . جـ ٢ ص ١٤٣

(١٦) المقريزى : الخطط . جـ ٢ ص ١٣٩

عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) فغلبت عليه الرمل وصار منتهاه الى ذنب بحيرة التمساح (١٧) .

وتذكر بعض الروايات التاريخية أن عمرو بن العاص فكر فى حفر قناة توصل ما بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط رأسا ، ولكن عمر بن الخطاب لم يوافقه على ذلك (١٨) .

ويذكر ابن خلدون فى مقدمته أنه ما زال الملوك فى الاسلام وقبله يرومون شق ما بين البحرين الا أن ذلك لم يتم (١٩) وتحدثنا بعض الروايات التاريخية أن الخليفة العباسى هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ) أراد أن يوصل ما بين بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) وبحر القلزم (البحر الأحمر) مما يلى الفرما (شرقى بورسعيد الحالية) .

فقال له يحيى بن خالد البرمكى : كان يختطف الروم الناس من المسجد الحرام وتدخل مراكبهم الحجاز .

فعدل الرشيد عن هـذه الفكرة (٢٠) .

والحق أن نشاط مصر التجارى زاد فى فجر الاسلام نتيجة لاهتمام العرب بالتجارة على الخصوص .

والمعروف أن سياسة الدولة الساسانية كانت تحول دون توسع تجارة مصر فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، لكن بعد ما زالت تلك الدولة على يد العرب وأصبحت الدولة العربية تسيطر على الدولة الفارسية القديمة وعلى الشام ومصر والمغرب ، عاد لتجارة الشرق أهميتها وساعد على

---

(١٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها . ص ١٦٤ (طبعة تورى) ، المقريزى : الخطط . جـ ٢ ص ١٤٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٨ .

(١٨) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر . جـ ٤ ص ٩٩ (طبعة باريس ١٨٦١ — ١٨٧٤ م) .

(١٩) ابن خلدون : المقدمة (المقدمة الثانية فى قسط العمران من الأرض) ص ٣٩ (القاهرة ١٢٤٨ هـ / ١٩٣٠ م) .

(٢٠) المسعودى : مروج الذهب . جـ ٤ ص ٩٨ — ٩٩ (طبعة باريس) ، والسيوطى : تاريخ الخلفاء . ص ١٨٩ (القاهرة ١٣٥١ هـ) .

نشاطها اعادة حفر القناة التى كانت تصل النيل بالبحر الأحمر فى زمن الخليفة عمر بن الخطاب .

وبالرغم من أن اهمال خليج أمير المؤمنين جعله غير صالح لملاحة السفن فى أوائل العصر العباسى ، ولكن هـذا الاهمال لا يدل على بعد نظر فى شىء — فيما عدا أنه كان علاجا مؤقتا لظرف من الظروف ، ان صح أن المنصور أمر بسده كى يقطع الميرة عن أهل الحجاز عندما ثاروا عليه — بالرغم من هـذا يظهر أن طريق التجارة عن طريق القلزم وبرزخ السويس ظل يطرقه التجار . ويؤيد هذا ما كتبه الجغرافى المشهور ابن خرداذبة(٢١) عن التجارة فى أواخر القرن الثالث الهجرى . فقد تحدث عن التجار اليهود الراذانية . الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والأندلسية والصقلية . وذكر أنهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا ، يجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسيور والسيوف . ويركبون من فرنجه (٢٢) فى البحر الغربى فيخرجون بالفراء ويحملون تجارتهم الى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخا يركبون البحر الشرقى (٢٣) من القلزم الى الجار وجدة (٢٤) . ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصينى وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا الى القلزم ، ثم يحملونه الى الفرما ثم يركبون فى البحر الغربى ، فربما عدلوا بتجاراتهم الى القسطنطينية .

فباعدها من الروم ، وربما صاروا بها الى بلاد الفرنجة فيبيعوها هناك ، وان شاءوا حملوا تجارتهم من بلاد الفرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل الى الجابية ثم يركبون فى الفرات الى بغداد ثم يركبون فى دجلة الى الأبلة ومن الأبلة الى عمان والسند والهند والصين ، كل ذلك متصل بعضه ببعض .

---

(٢١) ابن خرداذبة : كتاب المسالك والممالك . ص ١٥٣ — ١٥٤ (ليدن ١٨٨٩) الدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى . ص ٧ — ٩ (القاهرة ١٩٤٥ م) .

(٢٢) يقصد بفرنجة فرنسا .

(٢٣) يعنى البحر الأحمر .

(٢٤) الجار كانت ميناء المدينة المنورة ، أما جدة فهى ميناء مكة .

ويبين النص السابق أهمية مركز مصر التجارى ، كما يبين أن طريق القلزم (السويس) والفرما كان من أهم حلقات الاتصال بين الشرق والغرب .

ولدينا نص متأخر عن ذلك ، كتبه المسعودى (٢٥) فى القرن الرابع الهجرى وهو يبين أهمية ذلك الطريق التجارى أيضا . فيقول ان مصر « هى البرزخ بين البحرين المذكورين فى القرآن » (٢٦) لأن من الفرما التى هى على ساحل بحر الروم الى القلزم التى هى على ساحل بحر الصين (٢٧) مسيرة ليلة ، يحمل اليها من جميع الممالك المحيطة بهذين البحرين من أنواع الأمتعة والطرائف والتحف من الطيب والأفاوية والعقاقير والجوهر والرقيق وغير ذلك من صنوف المآكل والمشارب والملابس ، فجميع البلدان تحمل اليها وتفرغ فيها .

والمعروف أن حكام مصر فى العصور المختلفة اهتموا اهتماما كبيرا بالبحر الأحمر ، فاهتموا باصلاح الطرق الصحراوية التى تمر فيها قوافل التجارة بين البحر الأحمر والنيل كما عنوا باقامة الحاميات فيها ، كذلك حفروا الآبار على طول تلك الطرق كما اهتموا بالقضاء على القراصنة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبانشاء الموانى على الشاطىء الغربى لذلك البحر فى أكثر المواقع صلاحية لرسو السفن والمراكب وللاتصال بالنيل ، ويشق طرق تجارية جديدة بين البحر الأحمر والنيل ، كما عنوا بالقناة التى تصل البحر الأحمر بالنيل الى غير ذلك من ضروب الاهتمام بالتجارة .

وبالرغم من الأهمية التى كانت لخليج أمير المؤمنين فى التجارة ، أو لطريق القلزم — الفرما ، بعد سد ذلك الخليج فمن المحتمل أن يكون فريق من التجار قد اتخذ الطريق الصحراوى بين البحر الأحمر والنيل طريقا لسيرهم بعد سد خليج أمير المؤمنين وذلك لصعوبة الملاحة فى شمالى البحر الأحمر .

---

(٢٥) المسعودى : التنبيه والاشراف . ص ٢٠ (ليدن ١٨٩٣ — ١٨٩٤ م) .

(٢٦) يشير بذلك الى قوله تعالى فى سورة الرحمن آية ١٩ — ٢٠ « مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان » .

(٢٧) يقصد هنا البحر الأحمر . وهو يشير بذلك أن البحر الأحمر الأحمر مفتاح للصين .

ومر بنا أن التجار ارتادوا هذا الطريق منذ العصور القديمة فكانوا يسيرون من الموانى المصرية الواقعة فى غربى البحر الأحمر الى قفط على النيل ثم يسيرون فى النيل الى البحر الأبيض المتوســط . لكن المؤرخين والجغرافيين العرب لم يطنبوا فى الحديث عن أهمية الطرق التجارية بين البحر الأحمر والنيل والتى كانت تخترق الصحراء الشرقية وذلك فى فجر الاسلام فى مصر وبعد الفتح العربى لها . فنرى اليعقوبى ، وهــو من الجغرافيين الذين زاروا مصر فى القرن الثالث الهجرى ، لا يزيد على القول بأن عيذاب التى تقع على شاطىء البحر الأحمر الغــربى كانت مينــاء تجــارية (٢٨) .

أما المقريزى فيذكر أن صحراء عيذاب كانت مزدهرة فى القرن الخامس الهجرى باعتبارها طريقا للحج والتجارة بين مصر والحجــاز وغيرها من البلاد . ويذكر أن حجاج مصر والمغرب كانوا لا يتوجهون الى مكة الا من صحراء عيذاب فيركبون النيل حتى قوص ، ويعبرون الصحراء الى مينــاء عيذاب ومنها يركبون البحر الى جدة . وكذلك كان تجــار الهنــد واليمن والحبشة يركبون البحر الى عيذاب ثم يسلكون الصحراء الى قوص ومنها يسيرون فى النيل الى مصر أو الاسكندرية (٢٩) .

وهكذا نرى أن البحر الأحمر كان شريانا حيويا للتجارة بين الشرق والغرب منذ أقدم العصور وأدت هــذه الأهمية الى المنافسة بين الدول التى تطل على شواطئه . وظل البحر الأحمر يلعب دوره الرئيسى فى السلم والحرب فى حياة مصر وحياة العالم حتى يومنا هــذا . وقد رأينا أن فتح العرب لمصر هــذا لم يقض على نشاط مصر التجارى بل انه زاد من هذا النشاط وغدت القلزم من أهم موانى البحر الأحمر التجارية قبل أن تنافسها عيذاب فى القرن الخامس الهجرى .

وقد فطن المؤرخون المسلمون الى موقع مصر الجغرافى الممتاز فكتبوا ان من فضــائل مصر « انهــا فرضة الدنيــا يحمــل من خــيرها الى سواحلها ، وذلك أن من ساحلها بالقلزم ينقل الى الحرمين والى جــدة

---

(٢٨) اليعقوبى : كتاب البلدان . ص ٣٣٥ (ليدن ١٧٩٢ م) .
(٢٩) المقريزى : الخطط . ج ١ ص ٢٠٢

والى عمان والى الهند والى الصين وصنعاء وعدن والشحر والسند وجزائر البحر ، ومن جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلد الروم وأقاصى الأفرنجة وقبرص وسائر سواحل الشام والثغور الى حدود العراق ، ومن جهـة الاسكندرية فرضة أفريطش وصقلية وبلد الروم والمغرب كله الى طنجـة ومغرب الشمس ، ومن جهة الصعيد فرضة بلد النوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن (٣٠) » .

وهكذا كانت مصر ملتقى لتجارة الشرق والغرب معا وذلك لمركزها العالمى الممتاز بين قارات أفريقية وآسيا وأوربا .

---

(٣٠) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب . جـ ١ ص ٣٤١ (طبعة دار الكتب المصرية ـ الطبعة الثانية ١٩٢٩ م) ، والمقريزى : الخطط . جـ ١ ص ٢٨

٦

البحر الأحمر فى العصر الأيوبى

للدكتور حسنين محمد ربيع
كلية الآداب . جامعة القاهرة

للبحر الأحمر أو بحر الحجاز كما كان يسمى فى العصور الوسطى(١) أهمية خاصة فى تاريخ الاسلام والمسلمين نظرا لأنه الطريق البحرى الموصل الى بلاد الحجاز حيث الحرمان الشريفان فى مكة المكرمة والمدينة المنورة. واعتبر المسلمون فى العصور الوسطى البحر الأحمر بحرا اسلاميا مغلقا، وحرصوا حرصا تاما على عدم السماح لأى سفن هندية أو صينية أو ايطالية أو غيرها أن تبحر شمالا فيما وراء ثغر عدن . وخبر المسلمون بتوالى السنين مسالك هذا البحر نظرا لكثرة الشعب المرجانية التى امتلأ بها ، وعرفوا معلومات ملاحية كثيرة بعد أن استفادوا من الرياح الموسمية فى رحلاتهم التجارية الى مدن المحيط الهندى والخليج العربى وبحر الصين . وأصبحت تجارة البحر الأحمر فى أيدى التجار المسلمين دون سواهم (٢) .

---

(١) عن تسمية البحر الأحمر باسم بحر الحجاز ، أنظر أبو شامة : **كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين** (ط . القاهرة ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م) ، ج٢ ص ٣٥ ، ٣٧ ، ابن واصل ، **مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب** ، الجزء الثانى تحقيق جمال الدين الشيال ، (ط. القاهرة ١٩٥٧) ، ص ١٣٠ ، ابن اياس ، **بدائع الزهور فى وقائع الدهور** ، الجزء الرابع تحقيق محمد مصطفى ، (ط. القاهرة ١٩٦٠) ، ص ١٠٩ .

(٢) Hassanein Rabie, The financial System of Egypt A.H 564 - 741/A.D 1169 - 1341, (London, 1972), P. 100.

وعن استفادة العرب من الرياح الموسمية فى ركوب البحر أنظر :
Ashtor, E., A social and economic history of the Near East in the Middle Ages. (Berkéley, Los, Angeles, London, 1976), P. 109.

ونشطت التجارة فى البحر الأحمر نشاطا كبيرا منذ العصر الفاطمى وقبل قيام الدولة الأيوبية . وأصبحت لموانئه شهرة كبيرة فى عالم التجارة وذلك لأن الخلفاء الفاطميين الشيعة نجحوا — أثناء صراعهم مع العباسيين السنيين — فى السيطرة على تجـــارة البحر الأحمر ، ونجحوا فى تحويل تجارة الشرق الأقصى من الخليج العربى الى البحر الأحمر سعيا وراء هدف واحد هو اضعاف الخلافة العباسية السنية من الناحية الاقتصادية (٣) .

وبعد سقوط الخلافة الفاطمية فكر صلاح الدين يوسف بن أيوب فى مد النفوذ الأيوبى الى اليمن وبلادالحجاز . وأرسل صلاح الدين الذىتولى ملك مصر أخاه المعظم تورانشاه سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤م لفتح بلاد اليمن . وذكر المؤرخ ابن الأثير وغيره ان صلاح الدين ومن حوله من بنىأيوب علموا أن نور الدين محمود بن عمادالدين زنكى على عزم الدخول الىمصر وأخذها منهم ، فاستقر رأيهم على أن يتملكوا اما بلاد النوبة أو بلاد اليمن . وسار تورانشاه على رأس حملة الى بلاد النوبة سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م ولـــكنه لم يجد بها أموالا فعاد الى مصر . وفى العام التالى أرسله صلاح الدين لفتح بلاد اليمن (٤) . ولا يوجد أدنى شك بأن صلاح الدين لم تكن تخفى عليه مدى أهمية بلاد اليمن بالنســبة لتجـــارة البحر الأحمر ، لذلك قرر السيطرة على المـــدخل الجنوبى لهذا البحر خاصة بعد أن أصبحت عدن مركزا هاما لتجارة الكارم (٥) . يضاف الى ذلك أن صلاح الدين أراد أن

---

(٣) Lewis, B., «The Fatimids and the route to India,» in Revue.
de la Faculté des sciences économiques, Univ. Istanbul, vol. XI. (1949 - 50) pp. 50 - 54, ID., Government, society and economic life, in Cambridge Medieval History, vol. IV, I, p. 648, Hassanein Rabie, op. cit, p. 101 note.

(٤) ابن الأثير ، **الكامل فى التاريخ** ، (ط. ليدن ١٨٥١ م) ، ج ١١ ، ص ٣٨٦ — ٣٨٧ ، ٣٩٦ ،

البنـــدارى (الفتح بن على) ، **ســـنا البرق الشـــامى** (وهو مختصر **البرق الشامى** للعماد الأصفهانى) تحقيق رمضـــان ششن ، القســـم الأول (ط. بيروت ١٩٧١) ، ص ١٤٠ — ١٤٢ ،

المقريزى ، **السلوك لمعرفة دول الملوك** ، الجزء الأول تحقيق محمـــد مصطفى زيادة ، (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٦) ، ج ١ ، ص ٥٢ — ٥٣ .

(٥) عن تجارة الكارم ، أنظر مايلى ص ١٤٩ — ١٥١ .

يضمن لقاعدة ملكه في مصر ورود متاجر الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر ، وتزويد موارد مصر المالية بالضرائب التى كانت تجبى فى ميناء عيذاب وغيره .

ونجح تورانشاه الأيوبى فى فتح مدينة زبيد ودخل مدينة عدن التى ذكر ابن الأثير أنها « فرضة الهند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وكيش وفارس » . ثم سار تورانشاه بجيشه الى صنعاء ففتحها فى اول المحرم ٥٧٠هـ / ٢ أغسطس ١١٧٤ (٦) . وبعد وفاة تورانشاه سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠ م اختلف نواب الأيوبيين فيما بينهم فى بلاد اليمن ، فأرسل صلاح الدين أخاه سيف الاسلام طغتكين بن أيوب للقضاء على ما بها من فتن . ووصل طغتكين اليمن سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢م ونجح فى القضاء على مابها من فوضى وفتن ، وملك اليمن كله ، وضمن السلطان صلاح الدين مرة أخرى السيطرة على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر وتجارته (٧) .

وفى السنة التى وصل فيها طغتكين الأيوبى الى بلاد اليمن (٥٧٨هـ /١١٨٢م) وأعاد السيطرة الأيوبية على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر، كان على صلاح الدين مواجهة الخطر الصليبى الذى هدد السيادة الاسلامية على البحر الأحمر من الشمال . فقبل عصر صلاح الدين بأكثر من نصف قرن من الزمان ، وبالتحديد فى عهد بلدوين الأول ملك مملكة بيت القدس، أخذت المملكة الصليبية تؤمن حدودها من ناحية الجنوب الشرقى . فقد شيد بلدوين سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م حصن الشوبك الذى سيطر به الصليبيون

---

(٦) أنظر : ابن الأثير ، **الكامل فى التاريخ** ، ج ١١ ، ص ٢٩٦—٢٩٨، ابن شداد ، **النوادر السلطانية (سيرة صلاح الدين)** ، تحقيق جمال الدين الشيال، (ط. القاهرة ١٩٦٤) ، ص٤٠ ، أبو مخرمة ، **تاريخ ثغر عدن**، (ط. ليدن ١٩٣٦) ، ج٢ ، ص٣٧ ، يحيى بن الحسين ، **غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى** ، تحقيق سعيد عاشور ، (ط. القاهرة ١٩٦٨) ، القسم الأول ، ص ٣٢٣ — ٣٢٥ .

(٧) عن حملة طغتكين لبلاد اليمن ، أنظر : ابن الأثير، **الكامل** ، ج١١، ص ٤٨٠—٤٨١ ، ابن واصل ، **مفرج الكروب** ، ج٢ ، ص ١٠٥—١٠٦، أبو شامة ، **كتاب الروضتين** ، ج٢ ، ص ٢٦ ، الخزرجى ، **كتاب العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية** ، تحقيق محمد بسيونى عسل، (ط. القاهرة — ليدن ١٩١١) ، ج١ ، ص٢٩ ، يحيى بن الحسين، **غاية الأمانى**، القسم الأول ، ص ٣٢٨—٣٢٩ .

على وادى عربة ، وهى الصحراء الممتدة جنوبى البحر الميت حتى خليج العقبة . وفى العام التالى شيد الملك الصليبى قلعة حصينة فى أيلة على ساحل خليج العقبة للتحكم فى الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام كما بنى قلعة أخرى فى جزيرة فرعون الواقعة قبالة أيلة فى خليج العقبة (٨) . وهدد الصليبيون بذلك الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام والحجاز ، هذا فضلا عن تهديدهم للتجارة المتبادلة بين موانىء البحر الأحمر .

وفى عصر صلاح الدين الأيوبى تجرأ أحد أمراء الصليبيين وهو رينودى شاتيون Renaud de Chatillom (أرناط فى المصادر العربية) صاحب حصن الكرك (شرقى البحر الميت) ، وقام بمشروع خطير سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م قصد به القضاء على السيادة الاسلامية فى البحر الأحمر وتحقيق سيادة للصليبيين على هذا البحر ، ثم طعن الاسلام فى قلبه بغزو الحرمين الشريفين . غير أن العالم الاسلامى فى الشرق وقتذاك كان قد توحدت أركانه فى وحدة سياسية قوية على رأسها صلاح الدين الأيوبى .

وأثار مشروع أرناط ثائرة المسلمين فى كل مكان ضد الصليبيين ، خاصة بعد أن استولى أرناط الصليبى على أيلة على خليج العقبة ، وشرع فى بناء عدة سفن حملت أجزاؤها مفككة على ظهور الجمال حتى خليج العقبة حيث ركبت وأنزلت الى البحر الأحمر (٩) . وبعد أن جهز أرناط تلك السفن الصليبية أغارت على الموانى الواقعة على البحر الأحمر مما أثار رعب ودهشة سكانها لعدم رؤيتهم لسفن فرنجية فى مياه ذلك البحر منذ زمن بعيد وهذا مايفسره قول ابن الأثير عن قوات أرناط أنهم : « بغتوا الناس فى بلادهم على حين غفلة منهم ، فانهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيا قط لا تاجرا ولا محاربا » (١٠) ، وأغار أسطول أرناط على ميناء عيذاب المواجهة لميناء جده ، ونهب الصليبيون بضع سفن تجارية قدمت

---

(٨) أنظر سعيد عاشور ، **الحركة الصليبية** ، (الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٥) ج١ ، ص ٣١٨ــ٣١٩ .

(٩) أبو شامة ، **كتاب الروضتين** ، ج٢ ، ص٣٥ .

(١٠) ابن الأثير ، **الكامل** ، ج١١ ، ص ٤٩٠ .

من جدة وعدن والهند . ووصف المؤرخ احمد بن على المقريزى ذلك بقوله: « وأخذوا بعيذاب مركبا يأتى بالحجاج من جدة ، وأخذوا فى الأسر قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب وقتلوا الجميع ، وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن ، وأخذوا أطعمة كثيرة من الســاحل كانت معدة لميرة الحرمين ، وأحدثوا حوادث لم يسمع فى الاسلام بمثلها ، ولا وصل قبلهم رومى الى ذلك الموضع » (١١) .

وتجرأ الصليبيون وعبروا البحر الاحمر من عيــذاب الى شــاطىء الحجاز ، فنزلوا على ساحل الحوراء قرب ينبع ، واغاروا على القوافل وأصبحوا على مسيرة يوم واحد من المــدينة المنورة وعزموا على دخولها ونبش قبر الرســول عليه الســلام ، ونقل جسـده الشريف الى بلادهم ودفنــه عنــدهم ولا يمكنوا المسلمين من زيارته الا بجعــل . كمــا يقول المقريزى (١٢) .

وقد شرح القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى فى رسالة من رسائله الأدبية الرائعة أن الصليبيين أرادوا من حملتهم فى البحر الأحمر تحقيق هدفين خطيرين ، فقــال : « وكان للفرنج مقصدان ، أحدهما قلعة أيلة التى هى على فوهــة بحر الحجاز ومداخله ، والأخرى الخوض فى هذا البحر الذى تجاوره بلادهم من سواحله » . ثم شرح القاضى الفاضل ذلك الهدف الثانى بقوله « وأما الفريق القاصد سواحل الحجــاز واليمن فقدر أن يمنع طريق الحاج عن حجه ، ويحول بينه وبين فجه ، ويأخذ تجار اليمن وأكارم عدن ، ويلم بسواحل الحجاز فيستبيح والعياذ بالله المحارم ، ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظائم » (١٣) .

---

(١١) المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٧٩ ، أنظر أيضا ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٢٧—١٣١ ، أبو شامة ، كتــاب الروضتين ، ج٢ ، ص ٣٧ ، ابن جبير الرحلة (ط. بيروت ١٩٦٨) ، ص ٣١ .

(١٢) المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٧٩ ، أنظر أيضــا ابن جبــير الرحلة ، ص ٣٢ .

(١٣) أبو شامة ، **كتاب الروضــتين** ، ج ٢ ، ص ٣٧ ، ابن واصل ، **مفرج الـكروب** ، ج٢ ، ص ١٣٠ .

ومعنى قول القاضى الفاضل أن الصليبيين أرادوا الاستيلاء على عدن فى الجنوب بعد سيطرتهم على أيلة فى الشمال حتى تكون لهم السيادة الكاملة على البحر الأحمر، ويحتكروا بالتالى تجارة الشرق الأقصى والمحيط الهندى. يضاف الى ذلك رغبة الصليبيين فى الانتقام من المسلمين بالاستيلاء على مقدساتهم الدينية . لهذا ثار المسلمين فى كل مكان ، وكما قال القاضى الفاضل فى رسالة أخرى من رسائله: « وما ظن المسلمون الا أنها الساعة، وقد نشر مطوى أشراطها ، والدنيا وقد طوى منشور بساطها ، وانفطر غضب الله لفناء بيته المحرم ، ومقام خليله الأكرم ، وتراث أنبيائه الأقدم، وضريح نبيه الأعظم صلى الله عليه وسلم ورجوا أن تشحذ البصائر آية كآية هذا البيت اذ قصده أصحاب الفيل ، ووكلوا الى الله الأمر ، وكان حسبهم ونعم الوكيل » (١٤) .

وما كادت هذه اخبار تصل صلاح الدين الأيوبى وهو فى بلاد الشام حتى أرسل الى أخيه ونائبه على مصر العادل سيف الدين يأمره بتجهيز قائد الأسطول بمصر الأمير حسام الدين لؤلؤ الحاجب خلف العدو الصليبى فى البحر الأحمر . واهتم القائد البحرى حسام الدين لؤلؤ ببناء أسطول من السفن الكبيرة ، حملت أجزاؤه مفككة على ظهور الجمال الى القلزم حيث أعدت وشحنت بالرجال . ونزلت السفن الاسلامية فى البحر الأحمر. وبدأ القائد المسلم حسام الدين بحصار أيلة وظفر بمراكب للصليبيين وأسر من فيها . ثم أسرع بعد ذلك بمطاردة السفن الصليبية حتى أوقع بها عند عيذاب فشواطىء الحجاز عند ساحل الحوراء . ويبدو أن الصليبيين أخذوا على غرة فترك بعضهم السفن ولاذوا بالجبال . وأطلق المسلمون سراح المأسورين من التجار المسلمين . ثم صعد حسام الدين لؤلؤ ورجاله بحر الحجاز ، وتعقبوا المنهزمين ، وطاردوا الصليبيين بين الجبال ،وكانوا على مسافة يوم واحد من المدينة المنورة ، وأسروهم جميعا . وكان موسم الحج قد قرب ، فأرسل حسام الدين لؤلؤ أسيرين من الصليبيين الى منى حيث « نحرهما هناك كما تنحر البدن التى تساق هديا الى الكعبة » وعادوا

---

(١٤) ابن واصل ، **مفرج الكروب** ، ج٢ ، ص ١٢٩—١٣٠ .

ببقية الأسرى الى مصر (١٥) .

وأمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بقتل أولئك الأسرى ليكونوا عبرة لكل من يتجرأ بالاعتداء على « حرم الله وحرم رسوله » وتم قتلهم بعد استعراضهم فى شوارع القاهرة والاسكندرية . ووصف الرحالة ابن جبير — وهو شاهد عيان لهذه الحوادث — ما شهده فى مدينة الاسكندرية أوائل ذى الحجة سنة ٥٧٨هـ / أبريل ١١٨٣م من اجتماع الناس لمشاهدة أسرى الصليبيين الذين : « أدخلوا البلد راكبين على الجمال ، ووجوههم الى أذنابها ، وحولهم الطبول والأبواق » (١٦) وهكذا حمى صلاح الدين البحر الأحمر من الخطر الصليبى ، وعمل على أن يظل هذا البحر بحرا اسلاميا خالصا ، وأن تظل تجارته فى أيدى التجار المسلمين دون سواهم .

وسار الأيوبيون بعد صلاح الدين على خطى ذلك السلطان العظيم خاصة فى سياسة الحفاظ على النفوذ الأيوبى فى بلاد اليمن والسيطرة على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر . فعندما توفى طغتكين الأيوبى سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٧م خلفه فى حكم اليمن ولده الملك المعز اسماعيل ، وعندما قتل اسماعيل سنة ٥٩٨هـ / ١٢٠٢م تولى بعده أخوه الناصر أيوب الذى حكم اليمن حتى وفاته سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م (١٧) .

وأسرع الملك الكامل بن السلطان العادل أبى بكر بن أيوب بارسال حملة عسكرية سنة ٦١٢هـ / ١٢١٥م بقيادة ابنه الملك المسعود بن الكامل .

---

(١٥) أنظر : ابن واصل ، **مفرج الكروب** ، ج٢ ، ص١٢٨ ، المقريزى **السلوك** ج١ ، ص ٧٨ — ٧٩ ، سعيد عاشور ، **الحركة الصليبية** ، ج٢ ، ص ٧٨٨—٧٨٩ ، عطية القوصى : **تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية** ، (القاهرة ، ١٩٧٦) ، ص ١٥٤—١٥٦ .

(١٦) **رحلة ابن جبير** ، ص ٣١ ، أنظر أيضا زكي محمد حسن ، **الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى** ، (ط. القاهرة ، ١٩٤٥) ، ص ٧٥ — ٧٦ .

(١٧) الخزرجى ، **العقود اللؤلؤية** ، ج١ ، ص ٢٩—٣٠ ، يحيى بن الحسين ، **غاية الأمانى** ، القسم الأول ، ص ٣٣٩—٣٤٠ ، ٣٥٦—٣٥٨ ، ٣٩٨—٣٩٩ .

واســـتطاع الملك المســعود السيطرة على اليمــن كله (١٨) . وفى سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢ م سار الملك المسعود الى مكة المــكرمة لقتــال الشريف الحسن بن قتادة الذى أعلن عــداءه للايوبيين . ودخل الملك المسعود مكة وهرب الحسن بن قتــادة منها ، وأعاد الملك الأيوبى سيادة الأيوبيين على الحجاز ، ثم عاد الى اليمن مرة ثانية (١٩) واستمر الملك المسعود بن الكامل فى حكم بلاد اليمن حتى سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م حين خرج من اليمن قاصدا بلاد الشام ، واســتناب فى حكم بلاد اليمن نور الدين عمــر بن على بن الرســول ، غــير أن الملك المســعود مــرض فى الطــريق ومات فى مكة فى نفس الســنة (٢٠) . ومنذ ذلك الــوقت اســتغل بنو رســول انشغال الأيوبيين فى مصر والشــام بمشاكلهم الداخليــة وحملة فردريك الثانى على الشرق العربى ، ومواجهة حملة لويس التــاسع الصليبية على مصر . ويهمنا هنــا القول بأن بنى رسول ساروا على نهج ســلاطين بنى أيوب فى الاهتمام بتجارة البحر الأحمر خاصة بعــد أن أدت كثرة الضرائب التجارية المجباه فى ميناء عدن الى غنى بنى رسول وقوتهم ، ولم يسمحوا هم الآخرين لأى سفن غير اسلامية بأن تبحر شمالا من عدن .

واحتل ميناء عدن أهمية كبيرة فى تجارة العالم الوسيط . فقد كانت تجارة الهند والصين تأتى الى البحر الأحمر من مدخله الجنوبى حتى مدينة عدن التى وصفت بأنها « دهليز الصين » (٢١) . وورد ذكر ميناء عدن فى

(١٨) ابن واصل ، **مفرج الكروب** ، ج٣ تحقيق جمال الدين الشيال، (ط. القاهرة) ، ص٢٢٧ ، يحيى بن الحسين ، **غاية الأمانى** ، القسم الأول ، ص ٤٠٣ — ٤٠٤ .

(١٩) ابن واصل ، **مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب** ، الجزء الرابع تحقيق حسنين ربيع ، (ط. القاهرة ١٩٧٢) ، ص ١٢١—١٢٥ ، المقريزى، **السلوك** ، ج١ ، ص ٢١٣ ، يحيى بن الحســين ، **غاية الأمانى** ، القســم الأول ، ص ٤١٠ .

(٢٠) ابن واصــل ، **مفرج الكروب** ، ج٤ ، ص ٢٥٩ — ٢٦٠ ، المقريزى ، **السلوك** ج١ ، ص٢٣٧ ، الخزرجى ، **العقود اللؤلؤية** ، ج١ ، ص ٤٠ — ٤٣ ، يحيى بن الحســين ، **غايــة الأمانى** ، القسم الأول، ص ٤١٧ — ٤١٨ .

(٢١) جورج حورانى، **العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى** ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، (القاهرة، ١٩٥٨) ص ٢٢٧ ، وعن أهمية ميناء عدن فى تجارة شرق أفريقية والهند، انظر :

Ashtor, A social and economic history, pp. 147 - 148.

وثائق الجنيزة القاهرية (٢٢) باعتباره الميناء الأساسي للسفن القـادمة من

---

(٢٢) كلمة جنيزه Geniza كلمـة عبرية — مثل الـكلمة العربيـة (جنـازة) — مشتقة من الكلمة الفارسية جنك بمعنى ((خزانة)) ، أطلقت على تلك الحجرة التي كان اليهود يخزنون فيها أوراقهم الخاصة من خطابات وعقود وايصالات وخلافه حتى لا تدنس كلمة ((الله)) التي قد تكون مكتوبة في هـذه الوثائق . وأطلق البـاحثون مصطلح وثائق الجنيزة القـاهرية The CAIRO Geniza Documents على مجموعة الوثائق التي عثر عليها في حجرة مظلمة في سينا جوج (معبد اليهود) بالفسطاط على مقـربة من القاهرة في سنة ١٨٨٩ — ١٨٩٠ م ، وكذلك على مجموعـة أخـرى من الوثائق عثر عليها في مقبرة البساتين على مقربة من القـاهرة وفي سنة ١٨٩٧ م وصل الى مصر سولومن شختر Solomon Schechter ونقل معظم مابقي من هذه الوثائق الى مكتبة جامعة كمبردج بانجلترا حيث احتفظت المـكتبة بهـذه المجموعـة تحت اسـم مجموعـة تيلور — شـختر Taylor- Schechter Collection وهناك تسع عشرة مكتبة أخرى بالاضافة الى مكتبة جامعة كمبردج حصلت على مجموعات من وثائق الجنيزة منها مكتبة المتحف البريطاني بلندن ومكتبة البودليان بأكسفورد ، والمـكتبة الوطنية بفيينا ومكتبة جامعة برنستون ومكتبة جامعة فيلادلفيـا بالولايات المتحدة الأمريكية ، فضلا عن عدد من المجموعات الخاصة في باريس وغيرها .

واشتملت وثائق الجنيزة على وثائق متنوعـة أسرية وغير أسرية . اذ احتوت على خطابات وقوائم حسابات وموارد مالية وضريبية متنوعة ، وأثمان سلع ومتاجر مختلفة ، وسجلات قضائية وايصالات وعقود ايجارات وزواج وطلاق ورهن وقرض وقراض ومقايضة ومشاركة واستبدال ووصايا وهبات وعتق وفتاوى .. الخ تلقى كلها الكثير من الضوء على الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في بلاد العالم الاسلامي مثل مصر والشام والحجاز واليمن والمغرب والأندلس خاصة العصرين الفـاطمي والأيوبي . ومعظم وثائق الجنيزة مكتوب باللغة العربية ولـكن بحـروف عبرية ، لتفصـيل ذلك انظر :

Goitein, S. D., L'etat actuel de la recherche sur les documents de la Geniza du Caire» Revue des etudes juives, Troisieme serie, I. (cxviii 1959 - 1960), pp. 9 - 27, id., The Caire Geniza as a source for the history of Muslim Civilisation, in Studia Islamica, III (1955), pp, 75 - 91, id.,

A Mediterranean Society, volume I Economic foundation, (Berkeley and Los. Angeles, 1967), pp. 1-12, id., Article Geniza, in Encyclopaedia of Islam, 2 dn. Edition Hassanein, Rabie The Financial System of Egypt, pp. 2 - 3.

الشرق ويجدر الاشارة الى أن معظم وثائق الجنيزة الخاصة بتجارة البحر الأحمر والمحيط الهندى هى خطابات أرسلت من عدن أو جدة أو غيرهما من موانىء البحر الأحمر أو من موانىء الهند الى مدينة الفسطاط بمصر أو العكس ، أو رسائل متبادلة بين موانىء البحر الأحمر . ومن الطريف أن هذه الخطابات وصلت الى مجموعة الجنيزة عندما احتفظ بها أصحابها وأحضروها معهم من عدن أو موانىء الحجاز أو الهند حفاظا على حقوقهم وأموالهم . واخذت هذه الوثائق طريقها الى حجرة الجنيزة بطريقة أو أخرى (٢٣) .

وأشار ابن المجاور المتوفى سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م وغيره من المؤرخين الى المعاملة السيئة التى كان يلقاها التجار فى ميناء عدن . ولا شك أن ابن المجاور تحدث عن أمور لم تكن طارئة فى عصره بل استمرارا لما كان عليه الحال فى العصر الأيوبى . وذكر ابن المجاور انه صار من التقاليد المرعية عند وصول احدى السفن الى عدن أن يصتعد اليها عمال الميناء وينزعوا قلاعها ودفتها وسكانها حتى لايمكنوها من الابحار قبل ان تدفع الضرائب المستحقة على ماتحمله من المتاجر . أما التجار فكانوا يفتشون تفتيشا دقيقا قبل أن يسمح لهم بالنزول من السفن الى الميناء . وبلغ من دقة هذا التفتيش أنه تناول : « العمامة والشعر والكمين وحزة السراويل وتحت الآباط .. كذلك وجدت عجوز تفتش النساء » . فاذا أتم التاجر بيع بضاعته ودفع ما عليه من ضرائب ، وتأهب للعودة من حيث أتى ، طاف مناد فى طرقات عدن معلنا أن التاجر الفلانى سيغادر الميناء فمن له عليه دين أو مال فليطالبه به ، واذا لم يظهر للتاجر دائن يسمح له بالرحيل (٢٤) . وهناك وثائق كثيرة فى مجموعة الجنيزة تشرح تلك المعاملة العنيفة التى عومل بها

---

(٢٣) Goitein, Letters and documents on the India trade in medieval times, Islamic Culture, vol. 37 (1963), pp. 188 - 205.

(٢٤) ابن المجاور ، **صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز (تاريخ المستبصر)** تحقيق O. Löfgren (ليدن ، ١٩٥١ ، ١٩٥٤) ، ج١ ، ص١٣٨ — ١٣٩ ، أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، تحقيق Lofgren ، (ليدن ١٩٣٦) ، ج١ ، ص ٥٧ — ٥٨ .

التجار في ميناء عدن مما يبرهن على صحة المعلومات التي ذكرها ابن المجاور وغيره (٢٥) .

وكانت عدن في العصر الأيوبي مركزا هاما من أهم مراكز التجار الكارمية . واحتوت مجموعة الجنيزة على مراسلات كثيرة متبادلة بين التجار الكارمية المقيمين في عدن وبين ذويهم أو شركائهم خارجها . كما يوجد في مجموعة الجنيزة مراسلات كتبها أشخاص لاينتمون الى طائفة التجار الكارمية أخبروا فيها أقرباءهم أو معارفهم بأنهم أرسلوا لهم هدايا أو بضائع « مع الكارم » . أو عن خروج بعض التجار اليهود في صحبة التجار الكارمية المسلمين (٢٦) . ويجدر التأكيد هنا أن مثل هذا القول لا يمكن أن يؤخذ بمعنى اشتراك بعض اليهود أو المسيحيين في تجارة الكارم كما ذهب البعض اذ اقتصرت تجارة الكارم على التجار المسلمين دون سواهم (٢٧) .

وأول اشارة في المصادر المتداولة الى طائفة التجار الكارمية الذين لعبوا دورا هاما في تجارة البحر الأحمر في العصر الأيوبي ترجع الى سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م عندما أشار ابن أيبك الدواداري الى تأخر التجار وانقطاع الكارم وذلك زمن الخليفة المستنصر الفاطمي بسبب حوادث الشدة المستنصرية ، وهذا دليل واضح على أن نشاط التجار الكارمية بدأ منذ العصر الفاطمي ان لم يكن قبل ذلك ، واستمر طيلة العصر الأيوبي وشطرا من عصر سلاطين المماليك (٢٨) .

---

(٢٥) أنظر حسنين ربيع ، وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي لموانيء الحجاز واليمن في العصور الوسطى ، بحث قدم الى الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ، كلية الآداب — جامعة الرياض ، ص ١١—١٢ ، ١٦—١٧ .

(٢٦) أنظر على سبيل المثال الوثيقة Brit. Mus. Or. 5549 III, p. 5. التي ورد بها : « وقد خرج في الكارم من أصحابنا اليهود » .

(٢٧) ردد الزميل الدكتور عطية القوصي (**تجارة مصر في البحر الأحمر** ، ص ١٧٥) الرأي الخاطيء الذي تردد في بعض المصادر الأجنبية عن اشتراك بعض اليهود وبعض المسيحيين الشرقيين في تجارة الكارم .

(٢٨) ابن أيبك الدواداري : **الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية** ، وهو الجزء السادس من **كتاب كنز الدرر وجامع الغرر** ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، (القاهرة ١٣٨٠هـ / ١٩٦١) ، ص ٣٨٠ .

وقد احتكر التجار السكارمية تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندى خاصة تجارة التوابل وغيرها من المتاجر الشرقية التى كانوا يجلبونها عن طريق عدن الى مصر لبيعها الى تجار المدن الايطالية التجارية وغيرهم . وكانت التوابل خاصة الفلفل من أهم السلع المطلوبة فى الغرب الأوربى لضرورة استخدامه فى طعام الاغنياء ولعلاج بعض الأمراض وفى صناعة الخمور وحفظ الطعام ، ومن مئات السلع التى لعبت دورا هاما فى تجارة البحر الأحمر خلال الفترة التاريخية موضوع البحث الدارسيتى (القرفة) والقرنفل ، والخلنجان والزنجبيل والراوند والكافور والعود الهندى والهال (الحبهان) وجوزة الطيب والزعفران ، ومن العطور والبخور عود الند والمسك وخشب الصندل والعنبر واللادن والمصطكى هذا فضلا عن العاج والحرير والأحجار الكريمة (٢٩) . ويلاحظ أن هذه التجارة المربحة جعلت من التجار السكارمية الطبقة المميزة والمفضلة لدى حكام مصر واليمن لكثرة الضرائب المجباة منهم . يضاف الى ذلك أن تجار الكارم اشتغلوا أيضا فى الأعمال المصرفية وفى السفارة بين الحكام والسلاطين . وبلغ بهم الثراء مبلغا كبيرا ، وظهرت بينهم أسرات كبيرة عرفت بثرائها واتصالاتها بالسلاطين والحكام . وشيد الكارمية الكثير من المساجد والمدارس والمستشفيات فى مكة المكرمة والفسطاط والاسكندرية وغيرها من المدن الاسلامية الهامة . وعمل بعضهم بالتدريس والقضاء بجانب اشتغالهم بالتجارة . غير أن معلوماتنا عن طبيعة ونشأة وتطور نشاط تجار الكارم وتنظيماتهم التجارية ، وكذلك أسباب انهيار تجارتهم لاتزال حتى الآن معلومات ضئيلة (٣٠) .

---

(٢٩) عن هذه السلع أنظر : نعيم زكى **طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى** (القاهرة ١٩٧٣) ، ص ١٩١ــ٢٥٤ ، الدمشقى ، **كتاب الاشارة الى محاسن التجارة** ، (القاهرة ١٩٧٣) ، ص ١٨ــ٢٣ ، أنظر أيضا :

Ashtor, A social and economic history, pp. 109 - 147.

(٣٠) عن طائفة التجار السكارمية أنظر على سبيل المثال : أبوشامة **كتاب الروضتين** ، ج٢ ، ص٣٧ ، ابن المجاور ، **صفة بلاد اليمن ومكة** ، ص١٤٧ــ١٤٨ أبو مخرمة ، **تاريخ ثغر عدن** ج٢ ، ص٦٩ ، ١١٥ــ١١٦ ، ١٣٨ ، القلقشندى ، **صبح الأعشى فى صناعة الانشا** ، (القاهرة ، ١٩١٩ ــ ١٩٢٢) ، ج٣ ص٤٦١ ، ٤٦٨ــ٤٦٩ ، ٥٢٤ ، ج٤ ، ص٣٢ ، ج٥ ،

=

ولا شك أن وثائق الجنيزة تستطيع أن تقدم لنـــا فى مستقبل الأيام معلومات كثيرة تفسر لنا هذه النقاط الغامضـــة من تاريخ نشـــاط التجار الكارمية المسلمين فى ميناء عدن وغيره من مدن البحر الأحمـــر . وعلى سبيل المثال هناك رسالة فى مجموعة وثائق الجنيزة لم تنشر بعد مؤرخة فى مستهل شهر ربيع الأول سنة ٦٤٨هـ / ٣ يونيو ١٢٥٠م أرسلها شخص — من المحتمل أن يكون تاجرا — الى أبناء عمه بالفسطاط يخبرهم بسلامته وشوقه اليهم ورغبته فى الاجتماع بهم عن قريب ، ويخبرهم أيضا بأن أحد أفراد أسرتهم قد مات فى مستهل شوال سنة ٦٤٧ هـ ويرسل تحياته الى اخوته ومن المحتمل أن هذه الرسالة قد أرسلت من عدن (٣١) .

ولعب ميناء عيذاب على الساحل المواجه لميناء جدة دورا هاما فى تجارة البحر الأحمر فى العصر الأيوبى . وكان البحارة والتجار يفضلون الرسو فى عيذاب عند قدومهم من أو عند رحيلهم عنها وذلك لعمق وغزارة ميناء عيذاب وخلوه من الشعاب المرجانية التى تتعرض لها الملاحـــة فى

= ص ٢٨١ ، ج ٨ ، ص ٧٧ ، القلقشندى ، **ضوء الصبح** ، (القاهرة ١٩٠٦) ص ٢٥٣ ، صبحى لبيب ، التجار الكارمية وتجـــارة مصر فى العصـــور الوسطى ، **المجلة التاريخية المصرية** ، مجلد ٤ (١٩٥٢) ، ص ٥—٦٣ ، حسنين ربيع ، **النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين** (القاهرة ١٩٦٤) ، ص ١٦ ، نعيم زكى ، **طرق التجارة الدولية ومحطاتها** ، ص ٣٠١—٣٠٥ ، ٣٠٩ ، عطية القوصى ، أضواء جديدة على تجارة الكارم ، **المجلة التاريخية المصرية** ، مجلد ٢٢ (١٩٧٥) ، ص ١٧—٣٣ ، أنظر أيضا :

Heyd, W., Histoir du commerce du Levant au moyen age, (Leipzig, 1923), vol. II, p. 59, wiet, le s marchands d'epices in Cahiers d'histoire egypptienne, vol. vii (1955), pp. 86 ff., Ashtor, The Karimi merchants', Journal of the Royal Asiatic Society, (1956). pp. 45 - 56. Fischel. The spice trade, JESHO, vol. I (1957 - 8), pp. 157 - 174, Goitein., «The beginnings of the Karim merchants», in Studies in Islamic history, pp. 351 - 360, Hassanein Rabie, The financial system of Egypt, p. 97, 100, Lapidus, I. M., Muslim cities in the later middle ages, (Gambnidge Mass. 1967), pp. 125 - 126. Ashtor, A. social and economic history, pp. 241 - 242.

(٣١) Cambridge U. L., T. - S., B. 42, f. 210.

البحر الأحمر (٣٢) وازدادت أهمية ميناء عيذاب بازدياد النشاط التجارى فى البحر الأحمر فى العصر الأيوبى . وشـــهد ابن جبير فى رحلتـــه الى الأراضى الحجازية سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م بأن عيـــذاب « من أحفل مراسى الدنيـــا بسبب أن مراكب الهنـــد واليمن تحط فيها وتقلع منهـــا ، زائدا الى مراكب الحجاج الصادرة والواردة » (٣٣) .

وورد ذكر ميناء عيذاب كثيرا فى الجنيزة خاصة فى وثائق العصرين الفاطمى والأيوبى اذ كانت متاجر الشرق خاصة التوابل تأتى من عدن الى عيذاب ، حيث يدفع التجار المسلمون والذميون من رعايا المسلمين ضريبة الزكاة وضريبة واجب الذمة — ولم يكن مسموحا — كما سبق القـــول — لأى تاجر من المدن الايطالية أو من الهند أو الصين أن يبحر شـــمالا من عدن (٣٤) . ومن عيذاب تحمل القوافل المتـــاجر عن طريق الصحراء الى مدينة قوص التى وصفها ابن جبير بأنها مدينة « حفيلة الأسواق ، متسعة المرافق ، كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنـــديين وتجار أرض الحبشة لأنها مخطـــر للجميع ، ومحط للرحال ومجتمع الرفاق ، وملتقى الحجاج المغـــاربة والمصريين والاسكندريين ومن يتصل بهم ، ومنها يفوزون بصحراء عيذاب » (٣٥) .

---

(٣٢) أنظر أحمد السيد دراج ، عيذاب ، **مجلة نهضة أفريقية** ، السنة الأولى العدد ٩ ، ١٠ (يوليو — أغسطس ، ١٩٥٨) ،

وعن ميناء عيذاب عند الجغرافيين العرب ، أنظر :

Abdullah AL-Wohaibi, The Northern Hijaz in the Writings of the Arab geographers 800 - 1150, (Beirut, 1973), pp. 89, 94, 97.

المقريزى ، **المواعظ والاعتبار** (الخطط ، ص ٢٠٢—٢٠٣) .

(٣٣) Heyd, W., Histoire du commerce du Levant au moyen-age, I, pp. 380 - 381.

(٣٤) أنظر أيضـــا :

Hassanein Rabie, The financial system of Egypt, pp. 100 - 101.

(٣٥) **رحلة ابن جبير** ، ص ٣٧ ، أنظر أيضا :

Heyd, op. cit, I, p. 381.

وتعجب الرحالة ابن جبير من كثرة القوافل الحاملة لسلع الهند ، ولم يستطع احصاء القوافل الواردة والصادرة فى طريق عيذاب ــ قوص الصحراوى ، وأكثر ما شاهده فى هذا الطريق أحمال الفلفل الذى يقول بأنه خيل اليه لكثرته أنه يوازى التراب قيمة (٣٦) . ومن قوص كانت المراكب تحمل هذه المتاجر على نهر النيل الى الفسطاط فالاسكندرية أو دمياط حيث تأخذ طريقها الى أوربا . وظل هذا الطريق التجارى عدن ــ عيذاب ــ قوص ــ الفسطاط أو العكس مستعملا حتى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى بدليل أن القلقشندى (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) ذكر عيذاب كأحد الموانىء التى تأتى اليه متاجر الكارمية منجهة الحجاز واليمن وما والاهما وتدفع فيها المكوس (٣٧) .

وفى رسالة من وثائق الجنيزة ــ لم تنشر بعد كتبها ابن الى أمه أثناء اقامته فى عيذاب ، يخبرها بوصوله أولا الى قوص ، وأنه سأل هناك عن أولاد عمه فأخبره رجل « بأنهم فى عافية فى بلد يقال لها حليه فى اليمن » . ثم يخبر الابن أمه أنه سافر من قوص الى عيذاب وأنه سوف يسافر منها فى شهر رجب (لم يذكر السنة) . واحتوت الرسالة على كثير من السلامات والتحيات أرسلها فى رسالته الى بعض أفراد أسرته (٣٨) . وفى رسالة أخرى لم تنشر بعد من وثائق الجنيزة أخبر ابن والده بأنه رحل الى عيذاب ، وأنه لقى هناك كل خير ، وطلب من والده أن يبلغ سلامه الى بعض أقاربه الذين لم يلتق بهم . فى الطريق ولا فى عيذاب .. والتمس من والده أن يكثر الدعاء له (٣٩) .

وفى رسالة ثالثة لم تنشر أيضا من وثائق الجنيزة كتبها أحد التجار من ميناء عيذاب ذكر فيها قلة الأمن فى الطريق (ربما بين قوص وعيذاب) وأنه قاسى الكثير من النهب والسلب حتى قال فى رسالته : « فما بقى لى الا السفر ، فسافرت الى عيذاب فزعان خائف من نحس الطريق ، وهب

---

(٣٦) **رحلة ابن جبير** ، ص ٣٩ــ٤٠ .

(٣٧) القلقشندى ، **صبح الأعشى** ، ج٣ ، ص ٤٦٤ .

(٣٨) Cambridge U.L., T. - S. B 39, F. 480.

(٣٩) Cambridge U.L., T. - S. New Series, Box 321, Fol. 23 R - V.

الله السلامة . وانا معول على الدخول الى الهند » . وطلب من صديقه أن لا يقطع عنه أخباره (٤٠) . وفي رسالة أخرى أرسلها أحد التجار من عيذاب الى أخيه فى القاهرة أخبره فيها بوصوله الى ميناء عيذاب ،وقص عليه ما لقيه من الشدائد فيقول : « ولكن تعوقى فى عيذاب أمر ضرورى ولشدة أكيدة لعظم السكرا وعدم الذهب ، مضاف الى شدائد قاسيتها فى هذه السفرة ، وما خرج منى وتمحق من خسارة وضيعان فى البحر وغير ذلك ، وما فعل معى فى البضائع فى دخولى لليمن ، وضيع على فيها وأحوجه للدخول للهند ببقية البضائع حتى ذهبت جميع ثمنها فى المكوس، وضاعت الأصول ، وشىء يطول شرحه » (٤١) .

وطيلة العصر الأيوبى ظل ميناء جده على البحر الأحمر ميناء مكة المكرمة . وأصبحت جدة ومكة فى عصر سلاطين الأيوبيين وحتى نهاية العصور الوسطى الاسلامية مركزا هاما من مراكز تجارة الشرق .وكان ميناء جدة يستقبل الحجاج القادمين بطريق البحر فتزدهر أسواقها فى موسم الحج ، ويتهيأ منها الحجاج لدخول البيت الحرام لاستبدال سلعهم والسير الى الشام بعد المقام بمكة . وسرعان ما أصبحت جدة ميناء الحجاز كله (٤٢) . وتذكر وثائق الجنيزة — على سبيل المثال — أن التجار القادمين من بلاد الأندلس أو المغرب اعتادوا بيع متاجرهم من الحرير والنحاس وغير ذلك من منتجات بلادهم فى مدن مصر والشام ، ولكن اذا حدث ولم يصادف هؤلاء التجار نجاحا أو سوقا تجارية لبضائعهم ، اتجهوا بمتاجرهم الى ميناء جدة حيث وجدوا سوقا رائجة لتجارتهم (٤٣) .

وزاد من أهمية البحر الأحمر فى العصر الأيوبى أنه ظل طريقا يعبره الحجاج المصريون والمغاربة الى جدة ومنها الى مكة المكرمة . وقبل قدوم الصليبيين الى بلاد الشام وقبل سيطرتهم على وادى عربه المتد

---

(٤٠) Cambridge U.L. T - S., B. 40, F. 56.

(٤١) Cambridge U.L., T. - S, Arabic Box 48 (270), in Sinai, vol. 33 (1953), pp. 234 - 235.

(٤٢) أنظر نعيم زكى ، **طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب** ، ص ١٣٨—١٤٠ ، على بن حسين السليمان ، **العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك** ، (القاهرة ١٩٧٣) ، ص ١٩٢—٢٠٤ .

(٤٣) Goitein, Med. Soc., I, p. 214.

حتى خليج العقبة ، كانت مدينة القلزم (قرب مدينة السويس الحالية) مركزا هاما لتجمع الحجاج المصريين والمغاربة وغيرهم . واذا وصل الحجاج الى القلزم خرجوا منها الى نخل بسيناء ومنها الى أيلة على خليج العقبة ومنها الى حقل ثم الى عيون القصب . ومن عيون القصب كان الحجاج يرحلون الى المويلحة على ساحل البحر الأحمر ثم الأزلم التى يرحلون منها الى الوجه ثم يتجهون الى أكرى . ومن أكرى يرحل حجاج الركب المصرى الى الحوراء على ساحل البحر الأحمر ومنها الى نبط ثم ينبع ثم بدر ثم رابغ التى تعتبر ميقات أهل مصر ، فيحرمون منها ويخرجون مهللين مكبرين متجهين الى خليص ، ثم يرحلون منها الى عسفان ويتجهون منها الى بطن مر التى يستعدون فيها لدخول مكة المكرمة (٤٤) .

على أن هذا الطريق البرى لركب الحاج المصرى تعطل من الشمال ولم يعد الطريق الآمن للحجاج بعد سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م بسبب حوادث الشدة المستنصرية زمن الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، عندما خربت ديار مصر (٤٥) ، ثم لما حدث بعد ذلك من تأسيس الامارات الصليبية فى بلاد الشام وقيام ملك بيت المقدس الصليبى بلدوين الأول — كما سبق أن ذكرنا — (٤٦) باغلاق الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام والحجاز فتحول التجار والحجاج المصريون والمغاربة الى طريق آخر ، اذ كانوا يركبون النيل جنوبا الى مدينة قوص بصعيد مصر ، ومنها يسلكون الصحراء الى ميناء عيذاب على الساحل المواجه لميناء جدة ، ثم يعبرون البحر الأحمر الى جدة . ووصف لنا هذا الطريق الرحالة ابن جبير فى رحلته الى الأراضى الحجازية سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م فى عصر صلاح الدين الأيوبى . وذكر ابن جبير أنه صعد فى النيل من القاهرة الى قوص ، ثم سافر بطريق الصحراء من قوص الى عيذاب . وعندما وصل ابن جبير الى ميناء عيذاب على شاطىء البحر الأحمر ركب أحد الجلاب ، وهى المراكب

---

(٤٤) انظر الجزيرى : **درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة** ، (ط. القاهرة ١٣٨٤هـ) ص ٤٤٩—٤٥٢ ، ٤٧٠—٤٧١ .

(٤٥) المقريزى ، **الخطط** ، ج١ ، ص٢٠٢، المقريزى ، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا** ، ج٢ ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد (ط. القاهرة ١٩٧١) ، ص ٢٦٥ وما بعدها .

(٤٦) انظر ماسبق ص ١٤١ — ١٤٢ .

التى تنقل الحجاج بين عيذاب وجدة والتى لايستعمل فى صنعها مسمار (٤٧) . غير أن أهل عيذاب ـ كما قال ابن جبير ـ لم يحفلوا براحة الحجاج فكانوا: « يشحنون بهم الجلاب ، حتى يجلس بعضهم على بعض ، وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة .. ويقولون علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح » على حد قوله (٤٨) .

ومن الجدير بالذكر أن هذا الطريق الذى وصفه ابن جبير استخدمه الحجاج المصريون والمغاربة طيلة العصر الأيوبى وسنوات من العصر المملوكى حتى سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ — ١٢٦٨ م عندما أخرج السلطان المملوكى الظاهر بيبرس قافلة الحج من البر أى عبر شبه جزيرة سيناء، وبذلك قل سلوك الحجاج لطريق عيذاب ـ جدة عبر البحر الأحمر . غير أن عيذاب ظلت عامرة ، واستمرت بضائع التجار تحمل من عيذاب الى قوص الى أن أبطل ذلك بعد سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٨ — ١٣٥٩ م بسبب خراب الصعيد ، وكثرة قطاع الطرق ، فاتجه التجار الى الطريق البحرى شمالا

---

(٤٧) اختلفت طبيعة البحر الأحمر عن طبيعة البحر المتوسط لما يحتويه من شعب مرجانية وما به من تيارات بحرية ويهب عليه من رياح وأعاصير . وأدى هذا الى صعوبة الابحار فى البحر الأحمر واحتاجت صناعة سفنه الى أنواع خاصة من الخشب يمتاز بمتانته ومرونته . فكانت أنواع الهياكل تصنع من خشب الساج أو خشب جوز الهند وهو خشب شديد الاحتمال لا يتشقق ولا يتقلص ولا يتغير شكله . وكان هيكل السفينة يثبت بعضه الى بعض دون استخدام المسامير وانما تخاط بأمراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل . وبينما كانت سفن البحر المتوسط تقلفط بالقار ، كانت سفن البحر الأحمر تقلفط بالدسر أى المسامير الخشبية المصنوعة من عيدان النخيل ثم تسقى بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن حوت القرش ، أما قلاع هذه الجلاب فكانت من خوص شجر المقلى، أنظر **رحلة ابن جبير** ، ص ٤٢—٤٣ ، المقريزى ، **الخطط** ، ج١ ، ص ٢٠٣ ، سعاد ماهر ، **البحرية فى مصر الاسلامية** ، (ط. القاهرة ١٩٦٧) ، ص ١٩٢ — ١٩٤ .

(٤٨) **رحلة بن جبير** ، ص ٤٣ ، أنظر زكى محمد حسن ، **الرحالة المسلمون** ص ٧٨ .

الى موانىء جدة والطور والسويس » (٤٩) .

هذه لمحة عامة عن تاريخ البحر الأحمر فى العصر الأيوبى ، وقد رأينا كيف عمل سلاطين البيت الأيوبى على أن يظل هذا البحر بحرا اسلاميا خالصا ، ومعبرا للحجاج المصريين والمغاربة ، وشريانا من أهم شرايين تجارة العالم الوسيط . وأسهمت مدنه وموانئه المزدهرة فى تاريخ الحضارة الانسانية .

---

(٤٩) المقريزى ، **الخطط** ، ج١ ، ص ٢٠٢–٢٠٣ ، القلقشندى ، **صبح الأعشى** ، ج٣ ، ص ٤٦٥–٤٦٦ .

٧

علاقات مصر بعالم البحر الأحمر

فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة
(٧٨٤ ـــ ٩٢٢ هـ / ١٣٨٢ ـــ ١٥١٦ م)

للدكتور

قاسم عبده قاسم

كليـــة الآداب ـــ جامعة الزقازيق

مدخل الى الدراسة ـــ الطبيعة المتداخلة لأبعـــاد علاقات مصر بعالم البحر الأحمر فى العصور الوسطى ـــ البعـــد السيـــياسى (دور مصر فى العالم الاسلامى وانعكاساته على علاقاتها بالقوى المعاصرة ـــ أهمية البحر الأحمر بالنسبة لمصر فى عصر الجراكسة طبيعة العلاقة السياسيـــية مع بلاد الحجـــاز ـــ مصر واليمن ـــ العلاقات السياسية مع الحبشة) ـــ البعد الدينى (مصر آخـــر معاقل الحضارة الاســـلامية فى العصـــور الوسطى ـــ اهتمام السلاطين بالمظهر الدينى وتأثير ذلك على علاقاتهم ببلدان البحر الأحمر) ـــ البعد الاقتصادى (أهمية البحر الأحمر في التجـــارة العالمية فى العصور الوسطى ـــ دور مصر فى هـــذه التجارة ـــ موانىء البحر الأحمر والمنافسة بينها ـــ ظهـــور الخطر الأوربى وانهيار النفوذ المصرى) ـــ خاتمة ..

شهدت خمسينيات القرن السابع الهجرى (١٣ م) حدثا زلزل أركان العالم الاسلامى ، وتردد صداه فى شتى أرجاء العالم المعروف آنذاك ، ذلكم هو اجتياح الجحافل المغولية لبلدان الشرق الاسلامى والقضاء على الخلافة العباسية فى بغداد سـنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) . وكانت لهـــذا الحادث المروع آثاره التى تجلت على المستوى السياسى فى أن المسلمين وجدوا أنفسهم بدون خليفة للمرة الأولى فى تاريخهم ، وعلى المســتوى الاقتصادي في اغلاق طريق التجارة العالميـــة المـــار بالطريق البرى عبر

آسيا ، وعلى المستوى الحضارى فى تقهقر الحضـــارة الاســـلامية الى القاهرة ، معقلها الأخير .

وكانت الاستجابة السياسية لهذا الحدث هى ظهور دولة سلاطين المماليك للقيام بدور القوة المدافعة عن الاسلام والمسلمين ، بينما تمثلت الاستجابة الاقتصادية فى تحول التجارة العالمية الى طريق البحر الأحمر عبر الأراضى المصرية ، على حين كان النشاط الحضارى والثقافى فى مصر والشام يمثل الاستجابة الحضارية لهذا الحدث .

فقد لعب المماليك دورا هاما فى هزيمة حملة لويس التاسع على مصر وأسر لويس نفسه فى أعقاب المعــركة التى دارت رحاها بين فارسكور والمنصورة سنة ٦٤٨ هجرية (١٢٥٠ م) (١) . ثم جاء انتصار المسلمين على المغول فى عين جالوت سنة ٦٥٨ هجرية (١٢٦٠ م) ليؤكد مرة أخرى أهمية فرسان المماليك فى الدفاع عن العالم الاسلامى . وهكذا انقشع غبار المعارك ضد الصليبيين فى مصر والمغول فى بلاد الشام ليكشف عن دولة جديدة أخذت على عاتقها حماية العالم الاسلامى منذ ذلك الحين ، وحتى سقوطها تحت ســنابك الخيول العثمانية فى مرج دابق والريدانيـــة فى سنتى ٩٢٢ هـ ، ٩٢٣ هـ (١٥١٦ ، ١٥١٧ م) على التوالى .

ومن ناحية أخرى ، بدا للمعاصرين أن هؤلاء الغرباء ، المجلوبين عبيدا فى طفولتهم ، مغتصبون للسلطة من أصحابها الشرعيين ، ولم تشـــفع للمماليك بطولاتهم التى تبدت فى المنصورة وعين جالوت ، وكان عليهم أن يبحثوا لسلطنتهم الوليدة عن ســند شرعى يدعمون به حكمهم فى نظــر معاصريهم ، وكان احياء الخلافة العباسية فى القاهرة سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م) بمثابة الحل السعيد الذى وجــد السلطان الظـــاهر بيبرس للخروج من

---

(١) عن تفاصيل معركة المنصورة وفارسكور . انظر : المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ص ٣٤٢ — ٣٥٦ ، وانظر أيضا الترجمة والتقديم التى أعدها M.R.B. Shaw لرواية جوانفيل عن هذه المعركة Joinville, The life of Saint Louis (Penguin 1977), pp. 220 - 48.

انظر أيضا : محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ، (القاهرة ١٩٦١) ص ١٦٥ — ٢١١ .

أزمته (٢) ، كما كانت زيارته لبلاد الحجاز ، وفرض سيادته على أمرائه ، وبسط حمايته على الحرمين تدعيما للواجهة الدينية آثر أن يخفى وراءها حقيقة اغتصابه للسلطة من ضحيته قطز (٣) .

ويجدر بنا أن نشير الى أن ظروف قيام سلطنة المماليك من جهـــة ، وطبيعة أولئك الحكام من جهة ثانية ، قد حددت أبعاد النظرية الســـياسية لذلك العصر ، ومؤداها أن عرش البلاد حق لكل أمراء المماليك يفوز به أقواهم وأقدرهم على الايقاع بالآخرين ، وهو الأمر الذى بدا أوضح ما يكون فى عصر المماليك الجراكسة حين فقدت السلطنة هيبتها ، وقصرت مدد حكم السلاطين بشكل عام . وقد أدى ذلك الى اعتماد السلاطين على قوة ذات جناحين ، أحدهما يتمثل فى قوة السلطان الذاتية التى يجسدها مماليكه ، أو حرســـه الخاص ، وثانيهما يتمثل فى الواجهـــة الدينيـــة التى حرص السلاطين على التخفى وراءها طوال ذلك العصر .

وقد تحددت معالم علاقات مصر بعالم البحر الأحمر فى عصر سلاطين المماليك من خلال هـــذه الظروف . واتخذت هـــذه العلاقات أبعادا مختلفة ، وان تداخلت فى بعضها البعض ، اذ كان البحر الأحمر أو بحـــر القلزم (٤) ـــ كما عرفه مؤرخو تلك الفترة ـــ بحرا مقدسا يحرم على غير المسلمين

---

(٢) فى السنة المذكرة بويع الأمير أبو القاسم أحمد ابن الخليفـــة الظاهر بن الناصر لدين الله المستضىء بالله خليفة فى القاهرة ، وقد أصدر تقليدا للسلطان الظاهر بيبرس بحكم « البلاد الاسلامية ، وما ينضاف اليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار » (انظر نص الوثيقة فى : السلوك ج ١ ، ص ٤٥٣ ـــ ٤٥٧) وهو ما يعنى حصول بيبرس على تفويض شرعى من أمير المؤمنين بالحكم ، وقد ذكر السيوطى (حسن المحاضرة ج ٢ ، ص ٨٧) أن بيبرس حصل على لقب « قسيم أمير المؤمنين » الذى لم يحصل أحد قبله عليه ـــ (انظر : النويرى : نهاية الارب فى فنون الأدب ، ج ٢٨ ، ص ١٨ « مخطوط » ، المقريزى ، الســـلوك ، ج ١ ص ٤٤٨ ـــ ٤٥٠ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٢٨ ـــ ٣٢٩) . ومن الثابت أن الخلفاء العباسيين فى القاهرة لم يكن لهم من الخلافة سوى اسمها .

(٣) المقريزى : الســـلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٥ ـــ ٤٣٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٧ ، ص ٨٣ ـــ ٨٤ .

(٤) عرف البحر الأحمر باسم بحر القلزم نســـبة الى مدينة القلزم القديمة التى كانت قائمة بالقرب من السويس والقلزم ، وجمعه قلازم وهى الدواهى والمضايقة ، ويسمى بالقلزم لأنه مضيق بين جبلين (المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ١٥ ، ص ٢١٢) ، وقد ذكره المقريزى فى مكان آخر من خططه باسم البحر الحجازى (ج ١ ، ص ٣٤١) .

دخوله حماية للأماكن المقدسة ببلاد الحجاز ، كما أن تحول التجارة العالمية الى هـذا البحر أتاح لدولة المماليك أن تجنى الأرباح الطائلة من تجـارة المرور ، فضلا عن أن وجود الحبشة المسيحية كواحدة من القوى المؤثرة فى عالم البحر الأحمر جعل مصر تتصدى للقيام بدور حامية المسلمين فى شرق أفريقيا . وهكذا كانت علاقات مصر ببلدان البحر الأحمر ثلاثية الأبعاد، فقد لعبت مصر دورها فى عالم البحد الأحمر استجابة للروابط الدينية مع الحجاز ومسلمى الحبشة من جهة ، وحرصا على مصالحها التجارية من جهة ثانية ، وكانت علاقاتها الدبلوماسية مع جيرانها على شاطىء هـذا البحر بمثابة البعد السياسى الذى يتفاعل مع حركات المـد والجزر فى البعد الدينى والبعد الأقتصادى من جهة ثالثة . بيد أن هـذه الأبعاد الثلاثة لم تكن فى الحقيقة سوى تعبيرات عن مسـتويات مختلفـة من الاحتكاك الحضارى بين مصر وبلدان البحر الأحمر فى عصر المماليك الجراكسة .

أولا — البعد السياسى :

وعلى الصعيد السياسى امتدت خيوط العلاقات ما بين مصر من جهة، والحجاز ، واليمن والحبشة ، ودول الطراز الاسلامى من جهة ثانية . الا أن مستوى هـذه العلاقات لم يكن واحدا ، فبينما كانت بلاد الحجـاز جزءا من سلطنة المماليك ، كانت بلاد اليمن ودول الطراز الاسلامى فى شرق أفريقيا تدين بالولاء لسلطنة المماليك وتدور فى فلكها باعتبارها القوة الاسلامية الكبرى آنذاك . أما العلاقات مع الحبشة المسيحية فقد تذبذبت ما بين علاقات الود ، والتهـديدات العـدائية بسبب موقف كل منهما من الأقليات الدينية من جهة ، ومحاولات القوى المسيحية العالمية للتحالف مع الحبشة وحصار دولة المماليك الثانية من جهة أخرى .

وقد دخلت بلاد الحجاز فى نطاق سلطنة المماليك منذ وقت مبكر (٥) . وقد ذكر الرحالة بيلوتى الكريتى — الذى زار مصر فى عصر السـلطان

---

(٥) فى سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٩ م) قام السلطان الظاهر بيبرس برحلة حج الى الحجاز حيث اعترف له أمراؤها بالسيادة ، وصارت الخطبـة والسكة باسمه ، وأجهض محاولة ملوك بنى رسول باليمن لفرض سيادتهم الحجاز كما كتب تقليدا بالامارة لأميرى مكة . ومنذ ذلك الحين ، وحتى نهاية عصر المماليك كان أمراء الحجاز يتلقون وظائفهم من السلطان فى القاهرة ، القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ج ٤ ، ص ٢٨٩، المقريزى : الذهب المسـبوك فى ذكـر من حج من الخلفـاء والملوك ، ص ٨٧ — ٩٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقـاهرة ، ج ٢ ،ص ٨٨

الأشرف برسباى فى النصف الأول من القرن الخامس عشر — أن السلطان يلقب بسلطان مصر والحجاز (٦) ، وهو ما تؤكده المصادر التاريخية لعصر المماليك الجراكسة (٧) .

وكان السلطان يعين من يشغلون وظائف الامارة بمكة والمدينة والنيابة فى ميناء ينبع ، ويذكر القلقشندى أن ينبع كانت نيابة ولم تكن امارة لأنها كانت أقل شأنا من مكة والمدينة (٨) . وكان لابد لأمراء الحجاز من الحصول على تقليد جديد اذا ما توفى السلطان الحاكم (٩) . وقد حدثت منذ القرن التاسع الهجرى (١٥ م) بعض التطورات ، اذ حصل الشريف حسن بن عجلان سنة ٨١١ هـ على لقب نائب الأقطار الحجازية أو سلطان الحجاز بحيث تمتد سيادته على كل من مكة والمدينة وينبع وخليص والصفراء ولكن الخلاف بينه وبين السلطان الناصر فرج بن برقوق ما لبث أن تسبب فى عزله من نيابة السلطنة فى الحجاز (١٠) .

وقد حددت الوثائق — التى حفظها لنا القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى — مهام أمراء الحجاز . فقد كان على أمير مكة أن يعمل على توفير سبل الراحة للحجاج ، وأن يوطد الأمن وينشر السلم ، كما يخف الى استقبال ركب المحمل المصرى قبل دخوله الى مدينة مكة فى موسم الحج ، ويظهر خضوعه التام بتقبيل خف اليد اليمنى للجمل الذى يحمل المحمل(١١) . أما أمير المدينة فكان عليه أن يوفر سبل الأمن للحجاج وأن يستميل الأعراب فى المناطق المجاورة حتى لا يهاجموا قوافل الحج . بينما كان واجب نائب ينبع أن يؤمن طريق الحجاج « .. فانه بين حرمين ، بيت الله ، ومسجد

---

(٦) Dopp. (P.H.), L'Egypte au Commencement du Quanzieme Siéole, p. 41.

(٧) انظر على سبيل المثال : المقريزى : السلوك ، ج ٣ ، ص ٩١٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٢ ، ص ١٦٨

(٨) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٢٣٢ — ٢٦٠ .

(٩) المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٩٦٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٢ ، ص ١٧١ ، ج ١٥ ، ص ٤٦٢

(١٠) المقريزى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٥ — ٧٦ ، ص ٣٤١ — ٣٦٩

(١١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٧٧ ، المقريزى : السلوك ، ج ٣ ، ص ٥٥٤ — ٥٥٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١١ ، ص ٢٤٥ — ٢٤٦

رسوله ... » ، وأن يحافظ على ودائع الحجاج ، ويرغب التجـار فى القدوم الى الميناء « .. فانهم فى توسيعهم على أهل الحرمين كالمتصدقين وان كانوا تجارا ببضاعة ... » (١٢) .

ومن ناحية أخرى كانت لأمراء الحجاز — وهم من الأشراف — مكانتهم التى جعلت سلاطين الجراكسة يعاملونهم معاملة خاصة ، فقد ذكر المقريزى ان كل من كان يمثل بين يدى السلطان المملوكى كان لابد أن يقبل الأرض ، باستثناء القضاة والعلماء والصالحين وأشراف الحجاز اجلالا لهم ، والجدير بالذكر أن السلطان الأشرف برسباى قد أبطل هـذه العادة فى عهده (١٣) . كذلك كان هؤلاء الأشراف يقابلون بالحفاوة والتكريم حين يصلون الى مصر فى الأحوال العادية (١٤) .

ومن مظاهر سيادة دولة المماليك فى بلاد الحجاز أن السلاطين كانوا يصدرون مراسيمهم من آن الآخر لتنظيم شئون امارة مكة أو غيرها . فقد حدث سنة ٨٣٠ هجرية (سنة ١٤٢٦ م) ، على سبيل المثال ، أن أصدر السلطان الأشرف برسباى مرسوما يمنع الباعة من بسط بضـائعهم فى المسجد الحرام بمكة أيام موسم الحج ، كما أصـدر أوامره بعدة تنظيمات أخـرى (١٥) .

الا أن التدهور الذى لحق بدولة المماليك الجراكسة ، وتبدت مظاهره واضحة منذ القرن التاسع الهجرى فى شتى وجوه الحياة ، ما لبث أن ترك آثاره السلبية على نفوذ سلاطين الجراكسة فى بلدان الحجاز . اذ تكشف صفحات مصادر تلك الفترة عن أن نفوذ الجراكسة السياسى على أمراء الحجاز أخذ يتضاءل باطراد حتى وصل الى مجرد رد فعل لما كان يحدث على الصعيد العملى ، ومحاولة اضفاء السمة الشرعية على الأمر الواقع

(١٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٢٤٠ — ٢٦٠ .
(١٣) المقريزى : السلك ، ج ٤ ، ص ٦٠٨ — ٦٠٩
(١٤) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ١٨٤ ، ص ١٨٥

(١٥) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ، ص ٧٥٤ — ٧٥٥ ، وقد استنكر المقريزى اهتمام برسباى بمثل هـذه الأمور التافهة فى وقت أباح لنفسـه أن يحصل الضرائب فى مكة ، وفى أثناء أداء الناس لفريضة الحج على اعتبار أن ذلك من الأمور المحرمة ، ولكن المؤرخ ابن تغرى بردى ، يختلف مع المقريزى فى ذلك ويرى أنه كان لابد من هـذه الاجراءات رعاية لحرمة المسجد الحرام (النجوم ، ج ١٤ ، ص ٣١٠) .

الذى كانت تسفر عنه المنازعات ، بين أمراء الحجاز وبعضهم البعض من جهة ، وبينهم وبين سلاطين الجراكسة من جهة ثانية .

وبدا ذلك واضحا منذ ولاية السلطان الظاهر برقوق للسلطنة سنة ٧٨٤ هجرية (١٣٨٢ م) فقد تشعبت خيوط المنازعات بين أميرى مكة وتشابكت وتعين على السلطان أن يعدل من مواقفه أكثر من مرة استجابة لتطورات الأحداث فى هـذا النزاع الطويل المدى ، والذى انتهى بتولية الشريف حسن بن عجلان لامارة مكة ٧٩٧ هـ (١٣٩٥ م) (١٦) ، وكانت لامارة مكة أهمية خاصة لدى سلاطين الجراكسة لا سيما بعد أن استطاعت جدة أن تلعب دور الميناء الرئيسى فى البحر الأحمر بدلا من عدن ، وكانت جدة هى الجمرك المصرى الأول لتحصيل الرسوم على تجارة الشرق عبر الأراضى المصرية على نحو ما سنفصله فى الصفحات التالية :

وقد استطاع حسن بن عجلان — الذى حكم امارة مكة فترة طويلة — أن يوطد مركزه ويحصل لامارته على وضعية خاصة بفضل ثرائه ونفوذه ، ورغم توتر العلاقات بينه وبين سلاطين الجراكسة الذين عاصرهم فى بعض الأحيان فانه استطاع أن يصدر مرسوما من الناصر فرج بن برقوق سنة ٨٠٤ هـ (١٤٠١ م) بأن يسمح فى بلاد الحجاز بالدعاء لملوك اليمن تدعيما للروابط التجارية ، كما استصدر مرسوما آخر يخرجه عن نطاق

---

(١٦) بدأ الصراع فى سنة ٧٨٤ هـ على امارة مكة بين الشريف أحمد ابن عجلان ، وابنى عمه حسن بن ثقبة وعنان بن مغامس ، فأشركهم السلطان برقوق فى امارة مكة ، ولكن طموح ابن عجلان جعله يمتنع عن تنفيذ أوامر السلطان ، فدبر مؤامرة انتهت بقتله بالسم سنة ٧٨٨ هـ ثم أرسل اثنين من الفداوية قتلا ابنه محمد وهو يستقبل المحمل . وجعل برقوق امارة مكة شركة بين بن مغامس ، وعلى بن عجلان ، نتيجة لما قام به بنو عجلان من نهب جدة وبضائع السلطان ومتاجره بها ، ولكن عنان رفض ثم آثر الهرب ، فعزل عنان وتولى بدلا منه على بن عجلان ، فثار أتباع عنان ورفضوا الامتثال لأوامر السلطان ... وأخيرا تولى امارة مكة الشريف حسن بن عجلان الذى تمكن من اقرار الأمن وتنشيط التجارة فى البحر الأحمر مما جعل السلطان برقوق يرسل اليه بخلعتين سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٧ م) . أنظر : (المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ، صفحات ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٥٦٢ ، ٥٨٣ ، ٧٦٨ ، ٧٧٢) . وكذلك ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١١ ، ص ٢٤٥ — ٢٤٦ ، وابن حجر : انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٣٠٣ ، ٣١٢ ، ٣٣٢ ، أنظر أيضا : د. حكيم أمين عبد السيد ، قيام دولة المماليك الثانية (دار الكاتب العربى ١٩٦٧) ص ١٥٥ ، ١٥٨ .

الخضوع لسلطة أمير الحجاج الذى كان يمثل السلطة العليا أثناء وجوده بالحجاز ، بل انه حصل لأبنائه على حق مشاركته فى الامارة ، ثم حصل لنفسه سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨ م) على لقب نائب السلطنة بالأقطار الحجازية وبدأ فى ممارسة سلطاته بالفعل فى العام نفسه ، ولكنه لم يلبث أن عزل عن نيابة السلطنة الا أن المصالح التجارية كانت تكبح جماح غضب سلاطين الجراكسة من طموح حسن بن عجلان وتحديه لسلطاتهم .

والحقيقة أن سلاطين الجراكسة كثيرا ما اضطروا الى تجريد الحملات لفرض نفوذهم الذى يتحداه أمراء الحجاز (١٧) ، وقد زاد معدل ارسال هذه الحملات فى السنوات الأخيرة من ذلك العصر مما يترك انطباعا لا يخطئه الباحث بأن الجراكسة لم يكن لهم أى نفوذ حقيقى فى بلاد الحجاز ، سوى فى فترات تواجد القوات المملوكية . وبات واضحا أن الدولة قد فقدت هيبتها وسيادتها الفعلية هناك بحيث لم يبق لسلاطين الجراكسة سوى ذكر أسمائهم فى الخطبة ، وتلقيهم الهدايا التى كان أمراء الحجاز يرسلونها اليهم على سبيل الرشوة .

وقد لعبت الرشوة دورها فى العلاقة بين سلاطين الجراكسة وأمراء الحجاز ، اذ يذكر المؤرخ ابن تغرى بردى (١٨) أن الشريف محمد بن حسن بن عجلان — الذى خلف اباه على امرة مكة — اضطر الى دفع رشوة مقدارها خمسين الف دينار الى السلطان الأشرف اينال العلائى سنة ٨٥٩ هجرية ليوليه هذه الوظيفة غير ما دفعه لكبار رجال الدولة ، ولابن السلطان وزوجته « ... فان زوجة السلطان وولده صار لهما نصيب وافر مع السلطان فى كل هدية ورشوة ... » .

وكان من مظاهر فقدان دولة المماليك الجراكسة لهيبتها فى بلاد

---

(١٧) المقريزى : السلوك ، جـ ٤ صفحات ٦٢٣ ، ٦٤٨ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٦٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٧ ، ٧٠٠ ، ٧٠٦ ، وابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٤ صفحات ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٨٢ — ٢٨٣ ، جـ ١٥ صفحات ٢٧٩ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، والسخاوى : التبر المسبوك ، ص ٤٦ ، ويحيى بن الحسين : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، جـ ٢ ، ص ٦٢٦ — ٦٢٨ ، وابن اياس : بدائع الزهورر ، جـ ٤ ، ص ٨٢

(١٨) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٦ ، ص ٩٢ — ٩٣

الحجاز ، نتيجة للفساد الداخلى الذى صرف السلاطين ورجال دولتهم عن واجباتهم ، أن بدأ أعرابه الحجاز يهاجمون القوافل المصرية ، ويهاجمون مكة والمدينة وغيرها (١٩) . فقد حدث سنة ٨١٧ هـ (١٤١٤ م) أن جاول الأمير جقمق — الذى تسلطن فيما بعد — أن يعاقب أحد عبيد مكة لأنه حمل السلاح فى الحرم ، فهاجمه قواد مكة وانتهكوا المسجد الحرام بخيولهم ، واضطر الى أن يبيت بخيوله وجنوده داخل المسجد بعد تسمير أبوابه (٢٠) .

ونتيجة لانعدام الوجود الحقيقى لسلطة الدولة بدأت أركان الأمن تهتز فى البلاد ، نتيجة غارات العربان والمنازعات بين القبـائل ، وخيفت الطرق ، بل ان اضطراب أحوال الأمن وكثرة المنازعات والفتن فى بلاد الحجاز كانت تمنع السلطات المماليكية من السماح بسفر الحجاج من مصر كما كانت تضطر الى ارسال المحمل فى البحر الأحمر من ميناء الطور الى جدة ، ومنها الى مكة تفاديا لمخاطر الطـريق ، وقد أثار تعرض الموكب المصرى للنهب أكثر من مرة حفيظة المؤرخين المعاصرين الذين أرجعوا سبب ذلك الى فساد رجال الدولة واهتمامهم بمصالحهم الشخصية فقط (٢١) .

أما العلاقات السياسية بين مصر واليمن فى عصر الجراكسـة ، فقد اتخذت مظهرا آخر بطبيعة الحال اذ كانت دولة الجراكسة معاصرة لكل من دولة بنى رسول (٦٢٦ — ٨٥٨ هـ / ١٢٢٩ — ١٤٥٤ م) ودولة بنى طاهـر التى خلفتها (٨٥٨ — ٩٣٣ هـ / ١٤٥٤ — ١٥٢٦ م) « وتمثلت أهمية اليمن — كواحدة من قوى عالم البحر الأحمر — فى أنها تتحكم فى المداخل الجنوبية لهذا البحر من ناحية ، وفى أن ميناء عدن ظل يلعب دورا

---

(١٩) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ ، السخاوى : التبـر المسبوك ، ص ٧٣ — ٧٤ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٣٣١ — ٣٣٢ وصفحة ٤١٣

(٢٠) المقريزي : السلوك . ج ٤ ، ص ٢٩٠ ، ابن تغرى بردى : ج ١٤ ، ص ٢٤ — ٢٥

(٢١) المقريزى : السلوك ، ج ١٤ ص ٩٥٠ ، ص ١٠٧٠ — ١٠٧١ ، ابن تغرى بردي : النجوم ، ج ١٥ ، ص ٢٣٢ ، ابن اياس بدائع الزهور ج ٤ صفحات ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ١٠٤ ، ٤٨٢ ، ج ٥ ، ص ١٠

هاما فى التجارة العالمية التى اتخذت طريق البحر الأحمر منذ القرن الثالث عشر — حتى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) » ومن ثم حرص سلاطين المماليك الجراكسة منذ بداية دولتهم على اقامة علاقة ودية مع اليمن ، وعلى مد روابط الصداقة وتبادل الهدايا مع سلاطينها حفاظا على مصالحهم التجارية .

وبادر السلطان الظاهر برقوق، بعد سنوات ثلاث من توليه العرش، الى ارسال هدية الى ملك اليمن الأشرف الثانى (٧٧٨ هـ — ٨٠٣ هـ ١٣٧٦ — ١٤٠٠ م) مما جعل العلاقات تتحسن بين الدولتين بعد أن كانت قد تدهورت فى أواخر عصر دولة سلاطين المماليك اولى (٢٢) .

ومن مظاهر العلاقات الودية تلك السفارات المحملة بالهدايا التى تبادلها الطرفان وأفاضت المصادر التاريخية فى وصفها (٢٣) . وقد ظلت العلاقات الودية قائمة بين الدولتين حتى عهد السلطان الأشرف برسباى فمنذ ذلك الحين بدأ ميناء جدة التابع لسلاطين الجراكسة يحل محل ميناء

---

(٢٢) فى سنة ٧٢٢ هـ حج سلطان اليمن المؤيد داود بن المظفر يوسف ، وأراد أن يكسو الكعبة ولكن أمير مكة منعه من ذلك ، وفى سنة ٧٥٢ هـ كرر المحاولة وأراد أن يفرض سيطرته السياسية على الحجاز واصطدم بأمير ركب الحاج المصرى فى معركة أسفرت عن هزيمته وأخذه أسيرا الى مصر حيث أفرج عنه السلطان الناصرحسن ابن محمد بن قلاون، وأعاده الى بلاده (القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٢ ، المقريزى : الذهب المسبوك ، ص ١١٤ — ص ١١٨) . وكانت سلطنة المماليك الأولى تتدخل أحيانا فيما ينشب من منازعات حول عرش تعز (العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، الجزء الخاص باليمن ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، ص ٥٠ — ٥١ ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٣٣٣ — ٣٣٤) . وقد ذكر القلقشندى (صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ١٧) أنه كان هناك طريقان أحدهما برى والآخر بحرى يظلان مصر باليمن ، كما ذكر فى مكان آخر من موسوعته (جـ ٧ . ص ٣٣٢ — ٣٣٨) الصيغة التى كانت تكتب بها الرسائل الموجهة الى ملوك اليمن .

(٢٣) أنظر على سبيل المثال : العينى : السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، ص ٣٤٤ ، المقريزى : السلوك ، جـ ٣ ، ص ٨٧٤ — ٨٧٥ ، جـ ٤ ، ص ٣٦٧ ، ص ٣٩٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٢ ، ص٦٦، ص ٦٧ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ، جـ ٢ ، ص ٦٣٧ ، ٦٤١.

عدن التابع لملوك اليمن فى التجارة العالمية الأمر الذى أثار حفيظة ملوك اليمن . كما أن السلطان الأشرف برسباى قد حاول سنة ٨٢٩ هـ الاستيلاء على اليمن وضمها الى ممتلكاته ، ويبدو من قلة عدد المماليك المشتركين فى هـذه الحملة البحرية الصغيرة ومن أسلوب الخداع الذى اتبعه قائدهم ، ان البعض قد صور لبرسباى أن الاستيلاء على اليمن أمر هين وأشـبه ما يكون بنزهة بحرية . وعلى أية حال ، اكتشف ملك اليمن المنصور بن الناصر أحمد (٨٢٩ — ٨٣٠ هـ / ١٤٢٦ — ١٤٢٧ م) سوء نيتهم فطرد قائد الحملة الذى جاءه بصفته رسولا من قبل برسباى ، وغضب برسباى وأراد أن يجرد حملة انتقامية ، ولكن اهتمامه بفتح جـزيرة قبرص حال دون ذلك (٢٤) .

وبدأ التوتر يتصاعد حتى وصل الأمر الى أن ملوك اليمن من بنى طاهر — الذين خلفوا بنى رسول — بدأوا يمنعون تسهيلاتهم عن الأسطول المصرى الذى بدأ منذ بواكير القرن السادس عشر يحاول منع البرتغاليين من بسط سيادتهم على البحـار الشرقية والتحكم فى التجارة ، فقد ذكر المؤرخ اليمنى يحيى بن الحسـين (٢٥) أن السلطات اليمنية عدلت عن سياستها ورفضت تقديم أية تسهيلات للأسطول المصرى سنة ٩٢١ هـ بأمر السلطان عامر بن عبد الوهاب (٨٩٤ — ٩٢٣ هـ / ١٤٨٩ — ١٥١٧ م) مما جعل الأمير حسين الكردى — الذى كلفه السلطان قنصوه الغورى بمطاردة البرتغاليين — يهاجم موانىء اليمن ، ويستولى على زبيد ويترك بها حامية تهاجم صنعاء وتقتل السلطان اليمنى ، ... ولكن نبأ سقوط دولة الجراكسة فى مصر على أيدى العثمانيين يوقف الصراع عند هـذا الحـد ويعلن قائد الحامية المملوكية باليمن ولاءه للسلطان سليم العثمانى

---

(٢٤) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ، ص ٧١٥ ، وابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٤ ، ص ٢٨٤ — ٢٨٥

(٢٥) أنظر : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، الجزء الثانى ، صفحات ٦٣٠ ، ٦٣٢ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣

سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) مجسدا بذلك حقيقة أن العثمانيين قد ورثوا الدور المصرى فى عالم البحر الأحمر .

أما الحبشة ، فقد كانت احدى القوى الهامة فى عالم البحر الأحمر، بفضل سيطرتها على دول الساحل الصومالى التى عرفت آنذاك باسم « بالطراز الاسلامى » من ناحية ، وتدخلها لصالح الأقباط من ناحية . ومن ثم كانت علاقات الجراكسة بالحبشة محكومة بعدة عوامل أهمها المصالح التجارية (لأن امارة أوفات كانت تتحكم فى الطريق التجارى الذى يربط بين داخلية الحبشة وميناء زيلع على البحر الأحمر) ، والروابط الدينية بين كل من الدولتين ولأقلية الدينية فى الدولة الأخرى ، فبينما اتخذت سلطنة الجراكسة دور القوة الحامية للوجود الاسلامى بالحبشة ، كان نجاشى الحبشة القابع فى قلاعه الجبلية الحصينة عند منابع النيل الأزرق يتدخل بوسائل مختلفة لصالح الأقباط فى مصر والمسيحيين فى بلاد الشام .

وفى عصر سلاطين الجراكسة سارت العلاقات بين مصر والحبشة فى مسار متذبذب بحكم حركة العوامل التى سبقت الاشارة اليها . والجدير بالذكر أن سياسة مصر تجاه الحبشة فى عصر الجراكسة لم تكن سوى استمرار لسياسة دولة المماليك الأولى (٢٦) . وهكذا كانت العلاقات السياسية بين الدولتين تتأرجح ما بين الود الظاهر والعداء السافر .

---

(٢٦) كانت العلاقات المصرية الحبشية قد تجمدت لفترة من الوقت بسبب اضطراب أحوال الحبشة الداخلية فى منتصف القرن الثالث عشر، ولكن الامبراطور « يكونو املاك » الذى اعتلى العرش سنة ١٢٧١ ، أرسل سفارة الى الظاهر بيبرس يطلب اعادة العلاقات الى مجراها الطبيعى ، ويطلب تعيين أسقف مصرى لكنيسة الحبشة ، ولكن بيبرس رفض بسبب هجوم امبراطور الحبشة على مسلمى الساحل الصومالى ، ولكن العلاقات تحسنت فى عصر المنصور قلاون ، وابنه الناصر محمد ولكنها لم تتخذ شكل الثبات والاستقرار طوال ذلك العصر — عن علاقات مصر بالحبشة فى عصر دولة المماليك الأولى ، أنظر : ابن عبد الظاهر : =

وكانت أولى الحوادث فى صفحة العلاقات السياسية بين مصر والحبشة فى عصر الجراكسة ، هى تلك الحادثة التى أشار اليها المقريزى (٢٧) ، وملخصها ان امبراطور الحبشة هاجم أطراف مصر الجنوبية سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م) مما جعل السلطان الظاهر برقوق يستدعى بطريرك الأقباط ، ويأمره بكتابة رسالة ينهى فيها الأمبراطور الحبشى داود بن سيف أرعد (١٣٨١ — ١٤١١) عن مهاجمة مصر مرة أخرى وعلى الرغم من أن المقريزى وابن حجر يذكران أن سفارة سافرت من مصر تحمل رسالة البطريرك الى النجاشى (أو الحطى كما كانت تسمية مصادر تلك الفترة) وعادت بعد ثلاث سنوات الى مصر ، فاننا نميل الى رأى الشاطر بصيلى (٢٨) القائل بأنه ربما يكون البحارة سكان ساحل البحر الأحمر هم الذين قاموا بهذه الاغارات ، نظرا لأن بعد المسافة ووعورة الطريق تجعل مثل هذا الغزو أمرا شبه مستحيل . وعلى أية حال ، فان طابع الود قد ساد العلاقات السياسية بين الدولتين إبان حكم الظاهر برقوق ، وابنه وخليفته الناصر فرج كما يبدو واضحا من أخبار السفارات

= تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور ، ص ١٦٩ — ص ١٧٣ ، ابن أبى الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد « ص ٣٨٣ — ص ٣٨٧ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٧ ، ص ٢٤ — ص ٢٥ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ١١٩ — ص ١٢٠ ، المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ وما بعدها ، أنظر أيضا زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦٤) ، سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى » (بحث بالمجلة التاريخية المصرية ، مجلد ١٤ ، ١٩٦٨) ، ص ١ — ص ٤٣ . قاسم عبده قاسم : أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، (دار المعارف ١٩٧٧) ص ٩٦ ، ص ١٠١ ، وكذلك :

Atiya (A.S.) : The Crusad e in the later Middle Ages, (London 1938), pp. 276 ff., Ziada (M. M.), Foreign relations of Egypte in the 15th century (Liverpoole 1930), pp. 282 - 288.
Ziada : op. cit., pp. 282 - 85.

(٢٧) المقريزى : السلوك ، ج ٢٣ ، ص ٤٤٥ — ص ٤٤٧

(٢٨) الشاطر بصيلى : تاريخ وحضارات ، ص ١٢٤ ، ١٢٥

المتبادلة التى حملتها مصادر تلك الفترة (٢٩) . ولكن العلاقات ما لبثت أن توترت من جديد بسبب الهجمات التى شنها الامبراطور على المسلمين فى سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) ، وفى سنة ٨٢٢ هجرية تجدد الهجوم الحبشى على امارات الطراز الاسلامى ، ورد السلطان المؤيد شيخ بسلسلة من الاجراءات ضد المسيحيين فى مصر والشـــام (٣٠) . وحين وصلت الأمور الى هــذا الحد أرسل الامبراطور زرعا يعقوب (١٤٣٤ ــ ١٤٦٨) سفارة وصلت الي مصر سنة ٨٤٧ هـ (١٤٤٣ م) تطلب اعادة العلاقات الودية . وتضمنت الرسالة بعض التهديدات التى أثارت غضب جقمق (٣١) ، ولكنه آثر ألا يحرق الجسور بينه وبين ملكا الحبشة حرصا على مسلمى الحبشة من ناحية ، ومصالح مصر التجارية فى البحر الأحمر من ناحية أخرى . فأرسل رسالة الى زرعا يعقوب الذى صحب الرسول المصرى الي ميدان القتال حيث شهد مصرع « شهاب الدين بن سعد الدين » سلطان عدل وأخيه فى حلقة جديدة من حلقـــات الصراع بين الحبشة ، ودول الطراز الاسلامى (٣٢) .

---

(٢٩) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ، ص ٥٥٥ ، السخاوى : التبر المسبوك ، ص ٦٧ وما بعدها ، أنظر أيضا نص خطاب النجاشى داود الى السلطان برقوق ، وقـــد ورد فى مخطوطـــة بمكتبة بطريركية الأقبـــاط الأرثوذكس ، ضمن مجموعة سيرة برلام يواصف تحت رقم ٤٢ تاريخ ، وقد نشر الرسالة الدكتور أمين حكيم عبد السيد / قيـــام دولة المماليك الثانية ص ١٧٦ ــ ١٨٠ .

(٣٠) ابن حجر : أبناء الغمر ، ج ٣ ، ص ١٩٤ ــ ١٩٥ ، المقريزى : السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٩٢ ــ ٤٩٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٤ ص ٨١ ــ ٨٤ .

(٣١) أنظـــر نص الرســـالة فى السخاوى : التبر المســـبوك ، ص ٦٧ ــ ٧١ .

(٣٢) وصف القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٢٤ ــ ٣٣٠) هـــذه المنطقة بقوله : « البـــلاد المقابلة لبر اليمن على بحـــر القلزم ، وما يتصل به من بحر الهند ، ويعبر عنها بالطراز الاسلامى لأنهـــا على جانب البحر كالطراز له » . وقد تكونت امارات الطراز الاسلامى هـــذه نتيجة زيادة عدد المسلمين فى هـــذه المنطقة ذات الأهمية البالغـــة فى تجارة البحر الأحمر ، وقد تبلور الوجود الاسلامى بهذه المناطق من الناحية السياسية فى سبع امارات ظهرت مع بداية القرن الرابع عشر ، وهـــذه الامارات هى : أوفات ودوارذو ، وأرابينى ، وهديا ، وشرخا ، وبالى ،

وحين عاد الرسول المصرى الى السلطان الظاهر جقمق بهذه الأنباء توترت العلاقات من جديد بينهما وأمر السلطان بعدم قيام أية اتصالات بين الكنيسة القبطية والأحباش (٣٣). وحاول جقمق أن يقيم علاقات مباشرة مع السلطان محمد بن شهاب الدين سلطان عدل ، وتبادل معه الرسائل حول أوضاع مسلمى الحبشة والمسيحيين فى مصر والشام (٣٤).

ولكن أنباء السفارات الودية المحملة بالهدايا لكل من الطرفين تشير بأن العلاقات السياسية بين مصر والحبشة فى عصر الجراكسة لم تكن سيئة على الدوام ، بل انها اتخذت الطابع الودى فى كثير من الأحيان كما يتضح من المصادر التاريخية (٣٥) وكانت آخر سفارة حبشية الى مصر هى التى وردت سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) ويبدو من كلام ابن اياس(٣٦) أن الاتصالات بين البلدين ظلت متوقفة مدة طويلة .

ودارة . وقد تأرجحت ما بين التبعية السياسية لملك الحبشة والاستقلال عنه ، بل ومحاربته أحيانا . وكانت مارة أوفات هى أقواها جميعاً . وقد شهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر سلسلة من المعارك بين الحبشة ودول الطراز الاسلامى بسبب التنافس على السيطرة على المراكز التجارية فى داخل الحبشة وميناء زيلع على الساحل الصومالى ، واستعان مسلمو الحبشة بدولة المماليك ولكن بعد المسافة ووعورة الطريق لم يتح لمصر أن تقدم أية مساعدة فعالة لهم ، كما استعان الأحباش بالأوربيين — أنظر المقريزى : الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام (القاهرة ١٨٩٥) .

أنظر أيضا : ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٤ ، ص ٣٤٩ وما بعدها ، وكذلك : عبد الرحمن زكى ، الاسلام والمسلمون فى أفريقيا (القاهرة ١٩٧٠) ، ص ٢١٢ — ص ٢٢١ . الشاطر بصيلى : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط (القاهرة ١٩٧٢) ، ص ١٢٥ — ص ١٢٦ .

(٣٣) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ٦٧ — ص ٧٣

(٣٤) السخاوى : التبر المسبوك ص

(٣٥) ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ١ ص ٢٨٩ ، ص ٣١٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٢٤٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٧٩ — ص ١٨٠

(٣٦) بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٠ — ص ١١

ويبدو أن حماسة الأحباش لحماية المسيحيين فى سلطنة الجراكسة، لم تقف بهم عند حد التلويح باستخدام القوة ضد مسلمى الحبشة ، أو قطع مياه النيل ... وما الى ذلك ، بل انهم بدأوا يحاولون الاعداد لحملات صليبية مشتركة مع الغرب لتطويق مصر في منتصف القرن الرابع عشر ، ويؤكد بعض الباحثين ان غارة بطرس لوزتيان على الاسكندرية سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٥ م) قد أعدت على أساس أن يقوم الأسطول الصليبى بالهجوم على مصر من الشمال ، على حين يشن الأحباش هجومهم على حدودها الجنوبية وبذلك يتم تدمير معقل المقاومة الاسلامية . ولكن هروب بطرس لوزنيان بقواته من الاسكندرية بعد غارته الوحشية جعل امبراطور الحبشة يقرر العودة بعد أن خسر معظم جيشه (٣٧) . وكانت المحاولة الثانية متمثلة فى الدعوى التى وجهها جبرا مصقل الى ملوك الغرب الأوربى ، بعد استيلاء الجراكسة على قبرس ، من أجل القيام بحملة مشتركة ضد مصر . وتذكر مصادر تلك الفترة أن تاجرا مسلما ، كان يشترى له السلاح ومعدات القتال قام بدور الوساطة بينه وبين ملوك أوروبا ، واتفق معهم على أدق التفصيلات حتى زى الجنود الحملة ، ولكنه ضبط فى الاسكندرية وهو فى طريق العودة وأعدم سنة ٨٣٢ هـ (١٤٢٩ م) (٣٨) . وفى عهد السلطان قايتباى استقبل ملك الحبشة مبعوثا برتغاليا فى اطار جهود البرتغال للسيطرة على التجارة الشرقية — هو بدرو داكوفلهام Pedroda Covilham ، وبعد أن خدم كمستشار للملك الحبشة سافر فى بعثة الى الملك البرتغالى حنا الثانى للاتفاق على حملة مشتركة للاستيلاء على بيت المقدس ، ولم تكد البعثة تسير عدة أميال حتى اشتبكت فى نزاع مسلح مع الأهالى ، الأمر الذى حال دون سفرها وعاد كوفلهام من حيث أتى ليعلن فشل ثالث مشروع صليبى مشترك تسعى اليه الحبشة (٣٩) .

ثم استولى العثمانيون على مصر سنة ١٥١٧ ، وحلوا محل

---

(٣٧) سعيد عاشور ، بعض أضواء جديدة ، ص ٣١
(٣٨) المقريزى : السلوك ، جـ ٤ ، ص ٧٩٥ — ٧٩٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٤ ، ص ٣٢٤ — ٣٢٦
(٣٩) الشاطر بصيلى : تاريخ وحضارات ، ص ١٣٤
Ziada, op. cit., pp. 287 - 88.

الجراكسة فى حماية البحر الأحمر ، وممارات الطراز الاسلامى ، ودخلت علاقات مصر السياسية بالحبشة دورا جديدا من أدوارها .

ثانيا — البعد الدينى :

اتخذت الروابط الدينية بين مصر ودول البحر الأحمر مسارين اساسيين ، أحدهما يربط بين مصر وبلاد الحجاز ، حيث الحرمان الشريفان اللذان آل أمر حمايتهما الى مصر بعد سقوط الخلافة العباسية (٤٠) ، بينما يربط الثانى بين مصر والحبشة المسيحية ، نظرا لأن الكنيسة الحبشية كانت تابعة لكنيسة القديس مرقس فى الاسكندرية منذ وقت مبكر .

وفيما يتعلق بالروابط الدينية بين مصر والحجاز ، فانه من نافلة القول ان نكرر ما سبق ذكره عن قيام المماليك بمسئولية الدفاع عن العالم الاسلامى ، وحماية الحرمين الشريفين ، ومن ثم فاننا سنقتصر حديثنا على الروابط الدينية وحدها .

وكان الحج بطبيعة الحال ، أول هذه الروابط الدينية ، واتخذ موسم الحج مظهرا اجتماعيا جعل منه مناسبة اجتماعية هامة فى حياة المجتمع الاسلامى آنذاك . فقد كان موسم الحج محط اهتمام الجميع ، سواء كانوا على كراسى الحكم ، أم كانوا من عامة الناس . وفى هذا الموسم تسرى الحركة والنشاط فى أوصال المجتمع المصرى فتزدهر الأسواق المخصصة لبيع لوازم الحجاج ، ويستعد الأهالى والمماليك للسفر فى ركب الحاج ، على حين ينتظر العامة ذلك الاحتفال بشوق وشغف .

وكانت الكسوة الشريفة توضع على جمل مزين يطوف القاهرة والفسطاط فيما اصطلح على تسميته فى ذلك العصر « بدوران المحمل(٤١) » والجدير بالذكر أن الجراكسة كانوا يولون كسوة الكعبة اهتماما بالغا ، فكان هناك موظف خاص للاشراف عليها هو « ناظر الكسوة » الذى كان

---

(٤٠) انظر الصفحات الأولى من هذه الدراسة .

(٤١) كان الظاهر بيبرس هو أول من أدار المحمل بمصر سنة ٦٥٧ هجرية ، المقريزى : الذهب المسبوك ، ص ١١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٨٨

يتولى تجهيزها من الأموال التى أوقفها السلاطين لهـذا الغرض (٤٢) . أما كسوة الحجرة النبوية ، فلم تكن تجهز سنويا مثل كسـوة الكعبة ، وانما تجدد كلما بليت ، أى كل حوالى سبع سنوات ، وكانت تصنع من الحرير الأسود المرقوم بالحـرير الأبيض (٤٣) . وكان من الممكن أن يقوم باعدادها أحد امراء المماليك ، أو احدى أميرات البيت الحاكم ، كما حدث سنة ٧٩٢ هجرية حين قامت أخت السلطان الظاهر برقوق باعداد كسوة الضريح النبوى على نفقتها الخاصة (٤٤) .

ويخرج ركب الحاج المصرى على هـذا الشكل المهيب ويلحق به من يريد الحج من عامة الناس ، وكان لابد وأن يضم هـذا الركب بين أفراده عددا من الأطباء والمكحلين (أطباء العيون) والمجبرين ، فضلا عن الأدلة والأئمة والمؤذنين والقاضى ، والشهود والأمناء ، وحتى مغسل الموتى(٤٥) .

ورغم مظاهر التدهور التى لحقت بشتى نواحى حياة المجتمع المصرى فى أواخر عصر الجراكسة ، فان احتفال دوران المحمل ظل يلقى اهتمام

---

(٤٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٨٥٧ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ١٩٩ ، السخاوى : التبر المسبوك ، ص ٢٠١ . ومن المعروف أن العرب كانوا يقدسون الكعبة ويكسونها فى الجاهلية . وكانت كسوتها آنذاك من الانطاع ، ثم صارت تكسى بالثياب اليمانيـة فى زمن الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، وفى عهد عمر وعثمان كسيت بالثياب المصرية المعروفة باسم القباطى ، ثم كساها الأمويون الديباج . ولم تكن الكسوة القديمة تنزع من على الكعبة بل تظل مكانها حتى تراكمت الكسوات عاما بعد عام ، وفى سنة ١٦٠ هجرية أمر الخليفة المهـدى العباسى بنزع الكسوة القديمة . وبعد سقوط الخلافة العباسـية تولى سلاطين المماليك فى مصر مهمة كسوة الكعبة . وكانت الكسوة تصنع فى تنيس من الحرير الأسود المطرز بالحرير الأبيض ثم صارت الكتابة باللون الأصفر المشعر بالذهب ـ أنظر : المقريزى : الذهب المسبوك ، ص ٤٣ ـ ص ٤٤ ، ص ٨٧ ـ ص ٩٢ ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٩٧ ، القلقشندى ، صـبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٨٩ ، السـيوطى : حسن المحاضرة ، ص ٨٨

(٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٠

(٤٤) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ، ص ٧٢٥ ـ ص ٧٢٦

(٤٥) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١١٩

المصريين جميعا حتى السنوات الأخيرة من ذلك العصر (٤٦) . الا أن مظاهر هذا الاحتفال ، كانت تتأثر ، بطبيعة الحال ، بالظواهر السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تتعرض لها البلاد ، وحين تبدت مظاهر التدهور واضحة فى أواخر عصر المماليك ، قل الاهمام بأمر المحمل ، ولم يعد المسئولون يلتزمون بمواعيده التقليدية ، كما كانت الأوبئة التى تحصد اعدادا كبيرة من سكان البلاد تؤثر على شكل الاحتفال ، فيقل عدد المماليك الرماحة ، كما يتضاءل اقبال الناس على مشاهدة الاحتفل بسبب حزنهم على موتاهم ، وتحفل مصادر تلك الفترة بالكثير من الأمثلة الدالة على هذا (٤٧) .

ومن ناحية أخرى ، انعكست حالة التدهور الأمنى على احتفال دوران المحمل ، وابتكر المماليك الجلبان الذين سببوا كثيرا من المتاعب فى حياة المصريين آنذاك ، بدعة جديدة ، وهى « عفاريت المحمل » . وكان هؤلاء المماليك يركبون خيولهم وقد غيروا من هيئتهم بشكل مزعج ، ويطرقون أبواب الأمراء والأعيان ويجبون منهم الأموال قسرا ، كما كانوا يعترضون الناس فى الطرقات ويتنزلون بهم شتى صنوف المهانة « ... وما كفاهم ذلك حتى صار العفاريت منهم اذا مر بالشارع على فرسه بتلك الهيئة المزعجة يجبى الدكاكين .. » ويبدو انهم أثاروا الرعب والهلع فى نفوس المعاصرين بدرجة جعلت كل من يقابل احدهم يسارع الى الاختباء فى أحد الأزقة هربا من أذاه ولما ضج الناس بالشكوى وطالبوا بالغاء احتفال المحمل ، أمر السلطان بابطال هذه البدعة سنة ٨٦٢ هـ (٤٨) ولم يقتصر

---

(٤٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص ٢٨٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣—٣٤٣ ، ٤٨٠ ، أنظر أيضا : ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٤ ، ص ٦١٤ حيث يذكر أنه تصادف فى سنة ٨٢٢هـ أن تصادف يوم دوران المحمل مع الاحتفال بوفاء النيل ، فأمر السلطان المؤيد شيخ أن يكون الاستعراض الذى يقوم به الرماحة على ساحل بولاق . واحتشد الناس لكى يشاهدوا الاحتفال المزدوج على أرض الساحل ، وفوق مياه النهر « .. ولم يقع مثل ذلك فى سالف الاعصار ، فصار الشخص يجلس بطاقته فيتفرج على المحمل والبحر معا .... » .

(٤٧) المقريزى : السلوك ، جـ٤ ، ص ١٠٠٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٤ ، ص ٣٧ ، ص ٣٤٥ .

(٤٨) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٦ ، ص ١٢٣ .

الأمر على ذلك بل ان أولائك الاجلاب كثيرا ما كانوا ينتهزون فرصةازدحام الناس فى الاحتفال فيخطفون النساء والأطفال ، وينهبون الأمتعة ، ويثيرون الرعب والفوضى (٤٩) .

والجدير بالذكر أن بعض الملوك المعاصرين لسلطنة المماليك الجراكسة، كانوا يرسلون سفاراتهم لكى يسمح لهم سلاطين الجراكسة بكسوة الكعبة ، ولكن السلاطين لم يكونوا راغبين فى التخلى عن هذا الشرف (٥٠) وحين سمح السلطان الظاهر جقمق لشاه رخ بن تيمورلنك أن يكسو الكعبة وفاء لنذر قطعه على نفسه ، اشترط أن تكون تحت كسوة السلطان ولا توضع الا لمدة يوم واحد . وعلى الرغم من ذلك ، فقد اثار هذا التصرف مشاعر الغضب فى نفوس المصريين وهاجموا رسل شاه رخ ونهبوا مامعهم (٥١) .

ولم تقتصر مظاهر الروابط الدينية بين مصر وبلاد الحجاز على موسم الحج والكسوة فقط ، بل تبدت واضحة فيما قام به سلاطين الجراكسة وكبار أمرائهم من جهود لتوفير سبل الراحة للحجاج على طول طرق الحج ، مثل انشاء الخانات ، وحفر الآبار ، واصلاح الطرق نفسها، فضلا عن أعمال الترميم والتجديد التى كانت تتم من آن لآخر فىالحرمين، وكان المهندسون والعمال ومواد البناء ترسل من مصر الى الحجاز للقيام بهذه الأعمال (٥٢) . ومن ناحية أخرى تعددت منشآت سلاطين المماليك، كالمدارس والاسبلة والخانات والأسوار ، فى بلاد الحجاز ، وأوقفت

---

(٤٩) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص ١٠٢٦ .

(٥٠) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص ١١٦٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج١٤ ، ص ٣٣٦ ، ص ٣٣٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٩٠ — ص ٩١ .

(٥١) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ٩٦ ، ص ٩٨ .

(٥٢) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، صفحات ٩٢٩ — ٩٣٠ ، ١٠٢٢ ، ١٠٦٤ ، ١١٤٨ ، ج٤ ، ص ٩٣٤ — ص ٩٣٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ج١٢ ، صفحات ١٠٨ — ١٠٩ ، ١١٤ ، ج١٤ ، ص ٣٥٥ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٣ ص ٥٦ — ص ٥٧ ، ١٨٧ — ١٨٨ ، ج٤ صفحات ١٤٢ ، ١٥١ — ١٥٢ ، ١٦٣ ، ج٥ ، ص٩٥ يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ، ج٢ ص ٦١٢ — ٦١٤ .

عليها الأموال الكثيرة من ريع الأراضى الزراعية والحوانيت والقياسر والرباع وغيرها وكان قاضى القضاة يتولى الاشراف على أوقاف الحرمين، ويراقب وجوه انفاقها بنفسه (٥٣) .

أما الروابط الدينية التى كانت تصل مصر بالحبشة ، فقد بدأت منذ وقت مبكر يرجع الى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى . فقد استطاع الراهب فرومنتيوس Frumentius أن يحول امبراطور الحبشة ورعاياه الى المسيحية الأرثوذكسية (٥٤) . ورغم المسحة الأسطورية التى تميز قصة تنصير الحبشة على يد ذلك الراهب القبطى ، فالواقع أن خيطا قويا من خيوط الروابط الدينية قد امتد ليربط بين كنيسة القديس مرقص فى مصر ، والكنيسة الحبشية التابعة لها . ومنذ ذلك الحين حتى بعد الحرب العالمية الثانية كان الأساقفة الأقباط الذين يختارهم البطريرك القبطى يتولون رعاية الشعب المسيحى فى الحبشة .

وفى عصر سلاطين الجراكسة كنت الروابط الدينية بين مصر والحبشة تتعرض لتيارات المد والجزر نظرا لقيام أباطرة الأحباش بدور المدافعين عن الأقباط ، على حين تولى سلاطين الجراكسة حماية الوجود الاسلامى على الشاطىء الصومالى ، والواقع تحت السيطرة الحبشية . فقد كانت الحبشة فى حاجة دائمة الى الأساقفة والكتب الدينية من مصر ، ومن ثم حرص الملوك الأحباش ـ غالبا ـ على اقامة علاقات طيبة مع سلاطين مصر لكى يسمحوا للبطريرك بارسال ماتحتاجه الكنيسة الحبشية . والجدير بالذكر ان الحروب الصليبية ، وما خلفته من تراث العداء تجاه غير المسلمين ، جعل سلاطين المماليك يضعون رعاياهم من المسيحيين تحت رقابة صارمة ، بيد أن موقف الدولة آنذاك تجاه الأقباط وعلاقتهم بالأحباش كانت أقل تشددا من موقفها تجاه

---

(٥٣) المقريزى : السلوك جـ٣ ، ص٩٤٤ ، جـ٤ ص٤٤٧ ابن تغرى بردى النجوم جـ١٢ ، ص ١٠٨ ، ص ١٠٩ ، ابن اياس : بدائع الزهور : جـ ٣ ، ص ٣٢٩ .

(٥٤) سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة ، ص٨ ، ص٩ .
Atiya, A.S. The Crusade, pp. 275 - 6,

المسيحيين الملكانيين وعلاقتهم بالبيزنطيين والقوى الأوربية (٥٥) وعلى أية حال ، فقد كان يتعين على امبراطور الحبشة أن يرسل الى السلطان فى مصر يستأذنه فى أن يسمح للبطريرك القبطى بارسال الأسقف الذى تحتاجه الكنيسة الحبشية للاشراف على شئونها ، كما كان يرسل خطابا آخر للبطريرك تتجلى من كلمات التبجيل التى يخاطبه بها مدى مكانة البطريرك لدى الأحباش (٥٦) .

وتمثلت أهمية الأسقف القبطى — الذى كان يعينه بطريرك الاسكندرية فى أن غيابه كان يعرض الكنيسة الحبشية لخطر الانهيار ، فقد كانت أعمال الرعاية الكنسية التى يحتاجها مسيحيو الحبشة تتوقف تماما ، كما ترتبك الحياة الاجتماعية الى حين حضوره (٥٧) . ومن ناحية أخرى كانت الحبشة ترسل معونات مالية الى الكنيسة القبطية ، ولكن مدى قوة العلاقة بين الكنيسة والأحباش كانت تتوقف على شخصية البطريرك القائم على رأس الكنيسة القبطية (٥٨) .

والحقيقة أن الروابط الدينية بين مصر والحبشة فى عصر الجراكسة لم تقتصر على هذا المظهر فقط وانما تجلت أيضا فى الرابطة التى كانت تجمع بين مسلمى الحبشة والمسلمين فى مصر ، وقد سبقت الاشارة الى أن الهجمات التى كان الأحباش يقومون بها ضد مسلمى الصومال ، أو امارات الطراز الاسلامى ، كانت تتسبب فى قطع الاتصالات بين الكنيسة القبطية والأحباش . وعلى الرغم من مثل هذه الصعوبات التى كانت تطرأ على العلاقات المصرية — الحبشية فان الطرفين كانا يتبادلان

---

(٥٥) قاسم عبده قاسم : أهل الذمة فى مصر ، ص٨٩ — ص١٠١ .

(٥٦) ابن فضل الله العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص٣٠ — ص٣١ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٣٠٨ ، ص ٣٢٢ — ص ٣٢٣ وقد عبر القلقشندى عن ذلك بقوله : « حين صار كرسى الاسكندرية الى اليعاقبة ، أصبحت الحبشة والنوبة وسائر نصارى السودان من اتباعه ، وصار لديهم كالخليفة على دين النصرانية عندهم ، يتصرف فيهم بالولاية والعزل لاتصح ولاية ملك منهم الا بتوليته » . انظر أيضا : المقريزى : الالمام ص ٣ وما بعدها .

(٥٧) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٤٧ (المقدمة للدكتور مراد كامل) .

(٥٨) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص ٧٦٠ .

السفارات والهدايا ، كما كانا يتبادلان الوصية بالأقليات الدينية (٥٩) وكان سلاطين الجراكسة يحتفظون فى بلاطاتهم ببعض الرجال العارفين باللغة الحبشية ليكونوا سفراءهم الى هـذه البلاد (٦٠) .

وينبغى أن نشير فى هـذا المقام أن مصر قد ساهمت فى تطـوير بعض النظم الادارية والمـالية ، والعسكرية فى بلاد الحبشة من خلال بعض المصريين الذين رحلوا الى بلاط امبراطور الحبشة (٦١) .

ثالثا — البعد الاقتصادى :

نأتى الى مناقشة البعد الثالث فى علاقات مصر بعالم البحر الأحمر وهو البعد الاقتصادى . ومن المهم أن نشير الى أننا لا نقصـد التعرض لتفاصيل العلاقات الاقتصادية والروابط التجارية ، وانما يهمنا أن نرصد أهم خيوط المصالح التجارية التى كانت تربط بين مصر وعالم البحر الأحمر فى عصر المماليك الجراكسة ، استكمالا للصـورة الكلية التى ينشـدها البحث .

فقد كانت لمصر مصالح تجارية حيوية فى البحر الأحمر ، لا سيما منذ أن أصبح البحر الأحمر أكثر طرق التجارة العالميـة استخداما نتيجة التطورات التى نجمت عن وصول المد المغولى الى فارس والعراق وشرق آسيا الصغرى . وقد تميز طريق البحر الأحمر التجارى بميزتين هامتين : تتعلق أولاهما بالتجارة العالمية ، وهى سيادة الأمن على طول هذا الطريق بينما تتصل الميزة الأخرى بتجارة البحر الأحمر الداخليـة ، وهى أن هذا البحر كان هو الطريق الأساسى لمنتجات الامارات الاسلامية على شاطىء افريقيا الشرقى فضلا عن منتجات الحبشة والسودان الأوسط وبلاد البجة

---

(٥٩) المقـريزى : السلوك ج٤ ، ١٠٣٤ ، القلقشندى : صـبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٨٣ .

(٦٠) ابن اياس : بدائع الزهور : ج٣ ، ص ٢٠٦ .

(٦١) المقريزى : السلوك ج٤ ، ص٨٣٨ — ص٨٤٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج١٤ ، ص ٣٤٩ .

أو البجاة (٦٢) وهكذا امتدت خيوط الروابط التجارية بين مصر وبلدان البحر الأحمر فى اتجاهين : أحدهما يهتم بمصالح مصر ودورها فى التجارة العالميـة التى تستخدم البحـر الأحمر ، على حين يهتم الاتجـاه الثانى بالتجارة الداخلية بين سكان حوض البحر الأحمر نفسه .

هـذه المصالح التجارية بجناحيها العالمى والمحلى هى التى حكمت علاقات مصر بعالم البحر الأحمر على مستوى العـلاقات الاقتصادية التى تبادلت التأثير والتأثر مع العلاقات السياسية والدينية . وقد اهتم سلاطين المماليك بانشاء الوكالات التجارية المصرية على طول شاطىء هذا البحر ، كما اهتموا بتأمين طرق القوافل التجارية ، واخذ الأسطول المصرى يجوب مياه البحر الأحمر مطـاردا القراصنة ، كما امتدت فوق الأرض المصرية شبكة من الطرق البرية والنهرية ، وقامت على ضفاف النهر عدة موانىء لخدمة التجارة العالميـة (٦٣) .

ومنذ البداية اشتدت المنافسة بين موانىء البحر الأحمـر ، ولكن موانىء عيذاب والقصير والسويس والقلزم كانت قد تخلت عن دورها فى المنافسة قبل قيام دولة الجراكسة (٦٤) ، بينما اقتصر نشـاط سواكن ومصوع وزيلع وبربرة على النشاط التجارى الداخلى ونقل بضائع الحبشة ودول الساحل الصومالى والسودان الأوسط والنوبة (٦٥) .

---

(٦٢) شوقى حبيب : العلاقات التجارية بين مصر والدول الأفريقية فى عصر سلاطين المماليك (رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ١٩٧٥) ص ١٤٥ . وقـد وصف القلقشندى « البجاة » بأنهم سـكان المنطقة الواقعة مابين نهر النيل والبحر الأحمر (بالقرب من دراو الحالية شمال اسوان بحوالى ٤٠ كم) وعاصمتهم سواكن احدى موانىء البحـر الأحمر ، وفى عصر المماليك الجراكسة كان حاكمهم من العرب الحرارية وله مكاتبة عن الأبواب السلطانية ، وكان البجـاة خليطا من المسلمين والمسيحيين والوثنيين انظر : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٢٤٧ .

(٦٣) سعيد عاشور : السويس ، ص٧١ — ٧٢ ، الشاطر بصيلى : تاريخ وحضارات ، ص٤٥١ ، نعيم زكى : طرق التجـارة ، ص١٢٤ — ص١٢٧ ، وعن الموانىء النهرية انظر : قاسم عبده قاسم : النيل والمجتمع المصرى فى عصر سـلاطين المـماليك (دار المعـارف ١٩٧٨) ص ٨٥ — ص ٨٨ .

(٦٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص٤٦٤ — ص٤٦٥ .

(٦٥) نعيم زكى : طرق التجارة ، ص١٤١ — ص١٤٥ .

وفى اليمن كانت عدن هى ميناء الوصول النهائى لسفن التجارة الشرقية ، حيث تفرغ السفن حمولاتها وتأتى قوافل التجارة وسفنهم لتنقلها الى شتى أسواق العالم المعروف آنذاك ، وقد وصف ابن فضل الله العمرى عدن بأنها « ... مدينة يأتى اليها المسافرون من الصين والهند والسند والعراق والبحرين ومصر والزنج والحبشة ، ولا يخلو أسبوع من عدة تجار وسفن واردين ، وبضائع شتى ، ومتاجر منوعة (٦٦) ... » وقد ظلت عدن محتفظة بمكانتها هذه حتى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى (١٥ م) حين بدأت جدة تحل محلها وتأخذ دورها فى التجارة الشرقية بسبب تدهور أحوال الأمن فى بلاد اليمن من جهة وسوء معاملة السلطات اليمنية للتجار من جهة أخرى (٦٧) .

وقد بدأت السلطات المملوكية تنبه الى أهمية ميناء جدة فى عشرينيات القرن التاسع الهجرى ، فقد أرسل السلطان المؤيد شيخ المحمودى حملة قوامها مائة من فرسان المماليك ، ومعهم أحد الكتاب « ... لأخذ مكمن المراكب الواردة ببندر جدة من بلاد الهند (٦٨) ... » ومنذ ذلك الحين استقرت بالميناء حامية عسكرية مملوكية ، وأنشئت وظيفة « ناظر جدة » أو « شاد جدة » ، وهى وظيفة سلطانية يخلع على صاحبها ويتوجه الى جدة مرة فى السنة وقت ورود مراكب الهند لتحصيل الرسوم الجمركية من التجار ، وكانت حصيلة هذه الرسوم تصل أحيانا الى ما يزيد على سبعين الف درهم تحمل الى مصر غير ما يبقيه موظفو الدولة لأنفسهم من هذه الأموال (٦٩) . واتخذت السلطات المملوكية عدة اجراءات لتشجيع التجار على استخدام ميناء جدة بدلا من عدن التى تضاءل دورها فى التجارة العالمية الى حد بعيد ، فخفضت الرسوم الجمركية بجدة ، كما

---

(٦٦) العمرى : مسالك الابصار ، ص ٥٢ .

(٦٧) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٩٢٩ — ص٩٣٠ ، وقد ذكر فى الخطط (ج٢ ، ص٢٠٢) ان جدة صارت فى عشرينيات القرن التاسع الهجرى (١٥م) « أعظم مراسى الدنيا » . أنظر أيضا : ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٤ ، ص ٣٦٢ .

(٦٨) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج١٤ ص٢٧١ — ص٢٧٢ .

(٦٩) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، صفحات ٧٠٧—٧٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩٢٩ و ٩٢٩ — ٩٣٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج١٤ ، ص٣٦٧ — ص ٣٦٩ .

حرم على تجار مصر والشام النزول بثغر عدن ، وضاعفوا الرسوم الجمركية على التجار الذين يمرون على عدن قبل قدومهم الى جدة (٧٠) .

وهكذا صارت جدة محطا للبضائع الشرقية ، وكانت السفن القادمة من الصين والهند تفرغ حمولاتها بهذا الميناء حيث تقدر الرسوم الجمركية المستحقة عليها ، ثم تنقل الى مكة بطريق البر ، أو الى ميناء الطور على الشاطىء المقابل بطريق البحر ، وفي الداخل كانت مكة سوقا عالميا يجتمع به في موسم الحج تجار العالم الاسلامى ومعهم بضائع الصين والهند وأفريقيا والحبشة والسودان ومصر ... وغيرها (٧١) .

وفى مكة كانت السلطات المملوكية تحصل ضرائبها من التجارة ومنذ سنة ٨٢٩ هجرية صارت هذه السلطات تفرض على التجار الذين يشترون بضائعهم من مكة أن يسافروا بها الى القاهرة مع أمير الحج المصرى حيث يؤدون الرسوم المستحقة عليها ثم يعاودون السفر الى بلادهم ، وفيما بعد سمح للتجار الشاميين بألا يسافروا الى مصر بشرط أن يدفع عن كل حمل من بضائعهم ضريبة قدرها ثلاثة دنانير ونصف دينار (٧٢) .

وعلى الشاطىء المقابل كان الجمرك المصرى الثانى فى ميناء الطور وقد ذكر القلقشندى (٧٣) أن الحركة التى كانت قد انقطعت عن ميناء

---

(٧٠) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٦٧٩ — ص٦٨٠ .

(٧١) لمقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٦٨٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٧٥ — ص٤٧٦ ، وقد ذكر أن أكثر ايراد مكة من الرسوم الجمركية التى تؤخذ من التجار الواردين الى مكة من اليمن والهند وغيرها ، كما ذكر أيضا أن النقود والأوزان المستخدمة فى أسواقها هى نفسها النقود والأوزان المستخدمة فى مصر . أنظر أيضا : نعيم زكى : طرق التجارة ، ص١٣٨ — ص١٤٠ أنظر أيضا :

Heyd, W., Histoire de Commerce du Levant au moyan ages (Leipzig 1925) II, pp. 446 - ff.

(٧٢) المقريزى : السلوك ، ج٤ ص٧٣٥ ، ص٤٥٤ — ص٧٥٥ ، ص ٧٦٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج١٤ ، ص٣١٠ — ص٣١٢ ص ٣١٣ .

(٧٣) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٤٦٥ .

الطور ، عادت تدب فى أوصال الميناء المهجور مرة أخرى فى ثمانينيات القرن الثامن الهجرى (١٤ م) . والواقع أن سفن التجارة وسفن الحجاج قد لجأت الى استخدام هـذا الميناء بعد تدهور كل من عيذاب والقصير . وكان السلطان يرسل أحد الأمراء مرة كل عام لتحصيل ما على التجار من رسوم جمركية ، ثم تختم البضائع بخـاتم يدل على اسـتيفاء الضرائب المستحقة ومن الطور كانت البضائع تخرج لتسلك عدة طرق بحرية وبرية فى طريقها الى بلدان الشرق والغرب (٧٤) . وقد ذكـر بيلوتى الكريبتى الذى زار مصر فى القرن الخامس عشر أن البشائر كانت ترسـل الى القـاهرة بوصول توابل السلطان الى بندر الطور ، ثم يحضر عمـال السلطان لتفريغ شحنات المراكب ولا يستطيع أحـد أن يمس المراكب قبل وصول هؤلاء (٧٥) .

وقد أقيمت بميناء الطور عدة مخازن ضخمة لتخزين التوابل التى صارت تجارتها احتكارا لسلاطين الجراكسة منذ عصر الأشرف برسـباى ويستفاد من بعض وثائق دير سانت كاترين أن رهبـان الدير ، وبعض الأفراد العاديين من المسلمين والمسيحيين كانوا يملكون عـدة أحـواش وحواصل لتخزين التوابل ، وكانت السلطات المملوكية تستأجرها منهم لقاء أجر محدد ، وتكشف الوثائق التى بين أيدينا ، وهى أربع وثائق يرجـع تاريخها الى عصر السلطان قايتباى (٨٧٣ ـ ٩٠١ هـ) ، أن أجرة تخزين الحمل الواحد من التوابل كانت تصل الى ستة دراهم ، على حين كان المخزن كله يؤجر بأربعة دنانير أشرفية (٧٦) .

وتبدو حقيقة المكانة التى تمتعت بها مصر فى عالم التجارة فى البحر الأحمر من خلال القصة التى أوردتها المصادر التاريخية المعاصرة عن هروب

---

(٧٤) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ١٩٣ ، السـويس ، ص ٨٣ .

(٧٥) Dopp : L'Egypte au Commencement du quanzieme siécle, p. 46.

(٧٦) وثائق دير سانت كاترين : رقم ٦٢ (٦ ربيع آخر ٨٧٩ هـ) ، ورقم ٦٦ (١٩ رجب ٨٩١ هـ) ، ورقم ٧١ (٧ شوال ٨٩٤ هـ) ورقم ٧٥ (١٦ جمادى الأولى ٨٩٢ هـ) .

أحد مماليك السلطان الظاهر جقمق سنة ٨٥٤ هـ بأموال السلطان التى جمعها من التجار فى ميناء جدة ، وكيف أن هذا الأمير أخذ يجوب موانيء البحر الأحمر ، بل انه ذهب الى الهند ، ولكن أحدا لم يرض باستقباله حرصا على المصالح التجارية التى يمكن للجراكسة أن يضروا بها . وأخيرا انتهى أمر هذا المملوك الهارب بالقتل عندما حاول أن يستولى على اليمن (٧٧) .

الا أن تدهور البناء الداخلى لسلطنة الجراكسة لم يلبث أن انعكس على علاقاتها التجارية بعالم البحر الأحمر ذلك أن حاجة السلاطين المتزايدة الى الأموال جعلتهم يشتطون فى تقدير قيمة الضرائب التى فرضوها على التجار القادمين الى جدة ، بل ان الظاهر جقمق استصدر فتوى من القضاة الأربعة بجواز أخذ الضرائب من التجار فى جدة ومكة بحجة أن هذه الأموال تنفق على تجهيز القوات اللازمة لحماية مكة وجدة (٧٨) ورغم المعارضة الشديدة التى قوبلت بها هذه الفتوى فان السلطات المملوكية ظلت تزيد من قيمة الضرائب شيئا فشيئا حتى بدأ التجار يهربون من النزول بميناء جدة وميناء الطور ، لدرجة أن ابن اياس يذكر فى حوادث سنة ٩٢٠ هـ . أن المراكب لم تدخل جدة مدة تقرب من ست سنوات (٧٩) .

ومن ناحية أخرى ، أدى نجاح البرتغاليين فى الوصول الى مياه المحيط الهندى سنة ١٤٨٩ بمساعدة الملاح المسلم « ابن ماجد (٨٠)» الى حصار المداخل الجنوبية للبحر الأحمر وتحولت السفن المحملة بالتوابل الى لشبونة عن طريق رأس الرجاء الصالح ، بل ان الخطر البرتغالى بات

---

(٧٧) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٥ ، ص٤٢٦ — ص٤٣٠ ، السخاوى : التبر المسبوك ، ص٣٤٧ — ص٣٤٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى جـ٢ ، ص٥٨٥ .

(٧٨) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٥ ، ص٣٣٨ ، المقريزى : السلوك جـ٤ ، ص١١٨٩ — ١١٩٠ .

(٧٩) ابن اياس : بدائع الزهور : جـ٤ ، ص٣٥٩ ، كما يذكر فى مكان آخر من حوليته (جـ٥ ، ص٩٠) أن التجار امتنعوا عن دخول ميناء جدة « .. وآل أمره الى الخراب » .

(٨٠) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ، جـ٢ ، ص٦٣٠ — ص٦٣٣ .

يهدد عالم البحر الأحمر ذاته ؛ ورغم النجاح الجزئي الذي أحرزه السلطان الغوري وقائد أسطوله حسين الكردي في ابعاد البرتغاليين عن البحر الأحمر فان تدهور الأحوال الداخلية بمصر في ذلك الحين ، جعل مقاومة الجراكسة للنفوذ البرتغالي في مياه المحيط الهندي مقاومة غير فعالة وغير مثمرة وفي غمرة النضال الذي خاضه الغوري ضد الوجود البرتغالي كان على أسطوله أن يستولي على بعض مناطق اليمن ، ثم سقط الغوري في مرج دابق ، وأعقبه طومانباي على باب زويلة وورث العثمانيون عن الجراكسة حكم مصر ، كما ورثوا عنهم دورهم في عالم البحر الأحمر .

قائمة المصادر والمراجع

وثائــــق :

مجموعة وثائق دير سانت كاترين (النسخة الفلمية الموجودة بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية) .

* وثيقة رقم ٦٢ مرســوم من الأشرف قايتبــاى بتــاريخ ٦ ربيع آخر سنة ٨٧٩ هـ .
* وثيقة رقم ٦٦ مرســوم من الأشرف قايتبــاى بتــاريخ ١٩ رجب سنة ٨٩١ هـ .
* وثيقة رقم ٧١ مرســوم من الأشرف قايتبــاى بتــاريخ ١٦ جمــادى الأولى سنة ٨٩٢ هـ .

مصــادر ومراجع :

١ — **ابن اياس (أبو البركات محمد بن احمد بن أياس الحنفى المصرى ت ٩٣٠ هـ) .**

— بدائع الزهور فى وقائع الدهور

خمسة أجزاء تحقيق الدكتور محمد مصطفى

(الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦١—١٩٦٣)

٢ — **ابن أبى الفضائل (المفضل بى أبى الفضائل) :**

— المنهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد

نشره بلوشـــيه E. BLOUCHERT

ضمن مجموعـة :

PATROLOGIA ORIENTALIS, TOMS. XII, XIV, XXII (Paris 1919).

٣ — **ابن تغرى بردى (جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن تغرىبردى الاتابكى . ت ٨٧٤هـ) :**

— النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة

١٦ جزءا طبعة دار الـكتب المصرية

— منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الايام والشهور

٤ أجزاء نشره وليم بوبر W. Popper

(كاليفورنيا ١٩٣٠)

٤ ـ **ابن حجر (الحافظ ابن حجر العسقلانى ت ٨٥٢ هـ) :**
ـ أبناء الغمر بأنبـاء العمر
٣ أجزاء تحقيق الدكتور حسن حبشى
(القاهرة ٦٩ ـ ١٩٧٢)

٥ ـ **ابن ظهيرة (غير معروف بالتحديد) :**
ـ الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة
نشره مصطفى السقا وكامل المهنـدس
(القاهرة ١٩٦٩)

٦ ـ **ابن عبد الظاهر (محيى الدين ت ٦٩٢ هـ) :**
ـ تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور
نشره الدكتور مراد كامل
(القاهرة ١٩٦١)

٧ ـ **ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ) :**
ـ « تاريخ الدول والملوك »
الجزء التاسع نشره الدكتور قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين
(بيروت ١٩٤٢)

٨ ـ **حكيم أمين عبد السيد (دكتور) :**
ـ قيـام دولة المماليك الثانية
(دار الكاتب العربى ١٩٦٧)

٩ ـ **زاهر رياض (دكتور) :**
ـ الاسلام فى أثيوبيا فى العصور الوسطى
(القاهرة ١٩٦٤)

١٠ ـ **السخاوى (شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن عثمان السخاوى ت ٩٠٣ هـ) :**
ـ التبر المسبوك فى ذيل السلوك
(بولاق ١٣١٥ هـ)

١١ ـ **سعيد عبد الفتـاح عاشور (دكتور) :**
ـ العصر المماليكى فى مصر والشام
(القاهرة ١٩٦٥)
ـ « بعض أضوء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشـة فى العصور الوسطى »
(المجلة التاريخية مجلد ١٤ ص١ ـ ص٤٣)
(سنة ١٩٦٨)
ـ « مدينة السويس ومنطقتها منذ الفتح العربى الى بداية العصر الحـديث »
مقال فى كتاب السويس مع مجموعة من الأسـاتذة ص ٦٣ ـ ص ٨٤
(الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦)

١٢ ـ السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن السيوطى) :
ـ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة
جزءان (مطبعة ادارة الوطن ١٢٩٩ هـ)

١٣ ـ الشاطر بصيلى :
ـ تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط من القرون السابع الى القرن التاسع عشر
(الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٢)

١٤ ـ شوقى عبد القوى حبيب :
ـ العلاقات التجارية بين مصر والدول لأفريقية فى عصر سلاطين المماليك
رسالة ماجستير غير منشورة
(جامعة القاهرة ١٩٧٥)

١٥ ـ عبد الرحمن زكى (دكتور) :
ـ الاسلام والمسلمون فى أفريقيا
(القاهرة ١٩٧٠)

١٦ ـ العمرى (شهاب الدين ابن فضل الله عمرى ت ٧٤٩ هـ) :
ـ مسالك الابصار فى ممالك الأمصار
القسم الخاص باليمن تحقيق أيمن فؤاد سيد
(دار الاعتصام . القاهرة ١٩٧٤)
ـ التعريف بالمصطلح الشريف
(القاهرة ١٣١٢هـ)

١٧ ـ العينى (بدر الدين محمود العينى) :
ـ السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد
تحقيق فهيم محمد شلتوت
(دار الكاتب العربى ١٩٦٧)

١٨ ـ قاسم عبده قاسم (دكتور) :
ـ أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى
(دار المعارف ١٩٧٧)
ـ النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك
(دار المعارف ١٩٧٨)
ـ أسواق مصر فى عصر سلاطين المماليك
(مكتبة سعيد رأفت . القاهرة ١٩٧٨)

١٩ ـ القلقشندى (شهاب الدين احمد بن على ت ٨٢١ هـ) :
ـ صبح الأعشى فى صناعة الانشا
١٤ جزءا طبعة دار الكتب المصرية

٢٠ ـ محمد مصطفى زيادة (دكتور)
ـ حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة
(القاهرة ١٩٦٨)

٢١ — **المقريزى (تقى الدين احمد بن على ت ٨٤٥ هـ) :**
— الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك
نشره الدكتور جمال الدين الشيال
(القاهرة ١٩٥٥)
— الالمام بأخبــار من بأرض الحبشة من ملوك الاســلام
(القاهرة ١٨٨٥)
— المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار — جزءان
(بولاق ١٢٧٠ هـ)
— السلوك لمعرفة دول الملوك
جـ١ ، جـ٢ نشر الدكتور محمد مصــطفى زيادة ، جـ٣ ، جـ٤
نشرهما الدكتور سعيد عاشور
(دار الــكتب المصرية)

٢٢ — **نعيم زكى فهمى (دكتور) :**
— طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخــر
العصور الوسطى
(الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣)

٢٣ — **يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن على (ت ١١٠٠هـ) :**
— غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى
جزءان — نشره الدكتور سعيد عاشور
(دار الكاتب العربى ١٩٦٨)

٢٤ — Atiya, A. S.
— The Crusade in the later Middle Ages London 1939.

٢٥ — Bosworth, C. E.
— «Christian and Jewish religious dignitarres in Mamluk Egypt and Syria».
Journal of Middle East Studies vol. 3 (January 1972).

٢٦ — Dopp, P. H.
— L'Egypte au commencement du quanzieme siécle Le Caire 1950.

٢٧ — Heyd, W.,
— Histoire du commerce du Levant au Moyan Ages (Leipzig 1925).

٢٨ — Joinville,
— The life of Saint Louis (translated with an introduction by: M. R. B. Shaw), Penguin 1973.

٢٩ — Ziada, M. M.
— Foreign relations of Egypt in the 15th century. (Thesis, Liverpoole 1930).

٨

تجارة البحر الأحمر فى عصر المماليك الجراكسة

للدكتور
محمد أمين صالح
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

تتضح أهمية موانى ساحل مالايار مثل قاليقوط ودابل وكوشن وكولم، وأيضا موانى ساحل جوجارت مثل ديو وكمبـاى فى كونها مستودعات لبضائع الشرق الأقصى الواردة من الصين وجزر الهند الشرقية والملايو، فضلا عن قربها من مصادر انتـاج التوابل وخاصة الفلفل على منحدرات الجات الغربيـة . ومن هذه الموانى الهندية تخرج الرحلات البحرية الى هرمز على الخليج العربى أو عدن التى اشتهرت كميناء رئيسى تنهى فيه السفن الهندية رحلاتها الموسمية حيث تفرغ شحناتها من بضـائع الشرق الأقصى وأفريقيا ، وتقفل راجعة بمنتجـات الشرق الأدنى وأوربا . أما البضائع الشرقية فتنقل من عدن شمالا اما بطريق القوافل غرب الجزيرة العربية وأما على سفن أخرى صعدا فى البحر الأحمر .

وتسير القوافل من عدن الى مكة برا فى طريقين . احداهما طريق الجادة السلطانية بساحل تهامة ، والثانى الطريق الجبلى مارا بصـنعاء وصـعده وجرش ونجران . وتنشط القوافل فى مواسـم الحج لتغـذية أسواق الحجاز ببضائع الشرق الأقصى التى يقبل على شرائهـا الحجاج والتجار الـذين يأتون مع المحمل ، ويعودون فى طريق برى معروف . يبدأ من مكة الى أيلة حيث ينفصل الركب المصرى عن الركب الشامى . ويسير الأخير فى وادى عربة الذى يربط خليج العقبـة بالبحر الميت لتنفذ منه التجارة الى مدن الشـام وموانيهـا . أما الركب المصرى فانه يعبر صحراء سيناء مارا بنخل ووادى تندر وعيون موسى الى السويس ومنها الى القاهرة مارا بعجرود وشيخ التكرورى والحمرا والبويب الى الريدانية التى حلت محلها بركة الحاج بعـد عام ٨٤٥/١٤٤٢ حيث كان يتـوقف

الحجاز وجمهرة التجار ويأتى اليهم سكان القاهرة لاستقبالهم وحيثايضا كانت تتم بعض الصفقات .

أما الطريق البحرى فـكانت السـفن تخرج من عدن لتدخل البحر الأحمر الى عدة موانى : جدة أو ينبع فى موسم الحج أو بعده أو من عدن رأسا الى أربعة موانى مصرية وهى على الترتيب فى الأهمية : الطور — عيذاب — القصير — السويس .

هذا وقد اشرف على تجارة البحر الأحمر واسـتفاد منها ثلاث قوى سياسية هى : الدولة الرسولية ثم الطاهرية باليمن ، جمـاعة الاشراف حكام الحجاز فى اطار التبعية للدولة المملوكية بمصر ، ومصر . ولقد كان من المنتظر أن يقوم التعاون والاتفاق الكامل بين هذه القوى المشرفة على تجارة ذلك البحر بما يحقق منافع اقتصادية لها جميعا غير أن الدارس لهذه العلاقات يجد أمرا عجبا ، كل منها له سياسة خاصـة تحقق منفعة ذاتية على حساب الأخرى دون اعتبار لمصلحة عامة مشتركة .

فالحكام الرسوليون باليمن منذ مطلع القرن التاسع الهجرى عدلوا عن السياسةالرشيدة التى اتبعهااسلافهم ، بكثرة المظالم ومصادرةالأموال على عهد الملك الناصر ٨٠٣—٨٢٧ / ١٤٠٠—١٤٢٣ ، مما جعل التجـار يخرجون من عدن الى الهند أو الى جدة تاركين أموالهم ، كما جعلت قادة السفن الهندية يفكرون فى تفادى عدن والابحار مباشرة الى موانى أخرى فى البحر الأحمر لتفريغ شحناتهم وهو ماحدث عام ١٤٢٢/٨٢٥ عنـدما خرج احد ربابنة السفن الهنـدية بسفينته من قاليقوط وأراد تجنب طغيان السلطات اليمنية فى عدن فعبر باب المندب وتوجه الى جده . فهل كانت الأحوال بالحجاز تجعله مستعدا للاستفادة من هذا التطور الجـديد فى تجارة البحر الأحمر ؟

نجد بيوت الأشراف من بنى قتاده الحسنيين فى نزاع دموى ضـد بعضهم البعض بصفة عامة وضـد الأمير القـائم منهم بصفة خاصة . مما أدى الى فقدان الأمن المنـاسب لمواسم الحج والتجارة بما كانيحدث من عدوان مستمر على السفن الواردة الى جـدة أو نهب للبضـائع أو مصادرة أموال التجار الوافدين والمقيمين على السواء .

وقد تدخلت السلطات المصرية فى محـاولات التوفيق واسترضـاء الأطراف الطامعين فى الامارة فولى اثنـان منهم اتفقا على نصـف الامارة عام ٧٩٢ ولـكل منهما وكلاء فى مكة للحكم وبعضهم لتحصيل حقوق سيده وفشلت هذه الوسيلة فى تحقيق الأمن المنشود بما حدث من اشتداد نوائب الحاكمين بالحجاج والتجار فى موسم عام ١٣٩١/٧٩٣ ونهب حجاج اليمن بطريق مكة نهبـا فاحشا . وكذا نهب الحجاج المصريين ولم ينج منهم الا من نزل بصحبة أمير الحج المصرى وبعض الاشراف المسالمين .

وعادت السلطات المصرية الى تركيز الولاية فى آل عجلان الأقوياء فولى منهم على بن عجلان ٧٩٤ — ٧٩٧ / ١٣٩٢ — ١٣٩٤ ثم أخوه حسن ابن عجلان ١٣٩٤/٧٩٧ وعمل الاثنان بسياسة واحدة وهى الاشراف على شئون الحج والتجارة بحمـاية قوافل تجار اليمن عسكريا ، واخضـاع الاشراف الثائرين وان اختلفت وسيلة كل منهما . فالأول حاول استرضاء الأشراف بالأموال ، ومع ذلك لم يتورعوا عن مهاجمة جدة فى ربيع الأول ٧٩٥ / يناير — فبراير ١٣٩٣ طمعا فى سفينة مصرية مشحونة بالغـلال أنعم بها السلطان على أمير مكة واضطر هذا الى اعطائهم منها ٥٠٠ غراره حتى يخرجوا عن جده . ومع ذلك ظلوا يفسـدون فى الطريق مما الجأ تجار الـكارم الى الاعراض عن جده والتوجه الى ينبع مينـاء المدينـة فلحق الأمير ضرر كبير واضطر الى أخذ أموال من المجاورين بمكة ليسد مطالب الاشراف المتزايدة وما زال حريصا على ارضائهم الى أن قتـل فى شوال ٧٩٧ / اغسطس ١٣٩٤ أما الثانى فقد لجأ الى سلاح القوة لاخماد شوكة الأشراف المناوئين فأوقع بهم كارثة فى موقعة الزيارة شعبان ٧٩٨/ يونية ١٣٩٦ . واذا كان أمير مكة قد فاته النفع فى موسم هـذه السنة لعدول تجار اليمن عن جده الى ينبع بسبب تلك الحرب فانه ضمن الأمن الداخلى وقلت حوادث الثورات والنهب نسبيا عن ذى قبل واستحق شكر السلطان . كما عمل على طمأنة تجـار اليمن وترغيبهم فى العودة الى جدة سواء بقيـامه شخصيا بحراسة التجـار فى رحيلهم الى مكة وفى العودة الى جدة اذا لاح شبه خطر ، أو باسـقاط الثلث من قيمة الضرائب الجمركية الواجبة . ثم انه عين موظفا خاصـا مسئولا عن جدة قام بعدة اصلاحات فى المينـاء وحدد مرتبـات للاشراف مبطلا رسومهم التى كانت

تؤخذ من التاجر عند الجباية . وبذلك قطع صلة الأشراف بالتجار وأراحهم من مطالباتهم ، وبمعنى آخر جعل أمير مكة بمفرده صاحب الحق فى هذه الضرائب . وسرعان ما أتت هذه السياسة ثمارها بعودة تجار الكرم الى جدة وازدياد عددهم من عام الى آخر .

وعلى الجانب المقابل لهذه المجهودات الطيبة طمع سلاطين المماليك فى الحصول على أموال من أمير مكة ، بدأ ذلك السلطان فرج الذى تميز عهده بكثرة المصادرات والاقتراض من التجار وفرض ضرائب استثنائية على سائر أراضى مصر لمواجهة غزوات تيمورلنك فضلا عن الغلاء الذى طرق ديار مصر عام٨٠٦ /١٤٠٣-١٤٠٤ حتى خربت أراضى‌مصر والشام . اتجه السلطان فرج فى بادىء الأمر الى طلب المساعدة المالية من‌الشريف حسن بن عجلان عام ٨٠٨ / ١٤٠٥-١٤٠٦ ثم أجاب التماسات أمير مكة بمشاركة ابنيه بركات عام ٨٠٩ / ١٤٠٦ ثم أحمد عام ٨١١ / ١٤٠٨ معه فى امارة مكة وصار الشريف حسن نائبا للسلطنة بالحجاز فى مقابل الهدايا الطائلة .

ثم تطور الأمر الى فرض الالتزامات المالية على أمير مكة تحت تهديد العزل . فى شوال ٨١٢ / فبراير ١٤٠٩ عزل حسن بن عجلان وولداه بركات وأحمد ثم أعيدوا الى مناصبهم فى الشهر التالى فى مقابل التزامات مالية سنوية . وجاءتهم الخلع والتقاليد فى موسم حج هذا العام مع مندوب ليقبض ماالتزم به الشريف‌حسن وشحنت المراكب‌بحضوره‌ووصلت سالمةالى‌مصر بطريق‌الطور وبيعت‌بخمسين‌الف مثقال . وعندما تأخر الشريف حسن بعد ذلك عن ارسال الهدية « مقابل ما التزم به » أرسل له‌السلطان يعتب عليه تقصيره فى الخدمة فأسرع هذا بارسال الالتزام المالى بعد انقضاء موسم حج عام ٨١٤ .

وموضع الأهمية فى هذه الالتزامات المالية هو التجاء الشريف حسن الى تعويضها أو استخلاصها من‌تجار الكارم والجائه الى استخدام بعض الوسائل غير المشروعة لسدادها تجنبا لعزله من منصبه كالاقتراض من التجار مع عدم الوفاء لهم أو القبض عليهم وابتزاز بعض أموالهم أو فرض مبالغ طائلة عليهم نظير اصلاح سفنهم فى مرفأ جدة دون اتباع القاعدة فى أن يأخذ نسبة الربع فقط من قيمة البضائع المحمولة على تلك السفن المعطوبة . وأدت تلك الاجراءات الى سخط تجار الكارم وتدخل

ملك اليمن لصـــالح تجاره فسعى لدى السلطان المؤيد شيخ لعزل الشريف حسن بن عجلان وولديه بتزكية تولية أحد الأشراف الثائرين . فاســـتبدل بالشريف رميثه بن محمد بن عجـــلان . وهكذا تحول الأمير السابق الى مناوىء خطير للأمير الجديد فى الفترة من ربيع الأول ٨١٨ الى رمضان ٨١٩ . ثم أعيد الشريف حسن مرة أخرى الى منصبه بعـــد أن استرضى السلطان بالهدايا وقدم وعده باسترضاء ملك اليمـــن . وبالفعل أحسن الشريف حسن معاملة تجار الــكارم الذين وصلوا فى صفر ٨٢٠ / مارس أبريل ١٤١٧ ، كما تنازل عن بعض الضرائب على تجارة الملك النـــاصر معتذرا عما أخذه للحاجة اليه . فأعجب ذلك الملك اليمنى حتى أنه أمر تجاره بقصد جدة فىهذا الموسم فقدموا بأعداد أكبر من كل سنة واستطاع الشريف حسن الوفاء بالتزاماته قبل السلطان المؤيد وهو ٣٠ الف مثقال دفعت على أقساط كان آخرها نحو الف بافلورى دفعت فى موسم الحج عام ٨٢٣ / ١٤٢٠ بعد مطالبات متعددة من جانب السلطان .

كل هذه الأمور تجعل الحجاز فى غير حالة مستقرة مناســـبة وغير مأمون العواقب لتجار جدد كما حدث لهذا الهندى الذى قدم جدة لأول مرة عام ٨٢٥ / ١٤٢٢ وليس له من قوة سياسية تحميه مثل ما كان يقـــدمه ملك اليمن حماية لتجاره . وتعرض للنهب من جانب أمير مكة . بأن استولى على جميع ما معه من بضائع ووزعها على التجار بالثمن الذى حـــدده . فالتجأ هذا الناخوذاه عند قدومه فى السنة التالية الى البحر الأحمر الى سواكن ودهلك حيث لقى أيضا سوء المعاملة . وكان على سلاطين الجراكسة اتخاذ الاجراءات الحازمة اذا هم أرادوا الاستفادة من هذا التطور الجديد من قدوم البضائع الشرقيـــة الى البحر الأحمر مباشرة دون وساطة عدن وتولى زمام التجارة الشرقية والتعامل مباشرة مع تجارة الشرق .

بدأ السلطان برسباى بأن أرسل خطابا الى الشريف حسن ينـــدد فيه بعمله السىء ويعتب عليه أخذ قلفل التجار الواصلين الى جـــده من قاليقوط ويأمره برد ذلك اليهم . ثم أرسل قوة عسكرية مع بعثـــة الحج فى موسم ٨٢٦ / ١٤٢٣ للقبض على الشريف حسن ، ولكن هذا نزح عن مكة . وعاد أمراء الحج الى مصر وبقى الأمير قرقماش الشعبانى أحـــد أمراء الألوف فى ينبع وأرسل يطلب المدد لقتال الشريف حسن واقرار بدله فى امرة مكة . فجاءته قوة من ١١٤ فارسا دخل بهم مكة فى جمادى الأولى

٨٢٧ مايو ١٤٢٤ بمن كان معه من الجند ومن انضم اليه من أهل ينبع وكذلك الشريف على بن عنان بن مغامس الذى قرىء مرسوم توليته عوضا عن الشريف حسن ، وتوجه الأمير الجديد بعد يومين الى جدة لاستقبال مركبين وصلتا من قاليقوط وعومل التجـــار الهنود هذه المرة معاملة حسنة ممـــا شجعهم فى العام التالى على القدوم بأربعة عشر سفينة موسوقة بالبضائع ثم زيادة عن أربعين سفينة عام ٨٢٩ / ١٤٢٦ وتبعا لذلك بدأ أفول عـــدن ازاء صعود جدة التى بدأت تتركز فيها تجارة البحر الأحمر .

وأمام هذا التطور الجديد فى تجارة البحر الأحمر صار على الدولة المملوكية أن تمضى قدما فى بسط سلطتها الفعليـــة على الحجاز واقرار الأمن والنظام تمهيدا للدور المنتظر لجدة فى عالم التجـــارة علاوة على اصدار مراسيم بتنظيمات عسكرية وادارية ومالية تحكم بها مصر السيطرة على تجارة البحر الأحمر .

أولا — استمرار الاشراف فى حكم مكة لـــكنهم كانوا أكثر خضوعا من أسلافهم نظرا للاجراءات الجديدة . فقد أوجد برسباى قوة عسكرية دائمة فى مكة تعزز سنويا فى موســـم الحج وفى وقت وصـــول السفن الهندية ، وتزاد فى حالة الضرورة . كذلك أكمل برسباى النفوذ المصرى فى المدينة المنورة وينبع التى كان حكامهـــا يســـتفيدون من تحول السفن اليمنية اليها مع ضمان الاتصال السريع بالحجاز . بأن بدأ منذ عام ٨٣٨/ ١٤٣٤ — ١٤٣٥ سفر الوحـــدات العسكرية بحرا من الطور الى جـــدة متجنبة مخاطر البـــدو فى الصحراء علاوة على حفـــر الآبار وحفظ الأمن فى طريق الحج والتجارة البرى .

هذا وقد اكتفى برسباى بهذه الاجراءات العســـكرية لاقرار الأمن والنظام بدلا من القضاء على سلطان الأشراف وفرض الســـيادة المصرية التـــامة على الحجاز دون منـــازع أو شريك منهم وهو الأمر الذى فـــكر فيه من قبل كل من السلطان محمد بن قلاوون عام ١٣٣١/٧٣١ والسلطان شعبان عام ١٣٦١/٧٦٢ للتخلص نهائيا من ثوراتهم ومنازعاتهم المستمرة التى كنت تؤثر على النشاط التجارى بمكة وربما كان انشـــغال برسباى بمسألة قبرص ومحاولة القضاء على القرصنة فى البحر المتوســـط قـــد أبعد تنفيذ هذه الفكرة رغم ماقدمه الأمير يشبك الساقى من نصـــيحة الى السلطان بالاستيلاء على بندر جدة .

صحيح أنه قد ساد الأمن النسبي بالحجاز لفترة طويلة، الا أن القلاقل والاضطرابات ثارت بصورة مفزعة بعودة بنى حسن بن عجلان الى النزاع المسلح بينهم مدة خمس سنوات ٩٠٦-٩١٠ / ١٥٠٠-١٥٠٤ فنهبت جدة ومكة وكذلك القوافل بينهم عدة مرات ومنع سفر النساء للحج عامين متتاليين ٩٠٨، ٩٠٩ . وما كادت الأمور تهدأ قليلا حتى تعرض الحجاز مرة أخرى لثورة عاتية استمرت الى عام ٩١٤ / ١٥٠٨-١٥٠٩ تزعمها كل من أمير ينبع وأمير خليص والتف حولهما العربان حتى منع السلطان سفر الحجاج قاطبة من مصر والشام وكذلك الركب المغربى والركب التكرورى . وهذه أول مرة يحدث فيها منع الحج فى العصر المملوكى كله.

وربما كان السلطان الغورى مضطرا لاتباع سياسة التسامح لانهاء الثورات الدامية لاسيما وقد عاصر هذه الأحداث اضطراب الأحوال الداخلية فى مصر لقلة الأموال وكذلك ثورات المماليك الجلبان من ناحية وبدء الحملات البرتغالية فى البحار الشرقية واقتراب الخطر الذى يهدد بضياع تجارة البحر الأحمر وبالتالى كيان مصر الاقتصادى من ناحية اخرى . وأدت الأحوال فى ذلك الوقت الى توزيع جهود مصر وقواتها العسكرية بدلا من التركيز فى جبهة واحدة مما أضاع وقتا ثمينا تمكن فيه البرتغاليون من تثبيت أقدامهم فى بحار الهند .

ثانيا - استمر بندر جدة فى الازدهار ووصفها المعاصرون بأنها من أعظم الموانى على البحر الأحمر . فقد اهتمت الحكومة باصلاح الميناء عام ٨٣١ / ١٤٢٨ وجعله صالحا لاستقبال أكبر عدد من السفن التى بلغت سنوياماينوف عن مائة سفينة ، منها مراكب كبيرة ذات سبعة أشرعة. كذلك عملت الحكومة على تركيز تجارة البحر الأحمر فى جدة حتى تضاءلت بجانبها الموانى الأخرى على ساحل البحر الغربى مثل عيذاب والقصير بل لقد قضى عليهما تماما . وأقفل الطريق البرى منهما الى قوص بعد أن تعرض لهجمات قبائل بنو كنز وعرب الهواره الذين سيطروا تماما على منطقة أسوان منذ أوائل القرن الخامس عشر . ونظرا لانعدام الأمن فى جنوب مصر أخذ نشاط ميناء عيذاب التجارى يتقلص تدريجيا ، كما أقل من قبل كميناء لمرور الحجاج وتحول ذلك كله الى الطور الأمر الذى أعطى جدة ميزة مسبقة كونها كمحطة فى منتصف الطريق بين عدن والطور . وظلت عيذاب تحتفظ ببعض النشاط التجارى الى أن قرر برسبال تخريبها عام

٨٣٠ / ١٤٢٦ لتنفرد جدة بتجارة البحر الأحمر ، كما هوجمت سواكن عام ٨٤٣ / ١٤٤ لنفس الغرض أيضا .

ويفسر هذا الغرض أيضا أساليب تغير سياسة مصر ازاء اليمن . فقد كان من الطبيعى أن يتأثر مركز عدن التجارى تأثرا مباشرا من منافسة جدة مما جعل الملك المنصور عبد الله ٨٢٧ــ٨٣٠ / ١٤٢٣ــ١٤٢٦ يقوم بمنع مرور ثلاث سفن هندية الى البحر الأحمر عام ٨٣٨ / ٢٤ــ١٤٢٥ . لذا أراد برسباى ردعه حرصا منه على مستقبل جده وأشار عليه البعض بالاستيلاء على اليمن . غير أن برسباى أرسل وفدا كان له مظهر سلمى مكلف بالتعرف على الأحوال هناك . ونزل هذا الوفد المكون من خمسين من المماليك السلطانية حلى بنى يعقوب . وتوجه الأمير يدبغا التنمى ومعه خمسة منهم لمقابلة الملك المنصور ومعه هدية وكتاب من السلطان يطلب مالا للمساعدة على قتال الفرنج فى قبرص .

وبينما كان الملك يستعد لاجابة مطالب السلطان قام بقية المماليك بنهب بعض الضياع وقتل بعض الرجال . عند ذلك تنبه الملك وشك فى نواياهم وطردهم من أرضه وعزم برسباى على الانتقام غير أنه شغل بغزو قبرص واستمر الملك الظاهر يحيى ٨٣١ــ٨٤٢ / ١٤٢٧ــ١٤٣٨ فى سياسة سلفه باجبار تجار الشرق كى يرسوا فى عدن . فأشاع برسباى أنه يعد حملة لمهاجمة اليمن فخاف الملك يحيى وأرسل يقسم للسلطان أنه سوف لا يتعرض للسفن المارة وسيترك لها الحرية فى اختيار الميناء الذى ترغبه .

بالاضافة الى ذلك قرر برسباى عام ٨٣٨ / ١٤٣٤ مضاعفة الرسوم الجمركية (العشر) على التجار المصريين والشاميين ، ومصادرة بضائع التجار اليمنيين اذا هم اشتروا بضائع من عدن وجاءوا بها الى جدة ، كأنه يريد بذلك أن يخنق اليمن اقتصاديا بعد أن بعدت عنه عسكريا هذا فى الوقت الذى بدأت فيه قوة آل رسول فى الضعف بسبب الحروب الأهلية وأعمال النهب واحتراق عدن وزبيد حتى سقطت دولتهم وقامت الدولة الطاهرية عام ٨٦٠ / ١٤٥٦ .

على أن عدن كمستودع تجارى لم يتلاشى أمرها أمام ازدهار جدة كما يذكر المؤرخون . فقد عاش بعدن كثير من التجار وبلغ ايرادها عام ٨٨٣ / ١٤٧٨ مايزيد عن خمسة مكوك من الذهب ومن نقد الفضة أضعاف ذلك لاستمرار تعاملها مع موانى الشرق بوصول السفن الهندية اليها أو الخروج

منها الى الهند . وبديهى أن يستمر تعامل عدن مع جدة الأمر الذى سيكون له اعتبار عند وضع التنظيمات المالية لتجارة جدة .

ثالثا — كان هناك اجراء وقائى اتخذته الدولة للمحافظة على سلامة البحر الأحمر وتجارته فمنذ زمن الحروب الصليبية كان دخول البحر الأحمر ممنوعا على الفرنج لعدة أسباب : دينية حماية للاراضى المقدسة الاسلامية من اعتداءات الصليبيين وسياسية خشية قيام تحالف بين الحبشة والمسيحيين الغربيين ، ثم اقتصاديا تجنبا لمحاولات الفرنج القضاء على تجارة مصر مصدر ثرائها . ثم خفت وطأة هذا التحريم اذ كان يسمح لبعض الأوربيين وخاصة الايطاليين بدخول البحر الأحمر بعد منحهم جواز مرور من السلطات المصرية . وظل هذا السماح قائما حتى كشف الاتصال الجارى بين اسحق ملك الحبشة والفونسو الخامس ملك أراجون بواسطة التاجر نور الدين على التبريزى فى ربيع الثانى ٨٣٢ ينـاير ١٤٢٩ للاتفـاق على حملة صليبية مشتركة فى ربيع الثانى ٨٣٢ يناير ١٤٢٩ للاتفاق على حملة صليبية مشتركة وحرصا على سلامة تجارة البحر الأحمر ، أعيد مرة أخرى اغلاق المرور فى البحر الأحمر أمام الأوربيين وظل هذا الاحتراز قائما ازاء التهديدات المستمرة من جانب زرع يعقوب ملك الحبشة بتجهيز أسطول لأخذ سواحل بلاد الحجاز ، وقد أوشك الايطالى ينكولا دى كونتى أن يفقد حياته فى جدة أثناء عودته من الهند لولا أنه أنكر مسيحيته فأطلق سراحه والتقى مع بيرو تافور عند الطور الذى عدل عن فكرته بالسفر الى الهند عند سماعه هذه الأخبار المزعجة . وكذلك البيرو دى سارتانو مبعوث البابا ايوجين الرابع ١٤٣١ — ١٤٤٧ أراد أن يسلك طريقا بعيدا عن مصر بالوصول الى الحبشة فبدأ من شبه جزيرة القرم الى الخليج العربى فوقع أخيرا فى أيدى السلطات المصرية فى عهد السلطان جقمن . كذلك قبض الشريف بركات بن محمد فى جمادى الأولى ٩١٦ أغسطس ١٥١١ على ثلاثة أشخاص من الفرنج متخفين فى زى الأروام وتحقق أنهم جواسيس بعض ملوك الفرنج وأرسلهم الى القاهرة .

ومع ذلك فقد تمكن بعض الأوربيين من دخول البحر الأحمر والسفر من الطور الى عدن ثم الى الهند وشرق أفريقيا وعادوا الى القاهرة نذكر منهم بدرو دى كوفيـلام وزميله الفونس دى بايفا التى كانت رحلتهما بين عامى ١٤٨٨ — ١٤٩٠ من أخطر الرحلات لارتبطها بمشروعات البرتغال

فقد كلفهما ملك البرتغال بمهمة البحث عن مملكة الحبشة واكتشاف المناطق المنتجة للتوابل وكذا استكشاف الطرق التجارية الموجودة وامكانية ايجاد طرق أخرى بديلة وقد انضم الرجلان الى قافلة مغربية ورحلا بالبر الى الطور ثم بالبحر الى عدن . وقد تمكن بدرو دى كوفيلام من الوصـــول الى الهند قبل فاسكو دى جاما بعشر سنوات فزار كنانور وقاليقوط وجوا ثم عبر المحيط الهندى الى سوفالا على ســـاحل شرق أفريقيـــا ثم عاد فى البحر الأحمر الى الطور ومنها الى القاهرة حيث علم بفقد رفيقه الذى كان قد افترق عنه فى عدن للبحث عن مملكة الحبشة . وقد أرسل بدرو دى كوفيلام الى البرتغـــال معلومات ثمينـــة كانت بلا شـــك دافعـــا قـــويا لها على استئناف بعثاتها الـــكشفية وكذلك توجد قصص عديدة عن التجار الايطاليين الذين كانوا يتاجرون فى مصر فى القرن الخامس عشر ويذهبون الى آسيا . وقد وجد فاسكو دى جاما الـــكثيرين منهم عنـــد وصـــوله قاليقوط عام ١٤٩٨ .

ولـــكن لم تستطع أوربا أبدا الحصول على السلع الشرقية مباشرة من مناطق انتاجها وانما كانت دائما مضطرة الى البيع والشراء مع مصر لأنه لا يمكن لأى بضاعة من التوابل أن تمر أو تبـــاع فى أى مكان الا فى بلاد السلطان لأن الحكومة المصرية هى السيد المطلق فى البضائع الشرقية التى تصل البحر الأحمر بسبب التنظيمات المالية الاحتكارية لتجارة البحر الأحمر .

رابعا — كانت القاعدة فى الرســـوم الجمركية هى قيمة العشر على البضـــائع التى يأتى بهـــا التجـــار من عدن الى الموانى المصرية . فبدأ تحصيل ضريبة الوارد هذه من التجار الهنود فى جدة مضافا اليها رسوم أخرى تقررت للناظر والشاد وشهود القبـــانى والصيرفى وغير ذلك من الأعوان وصلت فى مجموعها الى نحو ١٥٪ وقد تضرر التجار الهنود من هـــذه الزيادة فى الضرائب علاوة على ما كان يطـــرح عليهم من المرجان والنحاس أثمانا لبضائعهم . فعاد أغلبهم الى عدن عام ٨٣٧ / ١٤٣٣ .

واضطر برسباى ازاء هـــذا العمل الخطير الى التخفيف عنهم فى الموسم التالى بأن كتب فى ١٣ صفر ٨٣٨ / ٨ سبتمبر ١٤٣٤ بالاكتفـــاء بتحصيل قيمة العشر فقط .

ويبدو أن هذا المرسوم لم ينفذ فى السنوات السابقة أو أنه أحتاج الى تعزيز . اذ أصدر السلطان جقمق مرسوما آخر عام ٨٤٢/١٤٣٩ يقضى بعدم تحصيل أكثر من العشر على التجار الواردين الى جدة بحرا على أن يؤخذ صنفا لا مالا من كل عشرة واحد ، وبطلان ما كان يؤخذ سوى ذلك من رسوم المباشرين وغيرهم .

واذا كانت الدولة لم تحاول زيادة هذه الرسوم الجمركية عن قيمة العشر ، فانها عوضت ذلك بتعدد تحصيل هذا العشر فى مراكز جمركيـــة مختلفة كضريبة صادر يرد ذكرها فيما بعد .

أما عن حقوق الأطراف المعنية فى هذه الرسوم فنلاحظ أنه عند بدء عصر الجراكسة وقبل التطور الجـــديد لتجارة البحر الأحمر ، كان للأشراف حكام الحجاز حق جبـــاية هذه الضرائب لصالحهم من التجار الذين يأتون برا من اليمن ومن العراق الى مكة فى الموسم وأيضا التجار الذين يأتون من اليمن بحرا الى جده . وتبعا كذلك قام الشريف على بن عفان بتحصيل الرسوم الجمركية على السفينتين الهنـــديتين اللتين وصلتا جدة فى جمادى الأولى ٨٢٧ / أبريل ١٤٢٤ لصالحه غير أن الحكومة المصرية استحدثت نظارة جدة كوظيفة سلطانية يخلع على متوليها كل عام ويسافر الى جدة صحبة القوة العسكرية المجددة ويتواجد بها وقت وصول المراكب الهندية اليها ، وهو المـــكلف بجمع الضرائب الجمركية على البضـــائع الشرقية . وأول من عين لهذا المنصب ابراهيم بن سعد الدين المشـــهور بابن المرة سافر من مصر فى ربيع الأول ٨٢٨ / فبراير ١٤٢٥ الى جـــدة ليستقبل وصول أربعة عشر مركبا موسوقة ببضائع الهند ، فأخذ منهـــا العشر . وهذا أول ما أخذ من العشر لصـــاحب مصر بجدة الذى بلغ قيمته سبعون الف دينـــار عاد بها ابن المرة الى القـــاهرة فى المحرم ٨٢٩ / نوفمبر — ديسمبر ١٤٢٥ ومن ثم تعارضت مصـــالح السلطتين المركزية والمحلية فى أحقية كل منها فى هذا المورد المـــالى فأصدرت الدولة مراسيم بتنظيمات مالية جديدة تحقق بها منفعتها الخاصة .

ونصت هذه المراسيم على التفرقة بين تجارة البر الواصلة الى مكة وبين تجارة البحر فى جدة فبالنسبة للتجارة البرية ثبت للاشراف حقهم فى تحصيل المـــكوس لصالحهم استمرارا لمـــا كانوا يحصـــلون عليه . أما

العشور على التجارة البحرية الواردة الى جدة سواء بالسفن الآتية من اليمن أو من الهند مباشرة فقد جعلها السلطان برسباى جميعها من حقوق الدولة مستحوذا بذلك على حق سابق للاشراف فى مكوس السفن الواصلة الى جدة وقد حصلها الشريف على بن عفان فعلا لآخر مرة عام ٨٢٧ وحصلها ناظر جده فى العام التالى وجاء بها الى القاهرة كما أشرنا آنفا .

ولكى يسترضى السلطان أمير مكة عن هذا الاجراء الأخير فانه أجرى مساومة مالية مع الشريف بركات بن حسن بن عجلان . فقد كان أبوه أمير مكة السابق واللاجىء الى حلى بن يعقوب متجنبا الاحتكاك بالحامية المصرية قد جاء الى القاهرة مصالحا للسلطان فى المحرم ٨٢٩ / نوفمبر ديسمبر ١٤٢٥ وخلع عليه من جديد فى أمرة مكة نظير دفع مبلغ ثلاثين الف دينار سنويا . وما لبث أن توفى الشريف حسن بالقاهرة فى جمادى الأولى أبريل ١٤٢٦ قبل أن يرحل الى مقر حكمه فاستدعى ابنه بركات الذى حضر الى القاهرة فى رمضان / أغسطس وخلع عليه بالولاية فى ذى الحجة / أكتوبر ملتزما بحمل عشرة آلاف كل سنة وأن لايتعرض لما يؤخذ بجدة من عشور بضائع التجار الواصلة من الهند أو غيره .

وهكذا انقص برسباى عشرين الف دينار من قيمة الالتزام المالى قبل شريف مكة مقابل حق الدولة فى حصيلة الرسوم الجمركية على التجارة البحرية جميعا والتى وصلته فعلا أول هذا العام بقيمة سبعين الف دينار .

ولم يكن الاشراف يرضون بهذا الحرمان من حق سابق لهم . فثاروا فى رمضان ٨٣١ / يونية يولية ١٤٢٨ مطالبين بحقوقهم السابقة فى جدة قبل وصول السفن الهندية مباشرة اليها . فأرسل برسباى قوة عسكرية قوامها خمسين جنديا بقيادة أحد أمراء العشرات « تقوية لناظر جدة على حفظ المال » .

ومع ذلك فقد رغب برسباى فى استقرار الأمن بالحجاز ضمانا لرواج التجارة فتنازل فى العام التالى للشريف بركات عن ثلث تلك العشور . واستمر الحال على ذلك بضع سنين بدون رضاء الشريف بركات الى أن قام بثورة أخرى عام ٨٤٠ / ١٤٣٧ وانتهى النزاع الأخير بالاتفاق على أن يأخذ أمير مكة نصف الأموال التى تحصل على البضائع

الواردة من الهند وعرفت بالهندى تميزا لها عن رســوم التجارة المـكية البرية التى عرفت بالعــدنى فهى من حقوق أمير مكة جميعهــا . وكل من الهندى والعدنى ضرائب جمركية على الواردات .

ومن ناحية ثانية أرادت الدولة مشاركة اشراف مكة فى العدنى أيضا مثل مشاركتهم لحق السلطان فى الهنــدى فقد أمر السلطان قايتبــاى ٨٨٣ / ٧٨ — ١٤٧٩ بتحصيل نصــف العدنى وأصر السلطان على تنفيذ هذا الأمر رغم مراجعة الشريف محمد بن بركات وناظر جدة له فى ذلك ونفذ هذا الأمر مدة عامين . ثم عاد قايتبــاى وأنعم بجميــع العدنى على الشريف فى مقابل خدمة السلطان فى حجته .

كذلك لم يفت الجراكسة تحصيل رسوم جمركية على التجارة المكية بطريق آخر دون المساس بحق الأشراف فى العدنى وذلك بفرض رســوم جمركية على الصادر من هــذه التجــارة البرية من مكة الى العراق أو الشام ومصر . واعتبر المقريزى ذلك مظلمة جديدة على الحجاج تعليقــا على ماذكره فى حوادث المحرم ٨٢٩ / نوفمبر ديسمبر ١٤٢٥ بالزام التجار الذين اشتروا بمكة وخرجوا فى قافلة الحج الى الشام بالحضــور الى القاهرة مع الركب المصرى لتؤخــذ منهم مكوس بضائعهم فنزل التجــار والحجــاج بركة الحــاج وخرج اليهم مباشرو الحج وأعوانهم واشــتدوا عليهم وقد نفذ هذا الالتزام لمواسم الحج فى العامين التاليين ونودى مرة أخرى فى موسم حج عام ١٤٢٦/٨٣٠ بضرورة حضور جميع التجار الى القاهرة والا تعرضوا للقتل والمصادرة .

وعندما اشتكى تجار الشام من ذلك تم الاتفــاق فى ربيع الثــانى ٨٣١ / يناير وفبراير ١٤٢٧ على أعفائهم من الحضور الى مصر على أن يؤخذ منهم بمكة عن كل حمل قل ثمنه أو كثر ثلاثة دنانير ونصــف . واذا حملوا ذلك الى دمشق يؤخذ منهم المــكس هناك كالعادة على أن الالزام بالحضور الى القاهرة عاد مرة أخرى مع تشــديد الجراســة عليهم فى الطريق وتفقدهم وعد أحمالهم حتى قدموا صحبة الحاج الى القاهرة فى المحرم ٨٣٢ / أكتوبر نوفمبر ١٤٢٨ وقد نفذ هذا الالزام بكل دقة حتى أنه فى عام ٨٣٩ / ٣٥—١٤٣٦ صودرت أحمال من البهار لطائفة من أعيان دمشق حملت من الحجاز الى دمشق مباشرة دون المرور على القاهرة ولم

يخرج عن هذه البضائع الا بعد أن دفع هؤلاء التجار مالا اتفقوا عليه الى ناظر الخاص .

وأخيرا نلاحظ أن المراسيم التى أصدرها برسباى لتنظيم هذا المورد المالى الجديد أبانت عن تعدد دفع ضريبة العشر على البضائع التى تصل الى كل مدينة داخل أراضى الدولة . فهى أولا فى جدة ومكة على جميع التجار ثم عند المراكز الجمركية على الطرق البرية الموصلة من الحجاز الى مصر والشام والعراق عند بدر وحنين وجسر الحسا والعقبة والمركزين الأولين على طريق الحج العراقى والثالث قرب الكرك والأخير خاص بمصر . كما أقيم بالطور مركز جمركى للتجارة التى تأتى بالبحر ومرة ثالثة تدفع ضريبة العشر عند الوصول الى القاهرة حتى أن ثمن السلعة فى مصر أصبح خمسة أضعاف ثمنها فى الهند هذا بجانب تطبيق نظام الاحتكار الأمر الذى أدى بطبيعة الحال الى ارتفاع أسعار البضائع الشرقية وخاصة التوابل .

خامسا ــ بلغت التنظيمات الادارية والمالية لتجارة البحر الأحمر فى عهد السلطان برسباى ذروتها باصدار الحكومة عدة مراسيم لتنفيذ سياسة الاحتكار التجارى تجعل من السلطان التاجر الوحيد لتجارة البحر الأحمر وخاصة التوابل . وأصبح الاحتكار نظاما اقتصاديا سارت عليه الدولة حتى نهاية العصر .

ويتوقف الباحثون كثيرا لمعرفة الأسباب التى أوحت للسلطان برسباى اتباع هذه السياسة التجارية الجديدة فمنهم من يربطها بفساد النظام الاقطاعى فى أواخر الدولة المملوكية الأولى وأوائل الثانية وعجزه عن الوفاء بالتزامات الدولة المالية بعد أن أهملت العناية بشئون الرى ومنهم من يربطها بحاجة الدولة الى الأموال لتغطية نفقات حملة قبرص أو أن برسباى أغرته المكاسب فتوسع فى احتكار تجارة العبور .

ومهما يكن من سبب فقد كان هناك المتجر السلطانى كأحد أجهزة الدولة يتولاه ناظر الخاص ويختار من بين تجار الكارم للاستفادة من خبرتهم فى ادارة المتجر مثل ابراهيم بن عمر بن برهان الدين المحلى التاجر المشهور فى عهد السلطان فرج وبرقوق . ومثل شيخ على الكيلانى الذى جهزه المؤيد شيخ بخمسة آلاف دينار ليشترى له الفلفل بغرض التجارة.

واجتهد السكيلانى فى مهمته اذ اشترى معظم الفلفل الوارد الى جدةبسعر ١٥ دينارا لكل مائة من (المن مكيال ومائة منه تساوى قنطارا) واشترى التجار باقى الفلفل بسعر خمسة وثلاثين وبلغت نسبة مكسب السلطان بعد بيع الفلفل على التجار الفرنج بالاسكندرية ١٤٠٪ .

على اننا يجب أن نفرق بين هذه العمليات التجارية الحكومية وبين الاحتكار التجارى بمعنى أن يكون السلطان الممثل للدولة هو المشترى الوحيد والبائع الوحيد بشكل أصاب طائفة الكارمية بضرر كبير أدى الى زوال فى حين انهم لم يشعروا بخطر حقيقى من المشاركة الحكوميةفى العمليات التجارية فيقوم المتجر السلطانى بشراء التوابل عامة والفلفل خاصة من تجار الهند بأسواق جدة كما تأتيه أيضا الضرائب العينية من هذهالأصناف ثميقوم المتجر ببيع بضاعته الى التجار الفرنج بالاسكندرية وبأسعار السوق المحلية . والتى أمكن برسباى زيادتها بطريقة تخالف العرف فى المعاملات التجارية ففى المحرم ٨٣٠ نوفمبر ١٤٢٦ رسم السلطان بزيادة ثمن الفلفل المباع على التجار الفرنج من الديوانسافروا به وكلف قناصلهم وفاء هذه الزيادة عنهم محققا بذلك هدف الحصول على أكبر قدر من الأرباح التجارية مضافا الى أكبر قدر من المكوس فى المراكز التجارية المتعددة .

ثم بدأ برسباى باعطاء المتجر السلطانى امتيازا خاصا متمثلا فى مرسوم صدر أول عام ٨٣٢ / أكتوبر ١٤٢٨ بأن الزم جميع التجار الحضور ببضائعهم الى القاهرة وحجر على الفلفل أن يشترى لغيره ولا يباع الا فى الاسكندرية بعد أن يكتفى السلطان ووضحت أهداف هذا الامتياز فى اعطاء المتجر السلطانى أولوية شراء احتياجاته من الفلفل من البضاعة الحاضرة سعر السوق الحرة . وكذا أولوية البيع للتجار الفرنج فى الاسكندرية متحكما بذلك فى أسعار البيع بالزام التجار بشراء الفلفل السلطانى بسعر ١٢٠ دينارا للحمل بينما كانت قيمته فى السوق الحرة لدى تجار الكارم خمسون دينارا فى القاهرة و٨٠ دينارا للحمل فى الاسكندرية . ونتج عن هذه الوساطة التجارية المفروضة بين البائع والمشترى الاضرار بمصالح الجميع . فما استطاع المتجر السلطانىتصريف كل موجداته من الفلفل بهذا السعر الاجبارى ، وما استطاع تجار الكارم

التعامل مع تجار الفرنج الذين اضطروا الى العودة بأكثر نقدهم دون أخذ احتياجاتهم من تجارة العبور .

وفى العام التالى ارتفع السعر الاجبارى لحمل الفلفل الى ١٣٠ دينارا وألزم به تجار الفرنج . ويظهر أنهم استنفذوا ما لدى الديوان من توابل وأرادوا الشراء من السوق الحرة محاولين تعويض فروق السعر بالمساومة مع التجار الذين كانت لديهم رغبة فى تصريف بضاعتهم المكدسة من العام الماضى بسعر ٦٤ دينارا لحمل الفلفل لكن الفرنج تمسكوا بتسعة وخمسين . عندئذ تدخل السلطان مفوتا الفرصة على تجار الفرنج ونزل مشتريا للفلفل بالسعر الأخير . وتبعا لذلك أمر السلطان باحضار التجار من الاسكندرية لمقابلته فى القاهرة فى جمادى الأول ٨٣٢ / فبراير ١٤٣٠ حيث ألزمهم جميعا أن لا يبيعوا شيئا من أصناف البضائع التى تجلب من الهند كالفلفل ونحوه لأحد من تجار الفرنج ويكون بيع البهار للسلطان وهددوا على ذلك بمنعهم من التجارة فيه .

وهكذا كانت الخطوة الأولى فى الاحتكار تمثلت فى جعل السلطان هو البائع الوحيد لما يرد من تجارة البحر الأحمر فى الاسكندرية ، يوقف منافسة تجار الكارم واخضاع الفرنج بقبول الشراء بالسعر الاجبارى الذى يحدده .

ثم تقرر تطبيق الاحتكار الحكومى فى عمليات الشراء فصدرت فى شعبان ٨٣٥ / أبريل ١٤٣٢ مراسيم الى الشام والحجاز والاسكندرية أن لا يبيع أحد البهار ولا يشترى الا السلطان . وتجددت مراسيم الاحتكار فى ربيع الثانى ٨٣٨ / نوفمبر ١٤٣٤ بالنسبة للفلفل بأن صار مخصوصا للسلطان « لا يبيعه ولا يشتريه أحد الا هو بالخصوص » وهكذا يمكن اعتبار عام ١٤٣٢/٨٣٥ تاريخ بدء الاحتكار الرسمى الكامل للدولة فى تجارة العبور . كما تقرر قصر التجارة فى التوابل وسلع الشرق على جدة ومنع التجار من حمل تلك السلع الى مكة . وهكذا تركزت عمليات الشراء فى جدة كما تركزت عمليات البيع فى الاسكندرية .

ولم يقتصر الاحتكار على التوابل فقط بل امتد فى السنوات اللاحقة الى سلع شرقية أخرى كثر الطلب عليها مثل أخشاب الصباغة وعود الند والسجاد والبورسلين .

ويتضح الهدف من احتكار تجارة البحر الأحمر وهو الحصول على الأموال من تجارة التوابل بخاصة التى أصبحت تمثل مصدرا رئيسيا لدخل الدولة بعد أن قل الدخل فى القطاعين الزراعى والصناعى . وبلغ الحد الأقصى للاسعار الحكومية بمائة دوكات للحمل الواحد من التوابل الشرقية دون تنزيل تسليم الأسكندرية فى عهد السلطان اينال . وأكد كل من اينال وقايتباى والغورى احتكار التوابل وحاول قايتباى رفع السعر الحكومى الى مائة دوكات ، وكان لابد أن يتأثر هذا السعر الحكومى بالانخفاض الى ثمانين دوكات اثر نجاح البرتغاليين فى الوصول الى الهند وجلب التوابل بطريق رأس الرجاء الصالح وبيعها فى لشبونة بسعر أربعين بل بعشرين منافسة بذلك أسعار الاسكندرية وقاضية بعد ذلك على تجارة مصر والبحر الأحمر وكانت هذه الخاتمة السيئة احدى نتائج الاحتكار التجارى خصوصا اذا علمنا أن الكشف البرتغالى انما استهدف القضاء على مصدر ثراء مصر بحرمانها من احتكار التجارة الشرقية .

وثمة نتيجة هامة أخرى تمخض عنها الاحتكار وهى تأثر التجار الكارمية بالركود ثم زوالهم كطبقة اجتماعية بارزة بعد اصابة نشاطها التجارى . قد كان الظاهر بيبرس قد وضع أسس السياسة التجارية المصرية التى سار عليها سلاطين المماليك من بعده والتى تستهدف المحافظة على مكانة التجار الكارمية الاقتصادية فى البحر الأحمر ومصر وعن طريقهم امتد نفوذ مصر التجارى الى المحيط الهندى . وأدى هؤلاء الكارمية دورهم فى اقامة العلاقات التجارية والصلات الطيبة بين مصر واليمن وتمكنوا هناك من الوصول الى أعلى المناصب . ويرجع ذلك كله الى قيامهم بأهم تجارة عالمية وهى تجارة التوابل وسلع الشرق فى أسواق الهند واليمن والحجاز امتدادا الى أسواق مصر والشام حيث كانت تتم أخطر مراحل رحلة السلعة الشرقية من مراكز انتاجها وأسواقها الأسيوية والمصرية الى المستهلك الأوربى . وقد كونت هؤلاء الكارمية عدة بيوتات حفل تاريخها بالرغبة والاجتهاد فى توطيد مكانتها التجارية واحتلت مكانة الطبقة الوسطى فى المجتمع المصرى فى العصر المملوكى ، وعبر هؤلاء عن كيانهم الاجتماعى بتكوين طائفة خاصة بهم يختارون لهم رئيسا من بينهم يخضع له سائر التجار ، وله فى مصر وفى بلاط السلطان مركز رفيع فضلا عن مكانته المرموقة فى اليمن والحجاز .

وليس من الغريب أن يمثل الكارمية الرأسمالية التجارية التى بلغت درجة عظيمة من الثراء فقد كانت تجارة التوابل والسلع الشرقيـة أهم نشاط لاستثمار الأموال حتى بلغت ثروات بعضهم مليون دينار وربما أضعاف ذلك . وهى أرقام جديدة فى تاريخ رأس المال الفردى .

ولم تكن طائفة الكارمية تعيش بمعزل عن الأحداث السياسية أو بعيدة عن حاجات الدولة والمجتمع وسجل التاريخ لهم خدماتهم المالية وقت الأزمات والحروب ففى عام ١١٨١/٥٧٧ قدم هؤلاء التجار زكاة أربع سنوات الى صلاح الدين بناء على طلبه وعن طيب خاطر ، ولم يكونوا بعد قد استقروا بمصر وذلك لمواجهة الأسطول الصليبى الذى ظهر فى البحر الأحمر مهددا طريق الحج والتجارة . وكان بالاسكندرية عام ٧٢٧/١٣٢٦ـ١٣٢٧ تاجر يعرف بابن رواحه لديه مخازن للسلاح يمكنه أن يجهز منها المائة أو المائتين وقت الخطر وقد أبدى مقدرته لأميرين من المماليك على ضمان الاسكندرية ودفع مرتبات الجند والسلطان والرجال وقت الخطر فاتهمه الأميران بالثورة على السلطان وقتلاه .. وهناك ابراهيم بن عمر نور الدين المحلى الذى أنفق من ماله الخاص فى اعداد قوة عام ٨٠٥ / ١٤٠٢ الى الاسكندرية لمطاردة القراصنة الذين يهددون السواحل دائما . وهذه الأمثلة تدل على استعداد الكارمية لتقديم الأموال والسلاح للمحافظة على مصالحهم الحيوية .

كذلك قدم الكارمية القروض الكبيرة لسلاطين مصر وغيرهم من الحكام وأمراء المماليك فقد اقترض أحدهم السلطان الناصر محمد بن قلاوون مبلغ ١٦ الف دينار كما قدم التاجر الكارمى سراج الدين بن الكويك قرضا الى منسا موسى ملك التكرور والى بعض رجاله عند مرورهم بمصر فى طريقهم الى الحجاز فى موسم الحج ٧٢٤/١٣٢٣ كذلك قدم أحد تجار الشوبك مبلغ ١٠٠,٠٠٠ دينار الى برقوق أثناء اعتقاله بقلعة الكرك ووضع نفسه وماله وأولاده فى خدمة السلطان المخلوع حتى استعاد عرشه .

وتم بعد ذلك اكبر قرض مالى بين تجار الكارم وبين الدولة عام ٧٩٦/١٣٩٦ فقد أقرض ثلاثة منهم المحلى وابن مسلم والخروبى السلطان

برقوق مليون درهم . وقـــد جاء هذا القرض وقت استعداد مصر لملاقاة تيمورلنك كما اقترض السلطان فرج منهم عام ٨٠٣ / ١٤٠٠—١٤٠١ لنفس الغرض أيضا هذا بالاضافة الى أن الكارمية كانوا يمدون الخزانة سنويا بمبلغ كبير من الرسوم الجمركية على بضاعتهم الصادرة والواردة بخلاف ضريبة الزكاة على أموالهم اذا حال عليها الحول .

أما عن خدماتهم فى مجال نشر الثقافة الاسلامية فكانت أجل أثرا ونفعا وتتحدث كتب التراجم عن قيـــام معظمهم ببنـــاء المـــدارس التى تنسب اليهم بالقاهرة والاسكندرية ووقف الأوقاف الـــكبيرة عليها أو الانفاق على الدارسين فيها ، وكذا اشتغال بعضهم بتعليم الحديث والفقه أو نظم المدائح النبوية أو قيـــامهم بالانفـــاق فى عمارة المساجـــد كالحرم المـــكى الشريف ومسجد عمرو بالفسطاط وبناء الخانقـــات ومنهم من كان واسع العطاء للفقهاء والشعراء وسعة البذل والـــكرم للناس والاقراض بدون فائـــدة .

ولم يكن من الغريب أن يعيش هؤلاء التجـــار فى القصور العظيمة فقد روى أن قصر الـــكارمى برهان الدين المحـــلى على شـــاطىء النيل بالقـــاهرة كان أعجوبة عصره فى اتقان البنـــاء وكثرة الرخام والزخرفة . وقيل ان ما أنفقه فى بنـــاء القصر مبلغ ٥٠ الف مثقال ذهب والواقع أن من هؤلاء الكارمية من كان يملك أن يحيط نفسه بمظاهر العظمة والغنى حتى يصبح فى هيئة السلطان تماما .

ورغم هـــذه المـــكانة المـــالية والاقتصادية والاجتماعية التى بلغها الـــكارمية فلم يكن لهم شأن أو نفوذ مماثل فى شئون الحكم والادارة التى انفرد بها النظام الاقطاعى المملوكى العسكرى ، ولم تتمكن من الوصـــول الى الحكم أو محاولة ذلك أو حتى الدفاع عن مصالحها دفاعا مؤثرا عندما أزفت ساعة الخطر واحتكر السلطان تجارتهم .

ومن الغريب أننا لم نسمع عن ثورة أو احتجاج صارخ فى مصر من جانب هذه الطبقة البرجوازية ضـــد قرارات الاحتكار التى تصيب مصدر ثرائهم فى الصميم بل رضخوا رضـــوخا غريبا لارادة الحاكم « حتى أصبح بعض كبارهم مجرد مندوبين للسلطان يكسبون عيشهم فى ركابه » . وكل ما نقرأ عنهم هو محاولة تحدي هذه القرارات سواء بنقل التوابل الى الشام

دون مصر أو الاتفاق مع تجار الفرنج فى الاسكندرية، ولم تكن عيون الدولة غافلة عن مثل هذه المحاولات اليائسة ومن يساعدهم فى ذلك من الموظفين المرتشين وضيق عليهم الخناق فصار التاجر يغيب سنة فما فوقها ويحضر فلا يستطيع أن يبيع حملا واحدا من بضاعته ولا يجد من يشتريه وعنده ما يساوى عشرة آلاف ومعنى هذا أن طبقة الكارمية قد أخذت فى الانكماش فى مجالات استثمار أموالهم وأسواقهم فهجر بعضهم من مصر الى البحر الأحمر وخاصة الحجاز حيث قاموا بتجارة متواضعة وحيث أمكنهم أن يقوموا ببعض المقاومة عامى ٨٥٠ ، ١٤٤٦/٨٥١ ، ١٤٤٧ فكان يقتص منهم بالضرب أو الحبس . ولم يظهر أحد منهم فى الأسواق فى عام ٨٥٩ / ١٤٥٥ ولم تذكر المصادر عنهم شيئا منذ عام ١٤٨٤/٨٨٩ .

وهكذا قضى الاحتكار على هذه الطبقةالتى تمثل الرأسمالية التجارية التى كان فى قدرتها اعانة الدولة ماديا على مواجهة الأخطار الخارجية. افلم يجد السلطان قايتباى عام ٨٩٢ / ١٤٨٧ من أعيان التجار فى السوق المصرية قدرات التجار الكارمية فقد احتاج الى ٤٠ الف دينار استعدادا للحملة ضد العثمانيين ؟ فضج التجار من هذا القدر وأظهروا العجز عنه ولم يقدموا سوى اثنى عشر الفا .

والخلاصة : أنه كان فى وسع تجار الكارمية تجار البحر الأحمر أن يمدوا الدولة ماديا ومعنويا للدفاع عن مصالحهم المشتركة للدفاع ضد الخطر البرتغالى الذى أحدق بالتجارة الشرقية وقطع طريق البحر الأحمر مثل ما أمده فى مناسبات سابقة .

وانهى الاحتكار دور البرجوازية المصرية الفعالة كظهير قوى للاقطاع العسكرى المهلهل الذى وقف وحيدا فى المعركة الاقتصادية ضد البرتغاليين وفى المعركة العسكرية ضد العثمانيين وكانت النتيجة النهائية المحتومة .

مصادر البحث

١ — **الأسدى** : التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار
مخطوط دار الكتب رقم ٤٥٨٦ .

٢ — **ابن اياس** : بدائع الزهور فى وقائع الدهور
جا — ٣ مصر ١٣١١—١٣١٢ و جـ٤ استامبول ١٩٣١ .

٣ — **الجزرى** : الدرر الفرائد المنظمة فىأخبار الحج وطريقمكة المعظمة
مخطوط مكتبة تيمور ٦٢٩ تاريخ

٤ — **ابن حجر** : انبـاء الغمر بأبناء العمر
مخطوط دار الكتب رقم ٢٤٧٦

٥ — **الخزرجى** : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية
مصر ١٩١١

٦ — **ابن الديبع** : قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون
مخطوط دار الكتب ٢٢٤ تاريخ

بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد
مخطوط دار الكتب ١١ م تاريخ

٧ — **سليمان عطية** : سياسة المماليك فى البحر الأحمر حتى نهاية
عصر برسباى
رسالة دكتوراه — جامعة القاهرة

٨ — **سونيا. ى. هاو** : فى طلب التوابل (مترجم)
القاهرة ١٩٥٧

٩ — **ابن شاهين** : زبده كشف المماليك
باريس ١٨٩٤

١٠ — **صبحى لبيب** : التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور
الوسطى
مجلة الجمعية التاريخية ١٩٥٢

١١ — **الصيرفى** : نزهة النفوس والأبدان فى تاريخ الزمان
مخطوطه دار الكتب رقم ١١٦م

١٢ — **الفاسى** : العقد الثمين فى أخبار البلد الأمين
مخطوطه مكتبة تيمور رقم ٨٤٩

١٣ — **القلقشــندى** : صبح الأعشى فى صناعة الانشا
القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٩.

١٤ — **أبو المحاسن** : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة
أجزاء ٥—٧ كاليفورنيا ١٩١٥ — ١٩٣٥

حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور
مخطوطه دار الكتب رقم ٢٣٩٧ تاريخ

المنهل الصــافى والمستوفى بعد الوافى

مخطوطه دار الكتب رقم ١١١٣ تاريخ

١٥ — **المقــريزى** : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار
بولاق مصر ١٢٧٠ هـ

١٦ — **نعيم زكى** : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغــرب
فى أواخر العصر

رسالة دكتوراه — جامعة القاهرة

17 .. Darrag, L'Egypte Sous Le Regne de Barsbay, Damas 1961.

18 — Depping, Histoire du Commerce, Paris, 1830.

19 — Heyd, Histoire du Commerce, Leipzig, 1925.

20 — Jomier, Le Mahmal et la Caravane Egyptienne, Le Caire, 1935.

21 — Kammerer, La Mer Rouge, Le Caire, 1929 - 1935.

22 — Piloti, L'Egypie au Commencement du XV Siecle, Le Caire, 1950.

٩

مصر وأسطورة البحر الأحمر

للدكتور أحمد رمضان أحمد
كلية الآداب ــ جامعة عين شمس

ان موضوع بحث « مصر وأسطورة البحر الأحمر » لا ينحصر بين سنوات فترة بعينها ، وانما جاء معبرا عن موضوع حضارى ربط برباط أسطورى فرأب فى نسيج متآلف الخيوط بين شقين أو طرفين هما مصر والبحر الأحمر ، وحصر بين سداته ولحماته معتقد وفكر أقوام شتى حظى لديهم البحر الأحمر بالاهتمام لأسباب اقتصادية وسياسية .

ومن هــذا المنطلق نســتطيع القول أنه اذا كانت مصر ـــ أرض الكنانة ـــ ترمز لبقعة يعيش عليها مجتمع بشرى متجدد ومتحضر بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فان البحر الأحمر قد أضاف للمجتمع المصرى أسلوبا فكريا مهد السبيل لانتهاج هــذا المجتمع المسلك الحضارى فى حيــاته الاقتصادية والسياسية تبعا لمعتقداته وتطوراتها . واذا كنت قد سلكت فى هــذا البحث مسلك الحر الطليق دون التقيد بحدى تاريخ زمنى قديم كان أو وسيط أو حديث ، فلأننى قصدت بمنهجى هــذا أن أتلمس الموضــوع الحضارى من وجهة النظر الاسلامية ، فالزمن أو الدهر كل لا يجوز له أن يتجزأ ، فضلا عن أن هــذا الموضوع تبعا لمضمونه ، هو مجموع خبرات تناقلها المحدثون عن الأقدمين .

واذا كانت الحقيقة ـــ على نسبيتها ـــ مدارك على العقل خوض غمارها ، فان العلاقة بين مصر والبحر الأحمر اثبتتها الطبيعة فى غيبــة من العقل البشرى ـــ بالضرورة ـــ ذلك أن مصر تطل على البحر الأحمر من جهة الشرق مثلما تشرف على البحر المتوسط من الشمال . وســبيلنا الآن هو توخى المقارنة ـــ كلما أمكن ذلك ـــ بين هذين البحرين لاثبــات

جدارة أحدهما وانفراده بخصائص تجعله يحظى بضمه ومصر تحت عنوان واحد ، وأن يكون موضوعا لأسطورة لعبت دورها فى حياة مصر التجارية والحربية والسياسية .

ان الناظر لطبيعة البحر الأحمر يجدها تختلف عن البحـــر المتوسط لمـــا يحتويه من صخور وما به من تيارات بحرية ، وما يهب عليه من رياح وأعاصير ، الأمر الذى شد اهتمام المصادر الاسلامية وكتب الرحالة فنقلوا ما وصل تحت أيديهم من معلومات عنه ودونوا مشاهداتهم أثناء ابحارهم فيه فأوردوا من حيث لا يشعرون ، أسطورة تنال من البعض السخرية والاستهجان وتنال من البعض الآخر كل الاهتمام .

ولعلنا نصدق حينما نقول أن البحر الأحمر من أقدم البحار التى لعبت دورا سياسيا وتجاريا فى تاريخ البشرية ، فالتسميات المختلفة التى أطلقت عليه مثل البحر الفرعونى (١) والبحر الحبشى وبحـــر العرب (٢) وبحـــر

---

(١) فى عهد الملك رمسيس الثانى استولى الأسطول المصرى على سواحل البحرين الأبيض والأحمر ، كما اشتبك فى معارك حاســـمة فى أسطول الشعوب الهندية

Champllion - Figeae L'Egypte Ancienne. p. 168.

التى كانت كثيرا ماتنتهك حرمة شـــواطىء مصر الشرقيـــة والجنوبيـــة . فقد خرج رمسيس الـــثانى فى أســـطول قوامه (٤٠٠) سفينة حربيـــة وبدأ بالاستيلاء على بلاد الحبشـــة ثم أبحر من البحر الأحمر الى الخليج الفارسى بعـــد أن هزم الشـــعوب التى كانت تقطن جزر البحر الأحمر وسواحله ، حتى وصل الى منطقة الجـــانج Gange بالهنـــد ، حيث اشتبك مع السفن الهندية

(Janthier : Précis de L'histoire d'Egypt II. p. 182)

وقـــد ذكر الاستاذ فارير (Farrère) فى كتـــابه (Navires. p. 129) وصفا دقيقا لهذه المعركة جاء فيه : « قـــد اشتبك الأسطول المصرى مع السفن الهندية ورمى المصريون الحبال المزودة بالخطافات والسنار على مراكب العـــدو لجذبها اليهم » . كما سجلت نقوش الدير البحرى قصـــة البعثة التجارية التى أوفدتها الملكة حتشبسوت الى بلاد بونت . وقد ذكر بعض المؤرخين (برستد : نصـــوص مصرية قـــديمة ج٢ فقرة (٢٥٧) ، عبد المنعم أبو بكر : المجمل فى التاريخ المصرى ص ٥٢) أن عـــدد سفن الأسطول بلغ خمسة مراكب وعليها مائتان وخمسون بحارا « وقد جاءفى ترجمة النص أن الملكة حتشبسوت عهدت الى رئيس ماليتهـــا (نحسى)

=

القلزم (٣) ثم البحر الأحمر ، تبين اهتمام الدول والشعوب به الى جانب كونها رمزا لتتابع الزمن . ومن أجل هذا واكبت الأسطورة تاريخ البحر الأحمر .

= (Maspero : De qnelqnes Nevigation de Egyptiens aur les cóles de la mar. p. 213.

قيادة تلك البعثةوزودته بالأدوات اللازمة والهدايا من المحاصيل والصناعات المصرية » ويقول النص : « ان الملكة قدمت القرابين الى معبودات الهواء ليتفضلن على أسطول الملكة بالرياح الطيبة فى أثناء رحلته . ولما وصلت السفن الى بلاد بونت خف ملكها لاستقبال قائدها تتبعه زوجته البدينة، وأطفالها الثلاثة قائلا لهم (لم أتيتم الى هذه الأرض التى جهلها من سبقكم من المصريين ؟ هل نزلتم من السماء أو ركبتم السفن فى البحر الموصل الى الأرض المقدسة (الصومال) ؟ « وقد سر سرورا عظيما بالهدايا المصرية وأمر بربط السفن قريبا من الشاطىء ثم أنزلت المرات الخشبية وأفرغت محتوياتها ثم شحنت بحاصلات الصومال مثل الأخشاب العطرية وأخشاب المر والعاج والابنوس والكحل فضلا عن القردة والكلاب وجلود الحيوانات المفترسة مثل النمور وبعض أهالى الصومال وأولادهم من العبيد

(Maspero : Histoire ancienne de peuples de l'orient. p. 232).

ومن الأعمال المجيدة للملكة حتشبسوت فى سبيل تسهيل مهمة الأسطول التجارى حفرها قناة وادى الطميلات . وقد خصص فى العهد الفرعونى ادارة ودواوين للاسطول التجارى مثله مثل الأسطول الحربى للرقابة والادارة وكانت موزعة على موانىء البحر الأحمر خاصة . فقد ورد فى النقوش اسم رئيس حسابات السفن التى أرسلها الملك بيبى الثانى الى بلاد بونت وكان اسمه (بيبى ثخت) (سليم حسن : مصر القديمة جـ٢ ص٢٨) . هذا بالاضافة الى حاملى الأختام المقدسة الذين كانوا يصحبون البعثات البحرية كما كان يلزمها كاتب من ادارة التيـودات ، وفى بعض الأحيان كان يصحب البعثة بعض القضاة وتجريدة عسكرية لحمايتهاوفض مشاكلها التى تنشأ أثناء رحلتها .

(Kester : Scejahrten der Alten Agypten. p. 165).

= (٢) ومن قوى البحر الأحمر التى كان لها أثرها البالغ على ضعف خطوط الرومان البحرية فى القرن الثالث الميلادى ، اتحاد دول جنوب غرب شبه الجزيرة العربية ، فقد كون الحميريون من مملكة سبأ وغيرها من الدويلات المجاورة دولة موحدة ، وفى الجانب الآخر من البحر الأحمر أخذت مملكة أكسيوم تزداد قوة وتزدهر اقتصاديا فظهرت كمنافس ليس بالهين أمره .

(٣) يلاحظ من التسميات التى أطلقت على البحر الأحمر أن مصر قد حظيت بضمه اليها فى العهد الفرعونى فكان اسمه البحر الفرعونى ، وفى العصر الاسلامى فكان اسمه بحر القلزم (السويس) .

ومما لا شك فيه أن البحر الأحمر كان يشكل عقبة كأودا للبحـــارة وراكبيه على وجه العموم ، مما ساعد على نسج نسيج أسود رمزا للخوف الشديد من الصخور المغناطيسية التى تجذب السفن المثبتة بالحديد الى حتفها . ولعل أول من كتب عن هـــذه الصخور المغناطيسية الكاتب الهندى القـــديم بهـــوجا (Bhoja) الذى تناولها وأسهب فى بحثها باللغـــة السنسكريتية (٤) .

وشاعت هـــذه الأسطورة فى العالم اليونانى الرومانى ، فلم يختص بها أهل الهند فحسب بل ذكرها بروكوبيوس (Procopius) لكنه دحضها وأبان خطأها بأسلوب علمى ومنطقى ، ذلك أن السفن اليونانية والرومانية كانت تبحر فى البحر الأحمر وكانت بها مسامير وقطع أخرى من الحديد ، ومع ذلك لم يصبها أى أذى . وبرغم هـــذا استمر تواتر هذه الأسطورة فى العالم الاسلامى ، فأوردها القزوينى (٥) (ق ٧هـ / ١٣م) فقـــال : « ان السبب هو خوف الملاحين من جبال المغناطيس ، وهى جبال كبـــيرة قد علا المـــاء عليها ، فلهذا لا تستعمل المسامير فى البحر الأحمر خوفا من جذب جبال المغناطيس لها » . كما وصف الرحالة الايطالى ماركوبولو (٦) (ق ٧هـ / ١٣م) سفن المحيط الهندى ، والبحر الأحمر وصفا مسهبا جاء فيه أن المراكب التى تستعمل فى هرمز والبحر الأحمر من أســـوأ صنف ومعرضة من يركبها للمهالك ، ومرجع ذلك انه لا يمكن استعمال المسامير فى بنائها ، وقد قال بمثل هـــذا النويرى فى القرن (٨ هـ / ١٤ م).

ثم تنحو أسطورتنا ناحية الواقع التجريبى فيذكر فريق آخـــر من مؤرخى المسلمين أن من مميزات البحر الأحمـــر احتـــوائه على الشعب المرجانية التى تعترضه ، فكانت المراكب والسفن التى تبحر فيـــه ذات مواصفات خاصة لا توجد فى سفن البحر المتوسط . وجاء ابن جبير (٨)

---

(٤) جو رج فاضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهنـــدى ص ٢٥٥ (معرب) .

(٥) القزوينى : عجائب المخلوقات ص ٢٣١ .

(٦) آدم متز : حضارة العرب ص ١٥٩ (مترجم) .

(٧) النويرى : الالمـــام بما جرت به الأحكام والأمور المرعيـــة فى موقعة الاسكندرية ص ٢٥٤ .

(٨) ابن جبير : الرحلة ص ٦٥ــ٧٣ .

(ق ٦/ ١٢ م) بوصف دقيق لسفن البحر الأحمر قال فيه : « أن الجلاب (٩) التي يعرفونها في هذا البحر الفرعوني (الأحمر) ملفقة الانشاء لا يستعمل فيها مسمار البتة ، انما هي مخيطة بأمراس من القنبار (١٠) ، فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها » .

ثم يعود ابن جبير ليوضح السبب في استعمال الخيط والدهن فيقول : « ومقصدهم من دهان الجلبة هو أن يلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر ولذلك لايعرفون المركب المسماري » . وأيد هذا الرأي الادريسي (٦هـ / ١٢م) ، وابن بطوطة (٨هـ / ١٤م) وأبانوا السبب في استعمال السفن المخيطة دون المسماري ، فقالا ان هياكل السفن المخيطة تكون مرنة ، فاذا اصطدمت بشعاب المرجان في البحر الأحمر أو الهندى كانت أقل تعرضا للكسر من المراكب المصنوعة بالمسامير . كما أنها تستطيع أنترسو على الشواطىء الرملية أو الصخرية الصعبة مثل شاطىء مالايا وكورناندل بالهند .

ثم يأتي فريق ثالث من المؤرخين المسلمين فيزعم أن مياه البحر الأحمر أكثر ملوحة من غيره ، ومن ثم لم يستعمل فيه السفن المسماري بل استعملت المخيطة فقط ومن هؤلاء المسعودى (١٢) (٤هـ / ١٠م) الذى

---

(٩) الجلاب جمع جلبة وهي نوع منالسفن الصغيرة المخيطةتستعمل فى البحر الأحمر يقول ابن بطوطة فى كتابه : الرحلة (جـ٥ ص ١٦٣) : « ثم ركبنا البحر من جدة فى مركب يسمونه الجلبة وركب الشريف بن أبى نمى فى جلبة أخرى ورغب منى أن أكون معه ، فلم أفعل ، لكونه كان معه فى جلبته الجمال فخفت من ذلك ، ولم أكن ركبت البحر قبلها . وكان هناك جملة من أهل اليمن قد جعلوا زوادهم وامتعتهم فى الجلب وهم متأهبون للسفر » .
انظر سعاد ماهر : البحرية الاسلامية ص ٣٣٨ .

(١٠) هو قشر جوز النراجيل يدرسونه الى أن يتخيط ، ويفتلونمنه أمراسا يخيطون بها المراكب ويخللونها بدرس من عيدان النخيل .وطريقة صنعه فى حفر على الساحل ، ثم يضربونه بالمرازب ، ثم تغزله النساء وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب . (ابن بطوطة: الرحلة جـ٤ ص١٢١)

(١١) الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص ٦٤ .

(١٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٥ .

قال : « ان استعمال الخيوط بدلا من المسامير فى تثبيت الألواح ، لايكون الا فى البحر الحبشى (الأحمر) لأن مراكب البحر الرومى والعربى ، كلها ذوات مسامير . ومراكب الحبشى لايثبت فيها مسامير الحديد لأن ماء البحر يذيب الحديد فترق المسامير فى البحر فتضعف ، فاتخذ أهلها الخياطة بالليف بدلا منها وطليت بالنورة » (١٣) .

يفهم من أقوال المسعودى أن البحر الأحمر يختلف فى درجة ملوحته وغيرها من الخصائص الكيميائية عن البحر المتوسط ، غير أنه قد ثبت بالبحث المعملى أن البحرين المتوسط والأحمر لايختلفان فى درجة الملوحة أو غيرها من الخواص الكيميائية الا بنسبة ضئيلة جدا تكاد لاتذكر (١٤) .

ويبدو أن السبب فى انتحال هذه الخواص والمميزات غير الصحيحة للبحر الأحمر هو صعوبة الملاحة فيه والتى استمرت حتى العصر العثمانى ، رغم تقدم وتطور أساليب الملاحة البحرية ، فقد روى أسير من أهالى البندقية كان مرافقا للحملة العثمانية التى قادها سليمان باشا الخادم والى مصر فى سنة ١٥٣٩ (١٥) الى بحر الهند لتأديب البرتغال . فقد وصف الأسير المخاطر التى تعترض الملاحة فى البحر الأحمر فقال : « ان الصخور التى فى الممر الواقع بين شواطىء بلاد العرب وسلسلة الصخور كثيرة بحيث يستحيل على أى ملاح مهما كان مدربا أن يعرفها جميعا ، ولذلك كان القلاوز (١٦) يجلس عند البروة (١٧) ويصيح على الدوام قائلا : « اوسه وبوجى » (١٨) . ويصف الأدريسى هذه الصعوبة فيقول :

---

(١٣) النورة : الحجر الذى يحرق ويسوى منه الكلس (لسان العرب) .

(١٤) Johnstone. J : Introduction to Oceanography. p. 137. Moreland (W. H) : The ships of Arabian Sea about. 1566.

(١٥) La gravière : Doria et Borba

(١٦) القلاوز : هو الدليل أو المرشد الذى يعرف عند الأوربيين باسم (Pilot) ويكون الدليل عادة من العارفين بفنون الملاحة وتسيير السفن وتأثير الرياح ومجارى المياه والتيارات والعلوم الفلكية (Anderson : The sailing ships. p. 34)

(١٧) البروة : مقدم السفينة .

(١٨) اوسه وبوجى : أى وضع السفينة فوق الريح أو تحته .

« وكانت مراكب أهل سيراف اذا وصلت من بحر الهند الى جدة أقامت بها ، ونقل مافيها من الأمتعة التى تحمل الى مصر فى مراكب القلزم ، اذ كان لايتهيأ لمراكب السيرافيين سلوك ذلك البحر لصعوبته ، وكثرةجباله النابتة فيه ، وانه لا ملوك فى شيء من سواحله ولا عمارة ، وان المركب اذا سلكه احتاج فى كل ليلة الى أن يطلب موضعا يستكن فيه خوفا من جباله فيسير النهار ويقيم الليل » . ثم يقارن الأدريسى البحر الأحمر بغيره من البحار القريبة منه فيقول : « وهو بحر مظلم كريه الروائح لا خير فى بطنه ولا ظهره وليس كبحر الهند والصين الذى فى بطنه اللؤلؤ والعنبر وفى جباله الجوهر والمعادن والذهب (١٩) .

وقد وصف صعوبة الابحار والملاحة فى البحر الأحمر ، كل منتعرض لها من المسافرين والرحالة فقد تحدث ابن جبير (٢٠) فى ذلك فقال : « وكانت أهوال شتى عصمنا الله منها بفضله وكرمه ، منها ما كان يطرأ من ضعف عدة المراكب واختلالها واقتصامها المرة بعد المرة عند رفع الشراع أو حطه أو جذب مرسى من مراسيه ، وربما سحبت الجلبة من أسفلهاعلى شعب من تلك الشعاب أثناء تخللها فتسمح لها هدء يؤذن باليأس فكنا نموت ونحيا مرارا » . كذلك حدثنا ابن بطوطة (٢١) عن صعوبة الملاحة فى البحر (أى الأحمر) لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره ، وانما يسافرون من طلوع الشمس الى غروبها ، ويرسون وينزلون الى البر ، فاذا كان الصباح صعدوا الى المركب وهم يسمون رئيس المركب الربان ولا يزال أبدا فى مقدم المركب ينبه صاحب السكان على الأحجار ، وهم يسمونها النبات » .

وازاء هذه الأخطار الجسيمة التى تعترض الملاحة فى البحر الأحمر نتيجة لكثرة الصخور والشعاب المرجانية وما به من تيارات بحرية وما يهب عليه من رياح وأعاصير ، فقد تطلب هذا أن تكون السفن والمراكب التى تسير فيه ذات مواصفات خاصة تساعدها على التغلب على تلك الصعاب لذلك فقد احتاجت سفن البحر الأحمر والمحيط الهندى الى أنواع

---

(١٩) الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص ٦٤ــ٦٥ .
(٢٠) ابن جبير : الرحلة ص ٧٥ .
(٢١) ابن بطوطة : الرحلة جـ ٥ ص ١٧٣ .

خاصـــة من الخشـــب يمتـــاز بمتانتـــه وصـــلابته حتى تستطيع مقاومته؛ وتحمل العوامل والتأثيرات الجوية والبحرية القاسية . فقد كانت الواح الهياكل تصنع من خشب الساج (٢٢) أو خشب جوز الهنـــد ، فهو أنفس أنواع الخشب المعروفة جميعا ، وهو شديد الاحتمال فمتى تم اعداده لم ينشق أو يتشقق أو يتغير شكله ، واذا اتصل بالحديد لم يكن فى هـــذا الاتصال خير له أو للحديد ، كما أنه ليس شـــديد الصـــلابة ولذا يسهل استعماله ، وله مرونة وقوة احتمال عظيمتان . ويتحدث ابن جبير (٢٣) عن مورد خشب الساج فيقول : « ان خشب بنـــاء السفن فى عيذاب كان يجلب من الهند واليمن » ، وخشب الساج ينمو بكثر فى جنوب الهند وفى بورما وسيام وأندونيسيا .

وقد تناول المسعودى (٢٤) الأخشاب التى تصنع منها ســـفن البحر الأحمر بالبحث والدراسة فقال : « ان سفن البحر الأحمر والمحيطالهندى كانت تبنى من الساج لأنه لايكاد يمتنع عن البلا اذا كان فى ماء البحر ، فهو يبقى أكثر من مائتى سنة اذا ظل فى الماء ، فاذا خرج منه كان أسرع الى التلف وان لم يتطرق اليه الا بعد حين » .

كذلك استوجبت طبيعة البحر الأحمر أن تكون سفنه ومراكبهمخيطة لايستعمل فيها المسمار أو الحديد وفى ذلك يقول ابن الأثير : (٢٥) « انهم من عادتهم (أى المصريين) اذا رأوا الغـــزو فى هـــذا البحر (الأحمر) يفصلون أجزاء المراكب والسفن فى دور الصناعة فى مصر ويحملونها على الجمال الى الطور الى ساحل بحر القلزم ، فاذا وصلوا سمروها وأكلموا انشاءها وتأليفها ورفعوها فى البحر وركبوها » . وقـــد فعل ذلك ارناط صاحب الـــكرك الصليبى سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م الذى قرر القيامبمشروع خطير استهدف به تحقيق ســـيادة الصليبيين على البحر الأحمر ، وطعن الاسلام فى قلبه بغزو الحرمين (٢٦) ، فبدأ بالاستيلاء على أيلة ، ثم شرع

---

(٢٢) الساج : (Teak) دائرة المعارف البريطانية مادة (ساج)
(٢٣) ابن جبير : الرحلة ص ٧٦ .
(٢٤) المسعودى : مروج الذهب ص ١٨٩ .
(٢٥) ابن الأثير : الكامل ص ١٣٩ .
(٢٦) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص٧٨٤ .

فى بنــاء عدة سفن حملت أجزاؤها مفككة على ظهور الجمال حتى خليج العقبة حيث ركبت ، وأركب فيهــا الرجال ، وأوقف منهــا مركبين على حرزة (٢٧) قلعة القلزم لمنع أهلها من استقاء المــاء ، وسارت البقية نحو ميناء عيذاب فى مواجهة جدة وهناك نهب الصليبيون بضعة سفن تجارية وافــدة من جــدة واليمن وعــدن والهند بلغت نحــو ستة عشر مركبا للمسلمين (٢٨) . ثم استخدم الصليبيون سفنهم المؤلفة فى نقل نشــاطهم الهدام الى الشاطىء المقابل (شاطىء الحجاز) ليهاجموا الحرمين (٢٩)

(٢٧) حرزة : جمعها حرز ، جاءت فى معجم اللغــة بمعنى الصخر البارز فى المــاء .

(٢٨) ويقول فى ذلك المقريزى فى كتــابه السـلوك جا ص٧٩ : « فقتلوا وأسروا وأحرقوا فى بحر القلزم نحو ستة عشر مركبا وأخــذوا بعيذاب مركبا يأتى بالحجاج من جدة ، وأخذوا فى الأسر قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب وقتلوا الجميع . وأخــذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن وأخذوا حنطة كثيرة من السناحل كانت معدة لميرة الحرمين وأحدثوا حوادث لم يسمع الاسلام بمثلها » .

(٢٩) ويقول المقريزى فى السلوك ج٢ ص ٨٥،٨٦ : « وتوجه فرنج الشوبك والــكرك نحو مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم لينبشوا قبره عليه السلام وينقلوا جسده الشريف الى بلادهم ويدفنوه عندهم ولا يمكنوا المسلمين من زيارته الا بجعل . وكان السلطان صلاح الدين على حران فلما بلغه ذلك بعث الى سيف الدولة ابن منقذ نائبه على مصر يأمره بتجهيز الحاجب لؤلؤ (هو الأمير حسام الدين لؤلؤ الحاجب ، أرمنى الأصل وكان من جملة أجناد مصر فى زمن الفاطميين ، فلما تولى صــلاح الدين على مصر جعله مقدما للاسطول ، وكان حيثما توجه فتح وانتصر وغنم) خلف العدو ، فاستعد لذلك وأخذ معه قيودا وسار فى طلبهم الى القلزم وعمر هنــاك المراكب وسار الى ايلة فوجد مراكب الفرنج ، فحرقها وأسر من فيها وسار الى عيذاب وتبع الفــرنج حتى أدركهم ولم يبق بينهم وبين المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم الا مسافة يوم ، وكانوا ثلثماية ونيفا .

وفى رسالة للقاضى الفاضل أوردها أبو شامة وابن واصل ، ذكر فيها أن الصليبيين استهدفوا من وراء تلك العملية الحربية تحقيق هدفين خطيرين أولهما قطع طريق الحج وتهديد الحرمين ، وثانيهما أن الصليبيين كانوا يزمعون الاستيلاء على عدن جنوب البحر الأحمر لأخذ تجارة اليمن وأكارم عدن ، وبذلك يتمكنون بفضل السيطرة على ايلة فى الشمال وعدن فى الجنوب من اغلاق البحر الأحمر فى وجه أعدائهم ، واحتكار تجــارة الشرق الأقصى والمحيط الهندى .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٦،٢٧ ، ابن واصل : مفرج الــكروب ج٢ ص١٣٠ .

انظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص٧٨٧ .

الشريفين .

وقد ذكر البحاران العربيان سليمان التاجر وابو زيد حسن (٣٠) : « أن الخشب المخرز لا يكون الا فى مراكب سيراف ، ومراكب الشام والروم مسمورة غير مخروزة » . ويصف ماركو بولو سفن البحر الأحمر (٣١) « أن المراكب كانت تثقب الواحها قرب أطرافها بأقصى مايمكن من العناية بمثقاب من الحديد ، ثم توضع فى الثقوب مسامير خشب تصل بعضها ببعض بنوع من الليف يصنع من قشر جوز النراجيل ، ولا يطلى بعد ذلك بالقار بل بزيت يتخذ من دهن الحوت » .

وبرغم صعوبة الملاحة فى البحر الأحمر الا أن طريقة بناء السفن الخاصة به كانت بسيطة غير معقدة ، فقد كان هيكل السفن يثبت بعضه الى بعض على أبسط صورة ، فقد كان الهراب (٣٢) يوضع على الأرض أولا ثم تربط اليل الواح أفقية على كلا الجانبين بخيوط من الليف وتشد هذه الألواح بعضها الى بعض بهذه الخيوط أيضا . وكانت الخيوط تغرز خلال ثقوب تثقب على أبعاد معينة قرب أطراف الألواح المتجاورة (٣٣) .

ويقول ابن بطوطة (٣٤) : « أن سفن البحر الأحمر كانت تخاط

---

(٣٠) سلسلة التواريخ ص ١٥٧ (طبعة باريس سنة ١٨١١م) .
سليمان التاجر من الرحالة المسلمين العرب زار الهند والصين عدة مرات ووصف سياحته فى الهند سنة ٢٣٧هـ / ٨٥١م ولهذا الوصف ذيل وضعه فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى مؤلف من سيراف اسمه أبو زيد حسن اعتمد فيه على ماسمعه من قصص الرحالة والتجار فى بحار الصين . وقد طبعت « رحلة سليمان التاجر » أو «سلسلة التواريخ» سنة ١٨١١م على يد المستشرق لانجلس (Langlès) ثم نشرها المستشرق رينو (Reinaud) مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٤٥م ، وقد ترجمها سنة ١٩٢٢م الى الفرنسية المستشرق فران (Ferrand) فى مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية الخاصة بالشرق الأقصى . (زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٢٣) .

(٣١) Gule (H) : The book of Ser Marco Polo, The Venetian, I. p. 111.

(٣٢) الهراب : يتكون الهيكل من الهراب (Keel) والضلوع (Ribs)

(٣٣) Cecil Torr : Ancient ships. p. 34.

(٣٤) ابن بطوطة : الرحلة جـ٥ ص١٨١ .

بحبال الليف وهى من صنع أهل عيذاب ، اذ ليس لأهلها حرفة للتعيش الا تعمير سفن الحجاج يسمونها (الجلبات) واحداها (جلبة) وهى ملفقة الانشاء ولا يستعملون فيهــا المســامير وانما يخيطون الخشـــب بالليف ويضعون خلالها دسرا من عيدان النخل ثم يطلونها بالشحوم والنورة » .

واعطانا الادريسى (٣٥) وصفا دقيقا لطريقة تصنيع الدهــون التى تلقط بها الدسر فقال : « كانت الألواح تسد بمزيج من الراتنج ودهـــن الحوت . وذكر الربانيون أنهم يتصيدون ما صغر منها فيطبخونهـــا فى القدور فيذوب جميع لحمها ويعود شحما مذابا ، وهـــذا الدهن مشهور ببلاد اليمن فى عدن وغيرها من المدن الساحلية ، وفى بلاد فارس وساحل عمان وبحر الهند والصين ، وهو عمدتهم فى سد خروق المراكب ، وكان الغرض من هذا أيضا حماية القاع من دودة السفن » .

كما تنفرد سفن البحر الأحمر بعـــدم احتوائهـــا على (ظهر) فهى مفتوحة ويتدفق اليها الماء ، فترى رجالها فى معظم الأحيـــان يقفون فى بركة من الماء يقذفونه فى البحر (٣٦) . وبعد الانتهاء من صـــناعة هراب السفينة يعلقون حول المراكب من الخارج الجلود أو اللبود المبلولة بالخل أو المــاء والشب والنطرون أو الخطمى المعجون بالخل وذلك بالنســـبة للسفن الحربية فان هذه المواد تستطيع مقاومة فعل النفط (٣٧) .

برغم العرض السالف لتواتر تلك الأســـطورة التى استمرت حتى أيام الرحالة والجغرافيين المسلمين وغـــير المسلمين ، الا أن اثر هـــذه الأسطورة على مصر من النواحى التى تقتضيها الملاحـــة فيه واقصـــد الناحيتين التجـــارية والحربيـــة مازال محتاجا لتـــأكيد العـــلاقة بين البحر الأحمر ومصر فى العصر الاسلامى خاصة وليتكشف لنـــا ضرورة التصدى لماهية هذه الأسطورة وأصولها من ناحية ، وعلاقتها كأسطورة

---

(٣٥) الادريسى : نزهة المشتاق ص ٦٥ .

(٣٦) جورج فاضلو حورانى : العرب والملاحة ص٢٥٩ (مترجم) .

(٣٧) ويضيف (Moreland : The ships of Arabian Sea. p. 193) قائلا ان بحارة البحر الأحمر كانوا يتوخون الحذر أثنـــاء الحروب فاذا جن الليل لايشعلون فى مراكبهم نارا ولا يتركون فيها ديكا ، واذا أرادوا المبالغة فى الاختفاء اسدلوا على المراكب قلوعا زرقاء كيلا تظهر من بعد .

قديمة بعرب شبه الجزيرة الذين خضعوا لتأثيرها فى جاهليتهم ، ثم بالفكر الاسلامى الذى اعتنقته مصر بعد الفتح الاسلامى من ناحية أخرى .

ويقول أرشيبالد لويس ان العرب كانوا أهـــل بر وبداوة ، وأنهم كانوا فى أول أمرهم غير مستعدين ولا راغبين فى مواجهة البحر ذلك أن الـــكلمات العربية التى كانت مستخدمة فى الاصطلاحات البحرية والملاحية استعيرت كلها من اليونانية ، وبعضها كانت كلمات برية أعطيت معـــانى بحرية وملاحية جديدة (٣٨) . ويلاحظ تجنب العرب للبحر عند اختيارهم لعواصم الولايات الاسلامية المفتوحة ، فبينمـــا ظلت مصر لعشرة قرون يحكمها اليونان والرومان من الاسكندرية ، وسورية من أنطاكية ، نجـــد العرب يؤسسون مدينة الفسطاط عاصـــمة لهم فى مصر ، ودمشق فى سورية ، وكلا البلدين بعيد عن البحر (٣٩) . ومهما يكن من قول أرشيبالد لويس فان اختيـــار العرب لحواضر أمصـــارهم فى أماكن مختلفـــة عن ســـابقيهم انما يرجع الى أن البيزنطيين كانوا يعتبرون البحر المتوســـط بحيرة بيزنطية وشريان الاتصال الحيوى بين بيزنطة وولاياتهم المطلة عليه ، أما العرب فقد حرصوا على أن تكون حواضر ولاياتهم قريبـــة نسبيا من المدينـــة المنورة وبعيـــدة عن البحـــر المتوســـط حتى لاتتهددها غارات البيزنطيين .

الوضع يختلف بالنسبة للبحر الأحمر فقد بات معروفا أنه قد فقـــد أهميته الحربيـــة فى أوائل العصر الاسلامى ، الا أنه أضحى شريانا هاما للموصـــلات بين عاصمة الخـــلافة الاسلامية فى المدينة المنورة وبين باقى ولايات الدولة الاسلامية فى بلاد الشام ومصر وشمال افريقيا . ولم تقتصر أهمية البحر الأحمر فى العصر الاسلامى على النواحى التجارية والمنافع العامة كالمواصلات وحفظ الأمن ونقل البريد وغيرها ، بل احتـــل مركزا مرموقا كطريق هام للحجيج . فعن طريق خليج العقبة يأتى اليـــه حجاج بيت الله الحرام من بلاد الشام ، وعن طريق خليج القلزم يأتى حجـــاج دلتـــا مصر وبعض حجاج شمال أفريقيا والمغرب الأقصى ، ومن عيـــذاب

---

(٣٨) ارشيبالد . ر. لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٨٨ .
(٣٩) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .

يأتى حجاج صعيد مصر وبعض حجاج شمال أفريقيا . وقد ساعد على اكساب البحر الأحمر أهميته الحيوية ذلك العمل الذى أقبل عليه الخليفة عمر بن الخطاب وهو اعادة حفر خليج تراجان الذى يخرج من النيل الى الشمال من حصن بابليون بقليل (فم الخليج الحالى) ، ثم يمر بمدينة عين شمس ومنها الى وادى الطميلات الى موقع القنطرة حتى يتصل بالبحر الأحمر عند مدينة القلزم (٤٠) .

وبرغم اقتصار أهمية البحر الأحمر فى تلك الآونة على الناحية التجارية وكطريق للمواصلات الا أن الدولة الأموية رغبة منها فى حماية هذا الطريق التجارى الذى ينتهى عند عدن عملت على انشاء وحدات بحرية صغيرة كانت خاضعة لقيادة الأسطول المصرى (٤١) . ولم يسلم الأمر بين الحين والآخر أن تتخذ هذه الوحدات دورا أكثر نشاطا فبدلا من اقتصار دورها على حراسة السفن التجارية ساهمت بدور كان له الطابع الحربى الايجابى بعض الشىء . وقد ساعدت هذه الوحدات ٦٥هـ / ٦٨٤م والى مصر فى ثروته ضد خليفة دمشق (٤٢) ، وفى عام ٧٣هـ / ٦٩٢م نقلت هذه الوحدات البحرية قوات محاربة الى الحجاز(٤٣) وفى عام ٨٣هـ / ٧٠٣م اغار الأحباش على جدة ، واثروا على تجارة مكة فقامت وحدات البحر الأحمر البحرية باحتلال جزائر (دهلك) المواجهة لميناء مصوع فحموا بذلك هذه البلاد من غائلة الغارات الحبشية من

---

(٤٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٤ ، الكندى : القضاة والولاة ص ٢٣ ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٣٧ Quatremère. E, Memoite Geographiques, p. 176 لقد تسبب الفتح الاسلامى لمصر فى ظهور تغيرات كثيرة وعظيمة منها توقف ارسال ضريبة القمح من مصر الى القسطنطينية، على حين ظل هذا القمح يجمع كما كان فى الماضى بأيدى الحكام العرب وتأخذ الاسكندرية ماتحتاج منه دون مقابل . أما ما كان يرسل لتموين بيزنطة فأصبح يرسل لتموين مكة والمدينة .

(٤١) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط ص ١٧٢ ، Bury : Byzantine Naval Policy. p. 39

كانت التنظيمات البحرية فى عهد الأمويين تشتمل على ثلاثة أساطيل مستقلة استقلالا ذاتيا الى حد ما ، وكان محور نشاط كل منها اقليما بحريا مستقلا .. مصر وسوريا وشمال أفريقيا .

(٤٢) Weit, G : L'Egypte Arabe (Paris 1937). p. 39

(٤٣) Weit op. cit. p. 44

ناحية وفتحوا رأس جسر لاحتلال قواعد على ساحل الحبشة من جهة أخرى (٤٤) . أما فى العصر العباسى فقد قلت الأهمية التجارية للبحر الأحمر نسبيا اذا ماقورنت بأهميته فى العصر الأموى بعد أن فقدت طرق التجارة القديمة أهميتها بشكل ملحوظ ، وينطبق هذا بصفة خاصة على الطريق الواصل عبر مصر الى الشرق الأقصى (٤٥) ، وربما يكون مرجع هذا الى تشجيع العباسيين استخدام طريق البحر الأحمر لنقل تجارة الشرق(٤٦) وفى القرن ٤هـ / ١٠م عم مصر الرخاء برغم (٤٧) الاضطرابات التىحدثت

---

(٤٤) أنظر عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا ص ٣٩ .

(٤٥) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط ص ١٩٠ .

(٤٦) تقول الروايات العربية أن المنصور طمر القناة الموصلةبالبحر الأحمر عام ١٤٥هـ / ٧٦٢م لتجويع الحجاز ، ولكنه على الأرجح ليحول التجارة الى العراق مركز قوة العباسيين ونفوذهم
(Weit op. cit. p. 166 - 167)
وظاهر الأمر هو حرص العباسيين على زيادة رخاء العراق مثلما فعل الساسانيون ، لكن الرأى الأكثر وجاهة هو أن بيزنطة لم تعد تشجع ورود هذه التجارة عن طريق البحر المتوسط . وبصرف النظر عنمسئولية أحد الطرفين عن ذلك فالملاحظ بعسامة تدهور تجارة البحر الأحمر وتتذاك اذا ماقورنت بالازدهار الذى بلغته زمن البيزنطيين وأوائل عهد الأمويين (ارشيبالد لويس ص١٩) وحوالى القرن ٢ هـ / ٨ م اختفت هذه التجارة كلية الا من أيدى اليهود وحدهم ، الذين كانوا آخر من بقى ممن يمثلون النظام القديم ، فكانوا يسلكون هذا الطرق ويعبرون برزخ السويس الى البحر الأحمر وعدن ثم الى بلاد الصين (ابن خرداذبه)
(Ibn Khordadhbeh : Book of Routes ed. De Geoje in Bibl Geog. Arab (1899) II, p. 513.

(٤٧) يعتقد انه قد اعيد فتح القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر فى أوائل القرن ٤هـ / ١٠م ذلك أن المسعودى ذكر أنه رأى فى كريت سفنا محملة بخشب الساج ولا يمكن لهذه التجارة أن تصل الى كريت الا عن طريق تلك القناة .
(ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٢٥٦ ،
Liudprand : The Embassy to constantinople, in the works of Liudprand of Cremona (Trans. Wright), p. 235 - 77.

أما فى العصر الفاطمى فقد استخدم كثير من الحجاج المسلمين الطريق البحرى ، فكانوا ينزلون بثغر جدة فى طريقهم الى مكة والمدينة وليس ثمة دليل على استخدام تلك القناة فى ذلك الحين (ارشيبالد لويس ص ٣٢٣) ، وكان الطريق الرئيسى للحج والتجارة يسير الى عيذاب ومنها برا الى أسوان ومن هذه بالنيل الى القاهرة والاسكندرية .

أوائل ذلك القرن ، ويبدو أن تجارة الشرق الذاهبة الى المحيط الهندي والشرق الأقصى أخذت تتحول عن طريق الخليج (الفارسي) والعراق ، أى عن طريق هرمز والبصرة ، الى طريق مصر والبحر الأحمر ، وكان ثغر عدن فى ذلك القرن أهم مراكز تلك التجارة المربحة . وفي العصر الفاطمي نجحت تجارة الشام مع الشرق والجنوب وغدت عدن ميناءا رئيسيا لكل تجارة المحيط الهندى الذاهبة الى بلاد الهند والصين ، ونشطت حركة التجارة عبر البحر الأحمر الى بلاد الحبشة وزنجبار (٤٨) .

وخلاصة القول ان البحر الأحمر قد مر بأطوار من حيث الأهمية تأثر فى أولها بانتقال حاضرة الخلافة الاسلامية فقد بدأ نجمه فى الأفول عندما انتقلت عاصمة الدولة الاسلامية من المدينة الى الكوفة فى عهد الخليفة على بن أبى طالب ثم الى دمشق فى العصر الأموى ثم بغداد فى العصر العباسى ، واقتصرت أهميته على الناحية التجارية وطريق الحجيج ، الا أنه بدأ يستعيد بعض اهميته السياسية والحربية فى عهد الدولة الفاطمية التى اخذت تنشر نفوذها على بلاد الحجاز واليمن .

أما فى العصر الأيوبى فقد احتل البحر الأحمر مركزا مرموقا من الناحية السياسية والحربية فقد لعب دورا لايستهان به فى الأحداث التى وقعت بين صلاح الدين وخلفائه وبين الصليبيين كما انه أصبح الطرق الوحيد للحجيج بالنسبة لبلاد الشام ومصر وشمال افريقيا والاندلس ، ذلك أن الطريق البرى عبر شبه جزيرة سيناء أضحى غير مأمون الجانب (٤٩) .

ولم يكد ينتهى سلاطين المماليك من القضاء على ملك الصليبيين فى عكا وخروجهم الى غير رجعة من بلاد الشام ، حتى أصبح البحر الأحمر يمثل مركز الثقل فى التاريخ السياسى والحربى للعالم وذلك عند ظهور حركة الكشوف الجغرافية ومحاولة البرتغال والأسبان الاستيلاء على تجارة الشرق الأقصى ، الدعامة الأولى فى اقتصاد مصر فى العصر المملوكى . وهكذا أصبح البحر الأحمر والمحيط الهندى ساحة الوغى المعارك البحرية التى قامت بين المصريين والبرتغال فى العصرين

---

(٤٨) (Weit op. eit p. 307) Weits Egypt Arabe. pp. 169, 366.

(٤٩) احمد رمضان : شبه جزيرة سيناء ص ٧٩ .

المملوكى والعثمانى . فقد ظل النزاع على أشده بين البرتغال ومصر المملوكية بين كر وفر ، مرة ينتصر البرتغال كما هو الحال فى موقعة ديو (٩١٥هـ / ١٥٠٩م) فيستعد الأسطول المملوكى للاخذ بالثأر ، فيتخذ قائده الأمير حسين من ميناء جدة قاعدة بحرية فانشأ بها الحصون والأبراج ومنها أقلع الى اليمن ونزل جزيرة قمران واتخذها قاعدة ثانية ، ثم سار الى بندر عدن حيث نازل الأسطول البرتغالى والحق به الهزيمة (٥٠) . وهكذا انتهى العصر المملوكى ومياه البحر الأحمر تحت سيادة الأسطول دون منازع بينما أصبح الأسطول البرتغالى صاحب السيادة فى المحيط الهندي .

ولما استولى العثمانيون دخلت مصر والبحر الأحمر فى مرحلة جديدة من تاريخهما الطويل .

من هذا العرض الموجز لتاريخ البحر الأحمر عبر العصور نستطيع أن ندرك مدى الدور الهام والفعال الذى لعبته الأسطورة فى هذا التاريخ العريض وما مرت به من مراحل تدعو للعجب والتساؤل ، فقد ظهرت وشاع تناقلها منذ اقدم العصور ثم ووجهت بالواقع التجريبى الذى ابان حيدتها عن الصواب ، ومع ذلك لم يدحضها فكر مقابل وهذا موضع التساؤل . كما أن هذه الأسطورة لم تكن الفريدة فى نوعها فهناك الكثير من أمثالها والقريب منها زخرت به المصادر الاسلامية التى انتقلت اما عن طريق الرواية أو نقلا عن كتب سابقة ، أو بالرحلة والرؤية الشخصية . وبرغم أن الاسلام يبعد كل البعد عن الأسلوب الأسطورى أو الخرافى ذلك أنه جاء مخاطبا العقل والمنطق السليم وسبيله الاستدلال العقلى الا أن أسطورتنا واشباهها وجدت مكانها بين تصانيف الصفوة المثقفة فى ذلك العهد .

ولا شك أن هذا الأمر مدعاة للتدبر والتأمل فى ماهية الأسطورة ، والجدير بنا ان نذكر ان جورج فاضلو حورانى قد سبقنا الى طرق هذه التساؤلات وحاول على حد قوله بالحدس والظن أن يجد لها الاجابة الا أن اجابته هذه جاءت بعيدة عن الأصل الفكرى لهذه الأسطورة .

---

(٥٠) الشيخ زين الدين : تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين ص ١٩٧ (طبعة لشبونة) .

ولا يمكننا بأى حال من الأحوال عزل الأسطورة عن التراث الانسانى ذلك أنها جزء من الثقافة البدائية ، والتى وجدت طريقها فى بعض الأحيان داخل مجتمعات أكثر حضارة .

ان جوهر محمول أسطورة البحر الأحمر فى وجود جبال مغناطيسية حتمت استخدام أنواع خاصة من المراكب عرفت بالمراكب المخيطة التى لايدخل فيها المسامير المعدنية . كما أن مشكلة بعينها فرضت نفسها على المجتمع المخالط لهذا البحر وهى صعوبة الابحار فيه لعوامل شتى ، وبالتالى كانت دافعا أساسيا لوجود أسطورى ينسج حول هذا البحر . واذا تتبعنا هذه السفن المخيطة نجدها ترجع الى عصر سحيق فقد دلت التنقيبات التى قامت بها الهيئات الأثرية حديثا على أن المصريين أول من قاموا ببناء السفن وركبوها فى الأنهار والبحار فى عصر ماقبل التاريخ (٥١) . وكانت تلك الفلك بسيطة وبدائية فى أول أمرها ، فقد استعملوا جذوع الأشجار للانتقال منضفاف نهرالنيل ، ثم ربطوا الجذوع بعضها الى بعض وشدوا وثاقها بالأعشاب المتينة مثل البردى ، كما استعملوا أقدامهم كمحركات يدفعون بها السفن . وهكذا أخذوا يطورون صناعة السفن ويدخلون عليها التعديلات حتى أصبحت وسيلة طيعة لركوب الأنهار ثم البحار ، فقد جعلوا فى المراكب مقاعد ، واستعملوا قطعا من الخشب كبدالات للتجديف ، بدلا من استخدام أرجلهم ، ثم استخدموا أرجلهم ، ثم استخدموا بعد ذلك الفلك المجوفة التى عرفت بورجيز Pirogues ، ويأتى رأى يؤكد أن سفن المصريين القدامى كانت مؤلفة من سيقان البردى الطويلة ضمت الى بعضها البعض وربطتفكانت قوارب طويلة ، واستعملت فى رحلات صيد السمك والطيور (٥٢). نخلص من هذا أن أول سفن كانت سفنا مخيطة أو على الأقل لم ترق صناعتها حتى يدخل فى صناعتها الحديد فى ذلك العهد السحيق .

---

(٥١) سعاد ماهر : البحرية الاسلامية ص ١٥ .

(٥٢) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور (مترجم) ص ٩٧ ؛
Porenx : Etudes de nautique Égyptienne. p. 13.

(٥٣) هذا الرأى ساقه الدكتور عبد المنعم أبو بكر مخالفنا به رأى (Torrs : Ancient Ships. p. 11).
أنظر سعاد ماهر : البحرية الاسلامية ص١٦ حاشية (١) .

وإذا انتقلنا الى مرحلة تاريخية تالية والى كشوف أثرية أخرى أماطت النقـاب عنها بعثـة أمريكية قامت بالتنقيب (فيما بين ١٩٣٨ و١٩٤٠م) لمعرفة موقع مدينة « عصيون جابر » والتى عينت مكانها عند تل الخليفة غربى العقبة ، وعثرت على مسامير كبيرة من الحديد أو النحاس المزوج، وقطع من حبال غليظة ، وكتل من القار لقدم السفن ، وأخرى من الصمغ لطلائها . وهذا الـكشف الأثرى يوضح ما جاء فى سفر الملوك الأول أن سفن الملك سليمان قـد بنيت فى عصـيون جابر ودخل فى صـنعها المسامير المعدنية . والى جانب ماذكره بهوجا وما أنكره بروكوبيوس وأثبت خطأه ، ثم اختلف فى اظهار علته كل من المؤرخين والرحالة المسلمين وغير المسلمين ، فان تساؤلا يلح فى فرض نفسه ، وهو لـماذا حلت السـفن المخيطة بدلا من الأخرى التى استخدمت فيها المسامير الحديدية ؟ بعدما ثبت لدينا بالـكشوف الأثرية استخدام المسامير فى سـفن أبحرت فى البحر الأحمر .

ان الاجابة عن هذا التساؤل تحتمل أمرين هما اما أن تكون الخبرة السابقة فى استخدام السفن المسمارية زمن سليمان واليونان والرومان أثبتت عدم فاعليتها وفى هذه الحال يكون هذا هو المبعث الرئيسى لظهور أسطورتنا ، واما أن تكون الخبرة المتناقلة بين أهل البحر من بحارة البحر الأحمر قـد اعترتها فترة انتهت عندها خبرة الماضى وكان على المهتمين بأمر الملاحة فى البحر الأحمر أن يبدأوا من نقطة الصفر ، واعتبرت تلك الخبرة سرا مكنونا يستحيل كشفه .

ولعل من أهم الأسباب التى أعطت أسـطورة البحر الأحمر أهميتها هى أنه لم يشذ أحد من الرحالة الذين خبروا البحر المتوسط وسفنه فى ابداء تعجبه من ضعف وصغر حجم سفن البحر الأحمر المخيطة أمثال ابن جبير الذى قدم من الأنـدلس وماركو بولو ، وجوردانوس ولجوفانى دى مونتى كورفينو . ولعل بناء سفن كبيرة كالينكات الصينية دون استخدام المسامير شىء مستحيل ، نظرا لأنها ستكون عرضة للتحطيم نتيجة استمرار ارتطامها بالرياح الهوجاء والأمواج العالية . لقد كانت الرياح تغرق الكثير من السفن ، واذا كانت سفن كسفن البحر الأحمر هذه وصلت الى الصين

فلعل الفضل فى ذلك يرجع الى شجاعة نواتيها ومهارتهم (٥٤) .

ولا يستقيم الحال فى وجود سفن صغيرة مخيطة كهذه ، يجهل ربانها خواص الرياح الموسمية التى تهب على البحر الأحمر والمحيط الهندى . فالعرب واليونان علموا سر هذه الرياح ومدى الاستفادة منها للذهاب الى الهند أو العودة منها (٥٥) .

لقد سبقنا القزوينى (القرن ٧هـ / ١٣م) فى التعبير عن الباعث الأول لأسطورتنا فقد أورد فى كتابه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات فى المقدمة الأولى : « فى شرح العجب الذى هو حيرة تعرض للانسان لقصوره عن معرفة سبب الشىء أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه » ثم ذكر الأسطورة (٥٦) . ان العجز هو بيت القصيد فى أسطورتنا ذلك أن من المسلم به أن الأساطير قد أخطأت الطريق فى السيطرة على الطبيعة عن طريق السحر والطقوس ومن ثم كانت عملية تفسير كونية (٥٧) وهذا هو موضوعنا .

---

(٥٤) جورج فاضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهادى ص ٢٥٣ ــ ٢٥٤ .

(٥٥) الرياح الموسمية : لم يكتشف هبالوس (Hippalos) وجود الرياح الموسمية ، فقد كان العلم بوجودها ومواسمها معروفا لدى اليونان منذ عودة نيارخوس من السند (٣٢٦ ــ ٣٢٥ هـ) وكان العرب عاجزين عن الاحتفاظ بها سرا تجاريا . كما أن بريبلوس وبلينى لاينسبان الى هبالوس أى اكتشاف فيما يتعلق برحلة العودة من الهند . ومن المؤكد أن العرب واليونان معا كانوا يستطيعون القيام بهذه الرحلة فى جميع الفصول ، مستعينين فى فصل الشتاء بالرياح الموسمية الشرقية ، التى تتيح أفضل الظروف للملاحة غربا . فما اكتشفه هبالوس هو كما يقول بريبلوس هو كيفية الافادة من الرياح الموسمية فى رحلة الذهاب الى الهند . هذا الى جانب أن الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التى تهب فى الصيف هى الرياح التى ينتفع بها فى هذا السبيل . فبريبلوس وبلينى يذكران أن السفر من مصر يكون فى شهر يوليو ، وهما يذكران أن اتجاه رياح هيبالوس جنوبية غربية .
(العرب والملاحة فى المحيط الهادى ص٦٩ ــ ٧٢ عن بريبلوس الفصل ٥٧ (المنقول عنه) ، بلينى Natural History الكتاب السادس القسم ٢٦) .

(٥٦) القزوينى : عجائب المخلوقات التقديم ص ١٤ ، ١٧١ .

(٥٧) احمد كمال زكى : الأساطير دراسة حضارية مقارنة ص ١٠٩ ، ١١٠ .

ومهما بلغت معرفة اليونان والعرب بأسرار الرياح الموسمية فانها كانت معرفة قاصرة حتى أن الخوف من الملاحة فىالبحر الأحمر أمسى شيئا تقليديا ، فبرغم أنه من المستبعد أن يكون اليونان قد علموا جدولة تغيرات الرياح الموسمية بدقة الا أننـــا لاننكر عليهم معرفة اتجاهاتها خلالفصول السنة ، ولـــكن هذا لم يمنع من خطورة الارتطـــام بالشعب المرجانيـــة المتكاثرة فى هذا البحر . لذلك عمد راكبوا البحر الأحمر الى التخلى عن السفن المتينة البنيـــان التى يستخدم فى بنائها المسامير الحديدية الى أخرى صغيرة ومخيطة مصنوعة بأنواع خاصـــة من الخشب اللين نسبيا وعالجوها بالدهـــون وما الى ذلك لاكسابها مزيـــدا من الليونة حتى اذا ماارتطمت بالنبات (بالأعشاب المرجانية) لا يسبب هذا فى اغراقها ، أما اذا كانت مسمارية فان مقدار ليونتها ستكون أقل بكثير .

لاشك أن ترويج هذه الأسطورة كان ناجما عن واقع اعتبره أهـــل تلك العصور أمرا خارقا، رفضه العقل بمقاييسه ومنطقه ، ذلك أنالابحار فى البحر الأحمر كان يعتبر المخاطرة بعينها . وبقاء هذا الواقع كان مدعاة أن يظل مادة لتاريخ مقدس ، أو رمزا لكائن خارق ، أو دافعـــا لمفكر كى يحـــاول أن يفسر الظواهـــر الطبيعيـــة ويضع أوليات المعرفة كمـــا هو حاصـــل مع بهوجا .

والأمر الثانى الجدير بالدراسة هو انشطار أسطورتنـــا فى مرحلة متأخرة نسبيا عندما نقلها الينا المسعودى (٤هـ / ١٠م) وابن جبير (٥٨) (٦هـ / ١٢م) ، والتى نستطيع أن نطلق عليها المرحلة الثانيـــة ، التى ظهر فيها تمييز فكرى واضح بين ماهو مادى واقعى ومثالى لا واقعى لهذه

---

(٥٨) ابن جبير هو أول من ارجع استخدام السفن المخيطة لـــكثرة الشعب المرجانية ، أما المسعودى فقد ذكر سببا آخر هو شـــدة ملوحة البحر الأحمر التى تذيب المسامير ،وان كانت علة المسعودى غير صحيحة الا أنه يشارك ابن جبير فى تغيير مسار الأسطورة .

الأسطورة (٥٩) . واذا أردنا أن نميز بدقة بين شكل أسطورتنا ومضمونها أو هدفها ، فاننـــا نجد أن شكلها مرتبط فى ذهن الرجل البدائى أو فى ذهن أول ناقل لها وهو بهوجا بقدرته على الارتفاع عن الواقع الى التجريد الذهنى ، وهذا التجريد لايعنى تجريد الواقع الطبيعى بشكل منطقى بل يرتفع عنه وهميا ورمزيا كقوله ((بوجود جبال مغناطيسية) ، وتظل هناك ثمة علاقة محددة بين ذلك الشكل الأسطورى والواقع الطبيعى الموضوعى، ومما لاشك فيه أن الأسطورة اللاواقعية كانت بمثابة مخدر تجاه الشعور الانسانى المتزايد بالعجز ، حتى يتم لهذا الانسان تدريجيا المعرفة العلمية للظواهر الطبيعية فى عالمه (٦٠) .

أما اذا نظرنا الى أسباب انقطاع هذه الأسطورة بعد القرن ٨هـ / ١٤م فانه سيؤدى بنـــا الى النظر الى أساس منهجنـــا اليوم ذلك المنهج التجريبى الذى وضعه جاليليو Galileo وجوهر هـــذا المنهج معروف، ويتلخص فى الجمع المتناسق بين التجربة والبرهان العقلى ، فان انضمام هـــذا الى ذاك يجعل من كل منهما سندا للاخر بحيث اذا أخطأ أحدهمـــا صحح له الآخر (٦١) .

ومهما يكن من أمر فاننـــا الآن بصدد تقرير وجود نموذج جديد فى عالم الأساطير بدأ تداوله فى العصر الاسلامى منذ القرن الأول الهجرى دخل عليه بعض الاسرائيليات فى حيز الفكر التنبؤى عند المسلمين ،فضلا عن التشجيع (الأموى) لاحياء التراث الأسطورى لعرب الجاهلية ، ومن بعدهم العباسيون الذين أطلوا على التراث الفارسى تارة ، ثم انتقلوا الى

---

(٥٩) يقول (H. Ley) فى كتابه حركة التنوير والالحـــاد المجلد الأول ص ٢٣ ، أن هناك مركبين متعارضين فى الأســـطورة ، وان كـــلا من الحلين الأساسيين للمسألة الأساسية للفلسفة «Fundamental Question of Philosophy» المثالى والمادى قد وجدا بذورهما فى الأسطورة ، أى أن وحدة الفكر الانسانى البدائى المتمثل فى الأسطورة ، قد احتوى فى نفس الوقت على انشطار لا واقعى مثالى ، وواقعى مادى (أنظر طيب تيزينى : مشروع رؤية جديدة للفكر العربى الوسيط ص ٢٥، ٢٦) .

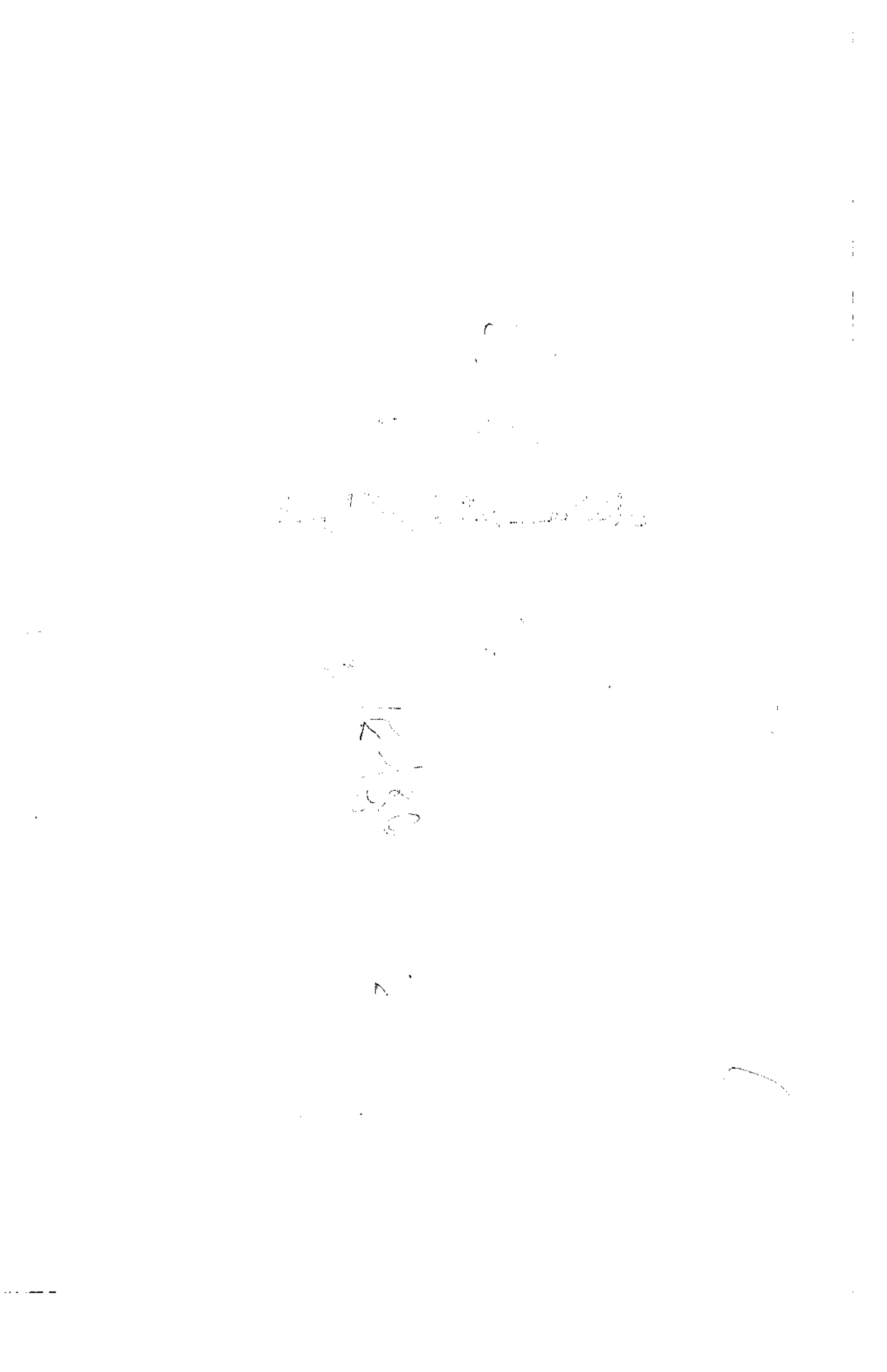
(٦٠) أنظر جوستاف ليبون : فلسفة التـــاريخ ص١٣٢ (مترجم) دار المعارف ١٩٥٤ .

(٦١) د. جيوفانى بولفانى : التغيير فى عالم الطبيعة وفكرة الزمن .

تبنى حركة ترجمة التراث الـكلاسيكي تارة أخرى وكان هذا وثيق الصلة يتحول سياسى . ومن خلال أسطورتنا نستطيع أن نتبين أن وصول الأسطورة الى العالم الاسلامى كان ايذانا بانشطارها الذى سبق الاشارة اليه ، بل نستطيع القول ان لونا جديدا أضفى عليها وذلك بفقدها رمزيتها التى كانت باعثا — فى القديم — الى تفكير الحادى وسحرى ، وأصبحت تحاول أن تمنطق واقع كونى يقصر علمها عن تفسيره التفسير الصحيح، فجاءت معبرة عن العجز من ناحية ، وباعثة الى تفكير سليم نابع من منهج تجريبى صحيح ، حتى اذا ما توافرا انقشع ضوء أسطورتنا ، وانزوى بريقها .

القسم الثالث

البحر الأحمر فى العهد العثمانى



ج ـ ٢

البرتغاليون والبحر الأحمر

للدكتور سعد زغلول عبد ربه
كلية الآداب ـ جامعة طنطا

كانت أوربا تحصل على حاجتها من سلع الشرق الأقصى من الاسكندرية وموانى البحرين الأسود والمتوسط . وكان تجار البندقية يتولون فى العصور الوسطى نقلها الى أوربا . وقد ترتب على الاشتغال بتلك التجارة ثراء تجار الاسكندرية والبندقية الذين كانوا يقومون بدور الوسيط لتوزيعها فى أوربا . وقد أدى التنافس الذى حدث بين البنادقة والجنويين الى اتجاه الجنويين الى البرتغال ، ومحاولة استغلال معلوماتهم الجغرافية المتعلقة بفكرة الدوران حول القارة الأفريقية ، والوصول الى الهند ، وبالتالى وضع أيديهم على تجارة الشرق الأقصى الواردة عن طريق الهند . وكان يحكم البرتغال فى ذلك الوقت أسرة ايفيز Aviz ، وكانت من الأسر الملكية المتمسكة بالدين المسيحى ، وترى أن على عاتقها تقع مهمة نشر الدين المسيحى فى الأراضى الاسلامية . وتبدى اهتمامها بمعلومات الجنويين الخاصة بامكان الدوران حول القارة الأفريقية ، خاصة وانه كان هناك قصة منتشرة فى أوربا عن وجود ملك مسيحى يحكم فى وسط آسيا أو أفريقية ، هو القس يوحنا أو برسترجون P. John وقد حددت الاشاعات مكان وجود ذلك الملك المسيحى فيما بين الصين وغامبيا ، وانه يسيطر على منطقة كبيرة .

قرر البرتغاليون الوصول الى القس يوحنا للتحالف معه وضرب المسلمين من الخلف والأمام والانتقام للهزائم التى تعرض لها الصليبيون فى الشام ، وكشف طريق بحرى يصل الى الهند ولا يمر بالأراضى الاسلامية ، ووضع أيديهم على تجارة الشرق الأقصى ، وبذلك يحرمون

المسلمين من المورد الاقتصادى الذى كانوا يستطيعون عن طريقه تكوين وتمويل قواتهم العسكرية التى يحاربون بها المسيحيين . وقد رسم البرتغاليون خطتهم على أساس كشف ساحل أفريقية الغربى كشفا منظما ووضع أيديهم على ذهب وتجارة غرب أفريقية لتمويل عملياتهم الكشفية، وحرمان مسلمى شمال أفريقية من ذلك المورد المالى الهام .

أعدت البرتغال الأساطيل اللازمة لعمليات الكشف ، واستعانت بخبرة البحارة والجغرافيين الجنويين . وكانت عمليات الكشف فى بدايتها بطيئة ، ولكن البرتغاليين ثابروا على تلك العمليات حتى استطاع بارثولوميو دياز Bartholomeu Diaz الوصول الى أقصى جنوب أفريقية، والدوران حولها فى سنة ١٤٨٧ . وبذلك أصبح الأمل كبيرا فى الوصول الى الهند عن طريق البحر ، وبدون المرور فى الأراضى التى يسيطر عليها المسلمون . وانتهزت البرتغال الفرصة وكونت حملة أخرى بقيادة فاسكو داجاما V. da Gama تحركت من البرتغال فى الثامن من أغسطس سنة ١٤٩٧ متجهة الى الساحل الغربى لأفريقية لاستغلال كشف بارثولوميو دياز . واستطاع دا جاما الدوران حول جنوب أفريقية فى أواخر ديسمبر سنة ١٤٩٧ ، ووصل الى جزيرة القديس جورج القريبة من موزمبيق فى أول مارس سنة ١٤٩٨ ، وقام تبادل تجارى بين البرتغاليين وسكان موزمبيق ، ثم تحرك بعد ذلك شمالا الى مالندى التى حصل منها على مرشد هندى اسمه كانا Cana ، أرشده عبر المحيط الهندى الى الساحل الغربى للهند ، وبذلك استطاع دا جاما الوصول الى الساحل الهندى بالقرب من قاليقوط فى ٢٨ مايو سنة ١٤٩٨ (١) .

تكبد البرتغاليون تضحيات بشرية كبيرة ، فقد توفى ثلثا أفراد الحملة فى الطريق ، ولكن النتائج المالية كانت مذهلة جدا ، فقد تجاوز صافى الربح تكاليف الحملة ست مرات . وكان لهذا الربح والقصص التى سردها دا جاما عما شاهده من عجائب الشرق أثرها على ملك البرتغال الذى صمم على استغلال كشف دا جاما ، لارسال أسطول آخر الى الهند للاستيلاء على تجارة الشرق . ونفذت البرتغال عزمها وارسلت فى مارس

(1) Strands, J. : Portuguese Period in East Africa, pp. 13 - 30.

سنة ١٥٠٠ حملة جديدة بقيـادة بدرو الفـاريز كابرال P. A. Cabral مهمتها الحصـول على قاعدة للسـفن البرتغاليـة فى الشرق عن طريق المفاوضات أو باستخدام القوة المسلحة ، واجبار المسلمين فى تلك المنطقة على اعتناق الدين المسيحى ، والاستيلاء على سـفن المسلمين وسـفن كوشين وكانانور التى يصـادفونها فى طريقهم باسـتثناء سفن مالنـدى الموالية للبرتغـال (٢) .

كانت تجارة الشرق الأقصى مرتبطة بالعمل المقـدس ، ونشر الديانة المسيحية بين المسلمين والوثنيين ، كما كانت تدر ربحا كبيرا . ولمـا كانت سيطرة البرتغال على تجارة الشرق تتطلب القضاء على مقاومة المسلمين بالمنطقة ، وهذا العمل يتطلب ارسال أسطول برتغـالى قوى مجهز بقوة عسكرية مدربة تدريبا جيدا على القتال البحرى فقـد جهز البرتغـاليون اسطولا من عشرين سفينة بقيادة فاسكو دا جاما تحرك من البرتغال فى العاشر من فبراير سنة ١٥٠٢ متجهـا الى المحيط الهنـدى . وكان على دا جاما ابقاء خمس سفن من ذلك الأسطول بصفة دائمة فى مياه المحيط الهندى حماية المحطات التجارية البرتغالية فى كوشين وكانانور ، وسد مدخل البحر الأحمر ، وابعاد العرب عن تجارة الهند (٣) .

وبتوالى اسـتخدام البرتغـاليين للطريق البحـرى الى الهند تبين البرتغاليون أن الضرورة تتطلب تجول بعض سفن الأسطول البرتغـالى أمام مدخل البحر الأحمر ، وتدمير السفن العربية التى تحـاول الخروج منه ، وكذلك السفن العربية التى تتجول فى المحيط الهندى . وقـد كان للوجود البرتغالي اثر ضاغط على التجار العرب فى البحر العربى والموانى الواقعة على ساحل الهند الغربى . وازداد ظهـور ذلك الضـغط بمضى الوقت ، وأصبح البرتغاليون من أخطر المنافسين والمزعجين فى المنطقـة خاصة وأن هـدفهم النهائى هو القضاء كلية على طرق التجارة السابقة، ولذلك حاولوا جهدهم وبوضوح تام وقف سير التجارة الشرقية بين الهند والبحر الأحمر . وكانت تلك المحاولة من جانب البرتغاليين تتطلب وقفـة

(2) Strands, J. : Ibid. pp. 39, 43.

(3) Strands, J. : Ibid. pp 43 - 45.

صلبة من التجار العرب الذين سيطروا على تلك التجارة منذ فترة طويلة، ولذلك فقد طلب التجار العرب المقيمون فى قاليقوط وشيخ عـــدن وهم الذين تأثرت مصالحهم الاقتصادية المساعدة من سلطـــان مصر . وكانت مصر التى تأثرت ماليتها بسبب التدخل البرتغالى على استعداد للدخول فى صراع مع البرتغاليين (٤) .

بدأ السلطان المملوكى فى اتخاذ الاجراءات اللازمة لوقف البرتغاليين عند حدهم ولانقاذ مصر من الانهيار الاقتصـــادى الذى تعرضـــت له ، فأرسل حملة بقيادة الأمير حسين الـــكردى فى نوفمبر سنة ١٥٠٥ مهمتها الأولى تقوية الحكم المملوكى فى منطقة البحر الأحمر ، وتحصين سواحل ذلك البحر بعد أن أعلن البرتغاليون عن عزمهم على مهاجمة المدن المقدسة فى الحجاز وتخريبها . وما أن وصل الأمير حسين الى جدة حتى بدأ فى بنـــاء سور ضخم له أبراج عالية ، ثم توجه الى سواكن واستولى عليها، وأقام بعض الاستحكامات بها . ومن سواكن اتجه الأسطول المصرى الى بعض الموانى اليمنية حيث بقى بعض الوقت بميناء عدن (٥) .

تحرك الأسطول المصرى من مياه عدن ، واتجـــه الى الهنـــد حيث اشتبك مع أسطول برتغالى . وفى ذلك الاشتباك انتصر الأسطول المصرى على الأسطول البرتغالى انتصارا جزئيـــا فى موقعـــة ديو البحرية . كما استطاع بالاشتراك مع أسطول حاكم ديو هزيمة أسطول برتغـــالى مكون من ثمان سفن عند شول فى سنة ١٥٠٨ (٦) .

كان انتصار الأسطول المصرى على الأسطول البرتغـــالى أثره على البرتغاليين الذين أحسوا بالخطر الشديد الذى سوف تتعرض له مصالحهم فى المنطقة خاصة وأن وصول ذلك الأسطول الى مياه المحيط الهندى كان مفاجئة لهم ، بالاضافة الى انضمام سفن من الولايات الهندية الى ســـفن ذلك الأسطول . ولذلك سارع فرانسيسكو دالميدا نائب الملك بالهنـــد فى

---

(4) Strands, J. : Ibid. p. 56.

(٥) أحمد دراج (دكتور) : المماليك والفرنج ، ص ١٣٧ .

(6) Kammerer, A. : La Ker Rouge, tomel, p. 155, Barbossa, D. : The L. African and. p. 61.

الخروج على رأس أسطول آخر مكون من تسعة عشرة سفينة لملاقاة الأسطول المصرى والقضاء عليه . واشتبك الأسطول البرتغالى مع الأسطول المصرى وحلفائه عند ديو فى الثالث من فبراير سنة ١٥٠٩ . وفى ذلك الاشتباك انتصر البرتغاليون على المصريين وحلفائهم انتصارا ساحقا . ويرجع ذلك الانتصار الى رفض الأمير حسين الاستماع الى نصيحة حاكم ديو بالانتظار فى مياه ديو لحماية ظهور السفن واصراره على الخروج الى عرض البحر لملاقاة البرتغاليين ، والى أن السفن المصرية كانت هى السفن الوحيدة التى كانت مسلحة بالمدافع (٧) . وانتهى الأمر باسراع الأمير حسين بالانسحاب بما بقى من سفنه الى جدة ، بينما سارع حاكم ديو بعقد معاهدة صلح مع البرتغاليين (٨) .

بانتصار البرتغاليين على المصريين فى ديو رسخت أقدامهم فى المحيط الهندى ووضعوا أيديهم على مصادر التوابل واحتكروا تجارتها . واتماما للفائدة عمل البرتغاليون على شديد الحصار على الخليج (الفارسى) والبحر الأحمر حتى لاتصل تجارة التوابل الى المصريين ، وراقبت سفنهم مدخل البحر الأحمر لمنع السفن الاسلامية من الدخول أو الخروج من ذلك البحر . وقد أدت تلك المراقبة وذلك الحصار الى استيلاء البرتغاليين فى سنة ١٥٠٩ على بعض السفن اليمنية (٩) . ولم تستطع السلطات اليمنية وقف الاعتداءات البرتغالية أو الرد عليها . واضطر السلطان اليمنى الظافر الثانى الى الاستنجاد بالسلطان الغورى ومطالبته بالاسراع باتخاذ عمل مضاد يقضى على استفحال الخطر البرتغالى (١٠) . وقد ارسل السلطان الغورى فى يوليو سنة ١٥١٠ رده على سلطان اليمن

---

(٧) زين الدين المليبارى : تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين ص‌ص ٤٠ — ٥٤ .
Stephens, H. M. : Portugal, p. 197.

(٨) نعيم زكى (دكتور) : طرق التجارة الدولية ص‌ص ٣٠—٣١ ، ٩١ .
Barbossa, D. : op. cit. p. 61, Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 157, 174.

(9) Kammerer, A. : Ibid. II, pp. 157, 230.

(١٠) قطب الدين النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ص ١٩ .

مبينا له حقيقة الموقف فى القاهرة ، والاستعدادات التى تقوم بها مصر لمواجهة البرتغاليين (١١) . وقد طلب السلطان الغورى فى يونيو سنة ١٥١٠ من ملوك الهند مساعدته فى القتال ضد البرتغاليين (١٢) وكماطلب من بايزيد الثانى سلطان الدولة العثمانية امداد مصر بالسلاح . وكان من رأى بايزيد الثانى أن البرتغاليين سوف يحاولون الوصول الى مكةوالمدينة وتدميرهما ، ولذلك وعد بارسال السلاح ومساعدة الدولة المملوكية (١٣). ووفى السلطان بايزيد بما وعد ، وحمل السفن السرية وعددها ثمانية عشرة سفينة بالسلاح والأخشاب والمعونة العثمانية . ولكن هذه المعونة لم يكتب لها الوصول سالمة الى الاسكندرية بسبب تعرضها لهجوم سفن فرسان القديس يوحنا فى ١٠ أغسطس سنة ١٥١٠ ، وحدوث معركة غير متكافئة بين الطرفين أغرقتفيها سفن الفرسان بعضالسفن المصرية، وأسرت البعض الآخر ، كما تاهت سفينتان فى العاصفة . وبذلك فان السفن الست الباقية التى وصلت الى الاسكندرية لم يكن عليها شىء من المعونة العثمانية (١٤) .

ومن ناحية أخرى فقد عمد الأمير حسين الكردى الى تحصين ميناء جدة حتى تستطيع الصمود فى وجه البرتغاليين ان هم حاولوا الذهاب اليها ومهاجمتها عن طريق بناء سور ضخم حولها (١٥) . وطلب من أمراء الهنود الذين استمروا على حلفهم مع مصر معونة مالية لبناء السور ، وبرر ذلك الطلب بقوة البرتغاليين ، واستطاعتهم دخول البحر الأحمر ، والوصول الى جدة وتدمير الأماكن الاسلامية المقدسة فى مكة والمدينة(١٦)

---

(١١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٢٠٩ .
Kammerer, A. : op. cit., II, p. 232.

(١٢) ابن اياس : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .

(١٣) ابن اياس : نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ١٩٦ .

(١٤) ابن اياس : نفس المرجع ، ج ٤ ، ص١٩٦ .
Heyd, W. : Hietoire du Commerce... II, pp. 537 - 539, Depping, G. B. : Histore du commerce.. II, p. 270.

(15) Darnes, M. : The Book of Duarte Barosa, pp. 46 - 47.

(16) Darnes, M. : Ibid., p. 47, Depping, G. B. : op. cit., II, p. 219.

ولمـــا كان أمراء الهنود يعتقدون ان البرتغاليين ســـوف يحاولون دخول البحر الأحمر وتدمير الأماكن الاسلامية فقد قدموا حمولة ثلاث ســـفن من التوابل أسهاما منهم فى تحصين جدة (١٧) . واستطاع الأمير حسين بتلك المعونة الانتهاء من بناء السور في سنة ١٥١١ وكان قـــد بدء فى بنـــائه في سنة ١٥٠٠ (١٨) .

فرض البرتغاليون الحصار حول مدينة عدن ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها لقوة تحصيناتها الطبيعية . وكان الهدف من هذا الحصار اسقاطها والاستيلاء عليها ، واستخدامها قاعدة عسكرية يستطيعون عن طريقها السيطرة على البحر الأحمر والقضاء علىالأسطول المصرىالمناوىء ومنعه من الخروج الى المحيط الهندى ، ومهاجمة ســـفنهم وطردهم من الهند .وبذلك يقضون على أمل أمراء الهند فى وصول الامدادات العسكرية من مصر اليهم ، وتفتر مقـــاومتهم للبرتغـــاليين ، وبذلك تستقر الأمور للبرتغاليين فى الهنـــد (١٩) .

قرر البوكيرك الاستيلاء على عدن فخرج من جوا فى ٨ فبراير سنة ١٥١٣ باسطول كبير بلغت عدة سفنهم عشرين سفينة تحمل على ظهرها ٢٥٠٠ محارب ، ووصل الى عـــدن فى ٢٤ مارس ١٥١٣ (٢٠) . وكانت اخبـــار الحملة قد سبقت وصـــولها ، فاتخـــذ حاكم عدن العـــدة لملاقاة البرتغاليين . وعلى الرغم من انتقاء عنصر المفاجئة فقد استولىالبرتغاليون على بعض السفن الراسية فى مينـــاء عـــدن ، وقصفوا المـــدينة بنيران مدافعهم . وخشى حاكمها من تدميرها على يد البرتغـــاليين فارسل بعض الهدايا الى البرتغاليين وطلب عقد هدنة معهم (٢١) . وقد رفض البرتغاليون الاقتراح ، واعادوا له هداياه ، وهددوا بالاستيلاء على المدينة قهرا اذا

---

(17) Depping, G. B. : Ibid., II, p. 219, Darnes, : op. cit., pp. 48 - 49.

(18) Darnes, M. : Ibid., pp. 46 - 47.

(19) Wilson, A. T. : The Parsian Gulf, p. 118.

(20) Kammerer, A. : op. cit., II, p. 178, Wilson, A. T. : op. cit., pp. 118 - 119.

(٢١) با مخرمة : تاريخ ثغر عدن، جا صرص ١٢—١٣ ، ١٦—١٧ .

لم يستجب حاكمها ويسلمها لهم سلما ، ومنحوه مهلة حتى اليوم التالى(٢٢)

رفض حاكم عدن الاستجابة لتهديد البرتغاليين ، فهاجموا المدينة ، واستطاع بعض أفرادهم تسلق الأسوار والنزول الى المدينة (٢٣) . ولكن الأهالى هاجموهم بكل ما وقع تحت أيديهم من حجارة مما شجع حاكمها على رفض التسليم ، ومهاجمة البرتغاليين الذين تسربوا الى داخل المدينة ، وأجبرهم على الهرب . واضطر البرتغاليون الى اطلاق نيران مدافعهم لتغطية انسحاب قواتهم من داخل المدينة (٢٤) . وبذلك فشلت محاولة البرتغاليين الاستيلاء على المدينة . فانسحبوا من مياهها بعد أن أشعلوا النار فى السفن الراسية فى الميناء (٢٥) .

انسحب البرتغاليون من مياه عدن واتجهوا الى باب المندب ومنه الى البحر الأحمر متجهين الى الشمال ، واستولوا على جزيرة قمران فى أبريل سنة ١٥١٣ (٢٦) . وكما هى عادتهم فى ارهاب السكان دمروا مبانيها وقتلوا من وجدوه عليها من السكان (٢٧) . واستقر البرتغاليون بالجزيرة حتى شهر يوليو ١٥١٣ . ولم يحاول سلطان اليمن اتخاذ أى اجراء لطردهم من الجزيرة (٢٨) . ولكنهم لم يستطيعوا الوصول الى ميناء جدة بسبب تعرض سفنهم لعاصفة شتت أسطولهم ، ومنعتهم من الوصول الى الأراضى المقدسة وتنفيذ هدفهم الرامى الى العبث بالمقدسات الاسلامية (٢٩) .

تحرك الأسطول البرتغالى فى مياه البحر الأحمر بعد فشله فى الاغارة على جدة ، واغارت بعض سفنه على ميناء زيلع ، وأطلقت نيران مدافعها على السفن الراسية فيه ، وأشعلت فيها النيران (٣٠) .

---

(٢٢) با مخرمة : قلادة النحر ، ج٣ ص١١٩٤ .

(23) Kammerer, A. : op. cit., II, p. 186.

(24) Marco, E. : yemen and the Western World, p. 1.

(25) Kammerer, A. : op. cit., II, p. 186.

(٢٦) أحمد دراج (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

(27) Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 192 - 193.

(٢٨) با مخرمة : قلادة النحر ، ج ٣ ص ١١٩٥ .

(29) Kammerer, A. : op. cit., II, p. p. 193, Serjent, R. J. : The Portuguese. . p. 169.

(٣٠) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٠ .
Kammerer, A. : op. cit., II, p. 205.

ترتب على وصول الأسطول البرتغالى الى البحر الأحمر خوف أمير مكة من نزول البرتغاليين فى ميناء جدة أثنـاء وجود الأمير حسين الكردى فى مصر ، فتحرك بقواته الى جدة ، وبعث رسالة الى السلطان الغورى بين فيها خطورة الموقف فى المنطقة ، وطلب الاسراع فى ارسال الامدادات الى جدة لمنع نزول البرتغاليين بها والاستيلاء عليها (٣١) . واستجاب السلطان الغورى لطلب أمير مكة فأمر الأمير حسين الكردى بالاسراع بالتوجه الى جدة ، كما أرسل معه أحد الأمراء لاستقصاء أخبار البرتغاليين، كما أمر بسرعة تجهيز السفن التى كان يتم انشاءها فى السويس ،وتزويد الحملة المنتظرة بحاجتها من الجنود والفنيين . ولم توقف جهود السلطان الغورى عند هذا الحد فقد توجه بنفسه الى ميناء السويس فى مارس سنة ١٥١٤ للاشراف على انزال السفن الجديدة الى مياه البحر الأحمر . وتتابعت امدادات السلطان الغورى لحسين الكردى فأرسل له قوة عسكرية أخرى فى يوليو سنة ١٥١٤ ، كما أرسل أسطولا آخر فى يونيو سنة ١٥١٥ بقيادة سلمان العثمانى (٣١) . وقد انضم سلمان العثمانى الى حسين الكردى ، واشترك معه فى قيادة الأسطول المصرى ضد البرتغاليين (٣٢) .

تأثرت التجارة اليمنية بسيطرة البرتغاليين على مياه المحيط الهندى، ولذلك عملوا فى أول الأمر على امداد الأسطول المصرى المتجه الى الهند فى سنة ١٥٠٧ بحاجته من الامدادات ، وعاملوه معاملة الحلفاء . ولكن لم تلبث المعاملة أن تغيرت بعد هزيمة الأسطول المصرى فى المياه الهندية، وبدء البرتغاليين حملاتهم العسكرية فى البحر الأحمر . فقد وقف حاكم عدن موقفا سلبيا عندما هاجم البرتغاليون ميناء عدن فى سنة ١٥١٣ (٣٣) وتبلور موقف اليمنيين ضد المصريين بوقوفهم موقف العداء الصريح ضد الأسطول المصرى بقيادة حسين الكردى وسلمان العثمانى . ولما كان حسين الكردى حريصا على سيادة واستقلال اليمن فقد بعث من يخبر

---

(٣١) ابن اياس : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص٣٠٨ ، ٣١٠ — ٣١١، ٣٦٢ — ٣٦٦ ، ٤٥٨ — ٤٦٠ ، ٤٦٦ — ٤٦٧ .

(32) Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 231 - 232.

(٣٣) انظر ص ٩ من هذا البحث .

سلطانها بأمر الحملة المصرية ، والعمل على تزويدها بحـاجتها من المؤن والأموال طبقا لما تعهد به السلطان الغورى عندما طلب منه المساعدة(٣٤) وبين له أن هدف الحملة هو الابحار الى الهند لمقاتلة البرتغاليين .

لم يستجب سلطان اليمن لطلب حسين الكردى الذى تقدم من جيزان الى جزيرة قمران فوصلها فى ديسمبر سنة ١٥١٥ . ومن هنـاك أرسل الهـدايا الى زبيـد ، وطلب تزويد الحمـلة بالمـؤن والأموال لمساعـدة الأسطول المصرى على مواصلة الجهاد ضد البرتغاليين (٣٥) . ولكن السبب فى عدم أستجابة سلطان اليمن خوفه من أن يصبح ذلك التزاما سـنويا عليه (٣٦) ، وطلب من والى زبيد عدم ارسال المؤن المعتـادة الى جزيرة قمران والحجاز حتى لايستولى عليها المصريون (٣٧) .

كان تعاون سلطان اليمن مع الحملة المصرية أمرا ضروريا لنجاحها ويتطلب نجاح الحملة السماح لسفنها باستخدام بعض الموانى اليمنية ، وبذلك يستطيع الأسطول المصرى تأمين البحر الأحمر وحماية سواحله . وعلى الرغم من أن حسين الـكردى كان يرى احترام سـيادة واستقلال اليمن الا أن تقاعس سلطانها عن تقديم المساعدة للاسطول المصرى قـد أجبره على اتخاذ الخطوات اللازمة لتأمين قواته . وكانت هذه الخطوات تتمثل فى الاستيلاء على القواعد البحرية اليمنية اللازمة للاسطول المصرى. وعلى أساس ذلك التفكير حول حسين الـكردى جهوده العسكرية الى اليمن للاستيلاء على الموانى اللازمة لأسطوله حتى يمكنه التفرغ بعد ذلك للصراع مع البرتغـاليين وهو مطمئن الى وجود خط دفاع خلفـه يمكنـه اللجوء اليـه عند اللزوم (٣٨) .

---

(٣٤) قطب الدين النهروالى : المرجع السابق ، ص ٢٠ .
Kammerer, A. : op. cit., II, p. 231.

(٣٥) يحيى بن الحسين : المرجع السابق ، ص ٦٤٢ .

(٣٦) قطب الدين النهروالى : المرجع السابق ، ص ٢٠ .
Kammerer, A. : op. cit., II, p. 233.

(٣٧) يحيى ابن الحسين : المرجع السابق ، ص ٦٤٤ .

(38) Denison, R. : The Portuguese in India and .. (J.R.A.S.) Oct. 5921, p. 560.

تحرك حسين الكردى وسلمان العثمانى الى زيلع فى يوليو سنة ١٥١٦ بعد أن تركا بعض قواتهما فى تهامة للاستيلاء على اليمن (٣٩) . ولم يلبث أن تحركا من زيلع بعد اصلاح سفنهما وتزويدها بحاجتها من المؤن متجهان الى عدن (٤٠) ، فوصلاها فى ١٣ أغسطس سنة ١٥١٦ . واستطاعت القوات المصرية بعد مقاومة عنيفة الاستيلاء على المدينة ولكن القوات اليمنية أجبرتها على الانسحاب ، ومغادرة عدن فى ١٩ أغسطس من نفس العام (٤١) . واضطر الأسطول المصرى بعد ذلك الى الانسحاب الى جسدة بسبب الخلاف الذى نشب بين حسين الكردى وسلمان العثمانى (٤٢) .

فشلت خطة البوكرك الخاصة بالاستيلاء على عدن فى سنة ١٥١٣ (٤٣) ، الا أن هذا الفشل لم يقض على فكرة السيطرة البرتغالية على عدن على أساس أن السيطرة عليها سوف تؤدى الى السيطرة على البحر الأحمر ، وبالتالى قطع الصلة بين مصر والهند وتوجيه ضربة للمصالح المصرية التجارية فى الهند ، وفى نفس الوقت تثبيت السيطرة البرتغالية على مياه المحيط الهندى وعلى التجارة الشرقية . ولذلك حاول البرتغاليون الاتصال بمملكة الحبشة المسيحية والتعاون معها ضد مصر والحجاز ، بهدف تدمير المقدسات الاسلامية فى مكة والمدينة (٤٤) .

بدأ البرتغاليون فى تنفيذ هدفهم فتحرك أسطول برتغالى بقيادة سؤاريز من جوا بالهند فى الثامن من فبراير سنة ١٥١٧ . وكان يتكون من أربعين سفينة ، ويحمل على ظهره ألفين من المقاتلين . وكانت مهمة

---

(٣٩) جمال الدين محمد الشبلى : السنا الباهر ، ص ٢٠٣ .

(٤٠) يحيى بن الحسين : المرجع السابق ، ص ٦٤٧ .

(٤١) قطب الدين النهروالى : المرجع السابق ، ص ٢٣ — ٢٤ .

(٤٢) السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العثمانى الأول ، ص٨٧

(٤٣) أنظر ص ٨ من هذا البحث .

(44) Kammerer, A. : op. cit., II. p. 265, Wilson, A. T. : op. cit., p. 120.

ذلك الأسطول مهاجمة الأسطول المصرى فى البحر الأحمر وتدميره ومهاجمة ميناء جدة وتدميره وكذلك الاتصال بمملكة الحبشة (٤٥) .

وصل الأسطول البرتغالى الى ميناء عدن فى الخامس من مارس سنة ١٥١٧ ، ولكنه لم يهاجم المدينة وعمل على أقرار الأمور سلميا مع حاكمها ، وحاول أن يجتذبه الى جانبه ضد المصريين ، فأعلن ان الهدف من وصوله هو الوقوف الى جانب العدنيين ضد المصريين الذين هاجموا بلاده وحاولوا الاستيلاء عليها (٤٦) . وخشى حاكم عدن رفض المطالب البرتغالية ، وما قد يؤدى اليه ذلك الرفض من مهاجمة البرتغاليين لعدن ومحاولة تدميرها فأمدهم بحاجتهم من المؤن والمرشدين البحريين لقيادة سفنهم الى جدة (٤٧) .

تحرك سؤاريز من عدن فى السابع عشر من مارس سنة ١٥١٧ ، ووصل الى القرب من جدة ، ولكنه لم يستطع الوصول اليها بسبب شدة الرياح ، كما فشل فى تدميرها أو الاستيلاء عليها . ويرجع هذا الفشل الى قوة التحصينات التى أقامها المصريون هناك (٤٨) . وقامت سفن الأسطول المصرى بقيادة سلمان بمطاردة سفن الأسطول البرتغالى وتمكنت من أسر احداها بالقرب من ميناء اللحية اليمنى ، وعادت بها وبمن عليها من البرتغاليين الى ميناء جدة (٤٩) .

أسرع البرتغاليون بالانسحاب من مياه جدة ، واتجهوا الى جزيرة قمران ببعض سفنهم بينما شتت الرياح البعض الآخر وحولته الى احدى الجزر الواقعة أمام الشاطىء الأفريقى بالقرب من ميناء سواكن . ولم يستطع البرتغاليون الحصول على حاجتهم من المياه العذبة فاتجهوا الى

---

(45) Kammerer, A. : op. cit., II. pp. 205, 266.

(٤٦) يحيى بن الحسين : المرجع السابق ، ص ٦٥٨ .

(47) Kammerer, A. : op. cit., II. pp. 266 - 277.

(48) Marco, E. : op. cit., p. 1, Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 267 - 269.

(49) Serjeant, R. J. : op. cit., p. 170.

جزيرة دهلك فى حالة أعياء شديد ، وموت عدد كبير منهم بسبب نفاذ مخزونهم من المياه العذبة واضطرارهم لشرب المياه المالحة ، ومن هناك اتجهت الى مصوع حيث وقعت فى كمين ترتب عليه قتل عدد آخر منهم (٥٠)

هاجم البرتغاليون بقيادة سوّاريز جزيرة قمران ودمروا التحصينات التى سبق وأنشأها حسين الكردى ، وأحرقوا النخيل الموجود بالجزيرة ثم غادروها فى ١٢ يونيو سنة١٥١٧ متجهين الى زيلع فوصلوها فى يوليو، وقتلوا عددا كبيرا من أهلها انتقاما منهم ،ثم اتجهوا الى عدن وهم فى طريقهم الى الهند (٥١) . وتوقف سوّاريز خمسة أيام فى مياه عدن ، ولكنه لم يهاجمها بسبب مالحق بقواته من خسائر ، وانتشار المرض بين من بقى من رجاله ، ولعدم تأكده من نتائج ذلك الهجوم . وبذلك تخلى سوّاريز عن فكرة مهاجمة عدن والاستيلاء عليها ، كما رفض قبول مفتاح المدينة الذى عرضه عليه حاكمها (٥٢) .

هاجم بعض الكتاب البرتغاليين سوّاريز لعدم استيلائه على عدن ، واتهموه باضاعة الفرصة التى سنحت له فى ذلك الوقت . ورأى ملك البرتغال أن الفشل الذى منى به البرتغاليون فى البحر الأحمر يرجع الى سوّاريز فعزله من منصبه . وغادر سوّاريز الهند متجها الى البرتغال فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٥١٨ (٥٤) .

لم ييأس البرتغاليون بسبب الفشل الذى تعرضت له حملة سوّاريز فى البحر الأحمر ، وقرروا تنفيذ مخططهم ، فأرسلوا حملة كبيرة بقيادة لوبو سكويرا نائب الملك فى الهند الذى خلف سوّاريز . ووصلت الحملة

---

(50) Kammerer, A. : op. cit., II. pp. 269, 272.

(51) Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 273 - 274.

(52) Marco, E. : op. cit., p. 2, Kammerer, A. : op. cit., II, p. 275.

(53) Dames, M. L. : The Portuguese and .. (J. R. A. S.) Jan. 1921, pp. 12 - 13.

Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 266 - 267, Wilson, A. T. : op. cit., p. 123.

(54) Kammerer, A. : op. cit., II. p. 276.

الجديدة الى مدخل البحر الأحمر فى أوائل سنة ١٥٢٠ . وكانت أغراض الحملة فى هذه المرة تتكون من شقين ، الأول منهما مهاجمة جدة والاستيلاء عليها ، والثانى انزال أول بعثة دبلوماسية برتغالية الى السواحل الحبشية لانشاء علاقات دبلوماسية مع مملكة الحبشة ، والتكاتف معها للقضاء على النفوذ الاسلامى فى مياه البحر الأحمر . ولم يحاول سكويرا الرسو بميناء عدن بل توجه مباشرة الى ميناء جدة مستغلا فى ذلك موسم الرياح ، ولكنه لم يستطع الوصول اليها بسبب الرياح المعاكسة (٥٥) . كما وصلته أنباء تشير الى وجود قوات عسكرية اسلامية بها ، فاتجه الى ميناء مصوع حيث أنزل دى ليما المبعوث البرتغالى لملك الحبشة (٥٦) .

أرسل البرتغاليون فى أوائل سنة ١٥٢٤ حملة كبيرة الى مصوع بقيادة دى سلفيرا وكان الهدف من ارسالها استعادة المبعوث البرتغالى الى بلاط ملك الحبشة . وقد تقدم حاكم عدن المؤن للحملة أثناء ذهابها الى مصوع ، وتبين دى سلفيرا ضعف عدن ، ونظرا لأهميتها الاستراتيجية فقد أجبر حاكمها عند عودته على عقد معاهدة مع البرتغاليين نصت على أن تدفع عدن جزية سنوية للبرتغاليين ، وأن تسمح للسفن البرتغالية باللجوء الى مينائها فى أى وقت ، ولكن نائب الملك فى الهند رفض اعتماد تلك المعاهدة على أساس أنها تضييع للجهود البرتغالية . ولم تلبث القوات البرتغالية أن ضربت بمدافعها عدن أثناء اتجاهها الى مصوع فى سنة ١٥٢٥ ، ولكنها لم تحقق شيئا من النجاح . كما حاول دى سلفيرا فى أثناء عودته من مصوع فى سنة ١٥٢٦ مهاجمة عدن ولكن الرياح أبعدت سفنه عنها . وعلى الرغم من الفشل المتكرر أمام عدن فقد استطاع دى سلفيرا فى فبراير سنة ١٥٣٠ عقد معاهدة مع حاكم عدن اعترف فيهما بالسيادة البرتغالية على عدن ، ودفع جزية سنوية للبرتغاليين . واعترف البرتغاليون بحق العدنيين فى الملاحة فى المحيط الهندى بشرط عدم ذهاب سفنهم الى جدة (٥٧) . ولضمان تنفيذ بنود المعاهدة ترك البرتغاليون احدى سفنهم الحربية وعليها أربعون برتغاليا فى ميناء عدن . ولم يكتب لتلك

---

(55) Serjant, R. J. : op. cit., p. 171.

(٥٦) با مخرمة : قلادة النحر ج٣ ، ص ص ١٢٠٩ — ١٢١٠ .

(57) Kammerer, A. : op. cit., II. pp. 283 - 286.

المعاهدة الاستمرار الا مدة قصيرة بعد رحيل دى سلفيرا عن عـدن ، أذ قبض حاكم عدن على البرتغاليين الموجودين فى الميناء وسجنهم واستخدمهم فى صنع الأسلحة ، وأعلن دخوله فى طاعة العثمانيين (٥٨) .

حاول البرتغاليون فى سنة ١٥٢٣ اسـتعادة مبعوثهم من بلاط ملك الحبشة فأرسلوا حملة هاجمت ميناء الشحر ونهبته أثنـاء ذهابهـا الى مصوع ، ولـكنها فشلت فى تحقيق هدفها (٥٩) . ولم ييأس البرتغاليون من استعادة سفيرهم فأرسلوا الحملات السـنوية الى البحر الأحمر حتى أمكنهم استعادته فى أوائل سنة ١٥١٦ (٦٠) . وكان المبعوث البرتغـالى يحمل خطابين من ملك الحبشة ، كما صحبه سفير من قبل ملك الحبشة . وفى هـذين الخطابين أعلن ملك الحبشة عن رغبته فى قيـام تعاون بينه وبين البرتغال ، ولـكنه لم يعلن عن رغبته فى الاشتراك مع البرتغاليين فى اعلان الحرب على المسلمين ، وفى نفس الوقت أخذ يحرض ملك البرتغال على الاستمرار فى محاربة المسلمين حتى يتم القضـاء عليهم نهائيـا ، والاستيلاء مرة أخرى على بيت المقدس . واذا كان ملك الحبشة لم يحدد فى خطابيه كيفية التعاون مع البرتغاليين فقـد طلب منهم أن يقـدموا له المساعدات حتى يستطيع الوقوف فى وجه القوى الاسلامية المحيطة به . كما طلب ابقاء البعثة الدينية البرتغالية الموجودة فى الحبشية لنشر الدين المسيحى فى جميع جزر البحر الأحمر الواقعة على الحدود الحبشية ، لأن جميع سكانها من المسلمين والوثنيين (٦١) .

كان نجاح البرتغال فى التحالف مع الحبشة معنـاه امكان تطويق العـالم العربى من ناحية الجنوب ، وفى نفس الوقت يمثل تهديدا خطيرا ومباشرا للأماكن الاسـلامية المقـدسة فى الأراضى الحجازية . ولـكن ذلك التحالف كان يحمل منذ البداية عوامل فشله بسبب اختلاف وجهتى نظر

---

(58) Serjeant, R. J. : op. cit., pp. 55 - 59, Wilson, A. T. : op. cit., p. 121.

(59) Serjeant R. J. : op. cit., pp. 52 - 53.

(60) Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 285 - 286.

(61) Alvarez, F. : Narrative of the Portuguese Embassy .., pp. 389 - 399.

المتحالفين ، واختلاف مذهبيهما الديني . فالأحباش يعتنقون الديانة المسيحية على المذهب الأرثوذكسي بينما يعتنق البرتغاليون الدين المسيحي على المذهب الكاثوليكي . ومن ناحية الأهداف كان الأحباش يرغبون في أن يساعدهم البرتغاليون على تطوير بلادهم حتى يستطيعوا الوقوف أمام الامارات الحبشية المسلمة المجاورة لهم . كما كانوا يرون أن تتعاون جميع الدول المسيحية الأوربية مع البرتغال بارسال قواتها إلى البحر الأحمر، وتستولى كل دولة من هذه الدول على أحد المواقع الهامة الواقعة على البحر الأحمر ، فتحتل أسبانيا زيلع ، وتحتل فرنسا سواكن ، بينما تحتل البرتغال مصوع . وفي نفس الوقت تساعد القوات المتحالفة الحبشة في الزحف على البلاد الاسلامية والاستيلاء على جدة ومكة والقاهرة وغيرها من المدن الاسلامية المهمة . وكان معنى هذا الاقتراح القضاء على احتكار البرتغال لطريق رأس الرجاء الصالح . بينما كان البرتغاليون يهدفون من وراء ذلك التحالف الى اتخاذ الحبشة قاعدة عسكرية لهم ، واستغلال ثروات الحبشة ، وتحويل الأحباش من المذهب الأرثوذكسي الى المذهب الكاثوليكي . وما أن تبين الأحباش تلك الأهداف حتى عملوا على طرد البرتغاليين من بلادهم ، ونجحوا في تحقيق ذلك في أوائل القرن السابع عشر (٦٢) .

كان هناك عامل آخر ظهر إلى حيز الوجود وأثر على موقف الأحباش من البرتغاليين وهو استيلاء الأتراك العثمانيين على البلاد العربية . فقد خشي ملك الحبشة أن يؤدي تحالفه مع البرتغاليين الى مهاجمة القوات العثمانية لبلاده ، أو التدخل في تعيين رئيس أساقفة الحبشة التي كانت كنيستها تتبع كنيسة الاسكندرية ، وكان بطريرك الاسكندرية هو الذي يعين رئيس أساقفة الحبشة . كما خشي ملك الحبشة أن يؤدي نشاط العثمانيين في المنطقة الى اثارة القلاقل في الحبشة من جانب الامارات الحبشية المسلمة التي كانت تحيط بالحبشة (بلاد الطراز الاسلامي) . ولهذه الأسباب فضل الأحباش عدم عقد اتفاقيات محددة مع البرتغاليين

---

(62) Alvarez, F. : Ibid., pp. 311 - 312.

بل ان الأمـــر وصـــل بهم الى درجة التبرء من مبعـــوثهم فى بلاط ملك البرتغال (٦٣) .

وهكذا فعلى الرغم من محاولات البرتغاليين المتكررة الاستيلاء على مواقع استراتيجية على سواحل البحر الأحمـــر للقضاء على الســـيطرة الاسلامية على مياهه والوصول الى الأماكن المقدسة الاسلامية فى الأراضى الحجازية لتدميرها والقضـــاء على الدين الاســـلامى فانهم لم يستطيعوا الوصول الى هدفهم بسبب الجهود التى بذلها المصريون ، وخوف الأحباش من الأهـــداف البرتغاليـــة ، ثم ظهور الأتراك العثمانيين كقوة اسلامية كبيرة يخشى خطرها فى مياه البحر الأحمر .

(63) Castanhoso, M. : The Portuguese Expedition to Abyssinia pp. xxviii - xxix.

١١

الصراعات المحليـــة والدولية

فى البحر الأحمر فى النصف الأول من القرن السادس عشر

للأستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم
عميد كلية الآداب ـــ جامعة عين شمس

سنحاول فى هذه الدراسة أن نعرض لقوى الصراع المحلية والعالمية فى البحر الأحمر فى النصف الأول من القرن السادس عشر .

على أننى أود أن أشير بادىء ذى بدء أن مجالنا فى هـــذه الدراسة سيكون مقتصرا على السواحل الأفريقية للبحر الأحمر وبصفة خاصة على المنافذ الساحلية لهضـــبة الحبشة فى البحـــر الأحمر وعلى أطرافه فى خليج عـــدن .

وكما يظهر من الوهلة الأولى أننا نكون بذلك قد حددنا ماهو المقصود بالقوى المحلية وهى دولة الحبشة المسيحية من ناحية والدويلات الاسلامية التى أحاطت بها من ناحية أخرى ومما لا شك فيـــه أن الصراعات المحلية كانت سمة من السمات التى ميزت تاريخ المنطقة وترجع فى أصولها الى أسباب دينية واقتصادية .

غير أن هـــذه الصراعات رغم امتدادها الزمنى الطويل كانت محدودة الطابع ولم تصـــل الى ما وصلت اليـــه من عنف وحدة الا حينما ارتبطت بصراعات القوى الكبرى التى دخلت فى تسنيج الصراعات المحلية اعتبارا من بداية القرن السادس عشر .

وقد يكون من المفيد أن نشير فى بداية الدراسة اشارة عاجلة الى نشأة الامارات الاسلامية التى احاطت بمملكة الحبشة المسيحية .

فالأمر الذى لا شك فيـــه أن البحر الأحمر بوضعه الجغرافى كان وسيطا تم عن طريقه تدفق الهجرات العربية من سواحله العربيـــة الى سواحله الأفريقية وساعد على ذلك قرب المسافة بين هذه السواحل التى تكاد تتلاقى عند مضيق باب المندب .

ومن الثابت أن هجرات عرب سواحل الجزيرة العربية الى سواحل البحر الأحمر الأفريقية كانت هجرات مستمرة فى عصور مختلفة من التاريخ حيث كان العرب يجدون فى السواحل الأفريقية من البحر الأحمر ملاجىء يفرون اليها من ظروف الحياة القاسية التى كانت تتصف بها طبيعة بلادهم وأساليب العيش فيها اذ كانوا يجدون فى مستقراتهم الجديدة فرصا كثيرة لكسب الرزق وذلك باحتراف التجارة وسائر المهن البحرية المختلفة .

وقد استمرت هذه الهجرات قائمة حتى عهد قريب من ذلك ما يحدثنا به ليتمان من أن قبيلة الرشايدة هاجرت من سواحل الجزيرة العربيـــة الى الساحل الغربى للبحر الأحمر واخذت تتأثر بالطابع الأفريقى وتتكلم لغة التيجرى الى جانب لغتها العربية (١) .

وكانت معظم الهجرات العربية تندفع بصفة خاصة من باب المندب الذى كان يمثل تيار هجرة بشرية عظيمة الشأن الى السواحل الشرقيـــة لأفريقيا وترتب على ذلك أن أصبح لسكان جنوب الجزيرة العربيـــة أثر عميق على اكثر من عنصر حضارى فى الجانب الأفريقى حيث كون عرب الجنوب نظاما تجاريا وعلاقات اقتصادية مع السواحل الأفريقيـــة للبحر الأحمر فاذا ما القى العرب مراسيهم فيما هو الآن ميناء مصوع أو الموانى القريبة من ذلك الميناء فانهم سيجدون الشاطىء الأفريقى قريب الشـــبه بمواطنهم فى سواحل الجزيرة العربية ولكنه كان يوفر لهم مجالا أوســـع لتجارتهم ومناخا افضل لمقامهم ولا يزال الساحل الأفريقى للبحر الأحمـــر يحمل اسماء من الجنوب العـــربى خاصـــة فى منـــاطق مصوع وعصب وما وراءهما فى الداخل .

---

(١) A. Leitman, Encyclopaedia of Religions and Ethics.

وإذا كان الجنوب العربي عرف على سبيل المثال أودية وانهار مثل مأرب والقاش فهذه الأسماء أيضا موجودة في أرتيريا والسودان (٢) .

والمتفق عليه تاريخيا أن عرب الجزيرة العربية كانوا أول من توغلوا في هضاب الحبشة لمسافات بعيدة وقد اتخذوا من مجاري بعض الأنهار وسيلتهم الى ذلك غير أن ما يؤسف له أن معظم سجلات العرب قد مستها يد الضياع او على الأقل لم تصل الى ايدينا باستثناء بعض المصنفات العامة والخاصة التي تعرضت للممالك المسيحية في الحبشة وللممالك والامارات الاسلامية التي أوجدها العرب فيها (٣) .

من ذلك ما كتبه المقريزي في رسالته الشهيرة التي اسماها « الالمام عمن بأرض الحبشة من ملوك الاسلام » وقد كتب هذه الرسالة بين عامي ١٤٣٤ — ١٤٣٥ وأورد فيها ذكرا لاثني عشر اقليما من اقاليم الحبشة (٤) .

ومما لا شك فيه أن انتشار الاسلام في الحبشة كان دافعا لعلماء المسلمين لتصنيف الكتب والرسائل الجامعة لفضل الأحباش واثرهم على الدين الاسلامي .

وقد اشتهر من هؤلاء العلامة السيوطي الذي وضع ثلاثة رسائل خاصة في هذا الموضوع (٥) ، ومن المتعارف عليه انه كان للمسلمين في الحبشة سبع ممالك مزدهرة سميت بدول الطراز لانها كانت كالطراز الذي يحف بالهضبة الأثيوبية وهي ممالك أوفات — دواره — ارابيني — شرحا — هديا — بالي — دارة (٦) .

---

(٢) عبد العزيز كامل : جغرافية الاسلام في أفريقيا ص ٢٣ ، انظر أيضا جمال زكريا قاسم : الروابط العربية الأفريقية قبل الاستعمار البرتغالي من مجموعة أعمال العلاقات العربية الأفريقية: دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار — معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٧٨ .

(٣) لوثروب ستوارد ، حاضر العالم الاسلامي : ترجمة عجاج نويهض تعليق شكيب ارسلان ، ج ١ ص ٣٣٨ — ٣٣٩

(٤) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٢ ص ٣٤

(٥) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ، ص ٨١ — ٩٢

(٦) يوسف احمد : الاسلام في الحبشة ، ص ٢٤

وقد أشارت كثير من المصنفات العربية الى هـذه الممالك اذ أورد القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى بعض المعلومات عن الحبشة بقسميها الاسلامي والمسيحى ، وأفاض فى حديثه عن الممالك الاسلامية حيث وصف بعضها وأورد طرفا من تنظيماتها الاقتصادية والعسكرية ناقلا الكثير مما أورده عن مسالك الأمصار لشهاب الدين بن فضل الله العمرى .

وقد ركز القلقشندى بصفة خاصة على أقدم الممالك وهى مملكة أوفات على أنه تجدر الاشارة الى أن ملوك الحبشة كانوا يخصون الدويلات الاسلامية فى المنطقة بالحقد نظرا لارتقائها مدنيا واقتصاديا وقربها من ساحل البحر الأحمر مما يحول بين الحبشة وسهولة الاتصال بهذا البحر .

الا أنه ينبغى أن نؤكد أن هـذه الامارات رغم تفوقها اقتصاديا ومدنيا كانت تعانى الكثير من عوامل الضعف والتفكك بسبب المنازعات التى كانت تقوم بين بعضها البعض ، وقد أذكى ملوك الحبشة هـذا الخلاف وغذوه حتى لا تجتمع كلمة هـذه الامارات وتقف فى وجههم .

وكما سبق القول فان ظهور هـذه الممالك الاسلامية كان حصيلة للهجرات الكثيرة التى تدفقت من الساحل العربى الى الساحل الأفريقى للبحر الأحمر حيث تمكن العرب من تأسيس بعض المراكز التجارية فى هذا الساحل أصبحت فيما بعد بدايات للطرق التى أخذت التجارة العربية والحضارة العربية الى قلب الهضبة الحبشية .

وقد أسهمت هـذه الامارات الساحلية بنشاط تجارى ملحوظ وصل فيما بعد الى حـد احتكار التجـارة بين داخلية بلاد الحبشة من ناحيـة وسواحل البحر الأحمر من ناحية أخرى .

والجدير بالذكر أن بلاد الحبشة لم تكن فى اعتبار المسلمين أرض جهاد فهى التى استقبلت وحمت أولى الجماعات الاسلامية التى وجـدت من النجاشى خير رعاية ولهذا السبب تأثر مسلك المسلمين فيها واتخـذ طابعا سلميا متعدد الاتجاهات انتهى بظهور عدة ممالك اسلامية حـول الهضبة الحبشية وعلى ساحل الصومال (فى المحيط الهندى) ولكن بمضى الزمن أخذ النشاط العربى الاسلامى فى الازدياد وأدى التفاخر الدينى

والاقتصادي الى عزل الحبشة عن العالم الخارجي عزلا كاد يكون تاما خاصة بعد استيلاء المسلمين على زيلع ثغر اكسوم ومخرج الحبشة على ساحل البحر الأحمر (٧) .

وقد أدى هذا الوضع الى تفاقم مشاكل حكام الحبشة الذين رأوا العمل على الحد من نشاط العرب الاقتصادي وانهاء السيطرة العربية الإسلامية على مرافق التجارة وطرق القوافل وأدى هذا الى قيام منازعات محلية الطابع حتى تحولت مع نهاية القرن الخامس عشر الى نزاع عالمي بتدخل الأطراف العالمية فيه .

فبعد نهاية الحروب الصليبية تبين لبعض الأوربيين اعتماد المسلمين في الشرق الأوسط على التجارة العابرة (الترانزيت) من الهند واقترح البعض منهم تخريب هذه التجارة ليفت ذلك في عضد المسلمين اذ اقترح مارينو سانتو Marine Santo في أوائل القرن الرابع عشر التحالف مع دول النوبة المسيحية ومساعدتهم بالأساطيل ليغزوا بها سواحل وجزر البحار الهندية التي كان البحر الأحمر من عدادها .

كما اقترح جولياى آدم Guillaun Adam بناء سفينتين في هرمز ثم ارسالهما لقفل البحر الأحمر امام التجارة الاسلامية على أن يتخذا سقطرة قاعدة لهما . كما اشار آدم بأن القراصنة المسيحيين سيساهمون في هذا العمل مساهمة جادة (٨) .

وفي ١٤٨٧ بدأت البرتغال محاولة الاتصال بأرض القديس يوحنا حين أرسلت بدرودى كافيلهام لجمع المعلومات عن هذه البلاد التي كان الأوربيون يجهلون موقعها بالضبط ودراسة مسالك تجارة التوابل ووصل هذا الرجل الى النجاشي في ١٤٩٠ .

---

(٧) جمال زكريا قاسم ، الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ١٢٧ .

(٨) Alvareg (Father Francisco) Narratives of the Potuguese Embassy to Abyssinda during the years 1520 - 1527, Trans and ed by Ford Stonney of Alderby, London. 1881, P. 268.

وبعد هذا بسبع سنوات عبرت البرتغال رأس الرجاء الصالح وأضر هذا بالتجارة المصرية العابرة عن طريق البحر الأحمر أو تلك التى كانت تتولى نقل التجارة فى البحر الأبيض المتوسط (٩) .

ومما تجدر الاشارة اليه انه عندما وفد البرتغاليون الى البحر الأحمر كانت سواحل هذا البحر عربية اسلامية حيث حكم المماليك فى شماله وملوك اليمن من بنى طاهر فى جنوبه وحكم فى وسطه اشراف مكة الذين كانوا يتولون حكم الحجاز الذى كانت تجارته عن طريق البحر الأحمر ، بواسطة ميناء جدة منتعشة ، خاصة فى مواسم الحج .

كذلك سيطر الاشراف على ميناء ينبع فى الشمال ووصل نفوذهم فى الجنوب حتى جيزان .

غير أن المماليك فى شمال البحر الأحمر كانوا القوة السياسية يحرسون المقدسات الاسلامية خاصة بعد أن سيطروا منذ منتصف القرن الخامس عشر على جمارك جدة ووضعوا بعض حامياتهم على الجانب الأفريقى من البحر الأحمر وامتدت سيطرة المماليك الفعلية على سواكن . ووصلت سيطرتهم السياسية الى الجنوب من ذلك وربما بلغت نهاية هذا البحر فى أغلب الأوقات .

أما سيطرة المماليك التجارية فقد توقفت مع جنوب البحر الأحمر (١٠) وقد وجد البرتغاليون لدى وصولهم للبحر الأحمر أن التجارة بين ساحل هذا البحر مزدهرة تجرى فى مسالكها القديمة بين الشرق والغرب .

وكان ملوك الحبشة المسيحية يسيطرون على الهضبة ، والامارات المسلمة تسيطر على ساحل القرن الأفريقى وما وراءه .

وكانت زيلع هى المركز الدينى لإمارة أوفات التى كانت صلتها بعدن واليمن وثيقة جدا ، كما كانت امارة هرر هى مركز الثقل الاسلامى (١١) .

---

(٩) يوسف كمال ، رحلة بالسفينة نايرون حول القارة الأفريقية ، ص ١٨ — ٢٠

(١٠) Serjent, PP. 7 - 8.

(١١) Ibid. PP. 8 - 9.

ولا شك أن وصول البرتغاليين الى سواحل البحر الأحمر الأفريقية وتمكنهم من بعض موانئه قد أفسح لهم المجال للاتصال بالأحباش وكان ذلك أحد الأهداف الرئيسية التى كان يهدف البرتغاليون الى تحقيقها منذ أن انطلقوا فى عملياتهم الاستكشافية الكبرى .

على أنه كما أوضحنا فيما سبق لم يكن اتصال البرتغاليين بأباطرة الحبشة أمرا ميسورا وذلك لأنه قد أحاطت بهضبة الحبشة قوى اسلامية ظهرت فى شكل امارات أو دويلات صغيرة إستطاعت أن تعزل الحبشة عن أية اتصالات خارجية وكان من الطبيعى أن يلجأ المماليك للتصدى للخطر البرتغاليين الذى كان يمثل خطرا مزدوجا أعنى بذلك سيطرة البرتغاليين التجارية على موارد التجارة الشرقية وتحويلها الى الطريق البحرى الجديد طريق رأس الرجاء الصالح، واتجاههم الى تطبيق سياسة الاحتكار معتمدين فى ذلك على قواعدهم البحرية المنتشرة فى بحار الشرق ويضاف الى ذلك ما كان يمثله البرتغاليون من خطر داهم على الدين الاسلامى خاصة وأن البرتغاليين بعثوا الروح الصليبية من جديد ولذلك كان من الطبيعى أن تعمد القوى الاسلامية الى التجمع تحت راية المماليك فى الوقت الذى اتجه فيه البرتغاليون الى الحبشة وقد ظهر التعاون واضحا بين البرتغاليين والأحباش خلال الصراع الذى نشب بين البرتغاليين والمماليك عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر وكان نشاط المماليك فى البحر الأحمر من أكبر العوامل التى عملت على تشجيع المماليك والامارات الاسلامية فى الحبشة والصومال على محاربة أباطرة الحبشة وبرزت مملكة عدل التى كانت مملكة اسلامية ممتدة الأرجاء تسيطر على الأراضى التى تطل على رأس القرن الأفريقى فى جوردفوى كما كانت تمتلك عدة موانى تابعة لها كمينائى زيلع وبربرة وغيرها .

والثابت أن ملكة الحبشة هيلانة أرسلت رسالة فى عام ١٥١٠ الى ملك البرتغال أبدت فيها استعدادها لامداد البرتغاليين بالعمال والجنود لمنازلة سلطان مصر وكان مما جاء فى هـــذه الرسالة «ان بلادنا داخلية بعيدة عن شاطئ البحر وليس لدينا أساطيل ولكننا على استعداد لأمدادكم بالرجال والمؤن واذا جهزتم ألف سفينة حربية فاننا على استعداد لتقديم

الرجـال المقـاتلين الـلازمين لها ليقضـوا قضـاءا تاما على الـكفار المسلمين » (١٢) .

وتذكر لنا بعض المصادر وجود مشروعات تآلف وتحالف بين البرتغاليين والأحباش كمشروع أفونسو البوكرك لتحويل مجرى نهر النيل بحيث يصب فى البحر الأحمر بدلا من البحر المتوسط بهدف منع الموارد المـائية عن مصر . وقد أرسل البوكرك الى عمانويل طالبا امداده بعمال من ذوى الخبرة فى قطع الصخور مؤكدا أن ملك الحبشة شديد الرغبة فى انجاز هـذا المشروع لولا افتقاره الى وسائل التنفيذ واذا تم ذلك فان البلاد المصرية سوف تهلك تماما (١٣) .

كذلك حاول البرتغاليون بالتعاون مع الأحباش النفاذ الى البحـر الأحمر والوصول الى ينبع ميناء المدينة ومن ثم التوغل فى الأماكن المقدسة امعانا فى اذلال المسلمين وذلك بالعبث فى مقدساتهم ولذلك تبلورت خطة المماليك فى تقوية حكمهم فى أقاليم البحر الأحمر وفى تحصين سـواحله وبصفة خاصة ميناء جدة حيث نجح حسين الكردى ـ القائد المملوكى ـ فى تحصين ذلك الميناء وأكمل خطته بالتوجه الى سواكن فاستولى عليهـا وأقام بها بعض الاستحكامات وأخيرا وصلت حملته الى عدن ومنها الى الهند ولكنه منى بهزيمة فادحة فى معركة ديو ١٥٠٩ .

ولا شك أن انتصار البرتغاليين فى هـذه المعركة دفع بالأحبـاش الى توثيق التعاون معهم وتطالعنا بصدد ذلك بعض الوفود الحبشية التى أرسلت من قبل الملكة هيلانة الى الملك عمانويل ملك البرتغـال وكان من أهداف ارسال تلك الوفود تحقيق التعاون بين الحبشة والبرتغال لدفع الأخطار التى كانت تتعرض لها الحبشة من قبل القوى الاسلامية كمـا أرسلت وفود حبشية أخرى الى البابا كلمنت السابع أبدى فيهـا ملوك

---

(١٢) سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى . مجـلة الجمعية المصرية للدراسـات التاريخية . ص ٤١ ـ ٤٢ .

Cf. Kammerer, La Mer Rouge, Tome II. PP. 254 - 255.

(١٣) المصدر السابق . ص ٤٢ .

الحبشة استعدادهم للدخول في الكنيسة الكاثوليكية مقابل أن تسبغ دول أوربا المسيحية الحماية عليهم .

واذا كان الموت لم يمهل البوكرك طويلا ليواصل مشروعاته العدوانية ضد الدولة المملوكية فى مصر فان خليفته لوبوسواريز Lopo Soarez انه فى حاجة الى معونة ملك الحبشة للاستيلاء على جدة ومن ثم القضاء على دولة المماليك قضاءا مبرما ولذلك أرسل مبعوثا الى بلاد الحبشة طالبا معونتها لتنفيذ مشروعه الكبير ضد مصر وقد صادف فى ذلك الوقت قيام ثورة فى عدل تزعمها الامام محفوظ الذى كان يقوم على ثغر زيلع وفي نفس الوقت دفعت هــذه الثورة بالامبراطورة هيلانة الوصية على العرش أن ترسل أحد أتباعها ويدعى ماثيوس الى الهند ليعرض على نائب ملك البرتغال هناك التعاون بين البلدين فى شن الحرب العامة على المسلمين وخاصة المماليك فى مصر ، هذا بالاضافة الى مساعدة البرتغاليين للحبشة فى وقف النشاط الاسلامي المعادي حول ممتلكاتها وخاصة علي يد الامام محفوظ الذى تمكن من السيطرة علي اقليم هرر كمـــا سيطر على طــرق الحبشة الموصلة الى البحر الأحمر .

وكان من البديهى أن يرحب البرتغاليون باقامة علاقات مباشرة مع الحبشة لايجاد مراكز بحرية لهم فى داخل البحر الأحمر بهدف مهاجمــة الحجاز ومصر فى نفس الوقت الذى كان فيه الامام محفوظ يواصل ثورته ويقال أنه ضاق ذرعا للموقف المسالم لملك عدل تجاه أثيوبيا وكان يتوق الى أثارة حرب دينية مقدسة ضد الحبشة وقد صادفت ثورة الإمام محفوظ تولى لبناد نجل العرش الذي صمم على أن يضع حدا لإغاراته وتم له ذلك بنجدات برتغالية استطاعت أن تحرق ميناء زيلع بقيادة القائد البرتغالى سواريز ويرجح أن ذلك حدث فى يوليه ١٥١٧ (١٤) .

وعلى أثر هزيمة المسلمين فى زيلع استثمر لبنادنجل النصر فأحرق

(١٤) Ethiopier Acultural History Cf Narritive of the Portuguese Embasay to the Abyssinia during the years 1520 - 1527 of Father Francioco, Trmslated from Pordugueso by Lord Slanley of Aderby P. 160.

القرنية والزراع كما نجح الأسطول البرتغالى فى تحقيق الأمن للحبشة (١٥) .

ومع ذلك فقد كانت الهزيمة التى تعرضت لهـا عدل بقيـادة الامام محفوظ إثرها الكبير فى تماسك أسرتها الحاكمة خاصة حينما بادر السلطان أبو بكر بنقل عاصمته الى هـرر وكان ذلك تحت ضـغط قـواد من الأحباش فى الوقت الذى كان فيه البرتغاليون قد سيطروا على موانى البحر الأحمر الرئيسية بهدف حماية الحبشة من احتمال تهديد الأتراك (١٦) .

وعلى أية حال فقـد تميز عهد لبناد نجل ١٥٠٨ - ١٥٤٠ بميزتين هامتين :

أولاهما : اشتداد الصراع بين المسلمين وبين الحبشة المسيحية .

والثانية : أن هـذه الصراعات أسفرت عن سيطرة المسلمين على هضاب الحبشة ودخول الأحباش فى علاقات أوثق مع البرتغاليين (١٧) .

واذا كان المماليك لم يتورطوا فى الصراعات الداخلية فان عهد لبناد نجل سيشهد حلول العثمانيين محل المماليك وظهورهم على مسرح الصراع الداخلى . ولعـل من الأهميـة أن نبرز أن الدولة العثمانيـة ، الدولة الاسـلامية الفتيـة ، قـد أحرزت أنتصارات كثيرة فى أوربا قبـل أن تبـدأ فتوحاتها الاسـلامية حتى باتت القـوى المسيحية تخشى أمرها ، ولم يقف ذلك على حدود القوى المسيحية فى أوربا بل تعدى أثره الى مملكة الحبشة المسيحية حتى أن الامبراطورة هيـلانة خـلال وصايتهـا على الامبراطور لبناد نجل بدأت تعمل على تحصين الحبشة بل وصل بها الأمر الى أن أوفدت بعثة الى السلطان قنصوة الغورى فى عام ١٥١٦ للتباحث فى صد خطر العثمانيين وبدأت الدولة العثمانية فتوحاتها فى الشام ومصر ومن ثم بدأت تتصدى للدفاع عن البحر الأحمر (١٨) .

---

(١٥) The Ethiopian, Op. Cit., PP. 73 - 75.

(١٦) The Ethiopan, The Muslim Conquests and The Portugaese Interlude P. 72.

(١٧) The Ethiopian, P. 71.

(١٨) Ethiapia - A Cultural History, P. 200. Cf. Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssiynia during the years 1520 - 1527 of Father Francisco Alvarez Translated From the Portuguese by Lord Aderby. P. 10.

خاصة بعد أن أصبح الخطر البرتغالي يشتد ضراوة في البحر الأحمر بصفة خاصة وبحار الشرق بصفة عامة وكما سبق أن أشرنا كان البرتغاليون قد أرسلوا حملة الى البحر الأحمر تحت قيادة لوبوسواريز Lopo Soarez نائب الملك الذي خلف البوكرك وكان غرضها التركيز على مهاجمة جدة وانزال بعثة دبلوماسية الى الحبشة وقد عهد الى الأب فرانسيسكودى الفاريز بقيادة هـذه البعثـة التي استمرت في الحبشـة ما يقرب من سبع سـنوات ١٥٢٠ — ١٥٢٧ اذ لم يستطع البرتغاليون استرجاع بعثتهم بسبب سيطرة العثمانيين على سواحل البحر الأحمر وقد أثنى الامبراطور لبناد نجل على البعثة البرتغالية وأظهر بالغ سروره لالتقائه بمسيحيين من وراء البحار لم يرهم أجداده أو أسلافه وكان يأمل فيما لو تمكن البرتغاليون من السيطرة على ميناء سواكن ومصوع خشية أن يسيطر العثمانيون عليهما وأبدى استعداده لتقديم كل ما يحتاجه البرتغاليون من مؤن ورجال(١٩) .

وقد نقل الفارز عند عودته الى البرتغال الى الملك عمانويل رغبـة الحبشة في اشعال حرب ضد المسلمين كما أبلغ أن الحبشة تشعر بالوحشة بين الدويلات الاسلامية المحيطة بها من كل جانب وطلب منه البقاء لكي يبشر بالمسيحية في زيلع ومصوع وجميع جزر البحر الأحمر التي تقع على حدود بلاده ورغم أن الموقف كان واضحا في الرغبة في عقد تحالف حبشي برتغالي فان هـذا التحالف كان منهارا من أساسه وذلك للاختـلاف المذهبي بين الحبشة العريقة في أرثوذكسيتها وبين البرتغال المتمسكة بكاثوليكيتها ، هـذا بالاضافة الى اختلاف وجهة النظر الحبشية والبرتغالية فبينما كان الامبراطور لبناد نجل يتطلع الى أن تعلن حرب عامة ضد المسلمين باشتراك جميع الدول المسيحية في هـذه الحرب اعتبرت البرتغـال ذلك نهـاية وتهديدا لاحتكارها التجاري وكان لبناد نجل قد اقترح على ملك البرتغـال أن يقوم بالكتابة الى ملك اسبانيا ليعمل على احتلال زيلع وملك فرنسـا ليحتل سواكن وملك البرتغال ليحتل مصوع ثم يقوم هؤلاء جميعا بمساعدة القوات الحبشية في الزحف على العالم الاسـلامي والاستيلاء على مكة وجدة وغيرها من الحواضر الاسلامية .

---

(١٩) المصدر السابق ، ص ٣٠٦ — ٣٠٨ .

وذكر النجاشي في رسالة الى ملك البرتغال أنه من دواعي حزنه أن يري ملوك الفرنجة يحارب بعضهم بعضا (٢٠) وأكد أنه لا يمانع فى أن يضع الكنيسة الاثيوبية The Monophysite Church تحت رعاية كنيسة روما لضمان تأمين القوي المسيحية بما فيها البرتغال للحبشة ، كما أنه أرسل بالفعل جوابرمودوز لكي يحصل على مساعدات من القوى المسيحية فى أوربا وهكذا نرى أن لبناد نجيل كان يريد أن يوسع دائرة اتصالاته بحيث لا يقصرها على البرتغاليين ثم كان قيام الثورة الاسلامية على يد الامام أحمد بن ابراهيم فى اقليم هرر وكان لها أثر كبير فى زيادة الارتباط بين الأحباش والبرتغاليين .

ولا شك أن الفتح العثمانى لمصر ووصول الأتراك الى بعض المنافذ على سواحل البحر الأحمر الجنوبية وسواحل الجزيرة العربية كان له أثره فى انتعاش القوى الاسلامية وبالرغم من أنهم وصلوا الى هذه المناطق متأخرين بعض الشيء الا انهم مع ذلك قاموا بجهودات كثيرة خاصة بعد أن تحقق لهم شيء من النجاح باخضاعهم لبعض الموانى الآسيوية والأفريقية فى البحر الأحمر وسواكن ومصوع وزيلع وعدن ، فليس من شك فى أن العثمانيين قد أبدوا اهتمامهم عقب استيلائهم على مصر مباشرة الغزو البرتغالى على البحر الأحمر .

وكانت حملة سليمان باشا التى وجهها العثمانيون الى اليمن فى عام ١٥٣٨م دليلا قويا على ما بذله العثمانيون من جهود بحرية ضد الغزوات البرتغالية فى بحار الشرق اذ قام سليمان باشا ، بعد أن فشلت حملته فى أن يثبت السيطرة العثمانية على موانى البحر الأحمر حتى لقد تحول البحر فعلا الى بحيرة عثمانية وخاصة بعد أن مد العثمانيون نفوذهم على السواحل الأفريقية الشرقية لاحكام غلق البحر الأحمر فى وجه العثمانيين وقد قوبل ذلك بتجدد برتغالى حيث تقدمت قوات برتغالية عام ١٥٤١ للهجوم على السويس التى كانت مركز التجمع البحرى العثمانى فى البحر الأحمر وكان يقودها استفاورادي جاما نائب الملك البرتغالى فى الهند فوصل الى ميناء مصوع فى فبراير ١٥٤١ وقام وهو فى طريقه الى

(٢٠) سيد سالم ، الفتح العثمانى الأول لليمن ، ص ١٠٥ — ١٠٩ .

السويس بمهاجمة سواكن وجزر دهلك على أنه لم يجرؤ على التقدم الى السويس بسبب قوة استحكامات الأسطول العثمانى بها فالأمر الذى لا شك فيه أنه كان من نتائج وصول البرتغاليين الى بحار الشرق انتعاش السويس حيث اتخذها كل من المماليك والعثمانيين مرفأ لحاجيات أسطولهم فى البحر (٢١) ولذلك رأى البرتغاليون أن يركزوا جهودهم فى الحبشة حتى لا يعرضوا أساطيلهم للدمار فى البحر الأحمر وبدأوا يركزون على عمل برتغالى حبشى مشترك فى داخل البحر الأحمر وليس فى سواحله. وليس من شك فى أن العثمانيين بدأوا يلتفتون من جانبهم الى الميدان الحبشى وبدأت القوى الاسلامية فى الحبشة من جانبها تتطلع الى الأتراك العثمانيين الذين رغبوا بدورهم فى السيطرة على الحبشة لأنهم اذا تمكنوا من اقامة دولة اسلامية فى الحبشة سيؤدى ذلك الى تأكيد سيطرتهم على الجزء الجنوبى الغربى من المحيط الهندى وتحقيقا لذلك الهدف اتصل الأتراك العثمانيون بمسلمى الحبشة والصومال الذين وحدت العصبية الدينية بينهم ووجدوا فى الامام أحمد بن ابراهيم القوة المحركة التى يستطيعون من ورائها تحقيق أهدافهم فأمدوه بالمال والذخيرة ، كما اتخذوا من تدينه وتقواه وسيلة لاظهاره أمام مسلمى تلك الجهات بمظهر الزعيم الدينى الذى يجمع كلمة المسلمين ويوجهها ضد الأحباش . واستطاع الامام أحمد بن ابراهيم أن يجمع كلمة المسلمين ويتولى أمورهم حتى لقبوه بالامام الغازى وصاحب الفتح وذلك بعد أن حمل على الحبشة حملات عنيفة بمؤازرة الأتراك له وتوغل فى الأقاليم الشمالية من تيجرى وبلغت حروبه فى الحبشة أقصى درجة من الحماسة والاقدام خاصة وأن المسلمين اعتبروها جهادا وأخذوا يحاربون فيها حرب المستميت للدفاع عن الدين . ومن حسن الحظ أن غزوات الامام أحمد فى داخل الهضبة الحبشية سجلها مؤرخ عربى من جيزان يدعى أحمد بن عبد القادر شهاب الدين الملقب بعرب فقيه أورد فيها تاريخ غزوات الامام ولقد نشر المستشرق الفرنسى ريشيه باسه الجزء الأول من هذا الكتاب بنصه العربى مع مقدمة فرنسية له فى عام ١٩٠١ بيد أن أحدا لم يتعرف على القسم الثانى من هذا الكتاب (٢٢) وفى الوقت

---

(٢١) الأمير مصطفى كمال ، رحلة بالسفينة فاربرور ، ص ٢١٠ .

(٢٢) لوثروب ستودارد ، حاضر العالم الاسلامى ، ج ١ ص ٣٦٣ ،
(٩٢)

ص ٣٦٤ .

الذى كانت تدور فيه غزوات الامام كان البرتغاليون قد نشروا نفوذهم فى بحار الشرق والى جانب الصدام المباشر بين العثمانيين والبرتغاليين كانت الحبشة هى المسرح الذى التقت فيه القوتان العثمانية والبرتغالية بطريق غير مباشر (٢٣). خاصـــة بعد أن استنجد الأحباش بالبرتغاليين واستنجدت القوى الإسلامية فى الحبشة بالعثمانيين ، وبفضل المساندة العثمانية للامام أحمد ابيتمر فى شن حروبه المتواصلة ضد الامبراطور ليناد نجل والتف حوله كثير من الصوماليين وأخـذت الرقعـة التى يحتلها المسلمون فى الازدياد حتى نجح الامام أحمد بفضل النجدات العثمانية التى كانت تصل اليه من القواعد التركية فى اليمن من هزيمة الامبراطور ليناد نجـل الذى اضطر الى الفرار أمام زحفه قوات الامام من بلد الى بلد ، وأصبحت سلطة الامبراطور ضئيلة للغاية خاصة بعد أن أصبح الامام يتصرف فى الحبشة تصرف الملك المستقل صاحب الأمر والنهى ، كما أخـذ يرسل من قبـله الولاة الى جميع اقاليم الحبشة لفتحها واخضـاع أهلها وجميـع الأموال أو الاتفاق على طريقة أدائها واستقر فى بلدة دمبيا التى اتخذها عاصمة لحكمه فى عام ١٥٤١ وقد استمرت غزوات الامام أحمد ابن ابراهيم ما يقرب من خمسة عشر عاما ١٥٢٨ — ١٥٤٣ وكان رأس حربة للحرب التى أثارها الأتراك ضد البرتغاليين بعـد أن سلحه العثمانيون بالمدافع والامدادات . وبفضل هـذه الامدادات استطاع الامام أحمد أن يكتسح أجزاء كثيرة من الحبشة التى ساءت الحالة الاقتصادية فيها وعمتها المجـاعات . وتصور المصادر الأجنبية ما حل بالأديرة والكنائس من تخريب ، وينبغى أن نشير الى أن كثيرا من المصادر الأجنبية . تركز على الدمار الذى ألحقه المسلمون بالكنائس والأديرة وما كان يتبع ذلك من تبديد للمخطوطات وصحائف الذهب التى كانت تزين بها الكنائس (٢٤). وتبالغ هـذه المصادر فيما كان يقوم به المسلمون من الحاق الأذى بالمسيحيين وقتلهم الأطفال والنساء واحراقهم للروائع الفنية فى الكنائس حتى أن بعض الرهبـان قد صدمهم الحـزن فألقوا بأنفسهم فى النيران (٢٥) .

---

(٢٣) عن الصدام البرتغالى العثمانى أنظر :
Kammerer, La Mer Rouge Tome II. P. 250 ff.

(٢٤) The Land of Prester John Chapter XVIII. Cf. The Portuguese and the Ottoman Turles P. 328.

(٢٥) Ibid. PP. 328 - 330.

وترجع هــذه المبالغة التى تواتر المصادر الأصلية التى كتبها رجال البعثات البرتغالية وعلى وجه الخصوص الذين بلغ بهم التعصب ضد الاسلام وكراهيته مبلغا لم يفكره كتاب الغرب . كما كانت هــذه المصادر التى كتبت فى تلك الفترة تحرص على المبالغة فى تصوير « البربرية » الاسلامية واظهار الأوربين بأنهم حماة المدنية .

وعلى أى حال كان لقــدرات الامام ولقواته التى بلغت ما يزيد عن [illegible] مقاتل اثرها فى نشر الاسلام بالحبشة . وقد أخــذت قوته فى التعاظم خاصة بعد انضمام الاتراك وشريف مكة اليه الأمر الذى مكنه من غزو قبائل الجالا وسائر القبائل الأخرى فى شوا .

ففى عام ١٥٢٩ استطاع الامام أحمد أن يوقع الهزيمة بلبناد نجــل ولكنه لم يستطع أن يجنى ثمرة انتصاره بسبب تبعثر قواته بعد أن أغراها الانتصار ، ولكن بعد ذلك بسنتين (١٥٣١) نجح فى توجيــه ضربة لبعض المقاطعات المسيحية بالحبشة . وتحول الكثير من المسيحيين الى الاســلام وفى عام ١٥٣٤ وصــل الامام بأتبــاعه الى تيجرى ولكنه ووجه بصعوبة كبيرة من جراء تصدى شعب التيجرى له فى الوقت الذى ركز فيه لبناد نجل على المناطق غير المحتلة من التيجرى وفكر فى الاستعانة بالبرتغاليين بل انه رأى وضع الكنيســة الاثيوبية تحت سيادة كنيسة روما بشرط ألا يؤثر ذلك على مبادئها وشخصيتها وبذلك يستطيع أن يضمن تأييد البرتغاليين بالاضافة الى سائر القوى المسيحية الأخرى كما عمل على ارســال بعض بعثاته الى أوربا لكى يحصل على مساندة هــذه القوى (٢٦) .

ولعل الانتصارات التى أحرزها الامام ترجع فى الدرجــة الأولى الى الأتراك العثمانيين الذين نجحوا فى أحكام سيطرتهم على جميع موانى البحر الأحمر بما فى ذلك عدن ولذلك أصبحت الاتصالات بين الحبشة والبرتغاليين صعبة للغاية (٢٧) ويعنى ذلك أن العثمانيين أحرزوا نجاحا لم يقتصر عنــد حدود الميدان الحبشى بل نجحوا كما هو واضح فى قطــع الاتصــال بين الأحباش والبرتغاليين ومنعوا مساعدة البرتغاليين للنجاشى من قواعدهم

---

(٢٦) Ethiopians : Op. Cit., P. 73 - 75.

(٢٧) The Landa of Prester John. Op. Cit., PP. 329.

البحرية في الهند ولعل ذلك ما حفز الامبراطور كلاوديوس الذي خلف لبناد نجل فى الحكم ١٥٤٠ — ١٥٥٨ الى ارسال وفد الى لشبونة حيث قابل ملك البرتغال ووصف له حرج مركز الامبراطور وعلى اثر ذلك وجه ملك البرتغال تعليمات الى نائبه في الهند بارسال اسطول برتغالي لمقاتلة المسلمين ومساندة امبراطور الحبشة وكان وصول الامدادات البرتغالية الى مصوع مفاجأة لمسلمى الحبشة وقد وصل هذا الأسطول البرتغالى فى أعقاب فشل الغارة البرتغالية التى قام بها البرتغاليون فى عام ١٥٤١ وقد نجحوا فى انزال اربعمائة برتغالى الى مصوع تحت قيادة كريستوفرادى جاما وكان شابا فى الخامسة والعشرين من عمره وكانت قوته صغيرة بالقياس الى العمل الكبير الذى كان ينتظرها ولكن هذه القوة مع ذلك كانت مزودة بالأسلحة الحديثة التي كان يفتقدها مسلموا الحبشة (٢٨).

ويبدو أن مسلمى الحبشة لم يكونوا مستعدين لملاقاة هذه القوة كما أن اخبار وصولها أوقدت الحماس لدى الاحباش الذين استعرت عزيمتهم ولذلك اسرع الامام أحمد فارسل بدوره مستنجدا بالباشا التركى فى زبيد طالبا منه نجدة من الجنود والأسلحة فارسل اليه الباشا تسعمائة من حملة البنادق وعدة مدافع مكنته من احراز نصر سريع ضد ... تمكن من قتل قائدهم كريستوفردى جاما . على أنه لم يستقر بالعثمانيين المقام بالحبشة بعد هذا الانتصار بل عادوا الى زبيد وقيل أن الامام أحمد هو الذى عمل على التخلص منهم لمضايقة بعض الجنود له طمعا فى المزيد من الأموال كما قيل ايضا أن سبب الخلاف بينه وبين العثمانيين هو التسرع فى قتل كريستوفردى جاما بعد أسره بينما كان العثمانيون يرغبون فى ارساله حيا الى استانبول للتدليل على جهودهم فى الحبشة .

ولا شك أن هذه الهزيمة التى ابتلى بها البرتغاليون والاحباش كان لها أثرها الكبير لدى البرتغاليين الذين ارادوا الانتقام لمصرع قائدهم فارسلوا فى العام التالى ١٥٤٣ نجدة برتغالية مكونة من اربعمائة وخمسين جنديا برتغاليا تمكنت من مهاجمة جيوش الامام واطلقت عليه الرصاص فسقط ميتا من فوق جواده على مقربة من بحيرة تانا فقطع القائد البرتغالى اذنه وذهب

(28) Ibid. P. 330. (٢٨)

بها الى الامبراطور كلاوديوس كما يروى لنــا صاحب كتاب فتوح الحبشة.
وهكذا قضى على ثورة الامام أحمد بن ابراهيم بفضل المساندة البرتغاليــة والامدادات التى قدمت من قبل البرتغاليين للأحباش من المدافع والجنود المدربين على استخدامها وخرج العثمانيون من هــذا الصراع مدحــورين فاقتنعوا بعد ذلك بالاشراف على سواحل البحر الأحمر من سلسلة الموانى التى استولوا عليها. وعملت الدولة العثمانية على تدعيم نفوذها على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر والتوسع فى نيابة سواكن التى كانت لا تضم سوى مينائى سواكن وزيلع اللتين ورثهما العثمانيين من المماليك وذلك بتوسيع نفوذهم على ساحل الحبشة وتوسيع مداه حيث تم تكوين ولاية ولاية الحبش التى ظلت قاصرة على المناطق الساحلية وأصبح ميناء سواكن ومصوع أهم مركزين من مراكز تلك الولاية التى ألحق بها ميناء جدة فيما بعد .

حقيقة حاول العثمانيون بعد سيطرتهم على مصوع ، أهم ميناء أثيوبى على البحر الأحمر، العودة للتدخل وذلك بشد أزر المسلمين فى المناطق التى صارت تعرف فيما بعد باسم أرتيريا ومنتهزين فرصة النزاع الذى حدث بين الأحباش والبرتغاليين نتيجة الخلافات المذهبية بينهما الا أن الأحباش واجهوا العثمانيين مواجهة عنيفة واستطاع النجاشى ملاك صاجاد أن يسيطر على داخلية بلاده ويقضى على النشاط العثمانى وكان ذلك فى عام ١٥٧٨ حيث نجح الأحباش فى هزيمة العثمانيين وبهذه الهزيمــة انتهى أمل العثمانيين فى التوغل فى داخلية الهضبة الأثيوبية وان بقيت لهم السيطرة الســاحلية على مصوع وما حولها حيث أقاموا لهم نائبا فى هــذه المناطق .

والنتيجة التى يمكن أن نخلص اليها من هــذه الدراسة هى أن تدخل القوى الكبرى فى الخلافات المحليــة يؤدى بالضرورة الى اثارة مزيد من الخلافات ، كما أن التدخل الأجنبى لا يضع فى اعتباره الا تحقيق مصالحه الخاصــة دون النظر الى مصالح الأطراف التى يتدخل لصالحها . ولعل انتباه الشعوب الى التجارب التاريخية يؤدى الى حسم خلافاتهــا دون الاعتماد على القوى الكبرى التى لا تنشد الا مصالحها الخاصة ، واليس ما شهدته منطقة القرن الأفريقى فى الآونة الأخيرة صورة لمــا حدث فى المــاضى وان تغيرت الظروف ؟!

١٢

النشاط التجارى فى البحر الأحمر

فى العصر العثمانى ١٥١٧ ــ ١٧٩٨ م

الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
كلية الانسانيات ــ جامعة قطر

تمهيــد :

منذ أقدم العصور والبحر الأحمر يعــد شريانا حيويا للمواصــلات ووسيلة للتبادل التجارى والحضارى بين البلدان المحيطة به من جانب ، وبينها وبين البلدان الأخرى من جانب آخر .

ومع اتساع نطاق التبادل التجارى خارج النطاق المحيط به وبخاصة بين الشرق والغرب ازدادت أهمية هــذا البحر وتطلعت الدول التجارية للسيطرة عليه كطريق حيوى لنشاطها التجارى الذى أصبح يمثل عصــب حياتها الاقتصادية فاهتمت فى بادىء الأمر المدن الايطالية التى كانت تحتكر نقل المتاجر الشرقية الى أوربا وأصبح للجاليات الايطالية وكائلها ومخازنها على سواحل هــذا البحر وبخاصــة فى السويس والمدن المصرية الأخرى ونشطت الحركة التجارية فى البحر الأحمر وموانيه وتبودلت السلع الهندية والمصرية واليمنية بين بلدان البحر الأحمر المختلفة وزاد من نشاط هــذه الحركة التجارية أن التجار الأوربيين عملوا على نقل هــذه التجارات الى بلادهم وترويجها نظرا لمــا أصبحت تدره عليهم من ربح وفير (١) .. ولكن

(١) دكتور فاروق عثمان أباظة ، عدن والسياسة البريطانيــة فى البحر الأحمر ١٨٣٩ ــ ١٩١٨ م ــ ص ١٨ ــ ١٩ . حيث يذكر أن تجارة الشرق ظلت حتى القرن التاسع عشر تفى بحاجات الطبقة الراقيــة فى =

منذ أواخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر — أى قبيل دخول العثمانيين منطقة الشرق العربى — جدت على الموقف عوامل عالمية ومحلية أدت الى اصابة هـذا النشاط بشىء من التدهور منها :

أولا — نجاح البرتغاليين فى اكتشاف طريق راس الرجاء الصـالح وتحويل النشاط التجارى الى هـذا الطريق على يد قوى أوربيـة أخرى غير المـدن الايطالية ومحاولة البرتغاليين محاصرة القوى التجارية العربية والقضـاء عليهـا .

ثانيا — تعسف الأمراء المماليك ونوابهم فى موانىء البحـر الأحمر وبخاصة بعـد وصول البرتغاليين الى الميـاه العربية فيذكر ابن اياس فى معرض حديثه عن الموانىء التابعة للسلطان الغورى أن نائبـه فى جدة والذى كان يدعى حسينا كان يأخذ العشر من تجـار الهنـد المثل عشرة أمثال فامتنعت التجار من دخول بندر جـدة وآل أمره الى الخراب وعز وجود الشاشات من مصر والأرز والاقطاع وأخرب البندر (٢) وترتب على ذلك بطبيعة الحال عدم وصول السـلع التجـارية الى الموانىء المصرية الأخرى التى كان التجار الأوربيين يأخذون منها هـذه السلع وينقلونهـا الى أوربا ممـا اثر على احـوال مصر الاقتصـادية فخرب كذلك بنـدر الاسكندرية وبندر دمياط فامتنعت تجار الفرنج من الدخول الى تلك البنادر من كثرة الظلم وعز وجود الأصناف التى كانت تجلب من بلاد الفرنج كما

=

أوربا ممـا جعلها تحتفظ بقيمتها العالية ويذكر كذلك أن ما كان يصل الى أوربا كان يحقق ربحا لا بأس به للتجار فى أوربا مما جعلهم يحرصون على دوام الاتصـال مع بلدان الشرق مصدر هذه التجارة الرائجة والمربحة فى نفس الوقت .

وانظر كذلك :

Fisher, Sydney Nettleton, The Middle East Ahistory, P. 144.

حيث يذكر أن تجارة البحر الأحمر خلقت طبقة من التجـار الاثرياء حيث وجـد حوالى مائتين من التجـار الذين زاد راس مال كل منهم عن مليـون ودتة وأكثر من الفين تاجـر زاد راس مال كـل منهم عن مائة الف دوكـة .

(٢) محمد بن أحمد بن أياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ ٥ ، ص ٩٠

تعرض التجار لكثير من المظالم وكثرة الضرائب ومصادرة أموالهم ولم يفت من أعيان التجار أحدا حتى صادره وأخذ أمواله ولا سيما ما جـرى على الشيرازى والحليبى التاجر وغيره من أعيان التجار (٣) ولا شك أن ذلك كان نتيجة حتمية لمـا أصاب النشاط التجارى فى البحر من تدهور نتيجة لتحول طريق التجارة العالمية جزئيا الى طـريق رأس الرجاء الصـالح ومحاصرة البرتغاليين للسواحل العربية ومداخل البحر الأحمر (٤) وان لم يقف المماليك مكتوفى الأيدى ازاء هـذا الخطر البرتغالى وتهديده لاقتصاد دولتهم ولذا بدأ الصراع المملوكى البرتغالى حول البحر الأحمر والسيطرة عليـه لأهميته الاقتصادية والاستراتيجية .

الصراع المملوكى البرتغالى حول البحر الأحمر :

بدأ هـذا الصراع منذ وصول البرتغاليين الى البحار الشرقية حيث عمل كل طرف على الاستيلاء وأسر سفن تجـار الطرف الآخر . بل عمل كل فريق على العبث واتلاف وافساد ثروات الفريق الآخر . وعادت هذه الأعمال العدائيـة من جانب الطرفين بالخسـارة الشـديدة على موانى البحر الأحمر وبخاصة موانىء عدن ومخا وجـدة كمـا تذكر المصـادر المعاصرة وكثرت الاشاعات بفساد الافرنج وتعبثهم على التجار وقد جابوا حول بنـدر جـدة (٥) .

وقد قامت سياسة البرتغاليين فى حقيقة الأمر منذ تلك الفترة على أساس القضاء على كل نفوذ تجـارى للتجار العرب فى البحار الشرقية ومن هنا كانت مطـاردتهم للسفن العربيـة واغراقها والعمل على طـرد العرب من المراكز التجارية الهندية والأفريقية منـذ وصول فاسكو داجاما الى هـذه البحار حيث اقام أثناء رحلته الثانية سنة ١٥٠٢ بارسال حملة مكونة من خمس سفن حربية للاقامة الدائمـة عند مدخل البحر الأحمر (٦)

---

(٣) نفس المصدر ، ص ٩٠

(4) Fishe, Sydney : op. cit., p. 144.

(٥) محمد بن أحمد بن أياس ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣١٦ وانظـر كذلك :

Fisher, Sydney : op. cit., p. 144.

(6) Fisher, Sydney : op. cit., p. 144.

والعمل على مهاجمة السفن العربية ومنعها من مزاولة النشـــاط التجارى فى ميـــاه المحيط الهندى الا بتصريح من البرتغاليين وفعلا تمكن قائد هذه الحملة البرتغالية من القيام ببعض الأعمال العدائية ضـــد السفن التجارية العربيـــة كما تمكن من أسر بعض البحارة العرب (٧) وقد ازدادت حـــدة الحصار البرتغالى شـــدة حينما وصل الى الميـــاه الشرقيـــة البوكيرك سنة ١٥٠٦ م الذى شدد من فرض الحصار البحرى المفروض على البحار العربية ومداخلها ممـــا أضر ضررا فادحا باقتصـــاد كل من مصر واليمن والبندقية (٨) التى كانت تسعى جادة فى تلك الآونة على مقاومة الخطـــر البرتغالى عن طريق حث السلطان الغورى على النهوض لمقاومة هـــذا العـــدو المشترك ورغم سوء الظروف الداخلية التى كانت تحيط بالسلطان الغورى فان خطته قائمة آنذاك على تقوية نفوذه فى أقاليم البحـــر الأحمر وتحصين سواحله ادراكا منه لأهمية هذا البحر الاقتصادية والاستراتيجية بالنسبة لأملاكه فى مصر والحجاز ولذا فانه أرسل فى ٦ جمادى الآخرة ٩١١ هـ — ٤ نوفمبر ١٥٠٥ م ، حملة بحرية تحت قيـــادة حسين الكردى من ميناء السويس ووجهتها الهنـــد على أن تعمـــل فى نفس الوقت على تحصين ميناء جـــدة استعدادا لمواجهة أى خطر برتغالى فى المســـتقبل لمهاجمة الأماكن المقدسة ولذا فان الحملة زودت بالفنيين اللازمين للقيـــام بهذه التحصينات وقد أقام هؤلاء الفنيون فعلا بعض الاستحكامات فى هذا الميناء ثم اتجهت الحملة الى موانىء اليمن الواقعة على البحر الأحمر مثل قمر بجيزان وجزيرة كمران ثم أتجهت الى مخا فعدن حيث ذكر الأمير حسين الكردى قائد الحملة لحاكم عدن الطاهرى أن الحملة تستهدف الذهاب الى الهند لمحاربة البرتغاليين فأمده حاكم عدن بما يشـــاء من طعـــام ومؤن ومع أن الحملة تمكنت حينما وصلت الى (ديو) من التحـــالف مع بعض الامارات الهندية واحراز انتصارات جزئية على القوى البرتغالية الا أن الهزيمة حلت بهـــا فى النهاية ولم تحقق الهدف المرجو منها (٩) ومنذ تلك

---

(٧) دكتور سيد مصطفى ســـالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ، جـ ٣ ، ص ٥٣

(8) Fisher, op. cit., p. 144.

Serjeant, R. B. The Portuguese of the South Arabian Coast p. 43.

(٩) دكتور سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق ، ص ٦١ — ٦٣

الآونة ازداد اقتراب الخطر البرتغالي الى مداخل البحر الأحمر وخاصة بعد الحملة التى أرسلها السلطان اليمنى عامر بن عبد الوهاب فى شوال ٩١٢ هـ — مارس ١٥٠٧ م لمحاربة البرتغاليين فى الهند ولم تتمكن من اصابة هدفها كما أن الوضع السيء الذى كان يمر به السلطان عامر لم يمكنه من معاودة ارسال حملة أخرى (١٠) فازدادت جرأة البرتغاليين على الاقتراب من السواحل العربية فتمكنت حملة برتغالية تحت قيادة البوكيرك من احتلال جزيرة (سقطرة) قريبا من مدخل البحر الأحمر هادفة الى اغلاق هذا البحر أمام التجار العرب كما تمكن البوكيرك أثناء وجوده فى المياه العربية من القيام ببعض الأعمال التخريبية فى المنطقة الممتدة من مدخل البحر الأحمر وحتى جزيرة (هرمز) وفى تلك الأثناء حدث اتصال بين الحبشة والبرتغال بهدف ايجاد جبهة متحدة بين القوتين ضد المسلمين وبخاصة ضد المماليك فى مصر وحصل على معلومات من الرسول الحبشى الذى أرسله الى ملك البرتغال من مهاجمة زيلع أثناء حملته على عدن والبحر الأحمر ١٥١٣ م التى كان يهدف من ورائها الى السيطرة على عدن وغلق المنافذ العربية البحرية لأنه أدرك أن القدر من التجارة الشرقية الذى يصل الى أوربا يسلك طريق البحر الأحمر ولأن عدن كانت تمثل أكبر مستودع تجارى فى المنطقة ولذا فانه عمل كل جهده للسيطرة عليها من أجل تأمين طريق البرتغال الجديد أى طريق رأس الرجاء الصالح ، وفعلا تمكن من الاستيلاء عليها والقيام ببعض الأعمال التخريبية بها وأحرق كثيرا من السفن الراسية بمينائها ، كما وجه جهده بعد ذلك للاستلاء على جزيرة كمران لأنها كانت تمثل محطة بحرية هامة بين جدة وعدن وتمكن منها فى أوائل صفر ٩١٠ هـ — أبريل ١٥١٣ م ، ولكنه لم يستطع أن يصل الى جدة لقسوة الأحوال الطبيعية فاضطر الى العودة الى كمران مرة ثانية ، وقد هدد هذا النشاط البرتغالى العدائى بلدان البحر الأحمر ، اليمن ، الحجاز ، مصر . وكان البرتغاليون يهدفون من وراء غزو البحر الأحمر القضاء على النفوذ العربى والتجارى . وتمكنوا طبقا لما تذكره

---

(١٠) دكتور عبد الحميد البطريق ، من تاريخ اليمن الحديث ٥١٧ — ١٨٤٠ ، ص ١٨ — ١٩

Wilson, Sir Arnold T., The Persian Yúlf : p. 117 - 119.

(١١) دكتور سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق ، ص ١ — ٧٢

المصادر من جمع قدر كبير من المعلومات عن هـذا البحر وحركة التجارة به وعجزت كل من مصر واليمن عن صد هـذا الخطر الذى هدد شريانها التجارى وأدى الى اضعاف اقتصاديات كل منها (١٢) .

وكما حدث اتصال من أجل التنسيق بين القوى المسيحية فى الحبشة والبرتغال ضد القوى الاسلامية فان فكرة التعاون بين القوى الاسلامية ظهرت فى تلك الأثناء وتم الاتصال بين السلطان الغورى المملوكى وبين السلطان بايزيد الثانى العثمانى (١٤٨١ — ١٥١٢) لمواجهـة الخطـر البرتغالى فى البحر الأحمر وفعلا ظهر البحارة العثمانيون فى السـويس واشتركوا فى الحملة التى أرسلها السلطان الغورى الى جنوب البحـر الأحمر تحت قيـادة سلمان الريس الذى اشتهر باسـم سلمان الرومى وكان هدف الحملة قفل البحر الأحمر أمام البرتغاليين واتخاذ عدن قاعدة لمواجهة هـذا الخطر (١٣) وهى نفس الخطـة التى اتبعهـا العثمانيون فيما بعد فى هذا البحر ولكن لم يقدر لهذا التعاون الاسلامى أن يستمر فبدأ الصدام بين القوتين الاسلاميتين : المماليك فى مصر وبلاد الشـام والعثمانيـون وانتهى الصـدام بسـقوط دولة المـماليك وتولى زمـام الأمور فى المنطقة للعثمانيين ووضع على عاتقهم مسئولية مواجهة الخطر البرتغالى فى البحر الأحمر وحماية النشاط التجارى به والمحافظة عليـه كبحيرة اسلامية .

العثمانيون والنشاط التجارى فى البحر الأحمر :

منذ ٩٢٣ هـ — ١٥١٧ م ، أصبحت مسئولية حماية البحـر الأحمر وسواحله تقع على عاتق العثمانيين وكان عليهم مراقبة الأطماع البرتغالية فى هـذا البحر ومداخله ولذا فان مرحلة جديدة من التنافس حول هـذا البحر وممارسـة النشـاط التجارى فيـه بدأت منذ ذلك الوقت وبذل العثمانيون جهدا كبيرا للحفاظ عليـه كبحيرة اسلامية وتركيز النشـاط التجارى على القوى الاسلامية وبخاصة على يد التجار العرب وأن اتسمت خطواتهم الأولى كما هو واضح من استقراء الأحداث التاريخية بالضعف حيث أننا نجـد أن الحملات البرتغالية اسـتمرت وبشـدة وضراوة على

---

(12) Serjeant, R. B. op. cit., 169.

(١٣) دكتور سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق ، ص ٧٨ — ٧٠م، دكتور جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ٢٢

سواحل البحر الأحمر فى أعوام ١٥٢٠ ، ١٥٢٣ بالتعاون مع الحبشة هادفة بالدرجة الأولى الى ضرب التجارة العربية وشل النشاط التجارى العربى عن طريق العالم العربى من الجنوب بايجاد سياج مسيحى قوى بنشر المسيحية فى مصوع ودهلك وزيلع وجميع جزر البحر الأحمر . ومن أجل تحقيق هذه الأهداف استمات البرتغاليون فى صراعهم للسيطرة على البحر الأحمر بعامة ومداخله الجنوبية بخاصة ففى سنة ١٥٢٥ تعرضت عدن لحصار برتغالى وضربت بالمدافع وفى فبراير سنة ١٥٣٠ تمكن (دى سلفيرا) من فرض معاهدة على عدن . نصت على أن تدفع عدن جزية سنوية للبرتغاليين نظير اعتراف البرتغاليين بحرية الملاحة للعدنيين بشرط عدم توجه سفنهم الى جدة كنوع من فرض الحصار على هذا الميناء الاسلامى الهام (١٤) ولكن هذه المعاهدة فى الواقع لم توضع موضع التنفيذ لأن عدن أدركت أنه لابد من الصمود من أجل بقائها والمحافظة على استقلالها وخاصة وأنها فقدت كثيرا من مقوماتها نتيجة للحصار البحرى الذى ضرب حولها (١٥) .

ومنذ ١٥٣٨ بدأ اهتمام العثمانيين بالبحر الأحمر وكمرحلة أولى فى هذا الميدان بدأت محاولاتهم لاخضاع اليمن لنفوذهم تقديرا منهم لأهمية اليمن الاستراتيجية فى صراعهم ضد البرتغاليين وبدأت جهودهم فى ميدان البحر الأحمر فكانت حملة سليمان باشا الخادم سنة ١٥٣٨ الذى تمكن بعد عمليات حربية وبعد اتصالات جرت بينه وبين الأمراء الحاكمين فى جهات البحر الأحمر وبخاصة أمراء الساحل اليمنى من الوصول الى عدن والاستيلاء على الميناء ثم غدر بحاكمها عامر بن داود وبعض أتباعه مما أساء الى سمعته لدى القوى الاسلامية على السواحل العربية والهندية ومع أنه لم يتمكن من الوصول الى (ديو) ومحاصرة قلعتها وتهديد القوة البرتغالية الا أنه لم يتمكن من تحقيق أهدافه فاضطر الى العودة الى المياه العربية فوصل الى ميناء الشحر اليمنى واستولى على حضرموت ثم اتجه الى عدن وأبحر منها الى ميناء المخا حيث أنزل قواته الى البر

---

(١٤) دكتور سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق ، ص ٩٧ — ١١١
Kaminerer, A. La Mer Rouge, Tome II, pp. 283, 285, 286, 288.

(١٥) دكتور سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق ص ١١٢.

استعداداً لاخضاع القوى المملوكية التى كانت فى زبيد للسيطرة العثمانية وتوكيد هــذه السيطرة على سواحل البحر الأحمر والاشراف على النشاط التجارى فيــه ولكن يبدو أن سوء تصرفه فى عدن أساء اليــه بشكل حاد ممــا جعله يفشل فى هــذا السبيل فعاد أدراجه الى مصر . دون أن يحقق الأهداف الرئيسية التى كان يقصدها السلطان من حملته وان نجح فى الاستيلاء على عــدن وحــد بعض الشىء من الخطــر البرتغالى (١٦) وفى سنة ١٥٥٧ تمكن العثمانيون من الاستيلاء على سواكن ومصوع وتم التحالف بينهم وبين ملك الحبشة على أساس اغلاق الموانىء الحبشــية فى وجــه البرتغاليين (١٧) والحقيقة أنه منذ سنة ١٥٥٤ يشعر الباحث فى تاريخ الفترة أن أهمية اليمن لدى العثمانيين تحددت بالدفاع عن البحر الأحمر وممارسة النشاط التجارى فيــه وفى موانيه خاصة وأن العثمانيين كانوا قد نجحوا فى فرض تقليد جديد يقضى بمنع دخول المراكب المسيحية فى البحر الأحمر بحجة أنه يطل على الأماكن المقدسة للمسلمين فى الحجاز وهو التقليد الذى ظلت الدولة العثمانية متمسكة به حتى أواخر القــرن الثامن عشر (١٨) ومنذ أواخر القرن السادس عشر بدأت قوى دولية أخرى تدخل حلبة الصراع حول المنافسة التجارية فى هــذا البحر واقامة علاقات تجــارية مع موانيه والاهتمام به كطريق تجارى عالمى .

فقد بدأ التطلع البريطانى اليه منذ تلك الفترة وبدأ خطواته العمليــة منذ ١٦٠٩ م فقد وصل الكابتن شاربى الى عدن بهدف اقامة علاقات تجارية مع الجزيرة العربيــة ورغم فشل مهمة بعثة شاربى لموقف الســلطات العثمانية فى عدن منها . فان شركة الهند الشرقية أرسلت فى العــام التالى سير هنرى ميدلتون على رأس بعثة تجارية الى البحر الأحمر فزار عدن ثم أتجــه الى المخــا الا أن هــذه البعثة هوجمت فى المخا من جانب بعض الأتراك وقتل بعض أفرادها وقوبلت هــذه البعثة بالاستنكار من

---

(١٦) دكتور عبد الحميد البطريق ، المصدر السابق ، ص٢٦ ــ ٢٧، دكتور سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق ، ص ١٤١ ــ ١٥٠ ، ج لوريمر دليل الخليج ، ج ١ ، ص ١٦

(١٧) نفس المصدر ، ص ١٩٥ ــ ١٩٦

(١٨) دكتور محمد أحمد أنيس ، الدولة العثمانية والشرق العربى، ص ١٣٠ ، ١٣٤

جانب السلطات الحاكمة فى صنعاء التى أبدت دهشتها لجرأة (المسيحيين) ومحاولة اقترابهم من شبه الجزيرة العربيـة ومن المدن المقدسة (٢٠) .

وفى سنة ١٦١٢ جاءت الى المخـا بعثة بريطانية أخرى بقيـادة الكابتن ساريس John Saris الذى استقبله حاكم المخـا استقبالا حسنا وفى تلك الأثناء صدرت تعليمات الباشا العثمانى فى صنعاء بالسماح للأجانب بالمتاجرة بحرية على الشاطىء اليمنى ومع السفن الهندية وانه مسموح لهم كذلك بشراء أى شىء يرغبون فيه من المخا (٢١) .

ومن الملاحظ أنه فى نفس الفترة التى ازداد فيها النشاط البريطانى فى البحر الأحمر دخل حلبة الصراع حول المنافسة التجارية فى البحـر الأحمر والتوغل فيه ومحاولة اقامة الوكالات التجـارية الهولنديون ففى عام ١٦١٤ وصلها بعثة هولندية بقيادة (فان دى بروك) Vande Brock بقصد تجميع المعلومات حول طبيعة التجارة فى موانى البحر الأحمر وابلغ (فان دى بروك) حاكم عدن بأنه لديه تصريحا من الصدر الأعظم يعطيه حق المتاجرة فى جميع أنحاء السلطنة العثمانية ومع أن حاكم عدن استقبله استقبالا حسنا الا أنه أشار عليه بأن يغادر الميناء لأن التجار المقيمين فيه اعتبروا وجوده هناك خطرا عليهم (٢٢) فاتجه صوب الشحر وأقام هنـاك وكالة هولندية وفى سنة ١٦١٦ وصل الى المخا واستقبله حاكمها استقبالا وديا ووافق على اقامة وكالة هولندية فى المدينة كما تم الاتفاق على أن تكون ضرائب الجمارك بنسبة ٣١/٢٪ ولكن باشا صنعاء رفض الموافقـة على اقامة وكالة تجارية هولندية بالمخا بحجة أن مثل هذه الموافقة لا تكون

---

(19) Yahya Armajani, Middle East, Past and Present p. 102.

(٢٠) جاد طه ، المصدر السابق ، ص ٢٥ — ٢٦

(٢١) نفس المصدر ، ص ٢٦ ، وأنظر كذلك محمود كامل : اليمن شماله وجنوبه تاريخه وعلاقاته الدولية ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٢١٤ — ٢١٥

(٢٢) محمود كامل : المصدر السابق حيث يذكر (ولكن الترحيب بالهولنديين فى اليمن لم يلبث أن تحول الى سخط عليهم عندما هاجموا بعض السفن العربية التى كانت تقوم بنقل بضائع برتغالية باعتبار أن ذلك قد عاد على التجار العرب بخسارة جسيمة وقبض الأتراك على (دى ميلده) الهولندى كرهينة وبلغ السخط على تهاون الوالى التركى مع الهولنديين الى حـد أنه أعدم شنقا) ص ٢١٥

الا من السلطان نفسه مبديا تخوفه من توغل الهولنديين الى المدن المقدسة نفسها ولأن حصول الهولنديين على مثل هـذا الحق يثير حفيظة غيرهم من التجار الفرس والهنود الذين كان يطلب منهم دفع نسبة قد تصل الى ١٦٪ (٢٣) ولذا فاننا نجد أن فان دى بروك بعد أن وضعت هذه العقبات أمام اقامته وكالة تجارية هولندية فى المخا اضطر الى تركيز بعثته التجارية فى الشحر وانسحب عائدا الى الهند . وهكذا نجد أن النشاط التجارى الهولندى اتخذ من الشحر قاعدة له ولم يحاول الدخول فى صراع أكثر من هـذا حول التوغل فى البحر الأحمر واقامة وكالات تجارية فى موانيه .

أما الانجليز فقد استمروا فى محاولاتهم حتى استطاعوا فى سنة ١٦١٨ من الحصول على تصريح باقامة وكالة تجارية لهم فى المخا فقد وصل الكابتن شلن Shilling الى المخا واستقبله حاكمها رجب أغا أنه يوجد تصريح من حاكم اليمن يسمح للانجليز بمقتضاه بالمتاجرة بحرية فى المخا وبتشييد وكالة لهم هناك وبتحديد ضرائب الاستيراد والتصدير بنسبة ٣٪ تدفع نقداً أو عينا (٢٤) وبذلك بدأ الانجليز يزاولون نشاطهم التجارى فى الجزء الجنوبى من البحر الأحمر بحرية تامة وصاروا أهم القوى الأوربية التى لها حق المتاجرة حتى ميناء المخا .

ومنذ سنة ١٧٠٨ وفى غيبة النفوذ العثمانى من اليمن وفى عهد الدولة القاسمية الزيدية بدأ التطلع الفرنسى الى المشاركة فى النشاط التجارى فى البحر الأحمر حيث وصلت بعثة فرنسية الى عدن بقيادة دى ميرفيل De Merveille ثم اتجهت الى المخا توصلت اليها فى ٣ يناير سنة ١٧٠٩ وتمكنت هـذه البعثة من عقد اتفاقية تجارية مع حاكم المخا (الدولة) نيابة عن الامام المهدى حصلت بمقتضى هـذه الاتفاقية على حق

---

(٢٣) دكتور جاد طه ، المصدر السابق ، ص ٢٧ — ٢٨ ، محمود كامل ، المصدر السابق ، ص ٢١٥.

(٢٤) الدكتور / جاد طه ، المصدر السابق ، ص ٢٨

اقامة وكالة تجارية فى المخـا (*) وأن تكون الضرائب الجمركيـة على البضائع المباعة بنسبة ٣٪ وأن يرفع العلم الفرنسى على الوكالة ، شريطة أن يعود التجار الفرنسيون الى سفنهم ليلا . واستمر النشـاط الفرنسى التجـارى حيث نجـد سـنة ١٧١١ بعثة فرنسية أخرى بقيادة دى لالاند De la lande تصل الى مياه البحر الأحمر وفى تلك الفترة تزداد خشية السلطات العثمانية من النشاط الأوربى التجارى فى البحر الأحمر فتأخذ فى تحذير السلطات المحلية من خطورة هذا النشاط فترسل رسولا عثمانيا الى امام صنعاء يحذره من خطر الاستمرار فى المتاجرة مبـاشرة مع الأوروبيين ويطالبه بأن يقتصر تصدير البن اليمنى على مصر ولكن الامام لم يستجب لهذه الدعوة العثمانية التى كان فيها ولا شك اضرار باقتصاد اليمن وفرض عزلة دولية مع اليمن ومن هنا كان رفضه لهذه الدعوة واستمر فى علاقاته مع القوى الأوربية واستمرت العلاقات الفرنسية اليمنية تسير فى طريقها الطبيعى حتى سنة ١٧٣٨ حينما حدثت ازمة بين حاكم المخـا (الدولة) وبين الشركة الفرنسية التى أرسلت سفينة حربيـة ضربت الميناء ضربا مؤثرا تم على أثره توقيع معاهدة بين الشركة وتين حاكم المخا (انقصت الضرائب الجمركية بمقتضاها من ٣٪ الى ٢/٢١٪) (٢٥) ولا شك أن النشاط التجارى الأوروبى كان له أقدامه الثابتة على سواحل البحـر الأحمر الجنوبية فى النصف الأول مـ نالقرن الثامن عشر عنطريق الوكالات التجارية المتناثرة فى موانىء هـذا البحـر وبدأ يسعى الى الوصول الى اقصى الشمال وهـذا ما سوف يحقق فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر كما سنرى .

(*) ومن الطـريف أن تذكـر أن السلع التى كان يجلبها التجـار الأوربيون من شبه الجزيرة العربية ، اللؤلؤ من الخليج العربيى ، والبخور والمر من جنوب شبه الجزيرة العربية وبخاصـة من ظفـار وحضرموت والتوابل والمنسوجات الحريرية والسيوف الهندية والعـاج والمر والبخور وريش النعام والذهب من الساحل الأفريقى .

أنظر دكتور محمود طه أبو العلا ، جغرافية شبه جزيرة العرب ، جـ ١ ، طبعة ١٩٧٢ م .

(٢٥) دكتور جاد طه ، المصدر السابق ، ص ٣٠ — ٣١

وانظر كذلك عبد الواسع بن يحى الواسعى اليمانى (تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى تاريخ اليمن ، ص ٣٢٢ — ٣٢٣) .

وقد حاولت قوى أوربية أخرى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر أن تدخل حلبة الصراع حول المنافسة التجارية فى البحر الأحمر واتخاذه طريقا تجاريا مثل الدنمرك التى أرسل ملكها سنة ١٧٦٢ بعثة علمية برياسة نيبور Neibur بهدف دراسة الجزيرة العربية بصفة عامة واليمن بصفة خاصة ووصلت الى المخا فى ٥ أغسطس سنة ١٧٦٣ وسمح لها بمنافسة أمام اليمن فى صنعاء فى كثير من الأمور من بينها الأمور التجارية ثم غادرت اليمن (٢٩) .

والواقع أن أثر هذه المنافسة التجارية قد انعكس على السوق المحلية والنشاط التجارى فى بلدان حوض هذا البحر بصفة عامة ومصر بصفة خاصة فمثلا نجد أن شركة الهند الانجليزية بعد أن كان أهتمامها بالسوق المصرية قد قل نجد أنها عادت منذ أواخر القرن السابع عشر الى الاهتمام بهذا السوق بهدف تحدى فرنسا ومنافستها فى التجارة الشرقية فعينت لها فى سنة ١٦٩٧ قنصلا بالقاهرة ووكيلا بالاسكندرية وأصدر السلطان مصطفى الثانى خطا شريفا بأن يتمتع التجار الانجليز بمصر بنفس الامتيازات التى كان يتمتع بها الفرنسيون وأهمها أن لا يدفعوا أكثر من ٣٪ رسما على ما يستوردونه لمصر (٦٧) وكان التجار الانجليز فى ذلك الوقت يصدرون من مصر مقادير لا بأس بها من العقاقير والعطور والجلود والتمر والسكر والسجاد والتبر وريش النعام والصمغ ويستوردون الزجاج والمعادن والأقمشة الصوفية من (الجوخ) خاصة (٦٨) والحقيقة التى يصل اليها الباحث أن الوقائع تظهر أنه رغم هذا النشاط الانجليزى فى السوق المحلية المصرية كمركز لتصريف المنتجات الشرقية التى تصل اليها عن طريق البحر الأحمر فان التفوق بدا واضحا للتجار الفرنسيين الذين بلغ عددهم فى القاهرة وحدها سنة ١٧٠٢ خمسين تاجرا فرنسيا كما كانت لهم منشآتهم التجارية بالاسكندرية ورشيد (٦٩) وان بدا واضحا

---

(٢٦) دكتور جاد طه ، المصدر السابق ، ص ٣٣ — ٣٤

— عبد الواسع بن يحى الواسعى، المصدر السابق، ص ٣٢٢—٣٢٣

(٢٧) دكتور أحمد عزت عبد الكريم، وآخرون : دراسات فى النهضة العربية ، ص ٣٢٠

(٢٨) نفس المصدر ، ص ٣٢٠

(٢٩) المصدر نفسه ، ص ٣٢١

ان الاهتمام الانجليزى بمصر وبطريق البحر الأحمر التجارى قد ازداد بعد صلح باريس سنة ١٧٦٣ والهدف واضح وهو الربط بين مصر والامبراطورية البريطانية بالهند ومما شجع على سلوك هذا السبيل أن السلطات العثمانية كانت قد وافقت فى تلك الفترة على السماح للسفن الأوربية أن تصل الى جـدة نتيجة لمساعى شريف مكة الذى كانت الرسوم الجمركية التى يدفعها التجار تشكل قدرا كبيرا من دخله (٣٠) هـذا من جانب ومن جانب آخـر فان القوى المحلية الحاكمة فى بلدان حوض البحر الأحمر سواء الأشراف فى مكة أو المماليك فى مصر أو الأئمة فى اليمن بدأت تعمل على تشجيع الحركة التجارية فى البحر الأحمر وموانيه الواقعة فى حوزتهـا بقصـد الاستفادة من الرسوم الجمركية التى تجبى على التجار فى جمارك هـذه الموانىء وقد بدأ تشجيع هـذا النشاط على أشده فى مصر منذ عهد على بك الكبير ثم محمـد بك أبو الذهب الذى عقد اتفاقيـة مع الانجليز عن طريق الرحالة الاسكتلندى بروس (لتشجيع حركة التجارة بين مصر والهند وتحديد الرسوم الجمركية التى تدفع فى الموانىء (٣١) وحاولت السلطات العثمانية أن تحـد من نشاط السلطات المحلية فى هـذا الميدان وأن تقف فى وجه النشاط التجارى فى هـذا البحر ولكن دون جـدوى فمـع أن السلطان العثمانى أصر على عدم ابحار السفن الأوربيـة شمال جـدة وذكر السلطات الحاكمة فى مصر ، بمـا فعله الانجليز فى الهنـد حيث أتوا اليهـا كتجـار ثم تحولوا الى مستعمرين وحكام (٣٢) الا أن هـذه التحذيرات العثمانية لم تستطع أن توقف هـذا النشـاط الدولى حـول ممارسة حرية التجارة فى البحر الأحمر . فقد تمكنت عدة سفن انجليزية من الوصول الى الموانىء المصرية مثل السويس — القصير — الطور فى الفترة من ١٧٧٥ — ١٧٧٩ . كما شهدت هـذه الفترة نشاطا فرنسـيا مماثلا فقد تمكن الفرنسيون من عقد اتفاقية مع مراد بك سنة ١٧٨٥ ، وذلك بهدف احياء طريق البحر الأحمر التجارى وتنشيط التجارة فيه وقـد اتفق على تشجيع وصـول السفن الفرنسية والمتاجـر الفرنسـية الى

---

(٣٠) المصدر نفسه ، ص ٣٢١
(٣١) نفسه ، ص ٣٢١ — ٣٢٢
(٣٢) نفسه ، ص ٣٢٢

السـويس كمـا اتفق على تحديد الرسوم الجمركية وحماية الفرنسيين فى الأراضى المصرية .

تجارة البحر الأحمر والنشاط التجارى فى السوق المحلية المصرية :

واذا ما انتقلنا الى الحديث عن النشاط التجارى فى الأسواق المحلية المصرية وارتباط هـذا النشاط بالحركة التجارية فى البحر الأحمـر فان الوثائق المتوفرة تثبت أن العمـل التجارى فى السوق المحلية قـد نشط وبدرجة كبيرة خلال العصر العثمانى وانتشرت الوكالات التجارية المتخصصة بالمتاجرة فى بعض السلع المستوردة عن طريق موانى البحر الأحمر فى كل أحيـاء القاهرة (٣٣) وأصبحت مصر مركزا لتصريف السلع التى ترد من الهند والشرق الأقصى واليمن والصومال الى بلدان المغرب العربى وبلاد الشـام وبعض البلدان الأوربية وترتب على هذا النشاط كثير من التغيرات التى أصابت المجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر وبخاصة فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى حيث أن فئة التجار خلال هذا القرن كونت فئـة متميزة لها نشاطها الاقتصادى الواسع كما أكتسبت مكانة اجتماعية متميزة كذلك جعلتها فى مقدمة الفئات الاجتماعيـة التى كانت تشـكل المجتمع المصرى .

وأصبحت الأسر التجـارية فى مصر فى القرن الثامن عشر بمثابة (شركات) تجارية كبيرة تقوم بعمليات الاستيراد والتصدير والتوزيع فى نفس الوقت وكان بعض هـذه الأسر يسيطر على معظم الوكالات التجارية التى كانت قائمة فى القاهرة فى ذلك الوقت وكان لهـذه الأسر وكـلاء تجاريون فى جميع موانىء البحر الأحمر التى كانت تصـل اليهـا السلع التجارية فتذكر الوثائق أن السيد محمد خليل عمل وكيلا للحاج على حماد

---

(٣٣) دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، دور المغاربة فى تاريخ مصر فى العصر الحديث ، القسم الأول ، فى العصر العثمانى ، المجلة التاريخية المغربية ، ص ٥٩ — ٦٢ .

(٣٤) أرشيف المحكمة الشرعية ، سجلات محكمة الباب العـالى ، سجلات محكمة القسمة العسكرية .

الفيومى ببندر جدة وكان يقوم بارسال طـــرود البن اليـــه ويصرف أموره التجارية بهذا الثغر نيابة عنه واستمر يقوم بهذا العمل لابنـــه اسماعيل جلبى من بعده يبدو أن نشاط هـــذه الأسرة التجارى كان كبيرا (٣٦) فنعثر على وكلاء آخرين لها ببندر جدة مثل السيد محمـــد نصر وابنـــه الســـيد عبد الرحمن بن السيد محمد نصر اللذين عملا وكلاء لهذه الأسرة ببندر جدة كذلك ، وقد كانت هـــذه الأسرة تتاجر بالدرجة الأولى فى البن اليمانى (٣٧) كذلك تذكر الوثائق أن الحاج عنبر عمل وكيلا للخـــواجا عبد العـــزيز بن عبد العزيز الشهير بابن أبى بلعة المغربى(٣٨) هذه أمثلة للوكلاء التجاريين للتجار المصريين فى موانى البحر الأحمر ومن الملاحظ أن نظـــام الوكلاء التجاريين استمر حتى بعد أن تمكنت السفن التجارية الأجنبية أن تصـــل الى السويس وغيرها من المـــوانىء المصرية منذ الربع الأخـــير من القرن الثامن عشر .

ومن الجـــدير بالملاحظـــة أن الأسر التجارية الكبيرة والتى ما رست نشاطا واسعا فى البحر الأحمر خلال العصر العثمانى تعود فى أصولها اما الى أصول مغاربية أو شـــامية . وفى بعض الأحيـــان تكونت شركات تجارية بين التجار من أصول مختلفة مما يدل على أن الســـوق المحليـــة المصرية نظرا لقربها من البحر الأحمر جذبت كثيرا من أبناء البلدان العربية وبخاصـــة من بلدان المغـــرب العربى وبلاد الشـــام لممارسة نشـــاطهم التجارى فيه .

والحديث عن التجار المغـــاربة ودورهم فى تاريخ العصر العثمانى حديث ممتع وهام وسوف نتناوله فى دراسة مطولة مفصلة فى وقت لاحق ويكفى هنا أن نذكر أن بعض التجار المغاربة أصبحوا شيوخا لطوائف التجار

---

(٣٦) أرشيف المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العسكرية ، سجل (١٦٥) ص ١٨٢ مادة ١٨٢.

(٣٧) أرشيف المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العسكرية ، سجل (١٦٥) ص ١٩١ مادة ٢٩١

(٣٨) أرشيف المحكمة الشرعية ، سجلات محكمة الباب العالى ، سجل رقم ٩٠ مكرر ، ص ٤٢ ، مادة ٢١٨ وهى عبارة عن عقد صفقات تجارية بين تجار مغاربة ، وانظر كذلك المجلة التاريخية المغربية عدد ٩ ، ص ١٨٢ — ١٩٦

فى بعض أحياء القاهرة مثل الخواجا الحاج أحمد المغربى الذى أصبح شيخ التجار بخط الغورية (٣٩) أكبر أحياء القاهرة التجارية فى ذلك الوقت وكذلك السيد الحاج عبد السلام الذى كان من أعيان التجار بسوق الجمالية والخواجا الحاج محمد الكهن الذى صار من أعيان التجار بوكالة الماوردى (٤٠) كما كان من بين التجار المغاربة المشهورين الخواجات الحاج أحمد بن المرحوم الحاج سعيد المغربى الشهير بالجملى (٤١) والحاج أحمد حدق (٤٢) والحاج محمد المغربى الفاسى (٤٣) ويكفى أن نذكر أن أسرة الدادة الشرايبى التى أصبحت تمثل أكبر البيوت المالية والتجارية بمصر فى القرن الثامن عشر كانت أسرة مغربية الأصل (٤٤) .

أما التجار الشوام الذين بزروا على مسرح السوق التجارية فى مصر وشاركوا فى الاشتغال بالسلع التى كانت ترد عن طريق البحر الأحمر فان دورهم لا يقل أهمية عن غيرهم من التجار فقد استطاع بعض منهم أن يكون شركات تجارية خاصة بالمتاجرة فى هذه السلع كما قام بعض الشوام بدور الموردين لبعض السلع التى تأتى عن طرق البحر الأحمر مثل الذمى نقولا النصرانى الحمص الشامى الذى كان يقوم باستيراد المرجان وتوزيعه على التجار المشتغلين بالمتاجرة فى هذه السلعة بوكالة

---

(٣٩) أرشيف المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العسكرية ، سجل (١٧٥) ، ص ١٨٢ ، مادة ٢٥٤ ولمزيد من التفصيل حول هذه الموضوعات انظر :

André Raymond, Artisans et commetcants au caire XV, III, Sléle, Damas, 1973.

(٤٠) أرشيف المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العسكرية ، سجل (١٧٥) ، ص ١٧٠ ، مادة ٢٣٦

(٤١) أرشيف المحكمة الشرعية، سجلات الديوان العالى ، سجل ١، ص ١٧ ، مادة ٣٠

(٤٢) أرشيف المحكمة الشرعية ، سجلات اسقاط القرى سجل (٣)، ص ٨٣ ، مادة ٢٣٦

(٤٣) أرشيف المحكمة الشرعية ، سجلات محكمة الصالحية النجمية، سجل ٥٠٩ ، ص ٢٠ ، مادة ٦٢

وانظر كذلك المجلة التاريخية المغربية ، العدد ٨٢٧ ، ص ٩٩ — ١٠٥

(٤٤) أرشيف المحكمة الشرعية ، سجلات محكمة القسمة العكرية ، ص ٢٤١ — ٢٤٢ ، مادة ٤٠٦

المرجان بالقاهرة وكان لهؤلاء التجار وكلاء تجاريون يعملون باسمهم فى موانى البحر الأحمر فى جدة ومخا والسويس كما كان لهم وكلاء ببلاد الشام لتصريف تجاراتهم بهذه البلاد (٤٥) .

وبذلك أصبحت السوق المصرية سوقا مركزية لتصريف السلع التجارية التى ترد الى مصر عن طريق البحر الأحمر وبخاصة البن اليمنى والأقمشة الهندية وكذا الأرز الهندى والمرجان والعاج وغيره من السلع الصومالية .

ومما يثبت ازدهار هذا النشاط واتساع سوقه وأنه لم يعد نشاطا محليا انتشار الوكالات التجارية المتخصصة وممارسة نشاطها على نطاق واسع ومع بلدان المنطقة المجاورة وبعض البلدان الأوربية حتى أنه يمكن القول أنه منذ بداية القرن الثامن عشر أصبحت البيوت التجارية فى مصر تشكل بداية الرأسمالية التجارية فى مصر ان صح هذا التعبير فعن طريق تتبع تركات بعض هؤلاء التجار وحصر هذه التركات يبرز حجم الثروات الضخمة التى كونوها من وراء اشتغالهم بالعمل التجارى كما يتضح أن هؤلاء التجار أصبحوا يمولون الصناعات المحلية ويتجونها لحسابهم الخاص واستغلال هذه المنتجات المحلية فى التبادل التجارى فى داخل البلاد وخارجها كما تمكنت من استثمار رأسمالها فى كثير من المجالات وخاصة ميدان التزام الأراضى الزراعية (٤٦) .

وخير دليل على ازدهار النشاط التجارى الذى شهدته مصر خلال العصر العثمانى عن طريق البحر الأحمر الدخل الذى كانت تدره الجمارك المصرية من موانيها الواقعة على هذا البحر كما ترصده سجلات الجمارك فى ذلك العصر فقد بلغ هذا الدخل فى بعض السنوات (٥٠٥٤ كيسة)،

---

(٤٥) أنظر لمزيد من التفصيل ، دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن (علاقات بلاد الشام بمصر فى العصر العثمانى) بحث قدم بالمؤتمر الدولى الثانى لتاريخ بلاد الشام ، دمشق فى الفترة ٢٧ نوفمبر الى ٣ ديسمبر ١٩٧٨

(٤٦) دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، ص ٩١ ، ٩٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٣٩٦٥) بارة (٤٧) وكان جمرك البهار بالسويس ذا أهمية كبيرة ويشكل دخلا كبيرا لمن يلتزمه (٤٨) بل أن العمل بالسمسرة بوكالة البهار بالسويس وهى الوكالة التى توضع فيها البضائع الواردة حتى تتم اجراءات الجمرك (٤٩) أصبحت تمثل دخلا هاما من مصادر دخل الباشا فى العصر العثمانى حيث أن عوائده التى تأتيه من الجمارك كانت تشكل موردا ضخما بالنسبة له ، ويهمنا هنا ما كان يصله من جمارك البحر الأحمر وخاصة السويس والقصير فقد كان للباشا على كل فرق بن (٤٠٠) نصف فضة وقد وصل ايراده من جمرك السويس فى عام ١٢٠٠ هـ — ١٧٨٥ م ، (٦ر٧٥٠ر٠٠٠ بارة سنويا) وعندما تمكن مراد بك وابراهيم بك من السيطرة على أمور الادارة بمصر تحكما فى جمرك السويس ودفعا للباشا فى مقابل ذلك مبلغا فى نهاية القرن الثامن عشر حوالى (٧ر٥٠٠ر٠٠٠) بارة سنويا بعد أن كانت فى بداية القرن تبلغ حوالى (١٢) بليون بارة (٥٠) وهذا العجز فى دخل الباشا من الجمارك المصرية لا يعود الى ضعف الحركة التجارية بقدر ما يعود فى المقام الأول الى سيطرة الأمراء المماليك على السلطة ، واستهانتهم بالباشوات العثمانيين هذا بالاضافة الى الصراعات السياسية التى شهدتها مصر فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر .

ومما سبق يمكن استخلاص الحقائق التالية :

أولا : ان النشاط التجارى فى موانى البحر الأحمر خلال العصر العثمانى طبقا لما تذكره المصادر المحلية المعاصرة ووثائق المحكمة الشرعية

---

(٤٧) دار الوثائق القومية ، سجلات الجمارك ، سجل رقم ٦١٥ جديد ، ٤١٤٠ قديم الخاص بعام ١٠٨٨ هـ .

(٤٨) كان هذا الجمرك يدر دخلا كبيرا وبخاصة من البضائع الواردة من الحجاز واليمن والهند وكما هو ثابت من سجلات الجمارك ووثائق المحكمة الشرعية فان الملتزمين الذين كانوا يتولون ادارة هذا الجمرك كانوا من المسيحيين أو اليهود حيث أن الاعتقاد الذى كان سائدا لدى القائمين على أمور الحكم فى ذلك الوقت أن جمع هذه الضرائب يناقض تعاليم الاسلام واعتبروه نوعا من الكسب لا يبرره عمل يقوم به محصل الضريبة .
ص ٩٧

(٤٩) دكتورة ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى العصر العثمانى ،

(٥٠) نفس المصدر ، ص ٩٧ — ٩٨

وسجلات الجمارك لم يصب بالركود التام كما كان يعتقد البعض وذلك عن طريق ما تثبته هــذه المصادر من مواد تتعلق بهــذا النشاط ممــا يثبت أن الحركة التجارية ظلت مستمرة فى هــذا البحر وموانيه سواء منهــا الواقعة على ساحل شبه الجزيرة العربية أو الواقعة على الساحل الأفريقى ومصر وكانت السفن التجارية الأجنبية تؤم الموانى المسموح لها بأن تصل اليها حتى استطاعت فى نهاية القرن الثامن عشر أن تصل الى جميع هذه الموانى وازداد التنافس الأوروبى حول اقامة الوكالات والانفراد بالنفوذ فيها وأصبح انشاء الوكالات التجارية فى موانى البحر الأحمر هدفا رئيسيا بين هــذه القوى المتنافسة . ومن أجل هــذا الهدف عقدت هــذه القوى الأوربية المعاهدات مع السلطات الحاكمة فى مصر وغيرها من البلدان التى تطل على هــذا البحر محددة الرسوم الجمركية التى تدفعها لهذه السلطات التى تقع هــذه الموانى ضمن أملاكها .

ثانيا : كان من نتيجة هــذا النشاط التجارى فى البحر الأحمر أن شهدت مصر منذ مطلع القرن الثامن عشر تكوين فئة من التجار المحليين الذين مارسوا نشاطهم على نطاق واسع وكونوا فى بعض الأحيان فيما بينهم شركات تجارية مساهمة (٥١) واتخذوا من السوق المصرية مركزا لنشاطهم الذى امتد الى بلدان المغرب العربى وبلاد الشام كما قاموا بدور الموردين لبعض التجار الأوربيين وقد كان لهؤلاء التجار كما رأينا وكلاء تجاريون فى موانى البحر الأحمر يقومون بعقد الصفقات التجارية نيابة عنهم (٥٢) وقد

---

(٥١) أرشيف المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العسكرية ، سجل (١٥٢) ، ص ٢٤١ — ٢٤٣ ، مادة ٤٠٦

وهى عبارة عن عقد شركة تجــارية ضخمة بين أفراد أسرة الدادة الشرايبى والنزاع حول هــذه الشركة .

وانظر كذلك : دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، علاقات بلاد الشام بمصر فى العصر العثمانى ، ص ٨

— أرشيف المحكمة الشرعية ، سجلات محكمة القسمة العسكرية ، سجل (١٧٥) ، ص ٢٧٠ ، مادة ٣٨٣

(٥٢) أرشيف المحكمة الشرعية ، سجل ١٦٥ ، ص ١٨٢ ، مادة ٢٨٢

أرشيف المحكمة الشرعية ، سجل ١٦٥ ، ص ١٩١ ، مادة ٢٩١

أرشيف المحكمة الشرعية ، سجل ١٩٥ ، مادة ٣٠٩

مارس هؤلاء التجار بحق دور المورد والمصدر فى ذات الوقت كما رأينا فيما سبق .

ثالثا : ترتب كذلك على هذا النشاط التجارى ازدهار الرأسمالية التجارية المصرية التى أخذت تستثمر جزءا من رأسمالها فى مجالات أخرى غير التجارة ، مثل تمويل الصناعات لحسابها والتزام الأراضى الزراعية ورهنها (٥٣) وبناء العقارات وتأجيرها وبخاصة فى الأحياء التى يتركز فيها نشاطها الى جانب انشائها القصور الخاصة فى الأحياء التى اشتهرت بسكن الطبقة الارستقراطية الحاكمة مثل أحياء بركة الأزبكية وبركة الفيل وقناطر السباع (٥٤) أى وجود فئة اجتماعية جديدة داخل المجتمع المصرى .

---

(٥٣) دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، ص ٩١ — ٩٤ .

أحمد شلبى عبد الغنى ، أوضح الاشارات ، تحقيق عبد الرحيم ، ص ١٩٥

(٥٤) أرشيف المحكمة الشرعية : سجل ٥٠٩ محكمة الصالحية النجمية ، ص ٢٠ ، مادة ٦٢

سجل ٤٨ محكمة القسمة العسكرية ، ص ١٥٧ ، مادة ٢٥٨
سجل ٢٢٤ محكمة طولون ، ص ٤٠١ — ٤٠٢ ، مادة ٨٦٨
سجل ٩٠ مكرر محكمة الباب العالى ، ص ٤٢ ، مادة ٢١٨
سجل ١٢٨ محكمة الباب العالى ، ص ١٨ ، مادة ٣٦٩
سجل ١٧١ محكمة الباب العالى ، ص ٢٤٦ — ٢٤٧ ، مادة ٦٣٩
سجل ١٣١ محكمة الباب العالى ، ص ١٤٢ ، مادة ٥٣٤
سجل ٢٦ محكمة بولاق ، ص ٣٥٩ ، مادة ١٨٠٤
سجل ١٣٣ محكمة الباب العالى ، ص ١٩٦ ، مادة ٧٦٨
سجل ١٧٥ محكمة القسمة العسكرية ، ص ٢٨٥—٢٨٧ ، مادة ٤٠١
سجل ١٧٥ محكمة القسمة العسكرية ، ص ٣١٢ ، مادة ٤٣٥

١٣

أهمية ثغر جـــدة

فى النصف الأول من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى)

دكتور
فائق بكر الصواف
بكلية الشريعة والدراسات
الاســلامية
جامعة الملك عبد العزيز
مكة المــكرمة

دكتور
مصطفى محمد محمد رمضان
بكلية الشريعة والدراسات
الاسلامية
جامعة الملك عبد العزيز
مكة المــكرمة

منذ أن اهتم المسلمون بانشاء ثغر جدة فى عصر الخليفـــة الثالث عثمان بن عفان (١) وهو يكتسب مع مرور الزمن أهمية دينية واقتصـــادية واستراتيجية الى أن أصبح من أهم الثغور فى الجزيرة العربيـــة والبحر الأحمر ، وقد حظى بهذه المكانة لأنه ميناء أم القرى مكة المكرمة ، ومفتاحها الى البحر الأحمر والعالم ، فاليه يصل حجيج بيت الله الحـــرام الـــذين يركبون البحر ، ومنه تزود الحجاز وقلب الجزيرة العربية بالمؤن والبضائع من شتى بقاع العالم ، وغدت لجدة أهمية تجارية على مر الأيام فأصبحت مركزا من مراكز تجارة العالم فى العصور الوسطى تلتقى فيهـــا السفن

---

(١) يذهب بعض المؤرخين الى أن جـــدة كانت قبل ذلك ثغرا معتمدا على ماذكره ابن جبير فى رحلته من أنه رأى بها أثر ســـور محلق بها ، وما ذكره ابن فهد فى كتابه : « اتحاف الورى بأخبار أم القرى » من أن بجدة أثر رسوم قديمة تدل على قدم اختطاطها وانها كانت مدينـــة كبيرة زمن سيطرة الفرس وأن سلمان الفـــارسى رضى الله عنه وأهله سكنوا فيها لانهم كانوا قوما تجارا وهم الذين بنوا سورها الأول وكان ماء البحر يدور حولها وهى يومئذ شبه جزيرة وسط لجة البحر .

أنظر : عبد القادر احمد بن فرج، « السلاح والعدة فىتاريخ جدة » مخطوط بمكتبة الحرم المكى رقم ٢٨ تاريخ دهلوى ص ٨ .

وأنظر أيضا : احمد الحضرى ، الجواهر المعدة فى تاريخ جـــدة ، مخطوط بمكتبة الحرم المكى رقم ٢٧ تاريخ دهلوى ، ص ٧ـــ٨ .

الآتية من الهند وشرق أفريقيا بالسفن القادمة من مصر ، فكانت أغلب السفن تفرغ حمولتها فى جدة وتعود مسرعة الى الهند قبل فوات موسم الرياح ، ثم تقوم سفن أخرى بحمل هذه البضائع الى السويس حيث تجد طريقها عبر مصر الى أوربا .

وقد عرف الحكام المسلمون عبر العصور الاسلامية لميناء جدة هذه الأهمية الدينية والاقتصادية فاهتموا بعمارته وتحصينه .

وفى العصر المملوكى تطلع سلاطين المماليك فى مصر الى الاهتمام بحماية الحرمين الشريفين وتأمين سبل الحج والعناية بثغر جدة لأهميته، فتدخلوا لتوطيد حكمهم فى الحجاز ، ففى سنة ٦٦٧هـ حج السلطان الظاهر بيبرس وعين نائبا له بمكة يرجع اليه أشراف مكة فى المهمات « ويكون الحل والعقد على يديه » (٢) وهو شمس الدين مروان ، ومن تلك السنة استمرت هذه الولاية بمكة الى آخر دولة قانصوه الغورى ، وكان يطلق على نائب السلطان المملوكى بمكة اسم « باش مكة » أو « باشا الترك » (٣) .

أما جدة فقد عين المماليك بها حاكما عاما كان يسمى « نائب جدة » ويقيم فى مقر يطلق عليه « دار النيابة » أو « فرضة السلطان » (٤) يطل على ميناء جدة مباشرة لكى يشرف منه على الحركة التجارية العالمية .

وفى مطلع القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) ظهرت أهمية جدة فى الدفاع عن الحرمين الشريفين والبحر الأحمر فى وجه الأطماع البرتغالية فعمل سلطان مصر يومئذ الأشرف قانصوه الغورى (٩٠٦ — ٩٢٢ هـ) على تقويتها وبناء الاستحكامات اللازمة للدفاع عنها .

ذلك أن البرتغاليين نجحوا فى عامى ١٤٩٨/٩٧ م فى الالتفاف حول

---

(٢) أنظر : عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الجزيرى ، درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٨٤ هـ ، ص ٢٨٣ .

(٣) بطل منصب « باش مكة » منذ الفتح العثمانى ، وصارت بعض اختصاصاته يقوم بها نائب جدة كما سيأتى بيان ذلك .

(٤) أنظر : عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة ، مصدر سبق ذكره ص ٢١ .

أفريقيا مرورا برأس الرجاء الصالح (٥) وتمكنوا بذلك من الالتفاف حول العالم الاسلامى تحدوهم رغبة انتقامية امتزجت فيها الدوافع الاقتصادية بالعوامل الدينية التى كانت تدفعها روح صليبية جارفة جعلت المسيحيين البرتغاليين أكثر تحمسا وشراسة فى مطاردة المسلمين والانتقام منهم فى عقر دارهم ، وازدادت هذه الرغبة تأججا وضراوة وعنفا عندما نجحوا فى الوصول الى الهند (٦) سنة ١٤٩٨ م .

وشجعت البابوية فى روما هذا المخطط الصليبى لغزو الاسلام فى عقر داره وباركت البابوية عملية الانخراط فى الحملات البرتغالية ، فكان البابا يعد المشتركين فى تلك الحملات بالنجاة من النار يوم الحساب ، وكانت سفنهم تخرج ناشرة أشرعتها وعليها الصلبان مرسومة يرافقها

---

(٥) رأس الرجاء الصالح كان اسمه قبل هذه التسمية « رأس العواصف » وذلك لكثرة مابه من عواصف ، ولكن ملك البرتغال أطلق عليه « رأس الرجاء الصالح » وذلك بعد أن نجح البرتغاليون فى اجتيازه ، لأنه فتح باب الرجاء والأمل أمامهم فى الوصول الى الهند .

أنظر : يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، القسم الثانى ص ٦٣٠ هامش ٤ .

(٦) نجح البرتغاليون بقيادة فاسكو دا جاما فى الوصول الى الهند سنة ١٤٩٨ م ، بفضل رئيس البحر الملاح العربى أحمد ابن ماجد الذى أرشدهم الى الطريق الصحيح ، وابن ماجد له مؤلفات قيمة فى الملاحة بعضها فى المكتبة الأهلية فى باريس وبعضها فى مكتبة لينينجراد ، وغيرهما ، وقد نشر بعض هذه المؤلفات وعلق عليها المستشرق الفرنسى جبرييل فران والمستشرق الروسى « تيودور شوموفسكى » وأيدوا جميعا ماذكره قطب الدين النهروالى فى كتابه « البرق اليمانى » من أن فاسكو دا جاما لم يتمكن من الوصول الى الهند الا بفضل أحمد بن ماجد الملاح الذى صاحبهم فى الوصول الى الهند مرشدا لهم .

أنظر : قطب الدين النهروالى ، البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، طبعة دار اليمامة بالرياض ص ١٨ — ١٩ ويحيى بن الحسين ، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، القسم الثانى ص ٦٣٠ — ٦٣١ هامش ٥ ، ود. أنور عبد العليم « الفوائد فى أصول علم البحار والقواعد » لأحمد ابن ماجد ، بحث نشر فى مجلة تراث الانسانية ، المجلد الخامس عدد ٤ ص ٢٧٤ ، وكذلك لنفس المؤلف كتاب : ابن ماجد الملاح من سلسلة أعلام العرب ، رقم ٦٣ .

دعاة المسيحية المتعصبون لنشرها (٧) .

وبعد أن ثبتت أقدام البرتغاليين فى الهند بدأوا يقومون بأشنع أعمال القرصنة فى المحيط الهندى ومدخلى البحر الأحمر والخليج العربى ويناوءون التجارة الاسلامية التى كانت فى يد مصر ، فعملوا على مهاجمة السفن الاسلامية واغراقها أو الاستيلاء عليها .

وكان يراود البرتغاليين أمل يرجون تحقيقه فى أسرع وقت وهو الاتصال بملك الحبشة المسيحى للتحالف معه لرسم مخطط لضرب القوى الإسلامية فى البحر الأحمر والاستيلاء على (جدة) مركز المقاومة الاسلامية والولوج منها الى مكة لضرب العالم الاسلامى فى أغلى مقدساته .

ومن ثم تسلل البرتغاليون فى مياه البحر الأحمر سنة ١٥٠٥ ، وفى ١٥٠٧ م استولوا على جزيرة سوقطرة (٨) للسيطرة على مدخل البحر الأحمر .

وفى غضون ذلك تنبه المماليك فى مصر لخطورة الغزو البرتغالى الذى استهدف حرمانهم من التجارة العالمية ، وبدأ يهددهم فى مقدساتهم وأملاكهم فى منطقة البحر الأحمر ، وتركزت خطتهم تجاه هذا الغزو فى تقوية حكمهم فى أقاليم البحر الأحمر وتحصين سواحله وعلى الأخص ثغر جدة لأهميته فى حماية الاراضى المقدسة الاسلامية فأعد الاشرف قانصوه الغورى حملة بحرية بقيادة الأمير حسين الكردى ، وقد أطلق على هذه

---

(٧) عبر عمانويل ملك البرتغال (١٤٩٥ — ١٥٢١ م) عن أغراض الحملة الأولى فى خطبة طويلة جاء فيها : « ان الغرض من اكتشاف الطريق البحرى الى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق » .
أنظر : د. السيد مصطفى سالم ، الفتح العثمانى الأول لليمن ، الطبعة الثانية ، من منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة سنة ١٩٧٤ ص ٤٦ — ٤٧ .

(٨) جزيرة سوقطرة أو (سقطرة) تقع بالقرب من الساحل الجنوبى للجزيرة العربية الى الشرق من عدن ، وهى جزيرة جبلية وعرة قليلة السكان تنتشر حولها الشعب المرجانية ولكن لها أهمية استراتيجية لمن يريد التحكم فى مدخل البحر الأحمر .

الحملة : « التجــريدة المعينـــة الى بلاد الهنـــد » وأطلق على قائدهـــا « باش تجريدة الهند » .

ويذكر ابن اياس ان جنود حملة حسين الـــكردى كانوا فى مجموعهم من جنود الطبقـــة الخامسة أى من العساكر التى جـــددها الغورى فى أيامه (٩) وكانوا يتكونون من المغاربة الذين يرأسهم أميرهم على المسلاتى الذى أطلق عليه اسم : « باش المغاربة » أى رئيسهم ، ومعهم « بعض أولاد الناس » (١٠) « وبعض مماليك سلطانية ، وعبيد سود رماة وتراكمة (تركمان) وغير ذلك » (١١) وكان المغـــاربة يؤلفون أغلب أفراد الحملة لانهم من البحارة ، ومعهم فريق من البنائين والنجارين ومن اليهم من العمال الفنيين لاقامة التحصينات اللازمة حول جدة كما سنرى .

وأراد الغورى أن يضفى على حملته هذه نوعا من الدعاية فى الداخل فاحتفلت الدولة بتوديع تلك الحملة ، وذلك لأهميتها فى مصـــير ومستقبل الاقتصاد المصرى والتجارة الاسلامية فى البحار الشرقيـــة ، وكان هـــذا الاحتفال يوما من الايام المشهودة فى القاهرة كما يقول ابن اياس فيمايلى :

« وفى يوم الاثنين سادسنا (أى سادس جمادى الآخر سنة ٩١١هـ) خرجت تلك التجريدة المعينة الى بلاد الهند وكان لها يوم مشهود ، فكان باش المماليك الذين توجهوا فى المراكب الى جدة والتركمان والعبيد الذين بها حسين المشرفوباش المغاربةالذين بها الخواجا نور الدين علىالمسلاتى

---

(٩) انظر : ابن اياس محمد بن احمد الحنفى ، بدائع الزهـــور فى وقائع الدهور تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة (١٩٦٠ — ١٩٦٣) الجزء الخامس ص ٢٠٣ .

(١٠) أولاد الناس فرقة خاصة من أبناء الأمراء المماليـــك المتفوقين حيث جرت العـــادة أن يعطى للواحد منهم اقطاع متناسب مع رتبة أمير خمسة فى النظام الحربى المملوكى رعاية لسلفه بشرط أن يندرج فى الرديف السلطانى ويكون صالحا للخدمة فى الوظائف المدنية الصغرى زمن السلم .

انظر : القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٥ ، ودائرة المعارف الاسلامية ، مادة ابن اياس ، ود. محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٢٤ ، ٤٧ .

(١١) ابن اياس ، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٨٤—٨٥ .

المغربى ، فلما خرجوا توجهوا الى نحو السويس ونزلوا من هناك (فى) مراكب الى جـدة ، وقـد جهز لهم السلطان عدة مراكب مشحونة بالزاد والسلاح وغير ذلك » (١٢) .

وكانت مهمة هـذه الحمـلة كما يتضـح من يوميـات ابن اياس تتلخص فيما يلى :

أولا : تأديب أعراب بنى ابراهيم (١٣) المتضامنين مع أمير ينبع (يحيى بن سبع) وأمير خليص (مالك بن رومى) الذين قاموا بكثير من أعمال السلب والنهب لحجاج بيت الله الحرام وهددوا ثغر جدة ومكة المـكرمة بكثرة اغاراتهم المتكررة عليهما .

ثانيا : تحصين جدة ببنـاء سور ضخم ذى أبراج عاليـة لتـكون على استعداد لصد أى عدوان مفـاجىء تتعرض له من البرتغـاليين أو الأعراب .

ثالثا : الاطمئنان على أهم ثغور البحر الأحمر وعلى الأخص « سواكن » فى الساحل الأفريقى تجاه جدة ، وعدن قرب مدخل البحر الأحمر، وذلك لتأمين خط الرجعـة من الهند .

رابعا : التوجه الى الهند لمحاربة البرتغاليين واجلائهم عن المراكـز التى نزلوا بها فى الشواطىء الهندية .

---

(١٢) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٨٥ .

(١٣) بنو ابراهيم أشهر القبائل التى كانت تسكن يومئـذ بين ينبع ومكة وكانت السلطات المصرية توكل اليهم حراسة قافلة الحج المصرية فى بعض مراحل الطريق بين ينبع ومكة ، وفما بين سنة ٩٠٧ هـ وسنة ٩١١هـ قام أعراب بنى ابراهيم بكثير من أعمال السلب والنهب لحجـاج بيت الله الحرام متضامنين مع أمير ينبع (يحى بن سبع) وأمير خليص (مالك بن رومى) واشتد أمرهم فى سنة ٩١١ هـ لدرجة أن السلطان الغورى أمر بايقاف التوجه الى الحج فى هذه السنة من مصر والشام وسائر الأمصار حتى يقوم بتأمين طريق قوافل الحج من شر هؤلاء المفسدين .

أنظر : عبد القادر الجزيرى ، درر الفوائد المنظمة ، مصـدر سبق ذكره ص ٥٣٨ ، وابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ص ٨٩، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٩ — ١٠٢ ، ١٠٤ — ١٠٥ ، ١١٦ ، ١٣٨ .

وعلى الرغم من أن السبب الرئيسى فى اعداد هذه الحملة هو مجابهة الغزو البرتغالى ، وسبب بنـاء سور جدة تأمينها من هذا الغزو كما يظهر ذلك من كتابات ابن اياس وغيره من المؤرخين المعـاصرين الا أن الشيخ عبد القادر بن فرج (١٤) صاحب كتاب « السلاح والعدة فى تاريخ جدة » يجعل غارات البدو على جدة من بنى ابراهيم ومن شايعهم هى الأسـباب الرئيسية لبناء السور .

ويذكر عبد القادر بن فرج ان السلطان الغورى أرسل اليهم فى أول الأمر فى سنة ٩٠٨ هـ حملة من نحو الف فارس « غير الرماة والمشاة » بقيادة الأمير (قيت الرجبى) فقامت هذه الحملة بتـأديب هؤلاء الأعراب وعادت الى مصر بعد أن أخذت عليهم العهود والمواثيق بعدم المخالفة ،غير أنهم نكثوا ايمانهم من بعد عهدهم وعادوا الى نهب مكة وجدة ، ولمـا بلغ الأمر أيضا السلطان قانصوه الغورى جهز اليهم حملة الأمير حسين الكردى المشهورة (١٥) .

وقد عزل الغورى (يحيى بن سبع) من امارة ينبع وولى بها مكانه « هجار بن دراج » من أسرة دراج الـذين تولوا امارة ينبع من قبل (١٦) وعندما وصلت هذه الحملة الى ينبع اشتبكت فى معركة مع يحيى بن سبع المخلوع ، فهرب من وجههم مهزوما وقتلت الحملة كثيرا من العربان الذين تجمعوا حوله ، كما حرقت كثيرا من دور ينبع على ساحل البحر الأحمـر كما خربت أيضا غالبية محلاتها التجارية وشتتوا شمل العربان الذين تجمعوا بها ، وبعد فراغ حسين الـكردى من تأديب عربان بنى ابراهيم توجه الى جدة ، غير أنه لم يستأصل شأفتهم ، وكان لبقاء يحيى بن سبع حيا شيئا من الخطورة على وضع الأمن فى طرق القوافل .

---

(١٤) هو الشيخ عبد القادر بن فرج الشافعى من أهل جدة وخطيب مسجدها ولد بجدة وبها نشأ ، وكانت وفاته بها فى سنة ١٠١٠ هـ وعاصر بداية العصر العثمانى .

أنظر : مجلة المنهل ، المجلد السابع ص ٤٤٤ ، والاعلام للزركلى ج ٤ ، ص ١٦٢ وخلاصة الأثر للمحبى ج ٢ ص ٤٣٥ .

(١٥) المصدر السابق ، ص ١٦ — ١٧ .

(١٦) ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ٤ ص ٨٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ .

ومن ثم فان المصلحة اقتضت بأن يتفرغ حسين الكردى للتوجه الى جدة لبناء سورها وأن يقوم الغورى بارسال حملة أخرى تتفرغ لأعراب بنى ابراهيم وأهل ينبع وفعلا فان الغورى أرسل حملة اليهم فى شهر ربيع الآخر بقيادة الأمير خاير بك الاينالى أحد المقدمين وكانت نحوا من خمسمائة مملوك ومائة قواس وأخذوا صحبتهم (هجار بن دراج) الذى سبق أن عينه الغورى أميرا على ينبع عوضا عن يحيى بن سبع وخرج المحمل صحبة هذه الحملة ومنعوا النساء من الخروج مع الحملة والمحمل وذلك لاعتبارات عسكرية .

وقد نجحت حملة الاينالى فى مهمتها فقد انتصرت على عربان بنى ابراهيم وهرب يحيى بن سبع وعندما وصلت أخبار هذا النصر الى القاهرة دقت الطبول وزينت القاهرة بهذه المناسبة واستبشر الناس خيرا لتأمين طريق الحجاج الى بيت الله الحرام .

وقد ظلت تجريدة (خاير بك) ثمانية أشهر وأياما ورجعت فى العاشر من ربيع الأول سنة ٩١٣ هـ وكان دخولها ظافرة الى القاهرة من الأيام المشهودة نظرا لمهمتها المقدسة فى تأمين طريق الحج غير أن الغورى غضب من الحملة لأنه كان يريد منهم أن يتتبعوا يحيى بن سبع الى حيث توجه « ليقطعوا جابره » على حد قوله (١٧) .

وفى رجب من سنة ٩١٤ هـ انتهت مشكلة اعراب بنى ابراهيم وزعيمهم يحيى بن سبع حيث حضر يحيى بن سبع الى القاهرة تائبا وكان الغورى قد منحه أمانا على يد ابنه الذى وصل الى القاهرة فى وقت سابق لهذا التاريخ وعندما رأى أهل القاهرة يحيى بن سبع فى شوارعها سبوه وكادوا يرجمونه لما حدث منه قبل ذلك من قطع طريق الحجاج وسلب أموالهم (١٨) .

ونظرا لأهمية هذا الوصف ولأن هذا السور الذى بناه المصريون ومعهم بعض الحجازيين كان من أهم العوامل التى دفعت عن جدة عادية

---

(١٧) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١١٦ .
(١٨) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٣٨ .

البرتغاليين أكثر من مرة فسنتناول هـذا الوصـف بشيء من التفصـيل فيما يلى :

يذكر الشيخ عبد القادر بن فرج أنه بمجرد وصول حسين الـكردى وجماعته الى جدة شرع فى عمارة السور التى تمت فى تسعة أشهر (تمت فى ذى الحجـة من سـنة ٩١٢ هـ) بمـا فى ذلك الإبراج العالية ودار النيابة (١٩) فى جدة وجامع الميناء ومصلى العيد .

ومما هو جدير بالذكر أن الشريف بركات شريف مكة ساعد فى عملية بنـاء السور وملحقاته وساعد فى نزع ملـكية بعض البيوت التى كانت قريبـة من السور وصار محل البيوت آثار تدل عليها ، كما حضر الشريف بركات بنفسه عملية البناء وكان فى بعض الأيام يقف على العمارة راكبا فرسه « ليحضر لحضوره جميع من فى البلد ويعينون بالحمل للمونة الكبير منهم والصغير والغنى والفقير والمأمور والأمير » (٢٠) .

وكان ارتفاع السور من الأساس حتى أعلاه (١٢ ذراعا) وطول محيطه من ناحية مكة واليمن والشام ٣٠٠٠ ذراع وعرض جداره أربعـة اذرع ، أما الأبراج فكانت ستة أبراج ومحيط كل برج منها ستة شر ذراعا وارتفـاعه على وجه الأرض خمسة عشر ذراعا ، منها برج شـامى تجاه الشمال وآخر يمانى تجاه الجنوب وبرجان قبليان تجاه مكة ملاصقان لبابين يسمى أحدهمـا باب الفتوح وهو الأيمن والآخـر يسمى باب النصر وهو الأيسر ، أما البرجان البحريان فقـد نزل بهما الغواصون فى البحر اثنى عشر ذراعا (٢١) .

---

(١٩) دار النيـابة هى مقر نائب جدة وكان يطلق عليهـا أحيـانا (فرضـة السلطان) .

(٢٠) أنظر : عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة ، مصـدر سبق ذكره ، ص ص ٢٠ — ٢٢ .

(٢١) نص الشيخ عبد القادر بن فرج على أن هذا الذراع هو ذراع العمل وأضاف انه أى ذراع العمل هذا ذراع ونصـف بذراع النجـار ، وبالرجوع الى على مبارك فى خططه وهو أهم مصدر تعرض لتقدير الأصول تبين لنـا أن ذراع النجار التى أشار اليها بن فرج تبلغ نحو ٧٧٫٥ سم فتكون ذراع العمل التى قدر بها ابن فرج أبعاد سور جدة هى : ٧٧٫٥ سم × ١٫٥ = ١١٦٫٢٥ سنتيمتر .

كما كان من تمام هذا العمل حفر خندق محيط بالمدينة من جميع نواحيها ، وبعد اتمام البناء وحفر الخندق زود المماليك المدينة بكثير من المدافع والعتاد الحربى ، وكان جملة ماصرف على عمارة السور وملحقاته (الأبراج ودار النيابة وجامعها ومصلى العيد وحفر الخندق) مائة الف دينار غورى (٢٦) .

وهكذا فان بناء السور كان قويا بأبراجه العالية وخندقه المحيط به وتسليحه الأمر الذى جعل منجدة صخرة تحطمت عليها آمال البرتغاليين فى نهاية العصر المملوكى وبداية العصر العثمانى .

وبعد أن انجزت الحملة المصرية عملية تحصين جدة توجهت الى الهند وأحرزت انتصارا جزئيا أمام الأسطول البرتغالى فى مياه « ديو » فى خريف عام ١٥٠٨ م (٩١٤ هـ) بالتعاون مع المسلمين الهنود الا أن البرتغاليين سارعوا فى تجميع قوتهم البحرية لمواجهة التحالف المصرى الهندى وأحرزوا نصرا حاسما فى ٣ من فبراير ١٥٠٩ م وهى المعركة المعروفة فى التاريخ بمعركة (ديو البحرية) ، تلك المعركة التى أنهت عهدا من السيطرة المصرية على طريق التجارة البحرى فى الهند .

وقد تضاءلت بعد معركة ديو البحرية الأهمية التجارية للبحر الأحمر الى حد بعيد ، تلك الأهمية التى ظل يتمتع بها طوال العصور الوسطى ، وانتقل مركز الثقل منه الى طريق رأس الرجاء الصالح وساحلى أفريقيا الشرقى والغربى ذلك الطريق الذى غدا يزخر بخطوط ملاحية لأول مرة فى التاريخ بين أوربا وأفريقيا الشرقية والهند وغيرها من بلدان الشرق الأقصى حتى فتح قناة السويس للملاحة الدولية سنة ١٨٦٩ م ، وعودة النشاط التجارى الى البحر الأحمر وموانيه من جديد .

وبعد هذه الهزيمة التى منى بها المصريون فى الهند نقل البرتغاليون معركتهم البحرية الى البحر الأحمر وهددوا اليمن والحجاز ومصر فتوغلوا فى البحر بقيادة (البوكيرك) وخربوا ميناء عدن فى المحرم من سنة ٩١٩ هـ (١٥١٣ م) وفى أواخر صفر من نفس العام استولوا على جزيرة

---

(٢٢) أنظر عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة ، ص ٢٢ .

« كمران » (٢٣) ثم خربوها وتركوها متجهين شمالا قاصدين جدة ، وكانت خطة البوكيرك ترتكز على التقدم نحو ميناء مصوع التابع للحبشة ليتمكن من الاستيلاء على جزر دهلك المواجهة لجدة ثم يعد منها لمهاجمة جـــدة ، ويمهد منها أيضا لاقامة علاقات تحالف ضد المسلمين مع امبراطور الحبشة للقضاء على قوة مصر فى البحر الأحمر ومهاجمة الأماكن المقدسة الاسلامية .

ولقد حاول البوكيرك مواصلة مشروعه الــكبير وهو مهاجمة جـــدة فاتجه لذلك شمالا ولــكنه جوبه بريح صرصر عاتية أجبرته على الرجوع قبل أن يصل الى جدة ، فعاد يباشر القرصنة والتخريب فى موانى البحر الأحمر فأحرق السفن الراسية فى ميناء زليع وعاد الى عـــدن فضربهـــا بالمدافع نحو أســـبوعين (٢٤) .

وكانت القوات المصرية قــد عادت ادراجهـــا الى مصر بعد أن ترك حسين الــكردى بعضها فى جدة وذهب الى مينـــاء السويس لبنـــاء قوة بحرية يستطيع بها مجابهة الاسطول البرتغالى المتفوق ، واتجه السلطان الغورى الى العثمانين يطلب مساعدتهم فى شراء مايحتاجه من أخشـــاب وأدوات لصناعة الســـفن فأمر السلطان بايزيد الثانى (والد سليم فاتح مصر) بارسال ثلاثين الف سهم وأربعين قنطارا من البارود ، وغير ذلك من عتاد الحرب هدية الى مصر دون مقـــابل كما أرسل نحو الفين من البحارة العثمانيين للمساعدة فى اعداد الاسطول فى مينـــاء الســـويس والمشاركة فى الحملة البحرية المنتظرة على الهند برئاسة سلمان الريس الذى أطلق عليـــه ابن اياس « سلمان الرومى » والـــذى أصبح قبطانا للاسطول المملوكى بعد اعداده .

وبينما كان المصريون يعدون لبناء قوة بحرية فى السويس وصلتهم الأخبـــار بأن البرتغاليين غادروا الهند بقيـــادة البوكيرك بحملة فى فبراير

---

(٢٣) « كمران » جزيرة بالبحر الأحمر تجاه زبيد باليمن وهى حصن لمن ملك تهامة اليمن (ياقوت — معجم البلدان) كما أنها محطة بحـــرية هامة بين عـــدن وجـــدة .

(٢٤) أنظر : د. السيد مصطفى سالم ، الفتح العثمانى الأول لليمن ، ص ٧١ — ٧٤ .

سنة ١٥١٥ م وتوجهوا الى البحر الأحمر وكان هدفهم من هذه الحملةهو تخريب جدة ومكة ، فأرسل الغورى على الفور قوة بقيادة الأمير حسين الكردى نائب جدة « والذى كان يباشر عملية اعداد الأسطول الكبير بالسويس » (٢٥) ، فما كاد حسين يصل الى جدة حتى قام بتقوية أسوارها ودفاعاتها مرة أخرى ، وجمع بعض الأموال من أهالى جدة لمعاونته فى مهمته واضطر الى مصادرة أموال بعض تجار جدة ، كما الزم الناس للعمل فى تحصيناته لجدة ، وعلى الرغم من هذه الظروف الحربية الاستثنائية التى تبيح للقائد جمع الأموال من المواطنين وتجنيدهم فى العمل للدفاع عن أوطانهم الا أنه لم يسلم من انتقاد بعض المؤرخين المعاصرين له وسخطهم عليه (٢٦) .

وبينما كانت الحملة البرتغالية فى طريقها الى البحر الأحمر لتحقيق غرضها وصلها خبر بقيام ثورة فى جزيرة (هرمز) التى بسيطر البرتغاليون عليها فى مدخل الخليج العربى ، فاتجه البوكيرك اليها ، وما أن سيطر على الأوضاع فيها حتى اشتد به المرض وعاد الى مركزه فى الهند حيث توفى بعد وصوله مباشرة ، ونجت (جدة) و (مكة) من التخريب المنتظر مرة أخرى .

وبعد أن أتمت القوات المصرية استعدادها البحرى فى السويس وجدة خرجت من الشواطىء المصرية وقامت بعملية تحصينات فى موانى البحر الأحمر وخاصة فى الثغور اليمنية التى كانت فى حاجة الىتحصينات على غرار التحصينات التى أقيمت فى جدة من قبل وذلك لاغلاق البحر الأحمر أمام البرتغاليين وتأمين خط الرجعة للقوات المصرية ، ولكن مما يؤسف له أن حسين الكردى اشتبك بقواته مع أمراء اليمن عندما رفضوا اقامة هذه التحصينات وقام المصريون بمهاجمة السواحل اليمنية بالقوة وتطور الصراع حتى انتهى بقتل السلطان « عامر بن عبدالوهاب » سلطان صنعاء واحتل المصريون صنعاء ، واضطرت القوات المصرية فى بادىء الأمر لخوض الحرب مع اليمنيين للدفاع عن أنفسهم أثناء اقامة

---

(٢٥) أنظر : ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ص ٣٠٧ — ٣٠٨ .

(٢٦) أنظر : قطب الدين النهروالى ، الأعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ١٦٥ — ١٦٧ .

التحصينات ، ولكن هذه المعارك تطورت تطورا خطيرا أبعد الحملة عن هدفها الأصلى ، وبذلك يصح أن يقال عن هذه الحملة بأنها غرقت في اليمن ومشاكله قبل الوصول الى مياه الهند .

وفي غضون ذلك تنبه العثمانيون لضعف المماليك (الذين وقع على كاهلهم الدفاع عن البحر الأحمر ضد البرتغاليين فى الجنوب ومحاربة فرسان القديس(٢٧) يوحنا فى البحر المتوسط فى الشمال) فبدأ العثمانيون يتدخلون في المنطقة لملء الفراغ العسكرى الذى أصبح واضحا بعد أن فشل المماليك أمام الزحف البرتغالى أكثر من مرة ، وأصبح الطريق مفتوحا أمام البرتغاليين لتحقيق هدفهم نحو الأراضى المقدسة الاسلامية فبدأ العثمانيون يتدخلون وكان تدخلهم سلميا على نحو ما رأينا مساعدة المماليك في حربهم ضد البرتغاليين ، وتأكد لهم عن قرب ضعف القوة المملوكية فأعدوا أنفسهم لملء هذا الفراغ .

وفى صفحات ابن اياس اشارات كثيرة الى الآثار السيئة التى نجمت عن استيلاء البرتغاليين على التجارة الشرقية وأعمالهم التخريبية ضد السفن والثغور الاسلامية فيقول ابن اياس فى حوادث المحرم من سنة ٩٢٠ هـ ما نصه : « وكان فى تلك الأيام ديوان المفرد وديوان (جمرك) الدولة وديوان الخاص فى غاية الانشحاب والتعطيل فان بندر الاسكندرية خراب ولم تدخل اليه القطائع (السفن الكبيرة) فى السنة الخالية وبندر جدة خراب بسبب تعبث الفرنج (البرتغاليين) على التجار فى بحر

---

(٢٧) كان فرسان القديس يوحنا يسيطرون على بعض الجزر فى شرقى البحر المتوسط ويتمركزون فى جزيرة رودس وكانوا يشنون الهجمات المتوالية على الموانى الاسلامية وخاصة المصرية ، وقاموا بكثير من أعمال القرصنة البحرية فى مواجهة السفن الاسلامية ، وكانوا يعدون هذه الأعمال العدوانية من قبيل الجهاد الدينى وظلوا فى جزيرة رودس حتى أجلاهم السلطان سليمان القانونى عنها سنة ١٥٢٢ م الى غرب البحر المتوسط وتمركزوا فى جزيرة مالطة الى أن قضى على نفوذهم بونابرت وهو فى طريقه الى مصر سنة ١٧٩٨ م .

انظر : الهجمات المتكررة لهؤلاء القراصنة على ثغور مصر فى كتاب ابن اياس بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ٤ ص ١٤٥ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٢٠ .

الهند ولم تدخل المراكب بالبضائع الى بندر جدة نحوا من ست سنوات وكذلك جهة دمياط » (٢٨) .

بذلك انهارت امكانيات مصر الاقتصادية والقت هذه الحالةالاقتصادية السيئة بظلها على الأوضاع العسكرية المصرية ، فضعفت قوة المماليك العسكرية وتدهورت قدرات مصر الدفاعية ، الأمر الذى اغرىالبرتغاليين والعثمانيين بالوثوب على أملاكها ، وقام سباق رهيب بين البرتغاليين من الجنوب والعثمانيين من الشمال ، لملء هذا الفراغ ، وحاولت كل من الدولتين أن ترث الدولة المملوكية المتدهورة .

وبينما كان البرتغاليون يعملون المرة تلو المرة على التوغل فى البحر الأحمر حتى هاجموا جدة فى عام ١٥١٧ م كان العثمانيون قد نجحوا فى خلال عام ١٥١٦ م وأوائل عام ١٥١٧ م (٩٢٢ — ٩٢٣ هـ) فى الاستيلاء على أملاك الدولة المملوكية فى الشام ومصر ، ولم يتمكن الغورى من الانتصار فى لقائه الأول مع العثمانيين فى موقعة (مرج دابق ١٥١٦ م) وكانت قواته المتباغضة موزعة فى كثير من ثغوره وخاصة فى ثغور اليمن والحجاز ، كما كان يقاوم ضربات فرسان القديس يوحنا المتكررة فى البحر المتوسط .

وعندما دخل السلطان سليم القاهرة فى المحرم من سنة ٩٢٣ هـ وتغلب على مقاومة طومان باى آخر سلاطين المماليك وشنقه على باب زويلة بالقاهرة فى ٢١ من ربيع الأول ٩٢٣ هـ (١٣ من أبريل ١٥١٧ م) أسدل الستار علىفترة من أهم فترات التاريخ الاسلامى كانت مليئةبالجهاد والنضال كتب للمماليك فيها النصر على الصليبيين والمغول ، ولكنهم أخفقوا فى رد عادية البرتغاليين والعثمانيين .

انضمام الحجاز الى العثمانيين :

لم تكن الدولة العثمانية منعزلة تمام الانعزال عن الحجاز ، فان حجاجها كانوا يأتون كل عام فى موسم الحج ، وكان سلاطين آل عثمان

---

(٢٨) أنظر : ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ٤ ص ٣٥٩ .

يرسلون الهدايا الى الحرمين كل عام ، وكانوا حريصين كل الحرص على ابلاغ شرف مكة بانتصاراتهم فى أوربا ، وعندما فتح السلطان محمدالفاتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م أرسل الى شريف مكة رسالة بهذه المناسبة يبشره فيها ويطلب منه الدعاء كما أرسل اليه بعض الهدايا من غنائم الفتح (٢٩) ، وفى عام ٨٨٦ هـ ، أدى السلطان بايزيد الثانى (والد سليم فاتح مصر) فريضة الحج وتوثقت عرى المودة بينه وبين شريف مكة .

وكان العثمانيون يطمحون الى مد نفوذهم الى الحرمين الشريفين وتتوق نفوسهم الى أن ينعتوا بلقب خادم الحرمين الشريفين ، ذلك اللقب الذى اعتز به حكام مصر من المماليك وغيرهم ، وذلك لاعلاء مكانتهم فى العالم الاسلامى ، وقد عبر السلطان سليم عن هذا الأمل عقب انتصاره فى معركة مرج دابق على المماليك سنة ٩٢٢ هـ ودخوله حلب ، فقد حضر صلاة الجمعة فى مسجد حلب وخطب الخطيب باسمه وأغدق عليه لقب « خادم الحرمين الشريفين » وعندما سمع سليم هذا اللقب من خطيب المسجد طرب له وأظهر الفرح والسرور بتلقبه بهذا اللقبوخلع على الخطيب خلعا متعددة وأحسن اليه احسانا زائدا (٣٠) .

وعندما أتم السلطان سليم فتح مصر أظهر حسن نواياه تجاه جماعة من الحجازيين كانوا بمصر ابان فتحها ، منهم من مكة الخطيب محيى الدين العراقى الذى أنعم عليه بالانعام الجزيل ، واستقبل قاضى قضاة مكة صلاح الدين محمدا بن ظهيرة وكان من المعتقلين فى مصر (٣١) فأكرمه وعظمه وخلع عليه وأحسن اليه .

---

(٢٩) أنظر ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٢٦ — ٢٧ .

(٣٠) أنظر : قطب الدين النهروالى ، الاعلام باعلام بيت الله الحرام ، ص ١٨٧ — ١٨٨ .

(٣١) كان السلطان الغورى قد طلب من قاضى قضاة مكة ابن ظهيرة عشرة آلاف دينار فعجز القاضى عن سدادها فأمر الغورى بالقبض عليه وحمله الى مصر واعتقله بها وعقب هزيمة الغورى فى موقعة مرج دابق أخرجه طومان باى من السجن وظل فى مصر حتى قابل السلطان سليم.

أنظر : أحمد بن زينى دحلان ، خلاصة الكلام فى بيان امراء البلد الحرام ، ص ٥٠ .

ولما أراد سليم أن يجهز جيشا الى الحجاز اتصل قاضى قضاة مكة صلاح الدين ابن ظهيرة برجال السلطان سليم واقنعهم بعدم ارسال هـذا الجيش وان الرأى عنده « أرسال مكتوب الى (شريف مكة) ولا تبدو منه مخالفة أبدا » ولا يحتاج الأمر الى تجهيز جيش ، فأخذ السلطان سليم برأيه ، وكتب القاضى صلاح الدين رسالة من طرفة الى الشريف يعرفه فيها بما وقع ويطلب منه ارسال ابنه محمد أبو نمى الى السلطان سليم(٣٢)

ونظر شريف مكة الى الظروف والملابسات الحربية والاقتصادية التى كان يعيشها الحجاز أبان الزحف العثمانى بعين الخوف من المجهول ،فمن ناحية كان الحجاز يمر بظروف حربية صعبة حيث تعرضت موانيـه وعلى الأخص ((جدة) لـكثير من هجمات البرتغاليين الشرسـة التى سبق أن أشرنا اليها ، وهدد البرتغاليون بمهاجمة الأراضى المقدسة الاسلاميةوالعبث بمقدسات المسلمين ، ولم تكن لدى شريف مكة القـوات والعتـاد التى يستطيع بها صد المعتدين البرتغاليين .

ومن ناحية أخرى فقد كان الحجاز يعتمد من الناحية الاقتصادية على المخصصات الثابتة التى كانت تأتيه من مصر نظرا لندرة الزراعة به وقلة موارده ، فان دولة المماليك ومن سبقتها من الدول الاسـلامية التى ضمت الحجاز اليها قـد عملت كل منها على رصد المخصصات وحبس الأوقاف بالديار المصرية على سكان الحرمين الشريفين فـكان الحجاز بذلك يتلقى من مصر سنويا كل ما يحتاجه منغلال الى جانب مرتبات الاشرافوالعاملين على خدمة الحرمين الشريفين فى مكة المـكرمة والمدينة المنورة ، والتى كانت ترسل سنويا صحبة أمير الحج المصرى .

هذه الظروف الحربية والاقتصادية التى كان يعيشـها الحجاز ابان الزحف العثمانى هى التى أملت على شريف مكة الشريف بركات قبـول السيادة العثمانية ورد على رسالة ابن ظهيرة بارسال وفد برياسة ابنـه ابو نمى لتقديم الولاء والاستعداد بدخول الحجاز تحت السيادة العثمانية، وذلك لكى يضمن استمرار تدفق ورود الموارد التى كانت تصل اليـه من

---

(٣٢) المصـدر السابق نفس المـكان .

مصر ، ويضمن وجود قوة اسلامية كبرى تقف أمام الزحف البرتغالى على الأراضى المقدسة الاسلامية .

واستقبل السلطان سليم وفد الشريف بركات فى القاهرة فى ١٦ من جمادى الثانية ٩٢٣ هـ (٦ من يوليو ١٥١٧ م) استقبالا حافلا وقدم أبو نمى الى سليم بعض الهدايا ، وبعض الآثار النبوية الشريفة التى كانت موجودة فى مكة والمدينة ثم سلمه مفاتيح الحرمن ، وهكذا تم اقرار شريف مكة بقبول السيادة العثمانية ومنحه سليم تفويضا بحكم « مكة المشرفة المنورة المطهرة ونواحيها وضواحيها وتوابعها ولواحقها المعطرات ولكل موضع كان الجناب الكريم حاكما وضابطا فيه بمراسيم السلاطين القديمة » (٣٣) ثم أمر بقتل حسين الكردى نائب جدة من طرف المماليك .

وعقب عودة وفد الشريف الى مكة قرىء التفويض على الأهالى وأمر الشريف بالقبض على حسين الكردى فأخذ مقيدا الى جدة وقتلوه غرقا فى ميناء جدة فى تلك المياه التى سبق له أن دافع عنها ضد الغزو البرتغالى .

وبذلك دخل الحجاز تحت السيادة العثمانيةدخولا سلميا وكان سلطان شريف مكة يمتد الى جميع بلاد الحجاز ، ومن مهامه الرئيسية العمل على تأمين قوافل الحج الوافدة الى الحرمين الشريفن من جميع بقاع العالم الاسلامى ، وكان يعتمد فى ذلك على صلاته بالقبائل الضاربة فى الحجاز والقريبة من طرق قوافل الحج كما يعتمد على عصبيته ونفوذه الدينى الواسع ، وكان شريف مكة يتمتع فى التشريفات العثمانية باسمى مقام فى صف « الصدر الأعظم » فى الاستانة و « الخديوى » فى مصر (٣٤) .

---

(٣٣) أنظر : نص الرسالة التى أرسلها السلطان سليم للشريف ، وقد ترجمها الى العربية الدكتور أحمد فؤاد متولى ونشرها فى كتاب عن « الفتح العثمانى للشام ومصر » بالقاهرة سنة ١٩٧٦ م ، ويمتاز هذا الكتاب بكثير من الوثائق التى ترجمها المؤلف من التركية الى العربية وقد استقاها من الأرشيف التركى وغيره من المصادر التركية (أنظر الوثيقة رقم ٣٠ فى ملحق الوثائق لنفس الكتاب) .

(٣٤) أنظر : ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٢٤١ .

أما ثغر جدة فان السلطان سليم ولى عليه نائبا جديدا بعد مقتل نائبه المملوكى ، وهذا النائب الجديد هو التاجر قاسم الشروانى الذى كان من تجار مكة وسافر قبل الفتح العثمانى الى مصر وصادف وجوده دخول السلطان سليم مصر ، فاتصل قاسم بالسلطان سليم وتقرب اليه بالخدمة فعينه نائبا لجدة فوصل اليها وباشر مهام منصبه فى تلك السنة (٣٥) .

وجعل العثمانيون امارة جدة تابعة لهم مباشرة يعينون لها نائبا من طرفهم بعيدا عن نفوذ شريف مكة ، وذلك بسبب وضعها الحربى وأهميتها الاقتصادية والاستراتيجية ، وتركوا لشريف مكة السلطة على الحجاز ، وجعلوا له استقلالا عن نائب جدة الا فى الحالات الضرورية التى يلزم عليه أن يتعاون على استتباب الأمن فى ربوع الحجاز لتأمين سير قوافل الحج الى الحرمين الشريفين .

قررت السلطات العثمانية لشريف مكة أن يأخذ نصف محصول ميناء جدة كل عام ، ومن ثم فقد تسبب هذا الأمر فى اثارة كثير من المشاحنات بين نائب جدة وشريف مكة ولم تهدأ هذه الحوادث بينهما طوال العصر العثمانى ، كما تسببت ثنائية الحكم هذه فى خلق جو من الاضطرابات والفتن والفوضى لا فى جدة ومكة فحسب بل فى الحجاز كله (٣٦) .

وورثت الدولة العثمانية أيضا نفوذ المماليك فى البحر الأحمر بعد الاستيلاء على مصر وضم الحجاز ، وقابلت فى الوقت نفسه مشاكل البحر الأحمر التى كانت بين البرتغاليين والمماليك حول السيادة عليه والسيطرة على التجارة الشرقية ، وبرزت أمام العثمانيين بمجرد ظهورهم فى المنطقة قضية الدفاع عن البحر الأحمر وأصبحت احدى القضايا الملحة التى تحتاج الى عمل حربى حاسم منهم .

---

(٣٥) أنظر : قطب الدين النهروالى ، الاعلام باعلام بيت الله الحرام ص ١٩١ .
أنظر أيضا ، أحمد بن زينى دحلان ، خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام ص ٥١ .

(٣٦) أنظر على سبيل المثال ماحدث من حروب بين شريف مكة ووالى جدة فى سنة ١٠٧٩ هـ وسنة ١١٨٤ هـ وما بعدها فى كتاب : خلاصة الكلام لأحمد بن زينى دحلان .

وقد أثبتت حوادث الاعتداءات البرتغالية على ثغور البحر الأحمر بسرعتها وتلاحقها صدق ذلك ، فقبل أن يصل نائب جدة الجديد « قاسم الشرواني » لمباشرة مهام منصبه كان البرتغاليون قد أعدوا هجوما على جدة في عام ١٥١٧ م ، فقد أرسلوا حملة بقيادة نائب الملك في الهند « لوبو سوريز » الذى تولى بعد البوكيرك وكانت هذه الحملة تتكون من أربعين سفينة ومن الفين من الجنود المسلحين ، وهدف هذه الحملة هو الهجوم على جدة وتدميرها والقضاء على الأسطول المملوكي في البحر الأحمر ، واقامة اتصال مباشر مع الحبشة .

ونظرا لأن هدف هذه الحملة هو جدة فانها لم تتعرض لعدن بل ان أميرها (مرجان) قد أمد الحملة البرتغالة بالمؤن اللازمة لها وببعض المرشدين من بحارة اليمن لارشادها داخل البحر الأحمر للوصول الى جدة بعيدا عن مخاطر الشعب المرجانية ، وعلى الرغم من ذلك فقد فشل البرتغاليون أمام جدة بسبب مناعة سورها وقوة استحكاماتها التى أقامها المماليك من قبل ، كما فوجئوا بتغير السلطة فواجهوا العثمانيين لأول مرة فكان عليهم أن يعودوا أدراجهم كى يعيدوا حساباتهم قبل مجابهة العثمانيين ، وكان الريس سلمان العثمانى بعد مقتل والى جدة حسين الكردى قد سيطر على الأمور فى الثغر ريثما تصله الأوامر العثمانية ووقف أمام الهجوم البرتغالى على جدة ، وعندما انسحب البرتغاليون واصل مطاردة السفن المرتدة عن جدة الى جزيرة كمران ، وتمكنت سفنه من الاستيلاء على سفينة برتغالية وأسر بحارتها وارسالهم الى استانبول . ووصلت القوات البرتغالية المرتدة الى عدن حيث حصلت على الامدادات اللازمة من أميرها مرجان وعادوا قافلين الى قواعدهم فى هرمز (٣٧) .

وكانت هذه الحملة التى هددت جدة والحرمين الشريفين كفيلة بجعل العثمانيين يفكرون بطريقة جدية فى حماية البحر الأحمر والأراضى المقدسة الاسلامية من هجمات البرتغاليين المتكررة والتى أخذت تتركز بصورة ملحة على ميناء جدة الاسلامى ولكنهم بعد قليل من وصول نائب

---

(٣٧) أنظر : د. السيد مصطفى سالم ، الفتح العثمانى الأول لليمن ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

جدة الجديد قاموا بسحب الريس سلمان العثماني من جدة ، فعـاد الى القاهرة فى شعبان سنة ٩٢٣ هـ ، ومعه بعض الأسرى من البرتغاليين(٣٨) وكان تعيين التـاجر قاسم الشروانى فى منصب نائب جدة فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ المدينة معناه الاسترخاء العسكرى فى جدة وفى البحر الأحمر الى حين ، وعلى كل فهذا من الأمور التى تحتاج الى ايضاح والقاء الضوء على هذه الفترة وخاصة أن حالة الاسترخاء هذه ظلت حتى سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨ م) .

ولمـا كان المماليك قد فشلوا فى السيطرة على عدن لجعلها المركز الرئيسى للدفاع عن البحر الأحمر ، لذلك القت الظروف بثقلها على جـدة لتكون مركزا للدفاع عن البحر الأحمر فى بداية العصر العثمانى ، وأصبح لزاما على العثمانيين اعادة تحصينه وتدعيم دفاعاته التى أقامها حسـين الـكردى من قبل بما يتلاءم مع الوضع العسكرى الجديد .

بيد أن خطوات العثمانيين ظلت بطيئة فى هذا المجال حيث لم يبدأوا العمل الجدى الا فى عام ٩٤٥ هـ وكان ذلك على مايبدو بسبب انشغالهم بكثير من المشاريع الحربية فى أوربا وآسيا ، فقد كانوا يعملون على مد نفوذهم فى كثير من المناطق الأوربية منتهزين الحروب الايطالية التىشغلت أوربا فى تلك الأثناء (١٥١٥ — ١٥٥٩ م) كما كانوا يعملون من ناحيـة أخرى على مد نفوذهم فى العراق وفارس لتوحيد العالم الاسلامى .

وفى عام ١٥٢٠ م (٩٢٦ هـ) توفى السلطان سليم وتولى بعده ابنه سليمان القانونى الذى جذبته أحداث أوربا وفارس حتى سنة ١٥٣٨ م لـكن ظلت مشاريع تأمين مدخل البحر الأحمر وتدعيم دفاعاته وأهمها جدة من أهم الأمور التى يجب أن يعمل على انجازها العثمانيون .

وعلى الرغم من أن سياسة الحكومة المركزية فى اسـتانبول كانت تعنى الاسترخاء العسكرى فى جبهة البحر الأحمر الا أن والى مصر خاير بك تولى ارسال المعدات العسكرية والقوات اللازمة لتعزيز حامية جدة ،

---

(٣٨) أنظر : ابن اياس ، بدائع الزهور ، حوادث شعبان ٩٢٣ هـ ج ٥ ، ص ٢٠٣ .

وذلك عندما كانتتصل الأخبار الى مصر بتحركات عسكرية للسفن البرتغالية فى البحر الأحمر قريبا من ميناء جدة .

ففى شهر جمادى الآخرة سنة ٩٢٤ هـ أخذ خاير بك فى تجهيز قوة عسكرية على وجه السرعة الى جدة ، وذلك عندما وصلته الأخبار من الحجاز على يد رسول من شريف مكة بأن سفن البرتغاليين تعبث بالبحر الأحمر قريبا من ميناء جدة وتقوم بقطع الطريق على المسافرين مما تسبب فى الاضرار بوضع جدة الاقتصادى ، وذكر الشريف بركات فى رسالته الى خاير بك أنه يخشى على ثغر جدة من أن تدهمه السفن البرتغالية على حين غفلة فبادر خاير بك بالنزول الى ميدان الرميلة بجانب قلعة القاهرة وقام باستعراض بعض القوات العسكرية ثم عين منها فرقة للسفر على وجه السرعة لنجدة جدة ، وكانت هذه الفرقة تتكون من نحو ٢٥٠ جنديا من « المماليك الجراكسة وأولاد النـاس وغيرهم » وكان من بينهم مجموعة من البحارة المغاربة (٣٩) .

وفى العام التالى (رمضان ٩٢٥ هـ) وصلت الأخبار الى القاهرة بأن البحرية البرتغالية قامت بتحركات جديدة حول جدة ، فأمر خاير بك بارسال قوة عسكرية أخرى الى جدة مكونة من ٣٠٠ جندى من المماليك والأتراك وعين نائبا جديدا لجدة عندما وصلت الأخبار بأن قاسم الشروانى نائب جدة السابق جمع كثيرا من الأموال المتحصلة من الميناء واستولى على كثير من الأسلحة وهرب بها بحرا الى ميناء (هرمز) .

وكان نائب جدة الجديد (حسين الكخيا أغات الكمولية) أو حسين الرومى كما تسميه بعض المراجع ، وقد أمره خاير بك بأن يتوجه على رأس القوة العسكرية الجديدة صحبة قافلة الحج المصرية ، كما أصدر خاير بك اليه أمرا بأن يضم اليه ولاية السواحل اليمنية الى جانب ولاية جدة .

ويبدو أن نائب جدة الهارب قاسم الشروانى لم يتمكن من الهرب فقد قبضت عليه القوات العثمانية وأرسلته الى القاهرة حيث سجنه خاير

---

(٣٩) أنظر : ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٢٦٢ .

بك حتى ترى فيه سلطات استانبول رأيهـا ، فأرسل السلطان سليم باستدعائه الى استانبول فى رجب سنة ٩٢٦ هـ (٤٠) .

ولم تكد تنتهى فترة وجيزة من ارسال نائب جدة حسين الرومى حتى شب خلاف بينـه وبين شريف مكة الشريف بركات أدى الى نشوب معركة بين القوات العثمانية المرابطة بجدة بقيادة حسـين الرومى وبين الشريف بركات وقواته تسببت فى وقوع كثير من القتلى من جنود الشريف بركات كما خرج نائب جدة جريحا من المعركة (٤١) .

وتعتبر تولية حسين الرومى (٤٢) نائبا على جدة بداية لمرحلة جديدة فى سياسة العثمانيين فى البحر الأحمر ، وذلك لأنهم جعلوا سلطته تمتد الى اليمن الى جانب نيابته لجدة ، ومعنى هذا بداية العمل الجـدى فى السواحل اليمنية ومدخل البحر الأحمر ، وترتب على هذا أن زحف حسين الرومى من جدة الى اليمن ولكن المماليك الباقين لم يسلموا اليه بسهولة، وفى غضون ذلك وصل حسين الرومى فى اليمن خبر وفاة السلطان سليم فرجع الى قاعدته جدة من غير قتال حتى يتضح الموقف فى عهد السلطان الجديد (٤٣) .

وفى غضون ذلك ظهر سلمان الريس فى جدة من جديد فقد فر من مصر بعد عصيان واليها أحمد باشا واتصل بحسين الرومى فى جدة وحسن اليه الذهاب الى اليمن من جديد ولمـا توجه الى اليمن وأحرز حسـين الرومى معه بعض الانتصارات والتف اليمنيون حوله (٤٤) خاف سلمان على نفسه وعاد الى مصر مرة أخرى وأغرى واليها أبراهيم باشا بارسـال عساكر معه ليدفع بها البرتغاليين كما ادعى فجهزه بنحو أربعة آلاف مقاتل توجه بهم الى الحجاز أولا .

---

(٤٠) المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣٤٢ .
(٤١) المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٣٠ .
(٤٢) كان حسين الرومى هذا من الأمراء الذين جاؤوا مع السلطان سليم الى مصر .
(٤٣) أنظر : قطب الدين النهروالى ، البرق اليمانى ، ص ٣٤ .
(٤٤) لم تطل الأمور بحسين الرومى فى اليمن فلم يزل أن توفى بعد مرض طويل فى سنة ٩٣٢هـ ودفن باليمن (أنظر المصدر السابق ،ص٤٢).

ومما هو جدير بالذكر أن قوات سلمان هذه كانت مصدر شقاء لأهل جدة ومكة لأنهم كانوا فى مجموعهم من الصناع والأساكفة وقطاع الطرق والجهال وغيرهم من أراذل الناس ، فلما وصل سلمان الى جدة سنة ٩٣٢ هـ بهذه القوات عاثوا فيها فسادا وصاروا يتعرضون للعرب وينهبون الأسواق فانقطعت الميرة عن مكة فحصل فيها قحط شديد وغلاء عظيم بحيث صار ذلك تاريخا عند أهل جدة ومكة فكانوا يقولون : « سنة سلمان »(٤٥) وامتدت يد سلمان الى محصول جدة فأخذه كله واستولى عليه لنفسه وكان فى هذه السنة (٩٣٢ هـ) تسعين الف دينار ذهبا ، ووافقه على ذلك نائب جدة الجديد وهو على بك جاويش وكان هذا المحصول نصفه للسلطان ونصفه لشريف مكة .

وفى سنة ٩٣١ هـ (١٥٢٥ م) عين العثمانيون سليمان باشا الخادم (٤٦) واليا على مصر ، فأمره السلطان سليمان سنة ٩٣٧ هـ ببناء ثمانين سفينة فى السويس من مختلف الأنواع والأحجام وزوده بالأخشاب والمواد اللازمة لبناء السفن من استانبول ، وفى ١٥ من المحرم ٩٤٥هـ قام بحملته الشهيرة الى اليمن وقد تمكنت هذه الحملة من السيطرة الكاملة على موانى اليمن من جيزان شمالا حتى عدن جنوبا ، أما جهات اليمن الداخلية فقد ظلت تحت حكم الزيديين بزعامة الامام شرف الدين .

بيد أن سليمان الخادم فشل فى حملته على الهند ولم يستطع أن يجابه القوات البرتغالية هناك ، وبعد فشله فى الهند عاد منها وتلكأ فى طريق عودته الى استانبول خوفا من عواقب الأمور المرتقبة ومحاولة منه لتغطية فشله لدى سلطات الباب العالى فبقى فى الحجاز أكثر من شهرين (من ذو القعدة ٩٤٥ حتى المحرم سنة ٩٤٦ هـ) ثم قضى نحو خمسة أشهر أخرى فى مصر ، عمل خلالها على نشر الدعاية الكاذبة حول انتصاره المزعوم على البرتغاليين .

---

(٤٥) المصدر السابق ص ٤٢ — ٤٤ .

(٤٦) كان سليمان الخادم أحد مماليك السلطان سليم الأول ومن المقربين اليه وظل واليا على مصر حتى غادرها الى العراق للاشتراك فى فتح بغداد سنة (٩٤١هـ) ثم بدأت ولايته الثانية لمصر سنة ٩٤٣ هو استمر حتى خرج منها على رأس حملة بحرية لفتح اليمن سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨م) .

وقــد بقيت جدة فى هــذه الفترة وما بعدها مهملة بدون نائب حتى سنة ٩٤٩ هـ .

وبعد فشل حملة سليمان باشا الخادم على الهند لم يفكر العثمانيون فى سياسة هجومية ضد البرتغاليين وظلوا ينهجون سياسة دفاعية قوامها السيطرة على البحر الأحمر واغلاقه ، كما ترتب على هذه الهزيمة أيضا أن قام البرتغاليون بشن هجوم كبير فى سنة ٩٤٨ هـ على البحر الأحمر هدفه تحطيم الأسطول العثمانى فى ميناء السويس وكانت هــذه الحملة بقيادة نائب الملك فى الهند وبلغ عدد سفنها أكثر من ثمانين سفينة ، وقام البرتغاليون بمهاجمة مينــاء سواكن وجزر دهلك وخربوها وأسروا بعض سكانها ، كما هاجموا أيضا بعض السفن الشراعية الصغيرة فى القصير والطور غير أنهم لم يجرءوا على مهاجمة الأسطول العثمانى فى السويس ولاذوا بالفرار (٤٧) عائدين الى الموانى الحبشية التى أضحت قاعدة لهم .

وقد تعرض ميناء جدة لعملية تخريب أثنــاء مرور الحملة البرتغالية فى طريقها الى السويس ، وتنبه شريف مكة أبو نمى للخطر المحدق بجدة فى غيبة نائبها فترك مكة فى موسم الحج وتوجه الى جدة فى جيش كبير جمعه من أهل مكة والقبــائل المجاورة لها وأمر المنــادي بالنداء فى مكة وضواحيها : « من صحبنا فله أجر الجهاد وعلينا السلاح والنفقة » (٤٨) .

واجتهد الشريف أبو نمى فى تلك الفترة الحرجة بجمع المؤن لقواته من جميع الأطراف فكانوا يحضرون أنواع الطعــام الى جــدة بأغلى ثمن وذلك لأن جدة مواردها كانت تأتى من البحر فلما حاصرها الأسطول البرتغالى اعتمــد الشريف فى تزويد قواته بها على المنــاطق الداخليــة الفقيرة ، وعزت الأقوات بها وغلا ثمنها و « فرغت الحبوب .. فأقبلوا على نحــر الابل فــكانوا ينحرون لــكل مائة نفس بدنة فاستمر ذلك مدة » وتحمس الشريف لعملية الاستمرار فى تزويد قــواته حتى قال : « انى نويت أن

---

(٤٧) أنظر : د. ســيد مصــطفى ســالم ، الفتح العثمانى الأول لليمن ، ص ٣٩٨ — ٣٩٩ .

(٤٨) أنظر : أحمد بن زينى دحلان ، خلاصــة الــكلام فى بيــان أمراء البلد الحرام ص ٥٣ .

أنحر ما أملكه ويملكه أولادى وأحفادى فاذا نفدت الابل نحرت الخيل ثم كل حيوان يجوز أكله » (٤٩) .

ورفض الشريف أن يغادر جدة فى هذه الظروف لمقابلة أمراء قوافل الحج على العادة ، وكلف ابنــه احمد أن يقابل أمراء الحج ويلبس الخلع الواردة اليه ويحج بالناس على عادة أجداده نيــابة عن والده ، وبعد اتمام مناسك الحج توجه اليه أمراء الحج بجدة لالباسه الخلع فوجــدوه شاكى السلاح لابسا درعه على هيئة المقاتل وأمــر الشريف بأن تضرب المدفعية تحية لقدوم أمراء الحج عليه وكان من نتيجة هذا الموقف الجــاد لشريف مكة فى الاهتمام بالدفاع عن جدة أن أمر له السلطــان سليمان بنصف « معلوم جدة » أى محصول مينائها وذلك بعد أن تعدى عليه نواب جدة فى بعض السنين ، وأنعم عليه بكثير من المنح والهدايا .

وترتب على هذا الهجوم البرتغــالى الشامل للبحر الأحمر أن فــكر العثمانيون جــديا فى اغلاقــه فى وجه البرتغاليين وقطع الاتصــال بين البرتغاليين والأحبــاش ذلك الاتصال الذى أفادت منه البحرية البرتغالية حيث ضمنت مرافىء آمنة فى البحر وضمنت تزويدا لسفنها وجنودها ، ولعبت الوشيجة الدينيــة بين الأحبــاش والبرتغــاليين دورا هاما فى توطيــد العــلاقات الودية بين الطرفين حتى صارت تحالفا يضر بأوضاع البحر الأحمر الأمنية بالنسبة للمسلمين .

ونشطت السفن العثمانية فى حصار السواحل الحبشــية واخــذت تطوف فى دوريات منتظمة فى البحر الأحمــر حتى جعلت عملية الاتصــال بين الأحبــاش والبرتغاليين نوعا من المغــامرة ، كمــا بدأ العثمانيون يدعمون قواعدهم البحرية فى اليمن (٥٠) .

وهكذا يمكن القول بأنه اذا كانت حملة (لوبو سوريز) على جــدة عام ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) هى التى وجهت انظــار العثمانيين الى الخطر

---

(٤٩) المصدر السابق . نفس المــكان .

(٥٠) انظر : د. السيد مصطفى ســالم ، الفتح العثمــانى الأول لليمن ص ٤٠٠ .

البرتغالي بعد فتحهم لمصر مباشرة ، فان حملة سنة ٩٤٨ هـ (١٥٤١ م) البرتغالية هى التى دفعت العثمانيين الى التفكير فى اغلاق البحر الأحمر أمام البحرية الأوربيـــة بصفة عامة والبحرية البرتغالية بصفة خاصـــة وقد نجح العثمانيون فى هذا المجال الى حد كبير .

وكذلك عمل العثمانيون عنى تدعيم وجودهم العسكرى فى عدن من آن لآخر فقد أصبحت عدن مركزا لخط الدفاع الأول عن الحرمين الشريفين بنما أضحت جدة فى هذه الفترة مركزا لخط الدفاع الثانى عن الحرمين، وقد اتضح هذا من رسالة وجهها السلطان سليم الثانى (٩٧٤—٩٨٢هـ) الى قائده سنان باشا الذى وجهه لاعادة فتح اليمن فى ســـنة ١٥٦٩ م (٩٧٧ هـ) وقد جاء فى هذه الرسالة : « ان استردادنا لملكة اليمن وان كان ذلك مما يتعين علينا لأنها ميراث ابينا المرحوم المقـــدس ، لـــكن جل قصـــدنا من ذلك انما هو حفظ ثغر عـــدن صـــونا للحرمين الشريفـــين على الـــكفار الملاعين » (٥١) .

اضـــافة جـــدة الى ولاية الحبش :

واصل العثمانيون تدعيم وجودهم العسكرى على الشاطىء الأفريقى المقابل لجدة ولسواحل اليمن ، واستمروا فى هذا الصـــدد حتى هاجموا الحبشة فى عقر دارها بعد نجاح عملية الحصار البحرى عليها وذلك لكى يكملوا جهودهم البحرية بجهود حربيـــة داخل الحبشـــة نفسها لمطـــاردة البرتغاليين هنـــاك .

وكان نفوذ العثمانيين منذ البداية لا يتعدى حدود نيابة سواكن وزيلع وكان (ازدمر باشا) أول من لمس اهمية السواحل الحبشـــية بالنســـبة للسيطرة على البحر الأحمر وذلك بفضل الفترة التى قضاها واليـــا على اليمن من سنة ٩٥٦ هـ حتى عزل سنة ٩٦٢ هـ (١٥٤٩ — ١٥٥٥ م) فقدم مشروعا عقب عزله من ولاية اليمن الى السلطان سليمان القانونى يقضى بارسال حملة لتدعيم النفوذ العثمانى على ساحل الحبشة وتوسيع مداه فأرسل السلطان الى مصر لتجهيز جيش بها لهذا الغرض .

---

(٥١) أنظـــر : قطب الـــدين النهروالي ، البرق اليمـــاني فى الفتح العثماني ص ٢٣٣ .

وتم اعداد جيش فى مصر قوامه ثلاثة آلاف جنـــدي زحف به إزدمر باشا الى الحبشة عن طريق صعيد مصر ، ونجح ازدمر فى السيطرة على بعض جهات النوبة واستولى على بعض الأقاليم الساحلية حول «سواكن» واتم بذلك تكوين ماسمى : « ولاية الحبش » وأصبح أزدمر باشا أول وال لهذه الولاية حتى توفى بها سنة ٩٦٧ هـ (١٥٥٩ م) وكانت من قبله يتوجه اليها الأمناء من مصر ، وقـــد خلف ، ازدمر فى ولاية الحبش هذه ابنـــه عثمان (٥٢) وقد أرادت الدولة العثمانية بهذا الاجراء الادارى تدعم متابعة الدوريات البحرية فى البحر الأحمر بين الشـــاطىء العربى والشـــاطىء الأفريقى لاحكام السيطرة على مياه هذا البحر .

ولمـــا أصبح طريق البحر الأحمر آمنا على النحو الســـالف غـــدت الاقوات المجهزة الى مكة والمدينة ترد عن طريق البحر ، فيذكر مؤرخ قافلة الحج المصرية فى هذه الفترة وهو عبد القـــادر بن محمـــد الجزيرى أن الأحمال المصاحبة لقافلة الحج المصرية كانت تبحر سنة ٩٦٠ هـ من ميناء السويس الى مينائى جدة وينبع ، ولعل من المفيد أن نذكر أن هذه الأحمال كانت فى سنة ٩٥١ هـ نحو ٢٠٣٩٫٥ حملا وفى سنة ٩٥٢هـ كانت ٢٠٣٧٫٥ حملا ، ولعل من المفيد ايضا أن نذكر أنواعها فيما يلى (٥٣) :

عـــدد	نوعـــه
٣٥٠	حملا من الدقيق المحزوم .
١٨٠	حملا من البقسمات المنشف (وزن كل حمل ٦٥٠ مطلا صناقيا) .
٢٠	حملا من الأرز المحزوم (كل حمل اردبان وربع أردب) .
٥	أحمال من الـــكشك (كل حمل اربعة أرادب) .
٥	أحمال من البرغل (كل حمل أربعة أرادب) .
٥	أحمال من الباسلا (كل حمل كضريبة الأرز فى المقدار) .
١٠	أحمال من الجبن الحالوم (عبارة عن ٦٠ قنطارا فى اقفـــاص مقلفـــة) .

---

(٥٢) أنظر قطب الدين النهروالى ، البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٥٣) أنظر : ســـاطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية، ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

عـــدد	نوعـــــه
١٢	حملا من العسل (عبارة عن ٦٠ قنطارا فى مزاود مغلقة) .
٥٠٠	حملا من القفف لقرب السقائين .
٤	شمعات (زنتها أربعة قناطير برسم الـكعبة شمعتان وبرسـم الحجرة الشريفـة شمعتان) .
١	حملا واحدا من السلب الليف يحتاج اليه فى مكة .
٦	قنــاطير من الزيت السكندرى معبأة فى زلعتين .
١٥٠	أردبا من الشعير المغربل .
٣٤٠٠	أردبا من الفول الصحيح المغربل .

وكانت هذه الأقوات تقسم أيام المماليك بين جدة وينبع لـكل بندر منهما النصف بالسوية ، ولمـا كان احتياج مكة أكثر من احتياج المـدينة وزعت ابان العصر العثمانى الثلث لينبع والثلثان لجدة وهـذا هو الذى كان معمولا به سنة ٩٦٠ هـ .

وكانت هذه الأقوات تفرغ فى ثغر جدة وتوضع فى مخازن (حواصل وشون) كانت موجودة فى الميناء لوضع هذه الأقوات وغيرها من البضائع لأمراء الحج والتجار بغير أجرة ولـكن شريف مكة فى العصر العثمـانى وضع يده على هذه المخازن والشون وبنـاها بيتا له يسكنه زمن الموسم الهندى كما يقول الجزيرى ، وفى سنة ٩٦٠ هـ احتاج أمير الحج الى موضع بالمينـاء يضع فيـه هذه الأحمال ريثما تنقل بدورها الى مكة فوضعها فى فضاء كبير (حوش) خاص بجماعة من الأشراف على مقربة من الميـناء بغير أجرة ، وبمضى الزمن تظلم هؤلاء حتى عين لهم أمير الحج أجـرة فى مقابل ذلك .

وكان على شريف مكة بعد ذلك أن ينقل منهـا الى مكة حمولة الف جمل من غير أجرة وما عدا ذلك اما أن ينقله أمير الحج على جمـاله اذا حضر أو يجهز له شريف مكة جمالا بالأجرة تنقله الى مكة ، وأما أمير ينبع فليس عليه سـوى احضـار الجمال فقط وأما أجرتها فعلى أمير الحج لـكل جمل نصفان من الفضة (٥٤) .

---

(٥٤) انظر : عبد القـادر بن محمد الجزيرى ، درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٠١ـــ٤١٦

الخلاصـــــة :

نستطيع من هذه الدراسة السريعة أن نبين أهمية هذه المرحلة من تاريخ جدة فيما يلى :

١ ــ فى مطلع القرن العاشر الهجرى أصبحت جــدة غرضــا مستهدفا للاستعمار البرتغالى بعد أن ضعفت القوى الاسلامية فى المنطقــة وظهرت أهميتها فى الدفاع عن مكة حتى أصبحت رباطا للمجاهدين وأفتى علماء المسلمين بأنها أهم رباط فى الاسلام فقالوا : « ينبغى لمن دخل هذا الثغر المبــارك أن ينوى الرباط والجهاد والذب عن بيت الله العتيق ويصحب معه شيئا لدفع أهل الــكفر والعنــاد » وقالوا بأن ثغر جدة أفضل الثغور لاضــافته الى بيت الله الحرام الذى من دخله كان آمنا من كل محذور ، وان فضل مرابطيـــه على سائر المرابطين كفضل مكة عن سائر البلدان فى ســائر الأزمان والدهور ، ويغفر الله للنــاظر منه مد بصره مما يلى البلد ، ورووا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « يأتى على النـــاس زمان يكون أفضـــل الرباط رباط جدة » (٥٥)

٢ ــ أن المماليك على أيام السلطان قانصوه الغورى هم أول من رســم سياسة حربيـــة دفاعية لثغر جدة الاسلامى بما يتناسب مع أهمية مكة فى قلوب المسلمين فى جميع بقاع العالم الاسلامى ، فحصنوها بكل وسيلة وبنوا سورها العظيم وحفروا حوله خندقا كبيرا وزودوها بالأسلحة والمرابطين للدفاع عنها فى أية لحظة طارئة ، فجعلوا منها بذلك مركــزا لخط الدفاع الثــانى بعــد عدن للدفاع عن الحرمين الشريفين ضــد الهجمات البرتغاليـــة ، كما جعــلوا منهــا مركزا دفاعيا متقدما للدفاع عن الأراضى المصرية .

٣ ــ عندما ورث العثمانيون أملاك المماليك فى المنطقـــة ســنة ٩٢٣ هـ ساروا على هذى الخطط المملوكيـــة فى الــدفاع عن البحر الأحمر

---

(٥٥) أنظر : عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة فى تاريخ جدة، ص ٢ ، ص ٢٨ .

واهتمام بثغر جدة بيد أنهم أبطأوا فى أعمـــالهم الحربية حتى عام ١٥٣٨ (٩٤٥ هـ) ففى تلك السنة تمت لهم السيطرة على ســـواحل اليمن وأرسلوا حملة الى الهند بقيادة سليمان الخادم لم تتمكن من عمل شيء أمام النفوذ البرتغالى الذى تمكن من تجارة الهند والسيطرة على البحار الشرقية .

٤ — بعد عام ٩٤٥ هـ (١٥٣٨ م) كانت سياسة العثمانيين دفاعيـــة فى البحر الأحمر ولم يفكروا فى اجتيـــازه الى الهند لمنافسة النشـــاط التجارى البرتغالى أو غيره من نشاطات الدول الاستعمارية الغربية الأخرى التى بدأت تظهر فى مياه البحار الشرقية .

٥ — بيد أنهم استطاعوا (بعد سيطرتهم على عدن وغـــيرها من موانى البحر الأحمر) اغلاق البحر الأحمر أمام السفن الاستعمارية وجعلوه بحيرة اسلامية مغلقة لأنه يطل على الأماكن المقدسة الاســـلامية ، فـــكان على مثل هذه السفن أن تفرغ حمولتهـــا فى موانى اليمـــن الجنوبية وتقوم السفن الاسلامية بحمل هذه التجارة الى داخل البحر الأحمر ، وجعلوا من السواحل اليمنية قاعدة لغلق البحر الأحمـــر فقط ولم تعد نقطة انطلاق لحملات كبيرة الى الهند أو الى البحـــار الشرقية ، وتجنب البرتغاليون اثارة الدولة العثمانية منذ ظهر نفوذها فى البحر الأحمر فأصبح نشاطهم فيه محدودا خوفا من أن توجـــه الدولة العثمانية نشاطها الحربى الى الهند ، وخاصة أن البرتغاليين كانوا يدركون مدى قوة الـــدولة العثمانيـــة فى ذلك الحين ، وذلك باستثناء بعض حملاتهم مثل حملة سنة ٩٤٨ هـ التى كانت ردا على حملة العثمانيين بقيادة سليمان باشا الخادم سنة ٩٤٥ هـ .

٦ — عندما تم للعثمانيين السيطرة على سواحل الحبشة فى البحر الأحمر وأنشأوا منها ولاية كانت تسمى بولاية الحبش قاعدتهـــا ســـواكن (٩٦٢ — ٩٦٧ هـ) ربطوا بين هذه الولاية وثغر جدة الاسلامى فى ادارة واحدة فأضـــافوا ثغر جدة الى ولاية الحبش فـــكأنما كانت مهمة هذه الولاية هى متابعة الدوريات البحرية فى البحر الأحمر بين الشاطىء العربى والشاطىء الأفريقى لاحكام السيطرة على ميـــاه هـــذا البحـــر .

١٤

اهمية بندر السويس فى العصر العثمانى

الدكتورة ليلى عبد اللطيف أحمد

كلية البنات — جامعة الأزهر

تمتعت الموانى فى مصر العثمانية بمكانة خاصة ، وكان على رأسها ميناء الاسكندرية يليه ميناء السويس ثم ميناء دمياط ، وقد درج العثمانيون على تسمية الموانى بالبنادر (١) وتقع مدينة السويس أو بندر السويس على الجانب الغربى لخليج السويس ، وقد قامت السويس على أنقاض مدينة « القلزم » القديمة (٢) وعرفت بهذا الاسم فى العصر العثمانى ، وبقى اسم « القلزم » للاشارة الى خليج السويس فقط ، وكثيرا ماأشارت مصادر العصر الى ذلك فالجبرتى يذكر ما كان من تولى « باكير باشا » ولايته الثانية على مصر ، وقدومه اليها من جدة الى السويس من القلزم (٣)

---

(١) بندر : كلمة فارسية تعنى ميناء التجارة ومنها « بندرك » بمعنى الميناء الصغير ، « وبندركاه » أى ميناء التجارة .

محمد على الانسى : قاموس الدرارى اللامعات فى منتخبات اللغات ص ١١٧ قاموسى تركى وعربى وقد استخدمت كلمة : بنـدر فى العصر العثمانى بمصر للاشارة الى الموانى التجارية الهامة .

(٢) على مبارك : الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة بولاق ١٣٠٥ . ٢٠ ح ، ح١٢ ص ٦٩ .

(٣) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار — بولاق —١٢٩٧ فى اجزاء ح١ ص١٤٧ « وباكير باشا » تحريف لاسم الوالى أبو بكر باشا الذى تولى حكم ولاية مصر مرتين الأولى من ١١٤٣هـ / ١٧٢٨م—١٧٢٩م والثانية من ١١٤٧هـ — ١١٤٩هـ / ١٧٣٤م — ١٧٣٧م .

د. ليلى عبـد اللطيف : الادارة فى مصر فى العصر العثمـانى ، القاهرة ١٩٧٨ ص ٤٣٥ .

وكثيراً ماذكر الجبرتى توجه المسافرين من جدة الى القلزم ثم الى السويس (٤) .

وكانت مدينة السويس فى العصر العثمانى بلدة صغيرة ، يقيم بها بالاضافة لأهلها وكلاء عن تجار مصر (القاهرة) وتجار الاسكندرية والبلاد الأخرى مثل : الهند ، اليمن ، الحجاز ، والسودان ويتردد عليها للبيع والشراء عرب الجهات القريبة ، مثل عرب الطور وعرب المعازة وعرب الحويطات فيبيعون لأهلها سلع البادية من سمن ونحوه ويشترون سلع المدينة من ثياب وغيرها ، وكانوا يكثرون بها فى موسم الحج خاصة لبيع بضائعهم للحجاج ، ثم يعودون الى بلادهم .

ولم يكن الماء العذب متوفرا بمدينة السويس ، بل كان ينقل اليها عن طريق سقائن من العرب يحضرونه من النيل ، ويبيعونه بأثمان عالية، وقد عنيت خزينة مصر فى العصر العثمانى ، بتقديم مبلغ سنوى « لقبودان السويس » لدفع أجور الأعراب الذين يحملون الماء من النيل ومن العيون البعيدة لتوزيعه فى بندر السويس بالمجان خاصة لمن لايستطيعون شراءه، وكان المبلغ المخصص لذلك يدرج فى سجلات الميزانية تحت بند « أجرة سقائين مقررين « بندر سويس » وقد بلغ المبلغ المقرر من الخزينة لهذا الغرض فى عام ١١٣٦هـ / ١٧٢٣م ٢٠٠ر٢٢ باره فى السنة (٥) وقد وجدت ببندر السويس بعض المعالم الهامة مثل ضريح « سيدى عبد الله الغريب » الذى كان مقصداً للزوار وكثيرا ما مدحه بعضهم بقصائدهم .

وقد اعتبرت السويس اقليما اداريا خاصا مثل الاسكندرية ورشيد ودمياط وتمتعت بادارة مستقلة عن باشا مصر (٦) فقد كان السلطان يرسل الى مصر ثلاثة قبودانات أحدهم للاسكندرية ورشيد والثانى لدمياط والثالث

---

(٤) الجبرتى : المرجع السابق ج٢ ص ٩٠ لسنة ١١٩٠ هـ .

(٥) دار الوثائق القومية بالقلعة : — دفتر واردات ومصاريف خزينة عامرة برقم ٢١٢٢ لسنة ١١٣٦ هـ .

(٦) نفس الدار : — دفتر جراية وعليق برقم ٥٢٤٥ لسنة ١١٦٦ هـ / ١٦٥٥ م .

للسويس (٧) ويحمل هؤلاء القبودانات رتبة الباشوية بالاضافة لرتبة الصنجقية مثل كتخدا الباشا ، وبذلك كان لهم الحق فى كافة الامتيازات المقررة للبكوات المماليك الصناجق من مرتب سنوى نقدى « ساليانه » ومرتب عينى « جراية وعليق » يصرف لهم من خزينة مصر ، ولكن لميكن لهم أى دخل فى ادارة الحكومة المركزية فى القاهرة ، وكانت مهمة القبودانات الثلاثة الأساسية كما نصرقانون نامة مصرعلى (٨) حفظ القلاع، ربط البنادر ، والحكم بين الرعايا بالعدل والشفقة وعوائدهم على طرف الميرى من أصل الساليانات المرتبةوعلى جانب التجارات المحضرة بالبنادر.

وقد أسندت الى قبودان السويس مهمة حماية شواطىء البحر الأحمر ، وكان عليه أن يقدم مائتى سفينة سنويا لحمل الغلال والمسافرين بين السويس وموانى الحجاز ، ويحصل نظير ذلك على مبالغ اضافية من الخزينة ، كما يحصل أيضا على مبلغ يتراوح مابين ٦٠٠،٠٠٠ ، ٨٠٠،٠٠٠ بارة سنويا من الرسوم التى يحصلها على البضائع المارة بالسويس ، وقد بلغ مرتبه السنوى « سالياته » من خزينة مصر مبلغ ١٦٤،٠٠٠ بارة سنويا خلال القرن السابع عشر (٩) ثم ارتفعت الى ٤٠٠،٠٠٠ بارة فى السنة خلال القرن الثامن عشر (١٠) أما مرتبه من الجراية والعليق (١١) فقد وصل الى ٥١٥ أردبا من الغلال فى سنة ١١٦٣هـ / ١٧٤٩م ثم ارتفع الى ٧٢٠ أردبا من الغلال فى ١١٩٩هـ / ١٧٨٤م (١٢) واستمر كذلك حتى أواخر القرن الثامن عشر .

---

(٧) حسين افندى الروزنامجى : — ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية تحقيق ونشر الاستاذ محمد شفيق غربال بعنوان مصر عند مفترق الطرق — مجلة كلية الآداب مجلد ٤ ، ١٢ مايو ١٩٣٦ ص ١٤

(٨) قانون نامة مصر : — باب أحوال الموانى والبنادر أحوال اسكلها ومقاطعات ص ٦ نسخة فى حوزة أستاذنا الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، ترجمة الدكتور خليل ساحلى .

(٩) دار الوثائق القومية بالقلعة : — دفتر مواجبات كشيدة ديوان مصر برقم ٥٢٤٩ لسنة ١٠٧٤هـ / ١٦٦٣م .

(١٠) نفس الدار : — دفتر محاسبة ايراد ومصرف الروزنامجه برقم ٢١٥١ لسنة ١١٦١هـ / ١٧٤٨م .

(١١) الجراية تصرف لغذاء الآدميين وهى من القمح والعليق من الشعير وتصرف لاطعام حيوانات صاحب المنصب .

(١٢) دار الوثائق القومية بالقلعة : دفتر جراية وعليق لسنة ١١٩٩هـ / ١٧٨٤م .

وفى بداية القرن السابع عشر منذ عام ١١٢٣هـ / ١٧٠١ م استولى بكوات مصر على منصب قبودان (١٣) السويس وأصبحوا يشغلون هـذا المنصب بأحد رجالهم الذى كان يستغل سفنه وايراداته لمنفعته الخاصة، ومنفعة بيته المملوكى ، وقـد ذكر الجبرتى ما كان من اسـتيلاء الأمراء والمماليك على منصب قبودان السويس ، كما أشارت كثير من المصـادر الى تولى أمراء المماليك هذا المنصب والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منهـا ما جاء بسجلات محكمة الباب العالى فى سـنة ١١٣٥هـ / سنة ١٧٢٢م اشارة الى أن « عثمان أغا طايفة مستحفظان سابقا والقابودان ببنـدر السويس حالا » (١٤) وعندما أستولى الفرنسيون على مصر (١٧٩٨) أسندوا منصب قبودان السويس الى أحد رجال المماليك « فقد جعلوا ابراهيم أغا المتفرقة المعمار قبطان السويس وسافر معه أنفار ببيرق فرنساوى » على حد تعبير الجبرتى (١٥) وكان يشترك فى ادارة شئون بندر السويس مثل باقى الموانى أو « البنادر » قاضى الميناء وأمين الجمـرك (١٦) واغات الحوالة (١٧) واغات الاحتساب (١٨) ودزدار القلاع (١٩) والى هؤلاء كان الباشا يوجه قراراته الادارية الخاصة بشئون الميناء ويسـجل ذلك فى سجلات المحكمة المحلية ، كما يشترك فى ادارة الميناء مفتون على المذاهب الأربعة ويتولى مهمة حفظ الأمن وحراسة الأحيـاء غفر الدرك بالاشتراك

---

(١٣) الجبرتى : عجائب الآثار ج ١ ص٤٦ أما قبودانى الاسكندرية ودمياط فقد ظلا يقدمان من استانبول حتى منتصـف القرن الثـامن عشر حيث اغتصب أمراء مصر منصبيهما د. ليلى عبـد اللطيف : الادارة فى مصر ص ٣٨ .

(١٤) دفترخانة الشهر العقارى بالقاهرة : سجلات محكمة البـاب العالى سجل رقم ٢٠٦ ص٩٦ لسنة ١١٣٥هـ وقد أعاد حسن باشا الغازى عام ١٢٠٠هـ / ١٧٨٥م القبودانات الثلاثة الى مناصبهم ولكنهم طردوا من مصر عندما استعاد مراد بك وابراهيم بك سلطتهما سنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م.

(١٥) الجبرتى : المرجع السابق ج٣ ص ١٩ .

(١٦) أمين الجمرك : الموظف الذى يدير شئون الجمرك من قبـل ملتزمه .

(١٧) اغات الحوالة : أو الحوالة أغا ممثل الباشا فى الجمرك .

(١٨) اغات الاحتساب : المحتسب الذى يشرف على شئون الأسواق والتموين فى المدينة .

(١٩) دزدار القلاع : قائد القـلاع .

مع ممثلين للفرق السبعة سردارية واختيارية (٢٠) وقـد عرف القاضى فى بندر السويس باسم « قاضى الميناء » أو « قاضى البهار » نظرا لاختصاصاته المتعلقة بالمقاطعة الجمركية الهامة التى كان مقرها السويس وهى مقاطعة « عشورا أصناف بهار وتوابعها » وكان من واجب قاضى السويس أن يدون فى سجلاته الرسوم المقررة على بضائع التجار الأجانب وله أن « يتدخل فى كل ما يحصل من الأموال السلطانية سواء فى ذلك حاصلات الميناء أو حواصل باقى المقاطعات ويدون فى سجلاته أثمان الأمتعـة والأقمشـة ويحضر مع الأمين والعامل فى تقييم ذلك ، ويكون معهم عند قبض العشور ، ورسوم الجمارك ، ويقبضه منهم كل يوم بيومه ، وزاد أن رأى لذلك مساغا فى قيمة مال ارتفاع (٢١) ولا يحق للامين ولا للعامل أن يصرف شيئا بدون اذنه أو امضائه وعلى القاضى ايصال مايحصل من الأموال الى خـزائن مصر المعمورة كل ثلاثة أشهر مرة ويشـفعها بحسـاباتها (٢٢) ومن أهم واجبات قاضى السويس مثل قضاة المـوانى أن يراقب مع أمين الجمرك المتهربين من دفع الضرائب الجمركية وله أن يحصل بالاضـافة للرسـوم المقررة له (٢٣) كغيره من القضاة ايرادات أخرى تصرف له نظير عمله فى ادارة الجمرك .

ونظرا لأهمية موقع السويس من مصر بالنسبة لحـدودها الشرقيـة وكونها معبرا للحجاج فى طريقهم للاراضى المقدسة واعتبارها من أهم جمارك

---

(٢٠) سردارية : جمع سردار وتعنى قائد ، واختيـارية تعنى كبار الضـباط .

(٢١) الارتفاعات : الايرادات .

(٢٢) قانون نامة مصر : ـ باب الموانى والبنـادر أحوال اسـكلها ومقاطعات ص٦ ، ص٧ .

(٢٣) لم يكن للقضاة عامة فى العصر العثمانى مرتب ثابت كقضـاة اليوم بل كان لهم حق فرض رسـوم على القضايا التى تعرض أمامهم بشرط الا يتجاوز الرسم ٢ر٥٪ من قمة المبايعات والوقفيات والهبات وغيرها ثم رسوم على عقود الزواج ورسوم على قضايا التركات .
د. ليلى عبد اللطيف : الادارة فى مصر ص ٢٦٣ .

مصر ، أقيمت فيها قلعة مسلحة اختصت بحراسة حدود مصر الشرقية(٢٤) وتزويد قافلة الحجاج (٢٥) على تلك الحدود وكان عدد رجال تلك القلعة لايزيد عن ثلاثة وخمسين رجلا (٢٦) فى القرن الثامن عشر وهو عدد مماثل لرجال قلعة « عجرود » وقلعة مويلح وضعف عدد رجال قلعة «الطور» وقد اختص قاضى السويس بالاشراف على قلعتها واخطار الادارة المركزية عن حالة أسلحتها ومدافعها ، والاشراف على تعميرها وترميمها ان احتاجت الى ذلك ، ونظرا للعلاقات الخاصة التى تربط بين الحجاز ومصر فى العصر العثمانى كانت السويس ميناء تعبره العساكر المصرية . وذخائرها فى ترددها بين مصر والحجاز .

وقد كانت السويس مدينة حافلة بالنشاط السياسى فكثيرا ماعبرها كبار الأمراء المماليك فى طريقهم الى المنفى فى بلاد الحجاز والأمثلة على ذلك لا يمكن حصرها هنا وانما نشير الى بعض الأمراء المماليك المشهورين الذين مروا بالسويس الى المنفى مثل الأمير على عبد الرحمن كتخدا الذى نفاه على بك الكبير وأرسل معه صالح بك ليوصله الى السويس ومنها الى الحجاز (٢٧) وعلى بك الكبير نفسه نفاه زملاؤه فى مرحلة من مراحل كفاحه للوصول الى السيطرة على مصر — وخرجوا به الى السويس

---

(٢٤) نظرا لأهمية ميناء السويس بالنسبة لحدود مصر الشرقية وعلاقتها ببلاد الشام قام بونابرت بزيارتها وتفقدها قبل قيامه بحملته على الشام فقد ذكر الجبرتى فى أحداث ١٦ رجب ١٢١٣ هـ مايلى « سافر سارى عسكر بونابرته الى السويس وأخذ صحبته السيد أحمد المحروقى، وابراهيم أفندى كاتب البهار ، وبعض المديرين والمهندسين والمصورين ، وجرجس الجوهرى ، وانطون ابو طاقية وغيرهم وعدة كثيرة من عساكر الخيالة والمشاة وبعض مدافع وعربات وعدة جمال لحمل الذخيرة والماء » الجبرتى : عجائب الآثار ح ٣ ص ٣٦ .

(٢٥) لقد وجدت لمصر عدة قلاع على طريق الحاج وهى : —
(أ) قلعة مويلح على ساحل البحر الأحمر .
(ب) قلعة عجرود فى الطريق بين السويس والقاهرة .
(جـ) قلعة الطور على شاطىء البحر الأحمر فى منتصف نقطة التوقف للسفن المبحرة بين جدة والسويس . ثم قلعة السويس .

(٢٦) دار الوثائق بالقلعة : سجل رقم ٥٦٨١ لسنة ١١٨٥ هـ ، دفاتر مردان قلاع محروسة مصر من سنة ١٠٨٢ / ١٦٧١ م الى سنة ١٢١١ هـ / ١٧٩٦ م .

(٢٧) الجبرتى : نفس المرجع ح١ ص ٢٥٠ أحداث ١١٧٧هـ .

ليسافر الى جدة من القلزم (٢٨) وفى عهد شياخة مراد بك وابراهيم بـك نفيا حسن بك الجداوى ورسما له أن يذهب الى جدة فأرسلاه الىالسويس ومنها بالمراكب الى جدة (٢٩) وفى كثير من الأحيـان يتعرض الأمير المنفى للقتل غيلة وغدرا فى السويس على يد منافسيه فعنـدما أمر ابراهيم كتخدا فى سنة ١١٦٨ هـ بنفى محمد جلبى الصـابونجى « أخـذوه الى السويس ، ومن شدة حرصه أخذ صحبته صندوق الأوراق والتقاسـيط والحجج والتـذاكر ، فلما وصل الى السويس أرسل خلفه فرمانا صحبه جاويش بقتله فقتلوه وأحضروا الصـندوق الى ابراهيم كتخـدا » (٣٠) وكثيرا ماذهب الأمراء الهـاربون الى السويس يسيرون اليها من جهـة الشرق بعد قـدومهم من الصعيد ، ثم يعبرونها الى الطور للاختفاء عند عرب الطور ، ريثما يخرجون الى الجهة التى يقصدونها (٣١) .

وعن طريق السويس كانت تمر الشخصيات الهـامة المسافرة من مصر الحجاز فعندما حضر الصـدر الأعظم يوسف باشا الى الاسكندرية ليتوجه الى الحجاز فبعد اقامته فى القـاهرة عدة أيام ركب السفينة من السويس ليسافر الى جدة من القلزم (٣٢) ويسافر دائما والى جدة منمصر الى السويس ثم بالمراكب الى جدة (٣٣) فعندما أزمع ابراهيم باشا السفر الى جدة سنة ١١٦٣ هـ ذهب الى العادلية (فى ضواحى القاهرة) وجلس هنـاك بالقصر حتى شهلوه وسـفروه الى السويس بعـدما ذهبوا اليه وودعوه (٣٤) .

وقـد لعبت مدينة السويس دورا هاما بالنسبة لقوافل الحج فكان أمير الحج يرسل ذخائره ومؤنه على ظهور الابل من القاهرة الى السويس

---

(٢٨) الجبرتى : عجائب الآثر ج١ ص٢٥٥ لسنة ١١٧٩ هـ .
(٢٩) الجبرتى : نفس المرجع ج٢ ص٢٣ .
(٣٠) الجبرتى : عجائب الآثار ج١ ص ٢٠٦ .
(٣١) الجبرتى : عجائب الآثار ج١ ص ١٨٣ .
(٣٢) الجبرتى : المرجع السابق .
(٣٣) جعل العثمانيون من ميناء جدة ، ومنبعض الموانى التىخضعت لهم على ساحل البحر الأحمر المقابل مثل سواكن ومصوع باشوية خاصة سميت باسم (ولاية الحبش) أو ولاية جدة وأسـندوا حكمها الى أحـد الباشاوات العثمانيين .
(٣٤) الجبرتى : عجائب الآثار ج٢ ص ٩٣ .

ومنها الى السفن الى جدة ، وكثيرا ماخزن الغــلال فى شون السويس للعــام القادم فقد ذكر الجبرتى فى ترجمته لاسماعيل بك ابن ايواظ انه كان يجعل فى بنــدر السويس والمويلح والينبع غلال سنة قابلة فىالشون لشحن السفائن فى أوانها ، ويرسل خلافها على هــذا النسق (٣٥) وفى ترسانة السويس البحرية كانت تبنى السفن العــاملة فى نقل التجــارة بالبحر الأحمر وفى حمل غلال الحرمين (٣٦) .

ومتى أتم أمير الحج استعداداته خرج بموكب الحج الشريف المصرى من بركة الحج (٣٧) يحمل معه كسوة الكعبة الشريفة وصرة الحرمين (٣٨) قاصــدا الســويس وفيهــا يتزود بالمؤن ثم يســير فى الطريق البرى ومعــه جمــوع الحجاج والجنــد المرافقــين له الى الأراضى الحجازية وعنــدما يعود الحجــاج الى السنــويس بعــد رحــلة الحج كان على أمير الحج أن يقــدم للعربان المرابطــين على الطــريق بين الســويس والقــاهرة عــوائدهم (٣٩) أى المبــالغ المقرر تقــديمها لهم كل عام فاذا لم يفعل ، فان الحجاج يتعرضون لأقسى أنواع النهب والسلب كما حدث فى أعوام كثيرة منها ما حدث عام سنة ١٢٠٢ هـ « عندما نهب العربقافلة التجار والحجاج الواصلة من السويس ، وفيها شىء كثير جداً من أموال التجــار والحجاج ، ونهب فيها للتجار خاصة ستة آلاف جمل مابين قماش وبهار وبن وبضائع وخلاف ذلك أمتعة الحجــاج وســلبوهم حتى ملابس أبدانهم ، وأسروا النســاء وأخذوا ماعليهن ثم باعوهن لأصــحابهم عرايا وحصل لــكثير من النــاس وغالب التجار الضرر الزائد ومنهم من كان

---

(٣٥) الجبرتى : عجائب الآثار ج١ ص ١٢٠ .

(٣٦) الجبرتى : المرجع السابق ج١ ص ٥١ .

(٣٧) بركة الحاج : قرية كانت تقع شمال شرقى القاهرة وقد عرفت ببركة الحاج لنزول الحجاج بها عند خروجهم من القاهرة الى الحج فىكل عام ونزولهم عند العودة بها ومنها يدخلون الى القاهرة وكان من العادة أن يقيم ركب الحاج بهذه القرية خمسة أيام قبل مسيره الى السويس .

(٣٨) صرة الحرمين : هى الأموال التى كانت ترسل من خزينة مصر لأهالى مكة والمدينة وقد بلغ مقــدارها فى عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م ٣١٧ كيسا ، كسور ٢٠ الف نصف فضة ، ١٢٣ نصف وذلك بالاضافة لايرادات أوقاف الحرمين فى مصر مثل وقف الدشيشة والمحمدية وغيرها . دفترخانة الشهر العقــارى بالقاهرة : سجلات الديوان العالى مسلسلة ١ رقم١ صفحة ٩١ لسنة ١١٥٤هـ / ١٧٤١ .

(٣٩) عوائد العربان : الأموال المقرر ارضائهم بها سنويا .

جميع ماله بهذه القافلة ، فذهب جميعه ، ورجع عريانا أو قتل وترك مرميا » (٤٠) .

وقد احتل بندر السويس أو ميناء السويس مكانا هاما بين موانى مصر العثمانية لوقوعه على رأس الطريق التجارى الهام بين بلاد الشرق وأوروبا (٤١) وهو طريق البحر الأحمر ، وكان ميناء السويس هو المنفذ الرئيسى لتجارة مصر مع اليمن وسائر أنحاء شبه الجزيرة العربية والهند (٤٢) فمعظم التجارة الواردة من تلك البلاد الى القاهرة كانت تمر بالسويس ومنها على ظهور الابل الى القاهرة ، وكانت السويس مقرا لجمرك هام (٤٣) يقيم فيه « المقومون » المثمنون الذين يقدرون أثمان

---

(٤٠) الجبرتى : عجائب الآثار ح٢ ص١٦١ ، ص ٩٢ .

(٤١) عندما سيطر العثمانيون على مصر أدركوا أهمية مركزها كطريق تجارى يربط بين الشرق والغرب ، لذا حاولوا العمل على انعاش تجارتها بعدما أصابها من هبوط لتحول طريق التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح ، لذا رحب السلطان سليم الاول بعد انتهائه من فتح مصر بممثلى البندقية ، وعقد معهم معاهدة فى فبراير سنة ١٥١٧ منحهم فيها الامتيازات التى تمتعوا بها فى عهد سلاطين المماليك وملخصها أن البنادقة سيعاملون بالعدل والاحترام ولن تتعرض أشخاصهم ومتاجرهم للنهب والاعتداء وان قنصل البندقيه هو الذى يقضى فى شئون رعاياه طبقا لقوانين البندقية مع ضمان شروط خاصة بتسهيل رسو سفن البنادقة فى الموانى المصرية ، وتعهد البنادقة من ناحيتهم بأن رعايا السلطان سيكونون آمنين فى موانى ومدن البندقية وكذلك وردت بنود خاصة بمصر فى بعض معاهدات الامتيازات التالية بين الدولة العثمانية ، ودول أوربا ، وكان ذلك متمشيا مع سياسة العثمانيين لترويج التجارة بين بلادهم وبين أوربا د. حسن عثمان : مصر فى العهد العثمانى ص ٢٦٧ المجمل فى تاريخ مصر) .

(٤٢) وقد زادت أهمية تجارة السويس كثيرا فيما بعد عندما أحيا محمد على الطريق البرى بين السويس والقاهرة .

(٤٣) الجمرك : ـ هو الهيئة المختصة بتنظيم وفرض الضريبة على التجارة فى داخل البلاد والواردة اليها والمصدرة منها ، وقد ارتبطت الجمارك بالتجارة ، وقد عرف الجمرك فى الميناء بالاسكلة ووجدت فى مصر عدة جمارك هامة مثل جمرك الاسكندرية ورشيد ، جمرك دمياط وجمرك البرلس للبضائع الواردة عن طريق البحر المتوسط وجمرك بولاق ومصر القديمة للمتاجر الواردة من الدلتا ومن الصعيد وجمرك البهار بالسويس للمتاجر الواردة من الشرق ، وقد خصصت ايرادات كل جمرك لجهة معينة مثل الباشا ورجال الحامية العسكرية ، ونفقات الحرمين

البضائع ، فيؤخذ على المائة عشرة ومن البضـــائع التى كانت ترد على ميناء السويس : — الحرير الهندى والقطن الهندى ، والقطن السواكنى، والفلفل اليمنى ، والجبهان والبن ، والزنجبيل والقرفة واللبـــان ، وجوز الطيب ، وجوز النارجيل والنيلة الهندية والعقاقير والجنزارة ، والقلويات المستعملة فى الصـــابون والفحم السيال ، والسمن الشيحى ، وأنواع الصينى الغريبة الشكل واللآلىء والـــكافور ، والطيور ، وتلك الطيور كانت تجلب من الهند ويجلب من غيرها القرده والنسانيس وقط الزبد ، والنسر والنعام ، والظباء ، والبقر ، والغنم البرية .

وقد عرف جمرك السويس فى الوثائق باســـم « مقاطعـــة عشور أصـــناف بهار وتوابعها » وكان هـــذا الجمرك من أكثر جمارك مصر ربحا بعد جمرك الاسكندرية ، وقـــد أعطى التزاما للباشا لزيادة ايراداته (٤٤) فكان عليه أن يدير جمرك السويس كملتزم يحتفظ بالفائض كل عام لنفسه بعد تسديد الضريبة المطلوبة للخزينة وقد ظل هذا الجمرك فى يد البـــاشا منذ بداية العصر العثمانى فى مصر حتى نهايته وكان للباشا على كل فرق بن ٤٠٠ نصف فضة (٤٥) وكان جمرك السويس أو مقاطعة عشور أصناف

وغيرها وقد طبق نظام الالتزام على الجمارك ، كمــا طبق على الأراضى الزراعية فكانت الجمارك تعطى للملتزمين الذين يشرفون على تحصـــيل رسومها ويدير الجمرك من قبل الملتزم الجمركى أو أمين الجمرك وهو عادة يهودى يسمى بالمعلم ويعاونه طائفة من الكتبة وبعد تحصـــيل الرســـوم المقررة يسدد الملتزم « المـــال الميرى » المطلوب من الجمرك للخزينـــة، ويحتفظ ببـــاقى الايرادات كربح خاص له ، وفى أوائل العهـــد العثمانى بمصر كانت التزامات معظم الجمارك الهامة بيد البـــاشا ثم غصبها منـــه رجال الفرق وأمراء المماليك ولم يبق له سوى جمرك السويس .

(٤٤) كانت ايرادات البـــاشا من ولاية مصر تتكون من الساليـــانة النقـــدية الســـنوية ومرتب الجـــراية والعليق وايرادات قرى الكشوفية المخصصة له والـــكشوفية الصغيرة أى الضريبة التى يقدمها له أصحاب الوظـــائف ســـنويا ، وقرى الحلوان التى يموت ملتزموها ثم ايراداته من جمرك البهـــار .

(٤٥) فرق البن : كان زنبيلا يسع ٣ ١/٢ قنطار من البن ، والنصف فضة أو البارة هى أصغر عملة فضية مستعملة فى مصر حينـــذاك وكان الكيس يساوى ٢٥ الف بارة والبارة تساوى نصف مليم .

بهار وتوابعها مع مقاطعة قصير شامى (٤٦) يشمل عدة مقاطعات هى :

١ — مقاطعة أصناف بهار .

٢ — مقاطعة دار الضرب « ذهب فى فضة » اى المقاطعة التى كانت مختصة بشراء كميات الذهب والفضة اللازمة لدار الضرب « سك العملة » فى القاهرة (٤٧) وقد ضمت هذه المقاطعة لجمرك السويس لمصلحة الباشا .

٣ — مقاطعة سمسارية « بهار » اى السمسرة فى البهار وهى المختصة بوكالة البهار فى السويس وهى الوكالة التى كانت توضع فيها البضائع الواردة حتى تتم اجراءات تقدير الرسوم الجمركية .

٤ — مقاطعة قاعة الأفرنج : وهى بمثابة خان « فندق » يقيم فيه التجار الأجانب الذين يصحبون البضائع فى انتظار تقدير الرسوم المقررة عليها .

٥ — مقاطعة قصير شامى : اى المختصة بجمرك القصير .

---

(٤٦) دار الوثائق بالقلعة : دفاتر أصول مال اسكلها ومقاطعات تابع قلم شهر دفتر لسنة ١٠٨٨هـ / ١٦٧٧م برقم ٤١٤٠ وتوجد بالدار مجموعة كبيرة من هذه الدفاتر مسجل بها أسماء الجمارك وملتزميها والمال الميرى المطلوب منهم للخزينة ومواعيد السداد والمضافات التى كانت تتعرض لها ضريبة الجمارك ، وهذه المجموعة من الدفاتر تبدأ من سنة ١٠٨٨ هـ / ١٦٧٧ م .

وتنتهى سنة ١٢٣٧ هـ / سنة ١٨٢١ م وهى السنة التى بدأ فيها محمد على فى الغاء التزامات الجمارك . والدفاتر المشار اليها ومعلوماتها مدونة فى معظمها بخط القيرمة لمزيد من المعلومات عن هذه الدفاتر وعن هذا الخط أنظر :

د. ليلى عبد اللطيف : الادارة فى مصر ص ٣٢٣ وملحق ٣ ص ٤٦٠ ص ٤٦١ .

(٤٧) كانت العملة تسك فى مصر أثناء الحكم العثمانى أما من الذهب أو الفضة أو النحاس فى سبائك غير خالصة وبفئات مختلفة منها الذهب بطرة اى الجنيه الذهب ويساوى مائة نصف فضة والنصف الفضة .كان أقل النقود الفضية . قيمة واسمه بالتركية بارة ، وكان يجدد سك النقود فى مصر كلما تولى عرش السلطنة سلطان جديد فتسك العملة باسمه .

وقد عرفت السفن التى كانت تحمل البن والبهار والبضائع التجارية من الشرق الى مصر مبحرة بها فى البحر الأحمر متجهة الى السويس باسم الداوات (٤٨) مفردها (داوا) وعندما كانت السفينة تدخل ميناء السويس ترسل الأخبار للباشا الذى يقوم على الفور بارسال ممثله « الحوالة اغا » الى السويس ، وبالاشتراك مع قاضى المدينة الذى عرف « بقاضى البهار » وكاتبه ، يقيم الاثنان البضائع الواردة ويرسلان القائمة مع البضائع الى وكالة البهار فى القاهرة حيث تحصل العوائد ، وتسلم البضائع لأصحابها (٤٩) . وقد وصلت ايرادات الباشا من جمرك السويس الى ١٩٦و٥٤٣و٤ بارة سنويا فى عام سنة ١١١٠هـ/١٦٩٨م وقد ظلت ايراداته من هذا الجمرك فى ارتفاع حتى وصلت الى ٠٠٠ر٧٥٠ر٨ بارة سنويا (٥٠) وكان على الباشا أن يقدم للخزينة ضريبة سنوية مقابل التزامه لجمرك السويس أو جمرك عشور أصناف وصلت الى ١٩٦ر٢٤٣ر٣ بارة فى السنة فى عام ١٠٨٨هـ / ١٦٧٧م وقد أوردت سجلات الجمارك (٥١) بالتفصيل الضريبة المستحقة على مقاطعات هذا الجمرك على النحو التالى :

« مقاطعة عشور أصناف بهار وتوابعها دربهاء دستور مكرم عبدالرحمن محافظ محروسة مصر . المطلوب من

مقاطعة عشور أصناف ٢٤٥١٦٩٦ بارة

كيس	كسور
٩٨	١٦٩٦

مقاطعة دار الضرب ذهب ٦٨٣٣٣٣ بارة

كيس	كسور
٢٧	٨٣٣٣

مقاطعة سمسارية بهار ٥٠٠٠٠ بارة

٢ كيس

---

(٤٨) الجبرتى : عجائب الآثار ح ٣ ص ٥٩ .

(49) Estévé : Mémoire Sur Les Finances de L'Egypte dans Descriptian de, L'Egypte. 2nd, p. 179.

(٥٠) د. ليلى عبد اللطيف : الادارة فى مصر الباب الثانى ص٩٨ .

(٥١) دار الوثائق بالقلعة : دفتر أصول مال أشكلها ومقاطعات لسنة ١٠٨٨هـ / ١٦٧٧م .

مقاطعة قاعة الافرنج ٢٨١٦٧ بــــارة

كيس	كسور
١	٣١٦٧

مقاطعة قصير شامى ٣٠٠٠٠ بـارة

كيس	كسور
١	٥٠٠٠

جملة المطلوب

كيس	كسور
١٢٩	١٨١٩٦

أى ما يساوى ١٩٦ر٢٤٣ر٣ بارة

وكانت ايرادت جمرك السويس تأتى فى الدرجة الثانيــة . بعــد ايرادات جمرك الاسكندرية الذى وصلت ايراداته فى نفس العــام الى ٤٨٨١٣٣٤ باره سنويا أى ١٩٥ كيس ٦٣٣٤ كسور (٥٢) وتبعــا لفرض المضــافات المختلفة (٥٣) على الضرائب المستحقة للخزينة ارتفعت ايرادات الخزينــة من جمــارك السويس الى ٤٩٦ر٢٨٨ر٣ باريس سـنويا أى ما يعــادل ١٣١ كيس ١٣٤٩٦ كسور وذلك فى عام ١١٢٩ هـ (٥٤) وفى عام سنة ١١٤٦ هـ / ارتفع الايراد الى ٤٠٧٩٩٦ بارة سـنويا (٥٥) أى مايعادل ١٦٣ كيس ٤٩٩٦ كسور وفى عام ١١٥٥هـ / ١٧٤٢ (٥٦) بفرض مضــاف جديد قدره ١٦٣٢٠٠ بارة الى الايراد القديم ٤٠٧٩٩٦ أصبحت الضريبــة تساوى ٤٢٤٣١٩٦ بارة

---

(٥٢) دار الوثائق بالقلعــة : دفتر أصــول مال اسكلها ومقاطعات لسنة ١٠٨٨هـ .

(٥٣) تعرضــت مصر خلال العهــد العثمــانى لفرض عدة زيادات « مضافات فى الضرائب فى أعوام ١٠٧٤هـ / ١٦٦٤م ، ١١٠٧هـ / ١٦٩٥م سنة ١١٥٥هـ / ١٧٤٢م ، ١١٧٤ / ١٧٦٠م وذلك مسجل فى دفاتر الادارة المالية بدار المحفوظات فى القلعة » .

(٥٤) دار الوثائق بالقلعة : دفتر أصــول مال اسكلها ومقاطعــات لسنة ١١٢٩ هـ .

(٥٥) نفس الدار ونفس السجلات الدفاتر سجل عام ١١٤٦هـ .

(٥٦) سجلات الجمارك كل لعام ١١٥٥ هـ .

كيس كيسور

سنويا أى ١٦٩ ١٨١٩٦ ثم زادت ايرادات الخزينة أيضا من جمرك السويس بفرض مضاف سنة ١١٧٤هـ / ١٧٦٠ (٥٧) وقدره ١٦٩٧٢٨ بارة أضيفت الى الايراد القديم وقدره ٤٢٤٣١٩٦ بارة أصبحت ايرادات الخزينة من جمرك السويس سنويا مبلغ ٤٤١٢٩٢٤ بارة وقد ظلت ايرادات الخزينة من جمرك السويس أو جمرك البهار لاتزيد عن ذلك حتى مجيء الحملة الفرنسية فى عام١٧٩٨م اذ ورد بحسابات الخزينة (٥٨) ان ايرادات هذا الجمرك ٤٤١٢٩٢٤ بارة سنويا .

وقد كانت معظم البضائع الواردة الى ميناء السويس بيد تجار مكة والمدينة فقد ذكر الجبرتى (٥٩) فى أحداث شهر ذى الحجة سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م أنه « حضر الى السويس تسعة داوات بها بن وبهار وبضائع تجارية وفيها لشريف مكة (٦٠) نحو خمسمائة فرق بن وكانت الانجليز منعتهم من الحضور فكاتبهم الشريف فأطلقوهم وسامح الفرنسيون بن الشريف من العشور ، لأنه أرسل لهم مكاتبة بسبب ذلك وهدية قبل وصول المراكب الى السويس بنحو عشرين يوما » (٦١) وقد كان شريف مكة من أكبر التجار الذين يصدرون بضائع الشرق الى السويس ، وكانت له سفن كثيرة تعبر البحر الأحمر ، وقد أرسل الى مصر فى بداية عهد الحملة الفرنسية خمس سفن (مراكب) « مشحونة من بندر جدة » وذكر لهم (٦٢) أنه لم يمكنه

---

(٥٧) نفس السجلات لعام ١١٧٤ هـ .

(٥٨) سجلات الجمارك سجل لعام ١٢١٣ هـ .

(٥٩) الجبرتى : عجائب الآثار ح ٣ ص ٥٩ .

(٦٠) كانت مصر منذ العهد المملوكى تتمتع بشيء من السيادة على الحجاز ، فقد كان الحكم فى الحجاز فى يد الأشراف وكانت مكة هى مركز حكمهم ، ولم يكن الاشراف يتوارثون هذا المنصب ، لكن الأمر كان شورى فيجتمع كبارهم ليختاروا من يعتقدون فى صلاحيته لادارة شئون المدينة، وحفظ الأمن والمحافظة على سلامة الحجاج الذين يفدون الى الحجاز فلما سقطت الشام ومصر فى يد العثمانيون وأعلن شريف مكة خضوعه وولاءه للدولة العثمانية قرر السلطان سليم أن يبقى الأمر فى الحجاز على ما هو عليه فى يد الأشراف . وقد كان شريف مكة عند وصول الحملةالفرنسية الى مصر هو الشريف غالب بن مساعد .

(٦١) الجبرتى : عجائب الآثار ح ٣ ص ٦٠ .

(٦٢) أرسل شريف مكة مكاتبة الى الفرنسيين فى شهر ذى الحجة سنة ١٢١٣ هـ .

ارسال تلك الكمية الا بمشقة لخوف التجار من اضطراب الأحوال فى مصر ، ثم يقرر الشريف انه يعتقد أن الاشاعات التى وصلتهم مكذوبة ، وانها من اختلاق العربان — وكان ذلك مجاملة منه فقط للفرنسيين ومحاولة لمداراتهم لتسيير شئون تجارته — فما أظنه كان غافلا عن سوء الحـالة فى مصر وتعرض التجارة فى السويس للمخاطر (٦٣) لذا يطلب الشريف فى خطابه الى الفرنسيين ارسال جند من طرفهم الى بندر السويس لحمـاية أموال التجار حتى تصل « الابنان الى مصر » ويبيع التجار وتزول أسباب توقف التجارة كما يطلب الشريف أيضا فى خطابه أن تعنى السلطات الفرنسية بارسال الجند مع التجار بعد بيعهم البضائع فى القاهرة لحمايتهم أثنـاء عودتهم الى السويس من شر الطريق ويمضى الشريف فى خطابه قائلا انه لم يرسل ما أرسل من بضائع الا على سبيل التجربة والاختبـار وان كبار التجار ان عاملهم الفرنسيون معاملة طيبة سوف يواصلون ارسال أموالهم ويجلبون البضائع الى مصر ، وسوف تزول مخاوفهم وانه حينـذاك يكثر الوارد من البضائع الى مصر من الأقطار الحجازية ثم يذكر الشريف أنه له بنا فى المراكب وانه يرجو الفرنسيين مراعاة خدمة « عماله » وتجارته .

ولا ينسى أن يذكر لهم أنه قام بتوصيل الرسائل التى أرسلها اليـه بونابرت لتسليمها الى نواحى الهند وابن حيدر وامام مسقط ووكيلهم فى المخاونفهم من هذا محاولة بونابرت تأمين الطريق التجـارى بين الشرق ومصر ببعث الطمأنينـة فى نفوس المسيطرين على تجـارة الشرق وذلك

---

(٦٣) ذكـر الجبرتى تعـرض السـويس للنهب والسـلب على يد الفرنسيين فعندما سافر اليها بونابرت فى ١٤ رجب سنة ١٢١٣ هـرب الـكثيرون من أهلها وأخلوها وذهبـوا الى الطور والى عرب البـادية « فنهب الفرنسيون ما وجدوه بالبندر من البن والمتاجر والأمتعة وغير ذلك وهدموا الدور وكسروا الأخشاب وخوابى الماء » .

الجبرتى عجائب الآثار ج٣ ص٣٨ .

وفى حوادث شهر ذى القعدة سنة ١٢١٣ ذكر الجبرتى أيضـا فى عجائبه ج٣ ص٥٧ « انه حضر الى القلزم مركبان انجليزيان وقيل أربعة وقفوا قبالة السويس وضربوا مدافع ففر أناس من سكان السويس الى مصر وأخبروا بذلك وأنهم صـادفوا بعض داوات تحمل البن والتجـارة فحجزوها ومنعوها من الدخول الى السويس .

بالطبع بالاضافة لمراميه السياسية الأخرى المعروفة من رغبته فى السيطرة على الهند . وقد حاول الفرنسيون من جانبهم بعد ذلك تهدئة النفوس واعادة الأحوال فى ميناء السويس الى ما كانت عليه من نشاط تجارى ومرور قوافل الحجاج فنادوا فى الأسواق والشوارع بأن من أراد الحج فليحج فى البحر من السويس صحبة الكسوة والصرة ولم ينس الجبرتى مؤرخنا الدقيق أن يسخر من نداداتهم هذه فيذكر بعد حين انه انقطع فى عهدهم « سفر الحج من مصر ، ولم يرسلوا الكسوة ولا الصرة » (٦٤) .

وقد عادت الأحوال فى السويس بعد جلاء الفرنسيين الى حالتها الطبيعية ، وعاد اليها النشاط التجارى والسياسى وعادت اليها قوافل الحج تعبرها فى سلام الى أراضى الحجاز ، واستمرت السويس فى أداء مهمتها .

وهكذا نرى انه بالرغم من كل الظروف ومن أهمها اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ومجىء الحملة الفرنسية الى مصر فان مصر ظلت مركزا للتجارة بين الشرق والغرب ولما كان البحر الأحمر هو الطريق الطبيعى والسهل المؤدى لبلاد الشرق فقد ساهم ميناء السويس أو بندر السويس « كما عرف فى العصر العثمانى بمصر » بحكم وقوعه على رأس هذا البحر الى حد كبير فى النشاط التجارى بين أوروبا والشرق وكان له بذلك أهمية خاصة بين موانى مصر العثمانية .

---

(٦٤) الجبرتى : عجائب الآثار ج ٣ ص ٥٤ لسنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م

۱٥

علاقات مصر الثقافية مع دول البحر الأحمر

فى القرن الثـــامن عشر

للدكتور عبد الله محمد عزباوى

كلية التربيـــة بالفيوم ـــ جامعة القـــاهرة

تبوأت مصر مركزا ثقافيا مرموقا فى القرن الثـــامن عشر ، وكانت مركزا هاما من مراكز الثقافة فى العالم الاسلامى . ولهذا فقد كان لهـــا مكانة كبيرة بين دول العالم الاسلامى ولا أدل على ذلك من قول أحمد باشا المعروف بكوز وزير الذى كان واليا على مصر فى عام ۱۱٦۲هـ / ۱۷٤۹م ـــ للشيخ عبد الله الشبراوى « المسموع عنـــدنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم وكنت فى غاية الشوق الى المجىء اليها » (۱) .

وكان لمصر فى القرن الثامن عشر ، علاقات ثقافية مع جميع أرجاء العالم الاسلامى فى ذلك الوقت ، دول البحر المتوسط الاسلامية وتشمل تركيا وبلاد الشام وبلاد المغرب ، ودول البحر الأحمـــر ، وبلاد الحجاز واليمن ، والسودان ، وبلاد جبرت ، ودول جنوب شرق آسيا مثل جاوه والهند ، هذا بالاضافة الى داغستان « وسط آسيا الاســـلامية » وبلاد الأكراد .

وقد ساعد مصر على القيام بهذه العلاقات الثقافية مع غيرها من دول العالم الاسلامى ، موقعها الجغرافى ، بتوســـطها هذا العـــالم تقريبا ، ووقوعها على البحرين المتوسط والأحمر ، مما جعلها تتصل بسهولة بالدول الاسلامية وغيرها التى تطل عليهما . هذا بالاضافة الى وقوعها فى طريق

---

(۱) الجبرتى ، عجائب الآثار ، ج ۱ ، ص ۱۸۷ .

الحج لكثير من الدول الاسلامية مثل بلاد المغرب ، والسودان وبلاد جبرت .

وسنقتصر فى هذه الدراسة على علاقات مصر الثقافية مع دول البحر الأحمر .

وقد ارتبطت هذه العلاقات الثقافية لمصر فى القرن الثامن عشر مع دول البحر الأحمر بعلاقاتهاالسياسية والاقتصادية مع هذه الدولفبالنسبة لعلاقاتها السياسية فقد كان البحر الأحمر فى القرن الثامن عشر بحيرة عثمانية تكاد تخضع لها — ولو اسميا — معظم الدول التى تطل عليه — فيما عدا الحبشة — لأن الكثير من الأوقاف المصرية كانت موقوفة على الحرمين الشريفين . كما كانت الدولة العثمانية تتخذ من قافلة الحج المصرى وسيلة — من وسائل — تنفيذ سياستها فى الحجاز (٢) هذا بالاضافة الى أن الحملات العثمانية لفتح اليمن أو اعادة فتحه كانت تتخذ من مصر قاعدة لها .

أما بالنسبة لعلاقاتها الاقتصادية ، فقد قامت تجارة هامة مع بلاد العرب وحملت السفن من جدة الى السويس البن ومتاجر الهند مثل الفلفل والكافور واللالىء والأقمشة الحريرية ، كما كانت هناك قوافل تجارية هامة بين مصر والسودان (٣) .

وقد تمثلت علاقات مصر الثقافية مع دول البحر الأحمر فى القرن الثامن عشر فى تلك الرحلات المتبادلة بين علماء مصر وعلماء وطلبة هذه الدول ، وفى التأثيرات الفكرية المتبادلة .

أولا : علاقات مصر الثقافية مع بلاد الحجاز :

كان لطلبة الحجاز رواق خاص بهم فى الأزهر ، كان يسكنه مجاورو

---

(٢) السيد رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث ، ص٦ ، القاهرة ١٩٧٠ م .

(٣) حسن عثمان ، تاريخ مصر فى العصر العثمانى ، فصل من كتاب المجمل فى التاريخ المصرى ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، هاملتون جب ، هارولد بوون ، المجتمع الاسلامى والغرب ، ترجمة احمد عبد الرحيم مصطفى ، ج ٢ ، ص ١٥٤ — ١٥٦ القاهرة ١٩٧١ .

مكة والمدينة والطائف وغيرها من مدن الحجاز ، ولـكن أهله كانوا قليلين لاكتفائهم بالمجاورة فى الحرمين الشريفين (٤) .

والواقع أن علماء الحجاز الذين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر والتحقوا بالأزهر كان عددهم قليلا لايقارن بعـدد العلماء من الشوام أو المغاربة الذين زاروا مصر وجاوروا بالأزهر فى ذلك الوقت ، وكان هـذا راجعا الى اكتفائهم بالمجـاورة فى الحـرمين الشريفين . الذين كانا من المراكز الثقافية الهامة فى العالم الاسلامى فى القرن الثامن عشر .واللذين كانت تتطلع اليهما أعين العلماء المسلمين فى مختلف أرجاء العالم الاسلامى بما فيهم العلماء المصريون .

ومن علماء الحجاز الذين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر الشيخ على القلعى ت ١١٧٢هـ / ١٧٥٨م (٥) الأديب والشاعر الشهير . وقد زار القلعى مصر عـدة مرات المرة الأولى فى عام ١١٦٠هـ / ١٧٤٧م والمـرة الثانية عام ١١٧٠هـ حين جاء مع الوزير على باشا ابن الحكيم الذى كانت تربطه به علاقة قوية وسكن الشيخ القلعى فى منزل بخط الصليبة بالقرب من جامع أزبك وكان يركب فى موكب حافل تقليدا للوالى . وقد عاش فى مصر فى رغد تام وبسطة من العيش ، فقد رتب فى منزله كتخدا وخازندارا وحاجبا على عادة الأمراء المماليك وكان الشيخ على القلعى أحد ندماءالأمير رضوان كتخدا الجلفى (٦) ، الذى كان يعقـد فى قصره ندوات يحضرها الأدباء والشعراء وفى هذه الندوات يمدحه الشعراء ، كما كانت تقع بينهم المداعبات (٧) وقد منح الأمير رضوان كتخدا الجلفى ، الشيخ على القلعى الهـدايا والأموال الـكثيرة كما بنى له بيتا على بركة الأزبكية ، وصـفه الجبرتى بقوله « رؤيته تسر النفوس الزكية ، وضعه عجب ورونقه بديع

---

(٤) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٤ ، ص ٢٢ .

(٥) هو الشيخ على بن تاج الدين محمد بن عبد المحسن بن محمـد ابن سالم القلعى الحنفى المكى ، الجبرتى ، ج ١ ، ص ٢١١ .

(٦) الجبرتى ، المصدر السابق ، ص ٢١٦ .

(٧) عن هذه المداعبات ، أنظر عبد عبـد الله الادكاوى ، الفوائح الجنانية والمدائح الرضوانية ، نسخة خطيـة بدار الـكتب المصرية برقم ١٤٨٧ أدب .

غريب ، زجاجى النـواحى والارجاء من حيث التفت رائيـه رأى منظرا بهجـا » (٨) .

وقد اتصل به الشعراء المصريون ومدحوه بعدة قصـائد وكان فى مقدمة هؤلاء الشعراء الشيخ عبد الله الادكاوى ت ١١٨٤هـ / ١٧٧٠م(٩) الذى تأثر بأسلوب الشيخ القلعى فى نظم الشعر وصار ينظم أشـعارا على نسق واسع الاطلاع (١٠) .

وقد سافر الشيخ القلعى الى تركيا مع على باشا ابن الحكيم حينما عزل من مصر وعندما تولى ابن الحكيم الصدارة زاد الشيخ عنده مكانه، حتى صار فى العاصمة التركية أحد الأعيان المشار اليهم ، ولـكن عندما عزل ابن الحكيم ونفى ، سلب ما كان بيد الشيخ على القلعى ، ونفى الى الاسكندرية ومكث بها الى أن توفى بها عام ١١٧٢هـ / ١٧٥٨م (١١) .

ومن علماء الحجاز الذين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر الشيخ محمد السمان ١١٨٦هـ / ١٧٧٥م ، الذى وصـفه الجبرتى بأنه « عالم المـدينة ورئيس شـيوخها » (١٢) وقـد أرسله والده الى مصر فى عام ١١٧٤هـ / ١٧٦٠م ، حيث تلقاه تلامذة والده بالاكرام . وقد عقد الشـيخ محمد السمان حلقة ذكر بالمشهد الحسينى واقبلت عليه الناس ، ثم عاد الى المدينة وجلس محل والده فى التدريس بعد وفاته (١٣) .

ومن علماء الحجاز الذين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر الشيخ عبد الله ميرغنى ١٢٠٦هـ / ١٧٩١م الـذى جاء الى مصر عام ١١٧٤هـ / ١٧٦٠م ، واتخذ له مسكنا على الخليج ، وكان يعقد ببيته ندوة علمية كان يحضرها السيد عبد الرحمن العيدروس والسيد محمـد مرتضى الزبيـدى اليمنيان وغيرهما (١٤) .

---

(٨) الجبرتى ، المصدر السابق ص ٢١٦ .
(٩) المصدر السابق ص ٢١١ — ٢١٤ .
(١٠) المصدر السابق ص ٣٥٣ .
(١١) المصدر السابق ص ٢١٤ .
(١٢) المصدر السابق ص ٤١٧ .
(١٣) المصدر السابق ، ص ٤١٧ .
(١٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

ومنهم أيضا الشيخ على النجارى المعروف بالقبانى ت ١٢٢١هـ / ١٨٠٦ م الذى ولد بمكة عام ١٢٣٤هـ / ١٧٢١م . وحضر الى مصر عام ١١٧٢هـ / ١٧٥٧م . وكان عالما وأديبا شاعرا ، وله شرح على منظومه فى علم الكلام وشرح على بديعيته « مراقى الفرج فى مدح عالى الدرج » وله أيضا ديوان شعر صغير يقول الجبرتى عنه أن « غالبه جيد » .

وكان الشيخ على النجارى يعمل أثناء اشتغاله بالعلم بالتجارة من بيع « الارساليات » التى ترد اليه من أولاد أخيه من جدة ومكة وشراء السلع المصرية وارسالها لهم (١٥) .

أما العلماء المصريون فقد كانوا يحرصون بعد قضاء فريضة الحج على البقاء فى الحجاز والمجاورة بالحرمين والأخذ عن علمائهما ، وخاصة علم الحديث لشهرة علماء الحجاز به وعلو سندهم فيه .

ونستطيع أن نقسم العلماء المصريين الذين قاموا بالرحلة الى الحجاز واتصلوا بعلمائه الى أربعة أقسام وهم :

١ ـ فريق العلماء المصرين الذين بدأوا حياتهم العلمية فى مصر ثم سافروا الى الحجاز للمجاوره هناك والأخذ عن علمائه ثم عادوا الى مصر بعد ذلك .

٢ ـ فريق العلماء المصريين الذين بدأوا حياتهم العلمية فى مصر ثم سافروا الى الحجاز للمجاورة هناك واستقروا فى الحجاز نهائيا .

٣ ـ فريق العلماء المصريين الذين ولدوا بالحجاز وأخذوا عن علمائه واستمروا هناك .

٤ ـ فريق العلماء المصريين الذين ولدوا بالحجاز وبدأوا حياتهم العلمية هناك ثم عادوا الى مصر وأخذوا عن علمائها وانتظموا فى سلك العلماء المصريين .

أولا : العلماء المصريون الذين بدأوا حياتهم العلمية فى مصر ثم سافروا الى الحجاز للمجاورة بالحرمين ثم عادوا الى مصر .

---

(١٥) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٥ .

ويمثل هذا الفريق الشيخ البديرى الدمياطى ت ١١٤٠هـ/١٧٢٧م(١٦) الشهير بابن الميت . الذى ولد بدمياط ونشأ بها وأخذ عن علمائها ثم ارتحل الى القاهرة وجاور بالأزهر وأخذ عن شيوخه ، ثم ارتحل الى الحجاز عام ١٠٩٣هـ / ١٦٨٣م وجاور بالمدينة وأخذ عن الشيخ الكورانى ، التفسير والتوحيد والحديث ثم انتقل الى مكة وجاور بها وأخذ عن الشيخ حسن العجمى المكى وعن السيدة قريش بنت الامام عبد القادر امام المقام بالمسجد الحرام ، فقد قرأ عليها فى بيتها طرفا من الكتب الستة الشهيرة (١٧) ثم طرفا من موطأ الامام مالك ثم مسند الامام الشافعى ومسند الامام أحمد بن حنبل وباقى المسانيد . وقد أجازه هؤلاء العلماء الثلاثة السابق ذكرهم وقد عاد بعد ذلك الشيخ البديرى الدمياطى الى مصر واشتغل بالتدريس وتوفى بدمياط عام ١١٤٠هـ / ١٧٢٧م (١٨) .

ومنهم أيضا الشيخ محمد الحنفى الشهير بالصائم ت ١١٧٠ هـ / ١٧٥٧م (١٩) الذى برع فى فقه الامام الحنفى ، وقام بالتدريس بالأزهر ومسجد الحنفى ومسجد محرم بالقاهرة ، ثم اتجه الى التصوف وهجر الدنيا وباع ممتلكاته وتزى بزى الصوفية ورحل الى الحجاز وذهب الى ينبع والتجأ الى جامعها ، وهناك أعجب به حاكمها لطريقته فى التسبيح،

---

(١٦) هو الشيخ بدير محمد بن يوسف شمس الدين أبو حامد البديرى الحسينى الشافعى الدمياطى الشهير بابن الميت وبالبرهان الشامى ، الجبرتى ، ج ١ ، ص ٨٨ .

(١٧) الكتب الستة هى : كتب الصحاح الستة وهى صحاح البخارى، ومسلم ، وابن داود والترمذى والنسائى أما الكتاب السادس فقد اختلف العلماء فيه فالبعض اعتبره كتاب ابن ماجه والبعض الآخر اعتبره موطأ الامام مالك ، انظر صبحى الصالح علوم الحديث ومصطلحه ص ١١٧—١١٨، الطبعة الثانية دمشق ١٩٦٣ .

(١٨) الجبرتى ، المصدر السابق ، نفس المكان ، عبدالله الشرقاوى التحفة البهية فى طبقات الشافعية ص ٢١٣ ، نسخة خطية مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٣٨١٥ ح ، عبد الحى الكتانى ، فهرس الفهارس ج١ ص ١٥٤—١٥٥ ، محمد البديرى الدمياطى ، الجواهر الغوالى فى ذكر الأسانيد العوالى ورقة ١١٤ ، نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية برقم ٨٢٩ مصطلح حديث .

(١٩) هو الشيخ محمد بن احمد الحنفى الأزهرى الشهير بالصائم نسبة الى سفط الصائم احدى قرى الفشن ، الجبرتى ، ج١ ، ص٢١١ .

وحدث أن توفى أحد مشايخ العربان واختلف أولاده حول الارث ، وذهبوا الى ينبع يستفتون ولكنهم لم يجدوا هنـــاك من يحل اشـــكالهم ، ورأى الحاكم أن يكتب السؤال ويرسله معهجان الى مكة يستفتى علماءها ولكن الهجان بالغ فى أجرة السفر وعندئذ كتب لهم الشيخ محمد الصائمالجواب بنصوص المذهب ، ولم يكن أحد فى ذلكالوقت يعلم أنه من علماءالمسلمين، ولمـــا عرف الحاكم بذلك أكرمه وعين له المال والكسوة وصار الشيخمحمد الصائم يقرأ دروس الفقه والحديث حتى اشتهر أمره واقبلت عليه الشبا ثم حج وعاد الى مصر (٢٠) .

ومن العلماء المصريين الذين جاوروا بالحجـــاز ثم عادوا الى مصر الشيخ أحمد الجوهرى الخالدى ت ١١٨٧هـ / ١٧٧٣م (٢١) فبعد أن أخـــذ عن علماء مصر وتصدر للتدريس فى حياة والده « الشيخ محمدالجوهرى » سافر للحج مع والده وجاور هناك لمدة عام ثم عاد الى مصر (٢٢) .

ومن علماء مصر فى القرن الثـــامن عشر الذين بدأوا حياتهم العلمية فى مصر ثم ســـافروا الى للحجاز وجاوروا هنـــاك ثم عادوا الى مصر ، الشيخ حسن الجبرتى ت ١١٨٨هـ / ١٧٧٤م (٢٣) عالم الرياضيات الشهير . فبعد أن أتم علومه بمصر ، وتصـــدر للتدريس سافر الى الحجاز وجاور بمكة عام ١١٥٥هـ / ١٧٤٢م (٢٤) . وقد قرأ هنـــاك على كل من الشـــيخ النخلى وعبد الله بن سالم البصرى وعمر بن احمد بن عقيل المكى والشيخ محمد حياة السندى الـــكورانى ، وابن الحسن السندى ، والسيد محمد السقاف وغيرهم ، وأجازوه ، كما أخذ هؤلاء عنه . وقد لقنه الشيخ أبو

---

(٢٠) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٢١) هو الشيخ احمد بن الشيخ شهاب الدين احمـــد بن الحسن الجوهرى الخالدى الشافعى ، المصدر السابق ص ٣٧٧ .

(٢٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٢٣) هو الشيخ حسن بن برهان الدين ابراهيم بن حسن بن نور الدين على بن شمس الدين محمد بن زين الدين عبـــد الرحمن الزيلعى الجبرتى العقيلى الحنفى ، والد المؤرخ الـــكبير عبد الرحمن الجبرتى ، أنظر المصدر السابق ، ص ٣٨٥ .

(٢٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٠ .

الحسن السندى طريقه السادة النقشبندية (٢٥) وممن أخذ عن الشـــيخ حسن الجبرتى أثنـــاء محاورته بمكة الشيخ ابراهيم الزمزمى ت ١١٩٥هـ / ١٧٨١م (٢٦) الذى لازم الشيخ حسن الجبرتى ملازمة كلية وأخذ عنه علم الفلك والأوفاق والاستخراجات والرسم وغير ذلك (٢٧) وقـــد عاد الشيخ حسن الجبرتى بعد ذلك الى مصر .

ثانيا : العلماء المصريون الذين بدأوا حيـــاتهم العلمية فى مصر ثم جاوروا بالحجاز واستقروا هنـــاك نهائيا .

من هؤلاء العلماء الشيخ عيد النمرسى ت ١١٤٠ هـ / ١٧٢٧م (٢٨) الذى بدأ حياته العلمية فى مصر ثم جاور فى آخر أمره بالمدينة وأخذ هناك علم الحديث عن كل من البصرى والنخلى من أعلام الحجاز وقام بالتدريس بالحرم النبوى ، واستمر مقيما هنـــاك الى أن توفى فى عام ١١٤٠ هـ / ١٧٢٧ م (٢٩) .

ومنهم أيضا الشيخ محمد الاسكندرى ت ١١٤٩هـ / ١٧٣٦م (٣٠). المفسر والمحدث فبعد أن أتم علومه بمصر جاور بمكة وهناك تتلمذ عليـــه علماء من مختلف الدول الاسلامية مثل الشيخ أبو العباس العثمانى والشيخ محمد بن على التونسى ، والشيخ على الانطاكى ، والشـــيخ اســـماعيل العجلونى ، والشيخ عمر بن عقيل الحجازى . وقد توفى الشيخ محمـــد الاسكندرى بمكة عام ١١٤٩هـ / ١٧٣٧م (٣١) .

ثالثا : العلماء المصريون الذين ولدوا بالحجاز وبدأوا حياتهم العلمية هناك ثم استمروا بالحجاز .

---

(٢٥) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٩٣ .
(٢٦) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٧٠ .
(٢٧) المصدر السابق ، نفس الصفحة .
(٢٨) هو الشيخ عيد بن على النمرسى ، أنظر محمد المرادى ، سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر ، جـ ٣ ، ص ٢٧٣ .
(٢٩) المصدر السابق ، نفس الصفحة .
(٣٠) هو الشيخ محمد بن سلامه بن ابراهيم الاسكنـــدرى ، أنظر الجبرتى ، جـ ١ ص ١٦٠ .
(٣١) المصدر السابق ، ص ١٦٠ — ١٦١ .

من هؤلاء العلماء الشيخ ابراهيم المنوفى المكى ت ١١٨٧هـ / ١٧٧٣م (٣٢) المنوفى الأصل ، والذى ولد بمكة فى أواخر القرن السابع عشر الميلادى ، وأخذ عن كبار علمائها مثل البصرى والنخلى والقلعى وابن عقيله والكورانى . وكان الشيخ ابراهيم المنوفى شاعرا ، وكان الشيخ العيدروس اليمنى يقول عنه أنه « أديب جزيرة الحجاز » .

وقد حظى الشيخ المنوفى بمكانة كبيرة فى مكة ، فقد كان موضع ثقة الحاكم الذى أرسله بسفارة الى الهند ، وعندما عاد الى مكة عينه الحاكم فى وظيفة « كتابة السر » له . فكان الشيخ المنوفى يكاتب رجال الدولة على لسانه .

وكان الشيخ المنوفى الى جانب براعته فى الأدب ، بارعا فى حفظ القرآن ، فقد كان يكتب سورة من القرآن الشريف فى حين كان يقرأ سورة أخرى ولا يخطىء لا فى الكتابة ولا فى القراءة حتى تتما معا . كما كان عارفا بعلم الطب وله رسالة فيه . وقد توفى الشيخ المنوفى بمكة عام ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م (٣٣) .

رابعا : العلماء المصريون الذين ولدوا بالحجاز وبدأوا حياتهم العلمية هناك ثم عادوا الى مصر وأخذوا عن علمائها وانتظموا فى سلك العلماء المصريين .

من هؤلاء العلماء الشيخ حسن شمه ت ١١٧٦هـ / ١٧٦٢م (٣٤) الفوى الأصل ولد بمكة عام ١١٤٢هـ / ١٨٢٩م ، وبها نشأ ، فبعد أن قرأ القرآن ، التحق بالمسجد الحرام وأخذ عن الشيخ عطاء الله بن احمد المصرى والشيخ أحمد الأشبولى والشيخ عبد الوهاب الطبرى . وبعد أن أتم علومه بالمدينة

---

(٣٢) هو الشيخ ابراهيم بن سعيد بن جعفر الحسن الادريسى المكى الشافعى ، أنظر المصدر السابق ، ص ٣٧٧ .

(٣٣) المصدر السابق ، ص ٣٧٧ .

(٣٤) هو الشيخ حسن بن على بن منصور بن عامر بن ذئاب المشهور بشمه الفوى ، أنظر الجبرتى ج ١ ، ص ٢٦١ ، حسن شمه ، منتهى العبارات فيما لشيخنا من الكرامات ، ص ٧٥ ، نسخة خطية ، بدار الكتب المصرية برقم ١٠٠٨ تاريخ .

أرتحل الى مصر وأخذ عن بلديه الشيخ محمد الشهير بهديه القوى ، الذى أجازه ودله على الشيخ محمد الحفنى ت ١١٨١هـ / ١٧٦٧م . شيخ سجادة الطريقة النقشبندية بمصر وقد حضر الشيخ حسن شمة دروس الشيخ الحفنى كما تلقى الذكر عنه .

وللشيخ حسن شمه مؤلفات عديدة فى مختلف العلوم مثل السحر والطلاسم والتصوف والنحو والفقه ، وله منظومه « الحجج القاهرة » وهى تتضمن تاريخ القاهرة (٣٥) .

ومن أشهر مؤلفات الشيخ حسن شمه كتابه « منتهى العبارات فى بعض ما لشيخنا من المناقب والكرامات » . وقد الفه فى مناقب أستاذه الشيخ محمد الحفنى .

وقد وضع الشيخ حسن شمه هذا الكتاب على غرار كتب الصوفية فى الترجمة لاقطابهم وقد قسم المؤلف الكتاب الى ثلاثة أبواب الباب الأول فى مآثره وأحواله منذ ولادته . الباب الثانى فى سلوكه فى طريقة الخلوتيه وبيان خلفائه والآخذين عنه . وقد ترجم المؤلف لنفسه فى هذا الباب ترجمة ذاتية باعتباره أحد الآخذين عن الشيخ الحفنى ، الباب الثالث ، فى ما مدح به أستاذه الشيخ الحفنى وأثنى عليه من منثور ومنظوم (٣٦) .

ولم يقتصر أثر هذه الرحلات على تبادل المعارف بل تعدتها الى تبادل التيارات الفكرية بين البلدين ، وخصوصا الحركات الاصلاحية التى استهدفت تطهير السلوك الدينى مما علق به من الشوائب والمعتقدات الفاسدة . فقد شهد أقليم نجد فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر حركة اصلاحية هامة أثرت فى معظم العالم الاسلامى ، وهى الحركة السلفية التى قام بها محمد بن عبد الوهاب . وكانت مصر فى مقدمة الدول التى تأثرت بهذه الدعوة ، حيث لاقت هذه الدعوة قبولا لدى جانب من

---

(٣٥) الجبرتى ، المصدر السابق ، ص ٢٦١ — ٢٦٢ ، حسن شمه ، المصدر السابق ص ٧٥ — ٧٦ .

(٣٦) حسن شمه ، المصدر السابق .

المصريين الذين تعاطفوا معها ، وأدى انتشار مبادىء هذه الدعوة السلفية فى مصر الى أن قامت هناك بعض الحركات الاصلاحية متأثرة بهذه الدعوة.

والواقع ان الحركة السلفية ما كانت تجد هـذا القبول لدى بعض المصريين ، لولا أن التربة المصرية كانت مهيئة لذلك ، فقد شهدت مصر بعض ارهاصات هذه الحركة سواء من الحكام والأجناد أو من العلماء فى النصف الأول من القرن الثامن عشر .

فمن ناحيـة الحكام والأجنـاد فقـد تميزت هذه الحركة بالعنف ، واختلفت ما بين ضرب بعض المجاذيب أو الزج بهم فى السجن أو المارستان ووصل هذا العنف فى بعض الأحيان الى درجة القتل (٣٧) .

من أمثلة هذه الحركات الاصلاحية ماحدث فى عام ١١٤٧هـ/ ١٧٣٤م عندما ظهر رجل تكرورى ادعى النبوة ، وعندما سمع عثمان كتخدا بقصته، طلب احضاره اليه وسأله فأصر الرجل على أقواله ، فأمر بحبسـه ثلاثة أيام ، ثم جمع العلماء وسألوه فلم يتحول عن كلامه ، وأمروه بالتوبة فامتنع وأصر على ماهو عليه وعندئذ أمر الباشا بقتله (٣٨) .

وفى عام ١١٥٦هـ / ١٧٤٣ م أصـدر محمد باشا اليدكشى الـذى كان واليا على مصر فى ذلك الوقت ، فـرمانا بابطـال شرب الدخان فى الشوارع وأمام الدكاكين وأبواب البيوت ، ونزل الاغا والوالى وشـددا فى الانكار وعقاب كل من يفعل ذلك مهما كان مركزه ، وصـار الأغا يشق العاصمة ثلاث مرات فى اليوم وكل من وجده وفى يده الدخان عاقبه وربما جعله يأكل « الحجر » الذى يوضع فيه الدخان (٣٩) .

أما من ناحية العلماء فقد اتخذ الأمر صورة الجدل النظرى بينهم وبين الصوفية ، على الرغم من أن الغالبية العظمى من العلماء فى القرن الثامن

---

(٣٧) عبد الله محمد عزباوي ، الحركة الفكرية فى مصر القرن الثامن عشر ، ص ٤٢٢ . رسالة لنيل درجة الدكتوراه فى التـاريخ الحديث ، كلية الآداب جامعة عين شمس ، سبتمبر ١٩٧٦ ، غير منشورة .
(٣٨) الجبرتى ، جـ١ ، ص ١٤٦—١٤٧ .
(٣٩) المصدر السابق ، ص ١٥١—١٥٢ .

عشر ، فى مصر كانوا متصوفة بل ان بعضهم غالى فى التصوف فادعى السكرامات (٤٠) .

وكانت مسألة الكرامات واطلاع الأولياء على اللوح المحفوظ من أهم القضايا التى دار الصراع حولها بين الفقهاء والمتصوفة ، فبينما دافع بعض العلماء المتصوفة عن هذه الكرامات كان هناك فريق آخر من العلماء ينكر مسألة كرامات الأولياء واطلاعهم على اللوح المحفوظ وكانت أول محاولة من جانب العلماء لانكار هذه البدع والقضاء عليها فى مصر فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، تلك المحاولة التى قام بها الواعظ الرومى « التركى » رمضان ١١٢٣هـ / ١٧١١م ، والذى كان يعقد مجالس وعظه فى جامع المؤيد ، فقد اعتبر هذا الواعظ أن زيارة الأضرحة وايقادالشموع والقناديل على قبور الأولياء وتقبيل اعتابهم من قبيل الكفر ، وانه يجبعلى الناس ترك مثل هذه الأمور وعلى ولاة الأمر السعى فى ابطالها . وكذلك أنكر هذا الواعظ أطلاع بعض الأوليـاء والنبيين على اللوح المحفوظ ، ونادى بعدم جواز بنـاء القباب على ضرائح الأوليـاء والتكايا وانه يجب هدمها . وهاجم ايضا وقوف الصوفية ببـاب زويله فى ليالى رمضان . وقد اقتنع كثير من الحاضرين بما نادى به هذا الواعظ لذا فقد خرجوا بعد صلاة التراويح الى باب زويله ومعهم النبـابيت والأسلحة ، فهرب الذين كانوا يقفون هنـاك من فقراء الصـوفية وقطع هؤلاء الثائرون من أتباع هذا الواعظ التركى الجوخ والأكر المعلقـة على باب زويله وهم يقولون أين الأوليـاء ، ووصل خبر هـذا الواعظ واقواله الى علماء الأزهر الذين كان يندرج غالبيتهم فى الطرق الصوفية ، فأصدر كل من الشيخ احمـد النفراوى والشيخ احمـد الخليفى فتوى ، ذهبـا فيهـا الى أن كرامات الأولياء لا تنقطع بموتهم وان انكار هـذا الواعظ التركى الاطـلاع على اللوح المحفوظ لا يجوز وطلبـا من الحاكم زجر هـذا الواعظ أو قتله ، وقد انتهى الأمر بنفى هذا الواعظ والقبض على اتباعه (٤١) .

أما فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، فقد وضح تأثر مصر بالحركة السلفية التى قامت فى نجد ، ووجد اتجـاه الاصـلاح الروحى

---

(٤٠) عبد الله محمد عزباوى ، المصدر السابق ، ص ٤٢٧ .
(٤١) الجبرتى ، جا ، ص ٤٨–٤٩ .

والاجتماعى دفعة قوية ، فقد واصل كل من الحكام والعلماء محاربتهم للبدع والخرافات وتطهير السلوك الدينى مما علق به من الشوائب .

وكان عثمان بك كتخدا من أهم الأمراء الذين تأثروا بهذه الحركة ، فقد صحب الأمير عبد الرحمن كتخدا عام ١١٥٥هـ / ١٧٤٢ أثناء حجه ، الا انه لم يعد معه وانما استمر هناك حوالى ست سنوات ، فقد عاد الى مصر عام ١١٦١هـ / ١٧٤٨ م وعندما عاد الى مصر عمل الخيرات وأبطل المنكرات ومنها ابطال خمامير حارة اليهود (٤٢) واشتهر عنه محاربته البدع والخرافات (٤٣) .

أما العلماء الذين تأثروا بهذه الدعوة فنذكر منهم الشيخ على الصعيدى ت ١١٨٩هـ / ١٧٧٥ م ، الذى عرف عنه تحريمه لشرب الدخان . والنهى عن شربه بحضرته وحضره العلماء تعظيما لهم . وكان اذا دخل منزل أحد الأمراء ورأى من يشرب الدخان وبخه وكسر الآله التى يدخن بها ولو كانت فى يد كبير الأمراء (٤٤) . كما هاجم دوران الصوفية وغناءهم أثناء الذكر والف من أجل ذلك رسالة « فى حكم الرقص والغناء فى الذكر » (٤٥) .

وكان الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ الشهير من أكثر العلماء المصريين تأثرا بالدعوة السلفية ومن أشد أنصارها ومؤيديها فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر فقد كان سلفى العقيدة لا يؤمن بالخرافات والخزعبلات رغم ايمانه بالكرامات .

فقد انتقد الجبرتى البدع وما يصاحب موالد الأولياء ومدعى الولاية من الفسق والفجور والمغالاة من مدحهم والتوسل بهم واعتبر ذلك خروجا على الدين واتباعا للشهوات (٤٦) كما يورد البيان الذى أرسله الوهابيون الى مصر بعد دخولهم مكة والذى يشتمل على خلاصة دعوتهم ويعقب عليه

---

(٤٢) المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥ .
(٤٣) أنظر موقفه من عنزة السيدة نفيسة ، المصدر السابق ص٣٦٢
(٤٤) المصدر السابق ، ج١ ، ص ٤١٥—٤١٦ .
(٤٥) نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية برقم ٥٢٣ فقه عام .
(٤٦) أنظر موقف الجبرتى من تشجيع الفرنسيين للمصريين فى احياء الموالد ، أثناء الاحتلال الفرنسى لمصر ، ج٣ ، ص٤٣ .

قائلا « أن كان كذلك فهذا ماندين الله نحن أيضا ، وهو خلاصة لباب التوحيد » (٤٧) . ثم يذكر بعض أمهات الكتب فى مذهب السلف (٤٨) .

وعندما اشترط الوهابيون على الركب الشامى الا يجيء للحج بالمحمل والطبول مما جعل الشاميين يعودون دون أن يحجوا علق الجبرتى على ذلك بقوله « ولم يتركوا مناكيرهم » (٤٩) فهو يعتبر المحمل وطبوله منكرا .

وعندما استولى الوهابيون فى عام ١٨٠٥ م (٥٠) على مافى الحجرة الشريفة من الذخائر والجواهر علق على ذلك قائلا : « وهذه الأشياء وضعها ضعاف العقول من الأغنياء والملوك والسلاطين والأعاجم » (٥١) ثم يعلن تنزه النبى عن مثل هذه الأشياء وأنه لم « يدخر شيئا من عرض الدنيا فى حياته ، وقد أعطاه الله الشرف الأعلى وهو الدعوة الى الله تعالى والنبوة والكتاب ، واختار أن يكون نبيا عبدا ولم يختر أن يكون نبيا ملكا » (٥٢) وأخذ يدلل على صحة رأيه بالأحاديث النبوية الشريفة (٥٣)

وعندما يقتل العثمانيون عبد الله بن مسعود واتباعه ، يعتبرهم الجبرتى شهداء فيقول « وصلت الأخبار أيضا عن عبد الله بن مسعود أنه لما وصل الى اسلامبول طافوا به البلدة ، وقتلوه عند باب همايون وقتلوا اتباعه أيضا فى نواحى متفرقة فذهبوا مع الشهداء (٥٤) .

وعندما يرى أسرى الوهابيين يباعون فى الأسواق يصرخ محتجا كيف تبيعونهم « مع أنهم مسلمون وأحرار » (٥٥) .

---

(٤٧) المصدر السابق ، ص ٢٥٧ .
(٤٨) المصدر السابق ، نفس الصفحة .
(٤٩) المصدر السابق ، جـ٤ ، ص٨٥ .
(٥٠) سنت جون فيلبى ، تاريخ نجد ودعوة الشيخ ابن عبدالوهاب السلفية ، ترجمة عمر الديراوى ، ص ١١٥ ، بيروت بدون تاريخ .
(٥١) الجبرتى ، المصدر السابق ص ٢٢٨ .
(٥٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .
(٥٣) المصدر السابق ، ص ٢٢٩ .
(٥٤) المصدر السابق ، ص ٣٠٢ .
(٥٥) المصدر السابق ، ص ٣٠٥ .

وهكذا نجد أن أعين العلماء المصريين كانت تتجه الى الحجاز وأعين علماء الحجاز تتجه الى مصر ، ولما كان العلماء المصريون يذهبون الى الحجاز لأداء فريضة الحج ، فقد كان علماء الحجاز ينتهزون هذه الفرصة للالتقاء بهم مع غيرهم من علماء البلاد الاسلامية الأخرى ، بدلا من الذهاب الى مصر وتكلف مشقات السفر . وقد أدى هذا بالتالى الى أن تكون هذه الزيارات المتبادلة من جانب المصريين فى أغلبها الذين كانوا يحرصون بعد قضاء فريضة الحج على المجاوره بالحرمين والأخذ عن علمائهما وخاصة علم الحديث الذى اشتهر علماء الحجاز بعلو سندهم فيه .

وقد أدت هذه الزيارات المتبادلة الى تأثر مصر ببعض جوانب الحركة الفكرية الحجازية وخاصة الشعر ، وقد تأثر الشعر المصرى بالشعر الحجازى ، حينما حاكى الشيخ عبد الله الادكاوى ، الشيخ على القلعى الأديب الحجازى الذى كان يجيد الأنواع البديعية فى الشعر ، وخاصة ما يسمى بوسع الاطلاع .

وكذلك كان علماء الحجاز يستغلون فرصة وجود العلماء المصريين بينهم فى موسم الحج أو مجاورتهم للاخذ عنهم العلوم العقلية التى كانت متقدمة فى مصر بعض الشىء عن الدول الاسلامية الأخرى فقد رأينا كيف أخذ الشيخ ابراهيم الزمزمى علم الفلك عن الشيخ حسن الجبرتي عالم الرياضيات والفلك المصرى الشهير .

هذا بالاضافة الى أن تيارات الاصلاح الروحى والاجتماعى كانت سائدة فى البلدين وان كان واضحا ان مصر قد تأثرت بالحركة السلفية فى الجزيرة العربية أكثر من تأثر الحركة السلفية فى الجزيرة العربية بحركة الاصلاح الروحى والاجتماعى التى ظهرت فى مصر فى النصف الأول من القرن الثامن عشر . على أن التيار السلفى الذى وجد بعض انصاره فى مصر فى القرن الثامن عشر وعلى رأسهم الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، لم يقدر له الانتشار والنجاح فى مصر نظرا لاختلاف المذاهب الفقهية فى كل من البلدين فعلى حين أن الحركة السلفية فى الجزيرة العربية كانت

تتخذ مذهب الامام احمد بن حنبل أساسا لها ، فان اتباع هذا المذهب فى مصر فى القرن الثامن عشر كانوا قلة (٥٦) .

ثانيا : علاقات مصر الثقافية مع اليمن :

كانه العلاقات الثقافية بين مصر واليمن في الثامن عشر محدودة للغاية ، فان عدد علماء اليمن الذين زاروا مصر فى ذلك الوقت للمجاورة أو التدريس بها كان قليلا ، وكذلك بالنسبة للعلماء المصريين الذين زاروا اليمن ، فانهم كانوا قلة ولعل هذه العلاقات الثقافية المحدودة بين البلدين كانت ترجع الى العوامل الآتية :

أولا : بعد المسافة بين البلدين .

ثانيا : وقوع مركز ثقافى هام بينهما وهو بلاد الحجاز ، فكان علماء البلدين يكتفون بالمجاورة والالتقاء هناك ، وبذلك يوفرون مشقة السفر.

ثالثا : لم تكن اليمن فى ذلك الوقت بالمركز الثقافى الهام الذى يجذب انتباه العلماء المصريين للرحلة اليه والأخذ عن علمائه .

رابعا : تفضيل جزء كبير من علماء اليمن الذهاب الى الهند والأخذ عن علمائها ، فقد كانت الهند فى القرن الثامن عشر ، مركزا ثقافيا هاما لدراسة علم الحديث (٥٧) وكان يقيم هناك عدد كبير من علماء اليمن الذين زاروا الهند وأخذوا عن علمائها مثل الشيخ عبد الرحمن العيدروس ت ١١٩٢ هـ / ٧٧٨ م ، فقد ذهب مع والده الى هناك عام ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م وأخذ عن بعض علماء اليمن المقيمين هناك مثل السيد عبد الله ابن عمر المحضار العيدروس ، والسيد احمد بن الشيخ العيدروس والسيد مصطفى بن عمر العيدروس ، والحسين بن عبد الرحمن بن محمد العيدروس والسيد محمد فضل الله العيدروس (٥٨) .

---

(٥٦) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ١ ، ص٤٠٨ .

(٥٧) محمد محمد أبو زهو ، الحديث والمحدثون ، ص ٤٣٨، القاهرة ١٩٥٨ .

(٥٨) الجبرتى ، جـ ٢ ، ص ٢٧ ، المرادى ، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، جـ٢ ، ص٣٢٨ .

كما كان الشيخ محمد مرتضى الزبيدى من علماء اليمن الذين أخذوا عن علماء الهند ، فقد أقام مع أسرته فترة فى الهند تتلمذ فيها على المصلح الكبير شاه ولى الله دهلوى الذى كان يدعو الى الرجوع الى الكتاب والسنة ، وعدم أخذ أقوال الفقهاء على علاتها ، وضرورة بحثها وتحقيقها، كما كان يدعو الى التوفيق بين المذاهب الفقهية الأربعة ، وحينما كان يتعذر عليه ذلك كان يأخذ بما يوافق الأحاديث الصحيحة ويرجحه على غيره ، وقد طبق طريقته الجديدة فى كتابيه « حجة الله البالغة » و « الانصاف فى أسباب الاختلاف » (٥٩) .

خامسا : عدم خضوع اليمن للدولة العثمانية فى القرن الثامن عشر، فمن الملاحظ أن علاقات مصر الثقافية مع البلاد الخاضعة للحكم العثمانى، كانت أقوى من تلك العلاقات مع الدول التى لاتخضع للحكم العثمانى .

وكان لأهل اليمن رواق خاص بهم فى الأزهر وكان أهله قليلون (٦٠)

ومن أبرز علماء اليمن الذين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر، الشيخ عبد الرحمن العيدروس ت ١١٩٢هـ / ١٧٧٨م (٦١) . العالم الصوفى الشهير الذى ولد باليمن عام ١١٣٥هـ / ١٧٢٣م وأخذ عن والده وجده اللذين ألبساه الخرقة . كما أخذ عن غيرهما من علماء اليمن ، وفى عام ١١٥٣هـ / ١٧٤٠م زار مع والده الهند وأخذ عن بعض علمائها ، ثم عاد الى اليمن بعد ذلك . وقد زار العيدروس مصر فى عام ١١٥٨هـ / ١٧٤٥م وقد جرت بينه وبين علمائها مطارحات سجلها فى رحلته « تنميق السفر » (٦٢) . وفى مصر ألبسه السيد عبد الخالق الوفائى الخرقة الوفائية وكناه « أبا المراحم » وأجاز له أن يكنى من يشاء ، فكنى جماعة

---

(٥٩) جمال الدين الشيال ، الحركات الاصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق الاسلامى الحديثة ، جـ٢ ، ص ٤٧ ، معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٥٨ .

(٦٠) على مبارك ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٢٤ .

(٦١) الجبرتى ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ٢٧ ، المرادى ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٢٨ .

(٦٢) عبد الرحمن العيدروس ، تنميق السفر ، مطبوع ، القاهرة ١٣٠٤ هـ .

كثيرة من أهل اليمن . وقد عاد العيدروس فى العام التالى الى مكة صحبة الحج .

وقد أخذ الشيخ العيدروس يتردد مابين مصر والحجاز ، فقد عاد الى مصر فى عام ١١٦٢هـ / ١٧٤٩م مع الحج ، ومكث بها عاما عاد بعده الى الطائف . ثم عاد الى مصر مرة ثانية فى عام ١١٦٨هـ / ١٧٥٥م ومكث عاما آخر ثم عاد بعده الى مكة مع الحج . وأخيرا عاد الى مصر فى عام ١١٧٤هـ / ١٧٦٠م واستقر بها نهائيا الى أن توفى فى عام ١١٩٢هـ/١٧٧٨م

وقد ذاعت شهرة الشيخ العيدروس فى مصر وصار مقبول الشفاعة عند الأمراء لا يرد له طلب ، وقام فى أثناء اقامته فى مصر بعدة رحلات الى الصعيد الأطلى وطنطا ورشيد واسكندرية وفوة وديروط ودسوق للاخذ عن علماء هذه النواحي (٦٣) .

وكان الشيخ العيدروس من انصار مذهب وحدة الوجود ، فى التصوف ، وكان يدرسه لطلبته كثيرا (٦٤) ويبدو أن الشيخ العيدروس قد اعتنق هذا المذهب أثناء وجوده فى الهند فقد كان هذا المذهب سائدا هناك ، ويميز المدرسة الهندية فى التصوف .

وقد أوجد الشيخ العيدروس بذلك اتجاها ثالثا فى ميدان التصوف فى مصر فى القرن الثامن عشر وهو الاتجاه الفلسفى ، فقد كان التصوف فى مصر فى ذلك الوقت يكاد يكون مقصورا على اتجاهين هما اتجاه الدروشة ، واتجاه الطرق الصوفية .

على أن هذا التيار الفلسفى لم يقدر له الانتشار فى مصر ويرجع هذا الى أن مصر كانت سنية المذهب ، لم تقبل على المذاهب الفلسفية .

---

(٦٣) الجبرتى ، المصدر السابق ، ص ٢٧—٣٤ ، المرادى،المصدر السابق ، ص٣٢٨ ، عبد الحى الكتانى ، فهرس الفهارس ، جـ٢ ، ص ١٣٦ — ١٣٧ .

(٦٤) عبد الله الشرقاوى ، شرح الشرقاوى على حكم شيخه محمد ابن يزيد الكردى الكورانى ، ورقة ٢ ، ٣ ، نسخة خطية بدار الكتب المصرية برقم ٩٩ تصوف .

ومن العلماء المصريين الذين أخذوا عن الشيخ العيدروسي ، الشيخ يوسف الحفني ت ١١٧٨هـ / ١٧٦٤م ، وأخوه الشيخ محمـــد الحفني ت ١١٨١هـ / ١٧٦٧م ، والشيخ احمد العلوى ت ١١٨١هـ / ١٧٦٧م ،والشيخ محمد الجوهرى ت ١٢١٥هـ / ١٨٠١ م .

وقـــد كثر الواردون على الشيخ العيـــدروس من البـــلاد البعيدة ليتلقوا عنه الطريقة النقشبندية (٦٥) .

ومن علماء اليمن الذين زاروا مصر وأقاموا فيها فى القرن الثـــامن عشر ، الشيخ محمد مرتضى الزبيدى ت ١٢٠٥هـ / ١٧٩١م (٦٦) وهو من أسرة عراقية الأصل ارتحلت الى الهند وأقامت هنـــاك فترة ثم عادت الى اليمن ، وأقامت بزبيد واليها ينسب الشيخ محمد مرتضى الزبيدى (٦٧) .

وقد جاء الزبيدى الى مصر فى عام ١١٦٧هـ / ١٧٥٤م وذلكبتوجيه من شيخه عبد الرحمن العيدروس اليمنى (٦٨) .

وقد أثرى الشيخ الزبيدى الحركة الفكرية فى مصر فى القرن الثامن عشر بمؤلفاته العديدة فى مختلف العلوم ، وكان من اعلام حركة تجـــديد الفكر المصرى فى أواخر القرن الثـــامن عشر ، على الرغم من أن مؤلفاته لم تخرج عن نطـــاق الشروح والحواشى ، الا أنهـــا تـــدل على ســـعة أفق واطلاع (٦٩) .

وكان الزبيدى من أهم علماء الحديث فى مصر فى ذلك الوقت ،وقد لعب دوراً كبيراً فى النهوض بهذه العلوم وذلك عن طريق احيـــاء سنة

---

(٦٥) الجبرتى ، المصدر السابق ، ص ٧٣٤ .

(٦٦) هو الشيخ محمد مرتضى بن محمـــد بن عبد الرازق الحسينى العلوى الزبيدى المـــكنى بأبى الوقت وأبى الفيض ، أنظر ، الجبرتى ، المصدر السابق ص ١٩٦ ، عبد الحى الكتانى ، المصـــدر السابق ، ج ١ ص ١٤١ ــ ١٤٣ .

(٦٧) المصدر السابق ص ٣٩٨ ، صديق خان ، أبجد العلوم ، ص ٧٠٨ ــ ٧٠٩ الهند ١٢٩٥ هـ .

(٦٨) الجبرتى ، المصـــدر السابق ، ص ١٩٦ .

(٦٩) عبد الله محمد عزباوى ، المصدر السابق ص ٣٤ .

السلف فى دراسة الحديث وذلك بذكر الأسانيد والرواة والمخرجين من حفظه على طرق مختلفة . واعتمد فى دروسه على كتب الأصول العامة كالبخارى والشمائل تاركا الشروح والحواشى التى كانت سائدة فى ذلك الوقت . وكان بعد الانتهاء من قراءة جزء من هذه الكتب يملى على الحاضرين حديثا من المسلسلات أو فضائل الأعمال ويسرد رجال سنده ورواته من حفظه ثم يتبع ذلك بأبيات من الشعر (٢٠) وهذه أشياء لم تكن معهودة فى مصر فى ذلك الوقت وسائر أنحاء العالم الاسلامى منذ زمن بعيد ، فجاء الزبيدى وأحياها .

ولا شك فى أن الزبيدى كان متأثرا فى اتجاهه هذا بتلك الفترة التى قضاها فى الهند حيث كانت الهند كما أشرنا من أهم مراكز دراسة علم الحديث فى القرن الثامن عشر ، كما كان متأثرا بآراء أستاذه شاه ولى الله دهلوى . وبذلك لعب الزبيدى دور الواسطة فى نقل التيارات الثقافية التجديدية التى كانت سائدة فى الهند — والتى كانت ترمى الى تجديد الفكر الاسلامى — الى مصر . وكانت هذه التيارات عاملا — من عوامل — التجديد فى الفكر المصرى فى أواخر القرن الثامن عشر .

ونتيجة لاهتمام الزبيدى باحياء طريقة السلف فى دراسة علم الحديث فقد اتجه الى شرح « القاموس » للفيروز آبادى ، وذلك عندما شعر برغبة علماء الحديث فى فهمه للاستعانة به فى دروسهم ودراساتهم (٧١) . وذلك لأن علوم اللغة هى علوم مساعدة لفهم العلوم الشرعية (٧٢) .

وقد شرح الزبيدى « القاموس » للفيروز آبادى فى عشرة أجزاء استغرقت منه أربعة عشر عاما . وقد ذاع أمر هذا الشرح فى مصر وسائر أنحاء العالم الاسلامى ، فقد اشتراه محمد بك أبو الذهب بمبلغ ١٠٠ ألف درهم كى تزدان به خزانة الكتب التى أنشأها بمدرسته الشهيرة

---

(٧٠) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

(٧١) محمد مرتضى الحسينى ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق عبد الستار احمد فراج ، ج١ ، ص ٤ ، الكويت ١٩٦٥ .

(٧٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٥٤٥ .

بالقرب من الجـامع الأزهر (٧٣) . كما اشتراه أيضـا كل من سـلطان تركيا وسلطان دارفور وسلطان المغرب (٧٤) .

ويعتبر هذا الكتاب الى جانب « عجائب الآثار » للجبرتى من أعظم الأعمال الفكرية التى شهدتها مصر فى القرن الثامن عشر . ويكفى القرن الثامن عشر فى مصر فخرا انتاج هـذين العملين الذى لو لم ينتج غيرهما لـكفاه ذلك .

كذلك اتجه الزبيدى الى التأليف فى التصوف محاكيا بذلك استاذه الشيخ عبد الرحمن العيدروس . ويعتبر الزبيدى من أكثر علماء مصر فى القرن الثامن عشر تأليفا فى هذا المجال (٧٥) ومن أشهر مؤلفات الزبيدى فى التصوف ، شرح كتاب « احياء علوم الدين » للغزالى . الـذى طبع مرات عديدة فى مصر تحت عنوان « اتحاف السادة المتقين لشرح أسرار احيـاء علوم الدين » .

ويقع هذا الشرح فى عشرة أجزاء ، قضى الزبيدى فى تأليفها احد عشر عاما ، فقد بدأ فى تأليفه فى عام ١١٩٠هـ / ١٧٧٦م بعد انتهاء شرحه للقاموس بعامين ، وانتهى منه فى عام ١٢٠١هـ / ١٧٨٧م (٧٦) .

وكان للزبيدى اهتمام خاص بعلم التراجم ، يتضح هذا من مقدمتـه لشرح « احياء علوم الدين » للغزالى فقد ترجم فيها للامام الغزالى ترجمة مستفيضة اشتملت على ٢١ فصلا وخاتمة ، استغرقت معظم الجزء الأول من هذا الشرح (٧٧) فقد دلت هذه الترجمة على أن الزبيدى كان من رواد مدرسة التراجم فى مصر فى القرن الثامن عشر .

---

(٧٣) الجبرتى ، المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

(٧٤) رسالة الزبيدى الى السيد سليمان بن يحيى ، أنظر ، صديق خان ، أبجد العلوم ، ص ٧١٧ .

(٧٥) عن مؤلفات الزبيدى فى التصوف ، أنظر عبد الله محمد عزباوى ، المصـدر السابق ، ص ١٦٥ .

(٧٦) محمد مرتضى الزبيدى ، اتحاف السـادة المتقين بشرح أسرار احياء علوم الدين ج١ ، ص٢ القاهرة ، بدون تاريخ .

(٧٧) المصـدر السـابق .

وقد الف الزبيدى كتابا فى تراجم المصريين فى القرن « الثانى عشر الهجرى » الثامن عشر الميلادى وهو « المعجم المختص » (٧٨) ذكر فيه شيوخه ومن أخذ عنه ومن ساجله أو جالسه ، وان كان أغلب من ترجم لهم من غير المصريين أو ممن ليس لهم شهرة كبيرة ، كما أنه أهمل فى هذا الكتاب ترجمة من يستحق أن يترجم لهم من كبار العلماء والعظماء وغيرهم (٧٩) . ولعل هذا يرجع الى أن الزبيدى لم يقم بمصر فترة كبيرة بحيث يستطيع أن يدرك دخائل الحياة المصرية .

وكان الزبيدى هو والشيخ محمد المرادى مفتى دمشق وراء تأليف الجبرتى لكتابه الشهير « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ذلك أن الشيخ المرادى كان مهتما بجمع تراجم أعيان القرن الثانى عشر الهجرى « الثامن عشر الميلادى » وراسل من أجل ذلك علماء البلاد الأخرىيلتمس منهم أن يمدوه بتراجم العلماء والأعيان فى بلادهم ولذا فقد راسل الزبيدى من أجل هذا الغرض . ولما كان الزبيدى يمنيا لم تتأصل مصريته بعد ولم يستبطن دخائل الحياة المصرية وعاداتها ونزعاتها ، فقد رأى أن يختار عالما مصريا عليما ببواطن الأمور فى مصر ، وقد وجد ضالته فى تلميذه عبد الرحمن الجبرتى لتوفر هذه الشروط لديه ، فهو من بيت علم ووالده الشيخ حسن الجبرتى على صلة برجال مصر من أمراء وعلماء وأعيان ، بالاضافة الى اطلاعه على تسلسل الأسر ومعرفته بما بينها من أواصر ودوافع ومصالح ومنافع وضغائن ، وربما يكون الزبيدى قد لاحظ اهتمام تلميذه عبد الرحمن بقراءة التاريخ والتراجم وميله لهذا النوع من التأليف. ولذا فقد فاتح الزبيدى تلميذه فى الأمر وطلب اليه أن يجمع هذه التراجم دون أن يذكر له الهدف من وراء ذلك ، واستجاب الجبرتى برغبةشيخه وبدأ فى جمع تراجمه (٨٠) . وان أدرك السبب بعد وفاة شيخه .

هذا عن علماء اليمن الذين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر أو استقروا بها فى ذلك القرن أما عن العلماء المصريين فلا نعرف أحدا منهم قد زار اليمن فى ذلك الوقت .

---

(٧٨) لم نعثر على هذا المعجم وربما يكون قد فقد .
(٧٩) الجبرتى ، المصدر السابق ، ص ٢٣٤ .
(٨٠) المصدر السابق نفس الصفحة .

وهكذا على الرغم من تلك العلاقات الثقافية المحدودة بين مصر واليمن فى القرن الثامن عشر ، فانها قد تركت آثارها على الحياة الفكرية فى مصر بذلك الوقت وخاصة فى علم الحديث والتصوف . وقد لعب علماء اليمن الذين زاروا مصر أو استقروا بها دور الوسيط فى نقل الأفكار والتيارات الفكرية السائدة فى الهند الى مصر ، فقد رأينا كيف أن الشيخ العيدروس كان واسطة فى نقل مذهب وحدة الوجود ، فى التصوف والذى كان سائدا فى الهند فى ذلك الوقت الى مصر . وكيف أن الشيخ الزبيدى كان واسطة أيضا فى نقل الاتجاهات التجديدية التى تهدف الى تجديد الفكر الاسلامى والتى كان يتزعمها شاه ولى الله دهلوى الى مصر .

ثالثا : علاقات مصر الثقافية مع السودان :

والمقصود بالسودان هنا هو السودان (الجغرافى) الذى يمتد الى الشمال من خط الاستواء على شكل نطاق من الحشائش ، وينحصر بين الصحراء الكبرى فى الشمال والغابات الاستوائية الكثيفة فى الجنوب ، وتحده مرتفعات الحبشة شرقا ، ومياه المحيط الأطلسى غربا .

وكانت العلاقات الثقافية بين مصر والسودان فى القرن الثامن عشر تكاد تكون من جانب العلماء السودانيين فقط ، الذين كانوا يزورون مصر للاخذ عن علمائها ، فلم تدلنا المصادر عن عالم مصرى زار السودان فى القرن الثامن عشر .

وكان لطلبة السودان رواق خاص بهم فى الأزهر ، هو رواق الدكارنة لم يسكنه الا القليل من المجاورين . وكذلك كان هناك رواق السنارية بالأزهر (٨١) .

ومن علماء السودان الدين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر ، الشيخ محمد الفلانى الكشناوى ت ١١٥٤هـ / ١٧٤١ م (٨٢) . الذى نشأ فى بلاده وأخذ عن علمائها ، مثل الشيخ محمد بندو الذى أخذ عنه علم

---

(٨١) على مبارك ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٢٤ .

(٨٢) هو الشيخ محمد بن محمد الفلانى الكشناتى الدانراتكوى السودانى المالكى ، أنظر الجبرتى ص ١٥٩ .

الحروف والأوفاق ، والعلوم السرية بأنواعها الوقفية والحرفية كما درس عليه أيضا علم الحساب والميقات والمعاني والبيان والمنطق .

وقد حج الشيخ محمد الفـلاني في عام ١١٤٢هـ / ١٧٢٩م وجاور بمكة ثم رحل الى مصر وأقام بها ، وكان ينزل بمنزل الشيخ حسن الجبرتي عالم الرياضيات ، وقد أخذ عنه الشيخ حسن الجبرتي علم الأوفاق وعلم الـكسر والبسط الحرفي والعددية . وقد جعل الشيخ الكشناوي الشيخ حسن الجبرتي وصيا على تركته . وعندما مات دفنه الشيخ حسن الجبرتي ببستان العلماء وكتب اسمه وتاريخه على قبره .

وقد الف الشيخ الـكشناوي عـدة مؤلفات في علوم الحروف والأوفاق والطلاسم ، مثل « الدر المنظوم وخلاصة السر المكتوم » في علم الطلاسم والنجوم و « بهجة الآفاق وايضـاح اللبس والأخلاق » في علم الحروف والأوفاق وشرح كتاب « الدر والترياق في علم الأوفاق » .

كذلك الف الشيخ الـكشناوي منظـومة في علم المنطق هي « منح القـدوس » ثم شرحها وسمى الشرح « ازالة العبوس عن وجـه منح القدوس » وله أيضا رحلة تتضمن ما حصل له في تنقلاته (٨٣) .

ومن علماء السودان الذين زاروا مصر في القرن الثـامن عشر ، الشيخ صالح الفلاني ت ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م (٨٤) الفقيه الأصولي المحدث الحافظ ، الذي ولد بالسودان ونشأ به وأخذ عن علمائه . وقد زار مصر مع غيرها من الدول الأخرى مثـل مراكش وتونس والحجاز (٨٥) .

ويلاحظ مما سبق أن أثر زيارة العلمـاء السودانيين الى مصر في

---

(٨٣) المصدر السابق ، ص ١٥٩ — ١٦٠ ، عبد الحي الـكتاني ، فهرس الفهارس ، جـ٢ ، ص ٣٦١—٣٦٢ ، اسماعيل البغدادي ، هـدية العارفين ، جـ٢ ، ص٣٢٥ ، ايضاح المـكنون ، جـ ١ ، ص ٦٥ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٤٥٢ ، جـ ٢ ، ص ٥٧٧ .

(٨٤) هو الشيخ صالح بن محمد بن نوح بن عبد الله بن عمر العمري المالكي المشهور بالفلاني ، نسبة الى قبيلة بالسودان ، انظر عمر رضـا كحالة ، معجم المؤلفين ، جـ ٥ ، ص١٢ .

(٨٥) المصـدر السابق ، نفس الصفحة .

القرن الثامن عشر كان بارزا فى علوم السحر والطلاسم والنجوم والأسرار والرمل والحروف والأوفاق التى كانت تعرف باسم « العلوم الغريبة » فقد رأينا كيف تتلمذ الشيخ حسن الجبرتى على الشيخ الكشناوى السودانى فى هذه العلوم . وكيف أن الشيخ الكشناوى قد ألف عددا لا بأس من المؤلفات فى هذه العلوم .

رابعا : علاقات مصر الثقافية مع بلاد الجبرت :

وكان يطلق هذا الاسم على سكان ايفات من المسلمين « من أعمال شوة » من بلاد الحبشة ، وان كان يطلق الآن على كافة مسلمى الحبشة . وينسب الى جبرت ويقال جبرتى . ولا يختلف الجبرتية عن بقية الحبش فى الزى واللغة ، فهم يتحدثون اللهجات المحلية ، لكنهم يستعملون اللغة العربية فى مدارسهم ، لفهم القرآن والكتب الدينية (٨٦) .

وهم يتبعون المذهبين الحنفى والشافعى ، ويغلب عليهم التقشف والصلاح (٨٧) .

وكان للجبرت رواق خاص بهم فى الأزهر ، كان أهله قليلين (٨٨) . وينتمى للجبرت أسرة الجبرتى الشهيرة التى خرج منها كل من الشيخ حسن الجبرتى ، وولده الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ الشهير .

وقد جاء الشيخ عبد الرحمن الجبرتى وهو الجد السابع لمؤرخنا عبد الرحمن الجبرتى الى مصر فى أوائل القرن « العاشر الهجرى » السادس عشر الميلادى بعد أن حج وجاور بمكة والمدينة .

وقد جاور الشيخ عبد الرحمن ـ مؤسس أسرة الجبرتى بمصر ـ بالأزهر ، والتحق برواق الجبرت . ثم أصبح شيخا على الرواق . وقد استمرت وظيفة مشيخة رواق الجبرت فى أسرته ، فقد تولاها من بعده

---

(٨٦) دائرة المعارف الاسلامية ، ج٦ ، ص ٢٧٨ ، مادة جبرت .

(٨٧) الجبرتى ، ج١ ، ص٣٨٥ .

(٨٨) على مبارك ، المصدر السابق ، ص ٢٤ .

ابنه شمس الدين محمد الذى قام بالتدريس به (٨٩) . وفى الثامن عشر نجد الشيخ حسن الجبرتى شيخا على هذا الرواق (٩٠) .

وقد لعبت أسرة الجبرتى دورا ملموسا فى الحياة الفكرية فى مصر فى العصر العثمانى وخاصة فى القرن الثامن عشر ، وقد أصبحت فى هذا القرن أسرة مصرية صميمة .

* * *

وهكذا نرى أن مصر فى القرن الثامن عشر كانت من أهم المراكز الثقافية فى حوض البحر الأحمر ، كما كانت هناك مراكز أخرى تنافسها مثل الحرمين « مكة والمدينة » والمراكز الاسلامية فى الهند بالرغم من عدم وقوعها فى حوض البحر الأحمر الا أنها كانت مركزا ثقافيا هاما كان له تأثيره الواضح على بلدان البحر الأحمر وخاصة اليمن .

وقد أدت علاقات مصر الثقافية مع جيرانها من دول البحر الأحمر الى نشر الثقافة المصرية بين هذه البلاد ، والى تأثر مصر بالتيارات الفكرية السائدة فى هذه الدول .

وهكذا نستطيع القول أن البحر الأحمر فى القرن الثامن عشر نتيجة لهذه العلاقات الثقافية المتبادلة بين بلدانه — ، كانت تسوده ثقافة واحدة ، هى الثقافة الاسلامية .

---

(٨٩) الجبرتى ، جا ، ص ٣٨٨ .

(٩٠) المصدر السابق ، ص ٣ .

القسم الرابع

البحر الأحمر فى التاريخ الحديث

١٦

سياسة مصر واستراتيجيتها فى البحر الأحمر

على عهد الحملة الفرنسية ومحمد على

للأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم
مدير الجامعة سابقا
والأستاذ غير المتفرغ بكلية الآداب

لم تكن ظروف العصر العثمانى مهيأة لقيام نشاط تجارى كبير فى البحر الأحمر ذلك أن الدولة العثمانية بعد أن وقفت حركة التوسع والفتوحات التى قامت بها في القرن السادس عشر — استطاعت أن تؤمن البحر الأحمر من التوغل البرتغالى ، وان كانت لم تستطع أن تحطم المشروعات البرتغالية فى البحار الشرقية الرامية الى مطاردة تجارة المسلمين واحتكارها للبرتغاليين ، وتركت هذه المهمة لدول أوربية أخرى. بعد هذا رأت الدولة العثمانية — تأمينا لسلامة البحر الأحمر من التوغل الأوربى أن تأخذ بسياسة قفل المنافذ ، بالعمل على منع السفن الأوربية من اختراق البحر الأحمر وفى الوقت نفسه تمنع حكام البلاد الواقعةتحت نفوذها من أن يدخلوا فى علاقات مع دول خارجية وأن يمنعوا — بصفة عامة — التجارة والتجار الأوربيين من استخدام هذا الطريق الحيوى الهام .

وقد كان لتهديد البرتغاليين جده ومطامعهم فى تخريب الحرمين الشريفين ثم تهديدهم بندر السويس ، كان لهذا أثره فى اقتناع العثمانيين بعدم السماح للدول الأوربية بتسيير سفنها فى القسم الشمالى من البحر الأحمر...

وبذلك ران على البحر الأحمر نوع من الركود واطمأنت الدولة العثمانية لذلك ، اعتقادا منها أن هذه هي خير طريقة لتأمين سلامة البحر

الأحمر . وفى أحد الفرمانات التى أصدرها السلطان العثمانى لبكوات المماليك فى مصر جاءت هذه العبارة وتكاد تكون بالنص : (أنظروا مافعله الانجليز فى الهند حين نزلوا فيهـا فى أول الأمر كتجـار ، ثم مالبثوا أن تحولوا الى مستعمرين وحكام) بالاضافة الى أن اضطراب الأمن فى مصر فى القرن ١٨ م كان يحول دون اقدام التجار على التوغل بسفنهم فى البحر الأحمر أو نقل متاجرهم عن هذا الطريق حتى ميناء السويس ، فظلوا يبحرون حتى مخا ثغر اليمن ، أو جده ثغر الحجاز . وظل الوضع على هذا النحو رغم المحاولات التى جرت فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر اذ عقد بعض أمراء المماليك معاهدات مع شركة الهند الشرقية أشهرها معاهدة هيستنجز — أبو الذهب لتشجيع السفن التجارية الآتية من الهند للوصول حتى موانى البحر الأحمر : القصير أو السويس ، ولـكن لم تفلح هذه المشروعات — بصفة عامة — لفتح هذا الطريق بسبب معارضة الدولة العثمانية واضطراب الأمن ، واعتماد الانجليز — بصفة خاصة — وقد أصبحوا فى أواخر ق ١٨ بعد انتصارهم على فرنسا أصحاب النفوذ فى المحيط الهندى والبحار الشرقية وفى الهند — على الطريق البحرى المباشر بين الشرق والغرب ، وهو طريق رأس الرجاء الصالح .

غير أن فرنسا لم تقطع الأمل : ففى أكتوبر ١٧٩٥ أوفدت الى القاهرة Dubois - Thanville ليسعى لدى الأمراء المماليك للاذن بقيام تجارة منظمة بين الهند والسويس . وقيل ان الفرنسيين كانوا يفكرون كذلك فى أن يطلبوا الترخيص بمرور جيش فرنسى من مصر الى الهند لمساعدة تبو صاحب سلطان ميسور ، الثائر على الحكم البريطانى ، وبعد ثلاث سنوات من هذه البعثة ، اتيح لفرنسا أن تشرف بنفسها على تحقيق أغراضها .

ففى جميع المشروعات التى قدمت الى الحكومة الفرنسية لفتح مصر ، تظهر أهمية البحر الأحمر كطريق عام للتجارة الشرقية ، يستطيع أن ينافس طريق الرأس الذى تحتكره أنجلترا منافسة ناجحة ، وكطريق تستطيع فرنسا أن تنفذ منه الى الهند فتديل من الحكم البريطانى وتبسط نفوذ فرنسا فى الشرق . ثم يعمل — الفرنسيون — حين يصبح البحر الأحمر تحت سيادتهم — على تيسير النقل فيه ، بتنفيذ المشروع الذى طالما استهوى الباب المشتغلين بمسائل التجارة الشرقية والاستعمار

الشرق : وهو مشروع شق قنـــاة بين البحرين الأحمر والمتوسط . وقـــد حشد له بونابرت الجهود ، فكون لجنة على رأسها المهندس لوبير Lepère وعهد اليها بدراسة المشروع ، وأنفذها عدة مرات الى سواحل البحرين وما بينهما من برزخ . وقد وجد بونابرت — على كثرة مشاغله — من وقته متسعا ليصحب اللجنة فى بعض جولاتها . واستغرقت أعمال البحث عام ١٧٩٩ ماعدا بضعة أشهر منه . وقد وضع « لوبير » تصميما لحفر ترعة من السويس الى البحيرات المرة ، ثم يعاد حفر الخليج القـــديم المعروف بخليج أمير المؤمنين الى أن يلتقى ببحر مويس بقرب تل بسطة من أعمـــال الشرقية ، ومن بحر مويس تمتد الترعة حتى فرع دمياط ومنه الى فرع رشيد ثم الى الاسكندرية بواسطة ترعة الاسكندرية .

كما أن « لوبير » وضع مشروعا آخر يعد جديدا لأنه يختلف عن الترع القديمة التى كانت تربط البحرين بوساطة فرع النيل الشرقى : وهو مشروع وصل البحرين رأسا ، وذلك بحفر ترعة تخترق برزخ السويس فيما بين بيلوز (مكان بورسعيد الحالية) على البحر المتوسط ، والسويس على رأس خليج السويس . غير أن تقديراته انتهت به الى تأييد فكرة خاطئة، وهى أن البحر الأحمر يعلو على سطح البحر المتوسط بنحو تسعة أمتـــار (٣٢٫٥ قدما) لهذا خيف اذا حفرت القنـــاة أن تغرق مياه البحر الأحمر أرض الدلتا والحق أن الوقت لم يتسع للفرنسيين فى مصر لاصلاح هـــذا التقدير الذى ظل مسلما به حتى أصلحه المهندسون فى عهد محمد على .

ولقد كان طبيعيا أن يحتل البحر الأحمر جانبـــا كبيرا من اهتمـــام الفرنسيين ، وخاصة بعد أن فرض عليهم الانجليز حصارا من جهة البحر المتوسط ليحولوا بينهم وبين الاتصـــال بالوطن الأم فلم يكن أمامهم بذلك لمحـــاولة الانطـــلاق من مصر سوى طريقين : طريق الشـــام فى اتجـــاه القسطنطينية ، وطريق البحر الأحمر فى اتجاه الهند . واذا كان الجيش الفرنسى الزاحف الى بلاد الشام قد استعصى عليه فتح عكا ثم ارتد الى مصر ، فكذلك كان طريق البحر الأحمر : أرسل بونابرت عدة رسائل الى بعض أمراء العرب فى الحجاز ومسقط وغيرهما للتبشير بنفوذ فرنســـا والتمهيد لمـــا قيل عن استعداد حملة فرنسية كبيرة للخروج لغزو الهند .

ولـكن هذا كله لم يفلح الا فى اثارة اهتمام البحرية الانجليزية الهندية بالبحار الشرقية وسعيها الى الاستيلاء على المنافذ الجنوبية للبحر الأحمر لقفل الطريق أمام أى محاولة فرنسية كما أنهم عقدوا معاهـدة صـداقة وتجـارة مع أمير لحج ليسـبقوا الفرنسيين الى بسط نفوذهم فى هـذه المنـاطق العربيـة .

أما الانجليز فلم يحفلوا كثيرا بالأثر الذى قد يكون لوجود الفرنسيين بمصر على تجارة الشرق طالما بقى فى أيديهم طريق الرأس وتحولت متاجرهم القليلة التى كانت تتردد من وقت الى آخر على السويس الى الطريق البرى الآخر عبر سوريا وأرض الجزيرة ثم الخليج (العربى) والهنـد ولـكن الانجليز — مع هذا — أدركوا الخطر من محاولة الفرنسيين الاتصال بالهند فتراهم يعملون ليحولوا دون وصول قوة حربية فرنسية الى الهند عن طريق البحر الأحمر ، باحتلال بريم وعدن عند مدخل البحر الأحمر كما أنهم يرسلون من الهند الى البحر الأحمر والقصير قوة برية وبحرية للاشتراك مع القوات البريطانية التى نزلت من البحر المتوسط لاخراج الفرنسيين من مصر .

وعلى الرغم من أن الحمـلة التى جاءت عن طريق البحر الأحمر لم تشترك فعلا فى القتال ، الا أن ارسالها من الهند عن هذا الطريق أمر له دلالته ، اذ يظهر الارتبـاط الذى بدأ يوجد بين مصر والممتلكات البريطانية فى الشرق عن طريق البحر الأحمر . وظل هـذا الارتبـاط من القواعد الجوهرية فى سياسة بريطانيا فى الشرق وقد زاده قوة شق قناة السويس

* * *

ولأجل أن نفهم سياسة مصر واسـتراتيجيتها فى البحر الأحمر فى عصر محمد على ، يجب أن نربط بين هذه السياسة وسياسـة محمد على العـامة وفى وصل ما بين مصر والعالم الخارجى ، فقـد كانت سياسة محمد على مخالفة تماما لسياسة الدولة العثمانية فى القرن الثامن عشر ، فرأى أن خير ما يفعله لتنمية مصر ووضـعها فى مركزها اللائق بها فى المنطقة وفى البحر المتوسط وفى العالم ، أن يفتح الطرق والمسالك ما بينها وبين العالم الخارجى ، ليس فقط فى الأمور الاقتصادية ، وانما ـ أيضا ـ فى الشئون الثقافية وغيرها . ولهذا كون البحر الأحمر جانبا كبيرا وهاما فى سياسة مصر الانفتاحية فى عصر محمد على . واعتقد أن محمد على

اطلع على المعاهدات التيكانت قد عقدت بين بعض الأمراء المصريين — فى أواخر القرن الثامن شر — وبين بعض الحكام الانجليز فى الهنــد وهى المعاهدات التى شجعت على ارسال سفن الى السويس وموانى البحر الأحمر ، وعلم بما كان من أمر بعض هذه السفن التى حال اضطراب الأمن والسياسة الانعزالية للدولة العثمانية دون ارتيادها هذا الطريق .

ولكن فى عصر محمد على وقد عم الأمن من ناحية ، وتبدلت سياسة الدولة من ناحية أخرى ، فقــد كان من المنتظر أن يفتح هــذا الطريق . وبالفعل عمل محمد على على تشجيع استخدام طريق البحر الأحمر لتجارة الشرق والغرب فعقد اتفاقات مع شركة الهند الشرقية ، وشجعهم على ارسال البضائع والمسافرين الى السويس .

ومما ساعد على رواج هذا المشروع الكبير أن البخار كان قــد بدأ يستخدم فى تسيير السفن فى السنوات الأولى من القرن الماضى ، وبذلك أمكن بنــاء سفن ضخمة ونشطت حركة النقل . وكان طبيعيا أن يتجه الجهد أولا الى استخدام السفن البخارية فى الطريق (البريطانى) طريق الرأس . ففى ١٦ اغسطس ١٨٢٥ اقلعت الباخرة Enterprize من انجلترا فوصلت كلكتا بعد ١١٣ يوما ، وعلى الرغم من طول الرحلة ومشقتها فقد أصرت شركة الهند الشرقية على استخدام هذا الطريق . ولــكن حكومة بومباى كانت ترى أن المستقبل لطريق البحر الأحمر ، فعملت على اقامة مخازن فى موانيه : عدن وجدة والقصير والسويس ، لتتزود منها السفن التجارية بحاجتها من الوقود . وكانت مخاطر الرحلة فى مصر قد زالت بفضل محمد على الذى ضرب على أيدى العابثين بالأمن من البدو وغيرهم ، وشجع على أن تأتى الى الموانى والأرض المصرية تجــارة الشرق فيصــيب منها الايراد ويكسب تقدير الدوائر البريطانية .

ولم يثبط من عزيمة حكومة بومباى اخفاق أول سفينة بخــارية فى اكمال الرحلة الى السويس ، فبنت سفينة جديدة ودعتها Hugh Lindsay واقلعت من بومباى فى ٢٠ مارس ١٨٣٠ فوصلت السويس بسلام فى ٢٢ أبريل ، فكانت بذلك أول سفينة بخارية تجتــاز البحر الأحمر . وشجع نجاح الرحلة على الرغم من تكاليفها الباهظة — حكومة الهنــد على أن تواصل ارسال سفن بخارية الى السويس فى فترات متقطعة ، وادخلت

تحسينات عدة على بناء السفن . وبذل توماس وجهورن التاجر البريطاني الذى أقام مدة طويلة بالقاهرة — جهده في انجلترا لانشاء خط منتظم للملاحة البخارية بين انجلترا والهند عن طريق البحر الأحمر . وأثمرت هذه الجهود ثمرها ، فأرسلت البعثات لبحث سواحل البحر الأحمر والكشف عما كان مجهولا منها ، ووضعت خرائط مفصلة لها ، وأقيمت المخازن للفحم ، ودخل الانجليز فى مفاوضات مع الأمراء الوطنيين على سواحل بلاد العرب ، واحتلوا سقطرة فى عام ١٨٣٥ ، ثم عدن فى يناير ١٨٣٩ ، ونظمت رحلات شهرية بين الهند والسويس .

وفى مصر ، نظم وجهورن قوافل من الابل للخدمة بانتظام بين السويس والقاهرة . وقد لقى فى القاهرة منافسين له من بنى جلدته هما : Ravin & Hill اللذين اقاما فى القاهرة وبنيا فيها فندقا لنزول المسافرين ، وتعهدا بنقل الركاب ومتاعهم بين القاهرة والسويس فى عربات خاصة بالمسافرين وأخرى بالبضائع ، وشرعا فى انشاء فندق بالسويس ، وساهمت معهما لجنة للملاحة البخارية فى بومباى فى اقامة خمسة منازل للمسافرين فى الصحراء بين القاهرة والسويس أحدهما كبير فى وسط الطريق به فندق ومحلات للخدم واسطبل .. الخ (١) . وقدر أن يقطع المسافر الطريق من السويس الى القاهرة فى أربع وعشرين ساعة منها عشرون ساعة فى السفر . وتوالت التحسينات فمد خط للتلغراف فى الصحراء ، وتم حفر ترعة المحمودية لتسير فيها سفن شراعية وبخارية بين فرع رشيد وميناء الاسكندرية ، وتكونت شركة

Peninsular & Oriental Steam Navigation Company.

ومنحت فى عام ١٨٤١ حق استخدام سفنها فى النيل والمحمودية . وتضافر تقدم الآلات البخارية وفن بناء السفن على تحسين وسائل الراحة للمسافرين وتقصير الشقة لهم . وقد أريد أن تتوج هذه التسهيلات بانشاء خط حديدى من الاسكندرية الى السويس مارا بالقاهرة . وعرض المشروع

---

(١) ومن أشهر الفنادق التى انشئت فى القاهرة فى ذلك الوقت مرتبطة باستخدام الطريق الجديد الفندق الذى أقامه المواطن الانجليزى شبرد وعرف باسمه ، وكان فى الأصل قصرا لمحمد بك الألفى يقع أمام بركة الأزبكية ، ثم توالت عليه تعديلات كثيرة ، والتهمه حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، ثم أقيم الفندق الجديد بالاسم القديم أمام النيل .

على محمد على فعهد بدراسته الى مهندس انجليزى فى خدمته يدعى جلوى بك Galloway وأراد محمد على أن يطمئن الى أن هذا المشروع لن يتخذ يوما ضد مصر ، كما أنه أراد أن يستوثق من ايراده قبل الشروع فى انشائه . وانقضت عشرون سنة قبل أن يتاح للمشروع أن يتحقق فى عهد عباس ثم سعيد .

قلق محمد على لترك هذا النشاط التجارى فى داخل بلاده لهيئات أجنبية تحتكر الربح من ناحية وقد تستخدم وجودها لخدمة أغراض أخرى لا تمت الى التجارة والنقل من ناحية أخرى فعمل — تحقيقا لخطته العامة فى اشراف الدولة على جميع مرافق البلاد عمال على أن تشرف الحكومة المصرية على هذا النشاط ، وقد تم هذا على مراحل : بدأ بتكوين شركة النقل المصرية Egyptien Transit Co. وعلى رأسها انجليزيان ، وقد اشترت شركة هل وشركاه فى سنة ١٨٢٣ ، وبعد ثلاث سنوات صفيت أعمال هذه الشركة بدورها وأصبحت مسائل النقل فى داخل البلاد من من أختصاص الحكومة المصرية وحدها فأنشىء لتنظيمها والاشراف عليها « مصلحة المرور » أو « الامرارية » .

أما محمد على ، فقد عمل على تبديد مخاوف الانجليز بشأن قفل الطريق البرى المصرى وكسب ودهم فى العراك السياسى القائم ، فظل يشجع النقل فيه . وبينما كان الأسطول الانجليزى يضرب عكا ، كان محمد على يحادث ممثلى شركة P. & O. S. N. Co. ويعدهم بكل التسهيلات فى مصر ، وكان من أثر هذه الرعاية أن اضطرد نجاح الطريق : ففى السنة الأولى لافتتاحه بصفة منتظمة (فى سنة ١٨٣٩) اجتازه ٢٧٥ مسافرا زادوا الى ٢١٠٠ فى سنة ١٨٤٥ ثم الى أكثر من ٣٠٠٠ فى سنة ١٨٤٨ . وأشاد المسافرون بما يلقونه فى مصر من رعاية وأمن حتى آثر كثيرون منهم أن يتخلفوا بمصر للسياحة فى نيلها ومشاهدة آثارها . وقد قدر الانجليز لمحمد على موقفه فى رعاية التجارة الانجليزية فى سنى الحرب بين مصر والدولة العثمانية على الرغم من أن انجلترا انحازت الى الدولة العثمانية وعبروا عن تقديرهم فى ميدالية باسمه ورسمه أهدوها اليه .

والواقع أن محمد على كان يعمل باستمرار على اقناع انجلترا بأنه عامل حضارى فى هذه المنطقة من العالم ، وانه يحسن بها أن تعتمد عليه

لا أن تحاربه ، ولـــكن الحكومة البريطانية لم تشأ أن تساير محمد على في هذه الفكرة ، ففضلت أن تعتمد على وسائلها الخاصة على أن تعتمد على حكام شرقيين من نوع محمد على لأنها تعتقـــد أن مثل هؤلاء الحكام — مهما طال بهم الزمن — فأمرهم الى زوال ، فضـــلا عن أن الحكومة البريطانية لم تكن ترى فى (اصـــلاحات) محمد على فى مصر الا ارهاقا وتضييعا لمصالح الشعب المصرى ، هـــذا الى أن مشروعاته فى انشـــاء الصناعة الحديثة فى مصر كان يخشى أن تتطور الى منافسة الصـــادرات البريطانية الى مصر وسائر أملاك محمد على ، ويمكن أن يقال هذا أيضا عن مشروعات محمد على السياسية التى حاول أن يقنع انجلترا باستعداده لوضعها فى خدمة السياسة البريطانية . وكان دائما يقول : ان السياسة البريطانية لو وضعت يدها فى يده لفعلا الأعاجيب . ولكن انجلترا كانت — كما قلنا — تفضل استخدام وسائلها وقوتها الخاصة ، حتى لا تضطر الى أن تنزل لمحمد على عن شىء . وعلى العكس قاومت انجلترا سياسة محمد على التوسعية كما قاومت سياسته (الاحتكارية) متحالفة مع الدولة العثمانية وبروسيا وروسيا والنمسا حتى استطاعت فى معاهـــدة لنـــدن ١٨٤٠ أن تحصر قوته وتحددها — فى داخل مصر نفسها . كما عقـــدت معاهدة تجارية دولية (معاهدة بالطة ليمان) مهدت بها للقضاء على سياسة الاحتكار التى اتبعها محمد على فى مصر وسائر ممتلكاته .

واتماما لمشروعات محمد على فى احياء تجارة البحر الأحمر كان لابد له أن يعمل فى سبيل تنفيذ هذا المشروع القديم الحديث معا ، مشروع وصل مابين البحرين المتوسط والأحمر سواء كان وصلا مباشرا عبر برزخ السويس أو وصلا غير مباشر عن طريق النيل وترعه حتى الاسكندرية .

وعرض على محمد على مشروع قدمه اليه فى سنة ١٨٢٥ جالوى بك ويتلخص فى حفر قناة تصل النيل بالبحر الأحمر فتخترق بذلك شرقى الدلتا وقد وجد جالوى من محمد على ميلا الى قبول الفكرة ، ولكنه أخفق فى تكوين شركة لتنفيذها ، ومن المشروعات التى قدمت لمحمد على مشروع انشاء الخط الحديدى وبقيت هـــذه المشروعات معلقـــة حتى تمت تسوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ ، وأتيح لمحمد على أن ينصرف بعدها الى ماكانت تصرفه عنه مشاغل الحرب والسياسة ، ونشـــطت الجهود لحمل البـــاشا على

الموافقة على مشروع حفر القناة بين البحرين ، ولـكن الحكومة الانجليزية عارضت هذا المشروع معارضة قوية ، لمـا قد يؤدى وقوعهـا فى أيدى دولة أوربية أخرى من الأضرار بتجارتها ونفوذها فى الشرق ، فيحملها هذا على القيـام بعمل لم تكن اذ ذاك مستعدة لتقوم به وهو احتلال مصر .
وكانت المعارضة الانجليزية مما يحسب له محمد على الحسـاب ، فقـد خبر مدى قوة انجلترا وتفوقها البحرى . وخشى محمد على ماقـد يجره تنفيذ هذا المشروع من مشكلات سياسـية ، ومن أن تصبح مصر طريقا للدول ومحلا لأطماعها . ومع هذا فانه لم يقطع برأى حتى يستبين الأمر من الناحية الفنية ، ففى سنة ١٨٤٧ عينت لجنة دولية شبه رسمية لفحص المشروع ومن الجدير بالذكر أن بعض المهندسين المصريين ممن درسوا فى المدارس التى أنشأها محمد على فى مصر وأتموا دراستهم فى أوربا ، كان لهم باع طويل فى هذا المجال ، اشتركوا فى اللجنة ، وقد اتفق الأعضاء على اصـلاح تقرير مهندسى الحملة الفرنسية وأن مسألة ارتفاع مستوى أحد البحرين عن الآخر غير صحيحة ، ولـكنهم اختلفوا على امكان حفر القنـاة لأسباب أخرى فنيـة وكان حامل لواء المعارضة المهندس الانجليزى روبرت ستيفنسن صاحب مشروع الخط الحديدى .

هذا من الناحية التجارية ، أما من ناحية التوسع وناحية التـأمين فاننا لاننسى أن عصر محمد على كان عصر التوسع الأوربى ، وكان عصر محمد على هو العصر الذى بدأت فيه مصر تعمل على مدافعـة الاستعمار الأوربى عن هذه المناطق ، وقد شاهد البحر الأحمر نشاطا حربيا مصريا بدأ فى سنة ١٨١١ ، حين أبحر طوسون على ظهر السفن التى صـنعت أجزاؤها فى بولاق ونقلت مفككة على ظهور الابل الى السويس واستولى المصريون على ساحل البحر الأحمر الشرقى وما يليـه من أرض الحجاز ونجد حتى الخليج العربى وكذلك استولوا على أكثر أجزاء اليمن ثم استولوا على الشام وجزء من أرض الجزيرة ، وبذلك أصبح محمد على متحكما فى كلا الطريقين البريين الى الشرق ، وقد أثار هذا التوسع ارتباكات سياسية دولية ، شرع الانجليز يقاومون التوسع المصرى فى بلاد العـرب وانذار المصريين بالابتعاد عن مناطق الخليج العربى والغاء المعاهدة التى عقدوها مع شيخ البحرين وكذلك ايقاف التوسع المصرى على ساحل البحر الأحمر الشرقى باحتلال عدن وتحصينها سنة ١٨٣٩ . وهكذا أصـبح الأمر فى

الخليج وجنوب البحر الأحمر نوعا من السباق بين القوتين المصرية والانجليزية ، فازت فيه القوة الانجليزية معتمدة — قبل كل شيء على بحريتها فى تلك الأنحاء . وذهبت سدى صرخات الأهالى العرب فى أطراف الجزيرة العربية الى محمد على يناشدونه الاسراع فى انقاذهم من الخطر البريطانى .

هذا فى الوقت الذى كانت فيه مصر قد استولت على الساحل الغربى للبحر الأحمر (ساحل السودان) ودخلت موانى السودان الهامة فى حوزة مصر ، وأهمها سواكن ومصوع . الى جانب استيلائها على الأقاليم الداخلية بالسودان وهكذا ورثت مصر فى النصف الأول من ق ١٩ النفوذ العثمانى القديم الذى حاولت الدولة العثمانية أن تبسطه فى تلك الأنحاء وتحولت ولاية الحبش العثمانيـة الى حكم مصرى قوى قائم فى البحر الأحمر ، سواء على شاطئه الاسيوى أو شاطئه الأفريقى ، انطلاقا الى مد النفوذ المصرى حتى مداخل البحر الأحمر ، وما يليه من شرق أفريقيا ذلك التوسع الذى تم فى عصر الخديو اسماعيل . وكلها مناطق لم يكن اختيارها اعتباطا لمجرد التوسع ، وانما كانت ترمى الى تنفيذ سياسة كبيرة ، وهى سياسة سبق الاستعمار الأوربى الى هذه المناطق ، وتأمينها من النفوذ الأوربى .

ولكن مصر محمد على كانت ترى انجلترا أمامها فى كل مكان ، فقد انذرتها انجلترا بالابتعاد عن الحبشة وانكرت مصر أنها تكن أية نيات عدوانية نحو تلك المملكة العريقة ، وأنذرت انجلترا مصر بالابتعاد عن فتح العراق بعد استيلاء مصر على بلاد الشام والجزيرة ووقوع هذا الجزء الهام من طريق الخليج فى أيدى المصريين وبذلك يتاح لمصر محمد على السيطرة على كلا الطريقين بين الشرق والغرب طريق مصر والبحر الأحمر ، وطريق الشام — العراق والخليج (العربى) .

ومهما يكن من شيء فقد استطاعت مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر — رغم أن الظروف الدولية لم تكن مواتية لها — أن تحيل النفوذ العثمانى فى البحر الأحمر من واقع اسمى الى واقع حقيقى ، وأن تدخل تحت السيطرة المصرية الجانب الأكبر من البحر الأحمر ، واستطاعت أيضا أن تفتح هذه الآفاق للتجارة العالمية وأن تعيد لمصر مركزها كدولة بحر أحمر

ودولة بحر متوسط مرة أخرى وأن تعيـــد الى التجارة الشرقيـــة أهميتها بالاضافة الى أن محمد على لم يعن فقط باستعادة مركز مصر فى هـــذا الطريق وانما أعاد أهمية مصر كقاعدة اقتصـــادية بالتوسع فى زراعـــة المحاصيل التى تدر على البلاد النقد الأجنبى وخاصة الأنواع الحديثـــة من القطن وبذلك يربط ما بين الاقتصاد المصرى والاقتصاد العـــالمى كجزء من عملية (الانفتاح) الاقتصادى ، وبذلك تصبح مصر جزءا هاما وأســـاسيا من الاقتصاد العالمى لا غنى عنه .

وبذلك نرى أن مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر قد لعبت الدور الأول فى سياسة البحر الأحمر وفى استراتيجيته ، وأعادت هذه الأهمية التى لم تقف عند حد بل زادت بعد ذلك هذه الأهميـــة حتى وقتنا الحاضر .

١٧

التأثير الاستراتيجي والسياسي المتبادل

بين منطقتى البحر الأحمر والخليج العربى في النصف الأول من القرن التاسع عشر

للأستاذ الدكتور عبد العزيز سليمان نوار
كلية الآداب ـ جامعة عين شمس
ومدير مركز بحوث الشرق الأوسط

كشفت مجموعة الأبحاث التى قدمت الى هـذه الندوة عن الأهمية الكبيرة للبحر الأحمر فى التاريخ عبر العصـور القديمة والوسطى وحتى مطلع القرن التاسع عشر . ومنذ مجىء الحملة الفرنسية الى مصر برز الدور الخطير للبحر الأحمر سـواء على المستوى المحلى المصرى أو على المستوى العربى والاسلامى أو على المستوى العالمى من مختلف الجوانب السياسية والاقتصادية والاستراتيجية .

فلقد كان من أهداف الحمـلة الفرنسـية على مصر دراسة مشروع توصيل البحر المتوسـط بالبحر الأحمر تحقيقـا للمشروعات الامبرياليـة الفرنسية . ولقـد بعث بونابرت بعلماء فرنسا لدراسة المشروع ، وبعث برسائل الى شريف مكة الى البو سعيد حكام مسـقط بل والى ما وراء ذلك .. الى بعض الحكام فى الهند كجزء من تلك المشروعات الامبريالية ، وبذلك ارتبطت مخططـات بونابرت الامبريالية باستراتيجية التنسيق بين قواته فى مصر وبعض القوى السياسية العربية المطلة على كل من البحر الأحمر والخليج العربى .

وأدركت بعض القوى العربية المطلة على البحر الأحمر أن تقـديم المساعدة الى كفاح مصر المستميت ضـد الاستعمار الفرنسى فهبطت أرض مصر جماعات من المجاهدين ، جاء بعضهم من الجزيرة العربيـة وشاركوا المصريين فى كفاحهم .

وتمهد الطريق من بعد ذلك لارتقاء محمـــد على حكم مصر حتى توالت عليه أنباء التوسع السعودى الوهابى شرقا وغربا فى الجزيرة العربية ، حتى استولى آل سعود على الحجاز وطفقوا يهددون بقوة العراق والشام خاصة بعـــد أن فشلت جهود ولاة العراق والشام فى اخماد تلك الحركة الوهابية السعودية فاتجه السلطان العثمانى الى والى مصر محمد على ، وضغط عليه ضغطا متواليا ليرسل حملة ضـــد آل السعود . وبدا فى أول الأمر اتجـــاه الى التنسـيق بين القوى العثمانية المحيطـــة بالدولة السعودية فى العراق والشام ومصر .

وكان صاحب هــذه الدعوة الى التنسيق يوسف كنج والى دمشق وصديق محمـــد على حيث دعا الى ارسال ثلاث حملات فى وقت واحـــد من العراق والشام ومصر الى نجـــد لتوجيه ضربة نهائية للحركة الوهابية ولآل سعود . ولكن المشروع لم يتحقق .

وأصبح العبء واقعا على محمد على وحده ، وحاول استخدام الشام قاعدة لعملياته ضد آل سعود ولكن رفض السلطان العثمانى ذلك ، فقرر أن يبعث بحملته عبر البحر الأحمر من السويس الى ينبع لتسيطر قواته على الحجاز مستعيدا بذلك وضعا سياسيا طالما تكرر فى العصر الاسلامى وخاصة فى عهد الأيوبيين والمماليك .

تقدمت قوات ابراهيم باشا الى الدرعية وأسقطت الدولة السعودية الأولى ، وأصبح الطريق الى الاحساء وسواحل الخليج العربى مفتوحا أمام قوات ابراهيم . وهناك بدأ نوع من التسابق بين قوى ثلاث :

— داود باشا والى بغداد .

— شركة الهند الشرقية البريطانية المتصاعدة مصالحها فى الخليج العربى والعراق .

— حملة ابراهيم باشا .

كان ابراهيم باشا يقدر أهمية الأحساء من الجـــانب الاستراتيجى المتعلق بمهمته العسكرية الخاصة بتوجيـــه ضربة حاسمة الى الحـــركة الوهابية ومصداق ذلك أن ابراهيم باشا بعد فتح الدرعية بعث بقواته الى

الاحساء وسيطر عليها عسكريا رافعا يد رجال داود باشا عنها ، ولكنه لم يلبث سحب قواته الرئيسية منها عائدا بها الى الحجاز (١٨١٧/١٨١٨) فى الوقت الذى صعدت فيه شركة الهند الشرقية البريطانية من سياستها التسلطية على مشيخات الخليج العربى الواقعة على الساحل جنوبى الاحساء فوجهت ضربة بحرية حاسمة لتلك المشيخات وفرضت عليهم وعلى البحرين معاهدات ١٨٢٠ التى وضعت تلك المشيخات تحت الحماية البريطانية .

وكان لتلك العمليات البحرية فى مياه الخليج العربى صداها القوى فى توجيه حكومة القاهرة الى المخاطر التى بدأت تهدد بوضوح باتساع نطاق تلك العمليات لتمتد الى البحر الأحمر وخاصة باب المندب مفتاح البحر الأحمر الجنوبى ، الذى لو سيطر عليه الانجليز بضربة مشابهة لتلك فان موانى البحر العربية وشواطئه تصبح فى خطر داهم اذ يصبح فى استطاعتهم أن ينفذوا الى السويس (١) حتى لقد حذر الباب العالى محمد على فى هذا الصدد بقوله :

« انه لا يجوز ائتمان الدول الأجنبية ولا الاعتماد على أقوالهم .... وأنه لا يجوز نسيان أصول استعماراتهم » (٢) .

ولقد اتسعت العمليات العسكرية فى منطقة الشرق الأوسط بسرعة من بعد ، فلقد شنت ايران حملة كبيرة على العراق وتقدمت القوات الايرانية حتى أطراف بغداد ، ولم تلبث البحرية البريطانية أن انتهزت خلافات بين أمام اليمن والحكومة البريطانية حتى ضربت مخا ، وألقى عبء انقاذ الموقف سواء فى العراق ومنطقة الخليج وحوض البحر الأحمر على عاتق مصر ، فيقول محمد على فى ذلك :

« ان سفر المشار اليه (أى ابراهيم باشا) بأموريه الى جهة بغداد مع عساكر كثيرة يكون منتجا لفوائد عظيمة ، ولكن بما أنى مشغول ...

---

(١) عابدين ، الوثائق التاريخية ، دفتر ٤ ، معية تركى ، صفحة ٦٣ بتاريخ ٢٣ رمضان ١٢٣٦ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٦ ، معية سنية ، مسلسل ٢٠٨ فى ٢٦ ذى الحجة ١٢٣٦ .

بمشكلة كريد (كريت) و .... مخا .... فانى أذهب فى السنة الآتية بنفسى » (٣) .

وهكذا تكشف لنا وثائق عابدين (دار الوثائق القومية) مدى تأثير أحداث الخليج العربى على منطقة البحر الأحمر ومدى تأثير منطقة البحر الأحمر على الخليج العربى .

ولقد أدت هذه المحنة الى أن يعيد كل من داود (والى بغداد) ومحمد على النظر فى موقف كل منهما من الآخر ، حيث نلاحظ أن داود — خلال تصاعد الخطر الانجليزى الممتد من التطيف (الاحساء) الى مخا بل والى جدة والسويس — يكاتب محمد على ليطلعه على عدد السفن الانجليزية التى كانت تخرج من بمباى — القاعدة البريطانية الكبرى — ويحدد خطوط سيرها ، ويكتب له بتفاصيل ما كان يحدث من تعاون بين قوات سلطان مسقط والقوات الانجليزية ضد بنى جعلان (غربى مسقط وعمان) .

وتصاعدت تطلعات السيد سعيد سلطان مسقط وعمان مستندا فى ذلك الى الظهير البريطانى ، فتطلع الى البصرة عله ينتزعها من يد داود ويحقق هدفا طالما راود البوسعيد من قبل . فانتهز السيد سعيد فرصة تحالف عشائر كعب والمنتفق ضد داود ولبى نداء تلك العشائر وسعى الى التحرك ، ولكن السلطات البريطانية فى الخليج حينذاك لم تسمح بتحرك بحرى عربى هناك الا بموافقتها ، ولذلك آثر السيد سعيد أن يتلمس صدى تحركه هذا لدى السلطات البريطانية فى بوشهر ، فكان ذلك فرصة للوكيل البريطانى فى بوشهر ليوطد النفوذ البريطانى فى المنطقة عن طريق القيام بدور الوسيط بين السيد سعيد وداود باشا . ولكن فشلت هذه الوساطة وابلغ الانجليز السيد سعيد أنه والحال كذلك فقد أصبح فى حل من أن يتخذ الاجراءات المناسبة له (٤) .

---

(٣) الوثائق التاريخية ، محفظة ٧ ، معية سنية ، بحرا وبرا ، مسلسل ٢١١ فى ٢٢ ربيع الأول ١٢٣٦ ، دفتر ٤ معية تركى صفحة ٢٢٩ فى ١٢ رمضان ١٢٣٦ (من الجناب العالى الى الصدر الأعظم) .

(4) Aitchison, Collection of Treaties, Vol. X II, P. 192

كان تحرك مسقط على هـــذا النحو من الخطورة لدرجة أن محمد على تدخل فى الأزمة ليوقف تطورها عند حــد قــد يمكن القوى الاســلامية فى المنطقة من تفويت الفرصة على الأطماع الاستعمارية الانجليزية فى تلك الجهات ، ولذلك بعث محمد على بتهديد شديد للسيد سعيد — سلطان مسقط — بأن يوقف تحركه ضد البصرة . وفعلا فى (١٨٢٥) توقفت تلك التحركات المسقطية ولكن الى حين . فلم يلبث أن بعث الســيد سـعيد بوحداته الى البصرة فى ١٨٢٦ ولكن عرف حاكمها كيف يتخلص من اسطول السيد سعيد عن طريق تقديم الأموال لقائده (٥) .

ومرة أخرى تكشف لنــا تلك التطورات عن مواقف مصر ازاء قضايا الخليج العربى المؤثرة فى مصير حوض البحر الأحمر .

كان هــذا يحدث فى وقت اخذت فيه عمليات تحويل النقل البحرى عبر القارات من الشراع الى السفن البخارية ، ومن الدوران حول رأس الرجاء الصالح الى واحد من طريقين قصيرين عبر المشرق العربى :

١ — طريق الشــام — العــراق — الخــليج العربى — الشرق الأقصى .

٢ — طريق مصر — البحر الأحمر — الشرق الأقصى .

وكان طبيعيا أن تختلف الدوائر البريطانية السياسية والصــحفية والاقتصادية والعسكرية فيما بينها وفى داخلها بين مؤيد لهــذا الطــريق أو ذاك عبر مصر والبحر الأحمر أو عبر الشام والعراق والخليج الى الشرق الأقصى ومنــه . وازدادت حــدة الجــدل بعد ما أجــريت تجارب على استخدام البواخــر بين انجلترا والشرق الأقصى عن طــريق رأس الرجاء الصــالح .

كان باركر (٦) — قنصل بريطانيا فى حلب — من أوائل دعاة طريق الخليج الملاحى للبواخر ، وحث باركر — (١٨١٦) زميله الوكيل السياسى

---

(٥) عبــد العزيز نوار ، داود باشــا ، المكتبة العربيــة ١٩٦٨ ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥

(6) Barker.

البريطاني في البصرة روبرت تيلر (٧) على أن يعمل على نقل الوكالة البريطانية من البصرة إلى الكويت ، وشجع داود باشا — والي بغداد — المستر تيلر على توجيه جهود بريطانيا نحو طريق العراق — الخليج .

بينما كان جيمس تيلر — شقيق روبرت تيلر من دعاة طريق البحر الأحمر ، فلما وجد تلك الاستجابة لدى داود لاستخدام طريق العراق — الخليج ، غير رأيه ووجه جهوده من الدعوة الى طريق البحر الأحمر الى الدعوة الى طريق العراق — الخليج (٨) .

ولكن فقد جيمس تيلر حياته في سبيل دراسة مشروعه (٩) في الوقت الذى كانت فيه الدوائر البريطانية في بمباى تزداد اعتقادا في تفوق مزايا طريق البحر الأحمر على طريق الخليج للملاحة البخارية الدولية وكانت فيه السفارة البريطانية في الاستانة تزداد مخاوفها من دخول فرنسا في حلبة التنافس على خطوط الملاحة البخارية العالمية .

في هذه الظروف حول المسئولون الانجليز مجهودات الضابط تشيسني (١٠) من العمل في صفوف الجيش العثماني (١١) الى دراسة مقارنة ميدانية بين طريقى العراق — الخليج ومصر — البحر الأحمر . وفى نهاية دراسته الميدانية في مصر والعراق أكد تشيسني قيمة وصل البحرين المتوسط والأحمر بقناة وأشار الى صعوبة استخدام البواخر لنهر الفرات (١٢) (١٨٣٠) .

ولم تلبث القوات المصرية أن اكتسحت القوات العثمانية بلاد الشام في ١٨٣٢/١٨٣١ ووصلت الى قلب وشمال غرب الأناضول ، وبعث

---

(7) R. Taylor.
(8) Barker, Egypt and Syria.
Vol. I, P. 124, Vol. II, P. 196, Hoskins, H. :
British Routes to India 118 - 119 P. 134 - 136, Chesney, Narrative, P. 144.
(9) Hoskins, op. cit. P. 118.
(10) F. R. Chesney.
(١١) كان يعمل في الجيش العثماني ضد الروس .
(12) Chesney, Narrative, PP. 154 - 155,

ابراهيم باشا برسائله الى رجالات العرب يدعوهم الى الوقوف الى جانب مصر وقضيتها .

وتكون فى البصرة حزب عربى يؤيد مصر — ضد السلطان (١٣) وقامت ثورة شاملة فى بغداد ضد الحكم العثمانى (١٤) فضلا عن أن مصر أصبحت أمل مسلمى روسيا (١٥) وشاه فارس (١٦) .

ومن وجهة نظر المسئولين عن مستقبل الامبراطورية البريطانية ، فان الوضع فى المنطقة الواقعة بين مصر والبحر الأحمر من جهة والخليج من جهة أخرى أصبح يهدد بانقلاب سياسى واجتماعى واقتصادى بالغ الخطورة على الامبراطورية البريطانية حيث أن مصر أصبحت فى ١٨٣٣ قادرة — اذا أعطيت الفرصة — على تحريك قوى كثيفة فى تلك المنطقة ، ولكن فوق هذا وذاك أصبحت مصر تسيطر على الطريقين القصيرين السريعين للملاحة البخارية عبر العراق والخليج نظرا لسيطرتها على الشام ومصر بواقع موقعها وامتداد سلطانها الى جانبى البحر الأحمر (الحجاز — السودان) .

وتحرك المسئولون الانجليز وأرسلوا تشيسنى الى العراق قائدا لسفينتين (١٧) ، هبطت احداهما القوات الى شط العرب الى نهر كارون وصعدت فى نهر دجلة وظلت تعمل هناك حتى تطورت الأحداث الى ما هو أكثر تعقيدا عندما تقدمت فى ١٨٣٧ القوات المصرية بقيادة خورشيد باشا من الحجاز صوب الخليج لاستعادة سيطرتها على قلب الجزيرة

---

(13) Farren to Secret Committee, May2, 1832, India Office, Factory Records, Persia and Persian Gulf, Vol. 47, PP. 247 - 266.

(١٤) دفتر ٤٠ معية تركى ، وثيقة ٨٢٣ فى ٩ صفر ١٢٤٨ (٨ يوليو ١٨٣٢) .

(١٥) محفظة ٢٥٥ عابدين ، وثيقة ١٨١/٢٥ — ٣ ، ٢٨٣/٢٥ فى ٥ يناير ١٨٣٨ (٧ شوال ١٢٥٣) .

(16) Palmersten to Channicarde, Oct. 29, 1839, No. 153.

(17) Chesney, Narrative of the Euphrates Expedition, The Expedition for the Survey of the Rviers of Euphrates and Tigris, London, 1858, V. Fontier, Voyage dans L'mdes Paris,

العربيـــة التى يحكمها فيصل آل سعود وعلى سواحل الخـــليج وعندما أحرزت القوات المصرية انتصـــارها الحاســـم على الأتراك فى موقعـــة نزيب ١٨٣٩ .

تقدمت حملة خورشيد وطلب من فيصـــل بن تركى أن ينسحب من الاحساء ، ولكن مثلما حدث خلال زحف ابراهيم باشا من الدرعية صوب الاحساء تطورات مفاجئة فى منطقة الخليج . فلقد هبط بسرعة محمد بن عريعر من العراق الى الاحساء ليستعيد حكم بنى خالد هنـــاك ولكن محمد ابن عريعر فى هـــذه المـــرة أعلن تبعيتـــه للحكم المصرى ، وأنه ما ملك تلك البقاع الا انتظارا لوصول الحملة المصرية وهكذا وجـــد فيصل بن تركى نفسه بين المطرقة والسندان : حملة خورشيد وظهيرها الحجاز ومصر عبر البحر الأحمر وآل عريعر فى الاحساء .

ولم يلبث فيصل أن استسلم بعـــد حصار مرير لمدينة « دلم » وتقدم خورشيد من بعـــد صوب الخليج العربى ليكتشف قيمة الدور الذى يجب أن تلعبه مصر بتحكمها فى البحرين الكبيرين المتدين على جانبى الجزيرة العربيـــة : البحر الأحمر والخليج العربى . وحث خورشيد حكومته أن تبعث بقوارب مصرية من السويس الى الخليج العربى فكان الرد البريطانى عنيفـــا ، ووجـــه ما يشـــبه الانذار الى حكومة القـــاهرة أن هى قامت بهـــذه العملية (١٨) .

وفى الوقت الذى تحركت فيه وحدات الأسطول البريطـــانى لتعزيز قدرتها العسكرية فى الخليج ، كما بعثت بريطانيا ثلاث بواخر مســـلحة

---

(١٨) من الجناب العالى الى السير عسكر فى ٢٧ محرم ١٢٥١ ، دفتر ٢١٢ عابدين ، صفحة ٧ رقم ٢٧

Chesney : Narrative of the Euphrates Expedition, The Expedition for the Survey of the Rivers of Euphrates and Tigris, London, 1858 V. Fontier, Voyage dans L'Indes. Paris.

جاءت خصيصا الى الخليج والعراق (١٩) ، كان الانجليز يستولون على عدن (١٨٣٩) ، وكما هو واضح للسيطرة على مفاتيح البحار العربيــة فى آن واحـــد : الخليج والبحر الأحمر .

وهكذا كان تأثر منطقة الخليج العربى بتطورات الأحوال فى منطقـــة البحر الأحمر ، أو تأثر هـــذه المنطقة بتطورات الأحداث فى منطقة الخليج قـــد اتخذت عدة صور ولكنها تكشف عن ترابط ووحدة مصير .

---

(١٩) محفظـــة ٢٦٧ عابدين ، وثيقة حمراء ٢٦٧ عابدين ١٦٣ من جمادى الأول ١٢٥٥ (١٢ أغسطس ١٨٣٩) .

من خورشيد الى صاحب الدولة ١٩٢ محرم ١٢٥٥ / أبريل ١٨٣٩ محفظة ٢٦٧ عابدين ، وثيقة ٤ أصلية ، ٣٨ حمراء .

P. R. O. / F. O. 27/557.

١٨

التنافس الدولى فى جنوب البحر الأحمر

فى النصف الأول من القرن التاسع عشر

للدكتور فاروق عثمان أباظة

كلية الآداب ـــ جامعة الاسكندرية

من أهم النتائج التى أسفر عنها استقلال الولايات المتحدة الأمريكية فى أوائل الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، ظهور التدخل الأمريكى فى أسواق التجارة الشرقية فى المحيط الهندى عامة والبحر الأحمر على وجه الخصوص . تلك الأسواق التى احتكرها الأوربيون منذ مطلع العصور الحديثة ، وكاد الانجليز ـــ بصفة خاصة ـــ ينفردون بالسيطرة عليها عندما بدأت الطلائع الأولى للتدخل الأمريكى هناك فى الظهور . اذ بدأ بعض المغامرين الأمريكيين فى أوائل القرن التاسع عشر يحومون حول « وعاء العسل » الذى طالما اغترف منه الانجليز وكادوا يحتكرونه لأنفسهم احتكارا كاملا . ولكن الانجليز سيقفون حائلا دون هذا التدخل الأمريكى الذى سيشكل منافسا خطيرا لهم فى هذا الميدان الهام .

أثر الصراع الانجليزى الأمريكى على أسواق التجارة الشرقية :

ولا شك أن هذه المنافسة الأمريكية كانت انعكاسا طبيعيا للصراع الانجليزى الأمريكى قبيل استقلال الولايات المتحدة الأمريكية وفى أعقابه ، كما أنها كانت تعبيرا عن المعاناة البالغة التى أحس بها الأمريكيون وهم يسعون الى نيل استقلالهم والى بناء دولتهم ودعم مستقبلهم فى شتى المجالات .

بعد أن فازت الولايات المتحدة باستقلالها وجمهوريتها فقد كان عليها أن توطد مركزها السياسى . وألا تتورط فى حروب خارجية ، حتى تخلق من سكان هذه الولايات المتعددة المنازع والمختلفة المشارب ، شعبا

واحـــدا تربطه رابطة القومية ، وأن تجعل له هدفا واحـــدا هو استقلال الولايات واتحادها وضمان حقوقها . وكان على الولايات المتحدة أيضـــا أن تدعم أسس نظامها الجمهورى ، كما توحى اليها بيئتها وظروفها وآمالها، وأن تحقق مبدأ حكم الشعب نفسه بنفسه وانماء نظم الحكم المحلية وفقـــا للدستور الاتحادى الديمقراطى والذى وضعته الولايات المتحدة فى مؤتمر فيلادلفيا فى سنة ١٧٨٧ (١) .

وقد ساعد الولايات المتحدة على النمو فى أعقاب الاستقلال انهماك أوربا فى مشاكلها المعقدة وحروبها الطويلة مع نابليون ، وثوراتها المتعددة وحركاتها القومية (٢) . كل هـــذا كان من شأنه أن يعطى الولايات المتحدة فرصة الهدوء والنمو والاتساع واستغلال أراضيها وثرواتها العظيمة *

والذى بدأ الأمريكيون يهتمون بالتجارة الشرقيـــة ، بل ومنافســـة الانجليز فى احتكارهم بعض سلع هـــذه التجارة على نحو ما حدث مع محصول البن اليمنى المربح والهام الذى كانت تنفرد به . وكان الأمريكيون يقومون بنقله بواسطة سفنهم من ميناء مخا على الساحل اليمنى المطل على البحر الأحمر الى القارة الأمريكية .

وقد ظل الأمريكيون يقومون بهـــذا النشاط البحرى التجارى المتزايد فى المحيط الهندى والبحر الأحمر وخاصة فى النصف الأول من القـــرن التاسع عشر .

على أن مبدأ منرو لم يعوق الأمريكيين عن القيام بنشـــاط بحـــرى وتجارى فى البحار الشرقية ومن بينها البحر الأحمـــر منذ أوائل القرن التاسع عشر عندما بدأوا يشـــعرون بمقدرتهم على تحقيق ذلك ، ممـــا سيجعلهم يشكلون منافسا بحريا وتجاريا خطيرا للانجليز فى تلك البحار .

---

(1) Pratt, J. W. : A History of United States Foreign Policy, P. 5.

(2) Fisher, H. : A History of Enrope, pp. 963, 964.

* حســـن صبحى (دكتـــور) : معـــالم التـــاريخ الأمريكى ، ص ١٠٧ — ١١٠

ظهور النشـاط التجـارى الانجليزى والأمريكى فى البحـار الشرقيـة وجنوبى البحر الأحمر :

وهكذا فقد كان من أهم نتائج الثورة الأمريكية واستقلال الولايات المتحدة هو تدخل الأمريكيين فى أسواق التجارة الشرقية التى احتـكرها الأوربيون منذ مطلع العصور الحديثة . اذ بدأ المغامرون الأمريكيين وفى مقدمتهم مواطنو « ماسا شوستر Massachusetts الذين كانوا يشكلون مجتمعا بحريا نشيطا بارسال سفنهم لتعبر نصف الكرة الأرضية فى القرن التاسع عشر وتتجول فى المحيط الهندى وجنوب المحيط الهادى ، وتصل الى شرق أفريقيا والبحر الأحمر ، محاولة شق طريقهـا للوصـول الى أسواق التجارة فى تلك المناطق (٣) .

غير أن هـذه الأسواق كانت مغلقة حينـذاك بواسطة المحتكرين الانجليز عن طريق النظام الذى وضعته شركة الهند الشرقية الانجليزية التى أنشئت فى ٣١ ديسمبر سنة ١٦٠٠ فى عهد الملكة « اليزابيث الأول Elizabeth I. (٤) ، واحتكرت التجارة الشرقية بوجه عام (٥) .

وكانت شركة الهند الشرقية الانجليزية تعتبر أن التجارة اليمنيـة مجالا هاما من مجالات نشـاطها التجارى فى جنوبى البحر الأحمر ، وحققت فعلا من وراء تلك التجارة أرباحا كبيرة ، وذلك بواسطة الأعداد الضخمة من التجار الهنود المعروفين باسم « البانيان » فى مخا والحديدة وجدة ، وقد قامت الشركة بعدة محاولات مبكرة لاقامة وكالات تجارية لها فى الموانى اليمنية منذ أوائل القرن السابع عشر . كما حاولت عدة مرات بوضـع قدم للانجليز على ساحل اليمن ولكن الوجود العثمانى فى اليمن حال دون ذلك وان كان العثمانيون قد سمحوا للانجليز والتجارة فى الموانى اليمنية . رغم أن السلطات العثمانية كانت تحرص على تصدير البن اليمنى الى أملاك الدولة العثمانية عبر البحر الأحمر .

وجدير بالذكر أن الهولنديين قد سعوا من جانبهم الى تنشيط التجارة

---

(3) Coupland, R. : East Aferica and its Invaders, p. 362.
(4) Hoskins, H. L. : British Routes to India, pp. 4, 5.
(5) Coupland, R. : Op. Cit., p. 362.

الهولندية اليمنية فى أوائل القرن الثامن عشر واستمرت تلك المساعى فترة غير قصيرة ، وكانت تعتمد على محصول البن اليمنى حتى نقل الهولنديون زراعة هذا المحصول الى جزر الهند الشرقية وجزر الهند الغربية فى القرن الثامن عشر . كما انتقلت زراعة البن أيضا الى أمريكا الجنوبية ، مما أدى فى النهاية الى أن تصبح اليمن غير منفردة بانتاج ذلك المحصول الهام (٦) ، وقد نتج عن ذلك قلة دخل اليمن وتدهورت اقتصاديا مما زاد من حدة الاضطرابات الداخلية ، الأمر الذى يجعلنا نقول أن استقرار اليمن كان مرتبطا — الى حد كبير — بقدراته التجارية وخاصة فيما يتعلق بتصدير البن ، حتى أن عدن وقعطبه وتعز وأبو عريش أصبحت دويلات منفصلة عن بعضها ، وعانى الأئمة من حركات التمرد التى كانت شائعة حينذاك . وقد أكد هذه الصورة « كارستن نيبور Karsten Niebuhr الرحالة الدنماركى الذى زار بلاد اليمن فى سنة ١٧٦٢ فى مؤلفه المشهور (٧) .

وجدير بالذكر أن تجارة البن اليمنى كان لها أثر كبير فى عودة النشاط التجارى للطريق البحرى القديم عبر البحر الأحمر فى أوائل القرن السابع عشر ، بعد أن كانت التجارة الشرقية قد تحولت الى طريق رأس الرجاء الصالح عقب وصول البرتغاليين الى الهند فى نهاية القرن الخامس عشر . وقد ساعد على ذلك أن البن اليمنى كان سلعة شائعة ومحبوبة فى أوربا وأمريكا على السواء (٨) .

وبعد أن غادر الهولنديون اليمن فى سنة ١٧٦٢ وفقدوا كل أمل فى استمرار وكالاتهم التجارية فيها ، انفسح المجال أمام الانجليز للاشتغال بتصدير البن والتجارة اليمنية الى بلدان أوربا ، بينما كان التجار الهنود

---

(٦) عبد الحميد البطريق (دكتور) : من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧ — ١٨٤٠ ، ص ٤٦

« قدر نيبور تجارة البن المصدرة من موانى اليمن حينذاك بما يوازى خمسة آلاف جنيه انجليزى شهريا » .

(7) Karsten Niebuhr : Beschreibung Von Arabien, Copenhagen 1772.

(8) Waterfield, G. : Sultans of Aden London, 1968.

« البانيان » يحتكرون تلك التجارة داخل اليمن ذاتها ويسهلون العمليات التجارية مع الانجليز والسفن الانجليزية (٩) .

ومن هنا حرص الانجليز على مواصلة اهتمامهم وكالات تجارية لهم في الموانى اليمنية وخاصـــة بعد أن بدأ نشاطهم يظهر بوضوح فى طريق البحر الأحمر ومصر نتيجة لاتفاقهم مع المماليك فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، حتى أن شركة « الليفانت الانجليزية » التى اختصت بالحوض الشرقى للبحر المتوسط والتى تأسست فى سنة ١٥٨١ (١٠) اتهمت شركة الهند الشرقيـــة الانجليزية بانتهاك سيطرتها على التجارة فى شرقى البحر المتوسط حينذاك .

وتحقيقا لتلك الأهداف الانجليزية رأت حكومة بومباى وخاصة بعـــد وصول الحملة الفرنسية الى مصر فى عام ١٧٩٨ ضرورة القيام بنشـــاط واسع النطاق مستعينة بقواتها الهندية للسيطرة على المراكز الاستراتيجية فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر للحيلولة دون أية محاولة فرنسية للوثوب الى الهند من جهة ، ولحماية جهودها الرامية الى تنشيط التجارة المتبادلة مع سواحل البحر الأحمر والسواحل اليمنية على وجه الخصوص . ولهذا تحركت من بومباى قوة بحرية في شهر أبريل سنة ١٧٩٩ قوامها ثلاثمائة أوربى وهندي يقودها « الكولونيل جون موراى » واتجهت نحو المدخـــل الجنوبى للبحر الأحمر . وقد قامت هـــذه القوة باحتلال جزيرة « ميون » أو (بريم) الواقعة فى أضيق نقطة ببوغاز باب المندب (١١) الذى يصـــل البحر الأحمر بخليج عدن وذلك فى اليوم الثالث من شهر مايو ، وظلت تحتلها حتى أوائل شهر سبتمبر من السنة المذكورة .

غير أن البريطانيين تبينوا أن المضايق فى المدخـــل الجنوبى للبحـــر الأحمر لا يمكن السيطرة عليها من جزيرة بريم بواسطة المدفعية الساحلية

---

(9) Marston, T. E. : Op. Cit., p. 29.

(١٠) صلاح العقاد (دكتور) : التيـــارات الســـياسية فى الخليج العربى ، ص ٢٨ .

(11) George, H. B. : Historical Geography of the British Empire, p. 124.

كما أن مناخ الجزيرة ردىء للغاية (١٢) ، وليست بها مياه صالحة للشرب (١٣) . ولهذا سحب « موراى » قواته من جزيرة بريم خاصة بعد أن اطمأن لحسن نوايا سلطان لحج وعدن الذى أبدى موافقته المبدئية على بقاء البريطانيين مؤقتا فى عدن خلال الفترة التى يحتاجونها . وقد اتجه « موراى » بقواته الى عدن حيث استقبله سلطانها استقبالا طيبا (١٤) . وبذل « موراى » محاولاته للتحالف مع السلطان لضمان اتخاذ عدن محطة دائمة للسفن البريطانية ، غير أن هذا الموضوع تأجل الاتفاق عليه (١٥) . واضطرت هذه القوة البحرية البريطانية أن تنتظر فى عدن حتى شهر مارس سنة ١٨٠٠ لتستعين بالرياح الموسمية للتوجه عائدة الى الهند .

على أن شركة الهند الشرقية الانجليزية كانت تبذل جهودها بصفة دائمة لتنشيط التجارة المتبادلة بين سواحل البحر الأحمر وممتلكاتها فى الهند . غير أن هذا النشاط التجارى بدأ يتدهور نتيجة للسياسة التى انتهجتها الدولة العثمانية حينذاك وسايرها فيها سلطان لحج وعدن . فالبن اليمنى الذى كان يرسل الى أوربا والهند أخذ طريقه الى مصر أو حملته القوافل من جدة الى مكة . بل انه بين عامى ١٧٩٨ — ١٨٠١ اشترت السفن الأمريكية كميات كبيرة من البن اليمنى وبدأت تتعامل مباشرة مع المنتجين الأصليين (١٦) ولهذا سارعت ادارة الشركة الى ارسال « الكومودور سير هوم بوفهام » قائد السفينة الانجليزية « رودنى » H. M. S. Rodney على رأس بعثة الى البحر الأحمر للعمل على احياء التجارة بين هذه المناطق وممتلكات الشركة .

بل أن حكومة الهند البريطانية كلفت « السير هوم » أيضا بمهمة نقل القوات التى كانت ستنضم لجيش « الجنرال بيرد » من بومباى الى

---

(١٢) صلاح الدين البكرى اليافعى : فى جنوب الجزيرة العربية ، ص ١٥.

(13) The Middle East, A Political and Survey, 1958, p. 103.

(14) Ingrams, H. : Op. Cit., p. 50.

(15) Aitchison, C. U. : A Collection of Treaties, Engagements, and Sanads relating to India and the Neighbouring Countries, Vol. XI., p. 123.

(16) Marston, T. E. : Op. Cit., p. 31.

مصر ، ولهذا التقى « السير هوم » بعـد أن عبرت هـذه القوات صحراء مصر الشرقية من القصـير الى النيل . وكانت قوات « الجنرال بيرد » ستتعاون مع القوات البريطانية الأخرى الآتية عبر البحر المتوسط لطـرد الفرنسيين من مصر ومنع أية قوى أجنبية من السيطرة على الطريق الموصل بين الشرق والغرب عبر مصر والبحر الأحمر . وسيكون هـذا التعاون بين القوات البريطانية من الشمال والجنوب ظاهرة واضحة فى استراتيجية الدفاع البريطانى عن المصالح الابراطورية منذ ذلك الحين . كما كانت هذه الحادثة دلالة على أول استخدام للبحـر الأحمر فى الأغـراض العسكرية الحـديثة (١٧) .

وكانت جهود شركة الهند الشرقية الانجليزية لتنشيط التجـارة مع الموانى اليمنية تبدو واضحة فى المحاولات التى بذلهـا فى هـذا السبيل « الدكتور برنجل » Dr. Pringle الطبيب البريطانى الذى عمل فى بومباى ثم صاحب « موراى » فى رحلته السابقة الى الموانى اليمنية وأقام فى مخا فى سنة ١٨٠٠ (١٨) فقد أوصل فى شهر مايو من نفس السنة عدة خطابات وهدايا من الحاكم العـام للهند الى على منصور امام صنعاء (١٩) لحثه على اصدار تعليماته لحكام الموانى اليمنية بعـدم مضـايقة السفن الانجليزية عند قيامها بعمليات التبادل التجارى فى تلك الموانى وتزويدها بما تحتاج اليه لمواصلة رحلاتها. وقد استقبل امام صنعاء الدكتور «برنجل» بحفاوة وتكريم ، وأصدر تعليماته لحكام الموانى اليمنية فى مخا والحديدة واللحية لتقـديم كافة التسهيلات والاحتياجات اللازمة للسفن الانجليزية بالأسعار العادية . كما تم الاتفاق على حمـاية البحـار على الشواطىء والمحافظة على شحنات السفن بقدر الامكان اذا جنحت أو تحطمت . وفضلا عن ذلك فقد وافق الامام على منصور أيضا على بناء مستشفى بحرى فى مخا لاستقبال المرضى من الأسطول التجارى الانجليزى . وقد غادر الدكتور « برنجل » صنعاء متجها الى مخا بعـد نجاحه فى الحصـول على كل هـذه التسهيلات .

---

(17) Marston, T. E. : Ibid., p. 32.
(18) Playfair, R. L. : Op. Cit., p. 123.
(19) Marston, T. E. : Op. Cit., 32, 33.

وكان اهتمام الانجليز بالتجارة مع اليمن قد ازداد بعــد أن نجحت المنافسة الأمريكية فى أخذ معظم كميات البن المصدرة من اليمن الى خارج البلاد . ويرجع أن السبب فى ذلك الى الأسعار التى كانت تتعامل بهــا شركة الهند الشرقية الانجليزية والتى كانت فى مركز لا يمكنها من منافسة عروض الأمريكيين حينذاك . كمــا أن الضعف المتزايد للأئمــة الزيديين والصراع المستمر بين القبائل اليمنية قد انعكس على انتاج البن فى اليمن مما أدى الى اضعاف محصوله (٢٠) ، ونتج عن ذلك زيادة الطلب فى الوقت الذى قل فيه العرض الى حــد كبير .

وقد أستمرت جهود شركة الهند الشرقية الانجليزية لتدعيم تجارتها مع اليمن ، ورعاية مصالحها فى منطقة البحر الأحمر وخاصة عندما عينت « السير هوم » مندوبا لها فى الجزيرة العربية فى ســنة ١٨٠٢ (٢١) ، ومنحته صلاحيات كاملة تمكنه من عقد المعاهدات التجارية تبعا لمــا تتطلبه المصالح الانجليزية . وطلبت اليــه التوصل الى عقد معاهدات تجــارية مع امام صنعاء وسلطان لحج وعدن على وجه الخصوص . ولهذا فقــد أبحر « السير هوم » من « كلكتا » متجها الى مخا ، حيث وجه بعثة الى امام صنعاء شكلها من « المستر اليوت » و « الملازم لامب » و « الدكتور برنجل » لتعرض عليه اقتراح التوصل الى عقد معاهدة تجارية . غير أن الامام رفض مواد المعاهدة المقترحة ، ولم يشأ أن يزيد تعاونه عن هــذا الحــد حتى لا يؤدى الى التدخل الأجنبى فى شئون بلاده . وقــد مات « مستر اليوت » بالحمى فى صــنعاء ، بينما غادرها « المــلازم لامب » و « الدكتور برنجل » فى اليوم الرابع من سبتمبر من السنة المذكورة وهما يحمــلان رفض الامــام الى الحــاكم العــام للهنــد وممثلة « الســير هوم بوفهــام » (٢٢) .

غير أن « السير هوم » لم يفقد الأمل فى تحقيق بعض النجاح لشركة الهند الشرقية الانجليزية ، فتوجه الى عدن وبذل جهوده لاقناع السلطان

---

(20) Aitchison, C. U. : Op. Cit., Vol. XI, p. 111.
Lord Wellesly ed 12345 1234 6789 12346
(21) Aitchison, C. U. : Op. Cit., Vol. XI, p. 111.
(22) Playfair, R. L. : Op. Cit., pp. 124 - 126.

أحمد بن عبد الكريم العبدلى سلطان لحج وعدن بعقد معاهدة للصداقة والتجارة . وتم ابرام المعاهدة فى اليوم السادس من سبتمبر سنة ١٨٠٢ وصدق عليها « السير هوم » نيابة عن « اللورد ولسلى Lord Valentia الحاكم العام للهند حينذاك وبناء على رغبته ، كما اعتمدها الأمير أحمد باصهى أمير عدن نيابة عن السلطان العبدلى (٢٣) . وقد نصت هذه المعاهدة على ايجاد اتصال تجارى بين شركة الهند الشرقية الانجليزية أو أية رعية بريطانية تحت حكم الحاكم العام للهند ورعية السلطان أحمد بن عبد الكريم العبدلى (٢٤) ووافق الجانبان على اعتبار ميناء عدن مفتوحا لاستقبال البضائع التى تحملها السفن الانجليزية على أن تدفع نسبة ٢٪ ضرائب جمركية لمدة عشر سنوات ترفع بعدها هذه النسبة الى ٣٪ فقط . ونصت المعاهدة كذلك على حرية الرعايا البريطانيين فى العمل فى أراضى السلطان ونقل ثرواتهم لمن يشاءون ، كما تعهد السلطان ببذل جهوده لاستعادة ديون الرعايا البريطانيين من رعاياه . وفى حالة حدوث اى نزاع بين الرعايا البريطانيين فيجب أن يرفعوا دعواهم للوكيل البريطانى فى عدن ليجرى أحكامه فى قضاياهم بموجب القوانين المتبعة فى بلادهم . واخيرا تعهد السلطان فى هذه المعاهدة بأن يبيع لبريطانيا قطعة من الأرض غربى عدن لتقيم عليها شركة الهند الشرقية الانجليزية مبانيها بالشكل الذى ترتضيه (٢٥) .

ومن الواضح أن هذه المعاهدة تعد بداية التدخل البريطانى فى شئون عدن وعند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر . كما أنها تنتقص من السلطة الشرعية لحكام هذه المنطقة فى بلادهم ، فتحديد الرسوم الجمركية بنسبة تقل عما يتقاضاه السلطان من قبل ، فضلا عن الاعتراف للوكيل الانجليزى — الذى كان لا يعدو أن يكون قنصلا لبلاده — بالتدخل فى نظر المنازعات للرعايا البريطانيين فى عدن ورفع نتائجها الى حكومة الهند البريطانية لتقرير ما تراه ، فان ذلك كله لا يتفق مع سيادة سلطان

---

(٢٣) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ١٣٦

(24) Hurewits, J. C. : Diplomacy in the Near and Middle East, Vol. I., p. 126.

(25) Aitchison, G. U. : Op. Cit., Vol. XI., pp. 119, 122.

لحج وعدن ، كما يعطى الفرصة للبريطانيين للتدخل فى شئون سلطنته . لهذا فقد وصف « هارولد جاكوب » هـــذه المعاهدة بأنها رائعة بالنسبة للبريطانيين خاصة اذا ما أدخلنا فى اعتبارنا الأطراف التى عقدتها والزمن الذى وقعت به (٢٦) . بينما أعتبرها « توم ليتل » أول تورط لبريطانيا فى جنوب الجزيرة العربية (٢٧) .

ويبدو تزايد اهتمام حكومة الهند الانجليزية بالتجارة فى منطقة البحر الأحمر من خلال التصريح الذى أدلى به « اللورد فالنتيا » Lord Valentia الذى وصل الى الهند على رأس بعثة بريطانية فى ســـنة ١٨٠٥ موضحا أهمية طريق البحر الأحمر بالنسبة للتجارة الهندية ، ومؤكدا ضرورة العمل على ايجاد أفضل الوسائل لتدعيم قوة بريطانيا فى البحـــر الأحمـــر حتى يمكنها مواجهة أى تقدم عدائى وخاصة من ناحية فرنسا النابليونية ، هذا بالاضافة الى العمل على زيادة حجم التجارة الهندية فى المنطقة . وتبعا لذلك فقد قام « فالنتيا » بزيارة معظم الموانى الهامة فى البحر الأحمـــر مبتدئا بعدن وجمع معلومات قيمة عن حالة التجارة . وأخيرا أشار «فالنتيا» الى أهمية احتلال بريطانيا لعدن التى اعتبرها « جبـــل طارق الشرق » وأوصى بانشاء وكالة تجارية فى عـــدن ، وبتعيين مقيم دائم بهـــا ليتمكن البريطانيون من أحتكار التجارة اليمنية وخاصة تجارة البن الرائجـــة من جهة ، واحتكار التجارة مع بربرة على الساحل الأفريقى المواجه من جهة أخرى . بل انه قد أوصى أيضا بالتحالف مع الوهابيين من ناحية الشرق والأحباش من ناحية الغرب ، لضمان حماية المصالح التجارية لبريطانيا فى منطقة البحر الأحمر .

غير أن « فالنتيا » أوضح فى نفس الوقت أن الحبشـــة لن تحقق الكسب السريع والفائدة المباشرة للبريطانيين على النحـــو الذى يمكن أن تحققه عدن للمصالح البريطانية بل انه أشار أيضا الى أن سيطرة البريطانيين على جزيرة كمران ستتيح لبريطانيا سيطرة مباشرة على تجارة الحبشة ،

---

(26) Jacob, H. : Kings of Arabia, p. 65.

(27) Little, T. : South Arabia of Conflict, London, Pall Mall, 1968.

وكانت شركة الهند الشرقية الانجليزية ترغب فى تحقيق ذلك . وقد أورد « فالنتيا » كل هـذه الآراء والتوصيات فى تقريره المطول الذى أرسله الى « جورج كاننج » وزير الدولة البريطانى للشئون الخارجية ، ويعتبر هـذا التقرير على جانب كبير من الأهمية لأنه يوضح الأوضاع القائمـة فى منطقة البحـر الأحمر ووجهـة النظـر البريطانيـة ازاءها فى ذلك الحين (٢٨) .

على أن اللورد « فالنتيا » قد أنهى تقريره هـذا بجملة أعاد كتابتها بعد ذلك بخمسة وستين عاما اللورد روبرت نابيير Lord Robert Napier الذى قاد الحملة الانجليزية على الحبشة فى سنة ١٨٦٨ اذ قال « انه فيما يتعلق بالحبشة فانها بلد مسيحى يجب أن يتحرر من الحكم المستبد الذى يتحكم فى مقدراته ، كما يجب تطويقه بعيداً عن سيطرة المسلمين ، وانّنا بتحقيق ذلك سنفتح سوقا رائجـة لمنتجاتنـا » . وبذلك ولدت أسس السياسة البريطانية ازاء الحبشة ، تلك السـياسة التى استمرت حتى تسيير الحملة البريطانية فى سنة ١٨٦٨ ، حيث ظهرت للبريطانيين الطبيعة الحقيقية للحبشة والصعوبات التى تكتنفها . وقد لقى هـذا التقرير الذى قدمه « فالنتيـا » اهتماما كبـيرا لدى المسـئولين بوزارة الخارجيـة البريطـانية (٢٩) .

وعلى أية حال فان « فالنتيا » أرسل أخيرا سكرتيره « هنرى سولت Henry Salt » فى بعثة الى الحبشة عاد بعدها يوصى بضرورة بذل الجهود لكى يحصل الأحباش على منفذ بحرى لبلادهم على البحر الأحمر يتيح لهم الاتصـال بالمستعمرات البريطانيـة فى بلاد الشرق . غير أن اقتراحات « فالنتيا » هـذه لم يحفل بها أحد الى أن اهتم بتنفيذها « هنرى » نفسه الذى أصبح بعد ذلك قنصلا عاما لبريطانيا فى مصر (٣٠) .

أما بالنسبة لتحركات « سولت » فيمكن تتبعها من خلال التقرير الذى قدمه لوزارة الخارجية البريطانية وأوضح فيه أنه وصل الى مصـوع ثم

---

(28) Marston, T. E. : Op. Cit., pp. 34, 35.
(29) F. O. I/I., Valentia to Canning, 9/13/08.
(30) Marston, T. E. : Op. Cit., p. 34.

انتقل الى « تيجرى Tigré » فى الحبشة حيث قدم ما معه من هدايا الى « بحر نيجوس Bahr Negos » حاكم هـذه المنطقة . غير أن « سولت » لم يجد ما يشجعه على اقامة علاقات تجـارية مستقرة نتيجة لرفض الأحباش لهذا الاتجاه ، ولضعفهم عن السـيطرة على المنطقـة الساحلية ، مما جعله يشك فى نجاح أى تدخل بريطـانى فى الحبشـة حينذاك (٣١) . وقد أرفق « سولت » بتقريره هـذا صورا من المراسلات التى دارت بينه وبين حكومة بومباى وتضم استفسارات من تلك الحكومة عن هـذه الرحلة وأهدافها ، مما كان يظهر وجود نوع من السباق بين شركة الهنـد الشرقيـة الانجليزية ووزارة خارجيـة بريطانيـا فى ذلك الحين .

وجدير بالذكر أن الرسـائل المرسلة من مجلس ادارة شركة الهنـد الشرقية الانجليزية ومقره فى لندن كانت تصل الى الحاكم الانجليزى العام فى كلكتا فى فترة تتراوح ما بين خمسة الى ثمانية شهور ، أما المراسلات التى كانت تتطلب ردودا حول الأمور الرسمية فقد كانت تستغرق فترة تصل الى عامين كاملين .

على أن « سولت » قد أرسل أيضا تقريرا سياسيا الى حكومة الهند عن الأوضاع السياسية فى البحـر الأحمر موضحا أن البريطانيين يمكنهم الحصول على ما يريدونه فى اليمن اذا تحالفـوا مع شريف أبى عريش أو امام صنعاء . وكان أبو عريش أو « شريف اللحية » كما يسميه «سولت» يحكم منطقة تهامة ، وهى الأراضى الساحلية المنخفضة الممتدة من ميـناء اللحية شمالا الى ميناء مخا جنوبا ، وأيضا منطقة زيلع على السـاحل الأفريقى للبحر الأحمر . وذكر « سولت » أنه شـاهد سفينة فرنسـية فى « خليج أنسلى Annesley Bay » وأوضح أنها جاءت الى هنـاك بغرض شراء قطعة من الأرض المطلة على هـذا الخليج . وقـد أوصى « سولت » فى تقريره أيضا بضرورة التحالف مع الوهابيين لمنع الفرنسيين من التسلل الى ايران من جهة ، ولفتح طريق البحر الأحمر أمام البريطانيين من جهة أخرى عن طريق ميناء عدن وجزيرة كمران واستبداله بالطـريق

---

(31) F. O. I/I., Salt to F. O. 3/4/11, Report on his expedition.

البرى الذى كان مهـــددا حينـــذاك والذى كان يمر بالجزيرة والخـــليج العربى .

وتجدر الاشارة الى أن الرأى قـــد استقر فى انجلترا على ارسال « هنرى سولت » مرة ثانية الى منطقة البحر الأحمر فى سنة ١٨٠٩ . وقد وصل الى ميناء مخا اليمنى فعلا فى شهر نوفمبر من السنة المذكورة ، حيث وجـــد أسعار البن قـــد ارتفعت بفضل وجود التجار المنافسين من الأمريكيين حتى بلغ سعر البالة ٧٥ دولارا الأمر الذى سبب متاعب كثيرة لشركة الهند الشرقية الانجليزية نتيجة لارتفاع الأسعار . وعلى أية حال فقد أوضح « سولت » أنه لم تكن توجد فى البحر الأحمر حينذاك سفن معادية للبريطانيين كما لم تكن توجد لمحمد على أية سفن هنـــاك فى ذلك الحين ممـــا كان يجعله يرى أنه من السهل على البريطانيين الســـيطرة على أى موقع يريدونه فى منطقة البحر الأحمر .

وهكذا كانت تحركات البريطانيين فى البحر الأحمر وعلى مقربة من عدن فى مطلع القرن التاسع عشر وقـــد تمت هـــذه التحركات بتوجيـــه من قبل شركة الهند الشرقية الانجليزية فى بعض الأحيان ، كمـــا كانت بتوجيه من قبل وزارة الخارجية البريطانية فى أحيان أخرى ، حتى رجع « سولت » الى انجلترا ، ولم يعد الى المنطقة ثانية الا عندما عين قنصلا عاما لبريطانيا فى مصر لدى حكومة محمد على . ولا يعنى هذا أن محاولات البريطانيين للحصول على امتيازات لتجارتهم فى المنطقة قـــد توقفت ، بل أنهم انتهزوا كل فرصة ممكنة لتحقيق أغراضهم .

وتجدر الاشارة الى أنه قـــد نوقشت لدى الدوائر البريطانية أهمية احتلال البريطانيين لميناء عدن اليمنى فى نهاية القرن الثامن عشر منذ أحتلت قوات بونابرت مصر فى سنة ١٧٩٨ وكانت تتطلع لشن غزو فرنسى على الهند فى ذلك الحين . وقـــد نتج عن قيام الحرب بين بريطانيا والأمريكيين فى الفترة ما بين عامى ١٨١٢ و ١٨١٤ أن بدأ بعض الساسة الانجليز يعيدون التفكير فى احتلال عدن . بل ان « هنرى سولت » Henry Salt قنصل بريطانيا فى مصر اقترح على حكومة بومباى وجوب ارسال احدى بطاريات الساحل العسكرية الى سلطان عدن لمســـاعدته فى الدفاع عن

ميناء عدن ؛ نظرا لأن البريطانيين كانوا فى حرب مع الأمريكيين الذين كانوا مرتبطين بعلاقات ودية مع تلك الموانى ، والتى كانت معظم سفنهم تفوق فى تسلحها السفن التجارية البريطانية التى كانت تبحر الى تلك الموانى . وعلى الرغم من ذلك فان هــذا الاقتراح لم يوضع موضع التنفيذ خاصــة بعــد توقيع الصلح مع الأمريكيين ، كما أن التهديد الفــرنسى تضــاءل نسبيا حينذاك (٣٢) .

وقــد حدث فى شهر يوليو سنة ١٨١٧ أن تلكأ أحد الأعراب فى الوكالة البريطانية فى ميناء مخا اليمنى . غير أن الحرس الهنود أبعدوه بالقوة مما أثار بعض العرب الذين تجمعوا وأهانوا عــددا من الضــباط البريطانيين الموجودين بالوكالة . بل أن الوكيل البريطانى فى مخا وهو « الملازم دومنكيتى » Lieutenant Domincetti قــد تعرض لاهانة من قبل « الدولة » حاكم مخا الذى استدعاه بالقوة فى وقت غير مناسب ، كما هوجمت الوكالة وتعرضت للنهب والسلب . وقــد أطلق حاكم مخا سراح الوكيل البريطانى وأمر بترحيله الى الهند ، وأغلقت بطبيعة الحال الوكالة البريطانية فى المدينة .

وقــد انتهزت حكومة بومباى هــذا الحادث واســتغلته لمصلحتها بعد مرور عامين من حدوثه خاصة وأنها كانت تبحث عن سبب مناســب يبرر تدخلها . وقــد طلبت من امام صنعاء أن ينزل العقــاب بالحــاكم السابق لمخا لمسئوليته عن تلك الحادثة . بل أن الحاكم العام للهند أمــر بتوجيه قوة كافية الى مخا لتدعيم مطالب حكومة الهند البريطانية مستقبلا فى الميناء اليمنى . كما كانت تهدف حكومة « بومباى » الى فرض معاهدة على امام صنعاء يوافق فيها على أن يكون للوكيل البريطانى فى مخا حرس خاص مثل نظيره فى البصرة وبغداد ويكون هــذا الحرس من القوة بحيث يكفل للمقيم الحماية والاحترام . كما أن كل العاملين فى الوكالة البريطانية وتابعين من الناحية القضائية للوكيل البريطانى . أما من الناحية التجارية فيجب انقاص نسبة الضرائب الجمركية على التجارة البريطانية من ٣١/٢ الى ٢١/٤٪ . وهــذه المطالب دون شك من الصعب على الامام أن يتقبلها وهى تنتقص من سيادته وتضعف من ايراداته .

(32) Marston, T. E. : Op. Cit., pp. 39, 40.

وقـــد اصدرت حكومة الهند البريطانية تعليماتها الى « الكابتن وليام بروس » Captain William Bruce المقيم البريطاني في « بوشهير » ليمثلها في هـــذه المفاوضات ، ولهذا أبحر « بروس » الى مخا في ٢٣ اغسطس ســـنة ١٨١٩ يرافقه اســـطول قوى يقـــوده « الكابتن لملى Captain Lumley وقد تسلم « بروس » في ٢٤ أكتوبر سنة ١٨١٩ اجابة امام صنعاء التى أبدى فيها مشاعره الودية ، وأنه أرسل مبعوثه الفقيـــه حسنين للتفاهم معه . وقـــد طلب الفقيه حسنين من المبعوث البريطاني مرافقته الى صنعاء حيث يمكن احضار حاكم مخـــا السابق للتحقيق في الواقعة . غير أن « بروس » أوضح أنه لحين تقديم الاعتذار المطلوب فانه لا يمكنه التوجه الى صنعاء (٣٣) .

وجدير بالذكر أن « وليم بروس » مبعوث حكومة الهند البريطانيـــة للتفاوض مع امام صنعاء بشأن الوكالة البريطانية في مخا قـــد طلب من « هنرى سولت » قنصل بريطانيا في مصر حينذاك تأكيد تبعية مخا لمحمد على ، وكان هـــذا المطلب هو أول علامة مميزة للوجود المصرى في اليمن وأول استخدام للأساليب الدبلوماسية تقوم به شركة الهنـــد الشرقيـــة الانجليزية في تعاملها وعلاقتها مع الحكومة المصرية (٣٤) .

بل ان حاكم بومباى « الفنستون » Elphinstone طلب من « سولت» القنصل البريطاني في مصر حينذاك تأكيد تبعيـــة اليمن لمحمـــد على ، واستئذانه — في حالة الضرورة — في قيام حكومة بومبـــاى بمحاصرة الموانى اليمنية ، وبأن حدوث ذلك لا يعنى وجود أية نية لدى البريطانيين لغزو اليمن (٣٥) .

وقد أجاب « سولت » على « بروس » موضحا أن محمد على قـــد منح الامام الولايات التى سيطر عليها ابنه ابراهيم من « الدولة » حاكم الحديدة ، مقابل كمية معينة من محصول البن اليمنى ترسل كخراج سنوى للباب العالى . وفضلا عن ذلك كان محمد على على علم تام بأهداف حكومة

---

(33) Playfair, R. L. : Op. Cit., pp. 134, 136.

(34) I. O., Egypt, V7, Bruce (Mocha) to Salt, 10/6/20.

(35) I. O., Egypt, V. 7, Elphinstone to Salt, 6/4/20.

بومباى ، وكان يأمل أن تقدم ترضية مناسبة من قبل الامام عن الاهانة التى لحقت بوكيل الشركة البريطانية فى مخا ، وأبدى استعداده للتوسط لحل هـذه المشكلة فى الوقت الذى تحدده الشركة ، مما يظهر تفوق مركزه فى اليمن حينذاك .

غير أن الحوادث تطورت بسرعة وظهر اثناءها اتجاه الامام ومبعوثه للمماطلة فى تحقيق المطالب البريطانية مما أدى بالمبعوث البريطـانى الى توجيه تحذير للسفن الراسية فى مخا بأن الميناء محاصر بقطع الأسطول البريطانى فى اليوم الثالث من شهر ديسمبر سنة ١٨١٩ . وقد بدأ قصف الميناء بمدفعية الأسطول فى اليوم السادس والعشرين من الشهر المذكور حتى تم اسقاط البرجين الرئيسيين المدافعين عن المدينة فى اليوم الثلاثين من نفس الشهر (٣٦) . واضطر حاكم مخا فى اليوم التالى الى اصدار قرار بمنع أى شخص من اهانة الرعايا البريطانيين والا تعرض لعقوبات قاسية . كما لم يجـد أمام صنعاء بدا من الموافقة على تخفيض نسبة الضرائب على التجارة البريطانية من ٣½٪ الى ٢½٪ . واضطر الامام الى توقيـع المعاهدة التى اقترحتها بريطانيا فى ١٥ يناير سنة ١٨٢١ وأرسل صورة معتمدة منها الى المبعوث البريطانى فى ميناء مخا اليمنى (٣٧) .

على أنه يلاحظ فى نفس الوقت أنه قـد ظهر اهتمام قليل من قبـل بريطانيا بميناء عدن فى سنة ١٨٢٠ عندما قام السلطان أحمد العبـدلى سلطان لحج وعدن بابلاغ القبطان « هينز » الذى وصل الى ميناء عـدن بأنه يرغب فى أن يكون للانجليز موطىء قـدم فى تلك الميناء . وكان غرضه من ذلك دعم العلاقات التجارية مع شركة الهند الشرقية الانجليزية . كما أن السلطان العبدلى قام بابلاغ « هتشنسون » Hutchinson وكيل شركة الهند الشرقية الانجليزية فى مخا أنه سوف يمنح الشركة حق انشاء وكالة بريطانية فى عدن نظير قيام بريطانيا بمساعدته ضد القبائل اليمنية المجاورة لسلطنته . وكان على « هتشنسون » أن يجيب عليه بقـوله ان حكومة

---

(36) I. O., Egypt, V. 7, Bruce to Salt, 1/20/21.

(37) Graham, G., Op. Cit., pp. 287, 288.

الهند لا ترغب فى القيام بأية ترتيبات سياسية ، ولكنها تقصر نشاطها على دعم العلاقات التجارية مع الموانى اليمنية (٣٨) .

وهكذا تمكنت بريطانيا من تدعيم نفوذها التجارى فى الموانى اليمنية المطلة على الجزء الجنوبى من البحر الأحمر ، ونالت شركة الهند الشرقية الانجليزية مكانة تجارية ممتازة فى المنطقة . وبهذا استحوز البريطانيون فى وقت مبكر على مزايا تجارية هامة ضمنت فى معاهدة رسمية أضطر امام اليمن للتوقيع عليها تحت تهديد مدفعية قطع الأسطول البريطانى التى نفذت الى البحر الأحمر (٣٩) . كما أن معاهدة الصداقة والتجـارة التى عقدتها بريطانيا مع سلطان لحج وعدن فى سنة ١٨٠٢ كانت بداية لسلسلة من المعاهدات المماثلة مع أهالى ألمنطقة لضمان المصالح التجارية البريطانية فى الطريق البحرى الى الشرق عبر البحر الأحمر (٤٠) .

واذا كانت بريطانيا قد حققت هـذا القدر من النجـاح فى الجـزء الجنوبى من البحر الأحمر ، فانها لم تتمكن رغم الجهود التى بذلتها لاخراج الفرنسيين من مصر أن تحل محلهم ، أو تبقى على قواتها هناك بعد جلاء الفرنسيين ، فاضطرت أخيرا الى سحب قواتها من مصر بعد صلح اميـان فى سنة ١٨٠٣ . بل ان البريطانيين فشلوا فى تنفيذ خطتهم المبنية على تكوين حزب قوى موال لهم من المماليك ومساندته حتى يمسـك بمقاليـد الأمور فى مصر لتحقق بريطانيا أغراضها عن طريقه . وكان البريطـانيون قد أخذوا معهم عند انسحابهم « محمد الألفى » وهو أحـد أمراء المماليك ليجعلوا منه نواة هـذه القوة الموالية لهم . وقد عاد الألفى الى مصر بعد أن نسق خططه مع الانجليز الذين زاد خوفهم من عودة نابليون اليها ثانية بعد أن أبرم معاهدة مع السلطان العثمانى فى سنة ١٨٠٦ . ولهذا أرسل الانجليز الى مصر حملة فريز Frozer فى سنة ١٨٠٧ للتثبت من عدم محاولة الفرنسيين العودة اليها فى الوقت الذى كان محمد على قد ظهر

(38) Hutchinson to Henry Salt, January 24, 1823, See Marston, T. E. : Op. Cit., pp. 39, 40, 65.

(39) Playfair, R. L. : Op. Cit., pp. 137, 139.

(40) Ghorbal, S. : The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mohamed Aly, p. 156.

على مسرح الأحداث فيها وسيطر على الموقف هنـــاك تسانده قوة شعبية تصدت للبريطانيين فى رشيد . وقد شكل فشل حملة « فريزر » فى رشيد ضربة قوية للنفوذ البريطانى فى مصر كما خسرت بريطانيا عددا كثيرا من جنودها الذين اشتركوا فى تلك الحملة (٤١) .

واذا كانت تريطانيا قد خسرت جولتها فى مصر فى سنة ١٨٠٧ فقد كان لها فى نفس الوقت السيادة البحرية الكاملة فى البحر المتوســـط ، خاصة وأن البريطانيين كانوا قد احتلوا جبل طارق فى سنة ١٧٠٤ (٤٢)، كما أنهم كانوا قـــد احتلوا أيضا جزيرة مالطة سنة ١٨٠٧ وهى نقطـــة استراتيجية هامة فى وسطه (٤٣) ، ثم أنهم ضموها الى مستعمراتهم بعد انعقاد مؤتمر فيينا فى سنة ١٨١٥ (٤٤) .

ورغم جلاء الفرنسيين عن مصر في سنة ١٨٠١ فقـــد ظلت رغبتهم فى العودة اليها والتحكم فى طريق البحر الأحمر قائمة . ولهذا أوفـــد « بونابرت » « الكولونيل سبستيانى » الى مصر للتعرف على البريطانيين ولدراسة الأوضاع الجديدة هناك فى نهاية عام ١٨٠٢ .

وقـــد ظل « نابليون » حتى نهـــاية حيـــاته الســـياسية مهتما بمصر وبالطريق الموصل للشرق عبر البحر الأحمر . وكان يرسل مبعوثه لجمع البيانات والمعلومات الهامة ولعرقلة مصالح ومساعى أعدائه البريطـــانيين فى هـــذه المناطق .

وعندما فرغت فرنسا من تصفية مشاكلها الداخلية الناتجة عن الأوضاع غير المستقرة فيهـــا ، فضـــلا عن مشاكلها الخارجية مع الدول الأوربيـــة

---

(41) Fortescue, J. W. : A History of the British Army, Vol. V., p. 17.

(42) A Red Book on Gibraltar, Issued by the Spanish Government, Madred, 1965, pp. 13, 16.

(43) Gearge, H. B. : Op. Cit., pp. 13, 19.

Sebastiani ,1234 1234 1234

(٤٤) حسن صبحى (دكتور) : التنافس الاستثمارى الأوربى فى المغرب ١٨٨٤ — ١٩٠٤ ، ص ١٥

التى نجمت عن الحروب النابليونية ، فانها أخذت تبحث عما يعوضها عن مستعمراتها المفقودة (٤٥) .

ولا شك أن أنظار الفرنسيين قد اتجهت الى المناطق الساحلية الهامة الممتدة من البحر الأحمر الى الخليج العربى وكانت كلها لا تزال فى أيدى أصحابها العرب . وكانت فرنسا تدرك أن العقبات التى تواجه تحقيق أطماعها فى هذه الجهات تكمن بالدرجة الأولى فى الأطماع البريطانية المنافسة من ناحية ، بالاضافة الى العرب أصحاب البلاد الأصليين من ناحية أخرى .

وقد حاولت فرنسا أن تعيد العلاقات التجارية مع السيد سعيد سلطان مسقط وزنجبار فى سنة ١٨١٧ بعد عودة « البوربون » الى العرش ، ورحب السلطان باعادة علاقاته القديمة مع فرنسا (٤٦) ، غير أن الفرنسيين أرسلوا بعض سفنهم الحربية الى زنجبار فى سنة ١٨٤٠ وطلبوا من ابن السلطان أن يصرح لهم باقامة بعض المبانى والحصون فى « موجاديشو » و « برزوا » لخدمة أغراضهم التجارية . ولما اعتذر ابن السلطان وممثله « هلال » عن تلبية مطلبهم فقد أبحروا الى مدينة نوسى بى Nossi - Be الواقعة على مقربة من ساحل مدغشقر الغربى حيث أنزلوا قواتهم ونفذوا أغراضهم بالقوة .

وقد اجتمع السيد سعيد سلطان مسقط وزنجبار مستنكرا العدوان الفرنسى ، وأبرق الى « بالمرستون » ينبئه بما حدث وطلب مساندة بريطانيا له فى مقاومته لهذا العدوان والا سيضطر لمفاوضة الفرنسيين اذا لم تتحرك الحكومة البريطانية لمساعدته . غير أن بريطانيا لم تحرك ساكنا لنجدة سلطان زنجبار لأنها لم تكن تهتم بالسلطان ذاته ، بل كان يهمها بالدرجة الأولى حيذاك مواصلاتها فى البحر الأحمر والمحيط الهندى . وقد رأى البريطانيون فى هذه المحاولات الفرنسية فى تلك المناطق البعيدة ما يشغل الفرنسيين عما هو أجدى وأهم ، اذ طالما كانت

(45) Copland, R. : Op. Cit., p. 436.

(46) Copland, R. : Op. Cit., p. 424.

التحركات الفرنسية بعيدة عن « ممبسا » جنوبا فهى لا تهدد المصالح البريطانية عبر طريق البحر الأحمر وهو ما يهم بريطانيا فى المقام الأول بطبيعة الحال .

على أن ما أثار البريطانيين فعلا وأقلقهم على مصالحهم فى جنوب البحر الأحمر فى أوائل القرن التاسع عشر تلك المنافسة الأمريكية التى تمثلت فى جهود التجار الأمريكيين من مواطنى « ماساشوستس » الذين نافسوا التجار الهنود المنطلقين من المستعمرات الانجليزية فى الهند على التجارة الشرقية بوجه عام وتجارة البن اليمنى بوجه خاص (٤٧) . كما حاول التجار الأمريكون منافسة التجار الهنود فى بيع المنسوجات القطنية، ونافسوهم أيضا فى صيد الحيتان من المحيط الهندى وشاركوهم فى تجارة الرقيق والبخور واللبان والصمغ والجلود والعاج . بل أن الأمريكيين كانوا يجمعون مخلفات الطيور البرية Guano من جزر « كوريا موريا » المواجهة للساحل الجنوبى للجزيرة العربية ، وذلك قبل قيام الحكومة البريطانية بمحاولتها الفاشلة لأخذ كميات من تلك المخلفات لاستخدامها فى تسميد الأرض فى الجزر البريطانية نفسها .

وقد تبينت شركة الهند الشرقية الانجليزية منذ أوائل القرن التاسع عشر أن الأمريكيين يعتبرون منافسين جادين لها . فعلى الرغم من بعد بلادهم عن ميدان التجارة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، فانهم كانوا يحضرون من بلادهم النائية للاشتراك فى النشاط التجارى هناك . بل ان الأمريكيين أخذوا يرسلون سفنهم الى الموانى اليمنية وخاصة ميناء مخا ، حيث يحصلون على ثلاثة أرباع اجمالى محصول البن اليمنى الذى كان قد بلغ فى عام ١٨٠٩ ثلاثة عشر الف بالة . وقد أدت منافستهم هذه فى مجال تلك التجارة الى رفع سعر البالة من ٥٦ دولارا (أى حوالى ١١ جنيها استلينيا) الى ٧٥ دولارا (أى حوالى ١٥ جنيها استرلينيا) . وقد قام التجار الأمريكيين باستخدام الطريق التجارى والموصل الى البحر الأحمر عبر طريق رأس الرجاء الصالح ثم المرور بمحاذاة الساحل الشرقى لأفريقيا . وقد وفر ذلك عليهم نفقات النقل التى كانت تحصل عليها شركة

---

(47) Coupland, R. : Op. Cit., p. 362.

الهند الشرقية الانجليزية والشركات الفرنسية الأخرى والتى اتخــذت من جــزر موريشيسوس وريـنيــون Mauritius and Réunion قواعــد لهــا .

وكان التجار الأمريكيون على درجة فائقلاً من الهمة والنشاط على نحو ما يمثله التاجر الأمريكى « تشــارلز ميليت » Charles Millet فقد أبحر هــذا التاجر من بلاده بسفينته الشراعية المعروفة باسم « آن » ANN ووصل الى ميناء مخا فى ٣٠ يونيو سنة ١٨٢٦ ومعه حمولة ضخمة من البضائع القطنية والمسامير والتبغ حيث أفرغ حمولة سفينته لدى التجار الذين كانوا يقومون ببيعها لحسابه حتى يعود اليهم فى رحلته التالية . وكان « ميليت » هــذا يقوم بشحن سفينته بكميات هائللاً من محصول البن اليمنى يأخذه معه الى بلاده ، ثم يعاود رحلاته الى بلاد الشرق بصــفة منتظمة . ويعتبر ميليت مثالا للتجار الأمريكيين الذين كان لهم دور فعال فى التجارة الشرقية فى ذلك الحين (٤٨) .

جهود البريطانيين لمواجهــة المنافسة الأمريكية وغيرها فى جنوبى البحــر الأحمــر :

وعلى هذا النحو من الجهود التى بذلها التجار الأمريكيون للمشاركة فى التجارة الشرقية بوجه عام وتجارة البن اليمنى بوجه خاص منذ أوائل القرن التاسع عشر ، فقد أحس البريطانيين بأنهم يواجهون منافسا خطيرا لمصالحهم فى جنوب البحر الأحمر والمحيط الهندى (٤٩) ، ففى خلال ثمانية عشر شهرا بين عامى ١٨٣٢ ، ١٨٣٤ وصلت الى مينــاء زنجبــار على الساحل الشرقى لأفريقيا ٣٢ سفينة أمريكية عرجت كثيرات منها الى جنوب البحر الأحمر ، هــذا فى الوقت الذى لم تصل الى الميناء المذكور سوى سبع سفن بريطانية لا غير . وقد وصلت الى ميناء مخا اليمنى مجموعة كبيرة من تلك الســفن الأمريكية لنقل كميــات من البن اليمنى الذى كان يلاقى ترحيبا بالغا وسوقا رائجــة فى الولايات المتحدة حينذاك (٥٠) .

ولا شك أن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية كانت تساند التجــار الأمريكيين فى جهودهم الرامية الى مشاركة الانجــليز بل منافســتهم فى

---

(48) Waterfield, G. Op. Cit., p. 30.
(49) Marston, T. E. : Op.
(50) Coupland, R. : Op. Cit., p. 365.

العمليات التجارية بالأسواق الشرقية بعـــد أن كانوا ينفردون باحتكارها منذ انشاء شركة الهند الشرقية الانجليزية فى عام ١٦٠٠ . ومما يؤكد ذلك الاتجاه لدى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية هو قيامها بعقد أول معاهدة مع سلطان مسقط وزنجبار فى سنة ١٨٣٣ — حيث كانت سفنه تبحـــر بالتجارة فى أرجاء المحيط الهندى والبحر الأحمر وكانت تهدف الى ضمان حسن سير عمليات التبادل التجارى مع التجار الأمريكين (٥١) . أما بالنسبة لسلطان مسقط وزنجبار فقد أقبل على عقد هـــذه المعاهدة بعـــد أن تبين الفوائد الجمة التى ستعود عليه نتيجة لارتبـــاطه مع التجـــار الأمريكيين وحكومتهم بعد أن أصبح لهم دور فعال فى منافسة احتكار الانجليز للتجارة الشرقية فى المحيط الهندى والبحر الأحمر منذ أوائل القرن التاسع عشر .

وتشير بعض الدراسات الوثائقية الى أن بريطانيا لم تكن تواجه فقط منافسا من قبل الأمريكيين التجارة الشرقية عامة وتجارة البن اليمنى على وجه الخصوص . بل انها واجهت أيضا نفس المنافسة من قبل محمـــد على الذى وصلت قواته الى تهامة اليمن لتعقب الضابط الألبانى تركجه بلمـــار المتمرد عليه والذى فر من الحجاز الى اليمن فى سنة ١٨٣٣ . اذ وضح أن محمد على كان يبغى من الوصول الى تهامة اليمن حينذاك السيطرة على تجارة البن اليمنى المربحة ، ومنافسة البريطانيين كذلك فى هذا الميدان . ومما يؤكد ذلك قيامه بفرض ضرائب باهظـــة على التجار التابعين لشركة الهند الشرقية الانجليزية بلغت نسبتها ٧١/٤٪ فى الموانى اليمنيـــة التى استولى عليها .

ونتيجة لذلك فقد قام « اللورد بالمرستون » وزير الخارجية البريطانية بتوجيه تعليماته الى « كامبـــل » للقنصل البريطـــانى فى مصر أول مارس سنة ١٨٣٧ ليطلب بشكل قاطع من محمد على رفع القيود المفروضـــة على التجارة البريطانية على وجه السرعة ، لأن بريطانيا لن تسمح للمصريين بأن يواصلوا طبق هـــذا النظام الذى على العداء الكامل للمصالح البريطانية ، وأنه اذا لم ترفع هـــذه القيود فان الحكومة البريطانية سوف تأخـــذ فى اعتبارها فورا اتخاذ كافة الاجراءات التى تضمن المحافظـــة على « شرف

(51) Waterfield, G. : Op. Cit., 31.

بريطانيا العظمى » وعلى مصالحها التجارية فى منطقة البحر الأحمر (٥٢) .
هـذا فى الوقت الذى كان الأمريكيون يبذلون فيه جهدهم ويحصلون على
نصف حجم التجـارة الموجودة فى الموانى اليمنية فى ذلك الحين (٥٣) .

وقد أكد هـذه الجهود الأمريكية للسيطرة على التجارة اليمنية عامة
وتجارة البن بصفة خاصة فضلا عن عمليات النقل البحرى ، ما أشار اليه
« كامبل » القنصل البريطانى فى مصر الذى ذهب الى وزارة الخارجيـة
فى شهر نوفمبر سنة ١٨٣٧ مشجعا الحكومة البريطانية على تبنى فكرة
الاسراع بامتلاك عدن ، فى الوقت الذى قامت فيه لجنة من « مجلس العموم
باقرار اقامة خـط بحـرى للبواخـر يربط انجلترا بالهنـد . وكان بعض
الخـبراء لا يزالـون يشـيرون الى اسـتخدام مخـا أو سـقطرة أو
بريم أو كمـران كمحطـة للبواخـر البريطانيـة وقاعدة لمنع محمد على
أو غيره من مد فتوحهم الى هذه المنـاطق كمـا تكون — فوق هـذا —
محطة لتزويد السفن الانجليزية بين بومباى والسويس بالفحم وكان يأمل أن
استيلاء انجلترا على عدن يمكنها من وضع يدها على كل محصول البن اليمنى
الذى يحصل الأمريكيون منه على قدر كبير (٥٤) .

واستمر التنافس حاداً بين المصريين والبريطانيين فى أعقاب احتلال
بريطانيا لعدن سنة ١٨٣٩ حول تجارة البن اليمنى على وجه الخصوص .
ففى نهاية شهر فبراير سنة ١٨٣٩ توجه الى عدن مبعوث الشيخ الشرزبى
حاكم اقليم الحجرية اليمنى ليوضح أن الشـيخ الشرزبى يرغب فى زيارة
« هينز » المقيم السياسى البريطانى فى عدن بعد أن تلقى عدة رسائل من
الحاكم المصرى فى اليمن يعرض منحه مكافآت عظيمة ووعودا كريمة اذا هو
سلم اقليمه للمصريين . وأوضح مبعوث الشيخ الشرزبى أيضا أن رئيسه
يرغب فى أن يتفق مع الانجليز لتجد صادرات اقليمه الخصب طريقا ومخرجا
لها عبر عدن وليس عن طريق الموانى اليمنية الأخرى التابعة لحكم محمد على

(52) F. O. 78/318, From Polmerston to Campbell, March I., 1837.

(53) Waterfield, G. : Op. Cit., pp. 31, 32.

(54) Factory Records, Persia, Vol. 58, Colonel Patrich Cappull, British Consul - General in Egypt, to Lord Foreign, Minister, Alexandria, Novemvber I. 1837.

مثل مينائى مخا وحديدة . كما أوضح أيضا أن الحاكم المصرى فى تهامة حذر الشيخ الشرزبى بأنه اذا توجه الى عدن فان الانجليز سوف يقبضون عليه نظرا لمـــا بين الجانبين المصرى والانجليزى حينذاك من علاقات « طيبة » .

وقد أوضح « هينز » لحكومة بومباى ما حدث أنه ليس من المستغرب أن السـلطات المصرية ستكون قلقة للغاية لحرصـها على امتـلاك اقليم الحجرية ، واذا كان دخل هـذا الاقليم من محصول البن اليمنى وحده من خلال تصديره عبر ميناء مخا يبلغ ٦٠,٠٠٠ ستين ألف دولار (أى ما يعادل ١٢,٠٠٠ جنيه استرلينى) سـنويا وأن المصريين كانوا على علم تام بأن الشيخ الشرزى اذا وجـد معبرا لتجارة البن غير عدن ، فان ميناء مخـا الذى يسيطرون عليه ستقل قيمته كثيرا ، وأن تلك الخطوة ستشكل الخطوة الأولى نحو الانهيار الاقتصادى الذى كان لابد من حدوثه فى مخا اذا استمر العلم البريطانى يرفرف على ميناء عدن (٥٥) ولهذا فقد عقد « هينز » مع الشيخ عون بن يوسف الشرزى شيخ الحجرية المعاهدة التى حددت أن ما يرتضيه البريطانيون فى عدن سيكون محل التنفيذ (٥٦) . وواضح من ذلك أن الشيخ الشرزى حاكم الحجرية كان يعتقد أن التعامل مع البريطانيين سوف يوفر عليه كثـيرا من الضرائب التى فرضـتها الادارة امصرية على الصادرات بعد أن أصلحت الموانى اليمنية من جهة ، فضلا عن خشيته من احتكار محمـد على لمحصول البن اليمنى الهام من جهة أخرى .

واذا كان قد سبق أن أثير حوار علمى بعيد المدى حول تحديد ماهية الدوافع الحقيقية لاحتلال البريطانيين لعدن فى ١٩ يناير سـنة ١٨٣٩ . ورؤى أنها تتلخص فى رغبة البريطانيين فى استخدام عدن محطة لتموين السفن البريطانية بالفحم والمياه والمؤن اللازمة ، نظرا لموقعها المتوسط بين بومباى والسويس من جهة ، وصلاحية مينائها للملاحة طوال فصول السنة من جهة أخرى . كما اتخذها البريطانيون مركزا لوقف توسع محمـد على وتصفية نفوذه فى الجزيرة العربية حتى لا يهدد طريقى مواصلاتهم الى الهند

(55) I. O. Secret Department Bombay, to Secret Committee Vol. 6, February 25, 1839.

(56) I. O., Bombay Secret Proceedings, Haines to Bombay Gouernment, April 13, 1854.

عبر الخليج العربى والبحر الأحمر على السواء . بل أن البريطانيين رأوا أن عدن يمكن أن تكون قاعدة دفاعية أمامية (٥٧) . فيما وراء نطاق حدودهم لمواجهة المنافسة من قبل روسيا القيصرية التى كانت تسعى للوثوب على المصالح البريطانية عبر استامبول والعراق وايران من جهة ، ومن قبل فرنسا التى كانت تتسلل لتحقيق غاياتها بضرب بريطانيا فى الشرق عبر البحر المتوسط ومصر من جهة أخرى . هذا فضلا عن الدور الذى كانت تلعبه النمسا أيضا فى ذلك الحين محاولة السيطرة على جزيرة سقطرة الواقعة أمام القرن الأفريقى وعند المدخل الجنوبى لخليج عدن من جهة ثالثة على نحو ما ورد بتصريحات بعض المسئولين البريطانيين فى ذلك الحين (٥٨) . أما مسألة جنوح السفينة الهندية « دوريات دولت » على الساحل اليمنى القريب من عدن وتعرضها للنهب وطلب الانجليز الحصول على التعويض اللازم من سلطان لحج وعدن، ثم نقل ملكية عدن الى الحكومة البريطانية ورفض السلطان ذلك ، فلم يكن هذا الحادث سوى ذريعة للاحتلال ومن نوع الأحداث المناسبة للاستغلال لخدمة الأهداف البريطانية خدمة ممتازة (٥٩) .

اذا كانت هذه الدوافع كلها قد ادت الى احتلال البريطانيين لعدن ، فان رغبة البريطانيين فى الاستحواذ على التجارة اليمنية بوجه عام ، واحتكار تجارة البن اليمنى المربحة حينذاك بشكل خاص ، وتحطيم المنافسة الأمريكية فى هذا المجال بعد أن بدت خطورتها بشكل ملحوظ ، تعتبر من أهم دوافع البريطانيين لاحتلال عدن فى نهاية العقد الرابع من القرن التاسع عشر .

وبعد احتلال البريطانيين لعدن فى أواخر الثلاثينات ونجاحهم فى اخراج المصريين من الجزيرة العربية وفقا لقرارات مؤتمر لندن فى سنة ١٨٤٠ فقد قام محمد على بتسليم منطقة تهامة القريبة من عدن والممتدة على الساحل اليمنى المطل على البحر الأحمر (٦٠) للشريف الحسين بن على

---

(57) Graham, G. S. : Op. Cit., pp. 301, 306.
(58) Marston, T. E. : Op. Cit., p. 58.
(59) Graham, G. S. : Op. Cit., p. 393.
(60) Douin, G. Histoire du Régne du Khédive Ismail Tome III, 1 érr partie, p. 233.

حيدر حاكم أبى عريعر عاصمة المخلاف السليمانى بشمالى اليمن ليحكمها ممثلا للباب العالى (٦١) .

وتجدر الاشارة الى أن الحسين بن على بن حيدر حاكم تهامة الجديد قــد فرض ضرائب باهظة على التجارة والأهالى فى المناطق التابعــة له بحجة أنه يقوم باعداد جيش كبــير يهاجم به عــدن لينتزعهــا من أيدى البريطانيين .

كما رفع الحسين نسبة الضرائب على البضائع البريطانية فى مينــاء مخــا حتى بلغت ٧٪ من قيمتها ، بل انه أهان الرعايا البريطانيين فى مخا ورفض ارسال المؤن اللازمة الى عدن . ثم ذهب الى أبعد من ذلك عندما أنزل العلم البريطانى عن مبنى الوكالة الانجليزية فى مخا (٦٢) ، وأرســل خطابا الى المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى شهر سبتمبر سنة ١٨٤٠ اتهم فيــه « عبد الرسول » وكيل البريطانيين فى مخا بأنه « كاذب ومنافق » كما اتهم الانجليز بأنهم يعملون على تخفيض الضرائب بمــا يؤثر تأثيرا سيئا على دخل حكومته فى تهامة اليمن (٦٣) .

وعندما علمت حكومة لندن وخاصة وزارة الخارجية البريطانية ، عن طريق « مجلس شئون الهند » India Board الذى كان يدير شئون شركة الهند الشرقية فى لندن ، بالتصرفات العــدائية التى قام بها الشريف حسين حاكم تهامة ضد الوكالة البريطانية فى مخا ، فقد ثارت ثورة عارمة حفاظا على مصالح بريطنيا فى البحر الأحمر . ولــا كانت وزارة الخارجية البريطانية لا تعلم حقيقة الأوضاع القائمة فى المنطقة واستنادا الى أن كل ما فتحه محمد على فى الجزيرة العربية قد آل الى الدولة العثمانية ، فان الوزارة قد احتجت على الباب العالى فى الآستانة (٦٤) . وقــد ســارع الباب العالى الى ارسال أشرف بك الى مخا لاقرار الأمور بما يتفق والمصالح البريطانية . وقــد مر بمصر أثناء توجهه الى مخــا فى شــهر مارس

---

(61) Marston, T. E. : Op. Cit., p. 100.
(62) F. O., 78/3/85, Haines to Secret Committee, 9/14/40.
(63) Marston, T. E. : Op. Cit., p. 102.
(64) I. O., B. S. C. 1842, Government of India to Bombay, 2/28/42, enclosing Aberdeen to Fitzgerald, 12/22/41.

سنة ١٨٤٢ (٦٥) وأعطيت له صلاحيات عزل الشريف حسين نفسه اذا استدعت الضرورة ذلك على نحو ما أخطرت الحكومة البريطانية « هينز » بذلك في شهر مايو من تلك السنة .

وعلى أية حال فقد ضاق أهالي تهامة بعبء الضرائب التي فرضها الحسين عليهم في تهامة ، فضلا عن الضرائب التي فرضها على البضائع الانجليزية وبدأوا يفرون من مخا والحديدة متجهين الى عدن . وقد انتشرت في عهد الحسين الأمراض في اليمن مما جعله يخشى على رجاله ويصدر أوامره لجميع السفن الراسية في مخا والحديدة بافراغ شحناتها ونقل المرضى فقط الى عدن . وقد بلغ معدل الداخلين الى عدن شهريا حوالي ألف ومائتين من سكان تهامة .

وقد ترتب على ذلك أن ازداد تعداد السكان في عدن وبدأت المدينة تتوسع لتستقبل المهاجرين والتجار والداخلين اليها حتى بلغ عدد منازل المدينة ألفي منزل بنيت من الحجارة والطين فوق بقايا مدينة عدن القديمة . وفي سنة ١٨٤٢ بلغ تعداد سكان عدن خمسة عشر ألف نسمة وانتعشت المدينة واستعادت بعض مجدها الغابر ، خاصة بعد أن أصبحت ميناء حرا مفتوحا للتجارة في سنة ١٨٥٠ (٦٦) .

وقد أجرى احصاء رسمي لسكان عدن في سنة ١٨٥٦ ووجد أن تعداد السكان حينذاك قد بلغ ٢٠٫٦٥٤ نسمة . وفي سنة ١٨٧٢ أجري احصاء آخر في عدن أظهر مدى التزايد المستمر في تعداد السكان الذي بلغ حينذاك ٢٩٫٢٨٩ نسمة . وكان تعداد الجنود بينهم ٣٫٤٣٣ ، أما بقية السكان فكان بينهم ٨٫٢٤١ يمنيا ، و ٤٫٣٤٦ صوماليا ، و ٢٫٦١٤ هنديا مسلما ، و ١٫٤٣٥ يهوديا ، و ٨٥١ هنديا من البانيا من غير المسلمين ، و ١٨٢ بريطانيا مدنيا . أما الباقون فكانوا من الأتراك والايرانيين والمصريين والأكراد والصينيين وبعض الأوربيين ، وأمريكي واحد فقط . وكان ذلك الأمريكي هو « المستر وليم لوكرمان » الذي كان يشتغل بالتجارة . وقد

(65) F. O., 78/502, Barnett to F. D., 3/20/42.

(٦٦) حمزة علي ابراهيم لقمان : تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ، ص ٢٢١

عينته حكومة الولايات المتحدة الأمريكية قنصلا فخريا فى عدن فى سنة ١٨٧٩ ، غير أن القنصلية الأمريكية الرسمية أنشئت فى سنة ١٨٩٥، وكان القنصل الرسمى فى عدن حينذاك هو « مستر ماسترسن » (٦٧) .

ولا شك أن تزايد سكان عدن على النحو المشار اليه انما يؤكد حرص البريطانيين على تنشيط تلك المدينة بحيث تجتذب النشاط التجارى من الموانى اليمنية الأخرى أمثال مخا والحديدة وكان ذلك نتيجة طبيعية لجهود البريطانيين فى كسر احتكار التجار الأمريكيين للتجارة اليمنية عامة وتجارة البن اليمنى على وجه الخصوص . وقد واجه البريطانيون مواقف الشريف الحسين بن على بن حيدر حاكم تهامة بتركيز جهودهم لنقل النشاط التجارى من موانيه ليتركز هذا النشاط فى عدن . واتفق مع البريطانيين فى هذا الموقف امام صنعاء الذى كان يعادى الحسين ويرغب فى استرجاع تهامة من قبضته ومن تبعيتها للدولة العثمانية . غير أن المقيم السياسى البريطانى فى عدن « هينز » Captain Haines لم تكن لديه تعليمات بعقد اتفاق مع امام صنعاء للتعاون عسكريا ضد الشريف الحسين حاكم تهامة ، وهذا قد جعله يرد محاولتين من جانب الامام لطلب التعاون . غير أنه عرض على الامام أن يفتح ميناء عدن لتصدير البن اليمنى بدلا من تصديره عن طريق مخا . بل ان المقيم السياسى « هينز » أخطر المجلس السرى The Secret Board لشركة الهند الشرقية الانجليزية فى ١٠ أبريل سنة ١٨٤٢ بأن امام صنعاء عاد مرة أخرى وعرض عليه تعاون بريطانى يمنى لحصار ميناء مخا فى مقابل تنازل الامام لبريطانيا عن تهامة بعد تخليصها من حكم الحسين (٦٨) . وقد وصل الأمر بالامام الى هذا الحد نكاية بالحسين نظرا لأنه لم يكن قادرا على التغلب عليه حينذاك .

وفى نفس الوقت وجه الشريف حسين ضربة اقتصادية ضد البريطانيين فى عدن عندما هبط بالضريبة الجمركية على البن المصدر من مخا على السفن الأمريكية الى ٣٪ فقط ، بل انه تنازل أيضا عن رسوم

---

(٦٧) حمزة على ابراهيم لقمان : نفس المصدر ، ص ٢٢٢
(68) Marston, T. L. : Op. Cit., pp. 103, 105.

الرسو فى الميناء فى سنة ١٨٤٢ . وكان يهدف من وراء ذلك الى توجيه عمليات تصدير البن الى مخا بدلا من عدن حتى أنه أقنع « مستر ويب » Mr. Webb قائد السفينة الأمريكية « راتلر » Rattler بأخذ شحنات البن اللازمة له بصفة دورية من مخا (٦٩) ، وكان طبيعيا أن يرحب هذا التاجر الأمريكى باستيراد البن من مخا بدلا من عدن بتلك الشروط المرضية، وحتى يتفادى منافسة البريطانيين للأمريكيين فى هذا المجال .

وازاء هذا الموقف فقد رأت حكومة الهند البريطانية أن تسعى من جانبها لاقامة علاقات ودية مع الحسين بن على بن حيدر بعد أن ملك زمام الأمور فى تهامة محاولة استرضاءه . ولهذا أصدرت تعليماتها الى « كابتن مورسبى » للتقدم تجاه ميناء مخا لمحاولة استرضاء الشريف حسين واقامة علاقات ودية معه . وقد نجح « كابتن مورسبى » فى الاتفاق مع شريف مخا وعقد معه معاهدة تجارية تتفق والمصالح البريطانية فى البحر الأحمر (٧٠) ، وكانت السياسة البريطانية قد اتجهت حينذاك الى اغفال أمر الدولة العثمانية صاحبة السيادة فى سواحل البحر الأحمر ، وشرعت تتحالف مع بعض شيوخ تلك المناطق أو صغار أمرائها وتحصل منهم على صك بالتنازل عن بعض الأماكن التى فى حوزتهم (٧١) . وقد تمكنت بريطانيا من وضع أقدامها فى تلك الأرجاء باتباعها لهذه السياسة .

وعندما قتل امام صنعاء فى شهر ديسمبر سنة ١٨٤٩ فقد تعرضت اليمن لحالة من الفوضى والاضطراب ، وتوقفت الطرق المؤدية الى مخا والحديدة . بل ان الضرائب الباهظة التى فرضها الترك فى مخا أدت الى توقف الحركة التجارية بها وتدفقت التجارة بعد ذلك الى عدن فى سنة ١٨٥٠ (٧٢) مما أدى الى زيادة عدد سكانها على النحو الذى أشرنا اليه نتيجة لانتعاشها من الناحية التجارية على وجه الخصوص .

(69) I. O., B. S. C., 1842, Haines to Bombay, 5/31/42.

(70) I. O., B. 8, Memorandum on the Turkish Claim to Sovereignty over the Eastern Sbboecs of the Red Sea .. etc., pp. 14, 15.

(٧١) محمد صبرى (دكتور) : مصر فى أفريقية الشرقية ، هرر وزيلع وبربره ، ص ١٧

(72) Marston, T. E. : Op. Cit., pp. 152, 153.

وجدير بالذكر أن العثمانيين بعد أن استقروا فى تهامة فى سنة ١٨٤٩ حاولوا أن يسيطروا على مناطق انتاج البن لتحويل تصديره الى مخا والحديدة بدلا من عدن . غير أنهم لم يوفقوا فى ذلك نظرا لرفض القبائل الزيدية للسيطرة التركية على بلادهم . وأصبح لذلك معظم محصول البن اليمنى يصدر لخارج اليمن عن طريق عدن حيث يتفادى التجار دفع الضرائب التى كان يفرضها الأتراك فى ميناءى مخا والحديدة ، مما أدى الى اضمحلال الحركة التجارية فيهما ، وأثر ذلك بالتالى تأثيرا بالغا على اقتصاديات اليمن .

وقد حدث ذلك فى الوقت الذى حرص فيه البريطانيون على أن يظل ميناء عدن حرا (٧٣) Free port كما أن الغالبية العظمى من السفن اتجهت الى ميناء عدن وفضلته عن غيره لاعتبارات معينة . أهمها أن الرسو فى عدن يوفر على التجار دفع ضريبة قدرها ٥٪ للجمرك العثمانى بالنسبة للسفن البريطانية . أما بالنسبة للسفن غير البريطانية فكان عليها أن تدفع ضريبة قدرها ١٢٪ الى جانب ضريبة أخرى تدفع على كل بالة بن . هذا فضلا عن أن الرحلة فى البحر الأحمر كانت خطيرة نسبيا نظرا لكثرة الشعاب المرجانية وكان يمكن تجنبها أو اختصارها اذا ما أتيحت لتلك السفن فرصة الرسو فى ميناء عدن (٧٤) .

هكذا تحولت مخا الى مدينة خاملة واصبحت تجارتها ضئيلة ودخلها تافه ، كما أن القلة الباقية فيها من سكانها كانوا على استعداد للرحيل الى عدن اذا ما سمح لهم بذلك . وكان « هينز » المقيم السياسى البريطانى فى عدن حينذاك يرقب كل ما يدور عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر وفى الموانى الواقعة هناك . وقد أبلغ حكومته فى بومباى فى شهر مايو سنة ١٨٥٠ عن حالة الانهيار التى اعترت ميناء مخا اليمنى (٧٥) ، مما سيؤدى بالتالى الى ازدهار النشاط التجارى فى عدن نتيجة لهجرة معظم سكان مخا اليها . وقد تحولت كل تجارة البن اليمنى المتجمعة من جميع مناطق انتاج البن فى اليمن الى ميناء عدن فى سنة ١٨٥٢ حيث

---

(73) Waterfield, G. : Op. Cit., p. 200.
(79) Marston, T. E. : Op. Cit., 159.
(75) Marston, T. E. : Ibid., p. 162.

اصبح يتم تصديره الى أوربا وأمريكا من هناك . وقد بلغت كميات البن المنقولة من مناطق زراعتها الى عدن فى السنة المذكورة أربعة آلاف حمولته ، وكل حمولة منها كانت زنتها ثلاثمائة رطل . وقد جذبت تجارة البن اليمنى الى عدن تجارة الأمريكيين الضخمة التى بلغ حجمها أكثر من ٢٨٫٠٠٠ ثمانية وعشرون ألف جنيه استرلينى فى سنة ١٨٥٢ ، كما تضاعف حجمها فى العام التالى . هذا مع العلم بأن الحجم الكلى للتجارة فى عدن كان يقدر حينذاك بحوالى ٦٠٠٫٠٠٠ ستمائة ألف جنيه استرلينى سنويا (٧٦) . وكان ذلك دليلا على نجاح الانجليز فى كسر احتكار الأمريكيين لتجارة البن اليمنى التى كان يعتبر ميناء مخا مركزها الرئيسى خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وأصبحت هذه التجارة فى قبضة الانجليز وتتم تحت اشرافهم فى ميناء عدن بعد سيطرتهم عليها فى عام ١٨٣٩ .

(76) I. O., Haines to Bombay, May 29, 1952, Letters from Aden, Vol. 32,

١٩

سياسة مصر واستراتيجيتها فى البحر الأحمر

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

الأستاذ الدكتور شوقى عطا الله الجمل
معهد البحوث والدراسات الأفريقية ـــ جامعة القاهرة

لم يفتر اهتمام الفرنسيين بطريق البحر الأحمر بعد اضطرارهم للجلاء عن مصر ١٨٠١ بل لعل العكس هو الصحيح اذ أن الأحداث التى لازمت احتلالهم لمصر وجلاءهم عنها لم تزدهم الا يقينا بأهمية البحر الأحمر كطريق ملاحى هام ، والـــدليل على ذلك أن نابليون أوفـــد فى عام ١٨٠٢ لمصر الكولونيل سابستيانى Sabastiani مكلفا بمراقبـــة الأوضاع فى هذه المنطقـــــة الهـــامة .

وقد أصبح سابستيانى فى عام ١٨٠٦ سفيراً لفرنســـا لدى الدولة العثمانية ليتـــابع عن كثب من موقعـــه هـــذا تطور الأحـــداث فى هـــذه المنطقـــــة (١) .

وفيما يتعلق بانجترا فقد لمست عمليا مدى التهديد الـــذى يمكن أن يوجه لمصالحها الحيوية فى الشرق اذا سيطر على الطريق الملاحى القصير المؤدى لهذه الجهات عدو ، وظل ذلك الدرس الذى تعلمـــه الانجليز من الحملة الفرنسية على مصر عالقا فى أذهانهم ومسيرا لسياستهم فى المنطقة

---

(١) عن رحلة سابستيانى ـــ وأهدافها أنظر :
Hoskins, G. A. : British Routes to India (1928) p. 61.

كلها طول القرن التاسع عشر بل وطوال الفترة المنصرمة من القرن العشرين التى كانت لانجلترا فيها دور هام فى السياســة العالميــة قبل أن تترك مضطرة هذا الدور لغيرها من القوى الاستعمارية الأخرى . وبنـــاء على ذلك رسمت انجلترا سياستها على أساس السيطرة على منافذ البحر الأحمر والأقاليم المطلة عليه ، فاستولت فى عام ١٧٩٩ على جزيرة بريم عند مدخل بوغاز باب المنــدب ، كما عقدت فى عام ١٨٠٢ والأعوام التالية مجموعة من معاهدات الصداقة مع سلطان (لحج ورؤساء وشيوخ القبائل العربية بطول الساحل الغربى وبجوار الخليج (الفـــارسى) تربطهم بالســـياسة الانجليزية (٢) .

وحين أخذ محمد على يوسع نفوذه فى سائر أنحاء الجزيرة العربية بعد أخماد الحركة الوهابية (١٨١١ — ١٨٣٩) أبدى الانجليز قلقهم من هذا التوسع المصرى وظلوا يكيدون له ومن ذلك استيلائهم على عدن ١٨٣٩ قبيل أن يضطر محمد على الى الجلاء عن اليمن والجزيرة العربيـــة كلهـــا والشام وكريت .

هذا من جهة الشطر الجنوبى من هذا الطريق الملاحى الهام — أما فيما يتعلق بالشطر الشمالى الذى تسيطر عليه مصر — فقد أدرك الانجليز أهمية وجود خط ملاحى منتظم بين الهند وانجلترا عبر البحر الأحمر والبحر المتوسط — لــكن بريطانيا كانت حريصة على ألا يكون هناك منافس لها فى هذا المجال الحيوى .

فمنذ بداية القرن التاسع عشر كثر الحــديث فى الصحف الهنــدية والانجليزية عن الصلة بين البحرين المتوسط والأحمر ، وأشـــارت هــذه الصحف الى أن البحر الأحمر يمتد كقناة طبيعية واسعة تمتد للشمال حتى

---

(٢) فيما يتعلق بهذه المعاهدات — أنظر :

Ghorbal, Shafik : The beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali (1928) p. 156.

تقابل تقريبا البحر المتوسط ، وأن الطبيعـة فى عملها قد خلقت هـذين البحرين لتسهيل الاتصـال بين أوربا وآسيا وأفريقيـا ، وتركت لعبقرية الانسان أن توجد الوسائل لاتمام الاستفادة من تنظيماتها هذه (٣) .

وقد بذلت فعلا عدة محاولات من شركات بريطانية وأفراد لتـذليل العقبات التى تعترض وجود خط ملاحى منتظم بين الهنـد وانجلترا عبر البحر الأحمر والمتوسط .

وأثير هذا الموضوع فى مجلس العموم البريطـانى فى عام ١٨٣٤ ، وانتهى النقاش والبحث فى المسألة الى القول بأنه وان كان انشـاء خط ملاحى تجارى عبر البحرالأحمر بين الهند وانجلترا سيحمل دافعىالضرائب فى انجلترا عبئا أكبر الا أن مثل هذه المواصلات السريعة مع الشرقستحل كثيرا من مشكلات الادارة وستخدم المصالح الانجليزية فى الهند — ولذا قرر المجلس أنه يجب أن يبت حالا فى مسألة اتصال تجارى منتظم معالهند عبر البحر الأحمر (٤) .

على أن انجلترا كما ذكرنا كانت حريصة كل الحرص على ألا تشاركها قوة أخرى النفوذ فى هذا المجال الحيوى .

وقد ظهر ذلك الاتجاه الانجليزى بوضوح فى سياسة انجلترا تجاه فرنسا كما ظهر فى سياستها تجـاه مصر والدول الأخرى صـاحبة الحق الطبيعى فى هـذه الجهـات .

والسؤال الذى يفرض نفسه علينا بعد أن لمسنا الأطماع الجامحـة للدول الاستعمارية فى هذا الطريق الحيوى هو :

هل كانت لمصر سياسة معينة أو استراتيجية محددة تواجه بها هذه التيـارات الدولية المتباينة فى هذه المنطقة الحيوية بالنسبة لها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ؟ .

واذا كانت الاجابة بالايجاب ما هى الخطوط العريضة لهذه السياسة والاستراتيجية ؟ .

---

(3) Hoskins : British Routes to Lndia p. 41.

(4) Hoskins : British Routes to India p. 125.

وهو ما سنحاول الكشف عنه فيما يلى :

أولا : ــ اهتمام مصر بتيسير ربط البحرين المتوسط والأحمر :

(أ) الاهتمام بالطرق البرية والحديدية :

أدركت مصر ادراكا كاملا أهمية البحر الأحمر كطريق ملاحى ، كما أدركت حقيقة الصراع الذى يدور حول النفوذ فى هذه المنطقة .

ولذا فقد كانت سياسة مصر واستراتيجيتها منذ أوائل القرن التاسع عشر وفى النصف الثانى منه على وجه الخصوص قائمة على أساس الادراك الكامل لحقيقة الأوضاع فى هذه المناطق .

وبينما اتجهت جهود الحكومة العثمانية منذ بسطت نفوذها على مصر والحجاز فى القرن السادس عشر الى تجميد النشاط فى البحر الأحمر قدر الامكان ، فحرمت على السفن الأوربية أن تبحر شمالى ثغر جدة بحجة أنه يؤدى الى الأماكن المقدسة الاسلامية ــ فقد عمدت فى عهد محمدعلى الى تنشيط وتأمين الحركة التجارية عن طريق البحر الأحمر . ففى عام ١٨٣٩ م أنشىء خط التلغراف بين السويس والقاهرة فأصبح فى امكان المسافرين البقاء فى القاهرة الى أن تصل البرقية التى تفيد بأن باخرتهم مستعدة للرحيل من السويس ليبدأوا رحلتهم الصحراوية (٥) .

ودرس مشروع مد خط حديدى من الاسكندرية الى القاهرة ، ومن القاهرة الى السويس لتيسير التجارة عبر مصر ، وتشجيع السفر ونقل المتاجر عبر الطريق البحرى القصير .

والعجيب أن انجلترا صاحبة المصلحة الحيوية فى هذا الطريق الذى ييسر اتصالها بمستعمراتها فى الهند ــ لم تقف فى ذلك الوقت من هذا المشروع موقف المؤيد ــ كما كان يتوقع محمد على .

---

(٥) فى ذلك الوقت كانت القوات المصرية قد بسطت سيطرتها على كل القبائل فى الجزيرة العربية وبذا أصبحت الموانى فى الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر فى قبضة المصريين .

ولعل التفسير المعقول لهذا التصرف الغريب من انجلترا هو أنهـا كانت تدرك أهمية هذا الطريق — لـكنها لم تشأ أن تضع أى جزء من هذا الطريق الحيوى تحت رحمة محمد على وقد أشرنا لنظرتها له . والدليل على ذلك أنها شجعت الأفراد والشركات الانجليزية للقيـام بما لم ترض عن قيـام مصر به ، ويذكر من هؤلاء على سبيل المثال توماس واجهورن Thomas Waghorn ورافين وهيل Raven and Hill الذين عمدوا الى بنـاء فندى لمبيت المسافرين عبر طريق القاهرة — السويس الصحراوى وتهيئة عربات لنقل المسافرين والبضائع عبر هذا الطريق أيضا (٦) .

وقد كانت معارضة انجلترا للمشروع المصرى كفيلة بتعطيله ، فحين وجد محمد على أن انجلترا صـاحبة المصلحة الأولى فى هـذا الطريق لا تساند مشروعه — رأى أنه أصبح من غير العملى أن يستمر فى تنفيذ الخط الحديدى . ولذا بقيت القضـبان الحديدية التى وصلت الى مصر متروكة ليـأكلها الصـدأ ، بينما تركت الفلنكات الخشـبية تحت رحمـة السوس والشمس ، ولم يتح لهـذا المشروع الهام أن ينفذ الا بعد ذلك بعشرين سنة تقريبـا ، وبعد أن سعت انجلترا نفسها سعيا حثيثا لتحقيقه .

وحين تولى عبـاس الحكم (٧) وكانت لقنصـل انجلـترا فى مصر شـارل ميرى C. Merry حظوة وكلمـة مسموعـة لديه — اتجهت السياسة الانجليزية الى تيسير طريق المواصلات البرى بين الاسكنـدرية والقاهرة ، وبين القاهرة والسويس عن طريق السكك الحديدية — بينما عارضت كل المعـارضة فى شق القناة البحرية فى برزخ السويس لأنها كانت ترى أن شق القنـاة سيتيح الفرصة للدول البحرية المنـافسة لها للدخول فى البحر الأحمر وتهـديد المصـالح الانجليزية فى هذه المنطقة الحيوية .

وقد نجحت الدعاية الفرنسية فى تجريح مشروع خط السكة الحديدية بين القـاهرة والسويس ووصفته بأنه يمثل الأنانية الانجليزية لأنه يخـدم

---

(6) Johnston, H. : Britain Across the seus, Africa (1911) p. 342.

(٧) تولى الحكم فى ٢٤ نوفمبر ١٨٤٨ م .

أغراض انجلترا بينما لايخدم مصر فى شىء اذ أنه سيمر برقعة صحراوية جرداء ، ولذا اقترح القنصل الانجليزى على عباس أن يركز جهوده على مد الخط من الاسكندرية الى القاهرة عبر الدلتا .

وفعلا أبرم عباس مع المهندس الانجليزى روبرت ستيفنسن R. Stephenson عقدا ليقوم بمد خط السكة الحديدية من الاسكندرية الى القاهرة .

و هاجمت فرنسا المشروع وحرضت السلطان العثمانى لمعارضته خاصة أن عباس لم يحصل على اذن من السلطان قبل ابرام العقد المذكور .

وكان موقف السلطان العثمانى واضحا فى أنه لا يعارض المشروع لكنه يتمسك بضرورة حصول الوالى على اذن من السلطان كما يقضى بذلك فرمان سنة ١٨٤١ ، كما اشترط أن ينفذ المشروع بأموال مصرية وألا يقترض الوالى أموالا من الخارج وألا يفرض ضرائب جديدة وألا يزيد من قيمة الضرائب الموجودة .

ولما وجدت انجلترا أن الأزمة قد أصبحت من البساطة بحيث انحصرت فى مسألة الحصول على اذن وبعض التحفظات التى أشرنا اليها نصحت عباس بأن يجيب السلطان الى ما طلب فقبل عباس وانتهت أزمة السكة الحديدية .

وقد تم من السكة الحديدية فى عهد عباس الخط الواصل بين الاسكندرية وكفر الزيات وأكمل الخط فيما بعد فى عام ١٨٥٦ فى عهد سعيد .

واهتم عباس باصلاح طريق القاهرة — السويس البرى فرصفه بالحجارة وبذا أصبح صالحا لسير العربات فيه بسهولة .

وفى عهد سعيد تم مد الخط الحديدى بين القاهرة والسويس وفتح للمواصلات سنة ١٨٥٨ .

وهكذا ترتب على هذه السياسة المصرية ازدياد نشاط الحركة

التجارية فى البحر الأحمر فدب النشاط فى ميناء السويس مما دعا سعيد الى العمل على اصلاح الميناء ليساير النشاط الملاحى الجديد فعهد الى ركة ديسو الفرنسية Dussau بتوسيع الميناء وانشاء حوض ائم به لاصلاح السفن .

وساهمت مصر فى تنظيم الملاحة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى والخليج الفارسى بانشاء الشركة المجيدية لتسيير البواخر فى هذه البحار.

(ب) قناة السويس وربط البحرين بطريق مائى :

رأينا كيف تمثل الصراع بين انجلترا وفرنسا على النفوذ فى البحر الأحمر فى مشروع طريق الاسكندرية ـ القاهرة ـ السويس البرى الذى كانت تحتضنه انجلترا ، ومشروع حفر قناة بحرية تربط البحرين المتوسط والأحمر الذى احتضنته فرنسا ، وكيف رسمت مصر منذ بداية القرن التاسع عشر سياستها وسط هذه التيارات العاتية .

وحين جاء سعيد للحكم استبشر المسيو فرديناند دليسبس خيرا وعاوده الأمل فى نجاح مشروعه الخاص بحفر قناة تربط البحرين الأحمر والمتوسط. ونجح فى أن يحصل فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ على الفرمان الأول ، كما حصل فى ٥ يناير سنة ١٨٥٦ م على فرمان يفصل الفرمان الأول ويدعمه .

وكان طبيعيا أن تقف انجلترا فى طريق تنفيذ هذا المشروع . فكما رأينا كان يهمها توفير المواصلات السهلة بينها وبين مستعمراتها فى الهند لكنها كانت تعتمد على سيادتها البحرية ، كما كانت قانعة بالاصلاحات التى طرأت على الطريق البرى وبخصة بعد أن مدت السكة الحديدية، فنظرت لمشروع القناة التى تصل البحرين على أنه مشروع فرنسى ورسمت سياستها من هذا المنطلق .

ولذا فقد حرضت السلطان على عدم الموافقة على المشروع وعدم التصديق على الامتياز الممنوح لدليسبس ورغم ذلك فقد بدأت الشركة التى أسسها دليسبس العمل فعلا ، وبدأ الحفر من ناحية البحر المتوسط مكان بورسعيد الحالية حتى بحيرة التمساح ومات سعيد فى ١٨ يناير

سنة ١٨٦٣ تاركا لخلفه اسماعيل مشكلة القناة التى العمل قد سار فيها الى هذا الحد رغم معارضـــة انجلترا ورغم عدم صدور الفرمان العثمانى بالتصـــديق على الامتياز .

وقد أفصحت الحكومة الانجليزية عن أطماعها ، فاشترطت للموافقة على مشروع القناة أن تحتل هى السويس ، وقـــد وضعت السياســـة الانجليزية هذا الهدف العجيب نصب أعينها حتى تم لها تحقيقه حين احتلت انجلترا السويس ومدن القنال الأخرى بل مصر بأسرها فيما بعد .

واذا كانت سياسة مصر قد أملت عليها تيسير ربط البحرين المتوسط والأحمر عن طريق حفر هذه القناة المائية بالاضافة الى الاهتمام بالطرق البرية والحديدية التى تربط البحرين — فمن الواضح أن مصر كانت تهدف لأن تكون القناة لها تخدم الملاحة وتيسر الاتصـــال لا أن تتحكم هذه القناة فى مصر ومستقبلها .

لكن هذا التحكم فى القناة وتسخيرها لخدمة الملاحة ولخدمة مصالح مصر لم يكن ممكنا الا فى ظل حكومة قوية تستطيع فرض نفوذها وسلطانها على القناة التى تخترق أراضيها وعلى الشركة التى تديرها .

وهذا الأمر لم يكن متيسرا دائما خاصة فى ظروف الصراع الـــدولى الذى أشرنا اليه ولذلك فقد انقلبت الآية وسخرت القناة لا لخدمة مصر بل للتحكم فيها والنيل من استقلالها .

ثانيا : — بسط الادارة المصرية على موانى البحر الأحمر للوقوف فى وجه الأطمـــاع الاستعمارية :

على الرغم من أن الدولة العثمانية كانت قـــد بسطت سلطانها على ثغور البحر الأحمر الافريقية الهامة أثر موجة النشاط والمد العثمانى الذى بدأ فى القرن السادس عشر فى الفترة التى تلت فتح العثمانيين لمصر ، فان هذه الموجة لم تلبث أن انحسرت — خاصة حين شغلت الدولة العثمانية بمشاكلها الـــكثيرة فى أواسط أوربا وفيمايقابل البحر الأســـود ، وفيما يقابل موضع تلاقيها مع الدولة الايرانية فى اذربيجان — فأهملت فى خضم هذه المشاغل هذه السواحل الهامة المطلة على البحر الأحمر .

حدث هذا في الوقت الذي اتجهت فيه أنظار الدول الاستعمارية لهذه الثغور والمنافذ الواقعة على البحر الأحمر خاصة في القرن التاسع عشر، فأخذت تثير النزاع بين القبائل بقصد أن تجد من اضطراب الأمن ثغرة تنفذ منها الى هذه الجهات (٨) .

ولذا اتجهت مصر في عهد محمد من جانبها لمواجهة الأخطار المحدقة بهذه الجهات والمترتبة على اتجاه الأطماع الاستعمارية اليها . ونشير هنا بايجاز لجهود مصر لحسم الأمر ببسط نفوذها على هذه الثغور والموانيء .

فحين امتد النفوذ المصري لبلاد العرب في عهد محمد على الحقت بادارته « ولاية الجيش » العثمانية وهو الاسم الذي كان يطلق على الموانى الواقعة على ساحل البحر الأفريقي التي خضعت للعثمانيين وأهمها سواكن ومصوع وكانت جدة تابعة لهذه الولاية .

ثم سحبت هذه الادارة من مصر عقب تسوية ١٨٤٠ وانسحاب محمد على من بلاد العرب — لكن أحيلت ادارة جمرك مصوع وسواكن لمحمدعلى مرة أخرى في سبتمبر عام ١٨٤٦ فأحال أمر ادارتها الى مديرية التاكة.

وقد أشار دوان DOUIN الى أن دخول هذه الجهات في حوزة الادارة المصرية كان كفيلا بوضع حد لتدخل الأجانب في شئونها (٩) .

وفي عهد عباس أعيدت ادارة جمركي مصوع وسواكن لايالة جده في عام ١٨٤٨ . لكن سعت مصر بعد ذلك في عهد اسماعيل لاعادة ادارتها لمينائي سواكن ومصوع ، وقد بذلت عدة محاولات وتبودلت عدة

---

(٨) أنظر ماكتبه الرحالة الانجليزي برتون عن أهمية الثغور — الممتدة من السويس الى جردفون لانجلترا . ونصيحته لحكومته باحتلال هذه الثغور وذلك في مواضع عديدة من كتابه :

Burton : First Footsteps in east Africa (London 1856) pp. 33 & 409 & 504.

(9) Douin : Histore du Regne du Khedive Ismail Tome 111, 2me Fertie (LeCaire 1936) p. 176.

خطابات فى هذا الشأن بين جدة ومصر والسلطنة العثمانية (١٠) .

وفى أواسط ذى الحجة ١٢٨١ هـ) مايو ١٨٦٤ (أصدر السلطان عبد العزيز بن محمود الثانى فرمانا باحالة ميناءى سواكن ومصوع للادارة المصرية على أن تورد مصر لخزينة جده ٢٥٠٠ كيس سنويا (١١) .

وعدل فرمان الاحالة هذا فيما بعد ، ففى فرمان تغيير الوراثة الصادر فى ٢٠ المحرم سنة ١٢٨٣ هـ (٢٧ مايو ١٨٦٦ م) جعلت الاحالة وراثية فنص على أن تنتقل ولاية مصر مع ماهو تابع لها من الأراضى وكامل ملحقاتها وقائمقامى سواكن ومصوع الى أكبر أولاد الوالى بطريق التوارث وبالصورة نفسها الى أكبر أولاد ذريته (١٢) .

وأثر صدور الفرمان السلطانى تسلمت الادارة المصرية سواكن، بينما تأخر تسليم ميناء مصوع بعض الوقت بسبب انشغال مصر بثورة الجند فى التاكة .

وبعد أن استقر الأمر لمصر فى مصوع وسواكن ، شكلت منهما ومن الأقاليم السودانية الأخرى المطلة على البحر الأحمر ومديرية التاكة محافظة جديدة عرفت باسم (محافظة سواحل البحر الأحمر) ، وعين أحمدمختار باشا مديرا عاما لشرقى السودان ومحافظة البحر الأحمر (١٣) .

على أن ادارة هذه الأقاليم لم تستقر على وتيرة واحدة ، ففى رجب ١٢٨٨ هـ ألغيت حكمدارية السودان ومحافظة سواحل البحر الأحمر ،وتم

---

(١٠) أنظر هذه المراسلات والأسباب التى بررت مصر بها طلب ضم هذه المناطق لادارتها فى : دفتر نمر ٢١ ص ٢٢٨ (ترجمة وثيقة رقم ٥٩ فى ٢٧ رجب ١٢٨١ هـ) وكذلك الخطابات المرسلة لشريف مكة ووالى جده فى : سجل ٢٤ ، لبدين مكاتبة رقم ٨٤ فى ١٤ شوال ١٢٨١ هـ . ودفتر ٢١ عابدين تركى ص ٢٧٤ مكاتبة ٢٧٤ فى ٧ ذى القعدة ١٢٨١ هـ

(١١) مجموعة الفرمانات الشاهانية — فرمان رقم ٩١٣ فى ١٥ ذى الحجة ١٢٨١ هـ .

(١٢) مجموعة الفرمانات الشاهانية فرمان رقم ٩٢٥ فى ١٢ محرم ١٢٨٣ هـ .

(١٣) دفتر ١١ عابدين وارد تلغرافات ترجمة تلغراف رقم ١٢٨٤ فى ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٨٧ هـ .

تقسيم السودان الى مديريات ومحافظات مستقلة ، على أنه أعيد توحيد ادارة محافظتى مصوع وسواكن فى محرم سنة ١٢٨٩هـ .

وحين تقلد غوردون حكمدارية الأقاليم السودانية فى صفر سنة ١٢٩٤ ، أحيلت اليه أيضا جهات شرق السودان وسواحل البحر الأحمر حتى مصوع وسواكن (١٤) .

ولما كانت أنظار الانجليز على وجه الخصوص ، وأطماعهم متجهة الى بربره لأهمية موقعها فى مدخل البحر الأحمر الجنوبى (١٥) فقد اتجهت الحكومة المصرية لمد ادارتها الفعلية لهذه الجهات التى كانت معتبرة من ضمن البلاد التى سلمها لها الباب العالى بمقتضى الفرمان السلطانى الذى منح مصر حق ادارة مصوع وسواكن وملحقاتها (١٦) .

ولذا اسندت الحكومة المصرية أمرا لمدير عموم شرقى السودان ومحافظ سواحل البحر الأحمر ليعد العدة لتهيئة محطتين فى الطريق بين مصوع وبربره ، تمهيدا لترتيب خط بريد منتظم بين البلدين (١٧) .

وقد صدر امر آخر بارسال رضوان بك سوارى وابور الصاعقة لبربره لفض المنازعات بين مشايخ القبائل هناك ، وللتفتيش على بيارق الحكومة المنصوبة فى تلك الجهات (١٨) .

وعقب ذلك توجه منزنجريك مدير عموم شرقى السودان ومحافظ

---

(١٤) دفتر ١٨ أوامر عربى ص ٧ وثيقة رقم ١٩ (فى ٤ صفر ١٢٩٤) .

(١٥) للدراسة التفصيلية لظروف تأسيس مدينة بربره ، وأصل سكانها ، وحالتها قبل امتداد الادارة المصرية اليها أنظر :

Rochet : Voyage sur les deux rives de la Mar Rouge p. 285.

— وكذلك :

Burton : Op. Cit., pp. 409, 420, 430.

(16) Douin : Op. Cit., Tome 3 - 2 eme Paitie p. 547.

(١٧) دفتر رقم ١٩٤٦ أوامر عربى ص ٣٩ .

(١٨) دفتر ١٨٧٥ ومعية ص ٤٤ مكاتبة رقم ٢٤ .

البحر الأحمر ليعد تقريرا وافيا عن حالة جهات بربره وبلهار بالمناطق المجاورة ، وما تحتاجه من وجوه الاصلاح (١٩) .

وقد أفصحت الحكومة الانجليزية عن اطماعها فى هذه الجهات المواجهة لعدن فاعترضت على وجود المصريين فى بربره وقيامهم بتنظيم هذه الجهات واصلاح أحوالها ،

واضطرت الحكومة المصرية ازاء ذلك لارسال مكيلوب باشا (Mackillop Pacha) الذى كان فى خدمتها ليشرح للوالى عدن حقيقة الوضع وليطمئن الانجليز على مستقبل العلاقات بين بربره وعدن (٢٠) .

ومن الموانى الهامة على الساحل الأفريقى الشرقى التى اهتمت مصر بمد ادارتها اليه ميناء (زيلع) ، ولهذا الميناء أهمية خاصة لتحكمه فى تجارة الهند المارة بباب المندب ، باعتباره الميناء الشمالى لأرض عدال ولهرر وجنوب الحبشة وكان الاتراك العثمانيون قد وضعوا أيديهم على زيلع وجعلوها تابعة لوالى اليمن (٢١) .

وفى أول يوليو ١٨٧٥ م صدر فرمان باحالة مرسى زيلع الى الحكومة المصرية مقابل دفع خمسة عشر الف ليرة عثمانية سنويا ،وأرسل رضوان باشا ليتسلم الميناء والجهات التابعة له وبخاصة جهة (تاجورة) (٢٢) .

---

(١٩) أنظر تقرير منذرتجريك — فى دفتر ١٨٧٥ معية ص ٥٥ — رقم ٣٨ .

وشوقى الجمل فى سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (١٩٧٣) ص ١٣٠ .

(٢٠) دفتر أوامر عربى ص ٤٥ — أمر رقم ٨١ .

(٢١) عن حالة زيلع قبل امتداد الادارة المصرية اليها أنظر ما كتبه — وكذلك :

Burton : Op. Cit., pp. 70 - 71.
Brockman, D : British Somaliland Vol, p. 18.

(٢٢) دفتر ٢ أوامر عربى ص ٨٧ رقم ١٧٩ ، وبدفتر عابدين صادر ص ٢٥٦ رقم ٢٢ .

وقد صدر فى ١٦ شوال ١٢٩٢ هـ أمر الى أبو بكر شحيم الذى كان وكيلا لمحافظة زيلع بتقلده وظيفة محافظ لها تحت ادارة رؤوف باشـا ، وذكر فى الأمر أن المرجو أن يكون ذلك حافزا له لزيادة اهتمـامه بأمور ومصـالح المحافظة وسكانها (٢٣) .

وفى ١٧ سبتمبر ١٨٧٥ (شـعبان ١٢٩١ هـ) غادر رءوف باشـا زيلع على رأس خمس عشرة أورطة من المشاة ، وبعض المدافع الجبلية ومائتى جندى (باشيبوزق) لفتح هرر ، وهى سلطنة اسلامية كانت فى ذلك الوقت تحت حكم الأمير عبد الشكور (٢٤) .

فدانت هرر وملحقاتها للحكم المصرى ، وعين رءوف باشـا حكمدارا عليها باسم حكمدار عموم الجالا والصنومال وهرر (٢٥) .

وبعد أن شمل النفوذ المصرى مناطق بربره وزيلع وتاجوره ، وامتد فى الداخل الى هرر اتجهت مصر لاتمام سيطرتها على ساحل الصنـومال خاصـة فى المنطقة الساحلية المواجهة للمديرية الاستوائية وذلك لاتخاذ محطات للاتصال بالداخل ، ولانشاء خط ملاحى يربط بين مصـوع وزيلع وبربره وهرر ومنبسه لوقف أطمـاع الدول الاستعمارية التى كانت قـد أخذت أنظارها تتجه لهذه الجهات .

وقد غادرت الحملة السويس فى سبتمبر ١٨٧٥م بقيـادة ماكيلوب باشا مدير الموانى والمنـارات المصرية ، واشترك فى الحملة الضـابط الأمريكى شاييه لونج Chaillé Long الذى كان فى خـدمة مصر منـذ ١٨٧٠ م ووصلت الى رأس حافون الواقعة جنوب رأس جردفون فى ١٥ اكتوبر ١٨٧٥ م ، ثم الى قسمايو (بورت اسماعيل) وكانت هذه الجهات تابعة اسما لسلطان زنجبار .

---

(٢٣) دفتر ١٠ أوامر عربى ص ٢١ فى ١٢ شوال ١٢٩٢ هـ .
(٢٤) عن ظروف وصول الأمير عبد الشكور للسلطنة فى هرر أنظر :
Burton : Op. Cit., p. 320.
(٢٥) دفتر معية عربى بدون نمرة ص ٣٠ فى ١١ شوال ١٢٩٢هـ
(26) Rochet : Op. Cit., p. 285.

وكـذلك :

Burton : Op. Cit., pp. 409, 420 & 430.

لـكن وقوف انجلترا فى وجه امتداد النفوذ المصرى لهذه الجهـات أدى الى توقف الحملة المصرية بل الى انسحابها (٢٦) .

ثالثا : — ادارة مصر وسياستها فى هذه الجهات :

لم تكن السياسة المصرية تجاه البحر الأحمر والأقاليم المطلة عليـه قائمة على الاستغلال بل بالعكس كما سنرى أن مصر بذلت من جهـدها وصرفت من ميزانيتها الأموال الطائلة طوال ادارتها لهذه الجهات لتعميرها والنهوض بها وبسكانها — ولذا فكان أول عمل للادارة المصرية هو دراسة هذه الجهات التى آلت اليها لمعرفة أوجه النقص واحتيـاجات السـكان الحقيقيـة .

وكان المواطنون المصريون الذين يعهد اليهم بادارة جهات خضـعت حديثا للادارة المصرية يكلفون بكتابة تقرير واف عن حالة هـذه الجهـات وقت تسليمها يبعثون به الى الحكومة المصرية يوضـحون فيـه وجـوه الأصلاح التى يقترحون اجراءها .

وقد سار على هذه السنة حسن بك رفعت محافظ مصوع فقد كتب تقريرا مطولا مؤرخا فى ٦ المحرم ١٢٨٣ عن حالتها (٢٧) .

وفى تقريره هذا أشار حسن رفعت الى رداءة الحالة الصحية والى وجود عدد كبير من المرضى مصابين بالجدرى والقروح فى أسواق مصوع وهم مشرفون على الموت لعدم وجود مستشفيات أو علاج بها كما تحدث عن سوء حالة المبانى الأميرية والأهلية لعدم تجديدها ولعدم وجود المواد اللازمة للبنـاء ، كذلك اشار الى الفوضى فى تحصيل الضرائب . وعند حديثه عن القوة العسكرية والأمن أشار الى انه لا يوجد جنود فى ساحل البحر الأحمر فى أغلب المناطق التى يرفع عليها علم الدولة العثمانية .

وفيما يتعلق بسواكن لم نعثر على مثل هذا التقرير المفصل الـذى كنا نتوقعه من مختار بك محافظ سواكن . وكل ماعثرنا عليه عدةتعليمات

(٢٧) نص التقرير فى حافظة رقم ٣٨ معية تركى — مكاتبة رقم ٢٢ فى ٦ المحرم ١٢٨٣ هـ .

صادرة منه للموظفين الذين تحت ادارته بخصوص تنظيم محافظته (٢٨) .

وحين امتد النفوذ المصرى الى بربره طلب مزنجر بك — الذى كان قد أصبح مديرا لعموم شرقى السودان ومحافظا لسواحل البحر الأحمر فى عام ١٢٩٠ هـ . أن يتوجه بنفسه الى بربرة وكتابة تقرير واف عن أحوالها ووجوه الاصلاح التى تحتاجها ، فزار هذه الجهات وكتب تقريره الذى أشار الى عدة مشكلات تعانى منها هذه البلاد منها مشكلة عدم وجود مياه عذبة بها ، كما أشار الى أهمية ضاحيتها (بسلهار) التى تقع غربى بربره على مسافة أربعين ميلا (٢٩) .

ولما ضمت زيلع للادارة المصرية كلف رءوف باشا بزيارتها وكتابة تقرير واف عنها ، كما كلف مهندسون بعمل رسومات وخرائط شاملة لزيلع وما جاورها (٣٠) .

كذلك ارسل عبد القادر باشا مأمور ضبطية مصر الى جهة بربره وزيلع وتاجوره ليزور هو أيضا هذه الجهات ويدرس أحوالها ويكتب تقريرا آخر عنها (٣١) .

وحين دخل الجيش المصرى هرر طلب من هيئة أركان حرب الجيش المصرى أن تكتب تقريراً وافيا عن حالة هذه البلاد — ويعتبر هذا التقرير الوافى من أحسن ماكتب عن هذه البلاد (٣٢) . ومن التقارير المفصلة

---

(٢٨) أنظر دفتر ٣٥٤٣ح صادر محافظة سواكن — مكاتبة عربية ص ٦ فى ١١ ربيع الآخر ١٢٨٢ .

(٢٩) أنظر دفتر ١٨٧٥ معية ص ٤٤ رقم ٢٤ .

(٣٠) أنظر التقرير فى دفتر ١٨٧٥ معية فى ٥٥ رقم ٣٨ .

(٣١) انظر التقرير فى دفتر ١٧ معية عربى — وارد الأقاليم مكاتبة رقم ١ سايرة .

(٣٢) زار بعض الرحالة الأجانب هذه البلاد وكتبوا عنها من أمثال:

Burton : East Footsteps in Esst Africa (London 1856) pp. 276 - 277.

وقد زارها الرحالة النمساوى فيليب بولتشكه فى حماية ورعاية الادارة المصرية وكتب عنها بحثا وافيا :

Paulitschke, P. : Le Harrar Sous l'administration Egyptienne (Bulletin de la societé Khediveale de Geographie du Caire - Serie No. 10 Mars 1887).

وانظر تقرير هيئة أركان حرب مأمورية هرر فى ٣ محرم ١٢٩٣ .

أيضا التقرير الوافى الذى عثرنا عليه لرضا باشا محافظ سواحل البحر الأحمر من السويس حتى رأس حافون بعد زيارات لهذه الجهات ، وملاحظاته التى إبداها تشمل دراسة تفصيلية لكل مايتصل بالحياة فى هذه البلاد ، كما أن الاجراءات التى اتخذها تدل على أنه قد فوض من السلطات المصرية لاجراء كافة ماتتطلبه البلاد من وجوه الاصلاح (٣٣) .

هذا وقد عهدت الجمعية الجغرافية الخديوية الى مبعوثين أرسلتهما الى الجهات التى ضمت حديثا للادارة المصرية — وعقدت جلسات لسماع تقارير الخبراء عنها — ففى جلسة ٢٦ مارس ١٨٨٣ م تحدث كل من اسماعيل باشا أيوب ، والسيد فينولا . ونادى باشا محافظ هرر . وشرح كل منهم معلوماته عن هذه البلاد ومشاهداته فيها (٣٤) .

وقد عملت عدة خرائط ورسومات متعلقة بهذه الجهات وهى لاتزال محفوظة بالمتحف الحربى ودار الوثائق التاريخية بالقلعة ، وتنطق هذه الخرائط والرسومات ببراعة المهندسين المصريين واهتمام الادارة المصرية بالوقوف على حالة هذه الجهات .

رابعا : — الاصلاحات التى قامت بها الادارة المصرية فى تلك الجهات :

ذكرنا أن مصر اهتمت بدراسة أحوال هذه البلاد التى امتدت اليها ادارتها على ساحل البحر الأحمر — وعلى أساس هذه الدراسة حددت الاحتياجات الفعلية والاصلاحات الواجب القيام بها ولم تتوان مصر عن تنفيذ هذه الاصلاحات وتدبير ماتحتاج اليه ، والحقيقة ان هذه الصفحات من السياسة المصرية فى هذه المناطق تعتبر من أنصع صفحات العلاقات القائمة على البذل والتضحية فى وقت كان الاستغلال والاستنزاف هو الطابع السائد .

---

(٣٣) شوقى الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر (مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية — ١٩٥٩) .

(٣٤) أنشئت الجمعية الجغرافية الخديوية سنة ١٨٧٥ وكانت تصدر مجلة باسمها تنشر بها الأبحاث الجغرافية الهامة .

انظر نشرة الجمعية الجغرافية نمرة ٨ (المطبعة الأميرية ببولاق ١٨٨٦ م) .

ويضيق المجال عن حصر كل ما قامت به الإدارة المصرية من وجوه الاصلاح لكن نشير لبعض هذه الأعمال الاصلاحية على سبيل المثال :

١ — تنظيم البريد :

عنيت الادارة المصرية بانشاء خطوط بريد للربط بين الموانى التى خضعت لها ، وفتحت مكاتب بريد بكل ميناء هام من موانى البحر الأحمر (٣٥) .

وقد أدركت الحكومة المصرية أهمية انتظام البريد فخصصت بواخر لحمل البريد لمصر ، ومن مصر لهذه الجهات (٣٦) .

وكلفت الحكومة المصرية — الشركة العزيزية بتعيين « وابور » يقوم كل يوم ثلاثاء أسبوعيا من السويس الى جده ، بينما يقوم « وابور » آخر من سواكن ومصوع حاملا البريد الى جدة ومنها الى مصر .

٢ — خطوط ملاحية منتظمة :

بدأ الاهتمام بالبحرية المصرية فى البحر الأحمر منذ عهد محمد على ففى عام ١٨١٠ م عمرت ترسانة بولاق وقدساير هذا الإهتمام بالبحرية المصرية خوض مصر غمار الحرب الوهابية .

وبالاضافة لهذا اشترى محمد على السفن من موانىء مرسيليا وتريفنا والبندقية لتكون نواة لأسطوله القوى ، وبعد تحطيم الأسطول المصرى فى نوارين فى ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ — فكر محمد على فى تأسيس دار للصناعة البحرية بالاسكندرية اتخذ من ترسانة الاسكندرية القديمة

---

(٣٥) دفتر رقم ٥٥٣ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣٥٣ ص ٦٢ فى ٤ ربيع الأول ١٢٨٢ هـ .

— وكذلك دفتر معية عربى — وارد الافادات ص ١٩ — مكاتبة رقم ٩ فى ١٨ رمضان ١٢٩١ .

(٣٦) دفتر ٥٥٨ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٩ ص ٤٢ فى ٩ ذى القعدة ١٢٨٢ هـ .

نواة لها واستعان لتحقيق هذا المشروع بمهندس فرنسى هو المسيو سيرزى Cerisy هذا بالاضافة الى العمال الفنيين المصريين والأجانب (٣٧) .

وسار العمل فى ترسانة الاسكندرية بنشاط ، وأعد عدد من الشبان ودربوا على الملاحة البحرية ، وقد أنزلت أول سفينة حربية صنعت فى مصر فى ميناء الاسكندرية يوم ٣ يناير ١٨٣١م وأصبحت ترسانة الاسكندرية من ذلك الوقت من أعظم المنشآت الحربية والبحرية ، وأنشئت مدرسة بحرية لتخريج الضباط البحريين ، وكانت هذه المدرسة على ظهر احدى السفن الحربية .

كذلك أرسل البعوث البحرية الى أوربا وخاصة الى فرنسا وانجلترا ، وأنشىء بالاسكندرية حوض لترميم السفن .

وقد ساءت حال البحرية المصرية فى عهد عباس وأهمل شأنها وعطلت أعمال ترسانة الاسكندرية وتعطل اصلاح السفن بها .

وكانت الآمال معقودة على سعيد باشا لاعادة مجد البحرية المصرية فقد كانت نشأته بحرية ، وظل يرتقى فى مناصب البحرية أيام والده محمد على حتى صار قائداً عاماً للبحرية المصرية ويبدو أن سعيد كان عازماً فعلا على اصلاح ما أصاب البحرية من فساد فى أيام عباس فبدأ باصلاح مايمكن اصلاحه من سفن الأسطول العائدة من حرب القرم — لكن انجلترا وقد كان يهمها ألا تستعيد مصر قوتها البحرية التى كانت لها فى عهد محمد على — سعت لدى الحكومة التركية لتمنع سعيد من تجديد الأسطول وأوهمت السلطان أن تقوية الأسطول المصرى فيه تهديد لتركيا وسيادتها ، وحقيقة الأمر أنها كانت تحرص على ألا يكون لسيادتها البحرية فى البحر المتوسط والبحر الأحمر منافس ، وكذلك اتجهت مساعيها الى وقف نشاط مصر البحرى ، وفعلا أصدر السلطان أمره لسعيد بألا يقدم على اصلاح سفن الأسطول أو على انشاء أو شراء سفن جديدة الا بأمره .

---

(٣٧) عن البحرية المصرية فى عصر محمد على أنظر :

عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على (الطبعة الثالثة ١٩٥١) ص ٤٢٣ وما بعدها .

والعجيب أن يرضخ سعيد لهذا الأمر الغريب ، بل نجده بدلا من أن يساير النهضة البحرية الجديدة التى جاءت نتيجة لاستخدام البخار فى السفن يقضى على الأسطول المصرى نهائيا ويوزع معظم ضباطه وبحارته على الوظائف المدنية ، كما عمل بعض منهم فى الادارة التى أنشأها للملاحة النيلية والتى أطلق عليها اسم (مصلحة الانجرارية) .

على أن سعيدا فى الوقت الذى أهمل فيه شأن البحرية الحربية سمح بانشاء شركات تجارية للملاحة النيلية والبحرية ، وقد كانت هذه الشركات مصرية اسما أجنبية فعلا ، فقد كان أعضاء مجلس ادارتها وأصحاب الأسهم فيها معظمهم من الأجانب .

وفى عهد اسماعيل بذلت محاولات لاحياء البحرية المصرية كحلقة هامة فى سلسلة سيادة مصر وأستراتيجيتها المتعلقة بالبحر الأحمر وتقوية النفوذ المصرى فيه ، وسبق الدول الأوربية الاستعمارية فى وضع يدها على المناطق المطلة على هذا البحر والتى تتحكم فى مداخله .

وتنفيذ هذه السياسة بالطبع كان يستلزم وجود أسطول قوى ولذا وجهت العناية لتجديد الأسطول المصرى ، فبعثت الحياة فى ترسانة الاسكندرية وزودت بما كان يلزمها من الآلات والمواد الخام والعمال الفنيين .

وأنشئت بجوار الترسانة مدرسة بحرية وكان اسماعيل — كما نعلم — يسرف فى استخدام الأجانب فى الوظائف الهامة معتقدا انه بذلك يكسب دولهم الى صفه ويدرأ معارضتها لسياسته لكن الأيام والأحداث أثبتت انه كان واهما فى هذا الظن .

وعمد اسماعيل باشا لتزويد البحرية المصرية بالسفن الحربية المدرعة فتعاقدت مصر على ثلاث سفن مع فرنسا وعلى اثنتين مع النمسا لكن انجلترا وقد كانت سياستها منذ أن أنشأ محمد على أول أسطول مصرى قائمة على اضعاف قوة مصر البحرية والحربية لتضمن لنفسها السيادة فى البحرين الأحمر والمتوسط ولتستطيع بيسر تنفيذ سياستها الاستعمارية المرسومة فى هذه المناطق فلم تنظر بعين الارتياح لهذه الجهود المبذولة لاحياء البحرية المصرية فلجأت للطريقة التقليدية وهى اثارة مخاوف الدولة

العثمانية من نتـائج جهود مصر لتقوية بحريتها وأوعزت لها بأن تقف فى وجه هذه الجهود والحد منها — ولذلك تذرعت الدولة بأن الفرمانات لاتبيح لمصر انشاء السفن الحربية المدرعة بدون اذن سابق وحـدثت أزمة اذ أن هذه السفن كان قد تم صنعها بل كانت قـد أرسلت من رجال البحـرية من يقوم بتسلمها وحلت الأزمة بأن ابتاعت الدولة العثمانية لنفسها هـذه السفن المدرعة .

على أنه بالرغم من هذه العقبات التى دأبت انجلترا على وضـعها فى سبيل نمو وتقدم البحرية والجيش المصرى — حتى يخلو لها المجـال لتحقيق مآربهما الاستعمارية — فقد قام الأسطول المصرى بأعمال باهـرة فنقلت سفنه الجنود والعتاد الى ثغور سواكن ومصوع ، وزيلع وبربرة، وثغور الصومال حيث وصلت الى ثغر قسمايو (بورت اسماعيل) بل حملت سفنه مواد التعمير والبناء لهذه الجهات النائية .

وكانت للأسطول المصرى رحلات منتظمة فى البحر الأحمر فسـاد الأمن والسلام مياهه بعد أن كانت الرحلة البحرية فيه تعد من المخاطرات ودب العمران وانتشرت ألوية الحضـارة فى موانى أفريقيا الشرقية التى أصبحت متصلة ببلدان العالم بعد أن كانت تكاد تكون فى عزلة تامة .وأدى هذا بالطبع الى ازدهار التجارة ونشاط الزراعة وغيرها من موارد الثروة فى هـذه الجهات .

وحين وضعت العراقيل فى سبيل نمو الأسطول الحربى اتجهت مصر لتقوية وتدعيم الأسطول التجارى الذى يعمل فى البحرين الأحمر والمتوسط فتأسست الشركات الملاحية لهذا الغرض وقـدمت تسـهيلات لامدادهـا بالضباط البحريين والفنيين، وتيسير حصولها على المبانى والمخازن وضمنت الحكومة الأرباح لهذه الشركات وعهد لها بأعمال هامة كانشاء ومد السكك الحديدية لضمان أرباح لها — ليمكن أن تستمر فى القيام برسالتها .

وقد قامت هذه الشركات الملاحية بدور واضح فى ربط موانىء البحر

الأحمر الهامة بعضها البعض الآخر ، واستعانت الحكومة بسفنها ورجالها فى كثير من المهـــام (٣٨) .

وحين صفيت الشركة العزيزية فى ٢٧ المحرم ١٢٨٧ (٢٨ أبريـــل ١٨٧٠) حولت ادارتها الى مصلحة وابورات البوسطة الخديوية (٣٩) .

وقد ظلت هذه المصلحة تزاول نشـــاطها كمصلحـــة منفصلة لهـــا ميزانيتها المستقلة دون أن ترتبط بأية مصلحة حكومية أخرى وظلت وابورات البوسطة الخديوية تعمل بنشاط فى ثغور البحر الأحمر ونافست الشركات الأجنبية فى هذا المجال والحقت الحكومة بها ترسانة الاسكندرية والحوض العـــائم بها .

٣ — اصلاح وتعمير موانىء البحر الأحمر :

كان النشاط فى موانى البحر الأحمر قد أخذ يفتر بعد الفتح العثمانى لمصر لأن الدولة العثمانية حاولت أن تحد من هذا النشاط كوسـيلة لدرء الأطمـــاع الأوربيـــة وتذرعت — كما رأينـــا بحجة أن البحر الأحمر يؤدى للبلاد الاسلامية المقدسة . ومن يتتبع الحركة الملاحية فى الموانى الهـــامة فى البحر الأحمر فى هذه الفترة يدرك مدى الركود الذى ساد الملاحة فى هذا البحر — لـكن النشاط والحركة لم تلبث أن عادت لموانى البحر الأحمر خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

فقد تضافرت عدة عوامل على دفع عجلة النشاط فى هذه الموانى، سواء الموانى المصرية أصلا كالسـويس أو التى ضـــمت للادارة المصرية

---

(٣٨) من هذه الشركات — الشركة المصرية فى سـياحة السـفن التجارية التى انشأها عبد الحليم باشا ، واسماعيل راغب باشا وآخرون.
ولشروط انشاء الشركة وما قدمته لها الحكومة من تيسيرات أنظر:
دفتر ١٩٠٣ معية الأوامر الصـــادرة للمجلس عربى — صفحة ١٣ رقم مسلسل ١٢ فى ٥ ذى الحجة ١٢٧٩ .
— وكذلك الشركة العزيزية التى صدرت رخصـــة انشائها فى ربيع الآخر ١٢٨١ هـ أنظر : دفتر ١١ عابدين مكاتبات رقم ٥١٨ ، ٦١٨ ، ٦٧٩. والوقائع المصرية العدد رقم ٢٣ الصادر فى ٢٥ ذى الحجة ١٢٨٢ هـ ، والعدد ٧٢ فى ٢ رمضـــان ١٢٨٣ .

(٣٩) محفظة ٥١ معية ٣٦٣ مسلسل فى ١٩ شوال ١٢٩١ هـ .

كمصوع وسواكن وزيلع وبربرة أو مواقف الجزيرة العربية المطلة على البحر الأحمر كجدة والحديدة ه

من هذه العوامل :

(أ) استخدام البخار فى تسيير السفن وما لازم ذلك من تطور سريع .

(ب) التنافس الدولى بين انجلترا وفرنسا ، وتفكير فرنسا فى ضرب انجلترا فى مستعمراتها فى الهند والشرق بدلا من ضربها فى الوطن الأصلى ، وحرمانها بذلك من ممتلكاتها فى الشرق ومن مركزها التجارى فى البحر الأحمر .

(جـ) ظهور محمد على كقوة يعمل حسابها فى مصر ، وامتداد نفوذه للساحل الأسيوى من البحر الأحمر — أثار مخاوف الانجليز من سيطرة قوة على هذا الطريق المؤدى لمستعمراتهم — فعجل باستيلائهم على عدن للتحكم فى مدخل هذا البحر .

(د) توصيل البحرين الأحمر والمتوسط أزال ذلك الحاجز الذى كانت تحرص انجلترا على بقائه لتصبح لها وحدها السيادة فى البحر الأحمر بحكم قوتها البحرية .

(هـ) ادراك مصر مطامع الدول الاستعمارية ومحاولتها سبق هذه الدول بوضع يدها على الموانى الهامة على البحر الأحمر وشرق أفريقيا، واعتبارها هذه الموانى مفتاح الوصول لداخل السودان .

كل هذه العوامل جعلت منطقة البحر الأحمر وموانيه منطقة حركة ونشاط دائم منذ النصف الثانى للقرن التاسع عشر .

ومن يتتبع مانشر فى الوقائع المصرية عن الحركة فى الموانى المصرية الهامة على البحر الأحمر يلمس ذلك بوضوح تام (٤٠) .

---

(٤٠) أنظر الوقائع المصرية الأعداد ٨٦ ، ٩٤ ، ٤٦٦ ، ٤٨٢ ، ٥٠٩ ، ٥٥١ ، ٧٨٤ .

وقد كانت موانى مصوع ، وسواكن ، وزيلع ، وبربرة قبل امتداد الادارة المصرية اليها — مهملة وبحالة سيئة لا تشجع السفن على أن ترسو فيها ، كما أن السفن كانت تتعرض للنهب والسلب سواء فى عرض البحر أم فى الموانى نفسها — فلم تكن هناك سلطة قوية مسئولة عن حفظ الأمن وحماية الأنفس والأرواح .

ويمكن أن نجمل بعض ضروب الاصلاح التى قامت بها الادارة المصرية فى موانى البحر الأحمر فيما يلى :

ميناء السويس : نشطت الحركة فى هذا الميناء بعد تجهيز الطريق الذى يمتد بينها وبين القاهرة ، وبعد أن تم اتصالها بالخط الحديدى .

وبعد انشاء الشركة المجيدية ومزاولتها نشاطها فى البحر الأحمر أصبح ميناء السويس ميناء هاما للخطوط الملاحية فى ذلك البحر وقد كلفت شركة فرنسية (شركة ديسبو) بتوسيع ميناء السويس واصلاحه واقامة حاجز حجرى لصد الأمواج وتأمين السفن وأنشىء حوض عائم لاصلاح السفن ، كما أنشئت عدة فنارات لهداية السفن . وبعد افتتاح قناة السويس أصبح لميناء السويس مركز خاص فوجهت عناية خاصة لهذا الميناء باعتباره مدخل القناة التى تربط بحرين من أهم بحار العالم ، ويساير حركة السفن فى القناة كما أقامت عند مدخل القناة من الشمال ميناء بورسعيد .

وقد أخذت أهميتها والعناية بها تزداد يوما بعد يوم بازدياد الملاحة فى القناة .

ميناء القصير : يقع هذا الميناء على البحر الأحمر فى مواجهة قنا على النيل وتوصل بين القصير والنيل وديان معروفة ولذا كانت أهمية هذا الميناء خاصة وقت الحج . وقبالة القصير فى الساحل الشرقى للبحر الأحمر بالجزيرة العربية ميناء (الوجه) .

وميناء الوجه : بالحجاز ، وكانت متصرفية الوجه تابعة للحكومة المصرية وقد أقامت الحكومة المصرية به فنار لهداية السفن .

ميناء برنيس : ميناء مصرى على البحر الأحمر ، وتقابله على النيل تقريبا مدينة أسوان ومن سواكن الى برنيس ٣٢ ميلا ومنها الى القصير

١٦٥ ميلا وقد اهتمت الحكومة المصرية بتعمير الطرق البحرية التى توصل بين قنا والقصير وبرنيس وسواكن وربطت هذه المدن بخطوط تلغرافيـــة (٤١) .

ميناء سواكن : اهتمت به الحكومة المصرية باعتباره ميناء السودان العام من جهة البحر وعن طريقه يمكن تنظيم اتصال مصر بالسودان فاهتمت الادارة المصرية باصـــلاح وترميم مرسى السفن به كما اهتمت بربط سواكن بأجزاء السودان الأخرى بخطوط تلغرافيـــة وبحث مشروع مد خط حديدى من سواكن الى بربرة أو منها الى شندى (٤٢) .

ولمـــا زادت الحركة فى ميناء سواكن عين ضـــابط بحرى لملاحظـــة حركة السفن وحفظ الأمن وتطبيق القوانين البحرية بالميناء ، كمـــا أنشئت المخازن لحفظ البضائع الواردة والصادرة وصيانتها حتى يتم التصرف فيها .

ميناء طوكر وعقيق : يقع الميناءان جنوب سواكن ، وقـــد ازدهرت طوكر بالذات وزادت أهميتها كميناء بحرى وعين لها مأمور خاص بها من ضـــباط الجهـــادية (٤٣) .

ميناء مصوع : بذلت الادارة المصرية جهودا مضنية لاصـــلاح هذا الميـنـــاء واعداده كميناء تجارى هام فشيدت به رصـــيفا لشـــحن الســـفن وتفريغها ، كما بنت دارا للجمـــرك ، وقـــد زودت هـــذه المبـــانى بالمياه العذبة بعد أن توفرت هذه المياه فى البدر نفسه ومدت الخطوط التلغرافية بين مصوع وسواكن وبرنيس لتصل هذه الموانى ببعضها .

وكان المتبع سواء فى جمرك سواكن أو مصوع تحصـــيل ٨٪ على البضائع الواردة للبيع فى هذه الجهات (عوائد الدخول) أما تجارة المرور

---

(٤١) دفتر ٣٥٤١ ح — صـــادر محافظة سواكن مكاتبة عربية ص ٨١ رقم ٨٣ فى ٤ جمادى الآخرة ١٢٨٢ هـ .

(٤٢) دفتر رقم ٣٥٤٣ صـــادر محافظة سواكن مكاتبة عربية ص ٨ رقم ١٠ فى ١٢ ربيع الآخر ١٢٨٢ هـ .

(٤٣) دفتر نمرة ١٩٤٨ أوامر عربى — أمر رقم ٨ ص ٣٢ فى ذى الحجة ١٢٩٠ هـ .

(الترانسيت) فلا يحصل عليها أكثر من ١٪ وقد الغيت عوائد الدخول تشجيعا لحركة التجارة فى هذه الموانى (٤٤) .

ونظمت الشركة العزيزية خطوطا ملاحية منتظمة بين مصوع وسواكن وبين سواكن وجدة وبينا والسويس وخصصت لهذه الخطوط الملاحيةبواخر نظمت مواعيدها بكل دقة لربط هذه الموانى ببعضها (٤٥) .

وحين نشطت حركة الملاحة فى هذه الموانى علىالبحر الأحمر اهتمت الشركات الأجنبية أيضا بترتيب خطوط ملاحية منتظمـــة تعمل بين هــذه الموانى (٤٦) .

البحر الأحمر من الجنوب وكانت قبل تبعيتها للادارة المصرية تابعـــة لولاية اليمن .

ولم يكن الميناء بطبيعته صالحا للملاحة لتعرضه للمـد والجزر على الدوام ولذا اهتمت الادارة المصرية بعلاج هذه الحالة فأقامت مرسىللسفن فى المينـــــاء .

وقد جعلت جهة (تاجورة) تابعة لمحافظة زيلع فى الادارة وعملبها أيضا مرسى لتسهيل الوصول منها للوابورات .

ميناء بربرة : كان قبل تبعيته للادارة المصرية يقضى فترة طويلة ن العـــام (خمسة شهور تقريبا) فى تعطل تام لتعذر الملاحة بينه وبين عدن بسبب تسلط رياح الشمال ، فكان الميناء يعتبر مقفلا فى هذهالفترة ويضطر السكان للهجرة للداخل ، ولذا اهتمت الادارة المصرية باعداد الميناء لاستقبال البــواخر الـكبيرة واسـتقدمت الأدوات اللازمة لذلك من أوربا (٤٧) .

---

(٤٤) محفظة ٥٣ معية تركى وثيقة رقم ٣٧ فى ٥ صفر ١٢٩٢ هـ .
(٤٥) دفتر رقم ١٩٢١ أوامر ص ١٨٢ أمر نمرة ٣٠ فى ٩ ربيع الآخر ١٢٨٣ .
(٤٦) دفتر ٣٨ عابدين وارد تلغرافات — تلغراف عربى رقم ٨٢ فى ٢٥ صفر ١٢٩٣ .
(٤٧) دفتر ٥ معيـــة عربى وارد الافادات ص ١١٤ مكاتبـــة رقم ١٣٨ فى ٦ صفر ١٢٩٢ هـ .

ولما ازدادت الحركة فى الميناء طلب التجار عمل مرسى آخرلتخفيف الضغط على المرسى القديم وقد قامت الادارة المصرية بتنفيذ هذه المرسى(٤٨)

ومدت المياه العذبة الى الميناء . وبالرغم مما بذل من جهود ومصاريف على ميناء بربرة فقد رضخت الحكومة المصرية لطلبات الادارة الانجليزية بعدن ، فقررت عدم تحصيل رسوم جمركية على البضائع فى بربره لأن تجارتها معظمها من عدن وترتب على ذلك أن أصبحت المصاريف التى تصرف على صيانة الميناء وادارته تفوق الايرادات — واقامت الحكومة المصرية فى ميناء بربرة مخازن لحفظ البضائع وحمايتها .

هكذا اهتمت الحكومة المصرية بمختلف موانىء البحر الأحمر التى خضعت لادارتها فأصلحت هذه الموانىء ، وأمنت السفن الداخلة فيها ، ويسرت عمليات التفريغ والشحن ، وشيدت بها المخازن اللازمة لحفظ البضائع حتى يتم شحنها .

وقد حرصت الحكومة المصرية على أن يتعرف تلاميذ المدرسة البحرية على هذه الموانى فكانت ترتب لهم رحلات منتظمة لزيارة مختلف موانى البحر الأحمر .

٤ — بناء الفنارات لارشاد السفن :

كان بالبحر الأحمر قبل عهد اسماعيل أربعة فنارات لهداية السفن هى :

فنار الزعفران برأس الزعفران بجهة السويس ، وزنوبيا وكان تابعا للشركة الشرقية والأشرفى ، وأبى كزارة .

وكانت هذه الفنارات مهملة لكن بعد أن ازدادت حركة الملاحة بالبحر الأحمر وأخذت السفن تتوافد بانتظام على موانيه المختلفة — وجهت العناية لاصلاح الفنارات القديمة وتنظيم ادارتها واقامة فنارات أخرى جديدة

---

(٤٨) دفتر رقم ١٠ أوامر عربى ص ٧٥ — أمر رقم ١٥٦ فى ٩ ربيع الأول ١٢٩٢ هـ .

فى جهات مختلفة فى هذا الطريق المائى الذى اشتهر بكثرة صخوره ومخاطره .

فأقيم فنار فى جنوب السويس وآخر فى رأس غارب (٤٩) ، وآخر فى شرقى مدخل ميناء الوجه من ثغور الحجاز (٥٠) وفنار فى بربره بعد ضمها للادارة المصرية (٥١) واشترت الحكومة المصرية فنار (زنوبيا) من الشركة الشرقية — ودرست النظم المعمول بها بالبلاد الأوربية لادارة الفنارات لتطبيق مايوافق منها على فنارات البحر الأحمر سواء من حيث ادارتها أو من حيث مارتب على السفن التى تستفيد بهذه الفنارات لتغطية بعض مصاريفها (٥٢) .

وقد عين لكل فنا ثلاثة من الخفراء وجندى من الهجانة . ولما تشعب العمل فى الفنارات صدر الأمر بتكوين ادارة خاصة بها عرفت باسم (مصلحة الفارات والليمانات) عهد بها الى (ماكيلوب بك) الذى أصبح يلقب (برئيس عموم مصلحتى الليمانات والفنارات المصرية). وقد اصبحت لمصلحتى الموانىء والفنارات اهمية خاصة بعد ضم ميناءى بورسعيد والسويس بما فيهما من مؤسسات حكومية خاصة بالملاحة فى القناة والبحر الأحمر (٥٣) .

وقد اتسع نطاق اختصاص مصلحتى الموانى والفنارات فأصبحت تتبعها (مصلحة لخفر السواحل) ويختلف عمل هذه المصلحة عن العمل الفنى لمصلحة الموانى والفنارات اذ أن عملها مرتبط بحفظ الأمن فى السواحل وليس الملاحة (٥٤) .

---

(٤٩) دفتر ٧٨ أوامر ١٦٤ مسلسل ٢٣٢ فى ٢٨ المحرم ١٢٨٨ هـ .

(٥٠) الوقائع المصرية رقم ٦٠٣ فى ١٩ ربيع الأول ١٢٩٢ (٢٥ أبريل ١٨٧٥) .

(٥١) دفتر ٢١ معية عربى ص ٢٢ مسلسل ١٨ فى ١٣ صفر ١٢٩٤ (٢٥ فبراير ١٨٧٧) .

(٥٢) دفتر ١٩٠٧ أوامر صفحة ٢٧ مسلسل ١ .

(٥٣) دفتر ٥ معية عربى ص ٦٣ مسلسل ٣٢٠ فى ١٦ جمادى الأولى ١٢٩٢ هـ .

(٥٤) دفتر معية عربى صفحة ٦٦ مسلسل ٣٣٣ .

خامساً — تقييم لسياسة مصر واستراتيجيتها فى البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر :

بعد العرض الذى قدمناه لسياسة مصر واستراتيجيتها فى البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر يجدر بنا أن نقدر مواضع القوة ومواضع الضعف فى هذه السياسة .

فقد أدى اهتمام مصر بالبحر الأحمر وموانيه الى أن دب النشاط والحركة فى هذا البحر وانتظمت خطوط ملاحية لكثير من الشركات به . وأصبحت الملاحة امنة فيه والسفن تمخر عبابه مطمئنة ، كما دبت الحياة فى الموانى الهامة لهذا البحر وأعدت هذه الموانى لاستقبال السفن وشحنها وتفريغها وأدى هذا بالطبع لنشاط اقتصادى جديد فى هذه الموانىء فبدأ يتوافد عليها السكان ويستقرون بها ويزاولون أنواعا متنوعة من النشاط فيها وكان افتتاح قناة السويس (١٨٦٩) بداية صفحة جديدة فى تاريخ الملاحة بالبحر الأحمر .

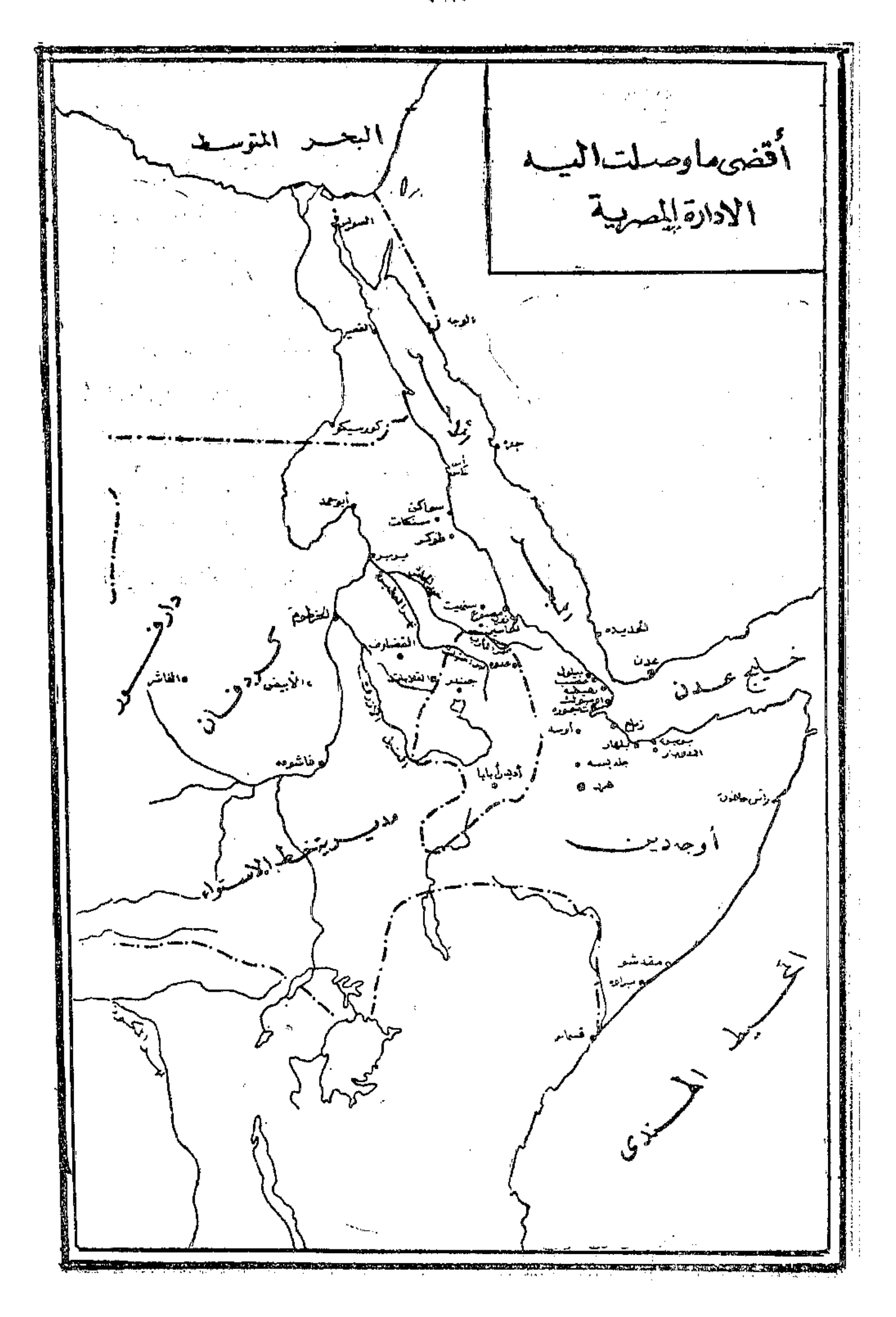
وكانت لمصر سياسة مرسومة ومدروسة تجاه هذا البحر وقامت كافة مشروعاتها المتعلقة على أساس الادراك الكامل والوعى بأهمية هذا البحر التجارية والاستراتيجية .

وقد برزت فعلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر — أهمية البحر الأحمر وموانيه بالنسبة للملاحة الدولية والمواصلات بين الشرق والغرب بشكل أكثر من ذى قبل وكان هذا بالطبع ايذانا ببدء نوع جديد من العلاقات بين دول الغرب البحرية والاستعمارية وبين البلاد المطلة على هذا البحر — فبدأت تتكالب على بسط نفوذها فى هذه المناطق الحيوية .

واذا كانت مصر قد سبقت — أو حاولت على الأقل سبق — الدول الاستعمارية الى هذه المناطق الحيوية بالنسبة لمصر ولوادى النيل ، فان هذا السبق وهذه الجهود لم تنجح فى النهاية فى تخليص هذه البلاد من زحف الاستعمار الأوربى الا لحين اذ أن الاضطراب الاقتصادى والسياسى الذى أصاب مصر فى الفترة الأخيرة من حكم اسماعيل وما تلاه قد مهد الطريق لقيام الثورة المهدية فى السودان وانهيار الامبراطورية المصرية

الأفريقية وزحف الاستعمار الأوربى الى هـذه المنـاطق الافريقيـة بمـا فيهـا مصر نفسها .

ولعل نقطة الضعف الرئيسية فى سياسة مصر فى هذه الفترة تجاه البحر الأحمر والمنـاطق المطلة عليه أنهـا اعتمدت فى تنفيـذ سياستها على الأجانب فاستخدمت العديد منهم فى مشروعاتها فى هـذه الجهـات ولعل هذا الأمر لم يكن من قبيل الصدفة لـكن لجأت اليه الحكومة المصرية عن عمد بقصد أن تكسب موافقـة الدول التى ينتمى اليها هؤلاء الموظفون الأجانب بتحاشى معارضـة هذه الدول لمشروعاتهـا — لـكن التجـارب أثبتت أن هذه الوسيلة العجيبـة أتت بعكس النتـائج المرجوة — فقـد أثبتت هذه الدول الاستعمارية أنها لن تتورع عن انتهـاز الفرص لانتزاع مايمكنها انتزاعه من أملاك مصر — كما أن هؤلاء الأجانب ثبت أنهم كانوا اكثر ولاء لأوطانهم منهم للحكومة التى يعملون كموظفين تحت ادارتها .


أقصى ما وصلت اليه
الادارة المصرية
البحر المتوسط
خليج عدن
أوجادين
المحيط الهندى
دارفور
كردفان

٢٠

السياسة البريطانية فى جنوب البحر الأحمر

(١٨٨٤ — ١٨٨٩)

للدكتور على محمد بركات
كلية الآداب — جامعة المنصورة

تعاصر الفترة موضوع الدراسة بداية الصراع الاستعمارى على أفريقيا كنتيجة لنمو الرأسمالية الأوربية ومطالبتها بالأسواق والمستعمرات والتخلى عن السياسة القائمة على حرية التجارة التى ظلت سائدة منذ ١٧٦٣ تقريبا وخلال تلك الفترة كانت بريطانيا تنظر الى أفريقيا على اعتبار أنها مجرد محطة فى الطريق الى مستعمراتها فى الهند .

ولم يكن نزول البريطانيين فى منطقة الرأس ١٨١٤ سوى جزء من هذه السياسة . وكانت السياسة البريطانية فى ذلك الوقت تقوم على أساس السيطرة على الطرق المؤدية للهند والشرق الأقصى وحمايتها عن طريق سلسلة من القواعد والمحطات الساحلية ترتكز عليها الأساطيل البريطانية . وفى اطار هذه السياسة احتلت بريطانيا عدن سنة ١٨٣٩ واتخذت منها قاعدة لها . وعلى الرغم من أن السياسة البريطانية سوف تشهد تغييرا كبيرا فى الثمانينات من القرن الماضى من حيث التخلى عن مبدأ حرية التجارة والانغماس فى التوسع الاستعمارى الا أن اهتمام بريطانيا بالبحر الأحمر يدخل فى اطار استراتيجيتها القديمة القائمة على حماية الطرق المؤدية للهند (١) . باعتبار أن البحر الأحمر أصبح الطريق الرئيسى الى الهند والشرق الأقصى خاصة بعد افتتاح قناة السويس

---

(1) Robinson. R. and others, Africa and the Victorians, New - York, 1968. pp. 17, 18,

للملاحة البحرية سنة ١٨٦٩ . وهى حقيقة يؤكدها تصريح سولسبورى وزير خارجية بريطانيا سنة ١٨٧٩ الذى صرح بأن البحر الأحمر هو وتر بريطانيا الحساس . وعلى ذلك فان اهتمام بريطانيا بالبحر الأحمر كان أقدم من الاعتبارات التى حركت الموجة الاستعمارية التى حدثت فى أواخر القرن الماضى وتركزت حول أفريقيا حين عقد مؤتمر برلين ٨٤ — ١٨٨٥ وتقسيم أفريقيا الى مناطق نفوذ بين الدول الأوربية (٢) .

وتمتد المنطقة موضوع الدراسة من سواكن على ساحل البحر الأحمر شمالاً حتى باب المندب جنوبا . وعلى ذلك فهى تضم اقليمين هما :

١ — ساحل السودان على البحر الأحمر حتى رأس قصار جنوبا .

٢ — المنطقة الواقعة جنوب رأس قصار حتى باب المندب .

ورغم أن السياسة البريطانية كانت قد انتهت الى ضرورة اخلاء المصريين السودان عقب قيام الثورة المهدية وهزيمة حملة هكس فى غابة شيكان فى نوفمبر سنة ١٨٨٣ بالبرقية المشهورة التى أرسلها جرانفيل الى يارنج فى ٤ يناير ١٨٨٤ (٣) . على الرغم من هذا فان موقف السياسة البريطانية قد اختلف حول مستقبل هذه المناطق . ففى سواحل السودان الشرقى المطلة على البحر الأحمر احتفظت بريطانيا بساحل البحر الأحمر والتزمت بموقف دفاعى فى سواكن وتركت بقية أجزاء السودان الشرقى لتقع فى أيدى المهديين كما أعطت الأحباش بعض المناطق بمقتضى اتفاق عدوة فى ٣ يونيو ١٨٨٤ . وكان الهدف من احتفاظها بسواكن والمناطق المجاورة هو الحيلولة دون تسرب المهديين الى البحر الأحمر ولتتخذ من هذه المنطقة رأس جسر للتوغل فى السودان عندما يحين الوقت .

وفى المنطقة الواقعة الى الجنوب من رأس قصار اتخذت السياسة البريطانية موقفا مختلفا حيث سهلت للايطاليين الحصول هذه المناطق ووقفت الى جانبهم لتحول دون وقوعها فى أيدى الفرنسيين الذين كانوا

---

(٢) د. فاروق أباظة ، عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ١٨٣٩ — ١٩١٨ ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٤٦٤

(٣) عبد الرحمن الرافعى ، مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ، القاهرة سنة ١٩٦٦ ، ص ٣٣

قد نزلوا فى منطقة أريك ولتحول أيضا دون سقوطها فى أيدى المهديين
وعلى أساس هــذا التقسيم سنتناول هــذا الموضوع .

السياسة البريطانية فى شرق السودان والدفاع عن سواكن :

على الرغم من أن السياسة البريطانية انتهت الى قــرار اخــلاء السودان وأملاك مصر الأخرى فى ساحل البحر الأحمر وعادت لتؤكد ذلك مرة أخرى فى ١٥ أغسطس سنة ١٨٨٤ فى البرقية التى أرسلها جرانفيل الى أجرتون والتى جاء بها « أن قرار اخلاء هــذه المناطق كان أمرا ضروريا وحكيما وأن حكومة صاحب الجلالة ليس لديها النية لفتح المناقشة فى هذا الموضوع . وذلك فى مواجهة ما أثير من أن الحكومة المصرية تنوى مناقشة هــذا الموضوع مع بعثة لورد نورثبرك التى حضرت الى مصر فى ديسمبر سنة ١٨٨٤ لدراسة الحالة المــالية فى مصر (٤) .

على الرغم من هــذا فان بريطانيا قررت الاحتفاظ بساحل السودان على البحر الأحمر واتخذت من سواكن قاعدة لتحركاتها ولم تتوقف المعارك حول سواكن طوال هــذه الفترة للحيلولة دون المهديين وبين الســيطرة على ساحل البحر الأحمر وهو الهدف النهائى للسياسة البريطانية فى ذلك الوقت . فعقب هزيمة شيكان تمكن المهديون من تشــديد الحصــار على سواكن وطوكر وتنكات ٥ كما طلب عثمان دقنة من القبائل القاطنة فى شرق السودان مبايعة المهدي . وهكذا انتشرت الثورة فى شرق السودان .

وأرسلت القاهرة حملة لفك الحصار عن سواكن وفتح الطريق بينها وبين بربر على النيل وأسندت قيادة الحملة الى السير فالنتين بيكر . غير أن المهديين تمكنوا من هزيمة هــذه القوة وفى واقعة التيب الثانيــة

---

(٤) مجموعة الوثائق البريطانية التى رجعت اليها فى هــذا البحث موجودة بالأرشيف النمساوى بفينا .Hans-, Hof - Und Staats archiv
وتحت عنوان :

Ägypten 1885 - 1890. (correspendence respecting ports in the Red Sea and the Gulf of Aden).

وعلى ذلك فاننى سوف أكتفى فى الصفحات التالية بالاشارة الى هــذه المراسلات بتواريخها واسم المرسل والمرسل اليه ورقم المحفظة :
48, **Egypt, Granvill to Egston. 15/2/1884.

فى ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٤ (٥) . وعاد بيكر مع بقايا جيشه الى سواكن بينما استسلمت حامية سنكات للمهديين فى نفس اليوم .

وفى أواخر فبراير وصلت حملة جديدة بقيادة الجنرال اجراهام الى سواكن لانقاذ طوكر لكنها وصلت بعد تسليم المدينة غير أن ذلك لم يمنع اجراهام من الاشتباك مع المهديين والانتصار عليهم فى موقعة التيب الثالية فى ٢٩ فبراير سنة ١٨٨٤ . ثم تقدم نحو تماى وهزم المهديين مرة أخرى بقيادة عثمان دقنة فى ١٣ مارس ١٨٨٤ . ولم تسمح السلطات البريطانية لقوات جراهام بالتقدم نحو بربر وما لبث أن استدعى مع قواته الى مصر فى أبريل من نفس العام بعد أن ترك بعض القوات للدفاع عن سواكن ومنع نفوذ المهدية من التسرب الى البحر الأحمر (٦) .

واضح أن السلطات البريطانية فى سواكن كانت تخشى من حدوث تأثير للمهديين فى الحجاز وتعمل على الحيلولة دون ذلك (٧) .

وفى الفترة التالية شدد المهديون هجماتهم على الحاميات المصرية فى السودان الشرقى . ومن أجل انقاذ الحاميات المصرية فى تلك الجهات أوفدت الحكومة البريطانية بعثة الى امبراطور الحبشة بقيادة وليم وايت عن الحكومة الانجليزية ومازون بك محافظ مصوع نيابة عن الحكومة المصرية لابرام اتفاق مع الحبشة بهدف تسهيل عملية سحب وانقاذ القوات المصرية التى أصبحت محاصرة وتأمين سلامتها عند مرورها بأراضى الحبشة فى طريقها الى ميناء مصوع وتمكنت هذه البعثة من انجاز مهمتها وتوقيع معاهدة عدوة فى ٣ يونيو ١٨٨٤ مع الأحباش على أن تحصل الحبشة على المناطق سوف تنسحب منها القوات المصرية فى عمديب وسنهيت وقد تسلم الأثيوبيون وفق هذه المعاهدة مقاطعة بوغوص فى ١٢ سبتمبر ١٨٨٥

---

(٥) د. على بركات ، السياسة البريطانية واسترداد السودان ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٢٠.

ـ كانت واقعة التيب الأولى فى ٥ نوفمبر ١٨٨٣ بين الثوار وقوات الحكومة المصرية التى أرسلت لانقاذ طوكر من حصار المهديين .

(٦) المرجع السابق ، ص ٤٤ ، ٤٥

(٧) دار الوثائق ، دفتر وارد تلغرافات رقم ١٣٣ ، تلغراف من محافظة سواكن الى مأمورية رواية .

كما سقطت كسلا فى أيدى المهديين بعد ضغط وحصار استمر قرابة عام كما سقطت القضارف فى أبريل ١٨٨٤ (٨) .

ومع استمرار الضغط على سواكن وفى مواجهة سيطرة عثمان دقنة على شرق السودان أرسلت السلطات البريطانية الجنرال جراهام للمرة الثانية على رأس قوة كبيرة من الانجليز والهنود والمصريين أوقعت الهزيمة بالمهديين بقيادة عثمان دقنة فى ٢٢ مارس ١٨٨٥ فى موقعة توفرك . ثم دخلت القوة تماى ولم تستمر هذه الحملة فى مطاردة المهديين . وتمسكا بسياسة اخلاء السودان والالتزام بموقف دفاعى فى هذه المنطقة انسحبت الحملة الى سواكن واكتفت بما أحرزته من انتصارات على المهديين .

وعلى الرغم من هذه الحملات كان المهديون يشددون ضغطهم على المدينة من وقت لآخر . غير أن نهاية سنة ١٨٨٦ شهدت تدهورا ملحوظا فى نفوذ عثمان دقنة فى المنطقة فالقبائل تطور موقفها المعادى للمهديين الى حرب أجبر فيها عثمان دقنة على اخلاء تماى . لكن رغم هذا فان المناوشات لم تتوقف بين حامية المدينة وبين قوات المهديين المعسكرة فى المنطقة . ففى أوائل نوفمبر سنة ١٨٨٧ احتل عثمان دقنة قرية هندوب بقوة كبيرة وفى ١٧ يناير سنة ١٨٨٨ شرع دقنة فى تأديب قبائل الأمرار الموالية للسلطات المصرية وكان عثمان دقنة يرى أنه لا يمكن القيام بعمل حاسم ضد سواكن قبل أن يتم تأديب هذه القبائل وقد انتهز كتشنر هذه الرصة فهاجم قوات عثمان دقنة لكن الهجوم فشل لقلة عدد القوات التى استخدمها كتشنر فى هذه العملية . وفى مارس حصل المهديون على تعزيزات من قبائل البقارة للقيام بمجهود جديد ضد سواكن وبالفعل شدد المهديون حصارهم على المدينة حتى وصلوا فى سبتمبر سنة ١٨٨٨ على بعد ١٥٠٠ ياردة من أسوارها . لكن حامية المدينة صمدت بمساعدة الأسطول ووصول الامدادات لها عن طريق البحر ومع استمرار الحصار وقطع كل الاتصالات بين المدينة والداخل اضطرت السلطات العسكرية فى القاهرة الى ارسال تعزيزات سريعة الى المدينة يقودها السير جرانفيل

---

(٨) د . محمد فؤاد شكرى ، مصر والسودان ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٤٠٩

تفننه وفي ٢٠ ديسمبر ١٨٨٨ قاد جرانفيل الهجوم على القوات المهدية وتمكن من هزيمتهم في واقعة الجميزة (٩) . غير أن جرانفيل توقف عن مواصلة الهجوم لأن السياسة البريطانية كانت لا تزال تلتزم بموقف دفاعى فى هذه المناطق وأن الهدف من الهجوم كان ابعاد خطر المهديين عن المدينة . لقد كان اصرار المهديين على الاستيلاء على سواكن نابعا من ادراكهم أن سواكن طالما بقيت فى يد قوة معادية فانها سوف تستخدم كنقطة وثوب على دولتهم (١٠) . وبينما كانت الجهود العسكرية للمحافظة على الوضع فى سواكن والاحتفاظ بشواطىء البحر الأحمر بعيدا عن سيطرة المهديين قائمة . كانت الجهود تتجه من البداية الى تهدئة الأمور فى السودان الشرقى وحول سواكن ففى برقية من جرانفيل الى اجرتون مؤرخة ١٥ أغسطس ١٨٨٤ جاء بها « ... ان الحكومة البريطانية ليس لديها خطة تفصيلية لاستقرار الأمور فى السودان الشرقى . لكن على الرغم من هذا فان الحكومة البريطانية لا تستبعد النظر فى مثل هذه المسألة على الرغم من عدم امكانية وجود بعض الزعماء الذين يمكن الاعتراف بهم كحكام مستقلين فى هذه المناطق وهؤلاء الرجال يمكن منحهم مرتبات سنوية من مصر بشرط أن يكونوا أصدقاء لمصر ويعملون على تشجيع التجارة مثلما اقترح الجنرال غوردون بخصوص الزبير باشا . وأن الحكومة البريطانية تضع ثقة كبيرة فى قدرة وحسن تقدير ليفتانت كولونيل تشرمسيد والميجور كتشنر الذى يجب توجيههما الى هذه الأهداف الخاصة بحيث لا تفوتهم فرصة اقامة مثل هذه التدابير » (١١) .

وما لبثت المناقشات أن أثيرت حول السماح لسواكن بالاتجار مع الداخل . وكانت وجهة نظر السلطات العسكرية أنه اذا وجدت الغلال فلا يوجد شىء يمنع تسربها الى الداخل ووصولها الى المهديين وأنه يمكن تهريب المواد الحربية والممنوعات تحت ستار التجارة المشروعة الأمر الذى قد يسهل عملية هجوم عثمان دقنة على سواكن . بينما كان من رأى

---

(٩) د. محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ٤٤٠ .

(10) Jackson, Osman Digna, London, 1926.

(11) 48, "Ägypten, E. Granville to Egarton. 15/8/1884.

أنصار اباحة التجارة أن المهديين الذين لا يمتون الى السـودان الشرقى بصلة يمثلون نسبة ضئيلة تستبد بالسكان (١٢) ٠

وقـد بدأت مسألة التجارة مع الداخل تثار فى أوائل سـنة ١٨٨٦ عندما وصل الى القـاهرة بعض أعيان السودانيين بعـد أن قضوا وقتا فى سواكن واتفقت كلمتهم على ضرورة نشر السـلام ومنع الناس من قتل بعضهم بعضا حدث ذلك أثناء وجود بعثة درموند وولف فى القـاهرة وهى البعثة التى أرسـلتها انجلترا الى القسطنطينية أولا فى محـاولة للوصول الى اتفـاق مع تركيا حول المسألة المصرية وتحديد موعد للجلاء عن مصر وحضرت هـذه البعثة الى القاهرة فى ديسمبر سنة ١٨٨٥ — ومعها المندوب العثمانى أحمد مختار باشا ٠

وكان المراد بالسلام هو حرية التجارة مع الداخل وكان الرد عليهم من قبل بارنج « لورد كرومر فيما بعد » أن المسألة المصرية موضع دراسة بين الحكومتين المصرية والانجليزية وأن عليهم ابلاغ السودانيين أن التجارة سوف تعتمد على مدى السلام الذى سوف يتحقق لأن العلاقة مع السودان لابد أن تحكمها الاعتبارات العسكرية ٠ وكان بارنج يرى اعادة فتح طرق التجارة مع السودان واقامة أسواق فى وادى حلفا وسـواكن وتشجيع السكان على عرض سلعهم دون التعرض لخطر احتجازهم ٠ وهـذا الرأى تضمنه خطاب ستيفنسون قائد قوات الاحتلال فى مصر الذى أرسله الى وزير الحربية فى ٢١ مايو سنة ١٨٨٦ ٠ كذلك فقد طلب وولف من ناحيته من اللورد روزبرى اعادة فتح باب التجارة مع السودان واقترح عليه فتح طريق درب الأربعين وطريق وادى حلفا وطريق أسوان بربر وكذلك طريق بربر كورسكو ٠ وقال أن هـذه المقترحات توصل اليها بعـد عقـد عدة مؤتمرات مع كبار التجار فى القاهرة المشتغلين بالتجارة مع السودان ٠ وبعد التشاور مع الأطراف المعنية فى مصر ٠ وأن فتح طرق التجارة هذه سوف يتم بالطرق السلمية وسـوف يكون له أكبر الأثر فى انشـغال السودانيين بالتجارة والانصراف عن الحرب ٠ وأنه من المرغوب فيه فتح أسواق فى مختلف النقط التى تخضع للسلطات العسكرية لضمان عـدم

---

(12) Cromer : Modern Egypt, London 1908, U, II. p. 73.

الاتجار فى الرقيق والأسلحة وأن فتح باب التجارة سوف يساعد على حل مشكلة السودان (١٣) .

وكان رد الحكومة البريطانية أنه ما دامت الحكومة لا تنوى شن حرب عدوانية ضد سلطات الخرطوم فان الاجراءات التى لا تكلف شيئا يجب اتباعها وأن كانت تخشى من تسرب البارود الى السودان عند فتح باب التجارة .

وكان بتلر قائد قوة الحدود يميل هو أيضا الى فتح باب التجارة مع السودان لأن منع التجارة لن يحول دون حصول السودانيين على السلاح والذخيرة ويثير فى نفس الوقت القبائل المستقرة التى تقيم على ضفاف النهر بين اسنا وحلفا . وكان هذا الرأى يرمى الى رواج السلع الانجليزية . كما أن فتح باب التجارة سوف يجذب كل العناصر التى سوف تستفيد من النشاط التجارى بعيدا عن معسكر المهدية .

وهكذا بدأ التحول فى موقف سلطات الاحتلال من المعارضة الى التأييد لاستئناف التجارة بين سواكن والمناطق المجاورة فى السودان الشرقى وان كان قد بقى كتشنر فى سواكن يرى ضرورة فرض قيود شديدة على التجارة مع الداخل . ولقد شكا مختار باشا الى وولف بأن منع التجارة فى شرق السودان لم يحرم السودانيين من الموارد بل أضر بالاقتصاد المصرى حيث اتجه النشاط التجارى الى الايطاليين فى مصوع . وعلى ذلك فقد وافقت الحكومة البريطانية فى نهاية ١٨٨٦ على استئناف التجارة مع السودان حيث أرسل بارنج برقية الى كتشنر يخبره فيها بأنه تقرر التخلى كلية عن سياسة حظر التجارة مع الداخل الى حين استسلام طوكر ويطلب منه ارسال خطة اعادة التجارة مع الداخل كاملة مع الشروط التى يراها ضرورية لأغراض الجمارك ولمنع تهريب الأسلحة والذخائر (١٤) .

---

(13) Russel, The ruin of the Sudan, London, 1892, pp. 165 - 189.

(14) Holt, The Mahdist state in the Sudan, Oxford, 1958, p. 168.

غير أنه من الواضح أن السلطات البريطانية فى سواكن كانت قد توصلت الى اتفاق مع القبائل بفتح منطقة رواية والشيخ برغوت للتجارة والتعامل مقابل تعهدهم بطاعة الحكومة وتخليص تماى من سيطرة عثمان دقنة (١٥) .

وقد أوفت القبائل بتعهداتها السابقة فى الفترة التالية فقد قامت قبيلة الأمرأر ومعها قبيلة الجميلاب فى ٧ أكتوبر بحصار تماى وسقطت المدينة فى أيديهم بعد أن خسر المهديون كمية كبيرة من السلاح والذخيرة و ٢٥٠ رجلا بين قتيل وجريح (١٦) .

وفى نهاية سنة ١٨٨٨ تقدمت السلطات العسكرية باقتراح الى حكومة لندن للدخول فى مفاوضات مع المهديين حول السودان الشرقى لتخفيف الضغط سلميا على جبهة سواكن ولم تبد حكومة لندن اعتراضا لكنها كانت ترغب فى معرفة الأسس التى يمكن أن تبدأ على أساسها المفاوضات وما يمكن تقديمه للمهديين فى مقابل تخليهم عن سياستهم . وكان بارنج يرى أن هناك صعوبة فى التفاوض مع المهديين وأن كل ما يمكن القيام به هو تكتيل قبائل السودان الشرقى ضد المهدية لأن هذه القبائل — فى رأيه — تكره المهديين أكثر من كراهيتها للحكم المصرى السابق على الثورة (١٧) .

ولقد زاد التبادل التجارى بين سواكن والداخل بعد انسحاب عثمان دقنة الى طوكر ويبدو أنه يئس من الاستيلاء على سواكن فطلب من الخليفة عبد الله التعايشى أن يأذن له بالانسحاب الى طوكر واعادة فتح باب التجارة . فأذن له الخليفة فى ذلك فغادر هندوب الى طوكر فى ١٩ فبراير ١٨٨٩ ليتخذ منها مركزا لعملياته العسكرية (١٨) .

---

(١٥) دفتر وارد تلغرافات رقم ١٣٣ ، تلغراف رقم ٢٠٣ .

(16) Dugarric, L'Etat Mahdist du Sudan, Paris 1901 p. 18.

(17) Shibeika, M. British Policy in the Sudan, 1882/1902 Oxford, 1952. p. 314.

(١٨) نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، القاهرة ١٩٠٣ ، ٣ أجزاء ، ص ٤٩٢

هكذا عملت السلطات الانجليزية على عودة الحيـاة التجارية الى شرق السودان فى محاولة لانعاش هـذه المنطقة التى من الواضح أنهـا كانت تعانى من صعوبة الحياة وقلة المياه بعد الخراب والمعارك التى نشرتها قوات عثمان دقنة فى هـذه المناطق ويبدو أن الحالة فى هـذه المنـاطق كانت قد وصلت الى درجة استدعت تدخل سلطات سواكن لتنظيم حصول القبائل المجاورة لمنطقة رواية على المياه ومسـاعدتهم فى ذلك بالنسـبة للأحوال الحاضرة (١٩) .

وهكذا كانت السياسة البريطانية رغم تمسكها بسـياسة اخـلاء السودان والالتزام بموقف دفاعى فى سواكن تحـاول انعاش السـودان الشرقى عن طريق اقامة علاقات تجارية بين سواكن والمناطق الداخليـة واعطاء حق الدخول الى سواكن للقبائل الموالية لمصر وانتزاع المزيد من ولاء هذه القبائل . وكان البعض يرى فى ذلك امكانية انهيار المهدية من الداخل عن طريق انصراف القبائل عن تأييدها للخليفة كنتيجـة لسخط القبائل على سياسة التعايشى فى السودان وهو السخط الذى كان باديا فى عام ١٨٨٩ (٢٠) .

غير أن السياسة البريطانية فى شرق السودان قد شـهدت بعض التحول فى نهاية ١٨٨٩ م بسبب استمرار توسع الايطاليين تجاه كسـلا وهو التوسع الذى أزعج بارنج والسلطات البريطانية فى القاهرة وكان بداية التحول فى السياسة البريطانية من موقف المؤيد للتوسع الايطـالى فى سواحل البحر الأحمر الى موقف التخوف والحـذر من امتداد النفوذ الايطالى الى وادى النيل كما سنرى .

السياسة البريطانية والتوسع الايطالى فى جنوب البحر الأحمر :

نزلت ايطاليا فى منطقة خليج عصب فى جنوب البحر الأحمر منـذ سنة ١٨٧٩ منتهزة فرصة تغلغل النفوذ الأجنبى فى مصر صاحبة السيادة على هـذه المناطق وأعلنت ايطاليا أنها ترغب فى استغلال هـذه المنطقة

---

(١٩) دفتر تلغرافات رقم ١٣٣ ، تلغـراف من محافظ سواكن الى مأمورية رواية فى ١٩ يناير سنة ١٨٨٩

(٢٠) د. محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ٤٨٤

للأغراض التجارية واضطلعت بالنشاط فى هـذه المنطقة شركة رباتينو الايطالية وقـد استطاعت هـذه الشركة أن تعقد عددا من المعاهدات مع شيوخ القبائل فى منطقتى عصب ورهيطه . وقـد حرصت السلطات الايطالية فى هـذه المعاهدات على انكار السيادة المصرية على هـذه المناطق وضمنت ذلك صراحة معاهداتها مع شيوخ القبائل .

وبهذه الطريقة تمكن الايطاليون من وضع أيديهم على منطقـة تمتـد حوالى ٣٦ ميلا على خليج عصب وما لبثت الشركة أن تنازلت عن هـذه المنطقة للحكومة الايطالية وتحولت الى مستعمرة تحمل اسم مستعمرة عصب فى يوليو سنة ١٨٨٤ (٢١) .

وفى البداية كانت السياسة البريطانية تعارض نزول الايطاليين فى هـذه المناطق لأنها رأت فى ذلك تهديدا لطريق البحـر الأحمر الملاحى وقاعدتها فى عدن وتذرعت فى هـذه المعارضة بحقوق السيادة المصرية على هـذه المناطق . وهـذا يفسر حرص الايطاليين فى هذه الفترة المبكرة على انكار السيادة المصرية على هـذه المناطق غير أن السياسة البريطانية أخـذت تتحول عن موقفها المعارض للتوسع الايطالى فى جنوب البحـر الأحمر ابتداء من أواخر سنة ١٨٨١ والسبب فى التحول أن الخارجيـة البريطانية أصبحت تزعجها محاولات الفرنسيين تقويض النفوذ البريطانى فى مصر من جهة ثم سعيهم للوصول الى قلب أفريقيا وتأسيس نفوذهم فى حوض النيل الأعلى من جهة أخرى . خاصة وأن الفرنسيين كانوا قـد نزلوا فى منطقة أوبك منذ فترة مبكرة وحصـلوا على معـاهدة بامتلاكها سنة ١٨٦٢ . كما ساعد على تبنى بريطانيا لهـذا الاتجاه موقف ايطاليا من المسألة المصرية .

وعلى ذلك رأت السياسة البريطانيـة أنه من مصلحتها مصـانعة السياسة الايطاليـة فى التوسع على حساب أملاك مصر فى ساحل البحر الأحمر الغربى وأن تتخذ من ايطاليا « كلب حراسة » حتى يحين الوقت الذى تستولى فيه بريطانيا على هذه المناطق (٢٢) .

---

(٢١) د. السيد رجب حراز ، التوسع الايطـالى فى شرق أفريقيا وتأسيس مستعمرتى أرتيريا والصومال ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٤٣—١٥٢ .

(٢٢) المرجع السابق ، ص ١٤٥ ، ١٤٦

وقد وجدت ايطاليا فى احتلال بريطانيا لمصر فرصة لدعم مستعمراتها فى عصب والتطلع لاحتلال المزيد من الأرض على سواحل البحر الأحمر وشجعها على ذلك التحول الذى حدث فى السياسة البريطانية تجاه النشاط الايطالى فى هذه المناطق وموقف الحكومة البريطانية من هذا الموضوع . ففى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٤ أرسل مانشينى وزير خارجية ايطاليا الى الحكومة البريطانية يستطلع رأيها فى امكانية « امتداد متواضع » لمستعمرتهم لتشمل المناطق المتاخمة فى بيلول وأرفق بخطابه خريطة للمنطقة . وفى هذا الخطاب أوضح الظروف التى دعت ايطاليا لذلك فقال ان اخلاء مصر للسودان الذى من المحتمل أن يمتد ليشمل سواحل البحر الأحمر ورفض الباب العالى الاستجابة لدعوة الحكومة البريطانية بارسال قواته الى نقاط معينة من الشاطىء وعدم رغبة الحكومة البريطانية فى زيادة حجم مسئولياتها عن طريق توسيع مناطق احتلالها العسكرى ؛ واحتمال نزول قوة أخرى فى المنطقة بين مصوع وعصب اذ ما أخلى الشاطىء مع وجود الفرنسيين فى الجنوب سوف يجعل مستعمرتنا الصغيرة محاصرة من كل جانب ويستطرد مانشينى فيقول « ان مركزنا سوف يتعرض للخطر فى هذه المناطق لو وضعت قوة أخرى يدها على هذه المناطق أو حتى عادت البلاد الى ما كانت عليه قبل حضور المصريين اليها وأن احتلال هذه المنطقة من قبل قوة أخرى غير ايطاليا لا يتناسب مع المصالح البريطانية نظرا لمركز بريطانيا فى البحر الأحمر ثم يتساءل فى النهاية اذا كانت بريطانيا تشعر بالغيرة نحو هذا العمل من جانب ايطاليا » (٢٣) .

وفى ردها على ذلك أكدت الحكومة البريطانية « بأنها لا تشعر بالغيرة فى امتداد النفوذ الايطالى الى المنطقة السابقة بل على العكس هى ترحب بذلك . وفى نفس الوقت فان الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تمنح ايطاليا ما لا يخصها وأنها تفضل الوصول الى اتفاق فى هذا الموضوع مع الباب العالى » (٢٤) .

---

(23) 48, "Ägypten, M. Mancini to Count nigra, 29/10/1884.

(24) 48, "Ägypten, E. Granville to Sir Lumley 5/11/1884.

وفى مقابلة تمت بين السفير الايطالى ووزير الخارجية البريطانية سأل السفير الايطالى ما اذا كانت الحكومة البريطانية قد وصلت الى قرار بخصوص الأملاك المصرية فى شاطىء البحر الأحمر وعما اذا كان فى نية الحكومة البريطانية منع أى قوة أخرى من وضع يدها عليها .

وكان رد وزير الخارجية البريطانية أن الحكومة المصرية غير قادرة على استمرار تمسكها بشواطىء البحر الأحمر الأفريقية وأن هذه المناطق سوف تعود الى تركيا . وأن بريطانيا قد نصحت الباب العالى باسترجاع هذه المناطق الى سيادته . واذا كانت ايطاليا ترغب فى احتلال الموانى موضوع الذكر فان هذا الأمر يخص ايطاليا وتركيا وأن الحكومة البريطانية ليس لديها اعتراض ضد احتلال ايطاليا لبعض النقاط على الساحل بما فى ذلك بلول ومصوع (٢٥) .

وفى اليوم التالى أرسل جرانفيل مضمون البرقية السابقة الى بارنج فى القاهرة . وكان بارنج من جانبه لا يمانع فى احتلال الايطاليين لهذه المناطق بل انه يستحثهم على التعجيل بذلك .

وكانت الحكومة البريطانية قد طلبت من تركيا أن تستعيد سيطرتها على المناطق التى سوف تخليها مصر فى سواحل البحر الأحمر وذلك فى رسالة وجهها جرانفيل الى دوفرين Dufferin فى ١٤ مايو سنة ١٨٨٤ جاء فيها : ان الحكومة البريطانية لا تستطيع الدخول فى مفاوضات منفصلة حول مصر حتى تستقر الأوضاع فى السودان وأنها تقترح أن يستأنف السلطان سيادته على موانى البحر الأحمر المملوكة لمصر وأن يحتلها بقواته على أن ينفذ الاتفاقية المعقودة بينه وبين بريطانيا الخاصة بحرية التجارة والملاحة ومنع تجارة الرقيق لأن مصر ليس لديها الامكانيات المادية والبشرية للتمسك بهذه المناطق . ولما كانت الحكومة التركية عاجزة فى الواقع عن ارسال قوات الى هذه المناطق الأمر الذى سوف تعارضه السياسة الانجليزية من حيث الواقع . فان الحكومة التركية اكتفت بسؤال الحكومة البريطانية عما اذا كانت هناك قوات ايطالية سوف تنزل فى

---

(25) 48, "Ägypten, E. Granville to L. of Dufferin, 14/5/1884.

السودان بمساعدة انجلترا وفى الرد على ذلك أفاد جرانفيل بأنه طالما أن الباب العالى لم يرسل قوات لممارسة حقوقه على هذه الموانى — كما طلبت الحكومة البريطانية — فان الحكومة البريطانية لا تملك اعطاء هذه الموانى لأحد أو يضع أحد من احتلالها (٢٦) .

كما أن الخارجية البريطانية ترى أنه ليس هناك قوة أكثر حفظا لحقوق الباب العالى من أيطاليا وأنه لا أساس للشائعات حول رغبة ايطاليا فى احتلال طرابلس وأن ما تهدف اليه ايطاليا هو المحافظة على الأمر الواقع (٢٧) .

وهكذا تحولت السياسة البريطانية الى مدافع عن مصالح ايطاليا وسياستها الاستعمارية ولما كانت بريطانيا تخطط لوضع يدها على الجزء الأكبر من الأملاك المصرية فى ساحل البحر الأحمر وخليج عدن وأنها سوف تتصدى يوما للثورة المهدية . فقد حرصت على الا يصل السلاح الى هذه المناطق عبر موانى البحر الأحمر حتى لا يكون أداة فى يد الشعوب لمقاومة الاستعمار البريطانى الزاحف ولذلك حرصت بريطانيا على أن تحصل على ضمانات من الايطاليين فى هذا الشأن ففى ٢٩ ديسمبر ١٩٨٤ أرسل جرانفيل الى السفير الانجليزى فى روما يطلب منه الوصول الى تفاهم مع الحكومة الايطالية حول الحد من الأسلحة التى تستورد الى الموانى التى ستخضع لسيطرتها واستطرد يقول « ان توزيع السلاح غير المحدود والذخيرة فى منطقة الدناكل والمناطق المجاورة ستصبح مصدرا اضافيا للخطر على المسافرين وطرق التجارة والحروب بين القبائل وسفك الدماء بلا فائدة . وهذا الوضع سوف يعرض موانى خليج عدن للخطر وأن هذه الاعتبارات كانت موجودة لدى الحكومة البريطانية فى المفاوضات التى تمت مع تركيا ومصر سنة ١٨٨١ حول خليج عصب وفى النهاية طلب وزير الخارجية من السفير البريطانى ابلاغ الحكومة الايطالية برغبة بريطانيا فى القيام ببعض التدابير للحد من تجارة الأسلحة فى شاطىء البحر الأحمر بالنسبة للتجار الايطاليين والأجانب (٢٨) .

---

(26) 48, "Ägypten, E. Granville to Lumley 31/19/1884.
(27) 48, "Ägypten, E. Granville to Lumley 10/1/1884.
(28) 48, "Ägypten, E. Granvilleto Lumley 29/12/1884.

وفى اجابة الحكومة الايطالية على ذلك أوضحت بأنها تعترف بضرورة وضع قيود على استيراد السلاح عبر موانى البحر الأحمر . لكن الحكومة الايطالية من ناحية أخـرى ترى أن وضع مثل هـذه القيود سوف تجعل تجارة السلاح فى هـذه المناطق تتركز فى أيدى الفرنسيين الذين ينظمون صفقات كبيرة من السلاح عن طريق أوبريك وأن هـذه التجارة تتم بنشاط كبير وتذهب الى اقليم شوا . ويبدو أن الحكومة الايطالية لم تكن مقتنعة بوجهة النظر البريطانية فى هـذا الشأن . فأضافت بأن تأثير الأسلحة على السكان غير المتحضرين كبير وأن الدولة التى سـوف تقـوم بتوريد السلاح لهم هى التى سوف يكون لها نفوذ كبير عليهم وأن اتفاقية خليج عصب التى أشارت اليها الحكومة البريطانية لم تجد طريقها الى التنفيذ . وفى المذكرة التى أعدتها الحكومة الايطالية بهذا الشأن أكدت على النقاط السابقة . وأضافت بأن الظروف التى وقعت فيها اتفاقية خليج عصب قد تغيرت خاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين شوا والحبشة وأشـارت المذكرة الى أن قصر الاتفاق على ايطاليا وانجلترا سوف ينقل تجارة السلاح بالكامل الى أيدى التجـار الفرنسـيين وسوف يؤدى ذلك بالتبعيـة الى زيادة نفوذهم (٢٩) .

ويبدو أن تصريحات القادة الايطاليين والاتصالات الايطالية الانجليزية قـد لفتت نظر الحكومة الفرنسية لامكانية وجود اتفاقيـة بين ايطاليـا والحكومة البريطانية حول شواطىء البحر الأحمر ففى المقابلة التى تمت فى ٢٩ ينـاير ١٨٨٥ بين السـفير الفرنسى فى لندن وبين وزير الخارجيـة البريطانية سأل السفير الفرنسى عما اذا كانت هنـاك اتفاقية بين الحكومة الايطالية والحكومة البريطانيـة فأجاب وزير الخارجيـة بالنفى . وأمام استطراد السـفير الفرنسى أجاب جرانفيل بأنه ليس من حق السـفير استجوابه خاصة وأن فرنسا نزلت فى هـذه المناطق دون التشاور مع انجلترا . وان كان ليس هناك تحالف خاص مع ايطاليـا وأن سياسـة حكومته تقوم على تجنب المحالفات واقامة علاقة طيبة مع الجميع . وأن بريطانيا على علاقة صداقة مع ايطاليا وانها زادت بسبب موقف ايطـاليا

(29) 48, "Ägypten, Lumley to Granville, 13/1/1884.
مرفق بهذا الخطاب المذكرة الايطالية بخصوص هذا الموضوع .

من المسألة المصرية وأوضح الوزير البريطانى الأسس التى تقوم عليهـا السـياسة البريطانية فى هـذه المناطق وهى أن بريطانيا تعتقد أن مصر ليس لديها من الموارد الضرورية ما يمكنها من الاحتفاظ بكل شواطىء البحر الأحمر الأفريقية .

كما وان بريطانيا نصحت الباب العالى بأن يعيد تأكيد سيادته على هـذه المناطق بارسال قوات للمناطق التى تجلو عنها القوات المصرية لكن الحكومة البريطانية لم تتلق ردا حول هـذا الموضـوع . وأن بريطـانيا لا ترغب فى أخـذ هـذه المناطق لنفسها ولا تمنح ما ليس يخصها للآخرين ولكن فى حالة طلب الموانى والمحطات التى لا تحتاجها مصر من قوة صديقة فان هـذا الأمر يمكن تدبيره مع الباب العالى (٣٠) .

وبعد أن اطمأنت ايطاليـا الى حقيقة موقف انجلترا من مشروعاتها التوسعية فى ساحل البحر الأحمر أخـذت توجد المبررات التى تتزرع بها لاحتلال هذه المناطق منتهزة فرصة الاعتداء الذى وقع على بعض الايطاليين وقتلهم بمنطقة الدناكل بالقرب من مصوع (بعثة بنياكى) وأقامت السلطات الايطالية الدنيا وأقعدتها وارتفعت الأصوات المطالبـة بالثأر والتوسـع الاستعمارى فى الصحف وفى البرلمـان وفى دوائر الرأى العام الأخرى تطالب بالانتقام من أولئك « المتوحشين » الذين قتلوا هؤلاء التجار فى بلاد الدناكل . وخلال الخطب التى ألقاها مانشينى فى البرلمـان أوضح أن سلامة البحر الأحمر من سلامة قناة السويس وأن ايطاليا لديها من الوسائل ما يكفى لحماية ممتلكاتها فى خليج عصب . وأنهـا سوف تعمل فى هذه المناطق بالاتحاد مع بريطانيا (٣١) .

ويبدو أن العبارة الأخيرة هى التى بنت عليها الحكومة الفرنسـية شكوكها . وعلى ذلك فقد قامت الحكومة الايطالية باحتلال بيلول فى ٢٥ يناير ١٨٨٥ كما احتلت مصوع فى ٣١ يناير وكانت الحكومة الايطالية قـد أرسلت للحـكومة المصرية تسألها عما اذا كانت مسـتعدة فى ظـروف

---

(30) 48, "Ägypten, E. Granville to Lyons, 29/1/1884.

(31) 48, "Ägypten, Lumley to Granville. 20/1/1884.

48, "Ägypten, Lumley to Granville. 28/1/1884.

الاضطرابات القائمة لضمان أرواح الرعايا الايطاليين على شاطىء البحر الأحمر جنوب سواكن . وقد أجابت الحكومة المصرية بأنها لا تتصرف الا بنـاء على تعليمات من الباب العالى . وفى رد الباب العالى على برقية الخديوى فى هذا الشأن حذر الحكومة المصرية من الاستجابة الى الاحتلال الايطالى لمصوع بسحب الحامية المصرية . وعلى ذلك فقد أرسل نوبار باشا الى السلطات المصرية فى مصوع يخبرها بأنه فى حالة نزول الايطاليين فى مصـوع عليها أن تحتج عليهم وأن تحتفـظ بالعـلم المصرى والحـامية المصرية والادارة المصرية هناك (٣٢) .

وهكذا لم تكن الحكومة العثمانية فى هـذا الموقف سوى ارسـال التعليمات وتبادله المذكرات فقد أرسلت تحتج لدى الحكومة البريطانية على التصريحات التى أدلى بها مانشينى فى مجلس الشيوخ حول احتلال بيلول وأن تطلب الحكموة البريطانية من الحكومة الايطالية سحب قواتها والتوقف عن أى عمل يؤثر على حقوق السيادة العثمانية فى هذه المناطق (٣٣) .

وفى رسالة أخرى الى الحكومة البريطانية ذكر الباب العـالى أن ايطاليا باحتلالها بيلول قـد اعتدت على حقوق السيادة العثمانية وأن من الواجب مطالبة ايطاليا بسحب قواتها وأن الدولة العثمانية سوف تطالب الدول الكبرى بذلك (٣٤) . غير أن الأتراك ما لبثت أن هدأت ثائرتهم بعد أن نصحت الحكومة البريطانية الباب العالى بسحب تهديده على أن يصدر من الحكومة الايطالية تصريح تعلن فيه بأن نزول قواتها فى مصوع لا يعتبر تعديا على حقوق السيادة العثمانية التى تعترف بها الحكومة الايطالية . غير أن ذلك سرعان ما تبدد عندما قررت الحكومة الايطالية اعلان الحماية على مصوع فى ٢٥ يوليو ١٨٨٩ (٣٥) . وقـد كان الاستيلاء على مصوع بداية لتنفيذ ايطاليا لمشروع مانشينى الاستعمارى فى سواحل البحر الأحمر وشرق أفريقيا وقـد شجعت السـياسة البريطـانية على تنفيـذ هـذا المشروع لسببين :

---

(٣٢) د. السيد الرجب حراز ، المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

(33) 48, "Ägypten, E. Baring to L. Granville, 3/2/1884.
48,"Ägypten, Assim Pacha to Musorus Pasha 2/2/1884.

(34) 48, "Ägypten, Assin Pasha to Musurus Pasha, 5/2/1885.

(٣٥) د. السيد الرجب حراز ، المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

١ — الحيلولة دون وصول الفرنسيين الى وادى النيل والاحتفاظ بساحل البحر الأحمر بعيدا عن أيدى الفرنسيين وكان ذلك وراء تشجيع الانجليز للايطاليين فى احتلال مصوع .

٢ — أن يكون الايطاليون عونا للانجليز فى ضرب الثورة المهدية عندما يحين الوقت أو على الأقل ابعاد المهديين عن سواحل البحر الأحمر .

وكان تقدير السياسة الانجليزية للموقف كما يصوره وولف على النحو التالى : أن الايطاليين قد يقفون سدا فى وجه حركة الفرنسيين فى التقدم نحو السودان وأن الايطاليين اذا استطاعوا التصدى للمهديين فانهم قد يصابون بهزيمة على أيدى الأثيوبيين (٣٦) .

وعلى ذلك فقد شرع الايطاليون فى الزحف على سواحل البحر الأحمر من مصوع شمالا الى عصب جنوبا وفى الداخل فى اتجاه الحبشة وكان بسبب هذا التوسع أن اصطدم الايطاليون بالأحباش وحدثت أول هزيمة لهم أمام الحبشة فى دوجالى فى ٢٦ يناير سنة ١٨٨٧ .

وفى أعقاب ذلك دخل الايطاليون فى مباحثات مع بريطانيا حول تحديد مناطق النفوذ على ساحل البحر الأحمر واتفق الطرفان على اتخاذ رأس قصار حدا فاصلا بين نفوذ الطرفين على أن تتعاون الادارتان البريطانية فى سواكن والايطالية فى مصوع لتبادل وجهات النظر والمعلومات حول النشاط التجارى وغيره وأن تبذل الحكومة الايطالية جهدها فى منع تجارة الرقيق وأن يعطى الأسطول البريطانى حق البحث عن سفن الرقيق فى شواطىء المنطقة الخاضعة لايطاليا وقد وافقت الحكومة الايطالية على هذا الاتفاق فى ٣١ مايو ١٨٨٧ (٣٧) . ولقد حاولت بريطانيا التوسط فى الخلاف الناشب بين الايطاليين والأحباش فقررت فى أكتوبر سنة ١٨٨٧ ارسال جيرالد بورتال (سكرتير بارنج) على رأس بعثة لتسوية الخلافات الناشبة بين ايطاليا والحبشة وقد قابل بورتال الأمبراطور يوحنا فى

---

(36) Woolf. L, Empire and Commerce in Africa. New - York 1920, p. 160.

(٣٧) د. السيد الرجب حراز ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣.

ناتشباتجي في ديسمبر ١٨٨٧ . غير أن مهمته لم تلق نجاحا بسبب تمسك الأحباش بحقوقهم في الأراضي التي يطمع الايطاليون في الاستيلاء عليها . وعلى ذلك فقد شرع الايطاليون في التوغل في أراضي الحبشـــة منتهزين فرصـــة النزاع بين الأحباش والمهديين متحالفين في ذلك مع منليك حاكم شوا ضـــد الامبراطور يوحنا . ففي يوليو ١٨٨٨ استولى الايطاليون على سنهيت وفي ٢٥ يوليو أعلنوا سيادتهم على مصوع وأرسلوا بذلك مذكرة الى الدول الأوربية ينفون فيها سريان الامتيازات الأجنبية على مصوع(٣٨) . وما لبث الامبراطور يوحنا أن قتل قائد القوات المهدية في واقعة القلابات في مارس ١٨٨٩ وتولى الحكم بعده الامبراطور منليك حاكم شوا الذي وقع معه الايطاليون معاهدة أوتشيالي في ٢ مايو ١٨٨٩ التي ثار حولها الخلاف بعد ذلك . وعقب توقيع هـــذه المعاهدة ادعى الايطاليون أن هذه المعاهدة تعطيهم الحق في فرض الحماية على الحبشة وبدا واضحا أن ايطاليا تسعى الى تنفيذ برنامج توسعي قـــد يؤدي في النهاية الى تغيير الوضع القـــائم في السودان الشرقي (٣٩) وأن الايطاليين يهدفون الى الاستيلاء على كسلا بعد أن استولو في ٢ يونيو ١٨٨٩ على كيرين عاصمة مقاطعة بوغوص كما أعلنوا حمايتهم على زولا في ٢ أغسطس ثم استولو على اسمره في اليوم التالي وقـــد أزعج هـــذا التحرك نحو كسلا السلطات البريطانية في القاهرة لأن بارنج كان يرى أن امتلاك الايطـــاليين لكسلا يجعـــل من الممكن لهم تهديد وادي النيل حتى الخرطوم وأن تأسيس سلطة متحضرة في وادي النيل سوف يخلق كارثة لمصر . أما الموقف بالنسبة للمهديين فانه يختلف لأن القبائل غير المتحضرة لا تمثل خطرا حقيقيا على مصر من وجهة نظر بارنج . الذي كان يرى أن الايطاليين يريدون الحصول على كســـلا وأنه مالم يحدث اتفاق بتحديد الأراضي التي ستكون تحت حكمهم مباشرة فانه من المحتمل بعـــد فترة وجيزة أن يحاول الايطاليون التوسع نحـــو الغرب ولابد أن يقودهم ذلك الى وادي النيل وحتى لو كان احتلال كسلا ليس خطوة للتوغل نحو الغرب الا أنه يجب الاعتراض عليه لأن امتـــلاك

---

(٣٨) نص هذه المذكرة أنظر :

Ägypten, Atalien Akion in Rotn meere.

(39) Hertslet. E. The Map of Africa by tredy London 1909 VII. p. 454.

كسلا سوف يضمن السيطرة على العطبره أحد روافد النيل الهامة كذلك فان وجود الايطاليين فى كسلا سوف يجعل تحت سيطرتهم قبائل الشكرية والهدندوة مما يؤدى الى اقامة محمية ايطالية فى أراضيهم (٤٠) . والنتيجة التى يمكن الوصول اليها من كلام يارنج أنه من المرغوب فيه الوصول الى اتفاق مبكر مع ايطاليا وقد ضمن يارنج وجهة نظر هذه فى خطاب أرسله الى سولسبورى فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٩ .

غير أن سولسبورى كان يرى أن الموقف لا يدعو للانزعاج الى الدرجة التى ظهرت فى خطاب يارنج (٤١) . ومن ثم أمكن تسوية مسألة الحدود فى الدخل بين مناطق النفوذ الايطالى فى السودان الشرقى واطلاق يد ايطاليا فى احتلال كسلا والمناطق المجاورة لها حتى العطبرة الا أن السياسة البريطانية احتفظت بحق الحكومة المصرية فى استرجاع هذه المنطقة بما فيها كسلا من ايطاليا عندما تتهيأ الحكومة المصرية الظروف لاستردادها (٤٢) . وهكذا كانت السياسة البريطانية تتخذ من الايطاليين « كلب حراسة » لحماية مصالحها فى ساحل البحر الأحمر كما أنها كانت فى نفس الوقت حريصة على أن يظل نفوذهم — شأنهم فى ذلك شأن فرنسا — بعيدا عن وادى النيل هدف السياسة البريطانية النهائى فى هذه المنطقة .

---

(40) Robinson. Op. Cit., p. 285.

(41) Shibeika, Op. Cit., pp. 319 - 327.

(٤٢) د. محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ٤٤٨ .

٣١

مصر والصومال فى البحر الاحمر

(الانسحاب المصرى من الصومال)

للدكتور سمير محمد طه
كلية الآداب بسوهاج — جامعة أسيوط

اتبعت الحكومة المصرية منذ عام ١٨٦٥ سياسة ايجابية فى البحر الأحمر وذلك لتضمن سيادتها التامة على الساحل الأفريقى لهذا البحر ، والذى كانت الدولة العثمانية تسيطر على ساحله الأسيوى (١) ، وخاصة أن بريطانيا وبعض الدول الأوربية الأخرى قد عمدت الى عقد محالفات مع بعض شيوخ المناطق النائية أو صغار أمرائها وتحصل منهم على موافقات بالتنازل عن بعض الأماكن التابعة لهم ، ففى ١٩ أغسطس سنة ١٨٤٠ حصلت بريطانيا من السلطان محمد بن محمد والى تاجورة على جزر موسى ، وأبرمت فى ٣ سبتمبر من العام نفسه مع الشيخ سعيد محمد البار حاكم زيلع معاهدة تنازل فيها عن جزيرة أوباط . وقامت فرنسا بعقد معاهدة فى ١١ مارس سنة ١٨٦٢ مع السلطان دنى أحمد أبو بكر شيخ رهيطة تنازل فيها للامبراطور نابليون الثالث عن ميناء أوبوك (٢) . والمنطقة المجاورة له والبالغ مساحتها ٢٥ ميلا مربعا فى خليج تاجورة (٣) .

---

(١) د. السيد رجب حراز : أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوربى ، ص ١٨٩.

(٢) د. السيد رجب حراز : أرتريا الحديثة ١٥٥٧ — ١٩٤١ ، ص ٧٧

(٣) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ١٨٢٠ — ١٨٩٩ ، ص ٤١٢.

وما لبثت بريطانيا أن تطلعت الى عقد معاهدات تجارية مع قبائل الصومال مثلما فعلت من قبل مع قبائل عدن حتى تنشىء مع قبائل الصومال علاقات وارتباطات تؤدى الى وضع هذه القبائل فى دائرة نفوذها (٤) . على أن جميع عقود الشراء أو الاستئجار التى أبرمت لم تنل أى منها اعترافا من جانب الباب العالى أو من جانب الحكومة المصرية ، التى تمسكت منذ سنة ١٨٦٦ بأن جميع الأراضى المذكورة انما تقع تحت السيادة العثمانية والادارة المصرية وبالتالى لا يمكن التصرف فى ملكيتها بواسطة الشيوخ المحليين (٥) . ورغم عدم اعتراف الحكومة المصرية بهذه العقود الا أنها اضطرت الى تثبيت الأوضاع كما هى بالنسبة لهذه المعاهدات وخاصة بالنسبة لأوبوك ، والسبب فى ذلك هو النشاط الايطالى فى البحر الأحمر ، وعدم رغبة مصر فى تكتيل القوى الاستعمارية ضدها (٦) ولكنها قامت فى نفس الوقت باتباع سياسة نشطة فى البحر الأحمر .

تطلعت الحكومة المصرية الى اعادة سيطرتها على ميناءى سواكن ومصوع ، وقد وافق السلطان على احالة سواكن ومصوع الى الادارة المصرية (٧) . وقد استمر التوسع المصرى بهمة ونشاط فى البحر الأحمر وخليج عدن بعد حصولها على سواكن ومصوع ، وتأسست محافظة فى منطقة الساحل الشرقى لأفريقيا امتدت حتى رأس غردفوى ، وأرسل أسول مرصى يطوف فى البحر الأحمر وخليج عدن (٨) . ففى يوليو سنة ١٨٦٧ أرسلت الحكومة المصرية حكمدار السودان جعفر مظهر للقيام بجولة فى موانى البحر الأحمر والصومال ، وكان يدعو اليه شيوخ القبائل أينما حل ويحثهم على الاعتراف بسيادة الحكومة المصرية ، كما قام بالتوفيق بين القبائل ، ووزع عليها أعلاما ، كان الأهالى يستقبلونها كما لو كانت

---

(٤) د. السيد رجب حراز : أرتريا الحديثة ، ص ٧٧

(٥) جون مارلو — ترجمة د. عبد العظيم رمضان : تاريخ النهب الاستعمارى لمصر ١٧٩٨ — ١٨٨٢ ، ص ١٩٥

(٦) د. جلال يحيى : التنافس الدولى فى بلاد الصومال ، ص ٦٧

(٧) د. شوقى عطا الله الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ص ٤٤ ، ٤٨

(٨) جون مارلو — المرجع السابق ، ص ١٩٣

رمزا للاسلام والالتئام تحت السيادة العثمانية (٩) . وفى سنة ١٨٧٠ أعلنت الحكومة المصرية رسميا أنها تعتبر منطقة مصوع وسواكن وملحقاتهما تشمل الخط الساحلى الأفريقى كله بين السويس ورأس غردفوى . وقد ذكر جون مارلو أن بريطانيا قبلت هذا الإعلان الرسمى « بطيب خاطر » وذلك لأن « مصالحها الرسمية على هذا الساحل تقوم على منع تأسيس قواعد منافسة على يد قوى أوروبية أخرى ، ومنع تجارة الرقيق التى كانت تتم بتصدير الرقيق من الحبشة عن طريق موانى هذا الساحل ، وتسهيل التجارة بين عدن والحبشة عن طريق بربرة وكانت كل هذه الأغراض مما يمكن تحقيقه دون تكاليف كثيرة أو متاعب ، اذا كان هذا الساحل فى يد دولة صديقة وضعيفة مثل مصر » (١٠) .

ورغم ما ساقه مارلو من أسباب فالحقيقة أن بريطانيا لم تقبل ذلك الاعلان بطيب خاطر والدليل على ذلك أنه فى أوائل عام ١٨٧٠ صدرت الأوامر الى جمالى بك بالابحار بالأسطول المصرى الى شواطىء بلهار وبربرة فأثارت هذه الخطوة شكوك حاكم عدن الانجليزى الجنرال ادوارد راسل فكتب الى جمالى بك فى أبريل سنة ١٨٧٠ يسأله عن سبب مجيئه الى تلك المنطقة وهل السبب فى ذلك الفتح والاستيلاء على أملاك جديدة، وهذا التساؤل دل على تشكك سلطات عدن البريطانية فى حقوق مصر على أقاليم الصومال ، ولكن شريف باشا وجه بهذه المناسبة الى الكولونيل استانتون قنصل بريطانيا العام فى مصر خطابا بتاريخ أول يونيه سنة ١٨٧٠ أكد فيه سيادة مصر على كل ساحل البحر الأحمر الأفريقى (١١) .

كما أن بريطانيا من ناحية أخرى كانت تقوم بالدسائس بين القبائل مما يجعلنا نشك فى قبولها الاعلان المصرى برضاء ، فقد شكا أهالى بربرة فى أبريل سنة ١٨٦٨ من دسائس الانجليز للايقاع بين القبائل

---

(٩) د. السيد رجب حراز : أفريقية الشرقية والاستعمار الأوربى ، ص ١٨٩ ، ١٩٠

(١٠) جون مارلو — المرجع السابع ، ص ١٩٣ ، ١٩٤

(١١) د. السيد رجب حراز : أرتريا الحديثة ، ص ٧٦

وبعضها ، وكذلك محاولتهم ضم بعض القبائل اليهم (١٢) .

وفى أغسطس سنة ١٨٧٠ عينت الحكومة المصرية أحمد ممتاز باشا مديرا لمحافظة سواحل البحر الأحمر ، وقد قام ممتاز باشا برحلة من مصوع الى بربرة ومعه محافظ مصوع وناظر قسم دنكل ومروا أثناء عودتهم على الموانى المختلفة من بربرة حتى سواكن واستكشف هـذه الجهات ووصفها وصفا دقيقا ، كما أجرى الصلح بين قبائلها وعين الحراسات لحراسة علم الحكومة ، وهـذه الرحلة تعتبر تمهيدا لامتداد الادارة المصرية والتنظيمات المصرية الى بربرة والجهات المجاورة لها (١٣) .

وأخذت الحكومة المصرية منذ ذلك الوقت تعمل على مد نفوذها الفعلى لهـذه الجهات فصدر أمر لمدير عموم شرقى السودان ومحافظ سواحل البحر الأحمر بارسال رضوان بك الى بربرة على أن يجتمع بمشايخ القبائل وعمد وأهالى تلك الجهة ويؤكد لهم حضور حاكم وجنود مصريين للاقامة ببربرة ، وقـد وصـل رضـوان بك الى بربرة وبعث الأهالى بمكاتبات برغبتهم الدخول فى طاعة الحكومة المصرية (١٤) .

عين فرنز مينزنجر السويسرى فى فبراير سنة ١٨٧٣ مديرا لعموم شرقى السودان ومحافظا لسواحل البحر الأحمر ، وكان العمل الرئيسى الذى كلف به مينزنجر هو قمع تجارة الرقيق فى هـذه الجهات ، وفى يناير سنة ١٨٧٤ أرسلت الحكومة المصرية مينزنجر فى جولة تفتيشية على ساحل الصومال (١٥) . وقـد قـدم تقريرا يطالب فيه بدعم سلطات الحكومة الخديوية وذلك بوضع بعض الجنود فى النقاط المختلفة ، وقـد أوضح أنه من السهل الاستيلاء على هـذه الجهات حتى هرر وذلك لميل

---

(١٢) د. شوقى عطا الله الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر ١٨٦٣ — ١٨٧٩ ، وثيقة ٨٠ ، ص ١٩٥ ، ١٩٦

(١٣) المرجع السابق : وثيقة ٤١ ، ص ١١١ — ١١٦

(١٤) د. شوقى عطا الله الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر ، ص ١٢٩

(١٥) د. السيد رجب حراز : أفريقية الشرقية والاستعمار الأوربى ، ص ١٩٣

الأهالى الى الدخول تحت السيادة المصرية (١٦) . وكان من نتيجة هـذا التقرير أن كلفت الحكومة المصرية فى أكتوبر سنة ١٨٧٤ سفينة مصرية حربيـة بمراقبة ساحل الصومال وعلى وجـه الخصوص عنـد مينائى تاجورة وبربرة (١٧) .

أما عن الادارة المصرية لبربرة فلم يطل مقـام رضوان باشا فى بربرة فقد صـدر اليه الأمر بالتوجه الى اليمن ، وعهد الى جمالى باشا بالتوجه الى بربرة لملاحظة أحوالها والعمل على استتباب الأمن بهـا ، وظل جمالى باشا يدير شئون بربرة ، وكان معه بلوك عساكر ومدفع جبلى ، وصدرت له الأوامر أن يبدأ فى الحال فى اقامة المبانى الهامة (١٨) .

وقد خطت السياسة المصرية فى بلاد الصومال خطـوة أخرى فى سنة ١٨٧٥ وذلك عندما حصلت الحكومة الخديوية على مينـاء زيلع من الدولة العثمانية ، وقد كانت تخضع لسيادة الدولة العثمانية مباشرة ، وبذلك أصبح ساحل البحر الأحمر الأفريقى تحت الادارة المصرية ، وقامت مصر باستخدام زيلع كقاعدة للحملة التى أرسلتها بعـد فترة وجيزة لفتح سلطنة هرر(١٩) . كما صدرت الأوامر أن تتبع تاوجرة زيلع فى ادارتها(٢٠) . وقـد صدر أمر بتعيين محمد رؤوف باشا محافظا لزيلع وملحقاتها وكلف بضم اقليم هرر الى هـذه الكتلة الأفريقية الموحدة (٢١) .

وقـد نجح احتلال المصريين لبربرة فى اثارة أهمية مركز هذا الجزء

---

(١٦) د. شوقى عطا الله الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر ، وثيقة ٨٣ ، ص ٢٠٠ — ٢٠٢.

(١٧) د. السيد رجب حراز : أفريقية الشرقية والاستعمار الأوربى ، ص ١٩٣ ، ١٩٤

(١٨) د. شوقى عطا الله الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر ، ص ١٣٢ ، ١٣٤

(١٩) د. السيد رجب حراز : أفريقية الشرقية والاستعمار الأوربى ، ص ١٩٤

(٢٠) د. شوقى عطا الله الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر ، ص ١٦٥

(٢١) د. جـلال يحيى : العـلاقات المصرية الصـومالية ، ص ٥٧

من الساحل فى ذهن الحكومة البريطانية ، كذلك لم تعترض بريطانيا على احتلال مصر لهرر وهى اقليم داخلى مجاور لبربرة وزيلع بحملة عسكرية صغيرة خرجت من زيلع فى سبتمبر سنة ١٨٧٥ (٢٢) . ففى ١٧ سبتمبر سنة ١٨٧٥ غادر رؤوف باشا زيلع على رأس حملة من الجنود المصرية لفتح هرر وقــد تصدت قبائل النولى والجالا للجيش المصرى المتجه صوب هرر ولكنهما منيتا بهزيمة ساحقة ودلخ الجيش المصرى بعد ذلك مدينـــة هرر فى ١١ أكتوبر سنة ١٨٧٥ ورفع العلم المصرى عليها ، وبعد فتح هرر عين رؤوف باشا حكمداراً على هرر وملحقاتها بأسم حكمدار عموم الجالا والصومال وهرر (٢٣) .

وقد حاول اسماعيل باشا ارسال حمــلة بحرية لايجاد مخرج على المحيط الهندى لتجارة مديرية خط الاستواء (٢٤) . وقد أقلعت الحملة فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٧٥ من السويس الى بربرة ثم اتجهت صنــوب رأس حافون وأبدى أهلها رغبتهم فى الاحتفاظ بالولاء لمصر والمصريين ، وواصل الأهالى رفع الأعلام المصرية فى كل مكان تصل اليه الحملة فوصلت الى براوة فى منتصف نوفمبر وترك الأسطول المصرى مائة جندى بها ثم سافر جنوبا الى قسمايو واحتلت المدينة بدون خسائر فى الأرواح ، وبذلك ضمت قسمايو الى مصر وأخذ المصريون فى استكشاف الساحل الأفريقى (٢٥) . الا أن احتجاج بريطانيا بأن التدخل المصرى يهدد نفوذ سلطان زنجبار أدى الى انسحاب المصريين فقد كان الخديو فى حالة من الضعف لا تمكنه من أن يقف فى وجه بريطانيا ، لاسيما وأن الحالة المــالية لمصر قد ساءت واحتاج الى مساعدة بريطانيا فى معالجته لها (٢٦) .

ومنــذ الوقت الذى احتلت فيــه مصر بربرة ، حــدث تعــاون بين الأسطولين المصرى والبريطانى فى المنطقة لمكافحة تجارة الرقيق ، وفى

---

(٢٢) جون مارلو — المرجع السابق ، ص ١٩٦ ، ١٩٧

(٢٣) د. شوقى عطا الله الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر ، ص ٢١١ ، ٢١٢

(٢٤) د. زاهر رياض : استعمار أفريقيا ، ص ٢٠٥

(٢٥) د. جــلال يحيى : العــلاقات المصرية الصــومالية ، ص ٩٨ — ١٠٢

(٢٦) د. زاهر رياض : استعمار أفريقية ، ص ٢٠٥

يناير سنة ١٨٧٧ أرسل اسماعيل ماكيلوب باشا وهو ضابط بحرى بريطانى فى خدمة الحكومة المصرية فى رحلة تفتيشية لجميع موانى الساحل الأفريقى الشرقى وذلك من السويس الى بربرة ، وكلف باتخاذ الاجراءات اللازمة لمكافحة تجارة الرقيق .

وقد أبرمت فى ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ اتفاقية لمكافحة الرقيق بين الحكومتين المصرية والبريطانية ، وفى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ تحول اعتراف بريطانيا الفعلى بمركز مصر على الساحل الصومالى الى اعتراف رسمى عن طريق اتفاقية اعترفت فيها حكومة بريطانيا بادارة مصر لجميع الساحل الأفريقى حتى رأس غردفوى شرقا تحت التبعية العثمانية بشروط منها اعتبار كل من بلهار وبربرة ميناء حرا وعدم تحصيل رسوم على رؤوس البقر والغنم التى كانت تصدر سنويا من بربرة الى عدن والا يمنح أى جزء من الأراضى الى أية دولة أجنبية ، ويقول جون مارلو « وقد أمكن بهذه الاتفاقية ضمان المصالح الخاصة لعدن فى بربرة مقابل الاعتراف الشرعى بوضع كان قائما من الناحية الفعلية » (٢٧) .

كان السودان المصرى فى أواخر حكم اسماعيل وأوائل عهد توفيق يمتد جنوبا الى خط الاستواء ويشمل بحيرة البرت وبحيرة فيكتوريا والبلاد التى بينهما ، وبلغت حدود السودان شرقا سواحل البحر الأحمر وخليج عدن ، ووصلت حدوده الجنوبية الشرقية الى المحيط الهندى وصارت جميع شواطىء البحر الأحمر الغربية من السويس شمالا الى بوغاز باب المندب جنوبا ملكا لمصر ، وامتدت سلطتها الى شواطىء خليج عدن من بوغاز باب المندب الى رأس غردفوى ثم الى رأس حافون الواقعين على المحيط الهندى وبلغت حدود الدولة المصرية غربا الى مملكة واداى الواقعة غربى دارفور (٢٨) . ثم بدأ الاحتلال البريطانى لمصر ، واتخذ منذ أول الأمر اجراء معينا كان ذا أثر بالغ على السودان وهو حل الجيش المصرى ، وفى يناير سنة ١٨٨٣ تعين السير افيلن وود سردارا للجيش المصرى الجديد الذى عهد بتنظيمه الى السير فالنتين بيكر — أحد الضباط الانجليز — وبلغ عدد

---

(٢٧) جون مارلو — المرجع السابق : ص ١٩٧ — ١٩٩

(٢٨) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال (تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٩٢) ص ١٠٢

الجيش ستة آلاف فقط ، في وقت استفحلت فيــه الثورة في السودان، وأخذ الموقف يتدهور من سيىء الى اسوأ ، حتى انتهى بهزيمة هيكس فى شيكان هزيمة ساحقة فى ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣ (٢٩) .

قوبلت معركة شيكان فى انجلترا بالارتياح فهى تعلم أن هذه الحملة مصيرها الهلاك وذلك لكى تتخذ من هذا المصير ســببا لتنصح الحكومة المصرية باخلاء السودان ، وكان من رأى شريف باشا أنه فى امكان مصر المحافظة على السودان بخمسة عشر الف جندى لاغير ، وان التخلى عن السودان يضر بمصالح مصر سياسيا واقتصاديا ، وانه لا يجد سببا لاخلاء المناطق التى لم تمتد اليها الثورة (٣٠) . وقد اعتمد شريف باشا أيضا فى معارضته على فرمان ٧ أغسطس سنة١٨٧٩ الذى يمنع الخديو من التنازل عن أى اقليم من أقاليم الدولة العلية عهد اليه بادارته ووجهت الحكومة البريطانية انذارا بضرورة الرضوخ « لنصائح بريطانيا » فاضطر شريف باشا الى الاستقالة من منصبه فى ٧ يناير سنة ١٨٨٤ بعد أن رفض التخلى عن السودان وتألفت وزارة جديدة برياسة نوبار على أساس تنفيذ سياسة الاخلاء ، وبعد تأليف الوزارة أسرع نوبار بارسال تعليماته الى نائب الحاكم العـــام فى السودان لاتخاذ التدابير اللازمة نحو ترحيل النساء والأطفال والأهالى الذين يرغبون فى ترك الخرطوم وارسالهم الى بربرة ، كما طلب منه اصدار الأوامر الى قائد حامية سنار بالانسحاب الى الخرطوم مع كل الوظفين والأهالى الذين يرغبون فى ترك المديرية ، وكان على نائب الحكمدار أيضا ابلاغ نفس هذه الأوامر لسلطات بحر الغزال وخط الاستواء .

وكان على حكومة نوبار أن تبحث عن الرجل الذى يصلح لتنفيــذ سياسة الاخلاء ، وفى أول الأمر اتجهت النية الى ارســـال عبد القـــادر حلمى الذى أصبح وزيرا للحربية لخبرته السابقة فى شئون السودان ، غير أنه لم يقدر له انجاز هذه المهمة (٣١) . التى أسندت الى غردون ،

---

(٢٩) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيــل السياسية فى القرن التاسع عشر ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٢٣

(٣٠) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ص ١٣٤ ، ١٣٥

(٣١) د. على محمد بركات : الســياسة البريطانيــة واسترداد السودان ، ص ٢١ — ٢٣

ففى ٢٦ يناير صدر فرمان تعيين غردون حكمدارا للسودان وكلف بمهمـــة الاخلاء (٣٢) .

ولم تشأ انجلترا فى أول الأمر أن تطبق سياسة الاخلاء على سواحل البحر الأحمر وخليج عدن ، اذا أنها أمرت قائد محطة الهنـــد الشرقيـــة بالمحافظة على سلطة الحكومة المصرية فى سواكن ومصوع والموانى الأخرى فى البحر الأحمر وأرسلت له وحدات بحرية جديدة لتعزيز قوته هناك(٣٣) ولكن مالبثت الحكومة البريطانية أن قررت اخلاء هذه البـــلاد أى ساحل البحر الأحمر والصومال وهرر تنفيذا لسياسة الاخلاء .

واختلف الوضع السياسى فى ساحل الصومال ابتداء من زيلع الى الجنوب عن الوضع فى جزء الساحل الممتد من زيلع شـــمالا الى مضيق باب المندب ، فى أن السلطان العثمـــانى كانت له حقوق السيادة على المنطقة من باب المندب الى زيلع ، لم تكن الحكومة البريطانية تعارضها، ولو أنها لم تعترف بها رسميا وذلك بينما دأبت الحكومة البريطانية على معارضة وانكار حقوق السيادة التى للسلطان العثمانى على المنطقة الممتدة من زيلع جنوبا الى رأس حافون ، وقد سويت هذه المسألة بابرام المعاهدة البريطانية المصرية بخصوص سواحل الصومال فى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧، واشترط فى هذه المعاهدة تعهد الدولة العثمانية بعـــدم اعطاء أى دولة أجنبية أى قطعة من سواحل بلاد الصومال أو من البلاد التى دخلت فى حوزة الحكومة المصرية ، ولكن الباب العالى لم يصدر التعهد المطلوب(٣٤) ولذلك اعتبرت الحكومة البريطانية أن هذه المعاهدة غير كاملة ، وانه يجب التنازل عنها نهائيا (٣٥) .

أخذت فكرة اخلاء السواحل الأفريقية لخليج عدن من المصريين تتبلور فى رأس الحكومة البريطانية قرب نهاية سنة ١٨٨٣ ، وكان أول من نادى

---

(٣٢) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ، ص ٣٦٠

(٣٣) د. جلال يحيى : سواحل البحر الأحمر ، ص ١٤

(٣٤) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ، ص ٤١٠ ، ٤١١

(35) India Office Library & Re cords : L/ P & S/ 18 - 27 (1) Home No. 393 - Somali coast Sect. 110.

بفكرة اخلاء بلاد الصومال هو الميجور هنتر من فرقة أركان بومباى والمقيم السياسى المساعد فى عدن ، فادعى أن التدخل الانجليزى على الساحل الجنوبى لخليج عدن هو أمر ضرورى ، وكان قد زار بلاد الصومال وهرر وعرف أحوالها (٣٦) . وكان فى رأى جرانفيل أن الحكومة المصرية لن تتمسك بالسواحل الصومالية ووضعت الحكومة الانجليزية خطتها على أساس محاولة عد اتفاقات مع القبائل الصومالية للمحافظة على النظام وحرية التجارة ومنع تجارة الرقيق ، وذلك مع تجنب أى احتلال عسكرى بريطانى ان أمكن (٣٧) .

وقد طلبت وزارة الخارجية البريطانية من حاكم بومباى فى ٣ يوليو سنة ١٨٨٤ أن يأمر هنتر بأن يرسل تقريرا بعد أن يبحثه جيدا بخصوص الساحل الصومالى وعن رأيه فى كيفية انسحاب الحاميات المصرية « فى أسرع وقت » وعن كيفية مساهمته فى الانسحاب (٣٨) .

أما آراء هنتر فى الانسحاب المصرى فقد أبلغها حاكم بومباى الى وزارة الخارجية البريطانية فى يوليو سنة ١٨٤٤ وتتلخص فى أنه يمكن المحافظة على النظام باعلان الانسحاب المصرى على أن ينفذ ذلك بسرعة ، واقترح فى حالة عدم وجود سفينة مصرية ، أن ترسل حامية بربرة والتى يبلغ عددها ٢٦٠ الى السويس على الباخرة التابعة له (٣٩) . وتلاحظ لهفة الحكومة البريطانية على الانسحاب المصرى وان الاهتمام شديد باخلاء بربرة ، وذلك مع الخوف من أن تقوم أى دولة أخرى باحتلال الصومال بعد الانسحاب المصرى (٤٠) .

---

(٣٦) د . جلال يحيى : التنافس الدولى فى بلاد الصومال ، ص ٧١ ، ٧٢

(37) Ind. Off. Lib. & Rec.
L/ P & S/18 - B 27 (1) Home No. 393 Somali Coast Sect. 110.

(38) Ibid, Home No. 604 - Sect. 119.

(39) Ind. Off. Lib. & Rec.
L/ P & S/18 - B 27 (1) Home No. 625 Somali Coast Sect. 119.

(40) Ibid, Home No. 629 - Somali Coast Sect. 120.

وقد أبرق الميجور هنتر الى الخارجية البريطانية فى ١٢ يوليو سنة ١٨٨٤ مطالبا بسرعة عقد اتفاق مع القبـائل الصومالية فى بربرة ، والا ستكون هنـاك بعض المتاعب ، وذلك بدون أى شروط مالية ، ولـكن كان رأى وزير الخارجية وبموافقة جرانفيل أن لا تعقد اتفاقات الا عنـد الضرورة القصوى وذلك حتى تتم الاتصالات مع الحكومة المصرية (٤١) . وذلك مع الاهتمام بكيفية انسحاب الحاميات المصرية فى هرر وبربرة(٤٢). وقد أبلغ هنتر فى ١٣ يوليو سنة ١٨٨٤ الخارجية البريطانية ، أنه درس مسألة الانسحاب المصرى ، وانه يمكنه القيـام بتلك المهمة بأقل المخاطر وان كل ما يلزمه بعض الأموال وباخرة حتى يمكنـه تنظيم الاخلاء (٤٣) . وبدأت الحكومة البريطانيـة فى الضـغط على الحكومة المصرية لتنفيذ الانسحاب فطلب من القنصل العـام فى القاهرة أن يضغط على الحكومة المصرية لتعلن عن الخطوات التى تنوى اتخاذها لتنظيم سياسة الاخلاء ، ولتـأكيد تعاونها مع هنتر لوضعها موضع التنفيذ (٤٤) . ولـكن هنتر عاد مرة أخرى فى ٩ أغسطس وأخطر الخارجية البريطانية عن احتمال حدوث متاعب فى بربرة وذلك عقب زيارته لها بسبب معارضـة بعض الصوماليين للسيطرة البريطانية ، وقد عرض ابقاء قوة لتجنب الاضطرابات ، ولـكنه عاد واقترح وسائل أخرى « اطلاق طلقة أو اثنين لوقف المشاغبات » (٤٥) ويفهم من تقرير هنتر معارضـة أهل بربرة للسـيطرة البريطانيـة وأن بريطانيـا قـد آلت على نفسها فرض هذه السيطرة ولو بالقوة . وقـد أمر الميجور هنتر فى ٣ سبتمبر سنة ١٨٨٤ أن يقرر مع القنصل العـام فى مصر كافة التفصـيلات بخصـوص انسحاب الحاميـة المصرية من بربرة (٤٦) وتم الاتفاق مع البواخر الهنـدية البريطانية على نقل الحاميـة

---

(41) Ibid, Home No. 648 1 Somali Coast Sect. 120.

(42) Ibid, Home No. 641 1 Somali Coast Sect. 120.

(43) Ibid, Home No. 652.

(44) Ibid, Home No. 650.

(45) Ibid, L/P & S/18 - B 27 (2) Somali Sect. 139. Home No. 870 A.

(46) Ind. Off. Lib. & Rec.
L/P & S/18 - B 27 (2), Somali Sect. 140 - Home No. 850.

المصرية فى بربرة على احدى بواخرها الى السويس (٤٧) .

ولم يكن أمام الحكومة المصرية بعد أن تقرر كل شىء الا الموافقة على سحب حاميتها من بربرة ، وعينت الحكومة المصرية رضوان باشا للاشراف على هـذا الانسحاب ، فخرج من السويس فى ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٤ فوصل الى عدن فى ٢٣ سبتمبر وكان هنتر فى انتظاره فقصدا سويا الى بربرة حيث قرأ رضـوان باشا لأهلها الأمر العـالى القـاضى باخلائها وتسلم الانجليز بربرة (٤٨) . بعد أن غادرتهـا القـوات المصرية فى ٣ أكتوبر سنة ١٨٨٤ (٤٩) . وقـد أرسل الأميرال هويت فى أكتوبر تقريرا الى الخارجيـة البريطانيـة قال فيـه : « أن الاقليم هـادىء وان السكان مقتنعون » (٥٠) وقـد كلف أحد مساعدى حاكم عدن وهو والش بادارة بربرة بصـفته نائب قنصـل (٥١) وترك معـه بعضـا من جنود الشرطـة (٥٢) .

ومن الغريب حقا ان الحكومة البريطانيـة كانت ترغب فى أن تدفع مصر نفقات الانسحاب من بربرة (٥٣) . ولـكن نوبار باشا رفض ذلك (٥٤)

أما هرر فقد ادعى القنصـل العـام البريطانى بضرورة اخلاء ذلك الاقليم وذلك لصـالح المـالية المصرية وذكر أن ادارة هـذا الاقليم تعتبر خسارة لمصر سـواء فى الرجال أو الأموال (٥٥) . ولـكن نوبار باشـا

---

(47) Ibid, Someli Sect. 148 - Home No. 982.

(٤٨) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ، ص ٤١١

(49) Ind. Off. Lib. & Rec.
L/P & S/18 - B 27 (2). From Aden, No. 47/B, dated 6 October 1884 Somali. Sect. 152.

(50) Ibid, Somali Sect. 148 - Home No. 982.

(51) Ibid, Somali Secs. 151 and 154 - Home No. 1003.

(52) Ibid, Somali Sect. 139 - Home No. 870 A.

(53) Ind. Off. Lib. & Rec.

(54) Ibid, Somali Sect. 136 - Home No. 832.

(٥٥) د. جـلال يحيي : التنـافس الدولي في بلاد الصـومال ، ص ٧٥

بدأ يعارض أشــد المعارضـــة فى فكرة جلاء القوات المصرية عن هـــرر وخصوصا وان ميزانية تلك الحكومة العـــامة كانت ترسل الى الخـــزانة فائضا ســـنويا قـدره ١٥٫٢٨١ جنيها (٥٦) . ولـــا فشلت فـكرة تأثير هذا الاقليم على المـــالية المصرية ، أبرق هنتر فى ٣٠ ، ٣١ يوليـــة الى الخارجية البريطانيـــة أنه طبقا لمصـــادر المخابرات الموثوق بها ، ان هناك شقاقا وشيك الوقوع بين حاكم هرر المصرى وبين قبائل العيسى بالصومال، وأن هذا الشقاق ان لم نتـداركه بسرعة فان المواصـــلات على الساحل ستصبح فى خطر ، واقترح سرعة احتلال زيلع ولو بصـــفة مؤقتة ، على أن يوافق الخديو على ذلك ، ثم عقد معاهدة مع القبائل ، وان هذا الاحتلال لزيلع يجب ألا يكون فى نفس مكان الحامية المصرية (٥٧) .

ورغم ماذكره هنتر الا أننى لم أجد مصـــدرا آخر يدل على حـــدوث شقاق بين حاكم هرر وقبـــائل العيسى ، ويبـــدو أن هنتر أراد ايجـــاد الأسباب لاحتلال زيلع .

ورغم معارضـــة نوبار للجلاء عن هرر فقد أصرت الحكومةالبريطانية على أن فى أن يقوم نوبار بارسال الأوامر فى الحال للسلطات المصرية فى هذه الموانى وذلك لتأييد أعمال هنتر فى كل مايتعلق باخلاء هرر وفى كل مسألة أخرى (٥٨) . فاضطر مجلس النظار أن يصـــدر أمرا باخلاء هرر وتولية أقرب وارث لسلطان هرر المتوفى واعطائه السلطة العليا فىالاقليم على أن يتعهد السلطان الجديد بحماية التجـــارة وتسهيل المعـــاملات بين هرر وزيلع وبين هرر وبربرة ، وهو الأمر الذى يهم الانجليز ورعاياهم فى عدن ، وعليه كذلك أن يمنع تجارة الرقيق وأن يدفع للحكومة المصرية جزية سنوية من بن ومحاصيل أخرى يترك أمر تقديرها لمدير عموم هرر والقائد هنتر قنصـــل انجلترا فى عـــدن على أنه لم يكد يشـــاع عن تفكير الحكومة المصرية فى اخلاء هـــذه الجهات حتى بادر الأعيـــان والتجـــار من وطنيين

---

(٥٦) د. جـــلال يحيى : العـــلاقات المصرية الصومالية ، ص ١٧٤.

(57) Ind. Off. Lib & Rec.

L/P & S/18 - B 27 (2) Somali Sect. 131 - Home Nos. 726 and 733.

(٥٨) د. جلال يحيى : العلاقات المصرية الصومالية ، ص ١٧٧.

وأجانب الى ارســال العرائض للحكومة المصرية مبـدين أسفهم لهـذه الأخبـار ، وطالبوا ببقـاء الادارة المصرية حرصا على متاجرهم وأملاكهم لأنه لولا اعتمادهم على حمـاية الحكومة وحفظها للأمن لمـا خاطروا بجلب أموالهم للتجـارة فى هـذه الجهات ، وبخاصـة أن الحكومة ستتخلى عن هذه الجهات دون أن تخلفها فيهـا حكومة منتظمـة مما يدعو القبائل التى لم تخلد للاسـتقرار الا لخوفهـا من سلطة الحكومة ، أن تنتهـز الفرصة للعودة الى ما كانت عليه (٥٩) .

ونظرا لحقوق السلطان العثمانى فى السيادة على زيلع فقد أرسلت التعليمات لسفير بريطانيا فى القسطنطينية حتى لاتعترض الحكومة التركية على مصـير هـذه الأماكن ، وطلب منه أن يتشدد للحصـول على رد سريع ، وأن يوضح أنه اذا لم يصـل هـذا الرد خلال ١٠ أو ١٤ يوما، فينبغى فى هذه الحالة على لورد دوفرين أن يحـذر الحكومة التركية بأنه اذا لم يتم السيطرة على هـذه الأماكن بواسطة تركيا ، فسوف تضـطر حكومة بريطانيا لأجراء ترتيبـات أخرى (٦٠) وكان من رأى اللورد جرانفيل تفويض الميجور هنتر فى اتخاذ التـدابير الضرورية لتدعيم سلطة بريطانيا فى زيلع بقوات عـدن ، وأن يحتل زيلع بدون الرجـوع الى الخارجيـة البريطانية ، وذلك اذا وجـد الأمر لا يقبـل الأرجاء (٦١) . وقـد أبرق الميجور هنتر الى الخارجية البريطانيـة فى ٢ اغسطس سنة ١٨٨٤ بأن تدعيم زيلع بقوات بريطانية يعتبر ضروريا للمحافظة على مواصلات مفتوحة مـع هرر ، وأن وجود البريطانيين فى زيلع هو الكفيل بمنع الاضطرابات(٦٢)

وأعقب ذلك الأحتلال البريطانى لزيلع وأصـدر الميجور هنتر فى ١١ نوفمبر سنة ١٨٤٤ تعليمات للملازم كينجسميل القـائم بأعمـال نائب القنصـل فى زيلع منهـا أن يحصر وأجبـاته فى الاشراف على أعمـال

---

(٥٩) د. شوقى عطا الله الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧

(60) Ind. Off. Lib. & Rec.
L/P & S/18 - B 27 (1) Somali Coast, Sect. Home No. 650.

(61) Ibid, L/P & S/18 - B 27 (2) Somali, Sect. 132 and 135 Home No. 742.

(62) Ibid, Somali, Sect. 139 Home No. 870 A.

الجمـــارك والبوليس ، وأن تصـــدر العقوبات طبقا لقـــانون العقوبات الهنـــدى وأن تسود الأحكام العسكرية ، وذلك الى جانب تسهيل ركوب القوات المصرية السفن لدى وصولهم من هرر (٦٣) بعد انسحابهم منها .

ولـــكن القوات المصرية لم توافق على انسحابها من شرق أفريقيـــة بسهولة ، وأظهرت حامية هرر معارضـــتها الرســـمية فى تنفيـــذ الأمر الصـــادر اليها ، ولـــكنها اضطرت الى اخلاء هـــذه المنـــاطق وسلموا هرر الى الأمير عبد الله بن محمد عبد الشكور ، بين احتجـــاج الأهالى والتجار وخرج المصريون من هرر على دفعـــات فى قوافل (٦٤) . وقـــد أخليت هرر نهائيـــا فى مايو سنة ١٨٨٥ ، غير أن حكم الأمير عبد الله لم يستمر طويلا ، اذ لم يلبث أن فتحها منليك الشـــاتى وضمها الى الحبشة فى سنة ١٨٨٧ (٦٥) . ويصف رضوان باشا حالة الأهالى عند رحيل المصريين « كنا نرى حالة الأسف الـــكلى من الأهالى والهلع يساور حالهم ، وكانوا يأتون للتوديع أفواجا ويسيرون من يوم لغاية ثلاثة أيام » (٦٦) .

أقلقت التصرفات البريطانيـــة الحكومة المصريـــة ، وذلك خشـــية الصـــدام مع الحكومة التركية وقـــد حاول نوبار الخروج من أزمة زيلع فاقترح أن يقوم الخـــديو باطلاع السلطان بأن الحكومة المصرية غير قادرة على التمسك بزيلع ، وهـــذا يعطى فرصـــة لارسال قوات تركية . وقد أيد بارنج وجهة نظر نوبار ، ولـــكنه من ناحيـــة أخرى كان يعتقد أن فى امكان السلطان فى هـــذه الحالة أن يقوم بخلع الخـــديو لعدم قدرته على الحفاظ على ســـلامة الـــدولة العثمانيـــة وانه يجب تعيين وال آخر ، واستبعد بارنج هذا ، الا اذا اعتمد السلطان على دول أخرى (٦٧) .

وقد اقترح بارنج فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٨٤ ابقاء ٣٠ أو ٤٠ جنديا

---

(63) Ibid, Somali, Sect. 163 Home No. 1206.

(٦٤) د. جلال يحيى : العلاقات المصرية الصومالية ، ص ١٨٣

(٦٥) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ، ص ٤١٢

(٦٦) د. شوقى عطا الله الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر ، وثيقة رقم ١٥٣ ، ص ٣٢٣

(67) Ind. Off. Lib. & Rec.
L/P & S/18 - B 27 (2) Somali, Sect. 155 - Home No. 1080.

مصريا فى زيلع ، لايقاف زحف أى قوات للميناء من الداخل ولجعل الموقف الدبلوماسى أكثر قــوة وأوضح امكان أخذهم من حامية هرر (٦٨) . وقد وافقت الحكومة البريطانية على هذا الاقتراح (٦٩) .

أما فى تاجورة فقد كان هناك وجود فرنسى متوقع ، ممـــا أدى الى خوف نوبار باشـــا لمـــا سوف يسببه من مشـــاكل بين الحكومة المصرية والسلطان وقـــد اقترح جرانفيل فى ١٢ نوفمبر سنة ١٨٨٤ على بارنج أن تقوم الحكومة المصرية باطلاع الحكومة التركيـــة على عـــدم قـــدرتها على الابقاء على حاميات على الساحل ، أما بالنسبة لاجراءات فرنسا فى تاجورة وبريطانيا فى زيلع فانه يمكن ايضاح ذلك بمعرفة هاتين الدولتين مباشرة وذلك فى حالة وجود ضرورة لذلك (٧٠) . وقد قام سكان (الدناكل) بتحريض من الفرنسيين بتهديد الحامية المصرية وقدم الحاكم تقريرا بذلك، وقـــد ذكر بارنج فى برقيـــة منه الى جرانفيل فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨٤ أنه من الممكن ارسال جزء من القوات التى تغـــادر زيلع الى تاجورة ولو أنه لايحبذ اتخاذ هـــذا الأسلوب ، أما نوبار باشا فانه يعلق أهمية كبيرة بالنسبة للعلاقات المصرية التركية ويهمه أن يظهر بوضـــوح أن الحاميـــة المصرية قـــد تركت تاجورة بسبب ابعـــادها بالقوة ، وقـــد اقترح لذلك أن يأمر الحـــاكم أن يحـــافظ على موقعـــه ان أمكنه ذلك ، ولـــكن اذا لم يستطع المحافظة على موقعـــه فعليـــه أن ينسحب الى زيلع . وقـــد اقترح بارنج عدم تدخل هنتر فى هـــذا الموضـــوع الا باستعجال أوامـــر الحكومة المصرية الى الحاكم (٧١) .

وقد أجبر سكان دنقلة الحامية المصرية على الانسحاب من تاجورة الى زيلع (٧٢) وذلك بعد أن قدم كل من الشيخ حامد سلطـــان تاجورة وحامد لهيطة وكامل وويلى من شـــيوخ دنقلة خطابا الى ضـــابط الجمارك

---

(68) Ibid, Home No. 1101.
(69) Ibid, Somali, Sect. 163n Home No. 1158.
(70) Ind. Off. Lib. & Rec.
L/P & S/18 - B 27 (2) Somali, Sect. 156 Home No. 1094.
(71) Ibid, Somali, Sect. 157 - Home No. 1117.
(72) Ibid, Somali, Sect. 159 - Home No. 1143.

فى تاجورة فى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٤٤ نصه « عندما سمعنا أن جميع الجنود المصريين قائمون باخلاء المدن ، وان الجنود الذين كانوا موجودين بساجلو قد تركوا المكان ونزلوا فى زيلع ، فقد أخبرناك شفاهة أن تطرد الجنود والموظفين السابق تواجدهم بتاجورة ولكنك لم تفعل ذلك ، والآن أطرد جميع الجنود الموجودين ، حيث أن جميع سكان دنقلة قائمون بثورة . واذا لم يترك الجنود الاقليم اليوم ، قبل أن يأتى البدو من الداخل ، فنعتبر أنفسنا غير مسئولين عن أى حادث ، ولو تم ترحيل الجنود اليوم ، فنحن مسئولون عن أى شىء قد يحدث لهم » ، وحيث أنه قد اتبع هذا الخطاب اجراءات بقطع المياه عن الحامية المصرية فقد تم سحب الحامية المصرية الى زيلع ، وقد تم تسليم الحصن الى الشيخ حامد سلطان تاجورة . ولقد ترك العلم المصرى مرفوعا (٧٣) .

يتضح من هذه المعاملة للجنود المصريين أن فرنسا قد قامت بتحريض شيوخ تاجورة على ذلك لأنه لم يمض على خروج القوات المصرية غير يومين أو ثلاثة أيام حتى وصل الجنود الفرنسيون الى تاجورة وقاموا برفع العلم الفرنسى وانزال العلم العثمانى ، كما رفع العلم الفرنسى على ساجلو ، وقد ذكر أبو بكر باشا فى رسالة منه الى الميجور هنتر « لقد قام السلطان والشيخ لهيطة سويا مع الفرنسيين بطرد الجنود المصريين من تاجورة » (٧٤) .

وبدأت فرنسا تتصرف من واقع احتلال تاجورة ، فقد قام الميجور هنتر بالرد على رسالة رافراى القنصل الفرنسى فى عدن بخصوص مستحقات الجمارك فى الساحل الصومالى ، بأنه بالنسبة لتاجورة ليس لديه أنباء رسمية توضح ضم الاقليم الى فرنسا (٧٥) .

وكان رأى بارنج فى هذا الموضوع عدم جمع أى ضرائب بالنسبة لتاجورة ، وأما الأموال التى جمعت من قبل ، فيجب أن يرجع فيها القنصل

---

(73) Ind. Off. Lib. & Rec.
L/P & S/18 - B 27 (2) Aden, No. 837 doted 26 Nov. 1884.
(74) Ibid,
(75) L/P & S/18 - B 27 (2) Somali, Sect. 171 - Home No. 73.
Ibid, Somali, Sect. 167 - Home No. 14.

الفرنسى الى الحكومة المصرية للاستعلام (٧٦) وقد رأى اللورد جرانفيل « أنه لا توجد معلومات رسمية لدى حكومة بريطانيا تفيد بضم تاجورة الى فرنسا ، وانها لم تعلن ذلك ، بينما يعنى الـكف عن جمع رسوم الجمارك، اعتراف بضم فرنسا للاقليم قبل قيام مصر أو الحكومة التركية بابداء موافقتهما (٧٧) .

أما مصوع فكان الايطاليون قـد اتجهوا الى اتخـاذ مسلك الانجليز والفرنسيين فقاموا بشراء أراضى فى عصب القريبة من المدخل الجنوبى للبحر الأحمر وذلك من مشايخ القبـائل (٧٨) . ومع الانسحاب المصرى فى البحر الأحمر ، قام الايطاليون باحتلال بيلول فى ٢ فبراير سـنة ١٨٨٥ وقاموا بنقل الحـامية المصرية الصغيرة التى وجدوها هنـاك على احدى سفنهم الى مصوع ثم وصلت البواخر الايطالية فى مساء ٤ من فبراير أمام مصوع ودخلت الميناء فجر يوم ٥ فبراير وقد قام المشاة الايطاليون فى اليوم التـالى باحتلال القلعتين المسلحتين بالمـدافع ، وهكذا احتل الايطاليون مصوع بدون مقاومة ولـكن دون أن تنسحب منها الحاميات المصرية (٧٩) . ولـكن الجنرال جينى قام بمجرد اسـتلامه للقيادة بانزال العلم المصرى ، ورفع العلم الايطالى بدلا منه على كل المراكز العسكرية والادارات الدنية، واستولى على الادارات المصرية فى مصوع واخرج منها الموظفين والجنود وأرسلهم الى القاهرة (٨٠) . وبذلك أخليت أيضا مصوع من الحامية المصرية .

أما عن الأملاك المصرية فى الصومال بعد الانسحاب فقد انقسمت الى :

اولا : الصـومال البريطانى :

قامت بريطانيـا باحتـلال ثغرى زليع وبربرة بعـد تردد تركيا فى احتلالهما وجعلت منهما أساسا لمستعمرة بريطانيـة تشمل كل السـاحل

---

(76) Ind. Off. Lib. & Rec.
L/P & S/18 - B 27 (2) Somali, Sect. 165, Home No. 1190.

(77) Ibid, Somali, Sect. 167, Home No. 1218.

(٧٨) د. شوقى عطا الله الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر ، وثيقة ٣٧ ، ص ١٠٦

(٧٩) د. جلال يحيى : سواحل البحر الأحمر ، ص ١٣٣ — ١٣٥

(٨٠) المرجع السابق ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦

الجنوبي لخليج عدن حتى المحيط الهندي وسمى بالصومال البريطـــانى ، واتخذت بريطانيا هذين الثغرين لمراقبـــة السفن الذاهبة الى الهنـــد عن طريق البحر الأحمر ، ثم توصلت الى عقد اتفاق مع ايطاليا لتحديد الحدود بين الصـــومال البريطاني والصومال الايطالى (٨١) . وفى معاهدة ٢/٩ فبراير سنة١٨٨٨ اعترفت فرنسا بالحماية البريطانية على ساحل الصومال البريطانى ، وقـــد أبلغت بريطانيـــا الدول فى ٢٠ يوليو سنة ١٨٨٧ أن الساحل الصومالى ابتداء من رأس جيبوتى الى بندر زيادة قد وضع تحت الحماية البريطانيـــة .

ثانيا : الصومال الفرنسى :

بعد حصول فرنسا على أوبوك اقمت فى ٩ أبريل سنة ١٨٨٤ بعقد معاهدة صـــداقة مع سلطان ناحية تسمى قبة الخراب ، وفى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٨٤ عقدت معاهدة مع سلطات تاجورة أبلغتها رسميا الى الحكومة البريطانية فى ١١ فبراير سنة ١٨٨٥ وبمقتضى هذه المعاهدة تنازل سلطان تاجورة عن المنطقـــة من رأس على الى قبـــة الخراب ، كما تنـــازل عن أراض أخرى لفرنسا ، وكانت الخطوة التالية تأسيس محطة أفضـــل فى الجهة المقـــابلة لاوبوك على خليج تاجورة وذلك عند رأس جيبوتى ،وحدث احتكاك بين السلطات فى الصوماليين الفرنسى والانجليزى بسبب احتلال الفرنسيين دونجاريتا على الساحل بين زيلع وبربرة . وعقد اتفاق انجليزى فرنسى فى ٢/٩ فبراير سنة ١٨٨٨ لتحديد مانطق النفوذ فى خليج تاجورة وعلى ساحل الصومال وعلى أساس اخلاء دونجاريتا والاعتراف بالحماية الانجليزية على ساحل الصومال من عند خط الحدود الفاصل بين الصومالين الفرنسى والانجليزى لغـــاية بندر زيادة آخر حدود الصـــومال الانجليزى الشرقى ، على أن يعترف الانجليز للفرنسيين بنفوذهم فى ســـواحل خليج تاجورة ، وقـــد بقى هذا الاتفاق سرا رغبة فى عدم اثارة تركيا ومصر . وفى مايو سنة ١٨٩٦ وضعت هذه الأقاليم تحت ادارة موحدة وصـــارت تعرف باسم الصومال الفرنسى وجعلت عاصمته جيبوتى (٨٢) .

---

(٨١) د. زاهر رياض : استعمار أفريقية ، ص ٢١٥.

(٨٢) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ، ص ٤٤٧ — ٤٤٩

ثالثا : الصومال الايطالى :

احتل الايطاليون بقية الساحل الجنوبى لخليج عدن بعد آخر حدود الصومال الانجليزى عند نقط بندر زيادة ثم الساحل الصومالى الى نهر جوبا وبدأ هذا الاحتلال الايطالى عقب احتلال الانجليز لخليج عدن سنة ١٨٨٤ وفى فبراير سنة ١٨٨٩ قبلت سلطنة أوبيا فى الصومال الحماية الايطالية وفى أبريل من السنة نفسها قبلت فى شمالها سلطنة ميجورتين هذه الحماية ، وقد أبرم اتفاقان بين ايطاليا وانجلترا فى ٢٤ مارس ، ١٥ أبريل سنة ١٨٩١ لتحديد منطقة النفوذ الايطالى (٨٣) . وأكملت بمعاهدة ٥ مايو سنة ١٨٩٤ فقسامت الدولتان بتسوية اقتسام النفوذ بينهما اذ أقرت انجلترا ما أخذته ايطاليا على حدود البحر الأحمر وفى الصومال هرر ومعظم أوجادين وبلاد الصومال الى رأس جردفوى داخله فى أملاكها . ورخصت لايطاليا باحتلال كسلا والأراضى المتاخمة لها لغاية نهر العطبرة احتلالا مؤقتا الى أن يتاح للحكومة المصرية استردادها، وأقرت ايطاليا لانجلترا احتلالها زيلع وبربرة . واحتل الايطاليون كسلا فى ١٧ يولية سنة ١٨٩٤ اعتمادا على هذا الاتفاق ثم طالبتها بها انجلترا بعد انتصار الحملة المصرية الانجليزية فعادت الى بقية السودان سنة ١٨٩٧ (٨٤) .

ويلاحظ أنه بعد الانسحاب المصرى من الصومال نشطت تجارة الأسلحة فى البحر الأحمر ، مما جعل الحكومة البريطانية تفكر فى تقديم اقتراح للحكومة الفرنسية بخصوص فرض بعض القيود على تجارةالأسلحة فى البحر الأحمر وفى الساحل الصومالى (٨٥) . وأما أسباب تفكير بريطانيا فى ذلك فهو انتشار الأسلحة والذخائر غير الخاضعة للرقابة فى اقليم دنقلة ومنه الىأقاليم الجالا والصومال ، والتىكانت مصدر خطر للمسافرين عبر طرق التجارة ، علاوة على أن هذه الأسلحة تسهم الى حد كبير فى

---

(٨٣) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ، ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ .

(٨٤) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

(85) Ind. Off. Lib. & Rec.
L/P & S/18 - B 27 (2) Somali, Sect. 189 Home, No. 136.

نشوب القتال بين القبائل الى جانب أنها سوف تساعد على نشاط تجارة الرقيق (٨٦) .

ولعل هذا أبلغ دليل على ما كان لسيطرة مصر على تلك المناطق من قوة وتأثير فقد وضح كيف تزعزع الأمن بعد الانسحاب المصرى وبذلك طويت صفحة من تاريخ الامبراطورية المصرية فى أفريقية التى تكاتف الاستعمار الأوربى للقضـــاء عليها .

---

(86) Ibid, Somali, Sect. 189 Home, No. 260.

٢٢

بريطانيا والصومال

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

للدكتور جاد محمد طه

كلية الآداب ـ جامعة المنيا وجامعة فاس بالمغرب

للبحر الأحمر موقع فريد ، اذ انه حلقة الاتصال بين البحار الشرقية والبحار الغربية ، كما أنه يقع عند التقـاء قارات العـالم القديم ، وقد ظل هذا البحر على مدى العصور عاملا فعـالا لربط البـلاد المحيطة به بعضها ببعض ، فقد كان طريقا للملاحة بينها ، ووسيلة تسهل التبـادل التجـارى .

وحينما تقدمت الملاحة ، وبدأت المواصلات السريعة مع الهند والصين وبقية بلاد الشرق الأقصى ، ازدادت أهمية هذا البحر ، اذ أن دوره لم يقتصر على نقل تجارة ومنتجات هـذه المنـاطق الى بلاد الشرق الأدنى فحسب ، بل اصبح هو الممر التجارى لتموين العـالم الأوربى بكل مايلزمه من هذه التجارة وتلك المنتجات وأثر ذلك بالتالى على بلاد الشرق الأدنى وأهالى هذه المنطقة الذين جنوا ثروات طائلة من العمل فى هذه التجارة ، ومن فرضهم للضرائب عليها عند مرورها فى أراضيهم .

وعنـدما أرادت السياسة البريطانيـة التوسعية أن تنفذ أدوارها المرسومة فى البحر الأحمر بصفة عامة وعلى سواحل الصومال بصـفة خاصة لم تجد الطريق ممهدا أمامها ، بل واجهتها الأطمـاع التوسـعية الفرنسية والايطالية على سواحل هـذا البحر وكـذلك المطالب التركية بالسيادة على سواحل البحر الأحمر الشرقية والغربية والمطالب المصرية

بالنسبة للساحل الأفريقى من السويس حتى رأس جوردفوى (١) .

المحاولات البريطانية المبكرة على الساحل الصومالى :

من المعروف أن الاستعمار البريطانى اتخذ سياسة نشطة فى البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وذلك بعد الاستيلاء البريطانى على عدن فى سنة ١٨٣٩ وأتخاذها مركزا هاما للتوسع فى جنوبى الجزيرة العربية وبلاد الصومال وشرق أفريقية (٢) الا أن بداية العلاقات البريطانية بالساحل الصومالى ترجع الى عام ١٨٢٧ . وذلك عندما أرسل مبعوث بريطانى الى قبيلة حبر أول للتفاهم معها على دفع التعويض اللازم بعد أن نهب أفراد هذه القبلية سفينة بريطانية تجارية فى بربرة (٣) . ودخل كبار رجال هذه القبيلة فى اتفاقية للسلام والتجارة فى فبراير من ذلك العام . وبمقتضى هذه الاتفاقية وافق شيوخ حبرأول على عدم القيام بنهب السفن التى ترفع العلم البريطانى ، وأن يقدموا لها الحماية اللازمة ، على أن تجد السفن المملوكة لشيوخ القبيلة نفس المعاملة فى الموانى البريطانية . كما وافق الشيوخ أيضا على تعويض ربان السفينة البريطانية عن خسائره ، وكذلك تعويض أسر الرجال الذين قتلوا عليها (٤) .

---

(1) India Office Library (I. O. L.).

Political and Secret Depearment. Politiral External Files and Collections (L/P and S/18). B. 8 Confidential, Memorandum on the Turksis h claim to soverignty over the Eastern shores of the Red sea and the whole of Arabia, and the Egyptian claim to the whole of the western shores of the same sea, including the African coast from suez to cape Guardafui. Printed for the use of the Foreign Office. Hertzlet. 10 March 1974. (P. 60).

(2) Simonin M. L. : La Presque Ile D.Aden et la Politique Anglaise dans les Mers Arabiques. Paris, J. Cleye 1867 P. 24.

(3) Aitchison C. U. : Acollection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring countries. Calcutta, Office of the Superintendent of Government Printing, India 1892. Vol. XI P. 114.

(4) Ibid PP. 191 - 192.

واستمرت المحـــاولات البريطانيـــة لفرض النفـــوذ على ســـواحل الصومال ، فتقـــدم الـــكابتن مورسبى Moresby الى تاجورة فى ١٩ أغسطس ١٨٤٠ (٥) ، وعقد معاهدة للصـــداقة والتجارة — بصفته ممثلا لشركة الهند الشرقية البريطانية — مع السلطان محمـــد بن محمود حاكم تاجورة الذى وافق بمقتضى هذه المعاهدة على أن يبذل قصارى جهده لنقل الحاصلات من الأقاليم الداخلية فى ايفات وشوا والحبشة الى الساحل، وفى مقابل ذلك تعهدت شركة الهند الشرقية البريطانية بتشجيع التجـــارة الداخلية فى تاجورة (٦) . والى هنـــا والمعاهدة خاصة بتشجيع التبـــادل التجـــارى .

الا أن المادة السابعة من هذه المعاهدة قيدت حاكم تاجورة بعـــدم الدخول فى أية علاقات سياسية أو تجارية مع قوى أوربيـــة أو أية قوى أخرى فى حالة ما اذا كانت هذه العلاقات ماسة بالمصالح البريطانية دون الرجوع فى ذلك الى شركة الهند الشرقية البريطانية . كما تعهدت شركة الهند الشرقية فى مقابل ذلك بأن لاتقـــوم بأى عمل عـــدائى ضـــد اقليم تاجورة (٧) .وتضمنت هذه المعاهدة نصا وافق سلطان تاجورة بمقتضـــاه على بيع جزر موسى للحكومة البريطانية (٨) ويتكون أرخبيل موسى هذا من ثلاث جزر كبيرة نسبيا وخمس جزر صغيرة ، وكل هذه الجزر تفتقر الى الميـــاه اللازمة للشرب ، ولـــكنها من ناحية أخرى كانت صـــالحة لرسو السفن ، كما أن موقعها داخل خليج تاجورة يجعل منها نقطا استراتيجية هامة ، لأنها كانت تتحكم فعلا فى بداية الطريق التجارى الذى يسير مع وادى الجواش من الساحل الى داخل الحبشة عبر بلاد الدناكل . ورغم

---

(5) Ibid P. 114.

(6) I. O. L. Political and Secret D epartment, Political External Files and Collections (L/P. and S/18).

B. 8 Confidential Memorandum.

Op. Cit., PP. 9 - 10.

(7) C. U. Aitchison op. cit., pp. 192 - 194.

(8) Ibid p. 114.

أن الانجليز اشتروا هذا الأرخبيل ، فانهم لم يقوموا باحتلال تلك الجزر فعليا ، ولم يرسلوا اليها حاميات عسكرية ، بل تركوها خالية قاحلة ، واقتصروا على الاحتفاظ بحقوقهم عليها (٩) .

ومع نهاية عام ١٨٥٤ نظمت بعثة بريطانية تحت اشراف حكومة بومباى بغرض كشف المنطقة بين بربرة وزنجبار ، وعين لقيادة هذه البعثة الليفتنانت بورتون Burton من قوات بومباى ومعه ثلاثة ضباط هم هرن Herne وستروبان Stroyan وسبيك Speke . ونجح بورتون فى القيام برحلة تمهيدية موفقة الى هرر التى لم يكن قد زارها أوروبى حتى ذلك الحين . وتوغل سبيك فى لاقليم الذى تقطنه قبيلة اورسنجالى الصومالية . ومكث هرن وستروبان فى بربرة أثناء السوق السنوية حتى يجمعا معلومات وافية عن هذا الميناء . وتلاقى الضباط الأربعة بعد ذلك فى أبريل من عام ١٨٥٥ بهدف مرافقة القافلة العائدة من أوجادين فى الداخل ، الا أن جماعة من الصوماليين — فى غالبيتهم من قبيلة عيسى موسى — هاجمت أفراد البعثة ، ونتج عن هذا الهجوم مقتل ستروبان وأسر سبيك بعد اصابته ، الا أنه تمكن من الهرب ، كما أصيب بوتون اصابة بالغة ، وظل هرن فقط سليما ، مكما نهبت أمتعة ومهمات البعثة ، وهرب من بقى منها على قيد الحياة الى القارب الذى حملهم الى عدن (١٠) .

وقد طلبت السلطات البريطانية من قبيلة حبر أول تسليم الذين دبروا هذا الاعتداء لعاقبتهم ، ودعم هذا المطلب وجود الأسطول البريطانى فى بربرة . وقد بذل كبار رجال القبيلة جهدهم لتنفيذ هذا المطلب دون جدوى ، لأن مدبرى هذه الاغارة توغلوا فى المناطق الداخلية واختفوا فيها . وأخيرا وافق البريطانيون على سحب أسطولهم من الصومال بعد

---

(٩) دكتور جلال يحيى : التنافس الدولى فى بلاد الصومال — القاهرة دار المعرفة ١٩٥٩ ، ص ١٣ — ١٤ .

(10) Playfair R. L. : A History of Arabia Felix or Yemen, from the commencement of the christian era to the present time, including an account of the British settlement of Aden. Bombay Education society's Press, 1859. pp. 176 - 177.

أن تعهد الصوماليون بمقتضى المعاهدة التى عقـدت بين الطرفين فى عام ١٨٥٦ (١١) . ببذل الجهود للقبض على قتلة البريطانيين ، والسماح بحرية التجارة فى أراضيهم ، والغـاء الاتجار فى الرقيق ، وأن يعاملوا باحترام أى وكيل بريطانى قـد يكون مكلفا بالتـأكد من تنفيـذ نصـوص هـذه المعاهـدة (١٢) .

وتوقفت بريطانيا فى هذه المرحلة من علاقتها بالصومال عند حد عقد المعاهدات مع القبائل الصومالية للمحافظة على المصالح البريطانية . ولم تحاول بريطانيا التوسع الفعلى فى تلك المنطقة لأن الظروف القـائمة لم تكن تستدعى ذلك ، الا أن المحـاولات الفرنسـية للتوسع فى أراضى الصومال ، أجبرت بريطانيا على تغيير استراتيجيتها والتصدى لتلك الأطماع الفرنسية .

المحاولات الفرنسية المبكرة على الساحل الصومالى :

بدأت المخططات الفرنسية تتبلور على سواحل الصومال منـذ عام ١٨٥٢ ، فقد سجل بلودين — القنصـل البريطانى فى مصـوع فى ذلك التـاريخ — أن السفينة الحربيـة الفرنسية يوريديس Eurydice كانت تستطلع فى البحر الأحمر « طيلة العـام السابق » كما أضاف أنه متأكد من أن « الحكومة الفرنسية ترغب فى الاسـتيلاء على نقطة على الساحل عنـدما تسنح لها الفرصة الا أن الحكومة الفرنسية من ناحيـة أخرى أكدت للورد كاولى بأنها لا تفكر فى احتلال أية نقطة على الساحل الأفريقى » (١٣) .

ويمكن القول بأن فرنسا لم تقم حتى ذلك التاريخ الا ببعض الدراسات عن البلاد التى تطل على البحر الأحمر ، أما فترة تطبيق سياستها التوسعية

---

(11) C. U. Aitchison. Op. Cit., p. 114.
(12) Ibid. pp. 196 - 198.
(13) I. O. L. Political and secret Depertment. Politicol Extemal Files and collections , (L/P. and S/18) B. 8 Confidential, Memorandum op. cit., p. 31.

كنتيجة لهـذه الدراسة ، فانها لم تبـدأ الا فى عصر نابليون الثالث .
ففى ١٣ أكتوبر سنة ١٨٥٩ ، أصـدر الامبراطور الفرنسى تعلمياته بارسال
الكابتن رسل Russel الى المنطقـة الواقعة بين مصوع وقبة الخراب
لاستكشافها ، والدخول فى مفاوضـات مع النجاشى . وكان عليـه أن
يجمع المعلومات اللازمة عن المزايا السياسية والبحرية والتجارية للساحل
وخصوصا منطقـة خليج عادولى وجزيرة ديسك وميناء عيد وأراضى رأس
على وعوينو وكانت للبعوث سلطة التوقيع على المعاهدات ، الا انه كان
عليه أن يعمل سرا ، وأن يسافر على احدى البواخر التجارية حتى لايثير
انتباه الانجليز (١٤) .

ووصل رسل بالفعل فى ديسمبر سنة ١٨٦٠ على ظهر سفينة تجارية
الى مصوع قادما من الاسكندرية ومعه بعض الضباط والمرافقين الفرنسيين .
وفى ١٧ ديسمبر تقـدمت هذه البعثـة الفرنسـية الى زولا فى خليج
أدوليس .

وفى ٢٩ من نفس الشهر تقدمت البعثـة الى النجاشى للتفـاوض
معـه (١٥) ووقع رسل — طبقـا للتعليمات الصادرة اليه من حكومته —
على معاهدة مع النجاشى قضت بأن يتنـازل الملك الأفريقى للامبراطـور
الفرنسى عن المنطقـة الواقعـة بين حافـة جبل جودام — متضمنة زولا
وممتدة حتى خليج عادولى — حتى أوده وديسك ، كما طالب الملك الأفريقى
بالحمـاية الفرنسية ، وتعهد بأن لا يمنح أية امتيازات لأى دولة أوربيـة
دون الحصول على موافقة الامبراطور الفرنسى وقد منحت هذه المعاهدة
فرنسا حقوقا ضخمة دون تكلفها أية نفقات .

وكان النجاشى مضطرا الى أن يضع نفسه تحت حمـاية فرنسا ،
وأن يتنازل لها عن جزء من الساحل والجزر القريبة ، كى تساعده هـذه
الدولة على الاحتفاظ بعرشه ضد منافسيه .

---

(١٤) دكتور جلال يحيى — التنـافس الدولى فى بلاد الصـومال
ص ٣٢ .

(15) I. O. L. Political and secret Dep.
Political Externel Files and Collections.
(L/P. and S/18) B. 8 Conf. Memo.
Op. Cit., pp. 39 - 40.

وكان رسل مضطرا بطبيعة الحال الى الاحتفاظ بهذه المعاهدة سرية طبقا لتعليمات حكومته الى أن تقوم هذه الحكومة بالتصديق عليها فى باريس ، وكانت التعليمات واضحة فى هذا الشأن حتى يتجنب اغضاب الانجليز (١٦) .

وقد كان لهذا النشاط الفرنسى انعكاساته القوية على السياسة البريطانية فى المنطقة ، ففى ١٦ يناير من نفس السنة قام البريجادير جنرال كوجلان بتكليف من شركة الهند الشرقية البريطانية برحلة فى البحر الأحمر فزار بريم ومصوع وأدوليس وزولا وديسك .

وبعد أن فحص كوجلان خليج انسلى جيدا ، خرج بنتيجة هامة ،وهى أن أدوليس وزولا لاتصلحان كمحطة بحرية للفرنسيين أو كمستعمرة لهم هناك ، الا أنه بمجرد أن رأى ديسك حتى اقتنع بأنها أفضل مكان لاقامة الأوربيين ، كما أنها محطة بحرية ذات موقع استراتيجى هام وتسيطر تماما على خليج انسلى .

وقد اعتبر كوجلان ان « التحركات الفرنسية تستحق الاهتمام الشديد من جانب حكومة جلالة الملكة » (١٧) .

الا أن الموقف الدولى فى ذلك الوقت لم يكن ليسمح لفرنسا بارتكاب اى شطط فى علاقاتها بانجلترا .

ونرجع أسباب رفض الحكومة الفرنسية التصديق على معاهدة رسل الى الخطاب الذى كتبه وزير الخارجية الفرنسية الى الامبراطور نابليون الثالث فى ٩ أبريل سنة ١٨٦٠ والذى ذكر فيه صراحة « اننا لانستطيع أن نقبل فى هذه الظروف الدقيقة الحالية مع ما فيها من الحرب

---

(١٦) د. جلال يحيى — المصدر السابق ص ٣٣ — ٣٤ .

(17) I. O. L. Political and secret Dep.
Political External Files and Collections.
(L./P. and S/18) B. 8 Conf. Memo.
Op. Cit., pp. 40 - 42.

الايطالية ورجوع نيس وسافوى الى فرنسا المقترحات التى عرضت علينا وأن ننفذها دون أن نتوقع اثارة مصاعب خطيرة من جانب انجلترا » .

وبالرغم من هذه السلسلة من المحاولات الفاشلة ، فان فرنسا نجحت فى أوبوك Obock ذلك المكان الذى يمتاز بموقعه المتاز قريبا من عدن عند بوغاز باب المندب بين البحر الأحمر وخليج عدن وعلى ساحل بلاد الصومال (١٨) .

ففى عام ١٨٥٩ غرق لامبرت Lombert ممثل القنصلية الفرنسية فى عدن عند عبوره من الحديدة الى تاجورة فى قارب وطنى مملوك لحاكم زيلع خارج مضيق باب المندب وقد أثار هذا الحادث بطريقة غير مباشرة مسألة السيادة على زيلع ، فقد اتهم حاكم زيلع بأنه حرض الوطنيين على قتل لامبرت .

وطبقا للوثائق البريطانية فانه قد تقدم الى مكان الحادث ضابطان بريطانيان هما الكابتن بليفر Playfair والكابتن شيرارد Sherard وبعد فحص دقيق منهما لكل الظروف التى لابست وقوع الحادث انتهيا الى استنتاج بأنه حادث عادى تحطم بموجبه القارب الذى كان يستقله لامبرت عند اصطدامه بصخرة قرب جزر موسى .

وقد أرسلت نسخة من التقرير الذى كتبه الضابطان البريطانيان الى حكومة الفرنسية (١٩) .

ان الوثائق الفرنسية تشير الى أن هنرى لامبرت كان يقيم فى عدن منذ عام ١٨٥٥ كنائب قنصلى للحكومة الفرنسية وانه كان قد قدم الى حاكم تاجورة مساعدة مالية ، مما دفع هذا الأخير الى أن يتنازل

---

(١٨) د. جلال يحيى — المصدر السابق ص ٣٨ .

(19) I. O. L. Political and secret Dep.
Political and secret Dep.
Political External Files and Collections.
(L./P. and S/18) B. 8 Conf. Memo.
Op. Cit., pp. 37 1 38.

لفرنسا عن جزء من الشاطىء الأفريقى ، ولكن خلافا نشب بين لامبرت وحاكم زيلع وتسبب فى أن عمل هذا الحاكم على قتل لامبرت (٢٠) .

وأرسلت الحكومة الفرنسية بالفعل السفينة الحربية السوم La Sommé الى زيلع سنة ١٨٦٠ (٢١) . وقد انتقل الفرنسيون أولا الى الحديدة التى كانت تتبعلها زيلع وتاجورة ، الا أن حاكم الحديدة رفض التدخل فى الأمر ، ومن ثم تقدم السكابتن فليريودى لانجل قائد السفينة الفرنسية الى جده وطلب من الحاكم العام التدخل فى الأمر ، الا أنه هو الآخر فضل عدم التدخل (٢٢) .

وبعد عودة السكابتن فليريودى لانجل قائد السفينة الحربية السوم الى فرنسا قدم دراسات وملاحظات أكدت لحكومة فرنسا أهمية انشاء مستعمرة أو محطة بحرية على الساحل الشرقى الأفريقى ، كما أنه ارفق مع ملاحظاته طلبا كتبه بعض شيوخ الصومال من قبيلة حبرتلجعلا الى الامبراطور الفرنسى طلبوا فيه وضعهم تحت الحماية الفرنسية ، ثم اقترح على وزير الخارجية شراء أراضى أوبوك ، وأحضر معه الىباريس أحد شيوخ هذه المنطقة وهو دنى أحمد أبو بكر بن عم أبو بكر ابراهيم شيخ تاجورة وصديق الفرنسيين .

وتباحث وزير الخارجية الفرنسى مع السكابتن دى لانجل فى مسألة أراضى أوبوك ،ثم أبدى وزير الخارجية الفرنسى وجهة نظره لوزير البحرية فى أنه ليست هناك لأية دولة بشكل عام وتركيا بشكل خاص أى ادعاءات فى تلك المنطقة ، وان الحكومة البريطانية ليس لها الحق فى

---

(٢٠) د. جلال يحيى . المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(21) I. O. L. Political and secret Dep.
Political and secret Dep.
Political External Files and Collections.
(L./P. and S/18) B. 8 Conf. Memo.
Op. Cit., p. 39.

(22) I. O. L. Political and secret Dep.
Political External Files and Callections. (L/P. and S./18).
B. 48. Memo. by sir E. Hertzlet, March 5, 1874.

الاعتراض على الترتيبات التى تقوم بها الحكومة الفرنسية فى هذا الصدد (٢٣) .

وقد سجل كولكوهون Colquhoun القنصل العام البريطانى فى بداية عام ١٨٦٢ ان شايفر Schaeffer أحد مستشارى السفارة الفرنسية فى الآستانة قد عبر مصر باسم مستعار ، وانه كان يحمل مبلغا كبيرا من المال ، وانه « قد حضر لشراء قطعة من الأرض على ساحل البحر الأحمر » لكى تكون محطة للأسطول الفرنسى .

وعلى أية حال ، فقد أبلغ وزير الخارجية الفرنسى توفينيل نظيره الانجليزى لورد كاولى Cowlay بأنه قد أرسل شايفر للحصول على محطة لتموين السفن التجارية الفرنسية فى البحر الأحمر ، وأشار توفينيل الى أن وزير البحرية الفرنسى قد اختار قطعة أرض صحراوية تدعى أوبوك كميناء آمن ذى مياه هادئة وانه يأمل أن يبنى هناك مخزنا للفحم (٢٤) .

ووقعت بالفعل معاهدة اوبوك فى باريس فى ١١ مارس ١٨٦٤ ، وقعها كل من توفينيل وزير الخارجية ودنى عبد الرحمن كممثل لشيوخ المنطقة .

وبقى لاتمام تلك العملية الخاصة باوبوك أن يسلم وزير الخارجية الفرنسى ذلك الموضوع الى وزير البحرية والمستعمرات الذى كان عليه بالتالى أن يتخذ الاجراءات اللازمة للاستفادة من تلك العملية لصالح الأسطول الفرنسى .

ولم ينس وزير الخارجية الفرنسى أن يلفت نظر زميله الى المزايا الهامة التى يستطيع الحصول عليها من هذه المنطقة خصوصا « وأن شق

---

(٢٣) د. جلال يحيى — المصدر السابق ، ص ٣٩ — ٤٠ .

(24) I. O. L. Political and secret Dep.
Political and secret Dep.
Political and secret Dep.
(L./P. and S/18) B. 8 Conf. Memo.
Op. Cit., p. 45.

قناة السويس فى المستقبل ووجود سفن حربية فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، علاوة على امكانية تحويل القوافل التى تصل الآن الى تاجورة وزيلع وبربرة الى محطة فرنسية ، كل هذه الامكانيـــات تجعلنى شـــديد الأمل فى أن تجد علاقاتنـــا التجارية نقطة ارتكاز هامة فى احتلالنـــا لهذه الأراضى » (٢٥) .

ومع ذلك ، فقد أهمل الفرنسيون أوبوك اهمالا كاملا ولفترة طويلة نسبيا الى أن واتتهم الظروف مرة أخرى لمعاودة نشاطهم فى عام ١٨٨٢ .

مصر والصـــومال :

لا يجب أن نغفل دور مصر فى الصومال فى هذه الفترة وتأثير هذا الـــدور على المنـــافسة الانجليزية الفرنسية هنـــاك . وكان السلطـــان العثمانى قـــد أصـــدر فرمانا فى عام ١٨٦٥ عادت بموجبـــه لوالى مصر مسئولية ادارة ولايتى سواكن ومصوع (٢٦) .

وفى عام ١٨٧٠ قرر وزير الخارجية المصرية أنه بمقتضى ، الفرمان الصـــادر فى عام ١٨٦٥ ، فان مصـــوع وسواكن وتوابعهما داخلة ضمن الامتياز الذى منحه البـــاب العالى للحكومة المصرية ، وعين بالفعل حاكم مصرى لـــكل الساحل من السويس حتى رأس جوردفوى (٢٧) .

وفى خـــريف عام ١٨٧٣ زار قائد الســـفينة البريطانيـــة دالوزى Dalhousie بربرة وسجل بأنه ليس هنـــاك من شك فى أن الحكومة

---

(٢٥) د. جلال يحيى — المصـــدر السابق ، ص ٤٨ .

(٢٦) د. شوقى طا الله الجمل — الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر مطبوعات الجمعيـــة لمصرية للدراســـات التاريخيـــة — القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٤٢ .

(27) I. O. L. Political and secret Dep.
Political External Files and Callections. (L/P. and S./18). B. 48. Memo. by sir E. Hertzlet, March 5, 1874.

المصرية بعنبر بريرة ومصوع جزءا من أراضيها (٢٨) . وأخــذ المصريون يدعمون حكمهم على ســواحل البحر الأحمر ، وازداد نفوذهم بعــد أن سلم البــاب العالى حكم ممتلكاته على الساحل الصومالى الى اسماعيل باشا خديو مصر (٢٩) .

وقد اكد الخديو سـيطرته على ذلك السـاحل حتى أن الحكومة البريطانية عقدت معاهدة مع الحكومة المصرية فى سبتمبر ١٨٧٧ اعترفت فيها بالسلطة المصرية على أراضى سواحل الصــومال حتى رأس حافون هــذا فى مقابل أن لا تتقاضى الحكومة الخديوية عوائد جمركية من السفن البريطانية أكثر من ٥٪ فى تلك السواحل . كما تعهد الخـديو بعــدم التنازل عن أية قطعــة من هذه الأراضى لأى دولة أخرى وكــذلك بمنع تصدير الرقيق من تلك الجهات ، وبأحقية بريطانيا فى مراقبة منع هــذه التجارة على تلك السواحل (٣٠) . وتجدر الاشــارة الى أن سلطان تركيا لم يصادى على هذه المعاهدة (٣١) .

ومنذ عام ١٨٨٢ — وكما هو معلوم — دخلت القوات البريطانيــة مصر باسم حمــاية الخديو والمصالح الأوروبيــة . ولم يكن الانجليز على استعداد لضم مصر الى الامبراطورية البريطانية لمــا يترتب على ذلك من مشكلات وعقبــات محلية ودوليــة ، كما أنهم لم يفكروا فى فرض حمايتهم عليها ، أو فى القضاء على الأسرة الحاكمة طالما أنهم قد أعلنوا أنهم قــد

---

(28) I. O. L. Political and secret Dep.
Political and secret Dep.
Political External Files and Collections.
(L./P. and S/18) B. 8 Conf. Memo.
Op. Cit., pp. 61 - 62.

(29) C. U. Aitchison Op. Cit., p. 115.

(٣٠) دكتور شوقى عطا الله الجمل — الوثائق التــاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر ، ص ٣٥١—٣٥٢ .

(31) I. O. L. Political and secret Dep.
Political External Filles and Collections (L/P and S/18).
B. 44 Somali Coast (French Treaties - English Treaties)
February, 1887.

قدموا الى البلاد لتثبيت سلطة الخديو (٣٢) . الا أنه مما لاشك فيـــه أن سقوط مصر فى قبضـــة الاحتلال البريطانى ، وسيطرة بريطانيا على ذلك الموقع الجغرافى الممتاز الذى ضـــمن لها السيطرة على قنـــاة السويس كما سهل لها استخدام الموانى المصرية الاتصـــال بين الشرق والغـــرب ليس من شك فى أن ذلك الحـــدث الخطير — أى الاحتـــلال — كانت له انعكاساته وانطباعاته القـــوية على المنـــافسة الدوليـــة على السواحل الصومالية ، فبـــادىء ذى بدء تم القضاء على المنافسة المصرية فى تلك الانحاء بعد الاحتـــلال البريطانى لمصر ذاتها، كما تضاءلت المنافسة التركية بعد أن كان البـــاب العالى — كما قلنـــا — قد نقل مسئولية ادارة ممتلكاته على السواحل الأفريقية الى والي مصر . وهكذا بدأت بريطانيا بعـــد أن قويت قبضتها وشعرت بقوتها وتفوقها تنفذ أدوارها المرسومة على سواحل الصومال ، فأخذت فـــكرة اخلاء الساحل الصومالى من المصريين وكذلك التصدى للمخططات الفرنسية فى المنطقـــة تتبلور لدى الحكومة البريطانية مع عامى ١٨٨٢ ، ١٨٨٣ .

المنافسة الانجليزية الفرنسية :

كان الفرنسيون قـــد أهملوا منطقـــة أوبوك اهمـــالا كاملا ولفترة طويلة نسبيا ، الا أن الفرصـــة واتتهم ليعـــاودوا نشاطهم هنـــاك مرة أخرى ، ففى بداية عام ١٨٨٢ قتـــل بعض الصـــوماليين أحـــد الرعايا الفرنسيين وكانت هذه الحادثة فرصة مواتية للبدء فى تدعيم النفوذ الفرنسى فى أوبوك ، فتم اختيـــار المستعمر الفـــرنسى لاجارد للذهاب الى أوبوك للتفاوض مع المسئولين المصريين هنـــاك على عقد اتفاقية لتحديد الحدود . الا أن إنجلترا اكنت عازمة على أن لا تترك فرنسا مطلقة اليد للعمل على مضايقتها فى هذه المنطقـــة ، وهكذا بدأ التنـــافس البريطانى الفرنسى فى المنطقة واضحا جليا اعتبـــارا من شهر مارس سنة ١٨٨٤ . فقـــد قام الميجور هنتر — ممثـــلا للشركة البريطانيـــة — بزيارة زيلع وبربرة وهرر (٣٣) . وتوصل هنتر الى عقـــد معاهـــدة فى ١٤ يوليو ١٨٨٤ مع

---

(٣٢) دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى — مشكلة قنـــاة السويس (١٨٥٤ — ١٩٥٨) معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٧ ، ص٣٣ .

(٣٣) د .جلال يحيى — المصـــدر السابق ، ص ١٠٣ .

قبيلة حبر أول (٣٤) . وقــد تعهد شيخ هذه القبيــلة بموجب هذه المعاهدة بعدم التنــازل عن أية قطعــة من أراضيهم لأية دولة أخرى عدا بريطانيا وكذلك بالسماح للسفن البريطانية بالتجــارة فى كافة الموانىء التابعــة لهم ، وتعهدوا كذلك بحمــاية الرعايا البريطانيين فى أراضى حبر أول ، ويمنع تجــارة الرقيق والموافقة على تعيين الوكلاء البريطانيين فى بربرة وفى أى مكان آخر من أراضى حبر أول ، كما نصت المعاهدة أيضــا على أنها سـوف تكون سارية المفعول فى الوقت الذى سـوف تغادر فيــه القوات المصرية بربرة (٣٥) .

وواصل البريطانيون تنفيذ سياستهم المرسومة فى المنطقة فأرسلوا انذارا فى أول أغسطس سنة ١٨٨٤ الى البــاب العالى جاء فيــه انه « اذا لم تكن الحكومة التركية مستعدة لاتخاذ الخطوات السريعة لاحتــلال زيلع .. فسيكون من الضرورى لحكومة صــاحبة الجلالة أن ترسل قوة للمحافظة على النظام هنــاك » .

وجاء رد الباب العالى الى لندن بالموافقة على ارسال قوات عثمانية الى زيلع وتاجورة وسواكن . الا أن الأمور تطورت بسرعة ، وأصــدرت وزارة الخارجية البريطانيــة تعليماتها الى هنتر فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٨٤ باخلاء الحاميــة المصرية لبربرة ، كمــا أبلغت انجلترا الحكومــة الخديوية بأنها لا تقبل أى تأخير فى تنفيــذ العملية وأن « على السلطات المصرية أن تكلف الماجور هنتر بمهمة اخلاء حامية بربرة » وهكذا أجبرت الحامية المصرية على اخــلاء بربرة التى دخلت بذلك فى منطقــة النفوذ البريطانى (٣٦) . ووسط هذه المنافسة الاستعمارية ، استطاع المستعمر الفرنسى لاجارد أن يعقد معاهدة مع سلطان تاجورة فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٨٤ ، وبمقتضى هذه المعاهدة تنــازل السلطان عن المنطقــة من رأس

---

(34) I. O. L. Political and secret Dep.
Political External Files and Collections (L/P and S/18).
B. 44 Somali Coast (French Treaties - English Treaties)
February, 1887.

(35) C. U. Aitchison. Op. Cit., pp. 201 - 202.

(٣٦) د. جلال يحيى — المصــدر السابق ، ص ١١٨ .

على الى قبة الخراب ، وفى ١٨ أكتوبر من نفس السنة تنازل سلطان تاجورة لفرنسا عن رأس على وسجالو وقبة الخراب .

ولا ريب أن انسحاب المصريين من ممتلكاتهم الأفريقية زاد من التسابق الدولى على تلك المناطق واعتبرت الدول الاستعمارية هذه الممتلكات أرضا لا صاحب لها ، وعملت على الاستيلاء على ما تستطيع الاستيلاء عليه منها (٣٧) .

وفى نفس الوقت الذى احتلت فيه فرنسا تاجورة ، قام القنصل العام الألمانى فى القاهرة بالاستفسار من نوبار باشا على « حقوق الباب العالى عن سواحل البحر الأحمر وخليج عدن » . وقد أظهر هذا الاستفسار قلق الدول الأوربية على مصير الأراضى المصرية فى بلاد الصومال ، ومصير سيادة الدولة العثمانية وسلامة أراضيها بعد أن ضمنتها معاهدات لندن سنة ١٨٤٠ وباريس ١٨٥٦ وبرلين ١٨٧٨ (٣٨) ، الا أنه مما تجدر الاشارة اليه أن معاهدة سنة ١٨٥٦ على الرغم من أنها تضمنت نصا بالمحافظة على أراضى الامبراطورية العثمانية ، فانها لم تحدد مم تتكون هذه الأراضى (٣٩) .

الا أن الاحتلال الفرنسى لتاجورة دفع انجلترا الى فكرة الحصول على معاهدات مع القبائل الواقعة على ساحل البحر الأحمر ، فما أن طلب الماجور هنتر التصريح له بعقد معاهدة مع قبيلة القضاء بورسى صومال فى خور كالنجالات حتى صرح له ، وقد عقدت هذه المعاهدة بالفعل فى ١١ ديسمبر سنة ١٨٨٤ (٤٠) .

---

(٣٧) د. محمد فؤاد شكرى — مصر والسودان — تاريخ وحدة وادى النيل — السياسة فى القرن التاسع عشر — القاهرة ، دار المعرفة ١٩٥٧ — ص ٤٤٨ .

(٣٨) د. جلال يحيى — المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

(39) I. O. L. Political and secret Dep.
Political External Files and Collections.
(L./P. and S/18) B. 8 Conf. Memo.
Op. Cit., p. 33.

(40) I. O. L. Political and secret Dep.
Political External Filles and Collections (L/P and S/18).
B. 44 Somali Coast (French Treaties - English Treaties)
February, 1887.

وقد تعهد شيوخ هذه القبيلة بمقتضى هذه المعاهدة بعدم التنازل عن أراضيهم لأية قوى أخرى ، وبمنع تجارة الرقيق ، والسماح للسفن البريطانية بالقيام بالتجارة فى الموانىء التابعة لهم (٤١) .

وفى نفس الوقت صدرت التعليمات الى هنتر بعقد معاهدات تشبه المعاهدة السابقة مع بقية القبائل الصومالية ، ففى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨٤ عقد هنتر معاهدة أخرى مع قبيلة حبر تلجعله (٤٢) طبقا للشروط والمواصفات التى طلبتها حكومة بومباى . وعقد هنتر معاهدة أخرى مع قبيلة العيسى صومال فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٨٤ (٤٣) . وهذه المعاهدة تطابق المعاهدات السابقة (٤٤) .

ثم عقد هنتر معاهدة جديدة فى ١٣ يناير سنة ١٨٨٥ تخص آخر جزء من ساحل الصومال ، وهو الذى تسكنه قبيلة حبر جرهاجس ، وهو يقع بين أراضى قبيلة حبر تلجعله فى الغرب وأراضى قبيلة وارسنجالى فى الشرق .

وقد سارعت فرنسا الى عقد معاهدات للحماية مع بعض شيوخ القبائل الصومالية ، حتى تعطى لوجودها على سواحل البحر الأحمر صفة قانونية تستطيع بها أن تتصدى للمنافسة البريطانية فعقدت معاهدة للحماية مع شيوخ قبيلة عيسى موسى فى مارس ١٨٨٥ ، وافق فيها هؤلاء الشيوخ على قبول الحماية الفرنسية .

ووقع المعاهدة الشيوخ الذين يسيطرون على المنطقة الممتدة من قبة الخراب الى أمبادو قرب زيلع .

---

(41) C. U. Aitchison. Op. Cit., pp. 204 - 206.

(42) Ibid p. 115.

(43) I. O. L. Political and secret Dep.
Political External Files and Collections (L/P and S/18).
B. 44 Somali Coast (French Treaties - English Treaties) February, 1887.

(44) C. U. Aitchison. Op. Cit., p. 116.

ثم وقع الفرنسيون معاهدات مشابهة فى نفس الشهر مع قبـائل جبريل أبوكر وقبـائل القضا بورسى (٤٥)

ورأت بريطانيا أن تغير من استراتيجيتها فى المنطقة نتيجة للمنافسة الفرنسية لها ، فحولت معاهداتها مع القبـائل الصومالية الى معاهدات للحماية. ففى ١٥ مارس ١٨٨٦ قدت معاهدة الحماية مع قبيلة حيرأول(٤٦) ووقعها الماجور هنتر الممثل السياسى على الساحل الصومالى مع شيوخ القبيلة ، وتعهد هؤلاء بعدم القيام بأية اتصالات أو عقـد اتفـاقات أو معاهدات مع أية دولة أو قوى أجنبية الا بعد موافقة الحكومة البريطانية※ وعقدت كذلك معاهدة الحماية مع قبيلة حير تلجعله فى أول فبراير١٨٨٦(٤٧) وعقدت معاهدة أخرى فى نفس التاريخ مع قبيلة حير جرهاجس ، وهى تشبه معاهـدات الحماية السابقة (٤٨) وكان قد سبق لهنتر عقد معاهدة الحماية مع قبيلة وارسنجالى فى ٢٧ يناير ١٨٨٦ (٤٩) .

وفى غضون ذلك الوقت برزت أهمية امتلاك جزيرة سـوقطرة ، وهكذا دارت المفاوضات بين السلطات البريطانية وبين سلطانها ، وانتهى الأمر بتوقيع معاهدة للحماية تشبه المعاهدات السابقة ووقعها السلطـان ووزرته وكل الأعضاء الـكبار فى عائلة الأفرير EL - Afrear فى عام ١٨٨٦ (٥٠) .

---

(45) I. O. L. Political and secret Dep.
Political Extemal Filles and Collections (L/P and S/18).
B. 44 Somali Coast (French Treaties - English Treaties) February, 1887.

(46) C. U. Aitchison. Op. Cit., p. 115.

※ Ibid pp. 202 - 204.

(47) C. U. Aitchison. Op. Cit., p. 116.

(48) Ibid pp. 213 - 215.

(49) Ibid p. 116.

(50) I. O. L. Political External Files & Collections (L/P. & S./18) B. 42 Memorandum by Lieutenant - General J. W. Schneider, C. B.
8, Queensborough Terrace, 23 nd February 1886.

وفى فبراير ١٨٨٧ وبعد مفاوضات طويلة ، توسعت الحكومتان الانجليزية والفرنسية الى اتفاق بالنسبة لمطالبهما على الساحل الصومالى فاتفقت الحكومتان على أن تمتد المحمية البريطانية من خط الطول ٤٩ه شرقا الى النقطة التى تقع عندها آبار لاهادو فى نحو منتصف الطريق بين مصوع ورأس جيبوتى بينما يمتد الخط الذى يفصل بين المحميتين الانجليزية والفرنسية الى أبا سوين Abbaswain وباى وكابويو وجلديسا وهرر . أما جزائر موسى وباب فقد دخلت ضمن حدود المحمية الفرنسية بمقتضى اتفاق عقد سنة ١٨٨٨ . ونصت الاتفاقية على تعهد كل من الحكومتين بعدم التدخل عبر خط التقسيم الذى يفصل بين المحميتين ، وعلى بقاء طريق القوافل الممتد بين زيلع وهرر عبر جلديسا مفتوحا للتجارة . كما اتفقت الحكومتان على بذل كل الاجراءات الضرورية للقضاء على تجارة الرقيق ، ومنع استيراد الذخيرة والأسلحة الى الأراضى التابعة لهما (٥١).

ولا ريب ان هذا الاندفاع البريطانى الى سواحل البحر الأحمر ،كان لمحاولة سبق فرنسا فى تحقيق انتصارات هناك . فان الطريقة التى عقدت بها معاهدات الصداقة ومعاهدات الحماية مع القبائل الساحلية المتناثرة على البحر الأحمر ، والتوقيت المتقارب الذى تم فيه عقد هذه المعاهدات يوضح الى حد كبير اهتمام بريطانية بالمنافسة الفرنسية لها فى تلك المناطق .

المنافسة الانجليزية الايطالية :

كانت ايطاليا قد بدأت اتصالاتها بالبحر الأحمر وسواحله عن طريق المبشرين وقبل قيام الوحدة الايطالية . وعندما تأسست المملكة الايطالية الحديثة عام ١٨٦١ — باستثناء روما والبندقية — تبنى البارون ريكازولى Ricasoli والزعيم غاريبالدى وبعض كبار الساسة الايطاليين مشروعا لاحتلال شريط من الأرض على ساحل البحر الأحمر الأفريقى ، الا أن مشكلات البلاد الداخلية حالت دون تنفيذ هذا المشرو .

---

(51) C. U. Aitchison. Op. Cit., p. 116.

على أن افتتاح قناة السويس ، بعث السياسة الايطالية الاستعمارية على ساحل البحر الأحمر الغربى من جديد (٥٢) ، ففى ٢٣ أكتوبر سنة ١٨٦٩ — عقد فى جنوه مؤتمر للغرف التجارية الايطالية لبحث النتائج التى ستعود على ايطاليا من افتتاح قناة السويس للملاحة العالمية ، وأوصى هذا المؤتمر بضرورة حصول ايطاليا على محطة تجارية فى أحد موانى البحر الأحمر ، وقامت شركة روباتينو بالفعل بشراء مساحة من الأراضى فى منطقة على ساحل البحر الأحمر الغربى ، الا أن حكومة القاهرة أصرت على عدم الاعتراف بالوجود الايطالى على ساحل البحر ، وظلت الأمور على هذا الوضع عشر سنوات تقريبا واصلت فيها ممارسة سيادتها على هذه المنطقة (٥٣) .

وقد دعم من السيادة المصرية على طول ساحل البحر الأحمر الغربى من رأس علبة شمالا الى رأس حافون جنوبا ابرام اتفاقية ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ بين بريطانيا وخديو مصر والتى اعترفت بريطانيا بمقتضاها بهذه السيادة وان لم يصادق سلطان تركيا على هذه الاتفاقية (٥٤) .

ومع عام ١٨٨٠ جدد الايطاليون نشاطهم الاستعمارى على الساحل الصومالى وبدأت بواخر شركة روباتينو — بمساعدة الأسطول الايطالى — فى تأسيس مستعمرة فى خليج عصب . والواقع أن كل الظواهر كانت توحى بأن ايطاليا تتخذ من نشاط شركة روماتينو ستارا تخفى به أغراضها السياسية والتوسعية على ساحل البحر الأحمر الأفريقى ، ولم تكن بريطانيا فى ذلك الوقت لترضى بهذا النشاط الاستعمارى الايطالى فى تلك الأنحاء ، حتى أن لورد سولسبورى أرسل فى ٩ يناير سنة ١٨٨١ برقية الى

---

(٥٢) الدكتور السيد رجب حراز — ارتريا الحديثة (١٥٥٧—١٩٤١) ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٤ ، ص ٧٨ .

(٥٣) المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(54) I. O. L. Political and secret Dep.
Political External Files and Collections (L/P and S/18).
B. 44 Somali Coast (French Treaties - English Treaties)
February, 1887.

السير ادوارد مالت يأمره فيها بأن يحث الحكومة المصرية على ان ترسل سفينة حربية لرفع الراية العثمانية على خليج عصب ومنع الايطاليين من الاستيلاء على أية بقعة من ساحل البحر الأحمر (٥٥) . الا أن الايطاليين مضوا فى سياستهم الاستعمارية متخذين الطريق التقليدى للاستعمار فى القرة الأفريقية وهو طريق عقد المعاهدات مع الشيوخ فى المنطقة والتى يتنازلون بموجبها عن أراضيهم لايطاليا وهى لا يعرفون على وجه الدقة على أى شيء هم يوقعون .

ولا شك أن المنافسة البريطانية الفرنسية على ساحل الصومال ساهمت فى تحسين العلاقات الانجليزية الايطالية حتى أن بريطانيارحبت بفكرة احتلال ايطاليا لمصوع رغم الاحتجاج المصرى على هذا الاحتلال وجاء الاحتلال البريطانى لمصر ذاتها عاملا مساعدا للاستعمار الأيطالى فى الصومال مما أتاح له احتلال مزيد من الأراضى .

وعلى أية حال صادفت الدبلوماسية الايطالية نجاحا منقطع النظير فى شرق أفريقية بعقدها معاهدة أوتشيالى فى ٢ مايو سنة ١٨٨٩ مع منليك الثانى حاكم شوا الذى انتهز فرصة مقتل يوحنا الرابع فتوج نفسه فى نوفمبر سنة ١٨٨٩ امبراطورا على أثيوبيا ، واعترف بأحقيةملك ايطاليا فى تدبير الشئون الخارجية لأثيوبيا مما جعل أثيوبيا تبدو وكأنها واقعة تحت الحماية الايطالية . وأدت الظروف الجديدة الى شعور الايطاليين بالحاجة الى توحيد ممتلكاتهم فى الصومال ، وتخطيط الحدود بينهم وبين البريطانيين فى تلك الأنحاء .

وقبل الحديث عن المفاوضات التى دارت بين الايطاليين والانجليز بخصوص تحديد مناطق النفوذ بين الطرفين ، تجدر الاشارة الى أن الوثائق البريطانية تؤكد أن الصوماليين أبدوا عداء شديدا للايطاليين لقسوة هؤلاء وعنفهم تجاه الوطنيين . كما أن النفوذ الحبشى أيضا كان آخذا فى الانتشار فى أراضى الصومال فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر . وكانت قبيلة المالنجور Malingur تخشى نفوذ الأحباش حتى أنها كانت تقدم ضريبة من القطعان وغيرها الى الحاكم فى هرر . كما أن

---

(٥٥) الدكتور السيد رجب حراز — المصدر السابق ، ص١٢٢—١٢٤

قبـــائل رر أمادن Rer Amaden ورر على ورر حارون والشيخ آش فى اوجادن اضطرت أيضا الى تقديم بعض القطعان كضرائب للاحباش .ويبدو أن الأحبـــاش كانوا مصممين على السيطرة على قبائل اوجادن لتحقيـــق هـــدفهم الرئيسى وهو الحصول على ميناء على البحر الأحمر .

ومن المفيد أن نوضح سبب الشعور المعادى للايطاليين على الساحل الصومالى ، فالوثائق البريطانية تعلل سبب هذا العداء وبصفة أساسية الى قسوة القوافل الايطاليـــة لأن الـــكثيريين من الأحباش كانوا يرافقون هـــذه القوافل وان هؤلاء الأفارقة المسلحين نهبوا بعض القبائل ،وسببوا الـــكثير من المضايقات للصوماليين السلمين ، ولا ننسى هنـــا أن الأحباش كانوا غرباء عن المنطقـــة ولهم عقيـــدة أخرى ، مما أدى الى ازدياد مشاعر الـــكراهية ضـــد الايطاليين ورفاقهم الأحبـــاش . أما القوافل الانجليزية فـــكانت تتكون فقط من الانجليز والصـــوماليين المسلمين ، ولهذا لا نجد هذا السبب للشكوى ضد الفرق الانجليزية المسلحة .

ومما ضـــاعف من حجم المشكلة أن الأحبـــاش أنفسهم حصلوا على أسلحة حديثة وتكميات ضخمة من الشركات الفرنسية فى أوبوك وجيبوتى ويمكنهم بهـــا أن يسيطروا على قبائل الصومال المسلحـــة فقط بالسيوف والحراب ، والـــذين تمنعهم السلطات البريطانيـــة من الحصـــول على أسلحة حديثـــة من الموانى البريطانية ، وعلى حد قول الصوماليين أنفسهم « .... ان البريطانيين قـــد اضطلعوا بحكم ساحلنا بعد المصريين ، فهم الآن أصحاب السيادة ، وهم قـــد أخذوا موانيئـــا ، فعليهم الآن المحافظة على كل المسئوليات وعليهم حماية القبـــائل الصوماليـــة المسلحـــة من أعدائها التقليديين القـــدماء أى الأحبـــاش المسيحيين وذلك بتوصلهم الى اتفاق كامل مع الأخيرين — الأحبـــاش — فاذا لم يكن الانجليز راغبين فى ذلك فعليهم أن يسمحوا للصوماليين باستيراد الأسلحة من الموانى البريطانية حتى يمكنهم أن يدافعوا بها عن أنفسهم » ومن وجهة النظر البريطانية ، فان تسليح الصوماليين بطرق غير مشروعة قـــد يتسبب الـــكثير من القلاقل

أكثر من وضع خط للحدود الايطالية الحبشية بالوسائل السلمية (٥٦) .

وهكذا بدأت المفاوضات البريطانية الايطالية اعتبارا من عام ١٨٩٤ لتحديد مناطق النفوذ بين الدولتين وقد قدمت ايطاليا فى أول الأمر عرضا بالتنازل عن أراضى الميجارتين فى مقابل الحصول على زيلع ، وقد أجاب المفاوض البريطانى السير اندرسون على هذا الاقتراح بأن التعليمات الصادرة الى المفاوضين الانجليز لا تسمح لهم بالمناقشة على هذا الأساس، فالحكومة البريطانية لا ترغب فى الحصول على اقليم الميجارتين الذى هو بلا فائدة لها تماما والذى كان يمكن الحصول عليه قبل وصول الايطاليين؛ أما زيلع فهى ذات قيمة كبيرة لبريطانيا ، ولا يمكن مطلقا التنازل عنها » (٥٧) .

وقد قدم المفاوض البريطانى السير اندرسون خريطة موضح عليها خط الحدود المقترح ، وقد أوضح المفاوض الايطالى الكونت تورنييلى Tornielli بأن هذا الخط يمتد مع خط ٨ من خطوط العرض ثم شمالا مع خط ٤٨ من خطوط الطول « ... الا أنه يكون أكثر ملاءمة — من وجهة النظر الايطالية — لو أن الخط انحرف من الزاوية التى يكونها خط الطول ٤٨ وخط العرض ٨ الى تلك الزاوية التى يكونها خط الطول ٤٩ مع خط العرض ٩ والذى هو تقريبا حدود قبائل دولباهنتا Dolbahanta والميجارتين » (٥٨) . وقد علق المفاوض الانجليزى بأن هناك صعوبات كبيرة أمام اعتبار الحدود الجغرافية حدودا بين القبائل أو بين مناطق النفوذ

---

(56) I. O. L. Political External Files & Collections.
(L/P. & P./18) Confidential B. 64. Political Influence exerised in Somali - 1 and by Great Britain Italy, France and Abyssinia. School of Military Engineering, Chatam H. G. C. Swayne, R. E. 28 th December 1893.

(57) I. O. L. Political External Files & Collections.
(L/P. & S./18) B. 66 Conf. No. 1 Delimitation of the British and Italian Spheres of Influence in Somali Land. No. 1 Meeting, 7 th March 1894.

(58) I. O. L. Political External Files & Collections.
(L/P. & S/18) B. 66 Conf. Enclosure in No. 1 (Draft Agreement by count tornielli 7 th March 1894).

فالقبائل البدوية تغير مناطق اقامتها داخل حدود غير واضحة وانه « ستظل هناك صعوبات أمام وضع حدود جغرافية » . وتساءل الجانب البريطانى عما اذا كان من المفيد تقديم احصاء للقبائل الواقعة على طول الحدود الواقعة فى منطقتى النفوذ البريطانية والايطالية ، كما أضاف السير أندرسون بأنه توجد فى بربرة قائمة كاملة بهذه القبائل وأسماء رؤسائها وانسابها المحفوظة ، وان هذه العملية ستؤدى الى توضيح صعوبة الحاق أقليم ملميل Miimil بمنطقة النفوذ الايطالية (٥٩) . كما أشار المفاوض البريطانى الباكبتن سواين Swayne بأن القبائل المجاورة لملميل وهى « على واجرون ورر أش » هى تحت النفوذ البريطانى ، وان بعض رؤسائها يتقاضى رواتب بريطانية وان القبائل اعتادت نقل منازعاتها المحلية الى التحكيم لدى الضباط البريطانيين فى بربرة (٦٠) . ومثل هذه الظروف — من وجهة النظر البريطانية تحول دون تغيير تبعية هذه القبائل ووضعها تحت الادارة الايطالية . كما أبدى المفاوضون الانجليز رأيهم فى أنه يمكن تدبير الأمر ، وفرض تعليمات الحكومة البريطانية على هذه القبائل حتى يمكن تأمين القوافل الايطالية المتجهة من والى هرر واوجادن عبر هذه الزاوية من الأرض . الا أن المفاوض الايطالى السنيور سيلفاستر يللى Silvestrelli لم يوافق على هذا الاقتراح ، وأظهر بأن القوافل الايطالية تستخدم بكثرة الطرق عبر ملميل ، وان الكثيرين من رؤساء القبائل هناك وقعوا على اتفاقيات بقبول الحماية الايطالية وان كانت هذه الاتفاقيات غير رسمية وانه لايود الاعتماد عليها كثيرا فى المباحثات ، وقد لاحظ المفاوض الانجليزى الكابتن سواين Swayne ان التوقيعات هى لرؤساء ثانويين . ومرة أخرى أوضح السير سباندرسون أنه كنتيجة للنفوذ البريطانى الممتد على هذه القبائل ، فان القوافل الايطالية تمكنت وتتمكن بالفعل من السير عبر ملميل الأمان . الا أن السنيور

---

(59) I. O. L. Political External Files & Collections.
(L/P. & S./18) B. 66 Conf. No. 1 Op. Cit.

(60) I. O. L. Political External Files & Collections.
(L/P. & S./18) B. 66 Conf. No. 1 Enclosure in No. 1 Notes on Delimitation Questions in Somali Land by Captain H. G. C. Swayne, R. E. 10 th March 1894.

سيلفاستريللي كرر طلبـه من أجل تحويل تبعية هذه القبائل الى ايطاليا، وأكد على أن كل احتياجات بربرة من المؤن سوف تسير وفق قرارات مؤتمرى برلين وبروكسل بخصوص حرية التبـادل التجـارى والاعفاء من ضرائب المرور للقوافـل المـارة عـبر الأراضي الواقعـة داخل منطقتى نفـوذ الدولتين . كمـا تنـاول السنيور مسألة آبار ملميل وأهميتها الحيـوية لامداد المنطقتين .

وقـد لخص السير ساندرسون الموقف كالآتى : « ... اما أن تبقى قبـائل ملميل كما هى فى الوقت الحاضر (١٨٩٤) داخل منطقـة النفوذ البريطانيـة مع كفالة المرور وضـمان الحفاظ على الأمن للقوافل القادمة من المنطقـة الايطالية ، واما أن ننقل هذه القبـائل الى تبعيـة ايطاليا مع كفالة المرور والحمـاية للقوافل المتجهة من والى المنطقة البريطانية » . وأوضح المفاوض الانجليزى بأنه لا يرى سببا هاما لتفضـيل الترتيب الثانى على الترتيب الأول ، بل أنه « اذا كان الأمر يتعلق بالحماية والحفاظ على الأمن ، فانه من الواضـح ، أننـا — الانجليز — فى الموقـع الأفضـل حاليـا لضمانه » (٦١) .

وارتباطا بمسألة الحمـاية البريطانيـة ، فان المفاوضـين الانجليز وضعوا مسألة الاغارات الحبشية على القبـائل الصـومالية الواقعـة تحت الحماية البريطانيـة تحت المناقشـة ، وأوضح السير ساندرسون بأن الأثيوبيين مسلحون تسليحا جيدا بأسلحة نارية حديثة أمكنهم الحصول عليها من الفرنسيين فى جيبوتى بينما لم حصـل الصوماليين على وسائل الدفاع عن أنفسهم (٦٢) ، واستمر ساندرسون موضحا « اننـا لا يمكننا أن نقف موقفا سلبيا تجاه هـذه الغـزوات الحبشية على أتباعنـا دون اتخاذ أية اجراءات فعـالة لايقافها ... لقد تحملنا كثيرا ونحن قد طلبنا من ايطاليا أن تبـذل جهدها ونفوذها مع الحبشة لايقـاف أعمال النهب

(61) I. O. L. Political External Files & Collections. (L/P. & S./18) B. 66 Conf. No. 1 Op. Cit.

(62) I. O. L. Political External Files & Collections. (L/P. & S./18) B. 64 Conf. No. 1 Op. Cit.

هـذه فى منطقة نفوذنا ، الا أنه لم يكن لهـذا الطلب أية نتـائج ايجابيـة » .

كما أوضح المفاوضون الانجليز ان الرأس ماكونن قـد أرسل حملة عبرت خط حدود المنطقة البريطانية عند خط جلديسا — لهادو Lehadu وانه شيد موقعا حصينا فى بايو كابوبو داخل منطقة النفوذ البريطانية .. « ونحن لم نطرد الأحبـاش كما كان يجب أن نفعل ، ولـكن طلبنا من الحكومة الايطالية أن تقنع ماكونن بأن يسـحب رجاله ، الا أن التـدخل الايطالى فشل فى ضـمان انسحاب الأحبـاش ... وفى كل مناسبة نحن نذعن لرغبة ايطاليـا فى عدم التعـامل مباشرة مع منليك أو مع ممثلهفى هرر ... « وتحت هـذه الظروف فنحـن نعتبر بأننـا لنـا الحق فى التساؤل عما يعنيه الايطاليون من عدم منعهم الأحباش من مهاجمة قبائلنا المحميـة » .

وهنـا أوضـح السنيور سـيلفاستريللى بأن ماكونن شـيد موقع بأيوكابوبو لحمـاية طرق القوافل ... وقـد لاحظ المفاوضـون الانجليز بأن هذه الاجابة تعتبر مراوغة بالنسبة للطلب البريطانى بسحب هذهالقوة الحبشية من هذه النقطة الواقعة داخل منطقة النفوذ البريطانية (٦٣) .

وأخيرا قدم المفاوض البريطانى السير ساندرسون مسودة قصـيرة تمثل مافهمه من سير المباحثـات ، وكانت كالآتى « ... حتى ذلك الوقت الذى تؤسس فيـه ايطاليا ادارة مؤثرة على القبائل فى جوار ملميل فانه مسموح للسلطات البريطانية أن تتخذ أية اجراءات مؤقتـة مع تلك القبائل وذلك للمحافظة على الأمن ، أما بالنسبة للتنازل عن ملميل كلية لايطاليـا فانه يستحسن ترك هذه المسألة للحكومتين » (٦٤) .

وعلى أية حال سرعان مادبت العـداوة بين الأحباش والايطاليين ،

---

(63) I. O. L. Political External Files & Collections.
(L/P. & S./18) B. 66 Conf. No. 1 Op. Cit.

(64) I. O. L. Political External Files & Collections.
(L/P. & S./18) B. 66 No. 2 Meeting, 22 nd March 1894.

بعد أن أوضح الايطاليون عن مخططاتهم الرامية الى فرض سيطرتهم على الحبشة . وقد نجح منليك الثـانى فى توحيد مملـكته ضد الايطاليين ، ووقفت أثيوبيا وقفة رجل واحد تواجه الايطاليين ، فانهزم هؤلاء فى موقعة امبـا آلاجى Amba Alagi فى ٧ ديسمبر ١٨٩٥ ثم فى موقعـة عدوة فى أول مارس ١٨٩٦ . وكان من نتـائج هزيمة عدوة سقوط وزارة كرسبى صـاحب سياسية التوسع الاستعمارى فى شرق أفريقيـة ووقف التوسع الايطالى فى أثيوبيا فى الفترة الباقية من القرن التاسع عشر (٦٥) .

وهكذا ظل البريطانيون أصـحاب القـدح المعلى على السـواحل الصومالية المطلة على البحر الأحمـر وذلك بالنسـبة للدول الاستعمارية الأخرى ، معتمدين فى ذلك على قواعدهم المطلة على هذا البحر فى مصر والسودان وشرق أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية ومعتمدين أيضـا على الامدادات التى يحملها أقوى أساطيل العـالم فى ذلك الوقت من الهنـد وعبر قناة السويس الى أن قامت الحرب العالمية الأولى فزادت من تدعيم مكانتهم وترسيخ قواعدهم فى تلك الأنحاء .

---

(٦٥) دكتور السيد رجب حراز — المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .

موقف بريطانيا فى البحر الأحمر

فى الحرب العالمية الأولى

للدكتور محمد محمود السروجى
كلية العلوم الاجتماعية
جامعة محمد بن سعود الاسلامية ــ الرياض

يحسن بالباحث قبل الخوض فى دراسة موقف بريطانيا فى البحر الأحمر فى الحرب العالمية الأولى ، أن يلم المامة سريعة بالموقف الدولى عموما ، ليتسنى له ادراك الموقف الدولى فى هذا البحر على وجه الخصوص .

الموقف الدولى قبيل الحرب العالمية الأولى :

شاهدت السنوات الأولى من القرن الحالى تقاربا بين بريطانيا وفرنسا بعد توقيع الاتفاق الودى بينهما فى عام ١٩٠٤، ثم انضمام الروسيا اليهما فى عام ١٩٠٧ بحيث تكون من الأطراف الثلاثة مايسمى بالوفاق الثلاثى . ومنذ ذلك الوقت أخذت الروسيا تبتعد عن المانيا التى ارتبطت بها منذ حلف القياصرة الثلاثة عام ١٨٧١ .

ومن الجانب الآخر نجد أن امبراطورية النمسا والمجر ظلت مرتبطة بتحالفها مع المانيا ، لاسيما بعد أن تكون الوفاق الثلاثى المشار اليه .وفى نفس الوقت ، أو قبل ذلك بقليل بدأ التقارب الألمانى التركى عقب معاهدة برلين عام ١٨٧٨ ، تلك المعاهدة التى أنهت الحرب التركية الروسية والتى حققت سياسة بسمرك مستشار المانيا ازاء المسألة الشرقية ، والقائمة على استصلاح الدول الأوربية الكبرى على حساب ممتلكات الدولة العثمانية .

واذا كانت المانيا قد عاملت مندوبى الدولة العثمانية فى المؤتمر (مؤتمر برلين ١٨٧٨) باحتقار وامتهان شديدين ، وعملت — دون شك — على طرد الأتراك من أوربا ، والعمل على القضاء على دولتهم ، الا أن الأعوام التى ستعقب المؤتمر ستظهر تقاربا واضحا بين الدولتين التركية والألمانية ، اذ سيعتبر الأتراك العثمانيون أن المانيا — رغم قسوتها — كانت أكرم من غيرها من الدول ، فلم تقتطع لنفسها شيئا من الممتلكات العثمانية داخل المؤتمر ، وكان بوسعها — لو أرادت — أنيكون لها نصيب الأسد فى هذه الممتلكات (١) .

وبالفعل بدأت رؤوس الأموال الألمانية تتدفق على الدولة العثمانية فى شكل مشروعات ، ومصارف ، وقروض . وأهم تلك المشروعات ، مشروع سكة حديد برلين— بغداد — البصرة، الذى أثار ثائرة البريطانيين، ووقفوا له بالمرصاد ، لأنه سيقرب الخطر الألمانى من الخليج ، مما يهدد المصالح البريطانية فى هذه المنطقة وفى الهند تهديدا خطيرا . كما عارضته الروسيا أيضا .

ولم يقتصر التعاون بين الدولتين الألمانية والتركية على المجال الاقتصادى فحسب ، بل امتد الى النشاط العسكرى ، حينما طلبت الحكومة التركية من المانيا ايفاد أحد ضباطها الكبار للاشراف على تدريب الجيش التركى واعداده وتسليحه .

وفى الحقيقة أن الأسلوب الذى اتبعه بسمرك فى سياسته الأوربية منذ السبعينات من القرن التاسع عشر ، القائم على الأحلاف الأوربية الكبرى لفرض السلام على أوربا — لو صح هذا التعبير — لم يحقق كل ما كان يرجى منه ، « لأن الأسلوب كان أسلوب أحلاف متنافسة ، ولم يكن أسلوب عصبة عالمية شاملة ، كان ميزانا للقوى ، ولم يكن توافقا بين القوى . فاذا قوى أو نما تكتل ما ، أفزع وأنذر نموه الدول الأخرى التى لا تدور فى فلكه ، فعمدت الى تكوين تكتل مضادا . وبذلك خلقتنافس

---

(١) محمد محمود السروجى : تاريخ أوربا الدبلوماسى ص ٩٥ .

الأحلاف سباق التسلح ، وانتهى التنافس فى الكراهية والخوف بالمجموعتين المتعارضتين الى ميدان القتال » (٢) .

تبلور الموقف الأوربى قبيـل الحرب العالميـة الأولى فى معسكرين اثنين : معسكر الحلفاء ويضم بريطانيا وفرنسا وروسيا ، ومعسكر الوسط ويضم المانيا وامبراطورية النمسا والمجر وتركيا ، وذلك بعد أن عقـدت الأخيرة معاهدة دفاع سرية مع المانيا فى ٢ أغسطس ١٩١٤ .

كانت أكثر هذه الدول استعدادا للحرب المانيا،وأقلها فى ذلك الدولة العثمانية ، نظرا لمـا ألم بها من نكبات فى السنوات الأخيرة ، فجزء من قواتها يحارب فى اليمن لاستعادة سيطرة الدولة ، وللقضاء على الثورات والقلاقل . ولم تتوقفتلك الحرب الا عندما هدد الايطاليون طرابلس الغرب فى عام ١٩١١ ، حيث عقد الامام يحيى صلح دعان (١٩١١) مع العثمانيين، ليتيح لهم فرصـة التفرغ للدفاع عن طرابلس ومحاربة الايطاليين . ولكن هذا العمل لم يحل دون ضياع طرابلس وتنـازل الدولة العثمانية عنهـا بمقتضى معاهدة أوشى ١٩١١ .

وفى نفس الوقت خاضت قوات الدولة العثمانيـة حربا فاشلة فى البلقان ١٩١٢/١٩١٣ انتهت بخروجها من أوربا . وكان هذا الضعف الذى بلغته الدولة حافزا قويا للحكومة الروسية على الاسـتمرار فى انتهـاج سياسة تمزيق أوصالها . ومن ثم طلبت الحكومة التركية من المانيا ارسال أحد ضباطها الأكفـاء لاعادة تنظيم الجيش التركى ، وقـد لبت الحكومة الألمانية هذا الطلب فبعثت ليمان فون ساندرس Liman von Sanders لتولى وظيفته مفتش عام الجيش التركى برتبة فيلد مارشال (مشير) (٣) .

الحالة فى البحر الأحمر قبيل الحرب العالمية الأولى :

اذا نظرنا الى القوى صـاحبة النفوذ فى البحـر الأحمر نجد أن بريطانيـا تأتى على رأسها ، فهى بحكم احتلالها عدن منذ عام ١٨٣٩ ،

---

(٢) جرنت وتمبرلى : أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، حـ ٢ ، ص ٥٩ .

(3) Gross Politik. Vol. 38, pp. 283 - 305,

ومصر منذ عام ١٨٨٢ أن توطدت أقدامها على منفــذى البحر الأحمر من الشمال والجنوب . كما أن انفرادها بحكم السودان فى ظل اتفاقية الحكم الثنائى عام ١٨٩٩ ، وسيطرتها على زيلع وبربرة عام ١٨٨٤ قد مكنها كل ذلك من السيطرة على الساحل الغربى للبحر الأحمر تقريبا ، فيما عدا بقعة صغيرة جنوبى هذا الساحل تطل منها مستعمرة أريتريا الايطاليــة على هذا البحر . ولم تكن ايطاليا بالقوة التى يخشى بأســها ؛ بل على العكس من ذلك كانت تعتمد فى بقائها فى هذا الجزء على رضاء بريطانيا وتأييدها . بل أن بريطانيــا شجعت ايطاليــا على انشاء تلك المستعمرة لتنافس فرنسا فى أوبوك وتاجورة التى عرفت فميا بعد باسم الصــومال الفرنسى ، واعترفت بريطانيــا بذلك رســميا فى عام ١٨٨٨ ، بمقتضى اتفاقية تخطيط الحدود بينها وبين فرنسا فى الصومال .

ولــكن منذ عقد الاتفــاق الودى لم تعد فرنسا خطرا على المصالح البريطانية فى البحر الأحمر .

أما الساحل الشرقى لهذا البحر ، فقد كان خاضعا للدولة العثمانية — فيما عدا الركن الجنوبى الغربى منه — حيث توجد مستعمرة عــدن الخاضعة لبريطانيا . وبالقاء نظرة على القوى البحــرية للدول الأربع بريطانيا ، وفرنسا ، وايطاليا ، الدولة العثمانية نجــد أن الأولى أقواها جميعا ، ومن يمتلك القوة البحرية يمكنه السيطرة تماما على سواحل هذا البحر وعلى طرقه التجارية ، وكانت بريطانيا يهمها فى المقــام الأول أن يظل هذا البحر مفتوحا أمامها لسببين جوهريين : الأول أن حياة بريطانيا قائمة على التجارة ، والسبب الثانى أنه الطريق الرئيسى المؤدى الى الهند والى ممتلكاتها فى شرق وجنوبى شرق آسيا .

ولم تكن بريطانيا تخشى قوة الدولة العثمانية فى هذا البحر بقــدر خشيتها من قوة حليفتها المــانيا — لاسيما بعد التقارب الــكبير التى تم بين المانيا والدولة العثمانية فى السنوات القلائل التى سبقت قيام الحرب العالمية الأولى — التى قــد تتخذ من ممتلكات الأتراك على ساحل البحر الأحمر مراكء تموين لأسطولها فى طريقه الى المستعمرات الألمانيــة فى

---

(4) Nearman, Britain & North - East Africa. p. 214.

شرق أفريقيا ، ونقط ارتكاز ووثوب على المصالح الانجليزية فى البحر الأحمر .

حالة الجزيرة العربية قبيل قيام الحرب :

اذا نظرنا الى الخليج نجد أن العراق يطل عليه من الشمال ، وهو وان كان خارجا عن شبه الجزيرة العربية ، الا أن خضوعه للحكم العثمانى يمكنه من تهديد المصالح البريطانية فى الخليج ، كما أنه يقع على الطريق الآخر المؤدى الى الهند . ولكن مما يقلل من خطورة موقع العراق عدم وجود قوات بحرية عثمانية بسواحله ، وارتباط الكويت بمعاهدة حماية مع بريطانيا فى عام ١٨٩٩ . فالوجود البريطانى العسكرى فى الكويت يحد من التهديد التركى الموجود بالعراق .

وفى جبل شمر توجد امارة حائل تحت حكم آل الرشيد ، وتدين بالولاء للعثمانيين وترتبط بالعراق، اذ كان آل الرشيد يتولون خفارة الحج العراقى، وكانوا يتقاضون عن ذلك راتبا من ولاية البصرة وبغداد (٥) . وكان ابن الرشيد فى نفس الوقت — على علاقة عدائية بعبد العزيز آل سعود أمير نجد ، ويجد تشجيعا من قبل الدولة العثمانية على ذلك ، لما كان بين الدولة وأسلاف عبد العزيز من عداء وحروب .

وفى غرب الجزيرة العربية يوجد الشريف حسين بالحجاز ، وله من النفوذ الدينى والسياسى أكثر مما لديه من قوة عسكرية ، وهو خاضع للدولة العثمانية التى تشك فى اخلاصه وولائه لها ، وترى فيه نزوعا نحو الاستقلال وانتزاع الخلافة منها (٦) .

والى الجنوب من الحجاز يوجد الادريسى بمنطقة عسير ، وقد خاض حربا شاقة بالتعاون مع الامام يحيى ضد الوجود العثمانى فى اليمن وعسير (٧) . ولم تتوقف تلك الحرب الا بعقد الامام يحيى صلح دعان مع الأتراك فى عام ١٩١١ ، وبخروج الامام من الحرب تسود العلاقات بينه

---

(٥) الزركلى : الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز ، ص ١٤ .
(٦) حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين ، ص ١٥٨ .
(7) Hogarth, Arabia, p. 119.

وبين الادريس الذى يواصل أعماله العدوانية ضد الأتراك مستيما بمساعدة الايطاليين له (٨) .

ويلى الادريسى ناحية الجنوب الامام يحيى الذى يعتصم بجتال اليمن مترقبا الفرصة للفوز باليمن خالصة له . وكان صلحه مع الأتراك ذا فائدة كبيرة للدولة العثمانية ، اذ أتاح لها فرصة التفرغ لمواجهة الخطر الايطالى فى طرابلس الغرب ، وفى مواجهة الحرب البلقانية ١٩١٢/١٩١٣ . وقد دفع تورط العثمانيين فى هذه الحروب الى توقيع اتفاقية مع بريطانيا لتحديد منطقة نفوذهما فى جنوب اليمن (٩) فى ٥ نوفمبر ١٩١٤ ، وبذلك تعترف الحكومة التركية لأول مرة بالنفوذ البريطانى فى جنوب اليمن .

أما بخصوص سلطنة لحج فقد ارتبطت هى والنواحى التسع بمعاهدات واتفاقيات مع بريطانيا تعهدت فيها الأخيرة بحمايتها ضد أى عدوان يقع عليها ، لا سيما وأنها تجاور مستعمرة عدن وتمثل خط الدفاع الأول عنها. وكذلك كان الشأن لمشيخات الخليج .

وقد لخص حافظ وهبة الوضع فى شبه الجزيرة العربية أجمل تلخيص حين قال « كان احتلال تركيا الفعلى موجودا فقط فى العراق ، وسوريا ، وفلسطين ، ومكة ، والمدينة ، ومدن الحجاز الساحلية ، وشاطىء عسير ، واليمن ، ولكن النفوذ الأجنبى القوى كان يتسرب الى هذه البلاد ، فلم يبق للحكومة كبير احترام فى نفوس رعاياها ، أما الجزء الشرقى والجنوبى من بلاد العرب من الكويت الى عدن فلم يكن للاتراك سلطة يعتد بها ، بل كان النفوذ الانجليزى متغلبا ، ولو أنه لم يكن مباشرا الا فى عدن » (١٠)

خطة الأتراك العسكرية فى شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر خلال الحرب :

كانت خطة الدولة العثمانية العسكرية ازاء شبه الجزيرة العربية ، وخصوصا المناطق الساحلية المطلة على البحر الأحمر ترتكز على دعامتين

---

(٨) فاروق أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ، ص ٥٤٧ .

(9) Lngasms, H., The Yemen Imams, Rulers & Revolution, p. 62.

(١٠) حافظ وهبه : المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

أساسيتين : الدعامة الأولى الوجود العسكرى لهـا فى الحجاز وعسير واليمن ، والدعامة الثانية النفوذ الدينى للسلطان العثمانى خليفة المسلمين وحامى حمى الحرمين الشريفين . وكل منهما يكمل الآخر فالضعف العسكرى يعوضه ويدعمه النفوذ الدينى .

وترتب على هذه الخطة أن سعت الدولة جاهدة الى ضم الحكام العرب الى جانبها باسم الدفاع عن الدين ، أو على الأقل الحيلولة دون انضمامهم الى جانب الانجليز . ولـكن حجتها فى الجهاد كانت ضعيفة ، لأنها اختارت الوقوف الى جانب الألمان فى الحرب لتحقيق أطماعهم الاسـتعمارية ، ولم يكن هذا يتفق مع مبدأ الجهاد ولا مع صالح الشعوب الاسـلامية الخاضعة لحكم العثمانيين .

وقد حاولت الحكومة التركية استمالة على بن احمد العبدلى سلطان لحج الى جانبها ، ملوحة له بالدين تارة ، وبمنحه عدن بعد خروج البريطانيين منها تارة أخرى ، ولكنها لم توفق لارتباطه بمعاهدات حماية مع الانجليز ، خصوصـا بعد أن تعهدوا له بعدم المساس بالدين الاسـلامى ، وباحترام الحرمين الشريفين (١١) .

كان من مخططات العثمانيين مهاجمة عدن وجزيرة بريم ، والاستيلاء عليهما لو أمكنهم ذلك ، فى نفس الوقت الذى يهاجمون فيه قناة السويس من ناحية الشرق (١٢) . أى مهاجمة مدخلى البحر الأحمر فى وقت واحد .

والحقيقة أن هذا التصور من قبل الأتراك كان بعيداً عن الصواب ، لأن الدولة العثمانية بقواتها المحدودة فى شبه الجزيرة العربية ، والمحاصرة من قبل الأسطول الانجليزى لا تستطيع البتة زحزحة أقـدام البريطـانيين الحصينة فى عدن عن طريق البر . أما عن طريق البحر فـلا يمكن التفكير فيـه البتة لعدم وجود أى اثر للأسطول التركى فى البحر الأحمر .

أما عن الألمان حلفاء الأتراك فكانت خطتهم التى هدفوا اليها من وراء

---

(١١) أحمد فضل العبـدلى : هـدية الزمن فى أخبـار ملوك لحج وعـدن ، ص ٢٠٧ .

(12) Lenczouski, The Middle East in World Affairs, p. 61.

تحركات الدولة العثمانية فى شبه الجزيرة العربية، ولا سيما على شواطئها الغربية ، أن تتخذ من تلك المناطق معبرا للوصول الى مستعمراتها فى شرق (١٣) أفريقيا . ولكن تفوق القوة البحرية الانجليزية فى البحر الأحمر قطع كل صلة تربط المانيا بمستعمراتها السالفة الذكر .

ولم ينجح الأتراك فى اجتذاب أحد من حكام العرب سوى ابن الرشيد. أما الامام يحيى فى اليمن فقد التزم بالحياد المشوب بالعطف على الأتراك ، وذلك لسببين : الأول وجود قوات عسكرية تركية فى بلاده تبلغ ١٤ ألف رجل (١٤) . والسبب الثانى أن موقفه كزعيم مسلم يدعوه الى عدم الانضمام الى أداء السلطان العثمانى خليفة المسلمين ، حتى لا تهتز صورته أمام أتباعه .

وحقيقة الأمر أن هذا الموقف قد أفاد الاثنين معا : السلطان العثمانى والامام يحيى ، فبالنسبة للأول أدى وقوف الامام على الحياد ، واطمئنان الدولة العثمانية اليه ، الى تفرغها لمهاجمة البريطانيين فى الجنوب . هذا فضلا عن المعونات التى تلقاها العثمانيون من اليمن (١٥) .

أما بالنسبة للامام فان موقفه هذا لم يقيده بأحد من الطرفين المتحاربين، وبذلك لا يتحمل نتيجة الهزيمة لأى منهما . وفى نفس الوقت يعطيه الفرصة الكافية لمراقبة تطور الأحداث ، واتخاذ مايراه فى صالحه .

وعلى أى حال فكل ماكان يطمح فيه الأتراك فى بداية الحرب هو شغل القوات الانجليزية فى عدن بالهجمات المتكررة ، ظنا منهم أن هذا العمل سيرغم الحكومة التركية على توجيه قواتها ، المزمع ارسالها الى قناة السويس لصد حملة جمال باشا ، الى عدن لصد تلك الهجمات، وفى ذلك بعض المساعدة لتلك الحملة (١٦) .

---

(١٣) فاروق أباظة : المصدر السابق ص ٦٤٦ .
(14) Yacob, Kings of Arabia, p. 168.
(١٥) العبدلى : المصدر السابق ص ٢١١ .
(١٦) العبدلى : المصدر السابق ص ٢١٠ ، ٢١١ .

الاستراتيجية الانجليزية فى شبه الجزيرة والبحر الأحمر :

لم يكن ميدان البحر الأحمر هو الميدان الرئيسى لبريطانيا فى تلك الحرب ، فميدانها الأول الساحة الأوربية ، وفيها سيتقرر مصير الجانبين المتصارعين. كذلك فان هذا الميدان يخلو منقوة المانيا ، وهو القوةالرئيسية المعادية لبريطانيا ، فليس لالمانيا مستعمرات أو قوات برية أو بحرية على سواحل هذا البحر . وحتى لو حاولت المانيا انزال قوات برية أو بحريةلن تستطيع ذلك لوجود الأسطول البريطانى القوى الذى لا يغفل عن محاصرة سواحل البحر الأحمر حصارا قويا . ولكن بحكم وجود قوات تركية متمركزة على سواحل هذا البحر وعلى مقربة من مستعمرة عدن ، فان بريطانيا اتخذت من الاجراءات مايكفل سلامة مواقعها ، هذا فضلا عن الدفاع عن أصدقائها وحلفائها المجاورين لها . وحتى لو انتصرت فى هذا الميدان فلن يكون انتصارا حاسما يقرر مصير الحرب .

وكانت خطط بريطانيا الحربية التى وضعتها لمنطقة الشرق الأدنى ترمى الى تحقيق أمرين جوهريين : الأول « أن تحتل رأس الخليج الغربى فتحمى منابع الزيت ، وتمنع العدو من تأسيس مراكز بحرية تهددالمواصلات البريطانية مع الهند ، والثانى أن تحتفظ بهذه المواصلات مفتوحة عن طريق قنال السويس والبحر الأحمر » (١٧) .

وعلى ضوء هذين الاعتبارين كان تحركها المرسوم فى الخليج ، وفى شبه الجزيرة العربية ، وفى البحر الأحمر .

وكان هذان الاعتباران يمليان على بريطانيا الدخول فى مفاوضات مع الحكام العرب مستغلة عداءهم للدولة العثمانية ، والخلافات القائمةبينهم، لربطهم بسياستها ، حتى لايكونوا جبهة متحدة ضدها . وقد أوضح تقرير جاكوب لحكومة الهند فى ١٠ مارس ١٩١٦ الصعوبة الكبيرة التى تحول دون تحقيق اتحاد عربى مضاد للأتراك ، وذلك نظرا لأن « لكل رئيس عربى لعبته » (١٨) .

---

(١٧) حافظ وهبه : المصدر السابق ص ١٧١ .
(١٨) فاروق أباظة : المصدر السابق ص ٦٣٠ .

فمن ناحية الخليج كانت الأوضاع مستقرة بالنسبة لبريطانيا الى حد كبير ، فارتباطها بالكويت بمعاهدة حماية عام ١٨٩٩ ، وكذلك مشيخات الخليج ، ثم نجاحها فى عام ١٩١٥ فى كسب صداقة الملك عبد العزيز بن سعود ، كل ذلك جعلها فى مركز أفضل من وضع الأتراك العثمانيين فى العراق .

أضف الى ذلك أن المعاهدة الانجليزية السعودية عام ١٩١٥ قد شلت حركة الأتراك داخل شبه الجزيرة العربية فلم تستطع الدولة العثمانية الاتصال بقواتها فى اليمن عن طريق نجد ، لاسيما بعد اندلاع الثورة فى الحجاز ، وبذلك اشتدت وطأة الحصار المفروض على القوات التركية بشبه الجزيرة (١٩) .

ومن ناحية البحر الأحمر تطلعت بريطانيا الى الشريف حسين الذى تظاهر بولائه للدولة العثمانية التى كانت تشك فى اخلاصه ، ومن ثم فقد عينت وهيب بك واليا على الحجاز للقيام بمهمة التخلص منه (٢٠) . وكان البريطانيون يدركون مدى كراهية العرب للاتراك بصفة عامة والشريف حسين بصفة خاصة ، « وكثيرا ما لعبت برءوسهم فكرة استخدام الشريف حسين » (٢١) .

وجد المسئولون الانجليز فى الشريف حسين بغيتهم ، وذلك لمحاربة الأتراك العثمانيين بنفس سلاحهم . فاذا كان السلطان العثمانى قد أعلن الجهاد ضد بريطانيا ، فان اعلان الشريف حسين — بما يتمتع به من مركزا دينى كبير — الجهاد ضد الدولة العثمانية انما يبطل تأثير جهادها على مسلمى الامبراطورية البريطانية (٢٢) .

وقد تم لبريطانيا ما أرادت بعد اتفاقها مع الشريف حسين عام ١٩١٥ ،

---

(١٩) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٢٧٧ .
(٢٠) حافظ وهبه : المصدر السابق ص ١٥٨ .
(٢١) جرانت وتمبرلى : أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين جـ ٢ ، ص ٣١٠ .
(٢٢) صالح محمود منسى : موقف أهل الشام من التبعية للحجاز ابان الحرب العالمية الأولى — مجلة الشرق الأوسط ، العدد الثانى ص ٧١ .

واعلان الجهاد فى ١٠ يونية ١٩١٦ . وكان هذا الوقت مناسبا للانجليز ، وأدى لهم خدمة كبيرة (٢٣) . وتعهد الشريف حسين باشعال نار الثورة فى الحجاز وسوريا وعسير واليمن فى وقت واحد . وأثيرت فى ذلك الوقت فكرة قيام خلافة عربية فى مكة المكرمة — كنوع من الحرب السياسية — ليجد فيها مسلمو الهند بديلا عن الخلافة العثمانية . وكان لجاكوب (٢٤) رأى آخر فى هذا الموضوع ، فهو يقرر بأن انتقال الخلافة من السلاطين العثمانيين الى أشراف مكة ليس الحل الأمثل ، اذ سيترتب على هذه العملية حركة احياء دينى شبيهة بما أحدثته دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من قبل . ونظرا لقرب شبه الجزيرة العربية من الهند فان تأثير هذا الحدث سيكون خطيرا عليها . ولذا فهو يفضل بقاء الخلافة العثمانية تحتضر ، حتى ولو كانت فى ظل النفوذ الروسى ، على قيامها فى شبه جزيرة العرب شعلة الاسلام (٢٥) .

ويجاور الشريف حسين من ناحية الجنوب الادريسى فى منطقة عسير ، وهى منطقة هامة على ساحل البحر الأحمر ، وتجاور اليمن من ناحية الشمال ، وتركزت أنظار المسئولين البريطانيين عليه ، محاولين ضمه الى معسكرهم ، مستغلين عداءه للاتراك من ناحية ، وللامام من ناحية أخرى ، ولوجود قوات تركية كبيرة العدد فى اليمن يخشى بأسها . فكسب الادريسى لجانب الانجليز سيضع القوات التركية فى اليمن بين فكى كماشة ، أى بين عسير وعدن .

كانت معاهدة الادريسى مع بريطانيا فى ٣٠ أبريل ١٩١٥ هى أول معاهدة يعقدها البريطانيون مع أحد الزعماء العرب فى الحرب ، وتنص على شن حرب ضد الأتراك ، والعمل على طردهم من اليمن ، وباستخدام الانجليز لجزر فرسان فى الأعمال الحربية ، فى مقابل تعهد بريطانيا بحماية الادريسى وبمساعدته ماديا وعسكريا ، والسماح لسفنه بحرية الملاحة فى البحر الأحمر

---

(٢٣) جرانت وتمبرلى : المصدر السابق ح٢ ص ٣١١ .

(٢٤) جاكوب كان يشغل منصب المساعد الأول للمقيم السياسى البريطانى فى عدن خلال فترة الحرب .

(25) F. O. 371/2486 No. 16 Secret, Mark Sykes to F. O., Aden, Yuly 23 rd 1916 p. 89.

وبالاتجار مع ميناء عدن . ولكنها حذرت الادريسى من اثارة الامام يحيى فى اليمن ، حتى لايجد نفسه مضطرا للتحالف مع الأتراك .

استفاد الادريسى من تلك المعاهدة فائدة كبيرة ، فحصل على مايحتاج اليه من أسلحة وذخائر لدفع خطر الأتراك عن بلاده ، وفوق ذلك فقد تمتعت عسير بنوع من الرخاء نتيجة لفتح أبواب التجارة أمامها ، فى نفس الوقت الذى كان يعانى فيه اليمن ضائقة اقتصادية أخذت بتلابيبه ، نتيجة الحصار الشديد والطويل على موانيه من قبل الأسطول البريطانى .

ورأى البريطانيون أن يكافئوا الادريسى نظير خدماته واخلاصه لهم أن يبرموا معاهدة معه فى ٢٢ يناير ١٩١٧ يعترفون فيها باستيلاء الادريسى على جزر فرسان واعتبارها من ممتلكاته . ويذكر جاكوب بأن الادريسى أنزل علمه من على تلك الجزر خشية أنتقام الأتراك منه بعد انتهاء الحرب، وفى نفس الوقت تحرج من رفع العلم الإنجليزى عليها حتى لا يتهم ببيعها للانجليز .

وحقيقة الأمر أن البريطانيين لم يكونوا بحاجة الى رفع علمهم عليها لأن هذا يتعارض مع المعاهدة التى أبرموها مع الادريسى فى ٣٠ أبريل ١٩١٥ ، اذ كانت تنص فى أحد بنودها على عدم رغبة بريطانيا فى التوسع فى غرب شبه الجزيرة العربية ، فاذا ما أقدمت على رفع العلم ، فانها بذلك تكون قد أتت بما يتناقض مع نصوص تلك المعاهدة .

ويشكو المسئولون البريطانيون من قلة النشاط الحربى الذى يقوم به الادريسى فى أحد تقاريرهم ، والمؤرخ فى ١٠ مارس ١٩١٦ ، ويرجعون ذلك الى ترقب الادريسى لتحركات بريطانيا العسكرية فى ميدان اليمن وفى غيره من الميادين ، وذلك للقيام بتحرك مدروس يحقق له مصالحه الشخصية (٢٦)

العمليات الحربية فى شبه الجزيرة العربية وفى البحر الأحمر :

كانت المعارك التى دارت فى الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية محدودة ، اذا ما قيست بحجم القوات الموجودة لدى الطرفين

---

(٢٦) فاروق أباظة : المصدر السابق ص ٦٣٠ .

المتحاربين من ناحية ، وبمدة الحرب العالمية الأولى من ناحية أخرى . ومرد هذا — كما سبق أن ذكرنا — هو أن ميدان البحر الأحمر كان ميدانا ثانويا من جهة ، ولضعف القيادة التركية وتكاسلها من جهة ثانية .

تحركت بريطانيا على الجهتين الشمالية والجنوبية — أى جبهتى مصر واليمن — فى وقت واحد . فبالنسبة للجبهة الشمالية قامت بريطانيا بتعزيز حاميتها فى مصر ، وأعلنت الحماية عليها ، وفرضت الأحكام العرفيـة فى البلاد ، وقامت بخلع الخديو عباس الثانى لنزعته التركية ، وضمت جزيرة قبرص التى تحمى مدخل القنـاة من الشمال . وفى فبراير ١٩١٥ نجحت فى صـد هجوم جمال باشا على القنـاة من ناحية الشرق ، وبذلك تمكنت من ابعاد الخطر التركى عن شمالى البحر الأحمر .

أما بالنسبة للميـدان الجنوبى فقد عملت على تـدعيم قواتها البرية والبحرية فى منطقة عدن وفى جزيرة بريم ، واشـتركت مع الادريسى فى الاستيلاء على ميناء اللحية فى اليمن فى يونية ١٩١٥ ، ولـكنها لم تستطع الاحتفـاظ به . وكان رد الفعل المضـاد من جانب الأتراك ضرب معسكر « دير حسين » التابع للادريسى ونهبه والاستيلاء عليه (٢٧) .

ونظراً للحصار الشديد الذى فرض على القوات التركية فى اليمن، أن عانى الجيش والأهالى من جراء ذلك الشىء الكثير . ويذكر الواسعى فى أحداث عام ١٣٣٣ هـ (١٩١٤م) قوله « واشتدت الحرب العظمى ،وامتنعت القطارات والبـواخر البحـرية ، وأصـاب النـاس ضرر شديد بسبب ذلك » (٢٨) . ولم يكن أمام تلك القوات للخروج من تلك الحلقة المحكمة الا أن تندفع نحو الجنوب الى سلطنة لحج والنواحى التسع للاقامة فيهاوالتزود من خيراتها . وفى نفس الوقت الاقتراب من عدن وتهديدها والضغط على حاميتها . وتم لهم ذلك فى يولية ١٩١٥ ،ولم تفلح محاولت بريطانياالاخراجهم منها الى أن انتهت الحرب . وقد أدى سـقوط لحج فى أيدى العثمانيين ،

---

(٢٧) محمد بن احمد عيسى العقيلى : المخلاف السليمانى أو الجنوب العربى فى التاريخ حـ٢ ص ١٠٩ .

(٢٨) عبد الواسع بن يحيى الواسعى : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ص ٣٢٩ .

ونجاحهم فى الاحتفاظ بها ، الى تدهور هيبة البريطانيين لدى أصدقائهم وحلفائهم من زعماء العرب ، كما اعترف بذلك جاكوب فى تقريره (٢٩) .

ويذكر العبدلى أن قائد القوات البريطانية فى عدن قد برر عجز القوات البريطانية عن استرداد لحج أو الحيلولة دون سقوطها فى أول الأمر ، باتساع جبهة القتال ، وبأولويات جبهات القتال المختلفة ،وباعتقاده أن جبهة فرنسا هى التى ستقرر مصير الحرب ، وليست الجبهة العربية(٣٠)

واذا أمعنا النظر فى هذا التبرير نجد أنه يشتمل على جانب كبير من الحقيقة . زد على ذلك أن ما يمكن أخذه دون سفك دماء ، من العبث أن يراق الدم من أجله ، خصوصا عندما أعلنت الثورة فى الحجاز فى منتصف عام ١٩١٦ وبدت بشائرها محققة لآمال الانجليز .

ولا نجد — بعد استيلاء الأتراك على لحج — معارك ذات قيمة تذكر، اللهم الا بعض المناوشات المتبادلة بين الجانبين .

أما جبهة الحجاز ، فما أن قام الشريف حسين بالثورة فى ١٠ يونية ١٩١٦ ، معلنا الجهاد ضد الاتحاديين ، ومتهما لهم بالخروج على الشريعة الاسلامية ، الا وسقطت مدن الحجاز — فيما عدا المدينة المنورة — فى يد قوات الشريف حسين فى أقل من ثلاثة شهور . ثم اندفعت شمالا الى العقبة — بعد أن حطمت سكة حديد الحجاز — واستولت عليها فى ٦ مايو ١٩١٧ ، حيث أصبحت مركز العمليات الحربية فى شرق الأردن . وأعقب ذلك استيلاء اللنبى بمساعدة العرب على مدينة القدس فى ٩ ديسمبر ١٩١٧ ، وبلغ المد العربى العسكرى مداه باحتلال دمشق فى أول أكتوبر ١٩١٨ .

حدث هذا فى شمال شبه الجزيرة العربية ، بينما نجد أن الجبهة الجنوبية فى اليمن كانت هادئة . ويبدو أن كلا من الأتراك والانجليز قد قنع بما تحت يده ، انتظارا لما تسفر عنه الحرب فى الميدان الأوربى .

---

(٢٩) فاروق اباظة : المصدر السابق ص ٦٢٨ .
(٣٠) العبدلى : المصدر السابق ص ٢٢٩ .

وأدى هذا الانتظار الذى استمر قرابة السنتين الأخيرتين من الحـــرب الى ايجاد نوع من التفاهم وتبادل المصالح فى حدود ضيقة .

وعندما انهارت مقاومة دول الوسط فى أوربا، طالبت الدولة العثمانية بالهدنة ، وتم ذلك فى هدنة موروس (٣٠ أكتـــوبر ١٩١٨) ، وتنص على انسحاب القوات العسكرية والادارة المدنية من شبه الجزيرة العربية .

وخلاصة القول فقد أظهرت سياسة بريطانيا الحربية فى البحر الأحمر مدى الترابط بين الجبهة العسكرية فى مصر التى تقع على الباب الشمالى لهذا البحر ، والجبهة الجنوبية فى عدن التى تتحكم فى مدخله الجنـــوبى ، فعنـــدما هاجم الجنرال اللنبى الأتراك فى فلسطين ، قام الانجليز فى‌نفس الوقت بضرب ميناء الحديدة .

وقـــد اتضح هذا الترابط أيضا فى الخطة الحربيـــة التركية أيضا ، فحينما هاجمت قواتهم مصر بقيادة جمال باشا فى عام ١٩١٥ ، قامت‌قواتهم فى نفس الوقت فى اليمن بضرب مواقع الانجليز وحلفائهم فى الجنوب .

كما استطاعت بريطانيا أن تدير عملياتها العسكرية بنجاح اعتماداعلى بعض الحلفاء من العرب ، وعلى قوات برية قليلة العدد جيدة العدة ،وتفوق بحرى حاسم . وأثبتت تلك العمليات أن التفوق فى البحر يتحكم الى حـــد كبير فى سير المعارك فى البر .

وأثبتت أيضا أن عدن رغم‌خضوعها من الناحيتين السياسيةوالعسكرية لحكومة بمباى الا أن سير القتال قـــد أثبت ارتبـــاطها بالقيادة العسكرية الانجليزية بمصر أكثر من ارتباطها بالهند .

٢٤

البحر الأحمر والسياسة الدولية

فى نهاية القرن التاسع عشر

١٨٨١ — ١٨٩١

د. محمد عبد الرحمن برج
كلية التربية — جامعة المنوفية

احتدم التنافس الدولى بين انجلترا وفرنسا وايطاليا فى حوض البحر الأبيض المتوسط فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، خاصة فى أعقاب تسلط بريطانيا على قبرص وفرنسا على تونس ثم احتلال انجلترا لمصر . ولعبت ايطاليا دورا هاما فى هذه التطورات الكبرى التى لم تحرز من ورائها شيئا ، وفى سنة ١٨٨٣ سعى بسمارك الى التفاهم مع انجلترا على استعمار المانيا لأجزاء من افريقية وأن تتنازل انجلترا لها عن جزيرة هليجولاند . وكان من شأن تصلب بريطانيا أن حدث تقارب بين العدوتين المانيا وفرنسا . وزاد ضغط روسيا على انجلترا مما جعل الأخيرة تتقرب من ايطاليا وتسمح لايطاليا بالتوسع فى مصوع وفى كسلا.

وشرعت الحكومة الايطالية فى وضع خطة واسعة النطاق للتوسع الاستعمارى من مصوع على ساحل البحر الأحمر حتى تصل بممتلكاتها الافريقية الى طرابلس على ساحل البحر المتوسط . فمدت ايطالياحمايتها على الحبشة ١٨٨٩ وتوصلت الحكومتان البريطانية والايطالية الى تسوية خلافاتهما فى سنة ١٨٩١ بأن ابتعدت ايطاليا عن مناطق النفوذ الانجليزى (مصر والسودان) وباحتلال ايطاليا لكسلا وتم ذلك فى سنة١٨٩٤ .

ويؤكد هذا البحث القول الذى نادى به مانشينى — السياسى الايطالى وهو أن مفاتيح البحر المتوسط توجد فى البحر الأحمر .

* * *

تعتبر فترة العقد التاسع من القرن التاسع عشر من أهم الفترات فى تاريخ البحر الأحمر فى العصر الحديث . فلقد شهدته هـذه الفترة يلعب دوره فى السيا الدولية بشكل واضح ومؤثر . كان واضحا ان كل حدث فى البحر المتوسط له صداه فى البحر الأحمر والعكس صحيح .

ويستهدف هذا البحث ابراز الصلة بين الأحداث التى كانت تجرى على شواطىء البحر المتوسط بتلك التى شهدتها شواطىء البحر الأحمر فى هذه الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر .

فعلى شواطىء البحر المتوسط تبـدأ هذه الفترة باحتلال فرنسـا لتونس ١٨٨١ . وكان لهذا الاحتلال دوره وتأثيره على العلاقات الدوليـة الأوربية . فمنذ احتلال فرنسا للجزائر سـنة ١٨٣٠ وهى ترنو ببصرها تجاه تونس الجارة الشرقية للجزائر . ودار سباق على أشـده بين كل من فرنسا وايطاليا حول من تؤول له تونس . كانت ايطاليـا التى تمت وحدتها السياسية فى عام ١٨٧٠ تشعر أن عليها أن تبحث عن نصيبهافى مغنم من مغانم افريقيا . ولم يكن هناك أقرب أو أهم من تونس . وحين سنحت الفرصة أمامها فى سنة ١٨٧٨ لم تستغلها . فقد عرضت النمسا آنذاك أن تؤيدها ايطاليا فى احتلالها للبوسنه والهرسك مقـابل أن تقوم النمسا بتأييد ايطاليا فى احتلال طرابلس أو تونس . لكن كورتى Corti وزير الخارجية الايطالية لم يستغل الفرصة ، وقيل أنه كان ضد سياسة المساومات والتعويض .

وجاء مؤتمر برلين وثارت فرنسا لنبـأ اتفاقيـة قبرص بين انجلترا وفرنسا ونشرت الصحف الاتفاقية وكانت أكثر الصحف هجوما عليه صحيفة (كونستتساتيونل) التى وصفت انجلترا بأنها تاجرة بالأقاليم والشعوب . وذكرت صحيفة (يونيون) أن انجلترا قد أذلت فرنسا اذلالا لايقل عمـا أصابها فى معركة سيدان . أما صحيفة (ريبليك فرانسيز) لسـان حال جامبتا زعيم الجمهوريين فقالت : لقد أخذت انجلترا قبرص تحت زعم حماية تركيا . ان لنا الحق أن نقف فى صلابة ضد سياسة لا تهتم بمصالح دول البحر المتوسط والتى تجرح كرامة كل أعضاء المؤتمر . وأمام ثورة فرنسا على هذا النحو سعى كل من بسمارك وسولسبرى لمحـاولة ارضـائها ، الأول حتى ينسيها مرارة الهزيمة التى حازها الألمان عليهم والثانى ضمانا

لعدم معاداة فرنسا وهى الدولة الأوربية التى لها مكانتها فى البحرالمتوسط خصوصا بعد فشل (عصبية) البحر المتوسط وعدم أمكان الاعتماد على وزارة كيرولى الايطالية .

لذلك أعلنت انجلترا لفرنسا أنها مستعدة أن تعترف بمصالح فرنسا فى البحر المتوسط وفى لبنان وفى الأراضى المقدسة وكذلك فيما يتعلق برعاية الكاثوليك فى هذه المناطق (١) .

ويذكر المؤرخون ان انجلترا أكدت لفرنسا ان لها الحق أن تفعل ماتشاء فى تونس لأنها ستضطر يوما الى الاستيلاء عليها ولا تستطيع ترك قرطاجة فى يد البرابرة .

ومن المعروف أن وادنجتن وزير خارجية فرنسا طلب من ليونس سفير انجلترا فى باريس تأييدا كتابيا يقرأه على الجمعية الوطنية الفرنسية حين انعقادها . لكن سولسبرى غضب من ذلك اذ كيف يعتبر وادنجتن أن تونس ملك شخصى لسولسبرى حتى يعطيه هذا التفويض . وبعد استشارة مجلس الوزراء الانجليزى وخوفا من أن تنضم فرنسا لروسيا طلب الوزير الانجليزى أنيصوغ الوزير الفرنسىعباراته بأسلوبدبلوماسى ليرد عليه الوزير الانجليزى برسالة دبلوماسية واشترط أن تكون الرسالة سرية لا تنشر الا بعد موافقة انجلترا (٢) .

وشهدت السنوات التالية ١٨٧٨ ـ ١٨٨١ صراعا بين كل من فرنسا وأيطاليا حول من تكون له تونس . واذا كان الحديث عن هذا الصراع خارجا عن نطاق هذا البحث فان المهم هو أن فرنسا ظفرت آخر الأمر (بالكمثرى) التونسية (٣) .

---

(1) Cecil (Lady Green Dolen) : Life of Lord Salibury (London 1932) Vol. 2. p. 352.

(2) F. O. 27 (2312) Lyons despatch No. 617 Paris Angust 6 - 1878.

(٣) كلمة الكمثرى التونسية جاءت على لسان بسمارك (لوادنجتن) وزير خارجية فرنسا قال له عقب مؤتمر برلين ان الكمثرى التونسية ناضجة .

أحدث احتلال فرنسا لتونس ثم فرضها الحماية عليها موجة غضب كبيرة فى ايطاليا حيث سقط كيرولى رئيس الوزارة الايطاليـة . وكانت فرنسا قـد وجهت انذارهـا لبـاى تونس عن طريق قنصلها فى تونس (روستان) فى ابريل ١٨٨١ والذى تضمن تصميم الحكومة الفرنسـية على تأديب القبـائل التونسية التى زعمت فرنسا انها أغارت على الحدود الجزائرية الشرقية . وحاول كيرولى أن يحصل على اشتراك انجلترا معه فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لتونس ولكن جهوده ضاعت سدى . بل ان جرانفل وزير خارجية انجلترا أوضح للايطاليين ان فرنسا لاتنوى ضـم تونس بل كل ماستقوم به هو مجرد حملة ضد القبائل المعتدية .

لم يكن من المتوقع أن تدخل انجلترا فى صراع مع فرنسـا من أجل ايطاليا بسبب تونس ، فقد كانت تحتاج الى العون الفرنسى وتنشده فى حملتها على مصر . فى نوفمبر ١٨٨١ سقطت وزارة جول فرى الذى كان يتولى وزارة الخارجية فيها المسيو بارثلمى سانت هيلير . وكان سانت هيلر حريصا على مبدأ عدم التدخل فى شـئون مصر الداخلية . وجاءت وزارة جامبتا واحتفظ لنفسه بوزارة الخارجية الفرنسية .

كان جامبتا متبنيا لسياسة التعاون مع انجلترا بالنسـبة للمسـألة المصرية . لـكن بقـاءه فى الوزارة الفرنسـية لم يطل ففى ٢٦ ينـاير ١٨٨٢ جاء مكانه فريسنيه . ويقول المسيو كوشيرى فى كتابه المركز الدولى لمصر والسودان ، ليس هنـاك كلام من جامتبا أحسن مما قاله وادنجتن عنه فقد كان (جامتبا) يفهم مصالح فرنسا ولكن مدته القصيرة فى الوزارة لم تسمح له أن يتم بنهاية حسنة ما كان قـد بدأه فى أول الأمر ، فاذا كانت انجلترا قـد أبدت بعض التردد فيما اقترحه جامتبـا (بالنسـبة للمسألة المصرية) فلأنها تعرف أن الوزير الفرنسى لا يطول بقاؤه (٤) .

وتتابعت الأحداث فى مصر على نحو ما هو معروف واحتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ وحرصت فى الوقت نفسه على كسب تأييد فرنسا . ولم يكن هذا أمرا سهلا بسبب سياسة التردد التى اشـتهر بها فريسنيه

---

(4) Cocheris (Jules) Situation interrationale de l'Egypte du Sudan (Paris 1903) p. 93.

ومما كان من خذلان الجمعية الوطنية الفرنسية له وما كان من نقد كلمنصو له حين أوضح أنه لا يجدر بفرنسا أن تبعثر قواتها فى مناطق مختلفة من العالم فى الوقت الذى تحتفظ فيه كل الدول بقواتها مجتمعة فى أراضيها(٥)

أما ايطاليا التى كانت لها رئاسة مؤتمر الاستانة الذى عقد للنظر فى المسألة المصرية بصفة أن سفيرها كورتى الموجود فى عاصمة الدولة العثمانية كان أقدم السفراء فقد اقترحت على الأعضاء بجلسة ٢٧ يونيو ١٨٨٢ أن تمتنع الدول عن التدخل فى شئون مصر مادام المؤتمر منعقداً . وأخذ اللورد دوفرين يلح فى وضع تحفظ على هذا القرار حتى قرر المؤتمر اضافته وهو (فيما عدا الأحوال القهرية) . وفى ١٠ أغسطس وافقت الدول على اقتراح الكونت كورتى الذى يقضى بتنظيم حرية استخدام قناة السويس باشراك الباب العالى بأن يكون هناك قوة بحرية دولية للاشراف عليها وأن تشترك الدول فى هذه القوة طبقاً لنظام يوضع لذلك . ووافقت المانيا والنمسا والمجر وروسيا على هذا الاقتراح .

وفى ٣٦ يوليو ١٨٨٢ كانت انجلترا قد اقترحت على ايطاليا أن تتدخل معها فى احتلال قناة السويس ، لكن ايطاليا قدمت اقتراحها السابق الاشارة اليه والذى كان يتضمن اشراك كل الدول فى هذه الحماية .

كان مانشينى رئيس وزراء ايطاليا رأيه الخاص فى المسألة المصرية وهو أن لاتنفرد احدى الدول باحتلال مصر ، وانما يجب أن يكون هذا التدخل اجماعيا من جانب الدول الأعضاء فى المؤتمر . وأعلن مانشينى كذلك أن ايطاليا تقترح لضمان حياد القناة وضعها تحت اشراف لجنةأوربية على نحو ماهو الحال لنهر الدانوب (٦) .

وكان الفريق الأيطالى المؤيد للتدخل الانجليزى فى مصر يرى فى

(5) Ibid. pp. 305 - 312.

(٦) الأرشيف النمسوى بالقلعة
Archuves Politiques 1882. Fas C-XXXI 123 question Egyptienne : Rapport No. 30 Reserve.

دعوة انجلترا فرصة ذهبية للتدخل لتحقيق أطماع ايطاليا فى شواطىء البحر المتوسط . وأخذ كريسى يحث الحكومة ويرسل الى مانشينى ان السياسة الحكيمة تقضى بقبول الدعوة البريطانية . لكن مانشينى لم يشترك مع انجلترا خوفا من اغضاب فرنسا وأن تنتهز حكومة فرنسا فرصة اشتراك ايطاليا وتعمد الى الاعتداء على السواحل الايطالية . وبعد نجاح احتلال بريطانيا لمصر هنأتها الحكومة الايطالية .

ومن المعروف أن انجلترا اتصلت بايطاليا مرة أخرى فى ٢٦ يوليو ١٨٨٢ تدعوها للمشاركة فى التدخل ، وكان رد ايطاليا أنها ترفض التدخل لأن تركيا على وشك أن ترسل قواتها الى مصر وان وضع انجلترا يختلف عن وضع ايطاليا لأن انجلترا وضعت أقدامها فى مصر فعلا . وكان تعليق جرانفل على ذلك ان الايطاليين لايريدون اغضاب تركيا ويريدون أن يكسبوا نفوذا يعوضهم عن خسارة تونس .

وكانت ايطاليا بعد احتلال فرنسا لتونس قد مضت جاهدة فى البحث عن حلفاء لها وهو الأمر الذى حالفها التوفيق فيه بتحالفها مع كل من امبراطورية النمسا والمجر والمانيا ووقعت معاهدة التحالف الثلاثى بين هذه الدول الأوربية فى ٢٠ مايو ١٨٨٢ (٧) . وكانت ايطاليا تريد أن يتسع التحالف لتنضم اليه انجلترا لأنها كانت توقن أن سواحلها الطويلة فى البحر المتوسط بحاجة الى تحالف مع انجلترا لحماية هذه السواحل . لكن النمسا والمجر أو المانيا لم توافقا ايطاليا فيما رأته فلم تنضم انجلترا الى هذا التحالف .

وفى هذه السنوات بدأت المانيا تفكر فى أن تأخذ حظها من المستعمرات الأفريقية ، لكن السياسة الانجليزية كانت ضد منح المانيا مزايا استعمارية . كانت المانيا تبحث عن مستعمرات لتصدير منتجاتها . وكانت أفريقيا القارة السوداء قد بدأت تثير شهوة المستعمرين منذ منتصف القرن التاسع عشر على وجه الخصوص فالملك ليوبولد الثالث

---

(7) Langer : European Alliances p. 244.

ملك بلجيكا أصبحت عيونه منذ سنة ١٨٧٦ مركزة على افريقيـــة وبالذات على حوض الـــكونغو بعد اكتشاف ستانلى له (٨) .

وأمام تصلب انجلترا رأى بسمارك أن يحكم الحلقة فى عزل انجلترا ورأى أن أحسن سبيل الى ذلك هو العمل مع فرنسا . وكانت مصر أحسن مجال للتعاون بين الدولتين (٩) .

وكانت سنتا ١٨٨٣ ، ١٨٨٤ من أصعب السنوات لانجلترا فى مصر

يقول ملنر فى كتـــابه (انجلترا فى مصر) England in Egypt ان مشاغل انجلترا فى مصر كانت كثيرة سواء فى أمورها الديبلوماســـية أو الحربية أو السياسية أما سوء الأمور التى كانت تشغلها فهى الحـــالة المالية فى مصر وكيفية تنظيمها وهى مسألة لا يمكن أن تحل الا بتعـــاون الدول معها .

ويقول لورد كرومر فى كتابه مصر الحديثـــة Modern Egypt ان مصاعب مصر ومتاعبها زادت نتيجة أحداث السودان (١٠) .

وقررت وزارة سولسبرى التى جاءت الى الحكم يونيو ١٨٨٥ معالجة المسألة المصرية بالصورة التى يمكن بها ارضاء البـــاب العالى حلا للأزمة التى أوجدتها انجلترا مع تركيا باحتلالها مصر (١١) . كذلك شعرت حكومة سولسبرى انسمعتها أصيبت بانهيار شديد بعد عجزها عن انقاذ غوردون ومقتل هذا الأخير وسقوط الخرطوم فى يد المهـــديين . كذلك أرادتحكومة سولسبرى استرضاء فرنسا وروسيا فقد كانت كل منهما تعارضالسياسة الانجليزية معارضة شديدة . وخشيت حكومة سولسبرى أن تتحد أوربا بأسرها فى معارضـــة النظام القائم فى مصر . ثم انه كان أيضـــا على

---

(8) Ibid : p. 297.

(9) Milner : England in Egypt pp. 90 - 101.

(10) Cromer : Modern Egypt pp. 746.

(١١) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان تاريخ وحدة وادى النيل فى القرن التاسع عشر ص ٤٢٨ .

حكومة سولسبرى أن تختار بين أمرين اما أن تتحمل مسئوليات الادارة بأكملها وتقوم بسداد كل المطالب المالية فى مصر وأما أن تتهيأ للجلاء عن البلاد بشرط ضمان مشترك يحصل بالاتحاد مع الباب العالى لتأمين سلامة مصر . ولم تكن حكومة سولسبرى مستعدة أن تتحمل كل المسئوليات الادارية والمالية فى مصر (١٢) .

وعملت الحكومة البريطانية على ارضاء الباب العالى فوعدت فى محادثات درمندولف بالجلاء عن مصر . ومن المعروف أن مفاوضات ولف لم تكلل بالنجاح خاصة بعد أن ترك سولسبرى السلطة فى ٣٠ يناير١٨٨٦ وحين جاء جلادستون الى الحكم فى السادس من فبراير من نفس العام لم يقدر للمفاوضات بين انجلترا وتركيا أن تتقدم خطوة كذلك كان الفشل مصير ماجدثات ولف الثانية فى يناير ١٨٨٧ . وكان للمعارضة الفرنسية الروسية دورها فى فشل هذه المحادثات . وحين رفض السلطان التصديق على الاتفاق الانجليزى التركى خاصة فى مادته الخامسة قرر سولسبرى البقاء فى مصر (١٣) .

التقارب الانجليزى الايطالى واثره فى البحر الأحمر :

كانت المسألة المصرية أحد المجالات التى أستخدمتها فرنسا للضغط على انجلترا وكذلك كان الحال بالنسبة لألمانيا أو روسيا . وهذا يفسر أحد أسباب التقارب الذى بدا واضحا بين كل من انجلترا وايطاليا وهو الأمر الذى تمكنت ايطاليا بفضله أن تبسط نفوذها على مصوع ١٨٨٥بعد احتلالها لكل من عصب وبيلول التى تقع شماليها ثم توسعها فى السودان الشرقى حتى كسلا .

انتقل نشاط الايطاليين من شواطىء البحر المتوسط الى شواطىء البحر الأحمر فى تلك الفترة . فقد كانت ايطاليا تجيش بها رغبة قوية فى أن تلحق بنصيبها فى المستعمرات . وكان هناك ضغط على الحكومة الايطالية لتعوض مافقدته باحتلال فرنسا لتونس . وجاء هذا الضغط الاستعمارى من الجنوب الايطالى بصفة خاصة وكان هذا أمرا حتميا

---

(١٢) المرجع السابق : ص ٤٢٨ .

(13) Marlow : Cromer in Egypt p. 119.

فالفلاحون فى صقلية الذين لا أملاك لهم كانوا يشكلون أكبر نسبة من السكان الأوربيين فى تونس فى السبعينات من القرن الماضى . لكنه فى الثمانيات كانت المشكلة أكثر تعقيدا . فقد أغلق الفرنسيون أبواب تونس أمامهم واستاء المزارعون الايطاليون . وبدأ الساسة الايطاليون فى سنتى ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ يتحدثون عن التوسع الاستعمارى وأصبحت هناك منذ سنة ١٨٨٤ مجموعة استعمارية فى مجلس النواب الايطالى تطالب الحكومة بالتوسع والامتلاك (١٤)

وعندما أشيع فى ابريل ١٨٨٤ ان فرنسا على وشك أن تأخذ مراكش بدأ نوع من الذعر داخل ايطاليا . وفى نوفمبر من نفس العام بدا أن الدول الأوربية سوف تقتسم أفريقيا فيما بينها أثار ذلك سخط الشعب فى ايطاليا ودفع بالحكومة الايطالية أن تأخذ موقفا حاسما وعندما أحجمت فرنسا عن أخذ مراكش نتيجة انشغالها فى الهند الصينية أصبح لدى ايطاليا التى استعدت بقواتها لمواجهة هذا الأمر — جيش جاهزا .

كان مانشينى يرمى من وراء احتلال مصوع الى نشر النفوذ الايطالى على سواحل البحر الأحمر بالاتفاق والتعاون مع بريطانيا ثم التوغل فى السودان المصرى غربا الى دارفور حتى يصل النفوذ الايطالى تدريجيا باتجاهه شمالا الى اقليم طرابلس وبذلك تستطيع ايطاليا أن تبسط سيطرتها على سواحل البحر المتوسط الجنوبية . ومعنى ذلك ان مفاتيح البحر المتوسط توجد فى البحر الأحمر .

لكن المشروع كان صعب التنفيذ ، فالسياسيون أمثال كريسبى كانوا يؤمنون أن سواحل البحر المتوسط هى المكان الطبيعى لنشر النفوذ الايطالى . فاذا تعذر البدء بامتداد النفوذ الايطالى فى شمال افريقية فيمكن البدء بذلك على سواحل البحر الأحمر .

ولقد نتج عن سقوط الخرطوم فى يد المهديين ثم انسحاب حملة الانقاذ (أى الفترة بين يناير ويوليو ١٨٨٥) ضياع سائر ممتلكات مصر فى السودان باخلائها والجلاء عنها وذلك اما لتخضع هذه الأملاك لسلطان

---

(١٤) حراز : التوسع الايطالى فى شرق افريقية ص ٤٤ .

المهديين ، واما لتستولى عليها الدول (المتسابقة) على امتلاك افريقيــة واقتسامها فيما بينها . ففقدت مصر أملاكها فى بحر الغزال وسنار ودارفور وخط الاســتواء وفى الســودان الشرقى وفى ســاحل البحــر الأحمر والصومال وهرر .

وجاءت الفرصــة لأيطاليــا لأخذ مصوع . فقــد أبرق من ســواكن الكلونيل تشرمسيد Chermside فى ٢٢يناير ١٨٨٥ يطلب من المسئولين فى القاهرة اتخاذ قرار سريع بشأن مصوع التى سادت فيها الفوضى . ولــكن الحكومة المصرية كانت عاجزة عن فعل شىء وصارت المسألة الآن هى النظر فمن يكون له احتلال مصوع بعد أن يخليهــا المصريون . كان الطليان قــد احتلوا منذ ١٨٦٣ و ١٨٧٠ عصب وهم فى السنوات الأخيرة مهتمون بتأســيس مستعمرات لهم حتى يتســاووا مع الــدول العظمى الأستعمارية ولذلك فهم يخشون أن يستولى غيرهم على مصــوع وبدأوا يجسون نبض الانجليز فى هذه المسألة .

ولــما كانت انجلترا فى مأزق من تصرف فرنسا معها بسبب المسألة المصرية فقد أرادت أن تستخدم ايطاليا (كلب الحراسة) على حــد قول أحد المؤرخين .

كانت الحكومة البريطانية مهتمة خلال هذه الفترة بانقــاذ الحاميات المحاصرة فى السودان الشرقى وكان من أجل هذا الغرض ايفادها لبعثة السير وليم هويت من قبلها ومازون بك محافظ مصوع وهو أحد الضابط الأمريكان فى خدمة الجيش المصرى بالنيابة عن الخــديوية المصرية لابرام معاهدة مع نجاشى الحبشة . وقــد تم ابرام هذه المعاهــدة بالفعل فى عدوه فى ٣٠ يونيو ١٨٨٤ وصــادقت عليها بريطانيا فى ٤ يوليو ومصر فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤ (١٥) . وقــد تعهد يوحنــا نجاشى الحبشة بمقتضى المــادة الثالثة من هذه المعاهدة بأن يسهل لجيش الخديوى المعظم الانسحاب من كسلا وعمديب وسنهيب واجتيــاز أثيوبيا الى مصوع .وتم بفضل تعــاون الأحباش انسحاب حامية القلابات التى احتلها الدراويش كذلك أخليت سنهيت وعمديب وكذلك انسحبت حامية الجيرة فى ٨ يوليو ١٨٨٥ ووصلت الى مصوع فى أوائل فبراير من العام التالى .

---

(١٥) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٣٦٦ .

تبع ذلك انسحاب المصريين من هرر التى فتحها منليك الثانى وضمها للحبشة . أما زيلع فقد سألت الحكومة البريطانية بواسطة سفيرها فى الاستانة الحكومة العثمانية فى ١٤ مايو ١٨٨٤ أن تبادر هذه الحكومة باستئناف ممارسة حقوق السيادة على الموانى المصرية على ساحل البحر الأحمر فورا وأن يحتل جنود عثمانيون هذه الموانى . ثم عادت فطلبت فى ١٧ يوليو ١٨٨٤ من الباب العالى أن يتخذ الخطوات الضرورية لفرض سيطرته على مينائى تاجوره وزيلع بمجرد انسحاب الجنود المصريين منهما. ولكن الباب العالى آثر التسويف . وبرغم أن التعليمات صدرت الى دوفرين أن يبلغ الباب العالى أنه اذا لم تكن الحكومة العثمانية متهيئة لاتخاذ الخطوات الضرورية لاحتلال زيلع فسوف يكون ضروريا أن ترسل حكومة جلالة الملكة قوة اليها (زيلع) للمحافظة على النظام ، ولما لم يعر الباب العالى هذا التحذير أى التفات نزلت بها القوات البريطانية وحتى سنة ١٨٨٧ بقيت القوات السودانية المصرية تحتل زيلع لحساب الانجليز ثم أنزل الراية المصرية نهائيا عنها فى أكتوبر ١٨٨٨ (١٦) .

أما تاجوره فاحتلها الفرنسيون كما هو معروف وضمت نهائيا لفرنسا فى أوائل مايو ١٨٨٤ . وأما بالنسبة لمصوع فقد تسلمها الايطاليون فى ٦ فبراير ١٨٨٥ وانسحبت منها الحامية المصرية عائدة الى مصر .

كتب اللورد جرانفل الى سفيره فى روما فى ٢٢ ديسمبر ١٨٨٤ أنه أبلغ السفير الايطالى فى لندن أن حكومة جلالة الملكة راغبة فى ارضاء مشاعرنا الودية نحو ايطاليا بكل الوسائل وأنه قال لهذا السفير ان الحكومة المصرية عاجزة عن الاستمرار فى التمسك بكل ساحل البحر الأحمر الأفريقى . وفى هذه الظروف تعود الموانى بطبيعة الحال الى تركيا وأبدى أن الحكومة البريطانية لا تملك منح أحد أرضا لا تملكها . فاذا شاءت الحكومة الايطالية احتلال بعض الموانى موضع المذاكرة ، فان هذه مسألة بين ايطاليا وتركيا . ولكنه استطاع تعريف السفير أنه فيما يتعلق بحكومة جلالة الملكة، ليس لديها أية اعتراضات على احتلال الاطياليين لموانى زولا وبيلول أو مصوع .

---

(١٦) المرجع السابق ص ٣٦٩ .

وبقى على ايطاليا أن تنتحل السبب لاحتلال مصـــوع . فزعمت أن بعض رجالتها المستكشفين الذين اغتالتهم احدى القبـــائل فى ســـاحل الدناكل مرجعه ضعف النفوذ الايطالى فى ساحل البحر الأحمر الغربى . ويتضح ذلك من برقيـــة مانشينى فى ١٣ يناير ١٨٨٥ الى الـــكونت كورتى سفير ايطاليا فى القسطنطينية أن مذبحة حملة أو بعثة بيانكى (١٧). هى التى اضطرتنى الى تدعيم نفوذنا وسلطتنا على ساحل البحر الأحمرالغربى بارسال حامية الى بيلول تكون فى استطاعتها بطريقة مباشرة كبح جماح الدناكل .

وتم احتلال بيلول الواقعة شمال عصب فى الخامس والعشرين من الشهر نفسه (يناير ١٨٨٥) ثم تبع هذا احتلال ايطاليا لمصوع فى الخامس من فبراير من نفس العـــام بقوة عسكرية تقدر بحوالى الف رجل . وقد جاء احتلال الايطاليين لمصوع عقب ما أوضحه الانجليز لهم فى الرسالة التى بعث بها جرانفيل الى السفير الانجليز فى رومه والتى سبقت الاشارة اليها والتى تضمنت أن الحكومة البريطانية لايثير اهتمامها احتلال زولا أو بيلول أو مصوع لأن هذه الموانى وقد تخلت عنها مصر انما تعود الى تركيا، وللطليان أن يتفقوا بشأنها مع الباب العالى .

وفى أول فبراير ١٨٨٥ سلم دى مارتينو قنصل ايطاليا العام فى مصر الى نوبار باشا مذكرة جاء فيها : ان حكومة جناب الخديو لايمكن أن تجهل أن الاضطرابات التى تظهر تنتشر فى مناطق ساحل البحر الأحمر الغربى كله تعتبر خطرا على مستعمراتنـــا فى عصب وتهدد أمن رعايا صـــاحب الجلالة ملك ايطاليـــا الذين يقيمون فى أماكن مختلفة على الساحل . لقد حزنت ايطاليا من قبل على مقتل بعثـــة جيوليتى دون أن تستطيع عقـــاب الجناة كما تأثرت أيضا لمقتل بعثـــة بيانكى على حدود منطقة مصوع وبلاد الدناكل وان حكومة صـــاحب الجلالة لا تستطيع أن تقف مكتوفة الأيدى ازاء هذه الأحوال . ولذلك فانى أطلب باسم حكومة صاحب الجلالة ملك ايطاليا من حكومة جناب الخديو أن تتحمل كليا مسئولية ضمان رعاية كل

---

(١٧) بيانكى هو رئيس البعثة الكشفية التى أوفدتها جمعيـــة ميلانو الـــكشفية للبحث عن طريق تجارى عبر بلاد الدناكل يربط أقليم الحبشة الداخلية بموانى ساحل البحر الأحمر الغربى .

مصـــالحنا وتأمين رعايانا على الشاطىء الى الجنوب من ستـــواكن وفيما وراء البحر الأحمر .

وبرغم أن نوبار باشا رد عند استلامه المذكرة فى الثانى من فبراير يطلب من الحكومة الايطالية أن تنتظر ما تأتى به التعليمـــات من حكومة الاستانة ، الا أن الحكومة الايطالية أوضحت عزمها على احتلال مصوع. ولم تكن مذكرتها للحكومة المصرية سوى ذر للرماد فى العيون . وكان أن أقدمت على احتلال مصـــوع لتؤسس على أنقـــاض أملاك المصريين فى السودان الشرقى وساحل البحر الأحمر مستعمرة ارتريا كما أسست على الساحل الأفريقى المطل على المحيط الهندى مستعمرة الصومال الايطالى.

ولقد كانت حكومة جلادســـتون هى المشجع لايطاليـــا على احتـــلال مصوع ، ذلك أن هذه الحكومة كانت تضع نصب عينيها بقاء حوض النيل بعيدان عن مطامع فرنسا منافستها القوية فى أفريقية رغمـــا عن مطامع الحبشة ذات الادعاءات الواسعة على أكثر اقاليم الســـودان الشرقى . فكان أن استحثت أو شجعت حكومة جلادستون الطليان على احتلالمصوع ونشر نفوذهم على طول ساحل البحر الأحمر الغربى بغية تحقيق هـــدفين هامين : أولهما : اشـــغال الحبشة التى كانت تدعى منـــذ وقت طويل حقوقا تخولها امتلاك الأراضى الواســـعة على طول النيـــل الأزرق حتى الخرطوم ومجرى النيل الرئيسى — بمراقبة نشاط الطليان على ســـاحل البحر الأحمر الغربى فيكون فى ذلك منصرفا لهم عن تحقيق ادعاءاتهم فى السودان الأوسط — وثانيها منع فرنســـا من التوغل فى قلب افريقيـــة والاتصال بالسودان اتصالا مباشرا عن طريق مستعمرتهـــا فى أبوك من ناحية ومن محاولة اخضاع الحبشة لنفوذها والتسلل منها أعالى النيل من ناحية أخرى (١٨) .

كذلك يمكن تفسير السبب الذى حدا بالحكومة الانجليزية الىالسماح للايطاليين بمباشرة نشاطهم على ساحل البحر الأحمر اذا ماعرفنـــا تطور الأحداث على شاطىء البحر الأبيض المتوسط فى تلك الفترة . فقـــد كان سولسبرى اذ ذاك فى حاجة الى عدم اغضاب الايطاليين أمام المعارضـــة

---

(18) Langer : Diplomacy of Imperialiom pp. 108 - 109.

الفرنسية لانجلترا فى المسألة المصرية . كـذلك كانت انجلترا فى سـنة ١٨٨٦ فى حاجة الى تأييد ايطاليا لها فى موقفها من بلغاريا فقـد قامت الأخيرة بضم الروملى الشرقيـة اليها فى سنة ١٨٨٦ وحطمت مقـررات مؤتمر برلين سنة ١٨٨٠ وأثبتت أن القول بأنها دولة تابعة لروسيا خرافة وحاولت روسيا عزل أمير بلغـاريا الـكسندر أوف باتنبرج ووقفت انجلترا تقاوم كل محاولة معزله .

فى ظل تلك الظروف قـوى الترابط بين كل من انجلترا والنمسـا والمجر كما قوى الترابط بينما وبين ايطاليا . وعلى كل فقد تم تحالف بين انجلترا وايطاليا فى ١٠ فبراير ١٨٨٧ . ووافقت النمسا على الانضمام لهذا الاتفاق فى الشهر التالى . وهكذا فى أواخـر مارس ١٨٨٧ ربطت انجلترا نفسها أو ربطها سولسبرى باتفاقه مع ايطاليا والنمسا فى البحر المتوسـط (١٩) .

فى ظل ذلك نستطيع أن نفسر سياسة سلسبرى فى تشجيع الايطاليين على التوسع على ساحل البحر الأحمر . ونستطيع أن نفسر سعيها الى التوسط فى الخلاف بين الايطاليين والأحباش . ذلك أنه بعد احتلال ايطاليا لمصوع أرادت التوغل فى الأراضى الداخلية وراءها يقصدون ساتى (Sahati) على بعد ٢٠ ميلا من مصوع ثم حرا (Wa) على مسافة ٣٥ ميلا جنوبا على الساحل . واذا كان هذا التوسط قد جاء بنـاء على رغبة النجاشى يوحنا الرابع فان انجلترا تود لو ظهرت كذلك بمظهر الذى يقدم خدمة للايطاليين بتوسطها فى النزاع الناشب بينهم وبين امبرأطور الحبشة .

وفى ظل ذلك نستطيع أن نفسر قبول انجلترا فى سنة ١٨٨٩ اعلان الايطاليين حمايتهم على الحبشة التى تضمنتها معاهـدة أوتشيالى . واذا كانت الحماية لم تذكر صراحة فى المعاهدة فان نصوصـها قـد أخضعت الحبشة للنفوذ والسيطرة الايطالية بطريقة ملتوية . ويبدو ذلك واضحا من المادة السابعة عشر من هذه المعاهدة حيث تنص على أن صاحب الجلالة امبراطور اثيوبيا يوافق على منح حكومة جلالة ملك ايطاليا الحق فى تصريف

---

(19) Lorve : Salisbury and the Mediterranean (London 1965) p. 12.

شئونه الخارجية كلها مع الدول والحكومات الأخرى (٢٠) .

ومن المعروف أن هذه المادة صارت مثار نزاع بين الايطاليين والأحباش بعد ذلك وذلك عندما فسرت الحكومة الايطالية عبارة قد يجوز لمنليك أن يستخدم بأنها (سوف يستخدم) أى عليه أن يستخدم الحكومة الايطالية فى تصريف شئونه الخارجية واستمر الخلاف بينهما الى أن أعلن منليك فى فبراير ١٨٩٣ أن معاهدة أوتشيالى لم تعد قائمة .

وعلى كل فان عدم معارضة سلسبرى لما أعلنه الايطاليون من حماية على الحبشة بموجب معاهدة أوتشيالى لم يلق ترحيبا من وزارة الهند . وشرح سولسبرى وجهة نظره لهذه الوزارة فقال ان الأحباش تصرفوا تصرفا سيئا نحونا ، وليس لديهم حق علينا بعد معاملتهم لبورتال ، ومن ناحية أخرى كان تحالفنا مع ايطاليا يهمنا كامبراطورية (٢١) .

وبرغم رفض بارنج (كرون) لهذه السياسة فلقد مضى سولسبرى يقدم للايطاليين كل مساعدة ففى مايو ١٨٨٧ أعطى سولسبرى كل مساعدة للايطاليين فى حصر البحر الأحمر لمنع الأسلحة أن تصل الى الأحباش رغم معارضة كتشنر وقبل بدون تردد الايطاليين حمايتهم على الحبشة .

ولكن حين بدأت تتجه أطماع الايطاليين الى السودان فان السياسة الانجليزية كان لها موقف مغاير . ذلك أن المسألة أصبحت تتعلق بسياسة انجلترا كامبراطورية . يدل على ذلك التصريح الذى أدلى به سولسبرى فى نوفمبر ١٨٨٩ والذى يقول فيه ان افريقية هى الموضوع الذى يشغل وزارة الخارجية أكثر من أى شىء آخر (٢٢) .

وأصرت انجلترا على الحيلولة دون توغل ايطاليا فى السودان معلنة أنه أرض مصرية وان اضطرت مصر الى الجلاء عنها بصفة مؤقتة .

---

(٢٠) حراز : التوسع الايطالى فى شرقى افريقية ص ٢١٨ .
وكذلك :
(21) F. O. 78/14169 Salisbury to Malet 19 Nor. 1887.
Lorve : Life of Salisbury and the Mediterraneen p. 61.
(22) F. O. 78/14325 Salisbury to Baring August 1890.

وفشلت المفاوضات بين الحكومتين الايطاليــة والانجليزية بسبب رغبـــة الايطاليين فى المضى فى فتوحاتهم فى السودان الشرقى .

وكان الايطاليون يعزون هذا الفشل الى حقد لورد كرومر عليهم . لــكن المتتبع للصحف الانجليزية فى تلك الآونة يجدها قــد حملت حملة عنيفة على ايطاليا لدرجة هددت انجلترا بالغائها ذلك الاتفـــاق الذى وقع من جانبها مع ايطاليا والنمسا فى سنة ١٩٨٧ .

لــكن كريسبى سقط فى ٣١ يناير ١٨٩١ وسهل ذلك التقارب بين ايطاليا وانجلترا ذلك أن حكومة دى رودينى De Rodini كانت لا تميل الى المزيد من التوسع فى افريقية . فاعترفت بموجب الاتفاق بأثيوبيـــا كمنطقة نفوذ ايطالية وسمحت المـــادة الثانية من بروتوكول ١٥ أبريل ١٨٩١ لايطاليا باحتلال كسلا وهو ما قامت به ايطاليا بعـــد ذلك فى ١٣ يوليو ١٨٩٤ (٢٣) .

---

(23) Sheibeika : British Policy in the Sudan p. 331.

٣٥

جزيرة قمران بين الاحتلال العسكرى

وتحديد التبعية السياسية

(١٩١٥ — ١٩٢٩) دراسة وثائقية

الدكتور يونان لبيب رزق

كلية الآداب والدراسات الانسانية — فاس — المغرب

قمران هى الجزيرة الثالثة والأخيرة من مجموعة الجزائر التىاحتلتها بريطانيا فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر بهدف اتمام التحكم فى هذا المدخل ذلك التحكم الذى بدأه البريطانيون منذ احتلالهم الشهير لعدن عام ١٨٣٩ .

كانت جزيرة « بريم » أو « ميون » ، كما كان يسميها العرب، هى أولى تلك الجزائر وبالرغم من أن شركة الهند الشرقية البريطانية كانت قد عمدت الى احتلال هـذه الجزيرة فى مايو عام ١٧٩٩ تحسبا من المخاطر التى بدت من جانب الفرنسيين على مداخل البحر الأحمـر ، وذلك بعـد احتلالهم لمصر واطلالهم على مياهه الشمالية .. بالرغم من ذلك فانهـا لم تلبث أن أخلتها فى أواخر نفس العـام ، نتيجة لصعوبة البقاء فيهـا بسبب سـوء المنـاخ وقلة المياه العذبة ، ونتيجة أيضا لنجاح الأسطول البريطانى فى تدمير القوة البحرية الفرنسية فى مصر فى موقعة « أبو قير البحرية » مما أدى الى تحول هذه القـوة من موقع الهجوم الى موقع الدفاع ، وهو الموقف الذى أصبحت معه فى حالة لاتمكنها من تشكيل أى تهديد جدى لمناطق البحر الأحمر الجنوبية (١) .

---

(١) د. جاد طه : سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن (القاهرة١٩٦٩) ص ٣٨ — ٣٩ .

بيد أن هذه المحاولة البريطانية الأولى لبـدء السيطرة على جزائر المدخل الجنوبى للبحر الأحمر لم تلبث أن أعقبتها محاولة أخرى استمرت لنحو ستين عاما ، حيث بدأت عام ١٨٥٧ بما يمكن أن نسميه « الاحتلال الثانى » لجزيرة بريم ، وانتهت عام ١٩١٥ باحتلال جزيرة قمران ، وقـد تخلل هذه السنوات الستين احتلال سوقطرة عام ١٨٨٦ .

وتختلف هذه المحاولة عن سابقتها فى مجموعة من الخاصيات يمكن أن نرصدها على الوجه الآتى :

١ — انها قـد تمت فى اطـار خطة عامة ومتدرجة تستهدف فى النهاية احكام القبضة البريطانية على المـدخل الجنوبى للبحر وذلك بعـد الامساك بمفتاحه الرئيسى باحتلال عدن عام ١٨٣٩ .

ولم تكن المحاولة الجديدة على هذا النحو مجرد « رد فعل » كما كان الحال بالنسبة للمحاولة الأولى .

٢ — ثم أنها قد اتصلت بالعمل على السيطرة على المدخل الشمالى للبحر الأحمر وذلك بعد أن أصبح له مدخل !

فقد شهدت خمسينات القرن التاسع عشر ، نفس عقد الاحتلال الثانى لبريم ، بداية أتخاذ الخطوات الجدية لحفر قناة السويس ، وذلك بعد حصول دلسبس على عقدى الامتياز الخاصين بشق القناة ، وكان أولهما فى عام ١٨٥٤ ، والثانى بعد ذلك بنحو عامين (٢) ، وهى نفس السنة التى أخذ البريطـانيون يخططون خلالهـا لاعادة احتلال الجزيرة مما أنجزوه بعد ذلك بقليل .

٣ — أضف الى ذلك أن تلك الفترة قـد شهدت نشاطا ملحوظا من جانب مختلف القوى الاستعمارية للسيطرة على مياه البحر الأحمر مما يمكن أن ننظر للاحتلال البريطانى للجزر الثلاث من خلاله .

---

(٢) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل جـ١ (القاهرة ١٩٤٨) ص ٥٧ — ٥٨ .

كانت أهم هذه القوى وأخطرها ، فرنسا ، ذلك المنافس التقليدى للاستعمار البريطانى ، والتى بدأت فى السعى ، منذ الخمسينات أيضا ، للحصول على موطىء قدم لها على الشاطىء الأفريقى من المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، وهو ما نجحت فيه فعلا فى النهاية فى مطلع العقد التالى ، وذلك عندما احتلت أوبوك Obok عام ١٨٦٢ والتى تحولت بعد فترة قليلة الى المستعمرة التى عرفت باسم الصومال الفرنسى (٣) .

كما أنه لم يمض وقت طويل حتى كانت ايطاليا ، بعد أن أتمت وحدتها القومية فى مطلع السبعينات ، أصبحت تشارك فى الاطلال على مياه البحر الأحمر قرب مداخله الجنوبية بعد أن احتلت مصوع عام ١٨٨٥ وأخذت فى تكوين مستعمرتيها فى كل من اريتريا والصومال (٤) .

صحيح أن التقدم الايطالى فى تلك الجهات ظل مكفولا بالرعاية البريطانية حتى أن المؤرخين الفرنسيين أسموا الدور الايطالى فى شرق أفريقيا بدور « كلب الحراسة » Chien de Jardinier للمصالح البريطانية (٥) ، ولكن هل كانت الديبلوماسية الانجليزية الحذرة يمكن أن تأمن لكلب الحراسة هذا الى ما لا نهاية !؟

* * *

تأسيسا على هذه الظروف والاعتبارات أخذت بريطانيا فى اكمال سيطرتها على الجزائر الثلاث المتحكمة فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر .

أتم البريطانيون احتلالهم للجزيرة الأولى « بريم » عام ١٨٥٧ تحت عديد من الدعاوى ، مثل بناء فنار لارشاد السفن أو التحكم فى تجارة الرقيق ، غير أن الأسباب الحقيقية ، كما سجلها المقيم البريطانى فى عدن

---

(٣) د. جلال يحيى : التنافس الدولى فى بلاد الصومال (القاهرة ١٩٥٩) .

(٤) محمد رجب حراز : التوسع الايطالى فى شرق أفريقيا (القاهرة ١٩٦١)

(5) Darcy, Jean : Cent anees de Rivalite Coloniale (Paris).

فى مذكرة له ، كانت تشير الى ضرورة زيادة الثقل البريطانى فى المنطقة ازاء حفى قناة السويس والى الرغبة فى سبق الفرنسيين فى احتلال الجزيرة (٦) .

ولم يمض وقت طويل حتى كان المحتلون البريطانيون قد تغلبوا على تلك العقبات التى أدت الى انهاء احتلالهم الأول لبريم خاصة فيما يتصل بالحصول على المياه العذبة (٧) .

وتم فرض الحماية البريطانية على سوقطرة الجزيرة الثانية من الجزائر الثلاث ، فى معاهدة تم توقيعها مع سلطانها عام ١٨٨٦ (٨) .

وتشكل هذه المعاهدة احدى معاهدات عديدة أخذت بريطانيا فى ابرامها مع القوى المحلية على الجانبين الأسيوى والأفريقى لمدخل البحر الأحمر فى أعقاب أبرام فرنسا لمعاهدتها مع سلطان تاجورة فى عام ١٨٨٤

وتقضى هذه المعاهدات عموما بعدم تنازل المشايخ والسلاطين الذين يوقعون عليها عن شئ من أراضيهم لأية قوة أخرى ، وبمنع تجارة الرقيق، وبالسماح للسفن البريطانية بالقيام بالتجارة فى موانيهم (٩) .

* * *

تبقى بعد ذلك الجزيرة الثالثة « قمران » آخر الجزائر الثلاث التى احتلها البريطانيون وأقلها شهرة ، ولعل ذلك مادعانا الى اختيارها موضوعا لهذه الدراسة .

وتقع قمران على بعد ١٥ ميلا جنوبى اللحية وبضعة أميال شمالى الحديدة وتبلغ مساحتها نحو ١٢ ميلا مربعا ، وتعتمد فى كافة احتياجاتها على عدن والحديدة واللحية (١٠) .

---

(٦) د. جاد طه : المصدر السابق ص ٢٢٨ .

(٧) المصدر السابق ص ٢٢٩ .

(٨) نص المعاهدة فى

Aitchison, C. V. A Collection of Troaties. p. 118.

(9) Ibid.

(١٠) د. جاد طه : المصدر السابق ص ١٧—١٨ .

ولا يعود سبب قلة شهرة هذه الجزيرة الى تأخر احتلالهــا فحسب بل قــد يعود قبل ذلك الى ندرة المعلومات عن ظروف هــذا الاحتلال ، ثم أكثر من ذلك الى انعدامها حول طبيعةالادارة البريطانية وأهدافها منها .

وقــد يعزى سبب هــذه الندرة أو ذلك الانعــدام الى أن التواجد البريطانى فى قمران قــد تم فى خضم الحرب العالمية الأولى حيث كانت الحوادث الجسام تأخذ بتلابيب المنطقة ، بل والعالم ، ولم يكن احتــلال جزيرة صغيرة قاحلة مثل « قمران » ليثير انتباه أحد فى مثل هذا الجو .

الأكثر من ذلك أن تلك الجزيرة ما لبثت بعد سنوات قليلة من انتهاء الحرب ، ونتيجة لأنها استمرت عبئا ماليا على الجهة المسئولة عن ادارتها أن أخذت هذه الجهة ، وهى حكومة الهند ، فى محاولة التخلص من هذه الادارة والقاء تبعتها على وزارة المستعمرات .

وتكشف مجموعة الوثائق المستخدمة فى هذه الدراسة (١١) كل شىء حول القصة الكاملة للاحتلال البريطانى لقمران وما ترتب عليه حتى عــام ١٩٢٩ حين استقرت صورة هذا الاحتلال ، ولكن لبعض الوقت .

الاحتلال البريطانى لقمران عام ١٩١٥ م :

أتمت القوات البريطانية المرابطة فى عدن احتــلالها لجزيرة كمران وجزيرتين صغيرتين أخريين قريبتين منها فى ١٠ يونية عام ١٩١٥ م .

ولا يمكن فهم الأسباب التى أدت الى اقدام البريطانيين على احتلال هذه الجزيرة الا على ضوء تتبع شكلين من أشكال الصراع التى كانت تلم آنذاك بالعــالم والتى كان من الطبيعى أن تنعكس آثارهما على البحــر

---

(١١) صور هذه الوثائق عن
India Office Library - Political & Secret Dep.
صديقى وزميلى الدكتور جاد طه وأعارنى اياها للاستعانة بهــا فى كتابة هذا البحث . وهى تحت عنوان
Papers Relating to the New Arrangements for the Goverrment of Aden and Relations with the Aden Protectorate.
Middle East No. 22.
وتحت رقم

الأحمـر ومداخله الجنوبيـة وعلى وجـه الخصـوص بأهميتها الزاخرة للامبراطورية البريطانية أو لغيرها (١٢) .

(الشكل الأول) من أشكال الصراع يتصل بانعكاس عداوات الحرب العالمية الأولى على المنطقة .

ذلك انه قبيل نشوب الحرب بشهور قليلة كان قـد أمكن للجانبين البريطانى والتركى التوصل الى اتفاق بشأن اقامة خط حدود فعلى بين المنطقتين العثمانية فى اليمن والانجليزية فى عدن ، وتم التصـديق على هذا الاتفاق فى لندن فى ٣ يونيو عام ١٩١٤ (١٣) .

غير أنه لم ينقض سوى شهران على هذا الاتفاق حتى كانت الحرب العظمى قـد تفجرت فى أوربا ، ولم ينقض سوى أربعة شهور بعد ذلك حتى كانت تركيا قد تورطت فيها شريكة لدول الوسط وعدوة لبريطانيا .

وكان من الطبيعى أن ينعكس هذا الموقف بصراع بين الامبراطوريتين العتيديتين فى مناطق وجودهما فى الركن الجنوبى الغربى من الجزيرة .

الامبراطورية العثمانية : تصورت أنها بعد أن سوت خلافاتهـا مع الامامه الزيدية فى اليمن قبل ذلك بعام (سبتمبر عام ١٩١٣) أنها قادرة على استنفار سائر القوى الاسلامية فى المنطقة .

وقـد قامت الخطة التركية فى البحر الأحمر ، بعد اشـتراكها فى الحرب ، على أساس الامساك بخناق بريطانيا فى المنـاطق الحاكمة فى هذا البحر ، فى الشمال بالاستيلاء على قنـاة السويس ، وفى الجنوب بطرد البريطانيين من قاعدتهم فى عدن ، ولا شك أنه لو كان قد قدر لهذه الخطة النجاح لكانت قـد أصابت الامبراطورية البريطانية فى مقتل (١٤) .

---

(12) I. O. L. 48076/27/2 Enc. 1 in No. 296 Report on the Recent Development of the Kamaran Civil Administration, July 15, 1927.

(١٣) د. جاد طه : المصـدر السابق ص ٣٣٨ .

(١٤) أمين الريحانى : ملوك العرب (بيروت ١٩٢٥) ص ٣٦٣ .

على أى الأحوال شهد عام ١٩١٥ تحركا تركيا فى الشمال والجنوب بهدف تنفيذ هذه الخطة ، والملاحظ انها اذا كانت قد أخفقت تماما فى اتجاه قناة السويس غير أنها قد أحرزت بعض النجاح فى اتجاه عدن وذلك بعد أن نجحت فى احتلال لحج فى يوليو عام ١٩١٥ (١٥) .

بيد أنه من الملاحظ أيضا أن هذا النجاح قد توقف عند ذلك الحد وكما يقول الريحانى « لما أمن الأتراك على لحج ونواحيها تركوا عدن للانجليز وقنع كل بما ملكت يداه » (١٦) .

أما الامبراطورية البريطانية فقد أقامت خطتها تجاه التحركات العدائية فى المنطقة على ثلاثة أسس :

أولها : عدم استنزاف قواها فى حروب برية ، ذلك أنه لم يكن لبريطانيا وقتذاك أى مطمع اقليمى فى اليمن ، أو فى الأراضى التى يسيطر عليها العثمانيون فى الداخل على وجه العموم . ولعل ذلك يفسر سكوتهم المؤقت على الاحتلال التركى للحج رغم ارتباط الأخيرة بمعاهدة معهم .

ثانيها : وقع بعض القوى المعادية للترك فى المنطقة على التحرك ضدهم ، وكان هذا واضحا من خلال اتصالاتهم بالادريسى فى عسير وحثه على اقلاق العثمانيين فى اليمن ، وقد نجحوا فى ذلك الى حد ما .

ثالثها : والأهم يتمثل فى السعى البريطانى لتأمين الشريان البحرى للامبراطورية عبر البحر الأحمر ، وبالذات عند مداخله .

وقد تحقق هذا الأساس ممثلا فى أكثر من جانب يمكن أن نذكر منها النجاح البريطانى فى الحفاظ على قاعدتهم فى عدن فى مواجهة الخطط التركية الساعية الى السيطرة عليها ، أضف الى ذلك ان حكام عدن من

---

(١٥) المصدر السابق ص ٣٦٨ .
(١٦) د. جاد طه : المصدر السابق ص ٣٤٣ .

الانجليز قـد تغاضوا عن الاحتلال التركي للحج الا أنهم لم يتهاونوا فى مواجهة المحاولات التركية للاطلال على مضيق باب المندب ، وقد بدا ذلك واضحا فى ضرب المحاولة التركية لاحتلال « الشيخ عثمان » والتى انتهت باحتلال الانجليزى لهذا المنفذ البحرى فى ٢٠ يوليو عام ١٩١٥ (١٦) . ثم يبقى الجانب الأخير ممثلا فى فرض السيطرة البريطانية على مراكز بحرية كانت فى أصلها قسما من الممتلكات العثمانية قبل الحرب، وكانت «قمران» النموذج الأمثل لهذا الجانب من الخطة .

ويجىء (الشكل الثانى) من أشكال الصراع متصلا بتلك المنـافسة التقليدية التى طالما شهدتها مياه المدخل الجنوبى للبحر الأحمر أو الميـاه المؤدية لهذا المدخل .

وتشير الوثائق السرية البريطانيـة التى لدينـا صراحة الى هـذه الحقيقة فقد جاء فى الفقرة الثانية من رسالة سرية من وزارة الهند الى وزارة المستعمرات مؤرخة فى ٢١ أكتوبر عام ١٩٢٧ مانصه : —

« كان الهدف الرئيسى من احتلال جزيرة قمران مع جزيرتين أخريين فى ١٠ يونية عام ١٩١٥ احبـاط المشروعات التى كانت تضعها الحكومة الايطالية وقتذاك لاحتلالها » (١٧) .

وقد يندهش الباحثون فى تاريخ الصراع الاستعمارى على المداخل الجنوبية للبحر الأحمر مما جرى فى ميدان العلاقات بين القوى الامبريالية الى الحد الذى تحول فيـه الايطاليون من حلفاء لبريطانيا يعاونونها فى تنفيذ بعض خططها الاستعمارية على الساحل الأفريقى من هذا المـدخل الى منافسين لها تتحوط منهم وتحـاول أن تسـبقهم الى بعض المـراكز الاستراتيجية فيه مثل جزيرة قمران .

غير أن تتبع ماجرى فى هذا الميدان خلال السنوات الأولى من القرن العشرين وحتى يونية عام ١٩١٥ قـد يزيل كثيرا من أسباب الدهشة ويقدم التبريرات المعقولة لهذا التحول .

---

(١٦) دكتور جاد طه : المصدر السابق . ص ٣٤٣ .
(17) I. O. L. 4807/27/2 No. 296 India Office to Colonial Office Oct. 21, 1927.

أول التغييرات التى يمكن تسجيلها يتصل بالعلاقات الفرنسية — البريطانية حيث ظل الصراع الاستعمارى بين هاتين القوتين الكبريتين يمثل المحور الأساسى الذى تفرعت عنه سائر العلاقات الاستعمارية على المدخل الغربى للبحر الأحمر بما فيها العلاقات الايطالية البريطانية .

ويبدأ التغيير بما أصاب العلاقات البريطانية — الفرنسية بعد أزمة فاشودة الشهيرة التى انتهت بالتراجع الفرنسى وصدور تصريح ٢١ مارس عام ١٨٩٩ ثم ما تبع ذلك بعد سنوات قليلة من عقد الوفاق الودى فى أبريل عام ١٩٠٤ وما ترتب عليه من تحسن فى العلاقات البريطانية — الفرنسية ، أو على الأقل من تفاهم عام فى ميدان التنافس الاستعمارى بين القوتين الكبيرتين .

ويقينا فانه قد ترتب على ذلك نتيجة هامة وهى أن ايطاليا قد فقدت ، بالنسبة لبريطانيا ، هذا الدور الذى ظلت تلعبه منذ عام١٨٨٥ ، حين شجعها الانجليز على احتلال مصوع وبناء مستعمرتهم الشهيرة فى اريتريا وحتى عام ١٨٩٦ حين قرروا احتلال دنقلة تخفيفا لضغط القوات المهدية على الوجود الايطالى فى شرق أفريقيا (١٨) .

ومن ثم لم يعد للتعاون مع الايطاليين قيمة بالنسبة للسياسات البريطانية فى مدخل البحر الأحمر ، ويتفق هذا التغيير فى الموقف البريطانى مع المقولة المعروفة بأنه ليس فى السياسة موقف دائم ولكن هناك مصلحة دائمة .

ويتصل التغيير الثانى بما جرى خلال الحرب الايطالية — التركية المعروفة بالحرب الطرابلسية عام ١٩١١ — ١٩١٢ .

فمن المعلوم أن ايطاليا قد استخدمت من بين ما استخدمت للضغط على الدولة العثمانية واجبارها للتخلى عن ليبيا توسيع رقعة الحرب مع الأتراك وفتح جبهات أخرى ضدهم ، وكان مدخل البحر الأحمر احدى هذه الجبهات .

---

(١٨) د. يونان لبيب رزق : السودان فى عهد الحكم الثنائى الأول (١٨٩٩ — ١٩٢٤) القاهرة ١٩٧٦ ص ١٤ .

ذلك أن الأسطول الايطالى قد قام خلال هذه الحرب بضرب الموانى اليمنية التى كانتواقعة آنذاك تحت الحكم العثمانى، والتى كانت «قمران» تعتبر قسما منها .

ولا شك أن الأعمال الحربية التى قام بها الايطاليون وقتــذاك قــد أثارت المخاوف البريطانية ، فهى من ناحية قد أكدت قدرة حكومة روما على اثارة الاضطراب فى المياه الجنوبية للبحر الأحمر ، وهى من ناحية أخرى قــد وضعت أسسـا ، كما رأت دوائر الحكومة البريطانية ، لتحقيق أطماع استعمارية ايطالية متوقعة فى الموانى العثمانية فى تلك المياه ، خاصــة بعد أن دخلت ايطاليا الحرب فى صف دول الحلفاء معــادية لدول الوسط وتركيا مما قد يحفزها على تحقيق هذه الأطماع .

يرتبط بهذين التغييرين المفاوضات التى جرت فى لندن فى ربيع عام ١٩١٥ بين الحلفاء من جانب وبين ايطاليــا من جانب آخر والتى انتهت بمعاهدة لندن السرية المعقودة فى ٢٦ أبريل من نفس العام والتى قضت بدخول ايطاليا الحرب فى صف الحلفاء .

وقد بدت خلال تلك المفاوضــات الأطمــاع الايطاليــة الاستعمارية واضحة سواء على الصعيد العثمانى أو على الصــعيد الافريقى ، وهى الأطماع التى اضطر الحلفاء أن يظهروا موافقتهم عليها فى المعاهدة .

فقد جاء فى المادة السادسة التسليم بالمطلب الايطالى بمنطقة نفوذ فى تركيا الأسيوية ، كما تضمنت المادة السابعــة الموافقــة على توسيع مستعمراتها الافريقية اذا ما ضمت كل من فرنســا وانجلترا المستعمرات الألمــانية (١٩) .

ولا شك أنه على ضوء هاتين المادتين كانت السواحل اليمنيــة أو بعض المناطق المتاخمة لها مرشحة للسيطرة الايطالية ، فهى من ناحيــة أراضى تركية وهى من ناحية أخرى مواجهة للمستعمرات الايطاليــة فى افريقيا التى تتوق حكومة روما الى توسيعها .

---

(19) Roder, William S. Dictionary of European History (Newyork 1954) p. 169.

من ثم فلا غرابة أن تتخوف الحكومة البريطانية من تلك الأطماع الايطالية وتبادر باصدار أوامرها باحتلال قمران والجزيرتين الملاصقتين لها ، وهو ما تم فى ١٠ يونيو عام ١٩١٥ ، أي بعد ٤٥ يوما فقط من التوقيع على معاهدة لندن .

الحكم العسكرى فى قمران ١٩١٥ — ١٩٢٤ :

بعد يومين من احتلال قمران أصدرت السلطات البريطانية فى عدن مجموعة من القرارات التى تستهدف تنظيم الحكم العسكرى للجزيرة .

تضمنت هذه القرارات أربعة تنظيمات أشار اليها تقرير بريطانى طويل أعدته حكومة الهند فى يولية عام ١٩٢٧ ، وهو التقرير الذى ننقل عنه : —

يختص التنظيم الأول بالتعيينات التى تقررت من جانب حاكم عدن للموظفين البريطانيين الذين تقرر القاء مسئولية حكم الجزيرة على عاتقهم .

وقد شملت هذه التعيينات خمسة من العسكريين البريطانيين تولوا مسئولية ادارة الجزيرة بالاضافة الى موظف مدنى .

أول هؤلاء أسماه التقرير بضابط من ذوى الرتب الكبيرة يتولى مسئولية قيادة القوات البريطانية الموجودة فى الجزيرة بالاضافة الى مسئوليته عن مختلف الشئون المدنية والسياسية .

الموظف الثانى ، وكان الموظف المدنى ، (٢٠) من مجموع الموظفين الستة ، وقد تقرر أن يتولى وظيفة مساعد الحاكم للشئون السياسية وتركزت اختصاصاته فى الأمن الداخلى (البوليس) بالاضافة الى الشئون المالية والجمارك .

---

(٢٠) أول من تولى هذه الوظيفة كان المستر G. A. Richardson والذى كان يعمل نائبا للقنصل البريطانى فى الحديدة وقت دخول تركيا الحرب .

وكان الموظف الثالث (٢١) برتبة كابتن وتولى مسئولية مختلف الشئون العمرانيـــة للجزيرة ، الى حد أن أطلق عليه رئيس البلدية .

وعلى نفس الرتبة كان الموظف الرابع (٢٢) الذى تولى الرقابة على شـــئون البريـــد والبرق ، كما كان من مهـــامه فى نفس الوقت أعمـــال المخـــابرات .

أما الموظف الخامس (٢٣) فقد كان برتبة ملازم ، وكان اختصاصـــه الأساسى شئون الميناء والتفتيش البحرى .

ويبقى الموظف الأخير ، (٢٤) وكان رجلا عسكريا برتبة كابتن أيضا، وكان مسئولا عن الشئون الصـــحية فى الميـــاء بالاضـــافة الى عمـــله كجراح (٢٥) .

نتوقف قليلا هنا قبل عرض بقية هذا التقرير البريطانى لتسجيل بعض الملاحظات حول هذا الجانب الأول من جوانبه .

تتصل الملاحظة الأولى بطبيعة الحكومة التى انشأها البريطانيون ، وهى كما هو واضح ، حكومة عسكرية ، مما يبدو من تشكيلها ومن طبيعة وظائفها ، ومثل هذا الطابع مفهوم على ضوء الظروف التى تم فيها احتلال الجزيرة ، وهى ظروف الحرب العالمية الأولى ، أو على ضوء أنه قـــد نظر الى الجزيرة من الناحية القانونية باعتبارها « أرض عدو محتـــلة » على أساس أنها كانت تابعة للدولة العثمانية .

الملاحظة الثانية خاصة بثالث موظفى الادارة العسكرية ، فقد كان

---

(٢١) أول من تولى هذه الوظيفة الكابتن واطسون
Watson, R. GA.

(٢٢) أول من تولى هذه الوظيفة الكابتن كادل Cadell

(٢٣) أول من تولى هذه الوظيفة الملازم هيوز Hughs, R. N. R.

(٢٤) أول من تولى هذه الوظيفة الكابتن هاردنج
Harding, R. A. C.

(25) L. O. L. 48076/27/2 Enc. 2 in No. 295 Supplement Report on the Development of the Kamaran Civil Admistration.

غريبا بالنسبة لمثل هـذا النـوع من الادارة أن تخصص موظفا من أهم موظفيها لشئون العمران فى مثل هذه الجزيرة القاحلة ، غير أن الغرابة لا تلبث أن تزول حين يتبين الباحث استحالة البقاء فى قمران ، كما كان الحال بالنسبة لبريم وسوقطرة ، دون امداد بالمياه العذبة . ومن ثم فقد كان من الطبيعى أن يتولى واحد من كبار المسئولين هذه المهمة .. مهمـة الحصـول على المياه العذبة وتخزينها لتتوفر للموجودين على الجزيرة فى كل الأوقات .

وتتعلق الملاحظة الثالثة بالوظيفة الأخيرة من الوظائف الستالخاصة بالشئون الصحية اذ تمدنا الوثائق البريطانية بحقيقـة مؤداها أن قمران ظلت تلعب على عهد تبعيتها للحكم العثمانى أو بعده دورا بالغ الأهميةفى هذا الميدان .

ذلك أنه قد كانت من أهم وظائف الادارة الجديدة الاشراف على مركز الحجر الصحى فى الجزيرة ، وهو المركز الذى كانت تشرف عليه من قبل اللجنة الصحية التركية .

وأهمية هذا المركز ، كما جاء فى نفس الوثائق ، رعاية الوف منحجاج المسلمين القادمين من الهند وجاوة (٢٦) .

ومن ثم فقد كان وجود موظف للشئون الصحية على هذا القدر من الأهمية فى الادارة العسكرية لقمران أمرا منطقيا ومقبولا .

نعود مرة أخـرى لنفس التقـرير لنعرض (للتنظيم الثـانى) من التنظيمات التى تضمنها .

يتصل هذا التنظيم بما تقرر من اعلان الأحكام العسكرية فىالجزيرة وان كان قد تقرر فى نفس الوقت عدم تطبيق هذه الأحكام الا فى الأحوال التى يرى حاكم الجزيرة ضرورة تطبيقها ، أكثر من ذلك فقد منع تنفيذأحكام الاعدام دون تصديق من الحاكم العام فى عدن .

أما فى الحـالات التى يرى حاكم الجزيرة أنه ليس من داع لتطبيق

(26) Ibid No. 296.

الأحكام العسكرية فقد رؤى وضع القانون الانجليزى العام والقانون الهندى موضع التطبيق .

وحتى يمكن تنفيذ كل ذلك فقد تم تخويل حاكم الجزيرة بصلاحيات قضائية من الدرجة الأولى ، كما تم تخويل مساعده بصلاحيات قضائية من الدرجة الثانية ، اما استئناف المحكوم عليهم من أبناء الجزيرة فقد تقرر رفعه من جانب الحاكم العام الى المحكمة العليا فى عدن .

واختص (التنظيم الثالث) بقوة الأمن فى الجزيرة والتى تشكلت من اثنين من الضباط و٢٦ من رجال الشرطة .

ولما كان الميناء بمثابة حجر الزاوية فى الجزيرة فقد خصص (آخر التنظيمات) له حيث تشكلت لجنة لادارته برئاسة حاكم الجزيرة وعضوية مساعده ومسئول الحجر الصحى بالاضافة الى أحد أهالى قمران ممن يقع عليهم اختيار الحاكم العام .

وقد تمت اقامة فرع للشئون المالية للجزيرة فى نفس عام احتلالها استمر حتى عام ١٩٢٢ حين أوكلت الشئون المالية لقمران لحكومة عدن بعد أن تم الفصل بين كل من الميزانية المدنية للجزيرة وبين ميزانية الحجر الصحى (٢٧) .

انهاء الحكم العسكرى والتحول الى الحكم المدنى فى قمران ١٩٢٤ :

فى ٢٤ يولية عام ١٩٢٣ وقع الحلفاء مع تركيا معاهدة لوزان والتى تنازلت بمقتضاها الأخيرة عن كل حقوقها فى السيادة على أية أراضى غير تركية .

وقد خلق عقد هذه المعاهدة وضعا جديدا لقمران يسجله ممثل حكومة الهند فى لندن فى مذكرة سرية ننقل عنها :

يقول مستر اتشيسون J. G. Acheson فى جانب من هذه

(27) I. O. L. Enc. 2in No. 296.

المذكرة .. « كانت الجزيرة من أملاك تركيا قبل عام ١٩١٤ ، احتلتها القوات البريطانية فى ظروف الحرب ولا تزال تحتلها .

« ولم يرد ذكر لها فى معاهدة لوزان وان كان قد تم اعتبارها ضمن الجزائر التى تنازلت تركيا عن سيادتها عليها بمقتضى المادة ١٦ من تلك المعاهدة .

« غير أن هذا التنازل لم يتم للبريطانيين أو لأية حكومة بعينها ، فقد أشارت المادة ١٦ الى مستقبل الأراضى والجزائر التى تنازلت عنها تركيا بأنه (سوف يتم اقراره بالاتفاق بين الأطراف المعنية) » .

بعد ذلك يعود الموظف البريطانى الكبير لمحاولة تحديد وضع الجزيرة فى جانب آخر من المذكرة فيقول ...

« ولما كانت قمران تقع فى حوزة الممتلكات البريطانية ، ولما كان يقوم بادرتها جهاز تابع لحكومة الهند فانها تشكل قسما من الهند البريطانية وستظل تشكل قسما منها طالما بقيت تحت ادارة هذه الحكومة » (٢٨) .

يتصل بهذا التصميم الأخير على ابقاء قمران فى حوزة بريطانيا محاولة التعرف على الاستراتيجية البريطانية تجاه الجزيرة والتىتضمنتها مذكرة للمستر سامز المقيم البريطانى فى عدن ، وقد اعتمدت هذه الاستراتيجية على الأسس الآتية :

١ — منع وقوع الجزيرة تحت سيطرة أية قوة أخرى أو أية دولة غير صديقة ، وقد دفع ذلك بريطانيا الى احتلال الجزيرة عام ١٩١٥ كعمل من أعمال الحرب .

---

(28) I. O. L. 59285/28/15 Enc. 1 in No. 302 The Deputy Secretary to The Government of India in The Foreign and Political Dep. to The Under Secretary of State For India, March 29, 1928.

٢ — العمل على تأمين مركز الحجر الصحى الذى يقوم أساسا بخدمة الحجاج المسلمين من الهنود ومن أبناء جزيرة جاوة مما أدى الى وضع الجزيرة تحت ادارة حاكم بريطانى يمارس نوعا من الحكم الفردى يدعمه فى ذلك الراية البريطانية والزيارات المنتظمة التى تقوم بها الى الجزيرة الطائرات الحربية الانجليزية المرابطة فى عدن.

٣ — أما عن مسألة السيادة فقد رأى المقيم البريطانى فى عدن أن ليس من حق أية قوة أن تنازع بريطانيا عليها سوى امام اليمن يدعمه فى ذلك حق الجوار من ناحية وان أبناء الجزيرة ينتمون الى اقليم تهامة فى اليمن ، من ناحية أخرى .

ومواجهة ذلك تتم من خلال الابقاء على الوضع القائم والتصميم على اعتبار مسألة السيادة على الجزيرة قضية منتهية (٢٩) .

على ضوء هذه الاستراتيجية رفض الجانب البريطانى مشاركة أية قوة أخرى فى المفاوضات التى جرت فى باريس خلال شهر يونية عام ١٩٢٦ بين كل من بريطانيا وهولندا بشأن مستقبل قمران .

ذلك أن الهولنديين كانوا قد تقدموا وقتذاك بطلب المشاركة فى ادارة الجزيرة على اعتبار أن أعدادا كبيرة من رعاياهم المسلمين من أبناء جزيرة جاوة يقومون باستخدام مركز الحجر الصحى بها أثناء موسم الحج.

وقد بحثت لجنة بريطانية الطلب الهولندى وكان رأيها ان أى شكل من أشكال الادارة الدولية أو الادارة الانجلو — هولندية تتناقض مع متطلبات البحرية والطيران البريطانيين ، ومن ثم فقد تقرر عدم السماح للهولنديين بالمشاركة فى ادارة الجزيرة ، وعلى هذا الأساس بدأت المفاوضات بين الطرفين .

وقد تمخضت هذه المفاوضات عن اتفاقية انجليزية — هولندية تم توقيعها فى العاصمة الفرنسية فى ١٩ يونية عام ١٩٢٦ تقرر بمقتضاها

(29) I. O. L. 69285/29/12 No. 311 The Resident to the Secretary of State, Feb. 25, 1929 Conf.

السماح لهولندا بالمشاركة فى ادارة مركز الحجر الصحى بالجزيرة « دون أن يمس ذلك الادارة المدنية التى تبقى فى أيدى البريطانيين » وحتى يتم تجنب أى ازدواج فى ادارة الجزيرة فقد تقرر فصل الميزانيـــة الخاصـــة بتلك الادارة عن الميزانية الخاصة بمركز الحجر الصحى (٣٠) .

* * *

بدأت حكومة الهند فى أعقـــاب الحرب فى الاستعداد لانهاء الحكم العسكرى فى قمران واحلال حكم مدنى أكثر ثباتا واستقرارا .

بدأ ذلك فيما حدث عام ١٩١٩ حين سحبت هـــذه الحكومة كافـــة الموظفين العسكريين الذين حكموا الجزيرة خلال السنوات الأربع السابقة ولم تبق منهم سوى الحاكم العسكرى لقمران الـــذى تقرر أن يعـــاونه مساعد المقيم البريطانى فى عـــدن الذى تولى وظيفـــة مساعد الحـــاكم العسكرى (٣١) .

ويتحدث الـــكابتن ويكهام C. WICKHAM الذى تولى هذا المنصب فيما بعد عن أحوال الجزيرة وقتذاك فيقول ..

« لم يزد عدد السكان عن الفى نسمه كانوا فى حالة يرثى لها من الفقر نتيجة لتوقف الحج خلال الفترة الممتدة بين عامى ١٩١٥ و ١٩١٩ . وكانت التجارة مع الساحل ضعيفة ، ثم ان السفن التى كانت تصل من عدن نادرا ما كانت تحمل أى بضائع .

« ولم تكن البيوت صحية ، فقد كان أغلبها أكواخا من البوص ، ولم تكن هناك أية رعاية صحية ، وكان كثير من الأطفال يعـــانون من أمراض فى عيونهم بسبب القذارة » (٣٢) .

المهم أنه بالرغم من تعطيـــل الحكم العســـكرى عام ١٩١٩ الا أن الوضع لم يستقر باحلال حكم مدنى الا فى فبراير عام ١٩٢٤ وذلك بعد أن تنازلت تركيا فى معاهدة لوزان عن سيادتها على الجزيرة .

---

(30) I. O. L. 48076/27/2 No. 296.
(31) Ibid Inc. 2 in No. 296.
(32) Ibid Inc. 1 No. 296.

وقد أعيد تنظيم الادارة البريطانية فى الجـزيرة مع اعلان الحكم المدنى وتقرر أن تتكون من سبعة أقسام :

١ — الادارة السياسية والقسم القضائى وكانت تقوم بالعمل السياسى مثل جمع الأخبـار السياسية من الساحل المقابل (اليمن) والادارة العامة للجزيرة وكل الأعمال القضائية التى كانت تتم طبقا للشريعـة الاسـلامية .

٢ — ادارة الجمارك وتقوم بجمع الرسوم المفروضة على القـات وغيره من السلع التى تقرر فرض الرسوم عليها ، غير أنه لم يفرض أى نوع من الرسوم على السلع الغذائية .

٣ — ادارة البلدية وتقوم بجمع الرسوم المستحقة على رخص التجارة ، وتشرف على أسـعار السلع الغذائية فى الأسواق التى تحدد على ضوء مثيلتها فى عدن .

وقـد تولت هذه الادارة أيضا الاشراف على مستشفى الجزيرة، وقـد قام هذا المستشفى بعلاج جميع أبنـاء الجزيرة بدون مقـابل ولـكنه كان يعـالج القادمين من خارجها بنفقات تقدر فى كل حالة على حدة . وقد أدى هذا المستشفى ، كما يقول الحـاكم العـام لقمران ، خدمة عظيمة « سواء على الصعيد الصـحى أو على الصعيد السياسى حيث ساعد على الثقة فى الحكومة بالاضافة الى تنمية علاقات الود بينها وبين الأهالى » .

٤ — أما الادارة التعليمية فقـد كانت مهمتها الأساسية تعليم القـرآن كتابة وقراءة .

٥ — وتأتى بعد ذلك ادارة الشرطة والسجون التى كانت تقوم بأعمـال الأمن الداخلى وكانت أكبر الادارات من حيث عدد المشتغلين بها .

٦ — يعقبها ادارة الميناء التى كانت تقوم بجمع الرسـوم على القوارب بالاضافة الى اصدار رخص صيد اللؤلؤ .

٧ — وأخيرا ادارة الخزينة المسئولة عن شتى الشئون المالية للجزيرة .

والواضح أن قمران فى تقدير البريطانيين ـ قد أحرزت تقدماً ملحوظاً فى ظل هذه الادارة وهو ماسجله تقرير الكابتن ويكمان الذى أمدنا بكل المعلومات السابقة ..

يقول هذا التقرير عن أحوال الجزيرة فى عام ١٩٢٧ ..

« لقد بلغ عدد سكان قرية كمران وحدها أربعة آلاف نسمة وهناك حالة من الرخاء وتحسنت كثيراً طريقة بناء البيوت ولم يعد يسمح ببناء الدور من البوص كما كان الحال من قبل فيما عدا الأسقف والشرفات .

« وانتعشت التجارة بقدر ملحوظ وتستخدم قمران الآن كمنطقة عبور للحيه وغيرها من المناطق الواقعة على الساحل .

« أما المستشفى فقد قام بالكثير لتحسين الأحوال الصحيةبالجزيرة ويبلغ عدد المترددين عليه نحو ٣٥٠ شهرياً » .

بيد أنه بالرغم من كل هذه النغمة المتفائلة فقد أشار الرجل فى نهاية تقريره الى حقيقة خطيرة تتمثل فى العجز فى ميزانية الجزيرة حيث بلغت جملة النفقات عن ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ مبلغ ٤٧ر٧٧٣ جنيها بينما لم تزد الايرادات عن ٤٠ر١٣ جنيها (٣٣) .

ولا شك أن هذا العجز قد دفع الادارات البريطانية ، الى محاولة القاء تبعة ادارة الجزيرة كل على الأخرى ، مما يشكل الجانب الأخير من هذه الدراسة .

قمران بعد ١٩٢٤ : بين التبعية لحكومة الهند والتبعية لوزارة المستعمرات

فى خريف عام ١٩٢٧ وضعت وزارة الهند فى لندن مذكرة سرية طويلة بعثت بها الى وزارة المستعمرات تطلب منها تخليص حكومة الهند من الاستمرار فى ادارة قمران واسناد هذه الادارة الى الحكومة البريطانية .

---

(33) Enc. 1 in No. 296.

وقد وضعت المذكرة مجموعة من الأسباب التى دعت حكومة الهند الى هذا الطلب يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ — انه لم تعد ثمة فائدة تذكر تعود على هـذه الحكومة من استمرار احتلالها للجزيرة .

وتشير المذكرة فى هذا الصدد الى أن حكومة الهند قـد وافقت عند احتلال الجزيرة على أن هذا الاحتلال اذا كان يحقق مصـلحة الهند فهو يحقق بنفس القدر مصلحة الحكومة البريطانية فى تأمين الطريق البحرى الى الشرق .

وقـد تقرر على ضوء هذه الحقيقة عند احتلال قمران أن يتحمل الجيش نفقات الجزيرة مناصفة مع حكومة الهند على أن يحصـل على نصف دخلها .

٢ — ثم تشير بعد ذلك مذكرة حكومة الهند الى الوضع الدولى المعقـد فى الجزيرة فتذكر أن تركيا قـد تنازلت فعلا عن سيادتها عليهـا ولـكن ليس الى بريطانيا ، فقد ترك للاطراف المعنيـة أن تقـرر مصير تلك الأراضى المتنازل عنها .

وترى وزارة الهند أن هذا الموقف سوف يؤدى الى نتيجة مربكة فيقول : « ان الجزيرة بأى المقاييس ليسـت قسـما من الأراضى الهندية وانه بالامكان أن تنشأ فى أى وقت حولها تعقيدات دولية لن تختص بها حكومة الهند بقدر ما تختص بها الوزارة المشرفةعلى السياسات العربية ، وانه ليس من المعقول أن تبقى تلك الحكومة مسئولة عن الجزيرة لمجرد أن لها مصلحة محدودة فى مركز الحجر الصحى القائم فيها » .

٣ — ثم تسجل المذكرة حجة ثالثة للتخلص من الجزيرة مؤداها أنه لمـا كانت كل من حكومة الهند والحكومة البريطانية بصدد عقد اتفـاق تنتقل بمقتضاه الادارة العسكرية والسياسية لعدن وملحقاتهـا الى الأخيرة فمن الطبيعى أن يصحب ذلك انهاء التبعية الادارية لكمران للحكومة الأولى .

٤ — وتنتهى المذكرة بالاشارة الى استعداد حكومة الهند لاعارة السلطة التى سوف تتولى مسئولية ادارة قمران الموظفين العاملين فى هذه الادارة الى حين تدبير الموظفين اللازمين لها .

وتبـدأ السلطات المعنيـة فى كل من وزارة المستعمرات ووزارة الخارجية ووزارة الطيران فى دراسة مطلب حكومة الهند (٣٤) .

وكانت أهم العقبات فى طريق الاستجابة الى هذا المطلب ما يمكن أن يترتب على تغيير الأوضـاع فى قمران من اثارة الايطـاليين .. وقـد حدث .

فمن ناحية شهدت الفترة الممتدة بين ٦ أغسطس عام ١٩٢٦ و١١ أبريل من العـام التالى محاولات ايطالية حثيثة لايجاد موضع قدم لهم فى قمران .

ذلك أن وكيل شركة بترول ايطاليـة فى الحـديدة ، هى الشركة الايطالية — العربية (سيكتار Scitar) قد تقـدم بطلب لاقامة خزان بترول فى الجزيرة ، وقـد ساندت وزارة الخارجية الايطالية هذا المطلب بشتى الوسائل ، بيد أن الحكومة البريطانية اسـتطاعت أن تتملص من الاجابة عليه (٣٥) .. ولكن بعد لأى .

من ناحية أخرى فكرت السلطات البريطانية على ضوء مطلبحكومة الهند بتغيير تبعية الجزيرة فى جس نبض الجانب الايطـالى بأن قامت بابلاغ الحكومة الايطالية بأنها تنوى اسـتبدال قوات الشرطـة المحلية فى قمران بقوات من الجنود التابعين لحكومة عدن . ومرة أخرى تشهد الفترة الممتدة بين شهرى يناير واكتوبر عام ١٩٢٩ محاولات مستميتة من الجانب الايطالى لانتهاز الفرصة والمشاركة فى ادارة الجزيرة (٣٦) .

---

(34) Doc. No. 196.

(35) I. O. L. Docs. 314 to 326 Italian Attitude in Connexion with SCITAR OIL Company.

(36) I. O. L. Docs. 327 to 344 Italian Attitude in Connexion with Police Arrangements.

دعت كل هذه المواقف الحكومة البريطانية الى التحوط ، والى اتفاق كافة الادارات المسئولة فيها ، ابتداء من وزارة المستعمرات التى كان مطلوبا منها ادارة قمران ، ومرورا بوزارة الخارجية التى تحملت عبء الاتصالات مع الحكومة الايطالية ومواجهة ضغوطها ، وانتهاء بوزارة الطيران التى كانت ترى نفسها صاحبة مصلحة حقيقية فى استبقاء الجزيرة فى حوزة الامبراطورية البريطانية مهما كانت الجهة التى تديرها .

اتفقت كافة هذه الادارات على ابقاء الأوضاع فى قمران كما كانت عليه خلال الفترة السابقة التى بدأت ، منذ أحتلالها عام ١٩١٥ .

ولم يكن أمام حكومة الهند تجاه هذه الأطماع سوى الرضوخ وتأجيل تنفيذ مطلبها الى وقت آخر مناسب (٣٧) . مما ينهى هذه المرحلة من مراحل الصراع حول آخر جزائر البحر الأحمر .. قمران الصغيرة .

---

(37) I. O. L. 69285/29/21 India Office to Colonial Office June 18, 1929.

٢٦

البحر الأحمر بين الحربين العالميتين (١٩١٩–١٩٣٩)

صفحة من العلاقات السعودية ـ المصرية

للدكتور محمـــود متولى

كلية الآداب ـ جامعة المنيـــا

تعتبر الحقبة التاريخية التى عاشتها دول البحر الأحمر خلال فترة ما بين الحربين هى أهم مرحلة فى حياة هـذه الدول ســواء من ناحية التغيرات الاستراتيجية أو الحـدود السياسية التى ألمت بهـذه الدول ، أو الصراعات الدولية حـول هذه المنطـقة والتى يمكن اعتبارها احـدى الأسباب التى أدت لنشـوب الحرب العالمية الثانية .

ولمـا كان من غير المستطاع ان نحصل على دراسة متكاملة لكافة العلاقات الدولية بين هـذه الدول فى مثل هـذا البحث الموجز ، لذلك فاننا اثرنا أن نختار دولتين متجاورتين تقعان على ســواحل هذا البحر ولهما ثقلهما فى المنطقة ووضعهما الخاص وهما السعودية ومصر لدراسة العلاقات بينهما :

وكان اختيارى لهاتين الدولتين ذا مغزى خاص لعدة أسباب :

أولا : لأنهما اكبر دولتين تحيطان بسواحل البحر سواء من حيث الثقل السياسى أو الموقع الاستراتيجى .

ثانيا : لانهما يمثلان نموذجا فريدا من حيث تكامل شكل الاستقلال السياسى لكـل منهما .. لكنهما كانا يخضـعان .. بدرجات متفاوتة .. لسيطـرة أجنبية من دولة واحـدة لعبت دورا هاما وخطيرا فى اقرار العلاقات السوية بين الدولتين تتلاعب بهما وفقا لأطماعها وأهوائها .

ثالثا : ان شواهد العلاقات تؤكد ان كافة العناصر التى كانت تؤثر عليها بصفة سلبية انما لم تؤد فى النهاية الا الى اثبات أنها جميعا مفتعلة وأن المعاهدة التى وقعت بين البلدين سنة ١٩٣٦ استبعدت هذه العناصر تماما والتى اتفق على أن تبحث فى وقت لاحق وتم ذلك فعـلا من خلال مجموعة من الخطابات المتبادلة .

رابعا : ان حقيقة ما كان يجرى بين الدولتين كان على أساس التنافس على زعامة العالم الاسلامى بصفة عامة والعالم العربى فى منطقة المشرق العربى بصفة خاصة وقد لعبت بعض الشخصيات السياسية دورها فى تقارب أو تباعد الدولتين واتسم ذلك مع السياق العاطفى لحركة التاريخ فى شرقنا العربى .

ورغم أنه من الخطأ تاريخيا أن نسمى الموضوع العلاقات المصرية السعودية على أساس أن اعلان دولة السعودية لم يأخذ شكله الرسمى الا سنة ١٩٣٢ حينما أعلنت سلطنة نجد ومملكة الحجاز دولة واحدة باسم المملكة العربية السعودية ، الا أننا نتجاوز عنها بحكم الوضع السياسى وهو خضوع الحجاز لحكم آل سعود بعد غزوة على يد السلطان عبد العزيز وطرد الأسرة الهاشمية منه ، ولذلك فانه كان من الأصوب أن نطلق على عنوان البحث اسم العلاقات الحجازية المصرية ولكن حيث لم يكن للحجاز شخصيته الدولية المستقلة ابتداء من سنة ١٩٢٥ وكان فى ذلك الوقت خاضعا لسلطة آل سعود فاننا نضع ذلك فى الاعتبار .

بقيت نقطة هامة حول الملاحظـات على البحث وهى أن العـلاقات بين الدول ناقصة السـيادة من حيث الواقع الفعـلى تجعلنا نضع فى الاعتبار خضـوع السياسة الخارجية لها لكثير من أطماع وسيطرة القوى المسيطرة عليها ونقصد بها فى حالتنا هـذه بريطانيا ولذلك فان علاقتهما كانت ناقصة رغم الشـكل الظاهـرى لتكاملهما لأنهما لم يكونا يملكان تقرير مصيرهما بأنفسهما ، وكان الوضع فى مصر أوضح من الوضع فى فى السعودية من حيث نقص السيادة .

والبحث ينقسم الى قسمين :

القسم الأول العلاقات المصرية الحجازية وقت أن كان الحجاز مستقلا وله شخصيته الدولية خـلال حكم الهاشميين وذلك فى الفترة من ١٩١٩ حتى سنة ١٩٢٥ .

القسم الثانى : العلاقات المصرية السعودية وهى تنصب أساسا على الحجاز أيضا ولكن بوضعه الجديد بعد خضوعه لسلطان نجد وضم السعوديين له فى اتحاد مع سلطنه نجد .

أولا : العلاقات المصرية الحجازية

١٩١٩ — ١٩٢٥ م .

وضع الحجاز حتى سنة ١٩٢٥ :

رغم خضوع الحجاز للحكم العثمانى الا انه كان ذا وضع خاص ولم تكن سيطرة العثمانيين عليه الا من الناحية الاسمية أى أنه كان يتمتع بوضع استقلالى نسبيا حيث كانت تتولى حكم أهم مدينتين فيه .. وهما مكة والمدينة ..

اسر الأشراف الحجازية تحكم باسم السلطان العثمانى :

وقد ظل هذا النظام على صبغته الاستقلالية طوال القرنين الـ ١٧ ، ١٨ واستمر الموقف على هذا النحو حتى خضع الحجاز للحكم المصرى خلال عصر محمد على(١) وبعد القضاء على امبراطورية محمد على عاد الحجاز الى وضعه القديم ، وبعد قيام ثورة الاتحاد والترقى فى تركيا أعاد الاتحاديون الشرافة الى الحسين بن على حفيد أول الأشراف العباد له بعد أن قضى وقتا طويلا منفيا فى عاصمة الدولة العلية بلغ خمسة عشر عاما .

ويتولى الشريف الحسين الشرافة فى مكة بدأ يعمل على تقوية نفوذه ولكنه لم يلبث أن اصطدم بالاتحاديين بسبب محاولتهم تشديد القبض على السلطة فى أملاك الدولة العثمانية وبالذات الممتلكات العربية ومحاولتهم اتباع سياسة التتريك التى كانت تهدف الى تسويد العنصر الطورانى واتباع مبدأ المركزية الادارية فى الحكم(٢) وللحد من سلطة الشريف الحسين بن على واضعاف مركزه عين الاتحاديون واليا فى فبراير

---

(١) محمد انيس — السيد رجب حراز : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر القاهرة ١٩٦٧ ص ١٣٥ — ١٣٦ .

(2) Kéine, H. Z., Turkish relations and the emergence of Arab Nationalism, Beirut 1958, Chap V. pp. 240 - 241.

سنة ١٩١٤ على الحجاز وتأكد الشريف الحسين من هذه النوايا والتى كانت تمهد فى النهاية لعزله .. ومن ثم سعى الى الالتجاء الى قوة تحميه قبل العثمانيين ولم يجد أمامه الا بريطانيا وبدأ معها محاولات لضمان وقوفها بجانبه(٣) .

والواقع أن الشريف حسين لم يكن يهدف باتصاله ببريطانيا الا أن تساعده على تثبيت حكمه فى مكة وضمان أن يظل هذا الحكم وراثيا فى أسرته ولكنه لم يجد من بريطانيا تشجيعا فى طلب معونتها ولعل السبب فى ذلك أن بريطانيا كانت لا تريد أن تخسر صداقة تركيا فى ذلك الوقت والذى لم يكن قد بدا فى الافق ، أن تركيا بصدد الانضمام لألمانيا فى الحرب ضدها(٤) .

الا أنه بانضمام تركيا الى دول الوسط فى ٢ أغسطس سنة ١٩١٤ واعلانها الجهاد المقدس فى شهر نوفمبر سنة ١٩١٤ وبدأت انجلترا تستميل الشريف الحسين وحدثت الاتصال المشهورة تاريخيا باسم مراسلات الحسين مكماهون واستعد الشريف الحسين لاعلان الثورة العربية الكبرى ضد تركيا ، ونجحت بريطانيا بمجموعة من الوعود البراقة فى اغراء الحسين على اعلان هذه الثورة التى اعلنت فى ١٠ يونيو سنة ١٩١٦(٥) .

وقد ساعدت بريطانيا الثورة من خلال بعض سفن اسطولها التى عبرت البحر الأحمر واقتربت من ميناء ينبع(٦) .

وظن الشريف الحسين أن بامكانه تحقيق أمانيه عقب نجاح الثورة ومن

---

(٣) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى جـ ١ القاهرة ١٩٦٨ ص ١٠٥ .

(٤) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤ — ١٩١٤) .

(5) Lawrance, T. E., Revolt in the desert, London 1927, p. 152.

(6) Lawrance, T. E., Seven Pillers of Wisdom, London 1935 p. 127.

ثم سعى الى أن يبايعه رجال الدين وأهل مكة ملكا على العرب وذلك في ٣ ديسمبر سنة ١٩١٦(٧) .

ولقد أدى هذا العمل من جانب الجيش الى نوع من الاستياء لدى بريطانيا وفرنسا والعرب وكان لكل من الثلاثة أطراف موقفه الخاص ، فبينما بريطانيا كانت ترى فى ذلك قفزا لأطماع الحسين فان فرنسا خشيت على نفوذها فى المنطقة التى كانت تأمل فيها فى كل من سوريا ولبنان ، أما زعماء ورؤساء العرب وملوكهم فكانوا يرون أن ذلك انتهازية من الحسين وأنهم لا يوافقون على ذلك ، خاصة وأنهم كانوا يعيبون على الحسين صداقته مع الانجليز وكان أكثر أعداء الحسين في هذا الموقف عبد العزيز بن سعود .

ولكن بريطانيا رأت حلا لهذا الموقف المعقد أن تعترف بالشريف الحسين ملكا على الحجاز فقط وقد أبلغ بذلك فى ٣ يناير سنة ١٩١٧(٨) .

ولكن الشريف الحسين بدأ يندد ببريطانيا ويشهر بها عدم وفائها بعهودها له ، ومنذ ذلك التاريخ أحست بريطانيا أن الشريف الحسين سوف يكون عبئا عليها ، كما أنه سوف يطالبها بتنفيذ تعهداتها ونحن نعتقد أن ذلك هو البداية للتخلى عن الحسين بل واعطاء الضوء الأخضر لأمير نجد عدوه اللدود ليخلصها منه .

وقد هزمت قوات الحسين فى هذا الصدام والذى انتهى فى النهاية بزحف ابن سعود على الحجاز نفسه حيث تم له الانتصار النهائى فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٢٤ حيث انسحبت قوات الحسين الى بازان فى أعالى مكة وبعد هذا الانسحاب أصبح الطريق مفتوحا الى مكة(٩) .

وكان من نتيجة الهزائم المتكررة للحسين أن رأىأعيان الحجاز ضرورة أن يتنازل الحسين عن العرش لابنه الأكبر الأمير على اعتقادا منهم

(٧) جريدة القبلة ، العدد ٢٢ ، السنة الأولى ، المحرم ١٣٣٥ هـ .

(8) Antonious, G., The Arab Awakening, London 1938, p. 181 - 214.

(٩) أمين الريحانى ، تاريخ نجد وملحقاته ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٣٣٤.

أن العداء الشخصى بين ابن سعود وبين الحسين هو الذى أدى الى الحرب وبالفعل بويع ملكا للحجاز فى ٤ أكتوبر سنة ١٩٢٤ (٥ربيع الأول ١٣٤٣ هـ)(١٠) وغادر الحسين الحجاز الى العقبة بعد عشرين يوما من التنازل لابنه ولكنه اضطر الى مغادرتها الى قبرص تحت ضغط بريطانيا والتى رأت ابعاده عن المسرح كلية بحجة أن الملك عبد العزيز قد يهاجم العقبة لوجود الحسين بها(١١) .

وبتولى على ملك الحجاز بدلا من والده انتقل الى جده لمواصلة الاستعداد للحرب ولكن لم يكن يملك شيئا يواجه به ابن سعود الذى كان قد استولى على مكة بدون قتال فى ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ هـ (١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٤) وكان ذلك على يد أحد قواده وهو خالد بن لؤى(١٢) وفى يناير سنة ١٩٢٥ كانت الجيوش السعودية تحاصر جدة ثم المدينة المنورة التى سقطت فى ٥ ديسمبر سنة ١٩٢٥ الموافق ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٤ هـ(١٣) .

ولم يلبث عبد العزيز أن شدد الحصار على جدة مما أجبر الملك على أن يستسلم وفعلا غادر الحجاز فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢٥ وبذا انتهى حكم الهاشميين على الحجاز ليصبح عبد العزيز بن سعود ملكا عليه بعد مبايعة أهل الحجاز له(١٤)

واذا ما حاولنا تقييم الموقف بالنسبة للعلاقتين بين كل من مصر والحجاز خلال الفترة منذ سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٢٥ وذلك عندما كان الحجاز خاضعا للسلطة الهاشمية فانه وجب علينا أن نلقى نظرة سريعة على الأوضاع فى مصر حتى تكمل الصورة ثم نتكلم على موقف مصر من

---

(١٠) أحمد عبد الغفور عطار : صقر الجزيرة جده ١٩٦٥ ص٢٩٣ .

(11) The Near East and India, XXVIII, No. 339 November 1925, pp. 646 - 648.

(١٢) محمد عبد الله ما ضى : النهضات الحديثة فى جزيرة العرب جـ١ ، القاهرة ١٩٥٣ ص ١٦٠ .

(١٣) جريدة أم القرى : ٢ جمادى اثانية ١٩٤٤ هـ . (١٨ ديسمبر ١٩٢٥) .

(١٤) أم القرى : ٣٠ جمادى الثانى ١٣٤٤ (١٥ يناير ١٩٢٦) .

الصراع الدائر بين الهاشميين والسعوديين وهل كانت هناك علاقة بين الحجاز وبين مصر خلال فترة القتال التي شرحناها آنفا وكنة نوعها .

الوضع فى مصر حتى سنة ١٩٢٥ :

تحولت مصر فى ديسمبر سنة ١٩١٤ الى محمية بريطانية ، وكان هذا التغير فى وضع مصر يمثل زيادة قبضة بريطانيا على كافة أوضاع مصر(١٥) .

وبالطبع لم يسلم المصريون طواعية لكل ما حدث ، لهذا لم تكد الحرب العالمية الأولى تنتهى حتى تحركت مصر من اقصاها الى أقصاها وبدأت ثورة سنة ١٩١٩(١٦) .

وبالنسبة للعلاقات المصرية الحجازية خلال الحرب العالمية الأولى فانه يمكن أن يقال ، أن مصر الدولة لم يكن لديها خطط أو مشروعات تجاه الشريف الحسين حتى اعلانه ثورته فى سنة ١٩١٦ ولكن الخديوى عباس حلمى الثانى المخلوع عن العرش كان قد حاول أن يسترضى الانجليز من خلال ابداء استعداده للتعاون مع الشريف الحسين ضد تركيا على أساس أن تتكون خلافة عربية للمملكة المقترحة وسلطة سياسية ويكون للشريف الحسين حق الخلافة العربية ولعباس حلمى حق السلطة السياسية(١٧) ولكن هذه المحاولة لم تجد تحبيذا لدى بريطانيا ولا لدى الحسين . وقد حاول عباس حلمى بعد عزله الاتصال بالحسين عقب قيام هذا الأخير بالثورة العربية ولكن الحسين لم يعره التفاتا(١٨) .

الا أن موقف المصريين من ثورة الشريف الحسين لم يأخذ طابع

---

(١٥) حافظ محمود : ثورة ١٩١٩ فى ذكراها الستين ٨ مارس ١٩٧٩ .

(١٦) محمد صبيح : مذكرات محمد فريد (فى كتاب أيام وأيام) ص ٢٨١ .

(١٧) مذكرات محمد فريد : مجلة الكاتب العدد ١١٥ اكتوبر سنة ١٩٧٠ ص ١٦٨ .

(١٨) المرجع السابق ص ١٦٩ — ١٧٠ .

التشجيع بل اعتبروا هذه الثورة ضد المصلحة الاسلامية ويفسر المصريون بالسخط على الحسين لتحالفه مع عدوهم اللدود بريطانيا خاصــة وأن المصريين كان لديهم الأمل فى دولة الخلافة والتى عن طريق التحالف معها يمكن القضاء على الوجود البريطانى فى مصر ولعل ذلك يفسر أيضا أن الفكرة الاسلامية فى مصر كانت أقوى من الفكرة العربية على أساس أن التيار الاسلامى هو المنقذ للشرق العربى من الغرب الاستعمارى .

أما عن موقف مصر من النزاع السعودى الهاشمى فى الحجاز فان لنا بعض الملاحظات نذكرها فيما يلى :

أولا : أن الحسين كان قد أساء الى مصر فى بعض المواقف وخاصة من اعلان ثورته انطلاقا من مفهوم أنه بهذا العمل دعم الوجود البريطانى فى مصر وكان المفروض وأن يقف الى جانب تركيا التى كانت بصدد غزو مصر من خلال حدودها الشرقية كما أن بعض الحجــاج المصريين لاقوا الكثير من المتاعب والمضايقات خلال سفرهم الى الحجاز أثناء فترة الحرب العالمية الأولى وبالذات بعد الثورة فى سنة ١٩١٦ .

ثانيا : شاب موقف مصر الشعبى العطف على ابن السعود وموقفه من الحسين خاصة وأن ابن السعود كان يرفع شعار الدفاع عن الاسلام .

ثالثا : لم تستطع مصر الرسمية اتخاذ موقف معين قبل الصراع بين السعودية وبين الهاشميين فى الحجاز يعبر عن اتجاه الراى العام المصرى والســبب أن المكتب البريطانى فى القاهــرة والمرتبط بوزارة الخارجية البريطانية كان يهتم بالسويس وعدن والبحر الأحمر عموما ومن ثم كان من رأيه الاهتمام باقامة علاقات طيبة مع الدول المحيطة بهذا البحر فكان رأى هذا المكتب دعم الهاشميين كمرحــلة استراتيجية ورغم أن حكومة الهند البريطانية كانت تؤيد ابن سعود فى كثير من مواقفه على أساس من حماية المصالح البريطانية فى الخليج وعلى أساس ارضاء المسلمين الهنود الذين كانوا يميلون للوهابية كدعوة لاحياء السلفية(١٩) ، الا أن تطورات

---

(19) Troeller, G., The Birth of Saudi Arabia, London 1976, pp. 132 - 133.

الموقف بين انجلترا والشريف الحسين جعلت انجلترا تتخلى عن الحسين وتغمض عينيها عن طماع ابن سعود فى ملكه(٢٠) .

ويلاحظ أنه ابتداء من سنة ١٩٢٠ كانت العلاقات المصرية الحجازية خلال حكم الهاشميين للحجاز فى حالة توتر والسبب أن حكومة الشريف الحسين منعت دخول بعثة طبية ترافق المحمل المصرى . وعلل الحسين رفضه بأن مصر منعت المساعدات الشهرية التى كانت ترسلها للحجاز ، وكانت وزارة الأوقاف المصرية ترسلها لبعض فقــراء مكــة والمدينة من ميزانية الأوقاف العامة وقــد قللت مصر من حجمها بســبب وفاة بعض أصحابها الا أن الحسين كان يصر على أن ترسل كاملة(٢٢) ورفضت مصر مناقشة موضوع الأمانات قبل السماح بســفر البعثة الطبيــة وأصر كلا الطرفان على موقفهما ، ورغم أن الحسين وافق على سفر مجموعة من الأطباء ضمن بعثة الحج المصرى الا أن الحكومة المصرية أصرت على أن تذهب البعثة الطبية منفصلة تماما ولمــا رفض الحسين ذلك استدعت الحكومة المصرية بعثة الحج المصرى وعاد المحمل دون اتمام مناسك الحج وكان ذلك ســببا فى انهيار العــلاقات بين الهاشميين ومصر فى سنة ١٩٢٣ .

الا أن ذلك لم يمنع من محاولة تدارك الخلاف ومن ثم بدأت محاولات للوصول الى وجهات نظر متقاربة ، وفعلا تقابل محمد توفيق نسيم وزير المــالية المصرى ووزير الداخلية بالنيابة مع الســيد عبد الملك الخطيب، المعتمد السياسى للحكومة الهاشمية فى مصر وبعد عقــد عدة جلسات تم الاتفاق على تنظيم أمور المحمل المصرى والبعثة الطبية المرافقة له(٢٣) .

وعاد المحمل المصرى مرة أخرى الى أرض الحجاز فى موســم حج سنة **١٩٢٤** ، ولكن سفر المحمل وبعثة الحج والبعثة الطبية الا أن الأحوال فى الحجاز **أدت** الى اضطراب العلاقات من جديد ولعل ذلك يعود الى

---

(٢٠) حسين فوزى النجار : الســياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط ص ٤٣٧ .

(٢١) جريدة القبلة ، ٢ ذى الحجة ١٣٤١ هـ .

(٢٢) المقطم ١٨ يونيو ١٩٢٤ .

سوء معاملة الحجاج المصريين وندرة المياه اللازمة لهم وارتفـــاع أجور الابل ، الى جانب ما ارتكبه الهاشميون من نزع اسم الملك فؤاد من على كسوة الكعبة المرسلة من مصر وهذا العمل اعتبرته مصر اهانة شخصية لمليكها(٢٣) .

وبدأت الصحافة المصرية تندد بما حدث ، وتطرق الوضــع الى سوء الأحوال من الحجاز وتدهور الأحوال فيه وأن ذلك ليس لصالح المسلمين

وفى ذلك الوقت بدأ عبد العـزيز سـلطان نجد ينتهـز فرصـــة وقوع الخـلاف بين مصر والهاشميين لأنه كان يدرك حقيقة ما يدور فى الحجاز وبدأ يتقرب لمصر استعدادا لخطواته التالية ومن ثم نراه يرســل برقية تهنئة للملك فؤاد بمناسبة الاحتفال بافتتاح البرلمان المصرى سنة ١٩٢٤ ، بل وفوق ذلك يصرح من خلال ابنه فيصل أنه يرحب بعقد مؤتمر للخلافة الاسلامية فى القاهرة وكان ذلك كله أحد الأسباب التى جعلت الموقف الرسمى فى مصر يتعاطف مع عبد العزيز .

ولكن الغـزو السـعودى للحجاز أثار فى الذاكرة المصرية بعض الذكريات القديمة التى جرت خلال السنوات الأولى للقرن التاسع عشر وخافت مصر أن تتكرر تلك المآسى فى الأراضى المقدسة خاصة بعد أن أشيع أن النجديين فى غزوهم الطائف ارتكبوا الكثير من المجازر والمذابح(٢٥) .

ولكن مصر لم تفعل شيئا حيال الغزو السعودى لأرض الحجاز ، من ناحية لأنها كانت لا تملك القدرات الحربية لخوض معارك فى ذلك الوقت ومن ناحية ثانية لأن انجلترا كانت ترى عدم التدخل ومن ناحية ثالثة لآن الرأى العام الاسلامى فى مصر كان ضد الحسين بسبب مواقفه المتكررة سواء فى تحالفه مع الانجليز أو فى اساءة معاملة للحجاج المصريين أو موقفه من البعثة الطبية السابق ذكرها . وبدخول عبد العزيز بن سعود مكة كان أول عمل قام به أن يشـكر أعضـاء البعثة المصرية لجهودهم

---

(٢٣) أرشيف رئاسة مجلس الوزراء المصرى : تقرير ادارة الحج لعام ١٩٢٤ م (١٣٤٢ هـ) .

(٢٤) الأهرام ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٤ .

(٢٥) المقطم ١٦ سبتمبر سنة ١٩٢٤ .

وحملهم رسالة شفوية للملك فؤاد يطالبه فيها بالاهتمام بشؤون الحجاز لاعانتــه على الخروج من الضائقة الاقتصادية التى يعانيها وطالب الملك عبد العزيز مصر بأن ترسل الى أهل الحجاز شيئا من أوقاف الحرمين . وقد استجابت مصر لهذه المطالب ووقفت موقفــا ايجابيا من حيث الاستجابة لانقاذ المنكوبين ومساعدة أهل المدينة المنورة بصفة خاصة(٢٦) .

بل ان مصر أرسلت فى نهاية حكم الهاشميين بعثة طبية ولكن الملك على رفض السماح بدخولها جدة عن ظن أن لها أغراضا سياسية(٢٧) .

ورغم البداية الطيبة للعلاقات بين مصر وابن ســعود الا أن مصر بدأت خطوة جعلت ابن سعود يشعر بالاستياء ونعنى بهذه الخطوة امتناع مصر عن ارسال قافلة الحج لعام ١٩٢٥ وذلك تحت ضغط الاشاعات التى نشرها الهاشميون وما رددته الصــحف حــول الأخطــار التى ستحيق بالحجاج من جراء الحرب القائمة هناك وعدم استباب الأمن(٢٨) .

وحاول عبد العزيز بن السعود التأكيد بأن الوضع مستتب وأن كل شيء سيكون لسلامة الحجاج الا أن هذا لم يؤد الى اثناء الحكومة المصرية عما اعتزمته (٢٩) .

وخلال الحرب الدائرة فى الحجاز أرسل الملك فؤاد الى الســلطان عبد العزيز فى ٣٠ اغسطس سنة ١٩٢٥ (١١ صفر سنة ١٣٤٤) رسالة هذا نصها (٣٠) :

« ان الحرب الدائرة حول المدينة المنورة قد أقلقت خواطر المسلمين لما عساه يحدث عن تأثير فى الأماكن المقدسة التى نجلها جميعا ونحافظ على آثارها الكريمة . ولا يخفى على عظمتكم ما لهذه الأماكن من الحرمة

---

(٢٦) أم القرى : ١٠ شعبان ١٣٤٤ (٦ مارس ١٩٢٥) .
أم القرى : ١١ جمادى الأولى ١٣٤٤ (٢٧ نوفمبر ١٩٢٥) .
(٢٧) أمين الريحانى : المرجع السابق ص ٣٩٧ .
(٢٨) أم القرى ٢٥ ذوى الحجة ١٣٤٣ ، الاهرام ٢٥ يناير ١٩٢٥ .
(٢٩) أم القرى : العدد السابق .
(٣٠) أرشيف رئاسة الوزراء المصرى : ملف العــلاقات المصرية السعودية ، برقية الملك فؤاد الى الملك عبد العزيز .

التى توجب أن تكون بعيدة عن كل أذى رغم ما يقتضيه أى نزاع أو خلاف، لكن ما نعتقده فى شديد غيرتكم الدينية لما يطمئن قلوبنا والمسلمين عامة على صيانة الحرم النبوى الشريف وآثار السلف الصالح الدينية » .

وقد رد الملك عبد العزيز على برقية الملك فؤاد فى ٤ سبتمبر ١٩٢٥ قائلا (٣١) :

« اننى أشكركم من صميم فؤادى على غيرتكم الدينية .. وانى اقدر ما شرحتموه حق قدره ... ان حرم المدينة كحرم مكة نفديه بأرواحنا وكل ما نملك ، وأن ديننا يحمينا من الاتيان بأى حدث فى المدينة المنورة وسنحافظ على آثار السلف وكل ما هو فى المدينة مما يهم كل المحافظة عليه ... أن العدو يحاول أن يشوه وجهة جهادنا بما يفتريه من الكذب والبهتان ويحاول أن ينال بالبهتان ما عجز عنه بالسنان ، ولكن الحق أبلج والله مؤيد دينه ، وآخذ بنواصيه أهله ولو كره المبطلون » .

وقد حاول الملك على أن ينتهز الفرصة ليطالب الملك فؤاد بمساعدته فى جدة ضد ابن سعود ، ولكن الملك فؤاد لم يهتم بالرد على برقية الملك على بل ان الملك فؤاد رفض طلب اللجوء السياسى الذى تقدم به الشريف الحسين عقب تنازله لابنه على ليقيم فى مصر (٣٢) .

ثانيا : العلاقات المصرية الحجازية بعد خضوع الحجاز لآل سعود

بدأت هذه العلاقات بصورة طيبة حيث حاول الملك عبد العزيز كسب ود مصر وأرسل الى الملك فؤاد رسالة فى شهر سبتمبر سنة ١٩٢٥ يؤكد حسن نواياه وأنه يكره الحرب وبرر أسباب غزوه للحجاز معللا ذلك بأن الهاشميين أساءوا التحكيم فى الاراضى المقدسة وأنهم اخطأوا فى معاملتهم للنجديين ، وقال ابن سعود ان جزءا من سوء المعاملة قد لحق بالشعب المصرى .

---

(٣١) أم القرى : ٧ ربيع الأول ١٣٤٤ (٢٥ سبتمبر ١٩٢٥)

(٣٢) أرشيف رئاسة مجلس الوزراء ملف ... العلاقات المصرية السعودية رقم ٣/١/٦٥ .
مراسلات حجازية مصرية .

وقد الحق ابن سعود برسالته بعض تصوراته لمستقبل الحجاز ذكر أن ذلك لن يكون له وحده بل أنه يقترح أن يشارك العالم الاسلامى فيه وبالذات مصر وطالب الملك عبد العزيز فى رسالة ثالية أرسلها فى نفس التاريخ الملك فؤاد بأن يسرع بارسال الجراية والمخصصات المصرية لمستحقيها من أهل مكة وكان مما جاء فى رسالة عبد العزيز الى فؤاد .

(عدم كسر قلوب هؤلاء الضعفاء وتسلم هذا الحق الى حكومة جدة وحرمانهم من حقهم)(٣٣) .

ووقفت مصر موقفا لصالح بن سعود وان كان ذلك بطريق غير مقصود حيث رفضت الافراج عن شحنة السلاح التى وصلت الى ميناء السويس من بلجيكا وكانت فى طريقها الى الملك على . وقد عللت مصر موقفها بأنها لا تهدف الى وقوع مزيد من الضحايا(٣٤) .

وقد نشرت الصحافة المصرية أن شحنة السلاح هذه وصلت الى ميناء السويس على سطح باخرة بريطانية وان الذى قام بارسالها احدى الشركات الانجليزية وكانت تحوى ٢٢٤ صندوقا من الذخيرة ، ٩٦ صندوقا من السلاح . وقد قامت السفينة الانجليزية بانزال هذه الشحن فى ميناء السويس تمهيدا لنقلها على سطح باخرة أخرى الى جنوب البحر الاحمر عند ينبع أو جدة ولكن وزارة الداخلية المصرية أمرت بالتحفظ على الشحنة وحظرت ارسالها الى جنوب البحر الاحمر ولكنها سمحت لها بالتوجه الى أوربا أو الى أى جهة أخرى غير مناطق القتال فى الحجاز وقد قيل أيضا على صفحات الصحف ان الذى قام بهذه العملية تاجر أسلحة وان مصدر السلاح كان بلجيكا . (٣٥)

وقد حاول الاهرام فى شهر مايو سنة ١٩٢٥ تفسير موقف مصر بأن ذلك لصالح الطرفين المتحاربين فى الحجاز ، كما أن موقف مصر الرسمى هو الحياد . الا أن الاهرام فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٢٥ عادت

---

(٣٣) ارشيف رئاسة الجمهورية المصرية قصر القبة ملف ١٤٨٠ ج ١ رسالة الملك عبد العزيز الى الملك فؤاد بتاريخ ٩ ربيع الأول ١٣٤٤.

(٣٤) الاهرام ٧ مايو سنة ١٩٢٥ ، الاهرام ٩ مايو ١٩٢٥ .

(٣٥) المراجع السابق

فذكرت انه تم الافراج عن شحن السلاح وعلقت الجريدة بأن الانجليز كانوا السبب وراء الحجز ووراء الافراج . وقرب نهاية سقوط الملك على بدأ آخر محاولة للتقرب من مصر حيث أرسل خطابا للملك فؤاد حاول أن يذكره فيه بالروابط التى تربط البلدين وجاء فى الخطاب أن عليا يعترف بالملك فؤاد كأعظم الملوك المسلمين وأن فؤاد هو أقرب المجاورين للحرمين الشريفين ورجاه الافراج عن شحنة السلاح المذكورة .

ولكن وضح أن حكومة مصر لم تكن متعاطفة مع حكومة الهاشميين وذلك بسبب مواقف الاخيرة من الموضوعات السابق طرحها ، وأكدت مصر أسلوبها الحيادى على أساس أن كل ما يهمها هو السلام وسلامة الاراضى الحجازية واستتباب الامن للحجاج حتى يتمكن المسلمين من اداء شعائر الحج فى اطمئنان وسلام . (٣٦)

وفى ١١ أغسطس سنة ١٩٢٥ أرسل الملك على الى الملك فؤاد يطلب منه التدخل فى الصراع الدائر فى الحجاز ولكن فؤاد لم يرد عليه ، ولكن على ظل يحاول التودد للملك فؤاد الى درجة انه أبدى استعداده بأن يعترف له بالخلافة وان يؤكد ذلك بالكتابة والاعلان الرسمى (٣٧) بل لقد وصل الامر بالملك على وهو يستجدى مساعدة الملك فؤاد انه كاد يضع نفسه تحت حمايته كما يتضح ذلك من الخطاب التالى الذى ارسله للملك فؤاد فى ٢ ربيع الأول . (٣٨)

(وانى اعد بأن اكون على وفاق تام مع جلالتكم فى القضية الاسلامية التى أستطيع جذبها الى هذه المنطقة ، وبألا يكون لحكومة الحجاز سياسة تخالف سياسة مصر أو تضر بمصالحها فى الخارج ، وزيادة فى اقامة الحجة على الراغبين فى الاتفاق ، اعد بأن استخدم الاكفاء من المصريين

---

(٣٦) المقطم ١ اكتوبر سنة ١٩٢٤ ، الاهرام ٢ اكتوبر سنة ١٩٢٤

(٣٧) رئاسة الجمهورية المصرية ملف رقم ١٤٨٠/ ج ١ خطاب من قنصل مصر بجدة الى وزير الخارجية المصرى بتاريخ ٨ أغسطس سنة ١٩٢٥ .

(٣٨) المرجع السابق خطاب الملك على الى الملك فؤاد فى ٢ ربيع الأول ١٣٤٤ .

القيام بما تحتاج اليه البلاد فى امورها الفنية واذا بقيت أمـور اخرى لم يستوفيها كتابى هذا ، فانى اؤكد لجلالتكم استعدادى لاجراء ماتشعرون به بكل سرور) .

ولقد حاولت مصر القيام بنوع من الوساطة بعد أن طال أمد الحرب بين الهاشميين والنجديين ، وكان هذا الوفد يتكـون من الشـيخ محمد مصطفى المراغى رئيس المحكمة الشرعية العليا ، عبد الوهـاب طلعت سكرتير أول الديوان الملكى المصرى وقد وصـل الوفد الى الحجـاز فى سبتمبر ١٩٢٥ وقابل الملك على وحده ثم قابل السلطان عبد العزيزمحاولا الوصول الى تسوية عادلة للحرب بين الطرفين ولكن بينما لم يكن الوفد يحمل أى خطاب للملك على كان الوفد يحمل خطابا رقيقا الى الملك عبد العزيز . (٣٩)

وحاول ابن سعود أن يكون دبلوماسيا مع الوفد وسعى الى ارضائه بأن أكد بأن مصر ستشارك حتمـا فى تقرير مسـتقبل نظام الحكم فى الحجاز الا انه من جهة جهة أخرى اوضح أن حربه مع الهاشميين من اجل الدين وأنه لن يقبل الا كلمة القرآن(٤٠) وفعلا عاد الوفـد المصرى وأكد أن الموقف فى صـالح ابن سـعود وكتب تقرير مفصـلا بذلك (٥٠) .

وأكد الوفد المصرى أن كل مساعدة مصرية لحكومة الملك على لافائدة منها وستضيع هباء بسبب ضعف مقاومة هـذه الحكومة أمام الملك ابن السعود .

وعقب عودة الوفد الى مصر أرسل ابن سعود مستشاره السياسى حافظ وهبة الى مصر للتباحث مع الحكومة المصرية للاتفاق على أمورالحج للموسم القادم . (٤٢)

---

(٣٩) ارشيف رئاسة الوزراء ، رئاسة الجمهورية قصر القبة ملف رقم ١٤٧٦ جـ ١ .
(٤٠) أحمد عبد الغفور : المرجع السابق ص ٣٨٣ .
(٤١) رئاسة الجمهورية / قصر القبة الملف السابق رقم ١٤٧٦ .
(٤٢) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين .
(٤٣) حافظ وهبة ـ المرجع السابق ص ٢٧٦ .

ولكن بدأت بعد ذلك مرحلة من الجفاء فى العلاقات بين الملك عبد العزيز وبين الملك فؤاد حيث ارسل الملك عبد العزيز اكثر من ثلاثخطابات مع كل من الشيخ المراغى وحافظ وهبة ، رئيس البعثةالطبية المصرية ولكن فؤاد لم يهم بالرد على أحداها .

وزاد العلاقات توترا عدم اعتراف مصر بوضع ابن سعود الجديد فى الحجاز خاصة وان أهل الحجاز بايعوا ابن سعود ملكا عليهم كما أن فؤاد لم يحاول التجاوب مع الملك عبد العزيز بخصوص عقد مؤتمراسلامى فى مكة للنظر فى مستقبل الاراضى المقدسة فى الحجاز ، ولكن رغم ذلك فان مصر شاركت فى عقد هذا المؤتمر ولكن وفدها وصـــل متأخرا ولكن من الجدير بالذكر أن الملك فؤاد أنكر وصـــول اى دعوة اليه ، ثم رفض الدعوة بعد ذلك ، الا ان مصر لم تجد غضــاضة فى ارســال وفد منها لتمثيلها فى المؤتمر وكان ذلك خلال عهد وزارة عدلى يكن الاسلامية . (٤٣) ولعل عدم اعتراف مصر بالوضع الجديد للحجاز الى جانب عـدم اهتمامها بفكرة المؤتمر الاسلامى بمكة تعود الى أن الملك فؤاد كانت له أطمــاع فى الخلافة وكثيرا ماكان يعلن أن عبد العزيز باستيلائه على ارض الحجاز تم بمبايعته ملكا عليها قد أضاع عليه ـ أى على فؤاد ـ الفرصة لأن يصبح خليفة للمسلمين . ورغم أن الملك عبد العزيز أعلن انه لم يخطط لموضوع البيعة وانما جاءت طواعية من أهل الحجاز ، الا أن ذلك لم يقنع الملــك فؤاد بحسن نوايا عبد العزيز ازاء موضوع الخلافة الـذى كان يسعى اليه . (٤٤)

ولنا ملاحظتان هامتان نود أن نذكرهما :

أولا : ان الموقف الشعبى فى مصر كان يخالف الموقف الرسمى وظهر ذلك واضحا فى أن ابن سعود وجد تعضيدا فى موقفه من بعض اتجاهات الرأى العام المصرى وبالذات بعض الجماعات الـدينية ، وبعض علماء الازهر .

---

(٤٤) حافظ وهبة : خمسون عاما فى جزيرة العرب القاهرة ١٩٦٠ ص ١٣٥ .

فجماعة الخلافة بوادى النيل والتى كان يرأسها الشيخ محمد ماضى أبو العزايم أرسلت وفدا من قبلها برئاسة الشيخ ماضى نفسه لحضور المؤتمر الاسلامى بمكة ، كما طالب علماء الازهر والحكومة المصرية بأن ترسل وفدا يمثل مصر الى هذا المؤتمر الذىعقد بمكة سنة ١٩٢٦ خاصة وان مصر من اكبر الدول الاسلامية وان عدم تمثيلها فى المؤتمر سوف يسىء الى سمعتها . (٤٥)

ولقد ظهرت فى الأفق مجموعة من العوامل أدت الى سوء العلاقة والتوتر بين الطرفين السعودى والمصرى نذكرها فى ايجاز :

١ — حادثة المحمل المصرى .

٢ — عدم صرف أمير الحج المصرى للصدقات .

٣ — عدم اعتراف مصر بالوضع الجديد لابن سعود فى الحجاز .

٤ — مشكلة الخلافة وطمع الملك فؤاد فيها واحساسه أن ابن سعود منافس خطير له .

والواقع ان بعض هذه العوامل كان متأثرا الى حد ما برأى بريطانيا والتى كانت تتلاعب بالعلاقات المصرية السعودية لحسابها وعندما وجدت بريطانيا أن من مصلحتها الا يظل هناك خلاف فى الجو السياسى بين مصر والسعودية كان ان تم الاتفاق فورا على اعتراف مصر بالسعودية فى الحجاز وذللت كافة الصعوبات التى كانت سببا فى التوتر بين البلدين .

ولعل أهم الدوافع لكى تقرر بريطانيا ضرورة انهاء الخلاف بين مصر والسعودية هو ظهور موسولينى كقوة ضخمة فى أوربا حملته على اثيوبيا بحيث تهدد أمن البحر الأحمر بعد استيلائه على الحبشة ، وأدى ذلك بالطبع الى انقلاب فى التوازن الدولى فى هذه المنطقة وبدأتبريطانيا تعيد حساباتها الاستراتيجية وتقوم بجمع شتات الشمل بين اصدقائهافى المنطقة لانه تأكد لديها انه ليس فى صالحها ذلك الشقاق بين بلدينيرتبطان بها أشد الارتباط .

---

(٤٥) انظر المنار مجلد ٢٧ ج ١ ص ٨ ، أى القرى ٨ رجب ١٣٤٤ ، السياسة الاسبوعية ١٩ يونيو ١٩٢٦ ، أم القرى ٢٥ ذى الحجة ١٣٤٤ .

ولنذكر الآتى بشىء من التفصيل عن حقيقة أوجه الخلاف بين البلدين وكيف انتهى هذا الخلاف .

أولا : حادثة المحمل :

كان المحمل المصرى قد توقف بين مصر والحجاز بسبب الحرب الدائرة بين النجديين والهاشميين ولكن بمجرد أن استتبت الامور بدأت تعود العلاقات الطبيعية بين مصر والحجاز حول ارسال المحمل وبعثة المحمل .

ورغم أن الملك فؤاد تقبل مبايعة أهل الحجاز للملك عبد العزيز بنوع من الغيظ الا أنه لم يكن له ان يعبر عن ذلك بصورة علنية ، وقد ظلت العلاقات الشعبية بين البلدين مستمرة فى قوافل الحج حتى جاء حادث المحمل والذى يمكن ان نلخصه فى تعرض بعثة الحج المصرية الرسمية والمحمل المصرى الى نوع من الاعتداء من جانب بعض القبائل النجدية المتعصبة وكانت قد دارت بعض المراسلات بين السلطات فى البلدين حول موسم الحج . (٤٦)

وكان بعض النجديين يغضبون على ابن السعود رفض عودة المحمل المصرى على أساس أنه اثم وضلالة . وكانوا يعترضون على دخول قوة مسلحة مع المحمل الى أرض الحجاز لان ذلك يمس لكرامتهم وكان الخلاف ايضا يدور حول ما يحمله المحمل معه من موسيقى ، كما أن لبعض المصريين عادات مثل شرب الدخان (٤٧) .

وقد وصل ركب المحمل المصرى الى جدة ومنها الى مكة ومن مكة الى منى وعند منى حدث ان اعتدت بعض القبائل النجدية على موكب المحمل المصرى ، وقد تعددت الروايات حول هذا الحادث وحول عدد الضحايا ، فالبعض قال ان القتال بدأ نتيجة لسماع الموسيقى التى

---

(٤٦) المعظم ٢٢ ابريل ١٩٢٦ أخبار الحج والحجاز .

(٤٧) أنظر تقرير على باشا جمال الدين وكيل وزارة الداخلية المصرية وقد نشر فى المقطم بتاريخ ٦ مايو ١٩٢٦ كما أن نسخة منه محفوظة فى ملف العلاقات المصرية السعودية تقارير موسم الحج .

تصاحب المحمل واعتبروا ذلك بدعة وضلالة والبعض ردد ان العـدوان بدأ من الجانب المصرى والبعض الاخر ردد ان النجديين هم الذين اعتدوا على المصريين ، ولكن المهم ان الحادثة وقعت وانها كانت نتيجـة لضيق بعض القبائل النجدية المتعصبة وان الضحايا من الجانب النجـدى كانوا اكثر عددا من الجانب المصرى . (٤٨)

وفور وقوع الحادث اصدرت حكومة بن سعود فى الحجـاز بيانا رسميا عن الحادث ونقله عنها الوكالة الحجازية بالقاهـرة ولكن مصر اعترضت على بعض عبارات وردت فى البيان ، واعتذر المعتمد الحجازى السعودى بأنه لم يكن يقصد الاساءة الى الحكومة المصرية(٤٩) .

ولم يلبث المـوقف أن تأزم بين الدولتين الى درجـة أن عاد المحمل المصرى بعد ان كادت المسألة تسوى وكان من نتائج هذا الحـادث زيادة التوتر فى العلاقات بين البلدين . دون أن يقوم بتوزيع المعونات والمساعدات التى كان من المفروض أن يقوم بتوزيعها على فقراء الحجاز وبالذات من أهل مكة والمدينة . (٥٠)

وابتداء من عام ١٩٢٧ لم تعـد الحكـومة المصرية ترسـل المحمل ومتعلقاته الى الحجاز وذلك لتمسك الحكومتين لموقفهما وحاولت حكومة بن سعود أن تضع شروطا لسفر المحمل المصرى منها أن لا يكون مع ركب المحمل سلاح وان لا تصاحبه اية فرق موسيقية وأن يسلك رجال المحمل السلوك المتسم مع الايمان الحقيقى بالاسلام .

أما المشكلة الثالثة بين البلدين فهى عدم أعتراف مصر بالوضـع الجديد لمركز بن سعود فى الحجاز كملك عليه .

---

(٤٨) انظر الروايات المتعددة لحادثة المحمل المراجع التالية :
محمد على رفاعى ، السياسة الاسبوعية ٢٦ يونيو ١٩٢٦ .
عبد الحميد الخطيب حافظ وهبة : خمسون عاما فى جزيرة العرب مرجع سبق ص ١٤٤ ، الاهرام ٧ يوليو ١٩٢٦ .
(٤٩) المقطم ٢٣ يونيو ١٩٢٦ ، الاهرام ٢٣ يونيو ١٩٢٦ ، السياسة ٢٣ يونيو ١٩٢٦ .
(٥٠) المنار / مجلد ٣٢ ج٤ ص٢٩٦ .

وقد اعترفت معظم دول العالم بوضع ابن سعود كملك فى الحجاز وسلطان على نجد ، الا ان مصر كانت تتمتع بمركز هام بالنسبة للعالم الاسلامي ومن ثم فان ابن سعود كان يتطلع الى هذا الاعتراف من جانب مصر خاصة فى السنوات الأولى من حكمه للحجاز الا انه بعد ذلك أصبحت هذه المسألة بالنسبة لابن سعود غير ذات بال .

أما بالنسبة لموقف الملك فؤاد من موضوع الخلافة ، فلقد تشابكت فيه الاراء وتعقدت الى درجة أن وقف بعض المؤرخين يدللون على أن الملك فؤاد لم تكن له مطامع فى الخلافة وانما ذلك كان من وحى الانجليز، بينما ذلل البعض الآخر على أن الشغل الشاغل للملك فؤاد كان البحث عن مؤيدين له فى هذا الموضوع على أساس أنه بطبعه كان يميل للحكم المستبد وعلى أساس أن الوفد قد سحب الشعبية منه وانه الخلافة سوف تحقق له ذلك ونحن تجاه هذا الموقف يمكننا أن نقول ان البحث عن الخلافة كلقب للملك فؤاد كان يعنى أن يكتسب لنفسه مكانة كبيرة بين العالم الاسلامى ، كما كان يعنى أيضا أن يستفيد من هذا المركز الدينى فى توطيد سلطته الزمنية على حساب مفهوم الحكم الدستورى فى مصر . (٥١) ولكن فؤاد لم يظهر تلهفه على منصب الخلافة لأنه كان يشعر أنه ليس نقى الدم العربى من ناحية اخرى مضاف الى هذا انه كان يشعر بحرج موقف مصر السياسى لسيطرة بريطانيا على مقدرات الامور السياسية فيها وان الخلافة من وجهة نظر المسلمين يجب أن تكون فى يد دولة مستقلة بعيدة عن السيطرة الاجنبية لذلك فان فؤاد كان يرى بأنها أمنية بعيدة المنال .

ولكن رغم اهتمام بريطانيا بموضوع الخلافة وبمن يكون خليفة ، الا أن الموقف الرسمى لبريطانيا كان يظهرها دائما بأنها لا تود أن تزج بنفسها فى المسائل الدينية للمسلمين ويتضح هذا الموقف الرسمى من سؤال ألقى فى مجلس العموم البريطانى فكان رد رئيس الوزراء ان سياستها التقليدية الثابتة تقوم على عدم التدخل فى شئون رعاياها من المسلمين . (٥٢)

---

(٥١) عبد العظيم رمضان : تطور الحركة الوطنية فى مصر (١٩١٨ — ١٩٣٦) القاهرة ١٩٦٨ ص ٢٢٥ .

(52) Parl. Debates, London, 16 p. 170 House of Commons 12th March 1924, Column 247.

هذا الى أن اللورد اللنبى المندوب السامى كانت علاقاته فاترة مع الملك فؤاد ، كما أن المندوب السامى الجديد الذى أتى بعد استقالته وهوجورج لويد اتى بسياسة تهدف للتودد نحو المصريين وللحد من اتوقراطية الملك فؤاد . وكان أول طلب له ابعاد حسن نشأت من السراى ، وكان نشأت هذا ذراع الملك فؤاد اليمنى فى الشعور بتأثير تطلع الملك فؤاد الى الخلافة وكانت سياسة الابعاد تعنى أن بريطانيا لا توافق على اتجاه الملك نحو الخلافة . (٥٣)

وقد عقد مؤتمر للخلافة فى القاهرة ولكن عبد العزيز رفض ارسال مندوبين عنه لحضوره وقد أثار هذا الموقف العالم الاسلامى كما أحرج مركز مصر وتسبب فى مزيد من التوتر بينه وبين الملك فؤاد وبالتالى انعكس ذلك على العلاقة بين البلدين .

ولقد كان موقف الرأى العام المصرى ضد الملك فؤاد لأن هذا الرأى كان يعتبر فؤاد غير جدير بالخلافة ، بل أن مجلس النواب المصرى وقف يندد بتحمل ميزانية وزارة الاوقاف لجزء من مصروفات المؤتمر العام للخلافة بالقاهرة . (٥٤)

وعقب مرحلة من التوتر والجفاء استمرت لما يريد عن تسع سنوات اى منذ وقوع حادثة المحمل سنة ١٩٢٦ وحتى توقيع معاهدة الصداقة بين البلدين سنة ١٩٣٦ بدأ نوع من التقارب بين البلدين ساعدت عليه الظروف الموضوعية لحركة السياسة العمالية من ناحية ولانتهاء تعنف الموقف الذى كان يتخذه الملك فؤاد وادراكه أن أطماعه فى الحجاز لن تتحقق كما كان يحلم ثم لمرضه واحساسه قرب نهايته ، الى جانب تعرض البحر الاحمر لأوضاع جديدة نتيجة لغزو موسولينى اثيوبيا . ومن هنا كان لابد من اعادة النظر فى الموقف بين البلدين .

---

(٥٣) عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثروة المصرية ج ١ القاهرة ١٩٦٦ .

(٥٤) أنظر الاستجواب الخاص بمؤتمر الخلافة فى مجلس النواب المصرى جلسة ١١ مايو ١٩٢٧ .

ولكن خلال فترة هذه السنوات منذ حادث المحمل وحتى توقيع المعاهدة لا بد لنا وان نلقى نظرة على أهم الجهود التى بذلت لاذابة الجليد بين البلدين خاصة وانه كان لمجموعة من الشخصيات دور هام لعودة الصفاء للبلدين .

والحقيقة والتاريخ نقول أن الملك عبد العزيز كان من جانبه حريصا على عودة العلاقات الطبيعية بينهم وبين مصر خاصة وانه حقق كل ماكان يهدف اليه فهو اصبح بعد ضمه الحجاز ملكا على مساحة ضخمة وذات استراتيجية خاصة بالنسبة للعالم الاسلامى ، وكان واقعيا فى أحلامه السياسية فلم يكن يطمع فى فكرة الخلافة لانه يملك فعلا مكة والمدينة ،كما كان يعرف جيدا واقع العالم الاسلامى . وكان من مصلحته الوفاق معمصر ليس فقط كتأييد معنوى ولكن ايضا ليجد لديها المعونة الفنية ولقدرات على رفع عجلة الحضارة داخل بلاده .

كذلك كان حزب الوفد تسعى الى عودة العلاقات الطبيعية بين البلدين ولان حزب الوفد كان من مصلحة الحد من أطماع الملك فؤاد فى الحصول على منصب الخلافة .

وهناك بعض الشخصيات المصرية التى كانت حريصة على أنتظل العلاقات بين البلدين طيبة من أهم هذه الشخصيات محمد طلعت حرب الاقتصادى المصرى الشهير الذى حاول القيام ببعض المشروعات الاقتصادية المشتركة مثل تسيير خطوط ملاحية بين السويس وجدة فى موسم الحج ،وكان حافظ وهبة مستشار الملك عبد العزيز يحاول دائما أن يخفف من حدة التوتر وذلك لانه من أصل مصرى كما كانلصداقته مع بعض الشخصيات السياسية المصرية الاثر الاكبر ويمكن أن نضيف شخصية على ماهر والذى كان يود أن يقوم بشيء فى هذا الصدد . ولا ننسى دور جريدة المنار فى صدد التقارب بين البلدين ولكن الى جانبجبهة العلاقات ، كانت هناك جبهة رفض يتزعمها بعض عناصر حول الملك عبد العزيز نفسه وبالذات حاشيته السورية والتى ليس من مصلحتها حدوث هذا التقارب لان بن سعود حينئذ سوف يستعين بعناصر مصريةويستغنى عن خدماتها هى (ان خدمات الجالية السورية التى كان منها شخصيات كبيرة بمثابة مستشارين للملك) .

وكذلك بعض افراد الجالية الحجازية المؤيدين للهاشميين كان من مصلحتها استمرار التوتر بين البلدين .

ومرة أخرى نود أن نؤكد ان الجانب البريطانى كان له دور فى استمرار التوتر بين البلدين فى مرحلة ثم أصبح لهذا الجانب دور فى ضرورة اتفاق البلدين ولكن موقف بريطانيا كان دائما نابعا من مصلحتهاهى الذاتية .

بقى أن نقول أن مملكة ابن سعود تعرضت فى ذلك الوقت لبعض حركات التمرد والتى أخصها زورة بن رفاده والتى حاولت بعض العناصر أن تلصق بمصر تهمة مساعدتها ولكن ثبت ان مصر فعلا لا يد لها فى هذه الثورة .

يضاف الى كل ذلك أن مشاكل مصر الوطنية وعدم تمتع الوزارات المصرية باستقرار طويل الاجل ثم سيطرة الملك فؤاد على مقاليد العلاقات الخارجية كل ذلك جعل مسألة عودة العلاقات السعودية المصرية الى طبيعتها مسألة غير ملحة .

وتفجر الخلاف بين مصر والسعودية حول قانون الجنسية الحجازية ذلك القانون الذى صدر سنة ١٩٢٦ (٥٥) واعترضت عليه مصر ولم تعترف به مصر وكان مبعث خوف مصر هو ان يؤدى هذا القانون الى تحول بعض المصريين المولودين فى الحجاز الى اكتساب الجنسية الحجازية ؛ ثم الخلاف الاخر حول وضع التكايا المصرية . تلك التكايا التى حاولت السلطات الحجازية الاستيلاء عليها لتوسيع الحرمين واعترضت مصر على اسلوب الاستيلاء على تكاياها . (٥٦)

---

(٥٥) رئاسة الجمهورية قصر القبة ملف رقم ١٤٨٠ ج ٢ العلاقات بين الحكومة المصرية وحكومة الحجاز — بن سعود — مذكرة قام بوضعها وزارة الخارجية المصرية حول نقاط الخلاف بين مصر والسعودية .

(٥٦) رئاسة الجمهورية قصر القبة ملف رقم ١٤٨٠ ج ١ مذكرة خارجية المصرية رقم ١٥٩ فى ١٩٢٩/٤/١٨ حيث يتضمن كتاب القنصلية المصرية من جدة .

كما وضح الخلاف ايضا بين الدولتين حول ملكية جزيرتى تيران ، صنافير فى مدخل خليج العقبـة الى جانب الصراع حـول مناطق صـيد الاسماك وذلك كمشكلة حدود بين البلدين .

ورغم أن خليج العقبة يحوى الكثير من الجزر الا ان أهم هذه الجزر هما جزيرتا صنافير وتيران فى مدخـل الخليج ويحكمان فى المـلاحة فى الخليج . (٥٧)

وكانت الجزيرتان تتبعان الحجاز انتقلتا تبعيتهما الى الملك عبدالعزيز الا أن مصر لم تعترف بهذه الملكية الجديدة . وقد طالت الحكومة المصرية من الحكومة السـعودية منع سـفنها من الصـيد فى الميـاه الاقليمية الحجازية (٥٨)

وتراكمت المشكلات الصغيرة بين مصر والسعودية بشكل أدى الى حد أن توقف نشاط القنصلية وسحبت مصر قنصلها من جدة وظل الوضع كذلك لمدة تزيد على سنتين ونصف . (٥٩)

واذا كان لا يعيننا فى كل المشكلات الصغيرة السابقة الا مشكلة ثورة بن رفادة والتى حاول البعض القاء ظـلال الشـك على مصـر فى مساعدتها للثورة .

ويمكن تلخيص حركة بن رفادة بأنها محاولة من جانب بعض العناصر المناوية لابن سعود فى الحجاز قادها حامد بن سالم بن رفادة وكان قد ثار ضد بن سعود عقب غزوة الحجاز ولكنه فر الى مصر سـنة ١٩٢٩ وظل مقيم بها فى حى شبرا لمدة ٤ سنوات حتى بدأ يدير لثورته الجديدة . (٦٠))

واعتقد الجانب السعودى بأن لمصر يدا فى حـركة بن رفادة على أساسها سماحها لبعض رفاق بن رفادة بالخروج من مصـر والتوجه الى

---

(٥٧) الاهرام ٢٩ ديسمبر ١٩٢٨ ، المقطم أول يناير ١٩٢٩ .

(٥٨) الاهرام ٢٣ يناير ١٩٢٨ .

(٥٩) ارشيف رئاسة الوزراء مذكرة من القنصل المصرى بجدة حسن الاشمونى — لوكيل الخارجية — المصرية بتاريخ ٢٠ يونيو ١٩٢٩ .

(٦٠) عبد الحميد الخطيب المرجع السابق ص ٢٠٣

الحجاز . (٦١) بل ان بعض التقارير البريطانية حاولت أن توحى بأن مصر هى التى قامت بتسليح بن رفادة ورفاقة (٦٢)

ولكن لم يثبت بصفة قاطعة ومؤكدة أن للحكومة المصرية يدا فى ثورة بن رفادة او تشجيعها له .

ولو بحثنا فى الوثائق البريطانية عن أدلة مادية قوية تدين مصر فى حركة ابن رفادة . على أن الحكومة المصرية حاولت أن تنفى عن نفسها أى شبهة واصدر مجلس الوزراء المصرى بتاريخ ٦ سبتمبر سنة ١٩٣٢ بيانا أكد فيه أنه لا علاقة لمصر من قريب أو بعيد بحركة بن رفادة وكان رئيس الوزراء المصرى اسماعيل صدقى فى ذلك الوقت ينظر الى حركة بن رفادة على انها موضوع داخلى يخص شئون الحجاز وحده ولا دخل لمصر فيما يجرى . (٦٣)

وقد علل صدقى باشا موقف مصر بأنه ينبع من احترام القانون الدولى، علاقات الجوار . (٦٤)

وبعد نجاح بن سعود فى القضاء على ثورة بن رفادة ، بدأ بن سعود يقوم بتقوية علاقاته مع الدول المجاورة الا أن مصر بدأت من جانبها تأخذ بعض الخطوات للتقارب السعودى . من ذلك مثلا تلبية طلبات الملك عبد العزيز فى طلب بعض الاطباء او المهندسين ، كما ان مجلس الوزراء المصرى فى ٨ فبراير سنة ١٩٣٥ أصدر بارسال معونة مالية ضخمة هى

---

(61) I. O. R. L/P. & S/12/2096.
The High Commissioner for Transjordan to Secretary of State for the Colonies, 7 june 1932.

(62) F. O. 371/16013.
(Situation in Northem Hejaz) Report form Jedda to F. O. 6 june 1932.

(٦٣) انظر الوثائق التالية :
I. O. R. L/P. & S/12/2096 21 june 1932.
F. O. to A. Ryan (Jedda), 23 une 1932.

(64) I. O. R. L/P. & S/12/2096.
Sin P. Loraine (Cairo) to F. O. 15th june 1932.

٢٠ ألف أردب من القمح هدية من مصر للمدينة المنورة لتوزيعها على فقرائها ومعها هدية أخرى قيمتها الفان من الجنيهات المصرية .

وخلال قيام الحرب اليمنية السعودية بدأت الجهود الشعبية المصرية فى التوسط بين البلدين وبدأت شخصيات مصرية مثل محجوب ثابت ، محمد على عليوة والامير عمر طوسون فى التوسط بين الامام يحيى والملك عبد العزيز ، وكانت سنة ١٩٣٥ هى مقدمة التقارب الشعبى بين البلدين وبداية التقارب الرسمى .

ولقد بدت المفاوضات الرسمية بين البلدين فى ٢٠ ابريل سنة ١٩٣٦ ومثل الجانب السعودى وكيل وزارة الخارجية السعودية فؤاد حمزة والشيخ فوزان السابق المعتمد غير الرسمى السعودى فى القاهرة . أما الجانب المصرى فكان يمثله على ماهر رئيس وزراء مصر فى ذلك الوقت، وقد تم توقيع معاهدة بين البلدين فى ١٦ صفر ١٣٥٥ هـ ، ٧ مايو ١٩٣٦ وكانت تتكون من ٧ مواد . جاءت المادة الاولى فيها لتعترف الحكومة المصرية فيها بأن المملكة العربية السعودية دولة حرة ونصت المادةالثانية على حسن الجوار والعلاقات بين الطرفين وعلى أن يقوم بين رعاياهما سلام دائم . وتعهدت المادة الثالثة باقامة تمثيل دبلوماسى بين البلدين اما فى المادة الرابعة فقد تعهدت السعودية بتسهيل أداء فريضة الحج واقامة الشعائر الدينية الاسلامية للرعايا المصريين . وتعهدا فى المادة السادسة بأن يقوما بحل المشكلات المعلقة بين البلدين فى أقرب فرصة وهى مشكلة المحمل ، وفى ٨ مايو ١٩٣٦ تم التصديق على المعاهدة من الطرفين ونشرت فى مكة والقاهرة فى ذات الوقت . (٦٥)

وكان أول نتائج هذه المعاهدة انشاء مفوضية مصرية فى جدة تولاها عبد الرحمن عزام وانشاء مفوضية سعودية فى مصر تولاها الشيخ فوزان السابق .

ومما يجدر ذكره ان المعاهدة كانت انتصارا لوجهة نظر المملكة السعودية . حيث اظهر ذلك ان الخلاف بين البلدين كان خلافا شخصيا أكثر منه خلافا بين البلدين .

---

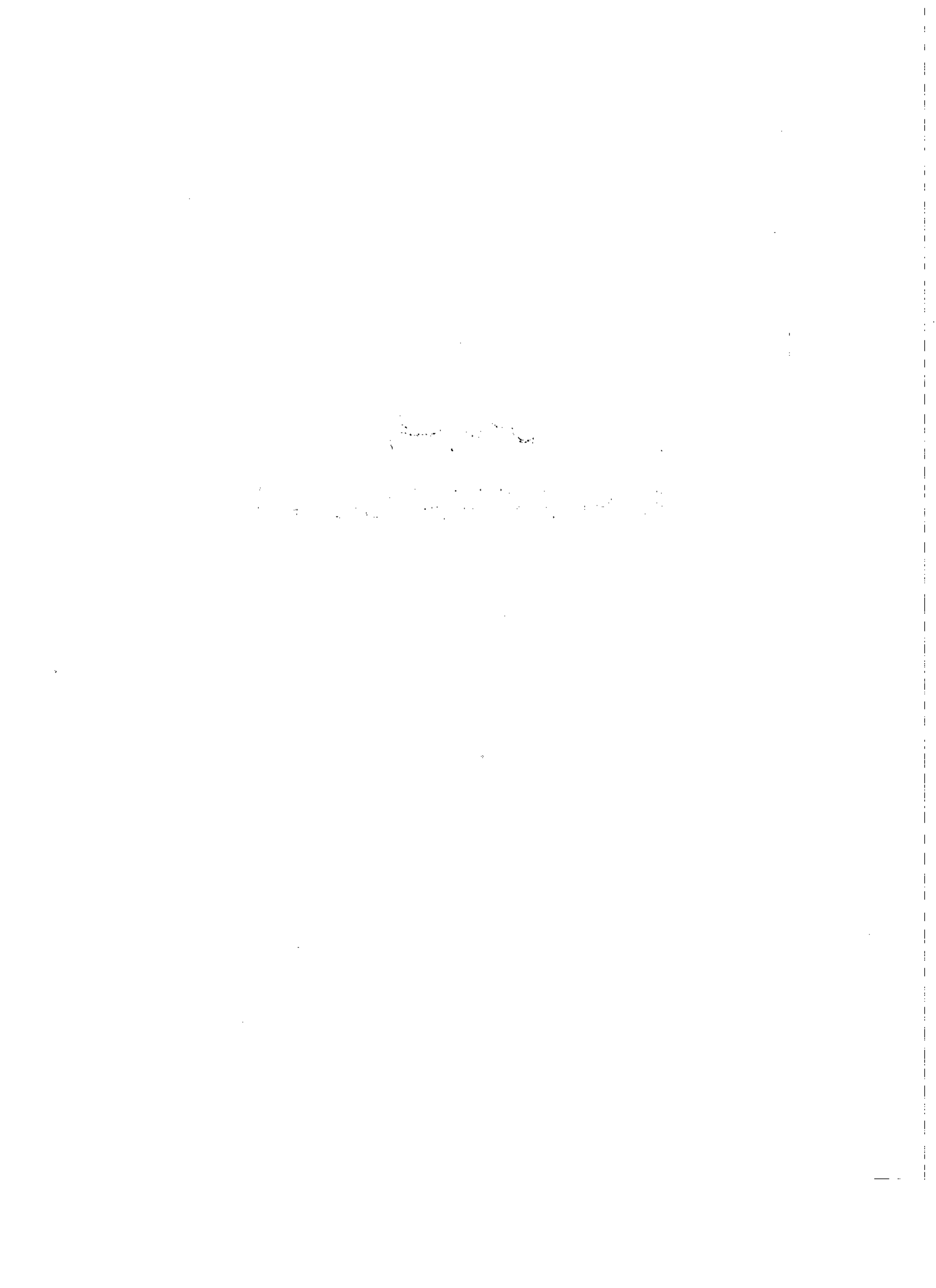
(٦٥) أنظر الوقائع المصرية فى ٨ مايو ١٩٣٦ .

وبدأت مفاوضات أخرى فى نوفمبر ١٩٣٦ وتم تصفية الخلافات بين البلدين حيث تم تسوية موضوع المحمل وذلك بأن ترسل مصر المحمل دون دخول قوات عسكرية وان يكون حاملا لكسوة الكعبة كالمعتاد وبالنسبة لموضوع الصدقات لفقراء الحجاز تقرر أن تتخذ التدابير من جانب مصر لعودة الهبات وصرف الصدقات .

أما بالنسبة للجنسين فقد تقرر أن تعطى الحرية وقت صدور القانون لمن يرغب من المصريين أو السعوديين لاختيار الجنسية التى يرغبون فيها وبدأت العلاقات المصرية السعودية تعود الى مجراها الطبيعى وبدأت مصر تساهم فى حركة التطوير للمملكة السعودية وبدأت مرحلة جديدة فى حياة البلدين وعلاقاتهما كان لها تأثير ولا شك على سير الأحداث بالنسبة للبحر الأحمر حتى نشوب الحرب العالمية الثانية فبدأ واقــع سـياسى جـديد واستراتيجى يسيطر على المنطقة .

القسم الخامس

البحر الأحمر فى السياسة الدولية المعاصرة



٣٧

مضايق تيران فى ازمة الشرق الأوسط

للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

كلية الاداب ــ جامعة الكويت

لم يلعب خليج العقبة دورا ذا بال فى التاريخ الحديث ــ فلقد كانت تسيطر على البحر الأحمر برمته كل من الدولة المملوكية والدولة العثمانية وأخيرا بريطانيا الى أن افل نجمها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية مما أثار مشكلات جديدة فى منطقة الشرق الأوسط وغيره من مناطق النفوذ البريطانى السابق ترتبط جميعا بانهيار (السلام) الاستعمارى البريطانى .

أما مشكلة مضايق تيران فانها ترتبط بقيام دولة اسرائيل ووصولها الى خليج العقبة . فلقد منحت صحراء النقب لاسرائيل طبقا لقرار التقسيم الصادر عن الامم المتحدة فى عام ١٩٤٧ ، وذلك على اثر المحادثة الدرامية التى جرت بين حاييم وايزمان ــ زعيم المنظمة الصهيونية العالمية ــ والرئيس الامريكى ترومان ثم احتل الاسرائيليون ــ خلال المراحل الاخيرة من الحرب العربية ــ الاسرائيلية الأولى ــ المثلث الذى كانت تقوم عليه الحدود المصرية الاردنية ، ووصلوا الى موقع قرية أم الرشراش الذى قام عليه ميناء ايلات فى عام ١٩٥٠ . ورغم ان اتفاقيات الهدنة بين اسرائيل من جهة وكل من مصر والاردن وسوريا ولبنان من جهة أخرى ، وهى الاتفاقيات التى جرى التوقيع عليها فى رودس فى عام ١٩٤٩ تحت اشراف الوسيط الدولى رالف بنش ، قد أنهت الحرب العربية الاسرائيلية من الناحية الواقعية ، فان مصر ــ وقد ازعجها قيام ميناء اسرائيلى على خليج العقبة ــ قد أعلنت فى عام ١٩٥٠ استمرار حالة الحرب بينها وبين اسرائيل . كما استأجرت من المملكة العربية السعودية جزيرتى تيران

وصنافير الواقعتين على مدخل خليج العقبة تم احتلتهما . وفى ديسمبر ١٩٥٠ نصبت بطاريات سواحل عند شرم الشيخ ورأس النصرانى على الطرف الجنوبى لشبه جزيرة سيناء ، وذلك بقصد اغلاق خليج العقبة فى وجه الملاحة الاسرائيلية والحيلولة دون تحول ايلات الى حيفا اخرى كما أعلنت أن خليج العقبة يشكل مياها عربية . وتكملة لكل ذلك حرمت مصر على اسرائيل استعمال قناة السويس بصورة مباشرة او غير مباشرة مستندة الى حقها الشرعى فى الدفاع عن النفس ومطبقة اجراءات الحظر والغنائم المرتبطة بحالة الحرب .

الا أن اسرائيل من ناحيتها ذهبت الى ان اتفاقية الهدنة لا تعطى لمصر أية حقوق فى اعلان حالة الحرب فى خليج العقبة ، ومن ثم تنديدها بالاجراءات المصرية ، وهو التنديد الذى لقى استجابة من جانب الدول البحرية الغربية فعرض ممر تيران ، وهو أضيق نقطة عند مدخل خليج العقبة فى المنطقة الفاصلة بين السعودية ومصر لا يزيد على ستة أميال وبالتالى فانه لا يتعدى المدى المصرح به وقدره ثلاثة أميال أى لا يشكل مياها دولية .

ولكن لما كان اتساع الخليج فى المناطق الشمالية يتراوح بين ١٢و١٩ ميلا ، فقد كان من الممكن اعتبارها مياها دولية وفى هذه الحالة كان القانون الدولى لا يمنع السفن الأجنبية من المرور عبر المياه الاقليمية لدولة ما اذا ما كانت تتجه الى المياه الدولية طالما أن حالة الحرب غير قائمة . ويطلق على المرور فى هذه الحالة اسم المرور البرىء الذى لا يقتضى تفتيش السفن المارة بالمياه الاقليمية . وكانت اسرائيل والدول الغربية البحرية فى تفسيرها هذا تستند الى ان اتفاقيات رودس لا تعنى قيام حالة الحرب ؛ بل تمهد لقيام سلام دائم فى فلسطين وتصفية النزاع الحربى .

وبعد ان قامت الثورة فى مصر فى يولية ١٩٥٢ حاولت اسرائيل أن تعمل على التوصل الى سلام مع النظام الجديد الذى واصل نفس السياسة التى اتبعها العهد الملكى فيما يتعلق بموقف مصر من الدولة الصهيونية بوجه عام ومن خليج العقبة وقناة السويس بوجه خاص . بل ان النظام الجديد بدا أشد تطرفا من سابقة فى مناصبة العداء لتل أبيب ومن ثم حصول عبد الناصر على كميات كبيرة من الاسلحة من الاتحاد السوفييتى

فى عام ١٩٥٥ ، مما دفع باسرائيل الى التواطؤ مع فرنسا فى العدوان الثلاثى على مصر فى عام ١٩٥٦ . وقد قامت اسرائيل بدورها فى هذا العدوان فهاجمت القوات المصرية فى سيناء ، ثم انتهزت فرصة انسحاب القوات المصرية من شبه الجزيرة فى اعقاب الهجوم الانجليزى الفرنسى واحتلتها . ولكن الولايات المتحدة تصدرت للعمل الذى قامت به الدول الثلاث خشية استغلال الاتحاد السوفييتى للأزمة لمد نفوذه الى الشرق الاوسط ومن ثم تصديها لوقف العدوان ، تمهيدا لمواجهة الاتحاد السوفييتى فيما عرف باسم « مبدأ ايزنهاور » وازاء الضغط الأمريكى الشديد جلت القوات البريطانية والفرنسية عن مصر فى أواخر ديسمبر ١٩٥٦ ، ثم ما لبثت القوات الاسرائيلية أن جلت عن سيناء ففتحت الطريق أمام قوات الطوارىء الدولية التابعة للامم المتحدة الا ان بن جوريون ، فيما وصفه ايدن فى مذكراته بالشجاعة الممتازة ، ظل يتحدى ضغط الرئيس الامريكى ايزنهاور عليه من أجل الجلاء عن قطاع غزة وموقع شرم الشيخ . وفى أواسط فبراير ١٩٥٧ ذهب وزير الخارجية الامريكى جون فوستردلاس الى ان الولايات المتحدة بذلت اقصى ما فى وسعها لتسهيل مهمة انسحاب اسرائيل وان بذل جهد اخر من شأنه أن يهدد النفوذ الغربى حين يقتنع العرب بأن أمريكا تطوع سياستها لرغبات الصهيونيين الأمريكان ، وأن أمل العرب الوحيد فى الارتباط الوثيق بالاتحاد السوفييتى . لهذا اصطنعت واشنطون كلا من الضغط واللين مع اسرائيل — وفى برقية بعث بها ايزنهاور الى بن جوريون حذره من أن تصلب اسرائيل « سيعكر العلاقات (بينها) وبين دول أخرى اعضاء فى الامم المتحدة » . وكان ردالاسرائيليون هو انهم على استعداد للاستغناء من مساعدة الولايات المتحدة وللتحريض على شن حملة سياسية كبرى يقوم بها « اللوبى » الصهيونى فىالولايات المتحدة . وحينئذ تضامن دلاس مع كل من وزير الخزانة جورج همفرى وممثل الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة هنرى كابوت لودج فى الاعتقاد بأن « على البيت الابيض ان يتصدى لكل من الكونجرس واسرائيل » .

وقد تكونت فى تلك الاثناء اغلبية كبيرة فى الامم المتحدة تطالب بتطبيق العقوبات على اسرائيل ، وتقدمت الكتلة العربية — الآسيوية بمشروع قرار يطالب بقطع كل معونة عن اسرائيل اذا لم يكتمل انسحابها وكان دلاس قد سلم السفير الاسرائيلى فى واشنطون — أبا ايبان — فى ١١

فبراير ١٩٥٧ مذكرة تضمنت ما أزمعت أمريكا تقديمه لاسرائيل فى مقابل انسحابها غير المشروط فقد تعهدت فى هذه الحالة — بأن تعلن انها تعتبر خليج العقبة مياها دولية لا يحق لأى دولة أن تعرقل المرور الحر فيها « وانها على استعداد . . . لممارسة حق المرور الحر والبرىء والانضمام الى الاخرين لضمان الاعتراف العام بهذا الحق » كما أعلن ايزنهاور فى مؤتمر صحفى عقده فى ٧ مارس انه بالاشتراك مع الدول البحرية الاخرى « على استعداد لاعلان خليج العقبة ممرا دوليا مفتوحا وأن يجرى استخدامه طبقا لهذا المفهوم » . وبالفعل غامرت الولايات المتحدة بسمعتها وهيبتها فى سبيل المحافظة على حرية المرور — فلكى تبدأ مساندتها لحق المرور البرىء وجهت شاحنة امريكية مؤجرة لاسرائيل للمرور فى خليج العقبة فى أوائل ابريل قاصدة رأس الخليج عند الاراضى الاسرائيلية . وعلى أى حال فلم يرضخ الاسرائيليون فى نهاية الأمر امام الضغط المتزايد من جانب حكومة ايزنهاور التى كادت تستصدر قرارا من الامم المتحدة بقطع كل اشكال المساعدة العامة والخاصة عن اسرائيل . وسلم بن جوريون بالمطالب الامريكية فى الوقت المناسب بهدف الحيلولة دون التصويت على مشروع القرار . وجلا الاسرائيليون من غزة فى ٧ مارس ، وفى ١٦ مارس جلوا عن شرم الشيخ حيث تقرر ارسال قوات الطوارىء الدولية الى أن يحين الوقت الذى يمكن فيه التوصل الى اجراءات دائمة تضمن حرية الملاحة .

وقد وافق عبد الناصر على حلول قوات الطوارىء الدولية محل القوات الاسرائيلية فى شرم الشيخ ، ولم يصر على تواجد القوات المصرية مدركا أن ذلك معناه انتهاء حصار ايلات . ولكى يحول دون توجيه النقد الداخلى اليه لهذا السبب فى حالة انكشاف الأمر ، كلف محمود فوزى بأن يبلغ هنرى كابوت لودج — قبل التصويت الأخير فى الأمم المتحدة على الانسحاب الاسرائيلى بأن على الولايات المتحدة ان تدرك أن مصر لا تتنازل عن أى حق من حقوقها فى خليج العقبة فى مقابل مساعدة امريكا لها فى اخراج الاسرائيليين من شرم الشيخ ، وبالتالى فان القاهرة لا يمكنها ان تلتزم بالسماح للسفن الاسرائيلية بالمرور الى أجل غير مسمى فى نظير انسحاب اسرائيل من سيناء ورغم هذه التحفظات فان عبدالناصر كان يعلم أن دلاس قد التزم بحلول قوات الطوارىء الدولية محل القوات

الإسرائيلية وبالتالى يرفع الحصار لهذا أخبر عبد الناصر الوزراء بأن من مجافاة دواعى السياسة معارضة هذا القرار الامريكى خشية اغضاب دلاس وتخليه عن الضغط على اسرائيل وبقاء القوات الاسرائيلية ، والحق ان دلاس كان قد اخبر اسرائيل فى مذكرة سرية بأن الولايات المتحدة لاترى أن من حق أى دولة إن تغلق خليج العقبة وانها على استعداد لممارسة حق المرور الحر والبرىء (عبر الخليج) والانضمام الى الاخرين لضمان الاعتراف العام بهذا الحق . وكان رد الاسرائيليون على ذلك انهم لايوافقون على الجلاء عن شرم الشيخ الا اذ حلت قوات الطوارىء محل قواتهم ، وذلك الى ان يتم توقيع الصلح مع مصر او التوصل الى اتفاقية دائمة اخرى تضمن حرية الملاحة فى خليج العقبة ورغم ان عبد الناصر لم يحط علما بشروط تل ابيب فانه كان يعلم ان الاصرار على استعادة مصر للسيطرة على شرم الشيخ من شأنه أن يؤدى الى استمرار الاحتلال الاسرائيلى .

وهكذا أصبحت الملاحة حرة فى مضايق تيران وتدفق على ايلات النفط وغيره من المواد اللازمة لاقتصاد اسرائيل لمدة عشر سنوات، الا أن الملك سعود عاهل المملكة العربية السعودية احتج احتجاجا شديدا على موقف الولايات المتحدة — فكتب الى ايزنهاور يبلغه بأن اسرائيل قد اتبعت سياسة استفزازية ضد المسلمين فى شتى أنحاء العالم وركز على سبيل المثال أن مدمرة اسرائيلية قد اقلعت من ايلات بقصد تهديد المدينة العربية الشيخ أحمد ولم تبتعد الا بعد أن وصلت الى نقطة لا تبعد الاكيلو مترا عن المدينة ، أى انها عبرت مياهه الاقليمية . وساق سعود أمثلة أخرى للتدليل على نوايا اسرائيل العدوانية ، ومنها المناورات الجويةالتى كانت تقوم بها فوق خليج العقبة مما أثار توترا شديدا لدى شعبه علىطول الساحل . كما أبدى انزعاجا شديدا على مصير الاماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز مشيرا الى ان السماح لاسرائيل باستخدام الخليج من شأنه أن يسد الطريق امام الحجاج العرب . ولكن ايزنهاور اكد له ان الولايات المتحدة ستساند الوضع الدولى للخليج ومبدأ « المرور البرىء » . وقد ارضى هذا التطمين العاهل السعودى ، برغم تفضيله الاعتراف بالخليج مياها عربية . (١)

---

(1) Eisenhower, Waging Peace, p. 190.

وهكذا كانت اسرائيل هى المستفيد الوحيد من العدوان الثلاثى : فقد ضمنت حرية الملاحة فى مضايق تيران وامكنها تفادى هجمات الفدائيين من قطاع غزة ، وذلك نتيجة لوجود قوات الطوارىء الدولية على الجانب المصرى من خطوط الهدنة . ورغم ان هيبة أمريكا فى العالم العربى قد ازدادت مؤقتا نتيجة لدفاع دلاس علنا فى عام١٩٥٧ عن مبدأ حرية الملاحة فى خليج العقبة . وما لبثت دعاية عبد الناصر أن ذهبت الى انه برغم اصرار واشنطون على انسحاب اسرائيل من الأراضى المصرية ، فانها تعهدت فى الواقع بضمان اهداف اسرائيل من الحرب ، بما فى ذلك فتح خليج العقبة امام الملاحة الاسرائيلية .

ولكن الاجراءات الخاصة بضمان حرية الملاحة وهو ما وعدت به امريكا اسرائيل — لم تتحقق . ففى العقد الثانى لعدوان السويس تدهورت علاقات عبد الناصر بالمغرب بوجه عام، على حين توقفت علاقاته بالاتحاد السوفييتى ، مما عرض المشرق العربى لضغوط الحرب الباردة والاستقطاب الدولى . فقد اعتقد الرئيس الامريكى ليندون جونسون — الذى تولى الحكم فى عام ١٩٦٣ — ان عبد الناصر يتحدى النفوذ الامريكى فى الشرق الاوسط ويرفض كل الطلبات الامريكية ويعبىء الجماهير ضد السياسات الامريكية . والحق ان ماضى جونسون الذى عرف عنه الميل الى اسرائيل قد اقنع عبد الناصر وغيره من الراديكاليين العرب بأن ثمة تواطئا بين اسرائيل والولايات المتحدة لاخماد جذوة الثورة العربية ، خاصة وان عبد الناصر قد بدا لادارة جونسون وكأنه قد حول انتباهه عن الاصلاح الداخلى وآثر اتباع سياسة قومية مناضلة من شأنها ان تهدد النظم السياسية القائمة فى البلدان العربية الاخرى وبخاصة ما كان منها مواليا للغرب . وكان جونسون أميل الى المحافظة فى نظرته الى العالم ومن ثم شكه فى الحركات الثورية وفى زعماء العالم الثالث الذين يتكلمون عن بناء الاشتراكية فى بلادهم ويوثقون علاقاتهم بالاتحاد السوفييتى الذى لم يتردد فى انتهاز الفرصة لدعم هذه الدول وايجاد نوع من الاستقطاب بدت خلاله موسكو نصيرة للتقدم وحركة التاريخ ، على حين بدت واشنطون نصيرة للنظم المحافظة وللدولة الصهيونية فى فلسطين مما جعلها موضعا للشك المتزايد ومما زاد فى شكوك العرب ان مقاليد الولايات المتحدة فى عهد جونسون قد وقعت فى أيدى ثلاثة من الصهيونيين هم آرثر جولد برج سفير الولايات المتحدة فى الامم المتحدة الذى صرح فى اكثر من مناسبة بأنه صهيونى متحمس والآخران هما والت روستو مساعد

الرئيس لشئون الأمن القومى وشقيقه يوجين روستو وكيل ادارة الشئون السياسية . كما ضم مستشارو الرئيس المقربون عددا كبيــرا من ذوى الميول الصهيونية ، بما فى ذلك نائبه هيوبرت همفرى .

وفى عهد جونسون ضعف الأمل فى امكان اتبـــاع الولايات المتحدة لسياسة متوازنة فى الشرق الاوسط وفى يونية ١٩٦٤ اســـتقبل رئيس الوزراء الاسرائيلى ليفى اشكول ، وقيل انه اكد له ان الولايات المتحدة توازر اسرائيل وانها لن تقف مكتــوفة الايــدى اذا ما هوجمــت الدولة الصهيونية وأن لم يعطه ضمانات مطلقة بل أوجد وسيلة مشــتركة على المستويين السياسى والعسكرى . وفى يولية ١٩٦٦ اعلن اشكول انهتلقى تأكيدا بأن الولايات المتحدة ستحافظ على توازن القوى فى الشرق الاوسط وان ذلك يشكل ثورة فى التفكير الامريكى وبمرور الزمن تولدعندعبدالناصر شعور بأن الولايات المتحدة تقوم هى وحلفاؤها بهجـــوم مضاد كبير فى العالم الثالث يستهدفه هو وغيره من زعماء التحرر الوطنى وأن اسرائيل وما اطلق عليه اسم الرجعية العربيةهم أداة الامبريالية فى تنفيذ مخططاتها فى العالم العربى .

ولكى يحصـــن عبــد الناصــر نفســـــه ضد هذا الاحتمال وقع فى ٤ نوفمبر ١٩٦٦ معاهدة دفاع مشـــترك مع حكام ســـوريا المتطرفين بهدف كبح جماحهم ومنعهم من اعطاء اسرائيل وحلفائها فرصة لاشـــعال الحرب فى الشرق الاوسط الا ان العكس هو الذى حدث ، فما ان تمتوقيع اتفاقية الدفاع المشترك حتى بدأت اسرائيل فى تصعيد الموقف ، وفى ١٣ نوفمبر قامت بغارة كبيرة على بلدة السموع الاردنية حيث دمرت كثيرا من المنازل وقتلت ١٨ جنديا اردنيا : مما أدى الى قيام مظاهرات فى القدس وغيرها من مدن الضفة الغربية ضد الملك حسين الذى وجه اليه الاتهـــام بعدم السماح لمنظمة التحرير الفلسطينية بالدفاع عمـــا تبقى من فلسطين وفى ذلك الوقت الذى تحركت فيه القوات الاردنية لقمع المظاهرات وجه رئيس الوزراء الاردنى وصفى التل لوما شديدا الى القيادات المصــرية المشتركة وسلاح الجو المصرى لعدم مساعدتهما الاردن على صد هــذا الهجوم الاسرائيلى الشرس . ومنذ ذلك الوقت أخذت الصــحافة والاذاعة الاردنيتان تذيعان ان عبد الناصر يختبىء وراء قوات الامم المتحدة ويتجنب قتال العدو فى الوقت الذى يظهر فيه نفسه بمظهر اعدى اعداء اسرائيل

واقوى حلفاء سوريا وان اسرائيل تتلقى مؤنا حربية عبر خليج العقبةدون أن يقوم عبد الناصر بعمل شيء لمنع هذه المؤن من قتل نفس العرب الذين تعهدوا بالدفاع عنهم وكان رد مصر على ذلك ان قوات الطوارىء الدولية سيجرى سحبها في الوقت المناسب .

ومضى الاسرائيليون فى تصعيد الموقف على الجبهتين السورية والاردنية ، وفى ابريل ١٩٦٧ اسقطت القوات الجوية الاسرائيلية مالا يقل عن ست طائرات سورية بعد قتال جوى امتد الى مشارف دمشق ، كما ادلى المسئولون الاسرائيليون بتصريحات تهديدية ضد سوريا بما فى ذلك احتلال دمشق ويبدو ان الاسرائيليين كانوا يهدفون الى استدراج عبد الناصر للقيام بعمل يبرر توجيه الضربة القاضية اليه والى زعامته للعالم العربى ، فقد كان عليه أن يقوم باجراء يؤكد هذه الزعامة ، ويستعرض فعالية معاهدة الدفاع المشترك ، خاصة وان أصدقاءه الروس قد ابلغوه بأن سوريا على وشك التعرض لهجوم اسرائيلى . وفى ١٥ مايواعلنتمصر حالة الطوارىء وارسل عبد الناصر قواته الى سيناء . وفىالواقع لمتكن هذه هى المرة الاولى منذ عام ١٩٥٦ التى ترسل فيها مصر قواتها الىسيناء فقد سبق لها أن حشدتها فى فبراير ١٩٦٠ حين نشبالخلاف حول المنطقة المنزوعة السلاح بالقرب من بحيرة طبرية فقد تخوفت سوريا التى كانت حينئذ جزءا من الجمهورية العربية المتحدة من احتمال تلقيها لضربة اسرائيلية مفاجئة ، وطلبت من عبد الناصر ارسال قوات الى سيناء لتخفيف الضغط الاسرائيلى وقد تم ذلك بالفعل ، وما لبثت القوات المصرية ان انسحبت فى الشهر التالى . وهكذا اعتقد عبد الناصر انحشدقواته فى مايو ١٩٦٧ لن يؤدى الى الحرب بل كل ما كان يهدف اليه هو القيام بنوع من الاستعراض الهادف الى استعادة زعامته فى العالم العربى ، وهى الزعامة التى اضعفتها حرب اليمن وخلافاته مع كثير من الانظمة العربية وخاصة السعودية والاردن . فلما كان عبد الناصر لا يزال يفكربمنطقعام ١٩٥٦ ، فانه كان على قناعة بأن الاسرائيلين لا يستطيعون وحدهم ان يشنوا الحرب على جبهتين على الاقل خشية قوة الطيران المصرية الضاربة ولهذا اعتقد بأنهم فى حالة عدم اعتمادهم على اشتراك الغرب فى الحرب على الاقل بتزويدهم بغطاء جوى ، لا يستطيعون تنفيذ خططهم ، خاصة اذا ما أوضح ان مصر ستحارب اذا ما هاجموا سوريا . ومنناحية أخرى

فاذا ما قرر الغرب التدخل العسكرى الى جانب اسرائيل فان الاتحاد السوفييتى لن يتردد فى التدخل ، وبالتالى يتعرض الشرق الاوسط وربما العالم أجمع لانفجار شامل .

وهكذا فانه رغم قرار عبد الناصر التقدم صوب الحدود الاسرائيلية فانه كان يعتقد — خطأ — ان المسألة سوف تنتهى عند هذا الحد ، ولكى يؤكد زعامته على العالم العربى طلب من السكرتير العام للامم المتحدة — يوثانت — سحب قوات الطوارىء الدولية المتمركزة على الحدود الدولية لسيناء وكان قد سبق له فى عام ١٩٦٠ ان تقدم بنفس الطلب الى داج همرشولد الذى استجاب للطلب واصدر امرا الى ٧٠٠ من اليوغوسلافيين الذين كانوا متمركزين على هذه الجبهة بالانسحاب الى مراكزهم المنعزلة فى الصحراء دون ان تحاط الامم المتحدة الا بالنذر اليسير عما حدث ولكى يتأكد عبد الناصر فى المرة الأخيـرة من عدم وجود مـزيد من التهديد او الاستفزاز للاسرائيليين ، حرص على ان تتضمن رسالة الفريق محمد فوزى الى الجنرال ريكى — قوات الطوارىء الدولية طلب سحب هذه القوات من نقطة مراقبة الحدود لا من مناطق شديدة الحساسية مثل قطاع غـزة أو شرم الشيخ . لقد كان على يقين من ان اى تحرك مصرى لسحب قوات الامم المتحدة من شرم الشيخ واعادة حصار خليج العقبة من شأنه ان يمعن فى تصعيد الموقف واستفزاز اسرائيل وكان مضمون المذكرة التى بعث بها الفريق فوزى الى الجنرال ريكى كالاتى :

« اعطيت تعليماتى لكل القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة بأن تكون على استعداد للعمل ضد اسرائيل فى اللحظة التى تقوم فيهـا اسرائيل بالعدوان على اى بلد عـربى . وبناء على هـذه التعليمات فان قواتنا قد تمركزت فى سيناء على حدودنا الشرقية وتحقيقا لسلامة جميع قوات الامم المتحدة المتمركزة على حدودنا أطلب منكم سحب هذة القوات فورا » .

وقد اخبر ريكى حامل رسالة فوزى انه لا يستطيع سحب أى جزء من قوات الامم المتحدة بدون تعليمات من السكرتير العام الذى سيبرق له فى الحال بطلب الحكومة المصرية ورغم ان الرسالة لم تكن محددة ولم تشر الى شرم الشيخ فان الدكتور رالف بنش عندما حاول شرح مضمون الرسالة

ليوثانت ناقش عبارة قوات الامم المتحدة المتمركزة على حدودنا وقال بوضوح انها تتضمن شرم الشيخ التى لم تكن بها قوات دولية ، بل ولم تكن لها قوات على الحدود بل وعلى الشاطيء على بعد ١٠٠ ميل من أى خط « حدود » ولكى يفسر المشير عبد الحكيم عامر المذكرة المصرية نشر فى صحيفة الاهرام فى ١٧ مايو تفسيرا جاء فيه ان مصر دعت الى « انسحاب قوات الامم المتحدة من الحدود الدولية بين مصر واسرائيل — وهو نفس ما طلبته عام ١٩٦٠ الا ان التفسيرات المختلفة فى دوائر الامم المتحدة وتفسيرات الدكتور رالف بنش اصرت على ان المصريين طلبوا الانسحاب الكلى الكامل لقوات الطوارىء الدولية . وتتفق الدوائر المصرية والاسرائيلية على أن الدكتور بنش هو الذى اشار على يوثانت بالانسحاب الكلى أو عدم الانسحاب . بنش كان على استعداد للشك فى حقيقة الحشود العسكرية الاسرائيلية ضد سوريا ، كما لم يكن مستعدا لاعطاء عبد الناصر اية مهلة لاعادة ترتيب مواقع قوات الطوارىء الدولية . وكان من المعروف ان بنش لم يتخذ موقفا معاديا من النزاع العربى الاسرائيلى فهو الذى سمح للاسرائيليين بالسيطرة على النقب وموقع ايلات خلال الحرب العربية الاسرائيلية الاولى دون اكتراث بقرار الامم المتحدة الخاص بوقف اطلاق النار واوامر مجلس الامن بهذا الخصوص . وكان ميله الى اسرائيل — وهو زنجى امريكى — راجع الى شعوره بالتعاطف مع « المصير اليهودى » .

وفى الحق ان السكرتير العام للامم المتحدة كان قد سأل سفير مصر فى الامم المتحدة عن عرض القوى وعما اذا كان باستطاعته ان يلقى ضوءا علي طلب الفريق فوزى المفاجيء — وحين أجاب السفير بأنه لم يتلق أية تعليمات ، طلب منه الحصول من حكومته على ايضاحات وعلى حين أن عبد الناصر كان بامكانه ان يخبر يوثانت شفاها بحقيقة أهدافه ، فانه لم يكن على استعداد للابراق بها عبر الاثير خشية ان تقع البرقية فى أيدى اعدائه ولن يترددوا فى اعلان ان تحركه فى سيناء لا يعدو ان يكون ضجة فارغة . ولما كان يوثانت قد ابلغ القونى برفضه البات لبحث اى انسحاب جزئى ، كان على عبد الناصر ان يختار ما بين التراجع المخزى وبين المخاطرة بطلب السحب الكلى لقوات الطوارىء من شرم الشيخ وغزة وكان علي علم بأن اختياره للبديل الثاني يحتم عليه ارسال قوات مصرية

الى قطاع غزة وشرم الشيخ واخطر من هذا انه سيواجه في هذه الحالة ضغوطا شديدة من جانب جيران اسرائيل الاخرين لاعادة فرض حصار خليج العقبة الذى كان مفتوحا امام الملاحة الاسرائيلية خلال الاعوام العشرة الماضية .

وفضل عبد الناصر الاختيار الثانى وهو مواجهة اخطار الانسحاب الكلى ، فطالب وزير خارجيته محمود رياض فى ١٨ مايو بسحب قوات الطوارىء الدولية من غزة وشبه جزيرة سيناء وعندئذ تردد عبد الناصر فى اتخاذ الخطوة الاخيرة الخاصة بقفل مضايق تيران امام الملاحة الاسرائيلية فرغم تقدم القوات المصرية للاحتلال المواقع التى اخلتها قوات الطوارىء الدولية على حدود سيناء ، فان التعليمات لم تصدر لها باحتلال شرم الشيخ الا ان راديو عمان سخر من تردد القاهرة الواضح فى مواجهة الخطوة التالية فى الوقت الذى كان فية بعض الضباط المصريين متحرقين للانتقام من هزيمة ١٩٥٦ ولهذا تحركت القوات المصرية الى شرم الشيخ فى ٢١ مايو ، وفى اليوم التالى اعلنت القاهرة قفل خليج العقبة فى وجه السفن الاسرائيلية والسفن الاخرى التى تحمل شحنات استراتيجية الى ايلات ، واستطاع عبد الناصر بذلك ان يسترد زعامته للعالم العربى ويخرس نقاده ولكنه من ناحية اخرى اتاح لصقور اسرائيل الفرصة لاستدراجه الى الحرب التى اعدوا لها منذ حرب السويس خاصة وان المسئولين الاسرائيثين قد سبق لهم ان اعلنوا مرارا وتكرارا ان اغلاق مضايق تيران يعد بمثابة اعلان للحرب على اسرائيل . وبذلك حملوا عبد الناصر امام الرأى العام العالمى مسئولية تفجير الازمة واعلان الحرب .

وقد وجه اللوم الى يوثانت لانه لم يعمل على حصر الازمة بمقابلة عبد الناصر فورا ، ولاصراره على سحب قوات الطوارىء الدولية برمتها ولكن انصافا له يمكن القول بأن القوات الهندية واليوغوسلافية ، التى كانت تشكل اكثر من نصف قوات الطوارىء الدولية كانت تتحرق الى العودة الى بلادها ـ وحين استشار يوثانت الهند ويوغوسلافيا كان ردهما هو ان مصر تتصرف فى نطاق حقوقها ، وانها لا يسعها معارضة طلبها سحب القوات الدولية وبالاضافة الى ذلك فان موقف بريطانيا والولايات المتحدة لم يكن ليساعد على ايجاد المناخ اللازم للتفاوض مع القاهرة . فلقد تصرفت الدولتان كما لو كانت قوات الطوارىء الدولية نوعا من جيش الاحتلال القائم فى الشرق الاوسط لتنفيذ ارادتهما . وحين توجه يوثانت الى القاهرة فى

٢٣ مايو القى الأمريكان بالعقبات فى وجه نجاح رحلته حين ابلغوا عبد الناصر بلهجة صارمة أن عليه قبول كل ما يقترحه السكرتير العــام للامم المتحدة وقد تقــدم يوثانت ببعض المقـترحات الهادفة الى تهدئة الموقف ، الا أن اسرائيل رفضتها دون نقاش ، فقد اقترح بدء المفاوضات لتسوية الأزمة وطلب من اسرائيل الا تختبر الحصار بارسال سفن الى خليج العقبة ، كما طلب من الدول الأخرى الا ترسل موادا استراتيجية عبر مضــايق تيران ، وكذلك طلب من مصر الا تباشر حقها فى اعتراض السـفن المتجهة الى ايلات . وعلى حين قبل عبد الناصر كل هـذه المقترحات ، فقــد رفضتها اسرائيل التى قرر قادتها القضاء على زعامة عبد الناصر للعــالم العربى بانزال الهزيمة العسكرية بقواته بعد غلق كل أبواب التراجع أمامه .

ولكى لا تفصح اسرائيل عن نواياها العدوانية تقرر ارســال وزير الخارجية ابا ايبان الى العواصم الغربية الكبرى الثلاث طلبا للمساعدة : فلو استطاعت فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة ان تعد بالقيام بنشاط دبلوماسى لابطال مفعول الحصار المصرى لربما أمكن تفادى نشوب القتال . وفى باريس ولندن وواشنطون أكد ايبان أن شعبه يواجه الابادة على أيدى ملايين العر بالذين أبدوا لدى اغلاق خليج العقبة انهم لا يطالبون بما هو أقل من تدمير اسرائيل .

وتتفق معظم المصادر على أن لقاء ايبان ـ ديجول قد تميز بالبرود : وأشار المسئولون الاسرائيليون الى تحــذير ديجول الشديد لاسرائيل حتى لا تكون البادئة بالعدوان ، كما أشاروا الى أنه يقف من اسرائيل موقف المعارضة منذ البداية خاصة وأنه صرح بأن فرنسا لن تساعد اسرائيل على اقتحام خليج العقبة بالقوة برغم تذكير ايبان له بتعهد فرنسا فى عام ١٩٥٧ باعتبار أى محاولة لاغلاق مضايق تيران بمثابة اعلان للحرب . فلما كان ديجول يخشى أن يؤدى صراع الشرق الأوسط الى حرب عالمية فانه اشار الى أن فرنسا لا تحبذ القيام بعمل غربى صرف ، بل ستعمل على التوصل الى حل تسانده الدول الأربع الكبرى وحين حذر ديجــول ايبان من بدء اسرائيل للعدوان وان كان رد وزير الخارجية الاسرائيلى هو أن الحرب قد بدأت بالفعل وأن مصر قد صوبت الطلقة الأولى حين أغلقت مضائق تيران ومن الممكن تفسير موقف ديجول على ضوء رغبته فى عدم ربط فرنسا بالسياسة الأمريكية فمن رأيه أن السوفييت كانوا يهددون الشرق الأوسط

بتوثيق علاقاتهم بالعرب وذلك ردا على التدخل الأمريكى فى فيتنام بالاضافة الى هذا فان الزعيم الفرنسى كان يرغب فى تقوية نفوذ بلاده فى الشرق الأوسط وتوسيع مجال بيع الأسلحة الفرنسية فى المنطقة ، كما كان يود ضمان تدفق النفط على فرنسا دون أن يترتب على ذلك التزامها بالارتباط بالدول الغربية الاخرى واشتراك فرنسا فى أى تسوية تتوصل اليها الدول العظمى بصدد الشرق الأوسط ، وكبح جماح تطرف الدول العربية الراديكالية بتأكيد الوجود الغربى فى المنطقة ـ هذا الى جانب ايجاد قوة معادلة لازدياد الوجود الأمريكى(٢) وعلى حين أن رئيس الوزراء البريطانى هارولد ولسون صرح بأنه على استعداد للاشتراك فى أى اجراءات تقوم بها الولايات المتحدة للحيلولة دون اغلاق مصر للمر الدولى فان الرئيس جونسون وعد ايبان باتخاذ الاجراءات اللازمة لاعادة فتح الخليج سواء بمساعدة بريطانيا أو بدون مساعدتها وان يكن قد حث ايبان على بذل اسرائيل جهدا لضبط النفس .

وكان جونسون قد سعى الى التوصل الى تفاهم مع الاتحاد السوفيتى حول عدم تدخل الدولتين العظميين فى الشرق الأوسط وذلك تجنبا لحدوث مواجهة بينهما ، ومن ذلك ما اقترحه فى ٢٢ مايو على رئيس الوزراء السوفيتى الكسى كوسيجين من حيث القيام بجهد مشترك لتهدئة الموقف . ولكنه مع ذلك كان متحازا بصراحة الى اسرائيل منذ أن كان احد أقطاب مجلس الشيوخ مما يفسر معارضته لسياسة ايزنهاور خلال حرب السويس وتوجيه السياسة الامريكية بوضوح لصالح اسرائيل خلال أزمة ١٩٦٧ . ومن ثم جاء الاختلاف الكبير بين الزعيمين فيما يتعلق بمشكلة مضايق تيران .

فعلى حين أن ايزنهاور ودلاس كانا قد صرحا مرارا بانهما يجدان أن عرض القضية على المحافل الدولية مما يتمشى مع احترام الرجلين للقانون الدولى ، فاننا نجد فى عام ١٩٦٧ ان السناتور فولبرايت كان هو الوحيد فى واشنطون الذى طالب بعرض مشكلة خليج العقبة على محكمة العدل الدولية ومن الواضح أن جونسون قد أرسل التحذير لعبد الناصر مما جعل هذا الأخير يركب رأسه ولا يجد مجالا للتراجع . ففى ٢٢ مايو كتب الى

---

(2) Sylvia Kowitt, Crosbie, A Tacit Alliance, pp. 190 - 5.

عبد الناصر يحثه على تجنب الحرب ، وفى ٢٣ مايو صرح بأن اغلاق خليج العقبة فى وجه الملاحة الاسرائيلية قد أضاف بعدا جديدا وخطيرا الى الأزمة وأن الولايات المتحدة تعتبره مياها دولية ، كما تعد اغلاقه فى وجه الملاحة الاسرائيلية عملا غير مشروع من المحتمل أن يلحق بالسلام العالمى أفدح الأضرار وأضاف جونسون أن حق المرور البرىء أمر بالغ الأهمية بالنسبة الى المجتمع الدولى (وكان قد لفت النظر الى أن حق اسرائيل فى المرور بخليج العقبة يشكل جزءا من الالتزام الأمريكى لاسرائيل فى مقابل انسحابها من سيناء وقطاع غزة) كما نادى بتخفيض القوات المحتشدة على طرفى الحدود ، وأعلن أن الولايات المتحدة « شديدة الالتزام بمساندة الاستقلال السياسى لكل دول المنطقة وسلامة أراضيها » ثم ما لبثت الولايات المتحدة أن حاولت الضغط على مصر باستعراض القوة ، فحركت بعض قطع الأسطول السادس صوب مكان مجهول فى شرقى البحر المتوسط ، وقبيل نشوب الحرب كانت هذه السفن قد وصلت الى مسافة قريبة من المياه المصرية .

ومن الواضح أن واشنطون كانت تود العمل عن طريق الأمم المتحدة أو بالاتفاق مع الدول البحرية اذا ما ثبت أن مساعى الأمم المتحدة غير عملية . كما لم يستبعد جونسون كلية احتمال القيام بعمل عسكرى مشترك فى نهاية المطاف ، وان كان من المستبعد قيام الولايات المتحدة بالتدخل المنفرد . فلقد عرضت الولايات المتحدة على مجلس الأمن مشروع قرار أكدت فيه الحاجة الى التقاط الأنفاس وطالبت فى نفس الوقت ببقاء خليج العقبة مفتوحا الى أن يتسنى التوصل الى حل عن طريق المفاوضات ، وقامت بجهد مكثف لتكوين جبهة متحدة من الدول البحرية لاختراق مضائق تيران . الا أن الدول البحرية لم تتحمس للالتزام بخطة قد يترتب عليها اللجوء الى القوة ، ولم يناد أحد بالقيام بالعمل المنفرد الذى حذر ايزنهاور من مغبته . وهكذا تضمنت أزمة ١٩٦٧ صدى عجيبا لما حدث فى عام ١٩٥٦ وذلك حين سعت الولايات المتحدة الى انشاء جمعية للمنتفعين بخليج العقبة سعيا وراء تأكيد حق المرور البرىء فى مضائق تيران وكانت هذه المحاولة أقل نجاحا من جمعية المنتفعين بالقناة التى اقترحها دلاس : ففى عام ١٩٦٧ كانت الولايات المتحدة هى التى أبدت استعدادها لاقتحام خليج العقبة ولكن بريطانيا وفرنسا واثنتا عشرة دولة بحرية أخرى على الأقل من بين الدول التى دعيت للاشتراك قد اعتذرت عن ذلك بلباقة .

ولم يتضح بعد السبب الذى دعا الساسة الروس الى عدم ابداء قدر أكبر من ضبط النفس قبيل اندلاع الحرب . فرغم عدم توقعهم نشوبها ، فانهم اعتقدوا ان بامكان القوات المسلحة العربية ـ بفضل الاسلحة السوفييتية المتطورة ـ أن تكبح جماح الاسرائيليين الى أن يجرى وقف اطلاق النار ، خاصة وانهم استبعدوا احتمال تدخل الولايات المتحدة ـ الغارقة فى حرب فيتنام ـ تدخلا فعالا الى جانب اسرائيل . وليس ثمة دليل على أن عبد الناصر قد طالب الروس بمساعدة عسكرية أو أنه كان يرغب فى مثل هذه المساعدة ، وان اعتبر المساعدة الروسية وسيلة للحيلولة دون التدخل الأمريكى بشرط الا يكون هو البادىء بالعدوان . وقد يكون وراء التحذيرات التى وجهها الروس لعبد الناصر واشكول فى ٢٧ مايو هو ما أشيع أن كلا من مصر واسرائيل كانت تعتقد أن الجانب الاخر على وشك شن الهجوم وفى هذا اليوم وسط اشاعات بأن الحرب توشك أن تندلع ، استقبل جونسون أبا ايبان ووعده بأن الولايات المتحدة ستحافظ على التعهدات التى قطعها ايزنهاور فى عام ١٩٥٧ بصدد مساندة حق اسرائيل فى المرور الحر والبرىء فى خليج العقبة وكان جونسون يعتقد ان مصر لا تريد أو لا تستطيع أن تشن هجوما شاملا . ولكن أبا ايبان أخبره بأن اسرائيل قد تهجم وفى هذه الحالة يمكنها أن تلحق هزيمة سريعة ليس فقط بمصر بل بأى جبهة من الدول العربية وكان رد جونسون ان من واجب اسرائيل الا تتحمل مسئولية نشوب الحرب ، وان يكن قد أضاف « ببطء شديد بأسلوب ايجابى جدا أن اسرائيل لن تقف بمفردها اذا ما قررت التصرف على مسئوليتها الخاصة » وقيل حينئذ أن جونسون حث اسرائيل على ضبط النفس على الأقل لمدة اسبوعين ، وذلك بقصد السماح للعمل الدولى والتوصل الى تسوية سلمية .

وبعد ذلك بدأت الحكومة الأمريكية تجس نبض عبد الناصر حول احتمال التوصل الى تسوية عن طريق المفاوضات . وقد ذهب عبد الناصر الى أنه لم يفكر على الاطلاق فى شن حرب هجومية بسبب يقينه من تدخل الولايات المتحدة لضمان حدود اسرائيل . ولكنه فى نفس الوقت رفض مطلب جونسون الخاص باعادة فتح خليج العقبة ، وذلك برغم تأكيد جونسون أن الولايات المتحدة لا تميل الى اتخاذ أى اجراء عسكرى ، وقد خشى الاسرائيليون أن يسلبهم الأمريكان المبادرة وذلك بارسال شاحنات

الى خليج العقبة تحت حراسة بحرية ، ومن ثم تصريحهم بأن باستطاعتهم الاعتماد على انفسهم وارغـام عبد الناصر على اعادة فتح خليج العقبة دون مساعدة من جانب الغرب . وقد أخبر ضابط مخابرات اسرائيلى كبير البنتاجون بأن اسرائيل لا تنوى ترك حصار ايلات يستمر لمدة طويلة أو أن تدع عبد الناصر يفلت من (الأنشـوطة) التى وضع نفسـه فيها . أما عبد الناصر فرغم رفضه اقتراح جونسون الخاص بالغاء الحصار وعودة قوات الطوارىء الدولية الى مراكزها السـابقة فانه أبدى لواشـنطون وعواصم غربية أخرى انه على أتم استعداد لعرض المسألة على محكمة العدل الدولية لبحث ما اذا كانت مصر تتصرف فى نطاق حقها حين أغلقت مضايق تيران فى وجه ملاحة العدو ، كما لمح الى أن مرور السفن الاسرائيلية فى قناة السويس قابل للتفاوض فى مقـابل تنفيذ قرارات الأمم المتحـدة السابقة الخاصة باعادة توطين اللاجئين وتنفيذ قرار تقسيم عام ١٩٤٧ .

وقد حاول الروس تهدئة الموقف فاقترحوا عقد مؤتمر يشتركون فيه هم والأمريكان بقصد الاتفاق على القيام بعـمل مشـترك بغرض تسوية الأزمة ، وطالبوا المصريين والاسرائيليين بضبط النفس . كما حذر جونسون وديجول كلا من الطرفين المتنازعين من البدء بالطلقة الأولى . ويبدو ان اسرائيل قد اطمأنت الى موقف واشـنطون بعد عـودة أبا ايبان فى ٢٧ مايو - ولـما كانت واثقة من النصر فانها لم تفسح المجال لأى حل سلمى من شأنه أن يعرضها لهزيمة دبلوماسية حين يبدو عبد الناصر وقد حقق أهدافه من استعراض القوة لدى العالم العربى ضـد الدولة الصهيونية . وفى صبيحة ٥ يونية استطاعت اسرائيل تدمير سلاح الطيران المصرى ، ثم ثنت على الطيران السورى والعراقى والأردنى وبذلك حسمت الحرب خلال الساعات الأولى . وما ان نشبت الحرب حتى بادرت الولايات المتحدة الى اعلان حيادها ولو أن طبيعة هذا الحياد قد تعدلت بعد ذلك حين صرح ناطق باسم البيت الأبيض بأن الحياد لا يعنى « عدم الاكتراث » بل « عدم الاشتراك فى الحرب » . ثم ما لبثت أن ازداد تأييدها لاسرائيل بما فى ذلك بعض من كانوا يعارضون حرب فيتنام . ووضع « خط التليفون الساخن » على أهبة الاستعداد خاصة وأن الولايات المتحدة قد أبدت حرصها على تجنب المواجهة مع السوفيت ، وان يكن جونسون قد عمد الى تأخير مباشرة الضغط الأمريكى من أجل التوصل الى وقف اطلاق النار الى أن انتصرت

اسرائيل على الجبهات الثلاث . فقد ذهب جولد برج فى الأمم المتحدة الى أن انسحاب اسرائيل الى حدود ٤ يونية لن يؤدى الا الى تأكيد اغلاق مصر لخليج العقبة ، وهو ما تعارضه الولايات المتحدة بكل ما لديها من وسائل. أما فيما يتعلق بالبيان الثلاثى فقد أعلن جونسون التزامه بسلامة أراضى كل دول الشرق الأوسط. وان لم يتخذ أى اجراء سواء قبل الحرب أو بعدها لتنفيذ هذا التعهد وفى ١٣ يونية صرح بأن بلاده تسعى الى تحقيق السلام فى الشرق الأوسط ، وبعد ثلاثة أيام صرح بأن « من الواجب سحب القوات الاسرائيلية بالتدريج ، ولكن يجب فى نفس الوقت الإعتراف بحق الحياة القومية وتوفير حل لمشكلة اللاجئين وصيانة حرية الملاحة البحرية البريئة وتحديد سباق التسلح واحترام الاستقلال السياسى وسلامة الأراضى هذا برغم عدم حماسته للعودة الى حدود ٤ يونية ، على اعتبار أن ذلك لا يخدم السلام ، بل من شأنه أن يؤدى الى تجدد القتال .

ومنذ انتهاء الحرب سعت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وفرنسا وبريطانيا الى التوصل الى تسوية تشمل ـ بالاضافة الى انسحاب القوات كل المسائل الرئيسية التى يتضمنها النزاع العربى ـ الاسرائيلى : الحدود ـ اللاجئين ـ حرية الملاحة ـ انهاء حالة الحرب ـ الاعتراف بحق كل دولة فى الحياة ـ تحديد تصدير الأسلحة ... الى غير ذلك . وكانت المحاولة الأساسية للتوصل الى التسوية المرجوة ترتكز على القرار رقم ٢٤٢ الذى أصدره مجلس الأمن فى ٢٢ نوفمبر والذى أكد ـ بالاضافة الى بنوده الأساسية الأخرى ـ ضمان حرية الملاحة فى الممرات الدولية الاقليمية والاستقلال السياسى لكل دولة فى المنطقة . وقد تضمنت المقترحات التى تقدم بها وزير الخارجية الأمريكية دين راسك لتسوية نزاع الشرق الأوسط وضع قوات دولية فى شرم الشيخ على ألا يجوز سحبها الا بقرار من مجلس الأمن أو الجمعية العمومية للامم المتحدة ولقد اتضح الموقف الأمريكى تماما فى الرد على المقترحات السوفيتية التى قدمت للولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا فى أواخر عام ١٩٦٨ والتى نصت على موافقة الدول الأربع على تحديد جدول زمنى لانسحاب القوات الاسرائيلية من الأراضى التى احتلت فى عام ١٩٦٧ ـ فقد تضمن الرد الأمريكى (١٥ يناير ١٩٦٩) ملاحظة أن اسرائيل قد اثارت مسألة ضرورة تواجد قواتها فى شرم الشيخ ، وأن الولايات المتحدة ترى انه يتعين أن تتم عملية التوصل

ألى اتفاق وتحقيق تسوية سلمية مقبولة ــ كما جاء فى القرار ٢٤٢ ــ عن طريق التفاوض حول وسائل تنفيذ كافة عناصر التسوية بما فى ذلك ضمان حقوق الملاحة وينبغى أن يوضع فى عين الاعتبار أن نزاع يونية ١٩٦٧ قد ترتب على مسألة حقوق المرور عبر مضايق تيران ولا يمكن تحقيق امالنا فى السلام الا بأقصى قدر من الترتيبات الامنة لضمان هذه الحقوق. وفى ٩ نوفمبر ١٩٦٩ قدمت الولايات المتحدة مشروعا لتسوية الأزمة كان كسابقاته يطالب بنزع سلاح سيناء وترك مصير غزة وشرم الشيخ لمفاوضات تجريها مصر مع اسرائيل . وقد رفض عبد الناصر المقترحات التى تقدم بها وزير الخارجية الأمريكى وليم روجرز فى ٩ ديسمبر ١٩٦٩ لأسباب منها انها لم تطالب اسرائيل بالانسحاب من شرم الشيخ او من قطاع غزة وفى ٢٥ يونية ١٩٧٠ أعلن روجر مبادرته المشهورة الخاصة بوقف حرب الاستنزاف والتوصل الى تسوية بين مصر واسرائيل . وقد تضمنت هذه المبادرة بنودا منها أن تشتمل الاتفاقية النهائية على مناطق منوعة السلاح واجراءات خاصة فى منطقة شرم الشيخ لضمان حرية الملاحة فى مضايق تيران .

ورغم أن مبادرة روجرز(٣) قد أنهت حرب الاستنزاف فانها لم تمهد لتسوية شاملة ، وذلك بسبب تعنت اسرائيل وتمسكها بالأراضى التى احتلتها فى عام ١٩٦٧ ــ فكانت حرب اكتوبر ١٩٧٣ ودبلوماسية المكوك التى اقترنت باسم وزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسنجر الذى عمد الى توثيق علاقاته مع الرئيس المصرى أنور السادات الذى بدأ بدوره على استعداد لتطوير التقدم خطوة خطوة فى محادثات السلام مع اسرائيل بالشكل الذى من شأنه أن يكسر الجمود المعقد الذى ساد أزمة الشرق الأوسط وبذلك يمكن حل مشكلتى سيناء وقناة السويس ثم شرم الشيخ وغزة وقضية فلسطين ثم القدس والجولان وكان السادات على استعداد لتقديم الضمانات التى كانت اسرائيل قد طالبت بها زمنا طويلا : فحرية الملاحة فى خليج العقبة والبحر الأحمر ، وتمركز قوة دولية ثابتة فى شرم الشيخ ــ كل هذا يمكن التوصل اليه متى أعيدت سيادة مصر على الاراضى التى تحتلها اسرائيل(٤) .

---

(3) Schmidt, Armageddan, pp. 238 - 9.

(٤) مجلة نيوزويك ــ عدد ٢٦ نوفمبر ١٩٧٣ .

ولكن كان عليه أن يصل الى اتفاق مع اسرائيل دون أن يقضى على التضامن العربى الذى حققته حرب اكتوبر فقبول قوات الطوارىء الدولية واعادة فتح قناة السويس فى الوقت الذى لا تزال فيه اسرائيل تحتفظ بالأراضى التى احتلتها عام ١٩٦٧ من شأنه أن يستثير معارضة الكثيرين الا ان الذى حدث هو أن ثقة العرب بأنفسهم جعلتهم فى مؤتمر الرباط (ديسمبر ١٩٧٣) يعترفون بحق اسرائيل فى الوجود كدولة . وهكذا مضى أنور السادات أشواطا بعيدة صوب الحل السلمى فوقع مع اسرائيل اتفاقيتى فصل القوات ، ثم قام بمبادرته الشهيرة بزيارة القدس (نوفمبر ١٩٧٦) والتحدث الى اعضاء الكنيست حول المسائل المرتبطة بالتسوية السلمية ، مؤكدا سيادة مصر على شبه جزيرة سيناء مع تأمين الملاحة الاسرائيلية فى خليج العقبة وقناة السويس ، على أن يكون من المفهوم أن مصر ليست على استعداد للتنازل عن شبر من أراضيها ، وأن طرح على بساط البحث حلولا وسطى كمرابطة قوات دولية عند مضايق تيران وذلك كبديل للمقترحات الاسرائيلية الخاصة بمرابطة قواتها هى أو اشتراكها مع مصر فى تأمين الملاحة فى المضايق .

ان مضايق تيران من المشاكل المتعددة التى أثارها قيام اسرائيل ووصولها الى خليج العقبة فظهور ميناء ايلات باعتباره المنفذ الرئيسى لعلاقات اسرائيل مع كل من اسيا وأفريقيا وسيطرة مصر على مداخل خليج العقبة وقيام حالة حرب بين مصر واسرائيل — كل ذلك كان من وراء ظهور المشكلة التى خفت حدتها نسبيا خلال حرب اكتوبر حين سيطر العرب على مداخل البحر الأحمر وأغلقوها فى وجه الملاحة الاسرائيلية واذا كان ثمة اتجاه الى تسوية العلاقات العربية — الاسرائيلية تسوية سلمية فلابد من التوصل الى حلول تتمشى مع مصالح جميع الأطراف لكل بؤر النزاع ومنها مضايق تيران التى هى أرض مصرية ولكنها فى نفس الوقت تشكل حسب القانون الدولى ممرا دوليا للملاحة ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من الممرات الملاحية المشابهة .

٢٨

البحر الأحمر فى الصراع بين مصر وإسرائيل

(١٩٦٧ — ١٩٧٨)

للدكتور عبد العظيم رمضان

كلية التربية — جامعة المنوفية

حتى نشوب حرب يونية ١٩٦٧ ، كان الصراع على البحر الأحمر بين مصر واسرائيل يتخذ له محورين : الأول ، خليج العقبة . والثانى ، قناة السويس . اما المحور الثالث ، وهو باب المندب . فقد كان غائبا عن الأنظار تحت السيطرة البريطانية على عدن . وفى بداية الصراع ، حين تمكنت اسرائيل من احتلال ميناء « أم الرشراش » فى يوم ١٠ مارس ١٩٤٩ ، والحصول بذلك على منفذ على البحر الأحمر . استطاعت مصر موازنة الوجود الاسرائيلى فى ايلات عن طريق السيطرة على شرم الشيخ ، ومنع الملاحة الاسرائيلية من المرور فى مضيق تيران . وبذلك انتقل الصراع الى شرم الشيخ ، وانصرف هم السياسة الاسرائيلية الى فك السيطرة المصرية عليها لتحرير ملاحتها فى البحر الأحمر . وقد تمكنت من ذلك على مرحلتين :

الأولى : فى وجود قوات الطوارىء الدولية فى شرم الشيخ من ٤ مارس ١٩٥٧ الى ٢٣ مايو ١٩٦٧ .

الثانية : بعد حرب يونية ١٩٦٧ ، فى وجود القوات الاسرائيلية ذاتها فى شرم الشيخ وتأمينها طريق الملاحة الاسرائيلية عبر مضيق تيران الى البحر الأحمر .

على انه فى اللحظة التى ظنت اسرائيل فيها انها تخلصت من اعتراض مصر لها فى البحر الأحمر ، وأن وجودها فى شرم الشيخ قد أصبح يحقق

لملاحتها الأمن المطلق كانت ظروف الصراع السياسى فى المنطـقة العربية بين حركة القومية العربية والاستعمار البريطانى تهيىء لمصر نفس الظروف والأوضاع التى مكنتها فى يناير ١٩٥٠ من فرض الحصـار البحـرى على اسرائيل — ليس عن طريق شرم الشيخ فى هذه المرة ، وانما عن طريق مدخل البحر الأحمر الجنوبى ، أى عن طريق مضيق باب المندب .

ذلك أن قيام جمهورية اليمن الجنوبية الشـعبية فى عدن يوم ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧ — أى بعد أقل من نصف عام من حرب يونية — بالاضافة الى الوضع المصرى فى اليمن الشمالية ، قد وفر لمصر عمقـا استراتيجيا بالغ الأهمية ، وأتاح للبحرية المصرية الفرصة للعمل ضد الملاحة الاسرائيلية فى عمق البحر الأحمر من قواعد بعيدة عن مـدى الطيران الاسرائيلى ، والقيام فى باب المندب بنفس الدور الذى كانت تقوم به فى شرم الشيخ ، وهو منع الملاحة الاسرائيلية من النفاذ الى البحر الأحمر .

وعلى هذا النحو ، وكما أن الوجود المصرى فى شرم الشيخ قبل حرب ١٩٥٦ قد عادل الوجود الاسرائيلى فى « ايلات » ، فان الوجود المصرى فى مضـيق باب المندب فى حرب اكتوبر ١٩٧٣ سوف يعـادل الوجـود الاسرائيلى فى شرم الشيخ وايلات معا .

حادث الباخرة كورال سى :

وقد تبدت بوادر الخطر على الملاحة الاسرائيلية من ناحية باب المندب فى حادث خطير وقع فى يوم ١١ يونية ١٩٧١ ، وهو مهاجمة زورق مسـلح مجهول لناقلة البترول « كورال سى » Coral Sea (٧٨ الف طن) التى ترفع علم ليبريا ، وتحمل شحنة من بترول الخليج العربى الى اسرائيل ، كانت تعبر مضيق باب المندب قرب جزيرة « بريم » (وهى احـدى الجزر التابعة لليمن الديمقراطية الشعبية ، وتتوسط المدخل الجنوبى للبحـر الأحمر) ، حيث تعرضت لهجوم قذائف مدفع بازوكا Bazooka (وهو مدفع مضاد للدبابات) يحمله زورق سريع مجهول ، اتجه فى أعقاب القذف الى جزيرة « بريم » . وقد أدى الهجـوم الى اشـعال النار فى الناقلة واصابتها ببعض الأضرار ، ولكن ربانها اليونانى تمكن وبحارته الذين يبلغ عددهم ٢٥ ، منهم ٢٣ اسرائيليا ، من اخماد النيران .

وقد فرضت اسرائيل حظـرا على نبأ الحادث لمدة ٢٤ ساعة ، ثم أعلنت شركة « يام » الاسرائيلية أول نبأ عنه فى بيان عرض وصفاللحادث، ولم تحدد جنسية البترول الذى تحمله الناقلة الى ميناء ايـلات ليتم نقله عبر خط أنابيب البترول الاسرائيلى الجديد الى ميناء عسقلان على البحر المتوسط ، ليعاد تصديره الى أوربا .

وقد اعلنت « جولدا مائير » فى اجتماع لمجلس الوزراء الاسرائيلى عقب الحادث ان اسرائيل تدرك الخطورة الجسيمة التى تمثلها محـاولة اغراق الناقلة الليبرية الضخمة ، وهـددت بأن اسـرائيل سـوف تتخذ الاجراءات الضرورية لتأمين حرية الملاحة الى موانيها . ثم أصدر مجلس الوزراء الاسرائيلى عقب الاجتماع بيانا ذكر فيه أن اسرائيل تنظر نظـرة خطيرة الى ذلك الاعتداء (١) .

ومع أن فدائيى الجبهة الشعبية لتحرير فلسـطين هم الذين ارتكبوا الحادث — كما عرف فيما بعد(٢) — الا أن الحـكومة الاسرائيلية اعتبرت حكومة اليمن الديمقراطية « مسئولة » عن الحادث ، ووجهت اليها انذارا عن طريق حكـومة ليبريا وعـدد من المنظـمات الدولية . وكانت اليمن الديمقراطية قد أعلنت على لسان بعض زعمائها عقب الاستقلال ، أنها سوف تحكم سيطرتها على مضيق باب المندب من جزيرة بريم ، ولن تسمح لاسرائيل بالملاحة فى هذا المضيق(٣) .

كذلك أعلن العسكريون الاسرائيليون — وفقا لوكالة الأنباء الفرنسية — انهم يعتبرون هـذا الهجوم أخطـر ضربة تعرضت لها المـلاحة الاسرائيلية حتى الان وأن هذه الضربة لا يعادلها الا قرار عبد الناصر فى مايو ١٩٦٧ باغلاق مضيق تيران(٤) .

---

(١) الاهرام فى ١٤ يونية ١٩٧١ ، انظر أيضا مجلة :
TIME, March 19, 1973.

(٢) معين أحمد محمود : اسرائيل والبحر الأحمر (مجلـة شـئون فلسطينية ، يونو ١٩٧٣)

(٣) بييردستريا : من السويس الى العقبة ، ترجمة يوسف مزاحم ص ١٩٩ (بيروت دار العربية)

(٤) الأهرام فى ١٤ يونية ١٩٧١.

محاولات اسرائيل الوصول الى باب المندب :

وقد انطلقت اسرائيل فى أعقاب هذا الحادث ، لمعالجة امنها بطريقتها الخاصة ، فقد أشرنا فى بداية هذه الدراسة الى أن أطماعها فى الوصول الى البحر الأحمر قد قادتها الى انتهاك الهدنة واحتلال ميناء أم الرشراش ، ثم قادتها رغبتها فى حماية ملاحتها فى البحر الأحمر الى الاشتراك فى العدوان الثلاثى فى عام ١٩٥٦ واحتلال شرم الشيخ وعدم الانسحاب منه الا بعد أن ضمنت تسليمه للقوات الدولية . ثمقادتهارغبتها فى اعادة مضيق تيران بعد اغلاقه فى وجه الملاحة الاسرائيلية يوم ٢٣ مايو ١٩٦٧ ، الى شن حرب هجومية على مصر واحتلال شرم الشيخ . وقد كانت الخطوة التالية الآن هى التواجد الاسرائيلى فى مضيق باب المندب ، وهذا ما هبت لتحقيقه بعد حادث الباخرة كورال سى .

فلم تكد تمضى بضعة أشهر على هذا الحادث ، حتى كان رئيس أركان حرب القوات الاسرائيلية ، الجنرال حاييم بارليف ، يزور أثيوبيا للتباحث مع قائد البحرية الاثيوبية حول « تأمين » مدخل البحر الاحمر للبلدين . وطبقا لما أوردته جريدة الأهرام القاهرية فى ذلك الحين ، فان الجنرال بارليف عرض خلال هذه المباحثات تقديم دعم كبير للبحرية الأثيوبية يسمح بوجود ضباط وجنود البحرية الاسرائيلية عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر . (ومن المعروف أن المدخل الجنوبى للبحر الأحمر يقع تحت السيطرة الكاملة لكل من الجمهوريةالعربية اليمنية ، وجمهورية اليمن الديمقراطيةالشعبية، وجمهورية الصومال ، والصومال الفرنسى الذى كانت توجد به قاعدة جيبوتى الفرنسية . وينتهى الساحل الغربى للبحر الأحمر جنوب شواطىء أثيوبيا قبل مدخل باب المندب بقليل حيث تبدأ شواطىء الصومال الفرنسى وجمهورية الصومال) .

وقد انطلقت المباحثات من نقطتين محددتين : الأولى ، حاجة القوات الأثيوبية لشراء شبكة رادار تقيمها على ساحلها الشرقى على البحر الأحمر ، لاكتشاف ثوار ارتريا ، الذين كانوا يهربون السلاح عبر البحر ويتلقون تدريباتهم فى جزيرة بزيم .

والثانية حاجة الاستراتيجية الاسرائيلية الى السيطرة على جنوب البحر الأحمر خشية أن تتمكن البحرية العربية من اغلاق هذا البحر فى وجه

الملاحة الاسرائيلية أو أمام السفن المتجهة الى اسرائيل ، مما يهدد بالقضاء على خط انابيب البترول الذى أقامته اسرائيل من ايلات الى عسقلان (وكان مقدرا أن ترتفع طاقته الى ٦٠ مليون طن فى عام ١٩٧٤)(٥) .

وقد تعهد الجنرال بازليف ، خلال هذه المباحثات بقيام اسرائيل بتدريب القوات المسلحة البحرية الأثيوبية مجانا ، ومدها بزوارق الدورية وبعض الصواريخ ، وتقديم شبكة الرادار التى تقام على مدخل البحر الأحمر ، وقيام ضباط وجنود البحرية الاسرائيلية بتشغيل هذه الأجهزة والأسلحة حتى اتمام تدريب قوا تالبحرية الأثيوبية عليها .

وكان الهدف من الاتفاق — بالاضافة الى هذه المزايا — أن يتحقق الاتى :

أولا — ايقاف أى اتجاه عربى مستقبلا الى أن تكون للبحرية العربية اليد العليا فى البحر الأحمر .

ثانيا — تأمين الوجود الأمريكى فى البحر الأحمر .

ثالثا — مواجهة الوجود البحرى المصرى فى البحر الأحمر والوجود السوفيتى فى المحيط الهندى .

على أن مصر لم تلبث أن تحركت لايقاف هذه المحاولة الاسرائيلية . فقد نشر الخبر فى جريدة الأهرام فى شكل يحمل أهمية قصوى ، وحدثت ضجة ترتبت عليها أن أصدرت وزارة الأعلام الأثيوبية بيانا أنكرت فيه المحاولة الاسرائيلية انكارا تاما واعتبرتها من نسج الخيال(٦) .

لم يثن فشل هذه المحاولة اسرائيل عن محاولتها للنفاذ الى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر . ففى ذلك الحين كانت قد تضاعفت حاجتها من البترول بسبب تضاعف اداتها الحربية ، حتى بلغت ٣٥ مليونا من الأطنان فى عام ١٩٧٣ (٧) بدلا من المليون أو المليونين التى كانت فى حاجة اليها

---

(٥) المقدم الهيثم الأيوبى : اغلاق مضائق تيران ، السبب والذريعة (شئون فلسطينية ، المرجع المذكور)

(٦) الأهرام فى ١٥ سبتمبر ١٩٧١

(7) TIME, op. cit.

عندما بدأت مصر فى فرض الحصار عام ١٩٥٠ ، ولذلك اتجهت محاولاتها فى هذه المرة الى احتـــلال بعض الجزر الواقعة على مدخل مضــيق باب المندب .

ففى يوم ١٩ مارس ١٩٧٣ ، كشفت مجلة « تايم » Time الأمريكية عن احتلال اسرائيل لبعض الجزر فى جنوب البحر الاحمر ، وقالت أنها علمت أن اسرائيل قد ارسلت بعض الوحدات الممتازة من الكوماندوز الاسرائيلى لاحتلال بعض هذه الجزر المهجورة على بعد ٨٥ ميلا تقريبا من باب المندب . وأنها اقامت فى احدى هذه الجزر ، وهى « زقر » Zuquar قاعدة للرادار . وقالت المجلة ان هذه الجزيرة ، التى تبلغ مساحتها ٧٠ ميلا مربعا ، وتخلو من المياه ، هى احدى مجموعة جزر الحنيش Hanish التى تقع على بعد ٢٠ ميلا من ساحل اليمن . وأن الكوماندوز الاسرائيليين الذين احتلوا الجزيرة يتكلمون العـــربية بطـــلاقة ، ولا يرتدون الملابس العسكرية ، ولا يرفعون أعلاما ، ويتم تناوبهم كل ثلاثة أشهر عن طريق وحدات الأسطول التى تأتى فى جنح الليل . وذكر أن هذه القاعدة تدار منذ ثمانية أشهر .

ثم قالت مجلة (تايم) أنه على الرغم من الاحتياطات التى اتخذتها اسرائيل لعدم تسرب نبأ هـــذه القاعدة ، الا أن نبأ هـــذا الاحتلال افتضح لليمنيين عن طريق أحـــد الجواسيس الاسرائيليين ، ويدعى باروخ زكى مزراحى ، الذى اعترف بذلك تحت ضغط التعذيب .

لم تكن مجلة تايم وحدها هى التى كشـــفت هذا النبأ ، فقد ترددت من قبل ذلك أنباء عن احتلال اسرائيل لبعض جزر البحر الأحمر ، من مصادر عديدة ، أهمها واشنطن ، مما أثار ضجة فى البـــلاد العربية ، ودعا الأمين العام المساعد للجامعة العربية فى ذلك الحين ، الدكتور سيد نوفل ، الى الاتصال بسفير اليمن الشمالية والجنوبية لطلب معلومات من حكومتيهما عن هذا الموضوع . كما أخذت الجهات المختصـــة فى الأمانة العامة فى وضع تقرير حول مصير الجزر العربية فى البحر الأحمر ، وعمل دراسة حول تصور الجامعة العربية للاستراتيجية العربية فى البحر الأحمر(٩) .

---

(8) Ibid.

(٩) الأهرام فى ١٤ مارس ١٩٧٣

وفى أول ابريل ١٩٧٣ عقدت اللجـنة السياسية لمجلس الجامعة العربية اجتماعا بحث فيه الوضع العربى فى جزر البحر الأحمر وفكرة عقد مؤتمـر للدوول العربية الست المطلة على البحر الأحمر(١٠) .

وقد اتجهت أصبع الاتهام فى ذلك الحين الى اثيوبيا ، التى تربطهـا باسرائيل علاقة وثيقة فقد كتبت جريدة ١٤ اكتوبر العدنية تقول ان احتلال اسرائيل لهذه الجزر « تم تحت التزامات تعاقدية مع احدى الدول الافريقية المجاورة » . وأوضحت الجريدة أن تقرير مجلـة « تايم » الامـريكية عن احتلال هذه الجزر على مضيق باب المنـدب « هو تعبـير فى الصـيغة القانونية للوجود الاسرائيلى كأمر واقع فى هذه الجزر » . ووصف السيد محمد صالح الفولقى ، وزير خارجية اليمن الجنوبية نبأ احتلال الجـزر بأنه « تمهيد وتهيئة للرأى العام العربى والعالمى لتقبل الوجود الاسرائيلى كأمر واقع » (١١)وأعلن الوفد المصرى فى لجنة الخبراء العـرب للبحار المنعقدة فى القاهرة فى ذلك الحين أن اسرائيل تحاول السيطرة على مدخل البحر الاحمر عن طريق الاتفاق مع اثيوبيا ، ونبه الى الاهمية الاستراتيجية للبحر الاحمر (١٢) .

على أن الحكومة الاثيوبية أنكرت أنها تنازلت لاسرائيل « عن أى جزء من الاراضى الاثيوبية » . وفى الحديث الذى أدار بين محمود رياض الامين العام للجامعة العربية ، وبين وزير خارجية اثيوبيا فى هذا الصدد، أكد الوزير الاثيوبى استعداد حكومته لاستقبال وفد من الجامعة العربية لزيارة السواحل والجزر الاثيوبية فى البحر الاحمر ، لاثبات أن بـلاده لم تعط اسرائيل أية قواعد عسكرية فيها » (١٣) .

وفى يوم ١١ يوليو ١٩٧٣ أعلن القاضى عبد الرحمن الاريانى رئيس المجلس الجمهورى فى اليمن الشمالية ، لعدد من الصحفيين المصريين ،

---

(١٠) سجل العالم العربى ، وثائق — أحداث آراء سياسية (مجلد ابريل — سبتمبر ١٩٧٣ ص ١١٧١ بيروت : دار الأبحاث والنشر ؛

(١١) نفس المصدر ، مجلد يناير — مارس ١٩٧٣ ص ٧٦

(١٢) نفس المصدر ، مجلد ابريل — سبتمبر ١٩٧٣ ص ١١٧٨

(١٣) نفس المصدر ص ١١٦٥ — ١١٧٨

عدم وجود أى قوات أجنبية فى الجزر اليمينية فى البحر الاحمر باستثناء جزيرة أبو على التى تنازل عنها الانجليز عند انسحابهم من الخليج عـام ١٩٦٨ الى اثيوبيا . كما نفى القاضى الاريانى الانباء التى ترددت عنوجود عسكرى اسرائيلى فى الجزر اليمنية ، وأكد ان حماية الجزر واجبوطنى وانه طلب معونة عدة دول عربية لتمكين قوات اليمن الشمالية من مواجهة الالتزامات المترتبة على الوضع فى تلك المنطقة (١٤) .

وقد وضعت هذه التصريحات الستار حول هذه القضية ، ولكنها لم تحسمها بصورة حاسمة . فهل قامت اسرائيل حقيقة باحتلال جزيرة زقر واقامت فيها قاعدة الرادار — كما كتبت مجلة « تايم » الامـريكية أم أن القصة كلها كانت محض خيال ؟ .

للرد على ذلك لدينا بعض الملاحظات :

أولا — ان القصة لم تنشرها « مجلة تايم » وحـــدها ، بل رددتها مصادر اخرى قبل مجلة تايم . بل لقد نشرتها جريدة الاهرام فى القاهرة يوم ١٤ مارس — أى قبل صدور عدد المجلة الامريكية .

ثانيا — أن الحكـومة الاثيوبية عنـدما نفت منـح اسرائيل قواعد عسكرية ، انصب نفيها — كما ذكرنا على السواحل والجزر الاثيوبية . ونحن نعرف أن جزيرة « زقر » ليست من الجزر الاثيوبية . ولكنها تقعفى مواجهة الساحل الاثيوبى . ولربمـا اقتصرت المعـاونة الاثيوبيـة على التسهيلات التى مكنت اسرائيل من احتلال هذه الجزيرة ، دون أن تتحمل الحكومة الاثيوبية أية مسئولية عن ذلك ، باعتبارها ليست أرضا أثيوبية.

ثالثا — كذلك فان التصريحات التى أعلنهـا القاضى عبد الـرحمن الاريانى بعدم وجود قوات أجنبية او وجـود عسـكرى أسرائيلى ، وقد أنصبت هى الاخرى على « الجزر اليمنية » . وطبقـا للمعلومـات التى أوردتها مجلة « تايم» فى هذا الصدد ، فان مجموعة جزر الحنيش التى تقع فيها جزيرة زقر — المنوط بها قصة الاحتلال الاسرائيلى — وهى جزر

---

(١٤) نفس المصدر ص ٧٧٣

لا صاحب لها من الناحية القانونية ، وان كانت اليمن تطالب بحق السيادة على جزيرة « الحنيش الكبير » (١٥) .

رابعا — اذا كانت تصريحات القاضى الاريانى تشمل مجموعة جزر الحنيش ، فأغلب الظن ان الضجة التى اثارتها مصر والبلاد العربية والجامعة العربية حول هذا الاحتلال قد أجبرت الحكومة الاسرائيلية على سحب قواتها من جزيرة زقر والغاء القاعدة العسكريةالتى أقامتها . وعلى كل حال ، فلم يكن لهذه القاعدة ذكر فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

شرم الشيخ فى النزاع المصرى الاسرائيلى بعد حرب يونية ١٩٦٧ :

على كل حال ، فان شعور اسرائيل بالخطر من ناحية باب المندب ، لم يصرفها بطبيعة الحال عن الاهتمام بشرم الشيخ الذى تحتله منذ حرب ١٩٦٧ . فقد اقامت طريقا بريا ساحليا يوصل بين سيناء ايلات وشرم الشيخ ، واخذ ساستها يعلنون عن عزمهم على الاحتفاظ بشرم الشيخ . فقد أعلن موشى ديان فى سبتمبر ١٩٦٩ قوله : « لن تكون ايلات هى حدودنا الجنوبية ، وانما شرم الشيخ » (١٦) . وفى ديسمبر ١٩٧٠ أعلن ايجال آلون ونائب رئيس الوزراء فى اسرائيل أن هناك أربع مناطق لن تنسحب منها اسرائيل عند اقرار أى تسوية ، منها منطقة شرم الشيخ . وفى يوم ٢٣ يناير ١٩٧٠ قدم زعيم حزب المابام ، « مائير يعرى» أمام اللجنة السياسية مشروعة للسلام ، وقد تضمن : « ضمان الملاحةفى قناة السويس ومضايق تيران ، وضمان تواجد اسرائيل بشكل أو بآخر فى شرم الشيخ » .

وفى يوم ٨ فبراير ١٩٧١ ، وبعد جولة للمبعوث الدولى يارنج بدأت منذ ٥ يناير ، قدم لكل من اسرائيل ومصر مذكرة تتضمن أسس اتفاقية السلام المطلوبة دوليا وعربيا . وقد تضمنت المذكرة انسحاب اسرائيل من الاراضى المحتلة ، على أن يرافق الانسحاب عدة اجراءات منها : « ترتيبات

---

(15) TIME, op. cit.

(١٦) محمد فيصل عبد المنعم وابراهيم كروان : التوسع الاسرائيلى عرض وتحليل مشروعات السلام الاسرائيلى ، يونية ١٩٦٧ — أكتوبر ١٩٧٣ (مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ٤

أمن عملية فى منطقة شرم الشيخ تضمن حرية الملاحة فى مضايق تيران » على أن اسرائيل أعلنت فى مذكراتها « ليارنج » يوم ٢٦ فبراير ١٩٧١ أنها لن تنسحب الى خطوط ما قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ . وأعلنت جولدا مائير فى خطابها أمام المؤتمر الوطنى لحزب العمل الاسرائيلى الحاكم يوم ٤ ابريل ١٩٧١ أن اسرائيل لن تتخلى عن شرم الشيخ ، وأنها ترفض ضمانات الدول الكبرى ، وترفض الضمانات الدولية للحدود الامنة المعترف بها ، بما فى ذلك فكرة اقامة القوات الدولية على الحدود . وقد عبر موشى ديان عن موقف اسرائيل بالنسبة لشرم الشيخ فى عبارة حاسمة بقوله : « انى أفضل شرم الشيخ دون سلام ، على السلام بدون شرم الشيخ » (١٧)

ومن الطريف أن جولدا مائير طالبت مصر بأن تدرك أهمية شرم الشيخ لاسرائيل كما تدرك اسرائيل أهمية قناة السويس لمصر : « اننا ندرك أهمية قناة السويس بالنسبة لمصر ، ولكن مصر يجب أن تدرك أهمية شرم الشيخ لاسرائيل . ان شرم الشيخ لا أهمية لها بالنسبة لمصر ،ولكنها مهمة بالنسبة لنا ولاتصالاتنا البحرية مع الشرق» . ولم يكتف الاسرائيليون — بالمطالبة بشرم الشيخ ، بل طالبوا بطريق برى من ايلات الى شرم الشيخ . وفى يوم ٢٧ مارس ١٩٧٣ أعلن شيمون بيرز وزير المواصلات الاسرائيلى ، أثناء حفل افتتاح ورشة طيران جديدة فى شرم الشيخ ، أنه لن يحصل انسحاب من شرم الشيخ ، وينبغى انشاء المستوطنات على طول القطاع الساحلى .. (١٨)

ولقد كان من الطبيعى أن تصطدم هذه الاطماع الاسرائيلية فى شرم الشيخ بالسيادة المصرية على هذه المنطقة . وكما أن احتلال اسرائيل شرم الشيخ فى حرب ١٩٥٦ قد اضطر مصر الى السكوت على مرور الملاحة الاسرائيلية فى مضيق تيران ، فان احتلال اسرائيل شرم الشيخ فى حرب ١٩٦٧ اضطر مصر الى نفس الشىء ، ففى رد مصر على مذكرة يارنج التى قدمها يوم ٨ فبراير ١٩٧١ ، قبلت التعهد « بضمان حرية الملاحة فى

---

(١٧) د. عبد المنعم رمضان : تاريخ قيام وسقوط مبادرة يارنج (الطليعة ابريل ١٩٧٣)

(١٨) المقدم الهيثم الأيوبى : المرجع المذكور

مضايق تيران وفقا لمبادىء القانون الدولى ، والقبول بوضع قوة سلام دولية فى شرم الشيخ » (١٩) . وعندما اشار مدير تحرير مجلة « النيوزويك » الامريكية فى حديث مع الرئيس السادات يوم ٤ ابريل سنة١٩٧٣ ، الى قول جولدا مائير : « ان الضمان الوحيد لأمن اسرائيل فى سيناء هو منطقة شرم الشيخ » ، وأن هذا القول يستحق الاستكشاف من جديد ، فأجاب الرئيس السادات قائلا : « سنوافق على أى شىء بالنسبة لشرم الشيخ ، وعلى ضمان حرية الملاحة . ولكن لن نوافق على احتلال اسرائيل ، اننا سنعطيها للمجتمع الدولى تحت أية صيغة يرونها مقبولة ، الى الخمسة الكبار فى مجلس الامن بما فيهم الصين ، بقواتهم أو بقوات محايدة تحت ضمانتهم . ماذا تستطيع أن تطلبه منى أكثر من ذلك ؟ ولكن ان تبقى اسرائيل رائحة غادية كما يحلو لها فى منطقة شرم الشيخ فذلك أمر ليس محل نقاش » (٢٠)

على أن التعنت الاسرائيلى لم يلبث أن أدى الى نتيجته الطبيعية فى يوم ٦ اكتوبر ١٩٧٣ ، وهى الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة .

البحر الأحمر فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ :

يفهم من المصادر العسكرية المصرية أن خطة فرض الحصار على مضيق باب المندب ، لحرمان الملاحة الاسرائيلية من المرور فى البحر الاحمر ، كانت جزءا أساسيا من خطة الحرب ضد اسرائيل . وكان الغرض من ذلك اهدار نظرية الامن الاسرائيلى التى اصبحت تتمسك بوجود الاحتلال الاسرائيلى لشرم الشيخ . وقد شرح اللواء عبد الغنى الجمسى ، رئيس هيئة العمليات، ذلك بقوله : «لقد كان العدو يركز على أن شرم الشيخ تتحكم فى تجارته وبتروله ، وانه لن ينسحب منها لهذا السبب ، فكان القرار الحكيم

---

(١٩) د. عبد العظيم رمضان : المرجع المذكور

(٢٠) المقدم الهيثم الأيوبى : المرجع المذكور ، مجموعة خطب وأحاديث الرئيس محمد أنور السادات فى الفترة من يناير الى ديسمبر ١٩٧٣ ص ١١٤ — ١١٥ (الهيئة العامة للاستعلامات) . ومن المؤسف أن هيئة الاستعلامات تلاعبت فى هذا الحديث الصحفى ، وحذفت منه الجزء الخاص بموافقة الرئيس السادات على ضمان حرية الملاحة فى شرم الشيخ . مع أن المقصود بالمجموعة المذكورة أن تكون لها صفة توثيقية

الذى اتخذ فى هذا الشأن هو فرض الحصار البحرى على اسرائيل من المدخل الجنوبى للبحر الاحمر ، حتى تشعر اسرائيل بأنه رغم وجودها فى شرم الشيخ الا أن هذا الوجود لا قيمة له اذا كنا نتمكن من التأثير عليها من باب المندب » . (٢١)

وطبقا لما اورده اللواء حسن البدرى ، فان الخطةدخلتفى دورالتنفيذ فى أوائل شهرأكتوبر ١٩٧٣ حين‌اعلن عن تنفيذ المناورة السنوية لقوات البحرية المصرية التى تجرى كل عام فى نفس الموعد ، باعتبارها جزءا من المناورة الكبرى للقوات المسلحة . فقد تحركت غواصات البحر الاحمر تحت ستار اجراء بعض الاصلاحات الضرورية فى احدى موانى الباكستان، وكان قد تم الاتفاق على ذلك مسبقا مع السلطات الباكستانية . ثم تحركت مدمرات البحر الاحمر الى منطقة عملياتها عند باب المندب . وتم ذلكتحت ستار اجراء زيارة ودية لدول المنطقة (٢٢) .

وبمجرد أن نشبت الحرب ، فرضت مصر الحصار البحرى على باب المندب . وقد شارك فى فرض الحصار غواصتان ومدمرتان تابعتان للبحرية المصرية ، بالاضافة الى زوارق طوربيد وزوارق مسلحة تابعة لبحرية دولتى اليمن الجنوبية والشمالية . (٢٣) وقد صرح الفريق فؤاد أبو ذكرى قائد القوات البحرية المصرية يوم ١١ ديسمبر ١٩٧٣ بأن اغلاق مضيق باب المندب فى وجه الملاحة الاسرائيلية ، والسيطرة على منافذه بواسطة القطع البحرية المصرية ، قد تم بالتعاون مع الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية (٢٤) . وقال ان القوات

---

(٢١) اللواء محمد عبد الغنى الجمسى : عمليات اكتوبر ، وكيف خططنا لها ، وكيف نفذناها (وزارة الحربية : الرجال والمعركة اكتوبر ١٩٧٣ — اكتوبر ١٩٧٤)

(٢٢) لواء حسن البدرى وآخرون : حرب رمضان : الجولة العربية الاسرائيلية الرابعة ، أكتوبر ١٩٧٣ ، الطبعة الثانية ص ٢٣٤ (الشركة المتحدة للنشر والتوزيع)

(٢٣) الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة ، وقائع وتفاعلات (بيروت: سلسلة كتب فلسطينية عدد ٥٩ ، أكتوبر ١٩٧٤) . ص ١٣٤ ، حاشية ٤٤٦ .

(٢٤) نقلا عن نفس المصدر .

البحرية المصرية قامت بمهام الزيارة والتفتيش والاعتراض للسفن التجارية فى جنوب البحر الاحمر منذ بدء العمليات . وكانت اسرائيل تستخدم ٢٤ سفينة تجارية شهريا لنقل بترول ايران عبر باب المندب ، فمنع دخولها ، كما كانت تنقل ٦ مليون طن من بترول خليج السويس الى ايلات لسد احتياجاته البترولية . وقد بلغ من كفاءة تنفيذ المخطط العسكرى للتعرض لخطوط المواصلات البحرية انه لم تدخل او تخرج سفينة واحدة من ميناء ايلات حتى توقيع اتفاقية فصل القوات (٢٥) .

وقد اعترفت الدراسة التى قام بها معهد « ليونارد ديفز » بجامعة القدس بنجاح الحصار المصرى لباب المندب فقالت :

ان السفن الحربية التى تملكها مصر ، بالاضافة الى ما أمكنها الحصول عليه من تسهيلات من الدول العربية بالمنطقة ، قد جعلت مصر قادرة على حصار مضيق باب المندب . وقد عجزت اسرائيل ، التى لم تكن تملك سوى وحدات ضعيفة بالبحر الاحمر ، عن فك الحصار ، حيث لم يكن فى مقدور القوات المتمركزة بهذه المنطقة العمل بأعالى البحار ثم قالت : « ان التغير الجذرى الذى حدث فى البحر الاحمر ، وفشل اسرائيل فى تجميع قوة بحرية فى هذه المنطقة ، قد مهد الطريق لحصار اسرائيل بواسطة البحرية المصرية فى حرب الغفران » (٢٦) .

أما عن الحرب فى البحر الاحمر فوفقا لما ذكره الفريق أبو زكرى ، فقد قصفت الوحدات البحرية مناطق بعيدة عن قواعدها ، ولم تعترضها وحدة بحرية اسرائيلية واحدة . ومن هذه المناطق شرم الشيخ ، التى تعتبرها اسرائيل قاعدة هامة لتأمين الملاحة عبر مضيق تيران ، وتكرر القصف عدة مرات بالصواريخ الموجهة وغير الموجهة . وقال انه تم قصف شرم الشيخ ورأس محمد ورأس سدر فى اليوم الاول للعمليات . وفى

---

(٢٥) الفريق فؤاد أبو ذكرى : البحرية المصرية وحرب الغفران (الأهرام فى ٨ أكتوبر ١٩٧٦)

(٢٦) نقلا عن : الفريق فؤاد ابو ذكرى : دور القوات البحرية فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ (الندوة الدولية لحرب أكتوبر ١٩٧٣ ، القاهرة ٢٧ ـ ٣١ اكتوبر ١٩٧٥ المجلد الأول ، القطاع العسكرى ص ٩٨

الدراسة التى قدمها فى الندوة الدولية لحرب أكتوبر ١٩٧٣ بجامعةالقاهرة عن : « دور القوات البحرية اكتوبر ١٩٧٣ » ، عقد مقارنة هامة بين المهام التى قامت بها البحرية المصرية فى حـــرب أكتوبر عـــام ١٩٧٣ وتلك التى كلفت بها فى حرب يونية ١٩٦٧ ، فقال ان البحرية المصرية فى عام ١٩٦٧ لم تكلف بأى مهام هجومية ، على الرغم من توافر الوحدات ذات القدرات القتالية المؤثرة ، مثل الغواصات ولنشات الصواريخ والمدمرات . وانما كانت القوات البحرية مكلفة أساسا بالدفاع عن السواحل والموانى ، وتنفيذ الهدف السياسى الخاص بالسيطرة على الملاحة بمدخل خليج العقبة ، فى ظروف عدم احتمال اشتعال الموقف العسكرى . وهكذا لم يتوفـــر عنصر المبادأة ، وهو أساسى فى الحروب البحرية ، وبالتالى كان التركيـــز على تجميع قوة بحرية متوازنة بهذه المنطقة لتنفيذ القرار السياسى ، خاصـــة بعد ما أذيع عن ان بعض الدول البحرية قد قررت الدخول الىخليج العقبة بالقوة ، وكسر القيود التى اعلنتها مصر . ولقد نفذت القوات البحرية هذه المهمة الشاقة بكفاءة عالية ، وسيطرت تماما على مشـــارف خليج العقبة وقال : « ومما يثبت أن القوات المصرية كانت على درجة عالية من الكفاءة القتالية انهعقبالقتال عام ١٩٦٧ تم تدمير سفينة القيادةالاسرائيلية ايلات بسهولة تامة بالصواريخ البحرية الموجهة ، وكان غرق ايلات درساقاسيا لاسرائيل أكد لها ان القوات البحرية المصرية بعد وقف القتـــال كان لديها قدرات وامكانيات لم يتم استغلالها فى تلك الجولة » . ثم قال الفريق فؤاد أبو ذكرى أن القوات البحرية قد خططت لحرب أكتوبر ١٩٧٣ وفقاللاسلوب العلمى السليم وخاضت معاركها بكفاءة قتالية ممتازة وروح معنوية عالية، مستثمرة فى ذلك ما بذل من جهد فى التدريب والاعداد لهذه المعركة (٢٧) .

وفى الحقيقة أن الوحدات البحرية المصرية فى حرب اكتوبر لم تكف عن عملياتها فى البحر الاحمر مما سبب خسائر كبيرة لاسرائيل . فقدقامت ببث حقول الالغام فى خليج السويس مع بداية العمليات ، مما ادى الى غرق ناقلة بترول للعدو حمولتها ٤٦ الف طن ، ومعها لنش انقـــاذ حاول مساعدتها . وعادت البحرية الاسرائيلية الى استخدام ممـــر داخلى ضيق

---

(٢٧) نفس المصدر ص ٩٢ — ٩٣ ، ٩٩

لا يسمح بالمرور الا للسفن الصغيرة فقط ، ولكن السلاح البحرى المصرى بث كمائن الالغام فى المنطقة ، مما سبب اصابة ناقلة بترول اخرى حمولتها الفا طن . وكان استخدام الالغام فى خليج السويس سلاحا واسلوبا جديدا فى القتال استخدمته القوات المصرية البحرية ضد اسرائيل (٢٨) .

وقد اشترك سلاح الطيران المصرى فى قصف المواقع الاسرائيلية على ساحل البحر الاحمر لحرمان العدو من الاستفادة من بترول سيناء . فقصفت مناطق آبار البترول على شاطىء خليج السويس فى بلاعيم (٢٩) . كما قصفت منطقة أبو رديس على ساحل البحر الاحمر ورأس سدر (٣٠) . كما شملت عمليات جنود الصاعقة المحمولة بطائرات الهلوكبتر جبهة عريضة امتدت من شرم الشيخ الى شمال سيناء . ولم يكن الا بعد الثغرة حين حاولت مجموعة من الوحدات الاسرائيلية البحرية الخاصة بالكوماندوز فى البحر الاحمر ، الاقتراب من الشاطىء المصرى ، ولكنها اضطرت الى الانسحاب بعد أن اشتبكت معها البحرية والمدفعية المصرية (٣١) .

على كل حال ، بيتوقف القتال ، تبدأ صفحة جديدة فى الصراع السياسى على البحر الاحمر بين مصر واسرائيل . فقد رأينا كيف خاضت اسرائيل حرب ١٩٦٧ بسبب اغلاق مضيق تيران فى وجه الملاحة الاسرائيلية وقد أسقطت حرب اكتوبر ١٩٧٣ الاهمية الاستراتيجية لهذه المضايق بعد أن تمكنت البحرية المصرية بكفاءة من اغلاق مضيق باب المندب . ومع وقف القتال أخذت اسرائيل توجه جهودها لرفع الحصار المفروض على باب المندب ، وبدأ بالتالى صراع آخر فى هذا الميدان الجديد .

ففى المرحلة الاولى من محادثات الكيلو ١٠١ المشهورة على طريق القاهرة — السويس بين مصر واسرائيل ، ركزت اسرائيل فى الاجتماع

---

(٢٨) الفريق فؤاد أبو ذكرى : كيف نجحت القوات البحرية فى تحقيق مهامها (وزارة الحربية : المرجع المذكور ص ٤٣٨ — ٤٣٩) .

(٢٩) بيان عسكرى رقم ١٨ يوم ٨ أكتوبر ١٩٧٣ (نفس المصدر)

(٣٠) بيان عسكرى رقم ٢٩ فى ١١ أكتوبر ، رقم ٣ فى ١٢ أكتوبر ، ورقم ٤٢ فى يوم ١٦ أكتوبر

(٣١) بيان عسكرى رقم ٥١ فى ٢١ أكتوبر

الاول الذى انعقد يوم ٢٨ اكتوبر على فك الحصار المصرى عن باب المندب، الى جانب المحافظة على وقف النار وترتيب تبادل أسرى الحرب (٣٢) .

وقد استعانت اسرائيل بالولايات المتحدة للتدخل لانهاء هذا الحصار على باب المندب . ولم تتأخر الولايات المتحدة عن طرح الموضوع فى أثناء المباحثات التى جرت بين الدكتور هنرى كيسنجر والرئيس السادات . ففى يوم ٧ نوفمبر كان موضوع حصار مصر لباب المندب أحد الموضوعات الرئيسية التى دار البحث فيها خلال الاجتماع المغلق بين الجانبين (٣٣) .

على ان اتفاقية وقف اطلاق النار التى وقعت يوم ١١ نوفمبر لم تحتو على بند يشير الى حصار باب المندب . فقد رفضت مصر رفع الحصار بصورة قطعية قبل بدء انسحاب القوات الاسرائيلية من « الجيب » الذى احتلته اسرائيل عقب فتح الثغرة فى الضفة الغربية لقناة السويس وقد علقت جولدا مائير ، التى كانت تزور بريطانيا فى يوم ١٢ نوفمبر على ذلك قائلة ان « وقف اطلاق النار يجب ان ينطوى على رفع الحصار على باب المندب ، وان وقف القتال يعنى وقف اطلاق النار فى البر والبحر والجو» على أن مصر أبلغت الجنرال « أنزيوسيلاسفو » ، قائد قوات الطوارىء الدولية ان اعادة طرح موضوع باب المندب قبل الانسحاب من ثغرة الدفرسوار فى المنطقة الغربية للقناة من شأنه أن ينسف اتفاقية ١١ نوفمبر والمساعى السلمية المبذولة . وفى مقابلة صحفية يوم ١٢ نوفمبر ، رفض المتحدث باسم الحكومة المصرية الرد على سؤال المراسلين عما اذا كانت حكومته تفكر فى رفع الحصار عن مضايق باب المندب .

على أن الولايات المتحدة كانت تتخذ اجراءات أخرى لفك الحصار

---

(٣٢) لواء حسن البدرى وآخرون : المرجع المذكور ص ٢٥٠ .

(٣٣) السياسة الدولية يناير ١٩٧٤ ص ٢٤٧ . ويتضح من ذلك عدم صحة المصادر التى ذكرت أن الولايات المتحدة لم تستجب لدعوة التدخل من الجانب الاسرائيلى لانهاء الحصار على باب المندب (الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة ص ١٣٤) على اساس ان جهودها كانت متجهة وقتذاك الى توقيع اتفاقية لوقف النار بين العرب واسرائيل ، ولم تكن معنية بالقضايا الجانبية الثانوية نسبيا . وفى الواقع أن حصار باب المندب لم يكن قضية ثانوية بل قضية أساسية وفى صلب المباحثات .

وفرض الامر الواقع . فقد علق احد المسئولين فى وزارة الخارجية الامريكية على عدم وجود بند خاص فى اتفاقية وقف اطلاق النار بشأن رفع الحصار على باب المندب ، بأن ذلك لا يشكل أى عائق ، وان الحصار لم يعتبر اجراء رسميا ، وبالتالى فلم يتطلب بندا خاصا .

وفى اليوم التالى توقيع الاتفاقية ، كانت الولايات المتحدة تحرك سفنها فى بحر العرب نحو البحر الاحمر ، وقد حذرت مصر الولايات المتحدة من مغبة الاقدام على محاولة فك الحصار بالقوة ، وهددت باستخدام الاجراءات اللازمة عند الضرورة . وفى وقت لاحق حذرت صحيفة «برافدا» السوفييتية من أن التحركات الامريكية فى المحيط الهندى وبحر العرب ، تعد تهديدا للرأى العام العالمى ، وانها اجراء يقصد به زيادة التوتر فى الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا .

ولكن الولايات المتحدة الامريكية مضت فى اجراءاتها . ففى الاسبوع الأخير من نوفمبر ١٩٧٣ ، عبرت مضيق باب المندب الى البحر الاحمر مدمرتان امريكيتان بحجة زيارة ميناء مصوع . وكان هذا الاجراء بمثابة اختبار لمدي جدية العرب فى فرض الحصار . وقد احتجت حكومة عدن على هذا الاجراء الامريكى لدى الأمم المتحدة والجامعة العربية ، واعتبرته تعديا على سلامة وامن دول المنطقة كما اعتبرت الاهرام هذا الاجراء بمثابة استعراض للعضلات تقوم به السفن الحربية الامريكية بقصد الضغط على حكومة عدن والدول العربية الاخرى فى المنطقة .

ولكن الولايات المتحدة ، مضت فى طريقها قدما . فقد أعلن جيمس شلزنجر ، وزير الدفاع الامريكى ، فى مؤتمر صحفى عقده يوم ٣٠ نوفمبر ، أن وجود السفن الامريكية فى المحيط الهندى سيصبح أوسع وأكثر تنظيما من الماضى . واعلنت الولايات المتحدة أن القوات الامريكية المرابطة فى المحيط الهندى بقيادة حاملة الطائرات الامريكية هانكوك Hancock ستغادر المنطقة لتحل محلها قوة بحرية اخرى بقيادة حاملة الطائرات « أوريسنى » Orisany

واخيرا وفى الحصار عن باب المندب فى هدوء وبدون اعلان رسمى يوم ٩ سبتمبر ١٩٧٣ . ففى يوم ١١ ديسمبر تلقت وكالة « سانا » .

السورية للادباء برقية من مصادرها فى الكويت ، ذكرت ان سفنا اسرائيلية عبرت يوم ٩ ديسمبر ١٩٧٣ مضيق باب المندب بحراسة قطع بحرية تابعة للاسطول الامريكى السابع ، فى طريقها الى ميناء ايلات الاسرائيلى (٣٤) . وبذلك انتهت قصة حصـــار مضيق باب المنــدب ، وفتح الطــريق للسفن الاسرائيلية فى البحر الاحمر مرة اخرى الى ميناء ايلات .

قناة السويس فى النزاع المصرى — الاسرائيلى بعد حرب ١٩٦٧ :

أما بالنسبة لقناة السويس فلها قصة أخرى . فمنــذ هزيمة يونيو ١٩٦٧ ظلت القناة مسرحا للعمليات الحربية حتى حرب اكتوبــر ١٩٧٣ ، وبالتالى فقد ظلت مغلقة فى وجه الملاحة الاسرائيلية والدولية . وقدتعرض المجرى المائى للقناة اثناء تبادل اطلاق النيران ، الى تســـاقط العديد من القنابل والمفرقعات والصواريخ التى لم تنفجر ، والمواد الناســـفة وحقول الالغام ، هذا بالاضافة الى السفن التجارية والكراكات والوحدات البحرية المتوسطة من معدات ولنشات وغيرها مما غرق فى مجرى القناة (٣٥) .

وكانت اسرائيل ، منذ بسطت سيطرتها على الضفة الشرقية للقناة، فقد اخذت بين الفينة والفينة تتحدث عن « حقوق لها فى القناة على أساس الفتح » ورأت تعطيل أية اجراءات تستهدف تطهير القناة من السفن التى غرقت فيها أثناء العـــدوان ، بهدف حمل مصر على قبول مـــرور ســـفنها وبضائعها فى القناة حال تطهيرها . وفى رد ابا ايبان على السفير جونار يارنج ، المبعوث الشخصى لسكرتير عام الأمم المتحدة لحل مشكلة الشرق الاوسط ، ١٩٦٨ تحت بند « حرية الملاحة » فى المياه الدولية أوضح فى جلاء انه عندما تفتح القناة ، يجب ان تفتح بلا قيد ولا شرط ، وبدون تمييز بين سفن كافة الدول ، بما فى ذلك سفن اسرائيل (٣٦) .

---

(٣٤) الحرب العربية — الاسرائيلية الرابعة ص ١٣٤ — ١٣٥

(٣٥) مشهور أحمد مشهور ، المهندس : الصورة المستقبلية لقناة السويس (السياسة الدولية ابريل ١٩٧٥)

(٣٦) نص الرد موجود فى المجلة المصرية للقانون الدولى ، مجلد ١٤ سنة ١٩٦٨ ، نقلا عن : دكتور وحيد رأفت : اسرائيل وحرية الملاحة فى قناة السويس (السياسة الدولية ، ابريل ١٩٧٥)

وفى يوم ٤ فبراير اقترح الرئيس السادات انسحابا جزئيا تقوم به اسرائيل ، يليه اعادة فتح القناة للملاحة الدولية . ولكن جولدا مائير أعلنت فى مؤتمر حزب العمال فى القدس يوم ٤ ابريل ، انها مستعدة لمناقشة اعادة فتح القناة للملاحة بشرط أن تكون لجميع الدول ومنها اسرائيل (٣٧) .

وهذا الذى اعلنته جولدا مائير هو نفس ماعبرت اسرائيل عن موقفها الرسمى من مبادرة المبعوث الدولى جونار يارنج ، ردا على مذكرتيه اللتين اشرنا اليها يوم ٨ فبراير ١٩٧١ . ففى رد اسرائيل يوم ١٦ فبراير ، الذى ضمنته شروطها للسلام ، جاء فى البند السادس أن يكون هناك « تعهد » صريح من جانب مصر بضمان حرية المرور للسفن والبضائع الاسرائيلية فى قناة السويس (٣٨) .

وفى غضون عام ١٩٧١ ، جرت مباحثات مصرية ــ أمريكية حول اعادة فتح القناة للملاحة ، لم تكلل بالنجاح . وفى أوائل ١٩٧٢ قدمت الولايات المتحدة مقترحات وافقت عليها اسرائيل فى فبراير ١٩٧٢ باجــراء محادثات غير مباشرة لاعادة فتح القناة . ولكن مصر أعلنت فى ٢٤ مارس أن القناة جزءا لا يتجزءا من مصر ، وبالتالى فليس لديها استعداد للدخول مع أى طرف آخر فى جدول اعادة فتح القناة ، وستظل ملتزمة باتفاقية سنة ١٨٨٨ ، وان فتح القناة مرتبط بازالة آثار العدوان (٣٩) .

ومع عبور القوات المصرية قناة السويس فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ،وقيام علاقات جديدة بين مصروالولايات المتحدة ، أخذ المسرح السياسى يتهيألوضع جديد . فقد تم الاتفاق على اعادة قناة السويس للملاحة الدولية .

وقد ورد ضمن المبادىء الخمسة لفصل القوات ، التى أسفرت عنها المحادثات بين الرئيس الســادات والدكتور هنرى كســنجر يوم ١١ يناير ١٩٧٤ أن فتح القناة موضوع ارادة مصرية بحتة . وفى ٩ فبراير بدأت هيئة

---

(٣٧) نبيه الاصفهانى : حركة التاريخ على شاطىء القنال (السياسة الدولية ، نفس المصدر)

(٣٨) د. عبد العظيم رمضان : المرجع المذكور

(٣٩) نبيه الاصفهانى : المرجع المذكور

قناة السويس فى عمليات التطهير ونزع الالغام من مجرى القناة . وفى ٢٢ فبراير أعلنت القوات المصرية سيطرتها الكاملة على جميع مناطق الضفة الغربية للقناة (٤٠) .

وفى اول سبتمبر ١٩٧٥ وقعت مصر واسرائيل اتفاقية فك الاشتباك الثانى فى سيناء ، وقد ورد بالمادة السابعة بها انه « سيسمح بمرور الشحنات غير العسكرية المتجهة الى اسرائيل ومنها بالمرور فى قناة السويس » (٤١) . وقد علق الدكتور بطرس بطرس غالى على هذه المادة قائلا أن ذلك ليس الا عودة الى الوضع الذى كان سائدا فيما بين سنتى ١٩٥٧ ، ١٩٦٧ ، اذ كانت مصر تسمح بمرور البضائع الاسرائيلية غير العسكرية بشرط ان تكون محمولة على سفن غير اسرائيلية (٤٢) .

على ان القضية تتوقف على ماهو المقصود بالشحنات غير العسكرية فقد اتجه التشريع المصرى نحو التشدد فى تفسير هذا المصطلح ، ان ادخل فيها ، بمرسوم ٣٠ نوفمبر ١٩٥٣ ، الشحنات الغذائية . وكان هذا المصطلح يشمل بمقتضى القانون رقم ٣٢ لسنة ١٩٥٠ « النقود والسبائك الذهبية والفضية والأوراق المالية » وغيرها مما كانت السلطات المصرية وقتذاك تعتبره شحنات عسكرية لأنه يقوى من ساعد العدو . فهل استمر هذا التشدد فى تحديد الشحنات العسكرية ، فى ظل العلاقات الجديدة مع الولايات المتحدة ، التى كانت تعارض أبدا الحصار على هذا النحو ؟هذا هو السؤال .

البحر الاحمر واتفاقية كامب ديفيد :

على كل حال ، فقد انتهت المواجهة المصرية الاسرائيلية فى البحر الاحمر باتفاقية كامب دفيد يوم ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ بين مصر واسرائيل ، بشهادة رئيس الولايات المتحدة الامريكية . فقد ورد بها ما يلى :

---

(٤٠) نفس المصدر .

(٤١) انظر نص الاتفاقية فى السياسة الدولية أكتوبر ١٩٧٥ .

(٤٢) د. بطرس غالى : تقديم ملف إتفاقية فك الاشتباك الثانى فى سيناء ص ٢٣٧ .

« وقد اتفق الجانبان على المسائل الآتية :

د — حرية مرور السفن الاسرائيلية فى خليج السويس على أساس اتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٨٨ والتى تنطبق على جميع الدول واعتبار مضيق تيران وخليج العقبة ممرات دولية مفتوحة أمام جميع الدول لحرية الملاحة وحرية المرور البرىء والطيران فوقهما ... وتتمركز قوات الأمم المتحدة فى :

ب — فى منطقة شرم الشيخ لضمان حرية المرور فى مضيق تيران . ولن يتم سحب هذه القوات الا فى حالة موافقة مجلس الأمن على سحبها بالأغلبية المطلقة .

وبعد أن يتم توقيع اتفاقية السلام ، واثر اتمام الانسحاب المرحلى ، تقام علاقات طبيعية بين مصر واسرائيل بما فى ذلك الاعتراف الكامل ، متضمنا علاقات دبلوماسية واقتصادية وثقافية ، وانهاء المقاطعة الاقتصادية ، ورفع القيود على حرية انتقال البضائع والأشخاص(٤٣) .

ولم يكن هذا النص بخصوص شرم الشيخ وقناة السويس يفترق عما ورد فى المشروع المصرى نفسه المقدم لمؤتمر كامب ديفيد . فقد ورد فى المادة الثانية أن « اقامة سلام عادل ودائم يستلزم الوفاء بما يلى » :

ثالثا : ... تطبيق مبدأ المرور البحرى على الملاحة فى مضايق تيران .

سادسا : ... انهاء المقاطعة العربية . وضمان حرية المرور فى قناة السويس طبقا لأحكام اتفاقية القسطنطينية المبرمة عام ١٨٨٨ والاعلان الصادر من الحكومة المصرية فى ٢٤ أبريل ١٩٥٧(٤٤) .

ونلاحظ فى هذا الصدد أن اتفاق كامب ديفيد (الوثيقة الثانية) لم يتعرض للاعلان الصادر من الحكومة المصرية فى ٢٤ أبريل ١٩٥٧ ، المشار

---

(٤٣) انظر نص الوثيقة الثانية من وثائق كامب ديفيد فى : الأهرام يوم ١٩ سبتمبر ١٩٧٨

(٤٤) نفس المصدر

اليه فى المشروع المصرى . وكان هــذا الاعــلان يقضى ببعض الترتيبات بخصوص الشكاوى الخاصة بالتفرقة فى المعاملة وتلك المتعلقة بلائحة القناة ، حيث كان على الطرف الشاكى التقدم الى هيئة قناة السويس أولا، فاذا لم يحل النزاع يعرض على محكمة تحكيم مكونة من عضــو يرشحه الشاكى وعضو ترشحه الهيئة وعضو ثالث يختاره الاثنان . فاذا تعذر الاتفاق يقوم رئيس محكمة العدل الدولية باختيار العضو الثالث ، وحين تصدر قرارات محكمة التحكيم حسب رأى أغلبية اعضائها تكون ملزمة للاطراف . كما نص اعلان ٢٤ أبريل ١٩٥٧ على أن تســوى المنازعات والخلافات الناشئة عن اتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٨٨ أو هذا البيان ، طبقا لميثاق الأمم المتحدة ، وتحال الخلافات النشائة بين الأطــراف حول تفسير أو تطبيق نصوص اتفاقية سنة ١٨٨٨ الى محكمة العدل الدولية اذا لم تحل(٤٥) ــ ومعنى هذا التجاهل من وثيقة كامب ديفيد لاعلان ٢٤ ابريل ١٩٥٧ ، رغم أن المشروع المصرى يتضــمنه هو ــ فيما يبــدو ــ رفض اسرائيل لأسلوب الاجراءات المتبع فيه حال ، فقد كانت تلك هى نهــاية المواجهة المصرية الاسرائيلية فى البحر الأحمر . وقد انتهت بتحقيق مطامع اسرائيل فى البحر الأحمر بشكل لم تكن تحلم به عند قيام الدولة اليهودية فى مايو ١٩٤٨ . فلم يعد فى وسعها فقط المرور فى مضيق تيران ، بــل وصار من حقها المرور فى قناة السويس . ولقد كانت مطامع اسرائيل فى البداية تنحصر بالدرجة الأولى فى النفاذ الى البحر الأحمر عن طريق ميناء ايلات الى خليج العقبة ومضيق تيران ، ولم يكن المرور بقناة الســويس يسبب لها هما كبيرا الا فيما يتصل بسهولة نقل سلعها من موانيها على البحر المتوسط الى الساحل الشرقى لافريقيا والبحر الأحمر . ولذلك ففى حين أن أحدا فى اسرائيل ــ كما يقول موشى ديان ــ لم يكن يعتقد فى أن بحث حق المرور فى قناة السويس يمكن أن يخــرج عن نطاق الوســائل الدبلوماسية ، الا أن مسألة حرية الملاحة فى مضيق تيران ، كانت تدخل فى اطار الحرب أو السلام .

---

(٤٥) انظر نص المذكرة المصرية الخاصة بالملاحة فى القناة فى ابريل ١٩٥٧ فى : د. مصطفى الحفناوى : قناة السويس المعاصرة ، الجــزء الثالث ص ٦٢٣ ــ ٦٢٧

على أن حرب يونية ١٩٦٧ حققت لاسرائيل ما لم تكن تحلم به . فقد حملت قواتها الضاربة الى شاطىء قناة السويس واخضعت شبه جزيرة سيناء كلها للاحتلال الاسرائيلى . وعندئذ اخـذت اسرائيل فى انتهاز الفرصة لكى تفتح المنفذ الثانى لتجـارتها فى البحـر الأحمر ، وهو قناة السويس . ولكن هذا المنفذ كان مرتبطا بانهاء حالـة الحـرب بين مصر واسرائيل ، وعقد معاهدة سلام ، وفقا لمعاهدة القسطنطينية لعام ١٨٨٨ التى تعطى لجميع الدول حق المرور ما دامت ليست فى حالة حرب مع الدولة صاحبة القناة وهى مصر . وهذا ما وفرت شروطه اتفاقية كامب ديفيد .

وقد بقى باب المندب ، الذى أصبح يمثل الخـطر الوحيد على أمن الملاحة الاسرائيلية فى البحـر الأحمر ، وقد رأينا أطمـاع اسرائيل فى التواجد العسكرى بشكل ما لضـمان أمن ملاحتها . ومن الطبيعى أن اتفاقية كامب ديفيد قد نقلت مسئولية المواجهة مع اسرائيل فيه الى الدول العربية الواقعة على شـواطئه . لذلك لا غرابة ، مع بوادر واتجاهات الاتفاق بين مصر واسرائيل أن أخذت جمهورية اليمن الشمالية فى اقامة التحصينات اللازمة فى جميع الجزر اليمنية التابعة لها فى جنوب البحر الأحمر وتحسين وسائل المواصـلات اليها لتموينها ، وذلك : « بهدف حمايتها من أى اعتداءات قد تقوم بها اسرائيل ، لمحاولة السيطرة على مواقع مؤثرة وفعالة لبحريتها ، ولتأمين الملاحة الاسرائيلية ، مع تهديـد الملاحة العربية والأمن العربى بصورة مباشرة » . وهو ما انتهت منه فى سبتمبر ١٩٧٨ (٤٦) . ولا غرابة أيضا أن اتجه ميزان القوى فى الصراعات المحلية الدائرة فى جمهـورية اليمن الجنوبية ، الى تغلب كفـة القوى المتشددة المطالبة بمزيد من الاستقطاب نحو الاتحاد السوفيتى بانقلاب يوليو ١٩٧٨ .

---

(٤٦) الجمهورية فى ١٩ سـبتمبر ١٩٧٨ ، نقلا عن جـريدة الأنباء الكويتية .

على أنه لما كانت الدول العربية الواقعة على ساحل البحر الأحمر لا تملك أى منها — فيما عدا مصر — القوة البحرية الكافية لمواجهة اسرائيل فى البحر الأحمر ، فان اتفاقية كامب ديفيد التى وفرت اطارا لمعاهدة سلام بين مصر واسرائيل ، تكون قد أخرجت من الساحة العربية أكبر قوة بحرية ضاربة فى البحر الأحمر ، ومهدت لاسرائيل التمتع بالحرية والأمن لملاحتها فى هذا البحر لأمد بعيد .

٣٩

أمن البحر الأحمر

بين ميثاق جدة عام ١٩٥٦ ومؤتمر تعز عـــام ١٩٧٧ م
صفحة من الســياسة العربية

دكتور رأفت غنيمى الشيخ

كلية التربية بجامعة عين شمس ـ كلية الانسانيات بجامعة قطر

مقـــدمة :

عند الحديث عن أمن البحر الأحمر لايعنى ضمان أمن مياه هذاالبحر دون أراضى الأقطار المطلة عليه . بل أن أمن مياه البحـر من أمن أراضى هذه الاقطار .

ومن هنا عندما نتحدث عن أمن البحر الأحمر فاننا نعنى أمن الاقطار المطلة على هذا البحر وضمان كيانها واستقرارها ضد الأخطار الخارجية.

وقد أثيرت قضية أمن البحر الاحمر فى عام ١٩٧٧ م عنـدما بدأت مشكلة القرن الافريقى تطفو وتفرض نفسها على السياسة العالمية ، وما يتبع ذلك من وجود قوى أجنبية فى مياه البحر الاحمر . ومن هنا جـاءت مبادرة الرئيس الســودانى جعفر نميرى الداعية الى عقد اجتمـاع قمة لرؤساء الدول المطلة على البحر الأحمر للبحث فى كيفية ضمان أمن هذا البحر .

وليست هذه القضية جديدة على المنطقة بل هى قضية قديمة ترجع الى اوائل القرن السادس عشر عندما أجتاز البرتغاليون رأس الرجـاء الصالح ووصلوا الى مداخل الخليج العربى والبحر الاحمـر بهدف تحويل التجارة الهندية عن هدين البحرين العربيين كأسـلوب لمحاربة التجارة

الاسلامية العربية وبالتالى الاقطار العربية التى كانت التجارة العالميةبين الشرق والغرب تمر عبر مياهها وأراضيها .

وهى قضية قديمة عندما استولى العثمانيون على أقطار المشرق العربى فى أوائل القرن السادس أيضا وأرادووا ايقاف زحف البرتغاليون الى هذه الاقطار باتباع تقليد جديد يدعو الى منع دخول المراكب المسيحية فى البحر الأحمر لأنه يطل على الاماكنالمقدسة للمسلمين فى الحجاز ،وهو التقليد الذى ظلت الدولة العثمانية متمسكة به حتى أواخر القرن الثامن عشر (١) . وكانت تعنى بذلك عدم السماح للسفن البرتغالية المعتديةبصفة خاصة بدخول مياه البحر الأحمر وتهديد الممتلكات العثمانية .

اذن فالقضية قديمة ولكن يجددها ظهور قوى أجنبية غير « بحر أحمرية » فى مياه هذا البحر واتخذوا مواقف عدائية من بعض الدول العربية التى تطل على مياهه . فعندما انتزعت انجلترا من فرنسا أكبر مستمعراتها فى الهند فى صلح باريس عام ١٧٦٣ م ، اتجه اهتمامها الى تيسير المواصلات بين انجلترا وامبراطوريتها الهندية ، ومن هنا انبعثت التفكير الى احياء الطرق البرية القديمة وأهمها طريق البحر الاحمر ومصر، وطريق الخليج والفرات (٢) .

ومنذ ذلك الوقت أخذ اهتمام انجلترا بالبحر الأحمر بزداد ، فوجدناها تستولى على عدن — مدخل البحر الأحمر الجنوبى — عام ١٨٣٩م وتنذر محمد على بأن أى اعتداء على عدن يعد اعتداء على جزء منالاملاك البريطانية (٣) ثم أخذت انجلترا تعمل على ايجاد ممتلكات لها فى شرق وشمال أفريقيا (٤) حتى اذا افتتحت قناة السويس للملاحة العالمية عام ١٨٦٩ م — عملت انجلترا على الانفراد بالسيطرة على البحر الأحمر من

---

(١) د. محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٢٨

(٢) د. أحمد عزت عبد الكريم وآخرون . دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ص ٢٢١

(٣) جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط ص ١٢٢

(4) Kirkwood : Britain and Africa, p. 19.

جذوبه الى شماله فى مصر خاصة بعد شرائها لنصيب مصــر من أسهم شركة القناة .

وفى سبيل ذلك وضعت انجلترا سياســتها على الاهتمــام بالبحر الأحمر فى المقام الأول اذ جاء فى تعليمات اللورد سالسبورى Salisbury وزير الخارجية البريطانية للسير ادوارد ماليت Malet والأخير فى طريقه الى القاهرة لتسليم مهام منصبه كقنصل عام لانجلتــرا فى مصر ، ووكيل حكــومة جــلالة الملكة — وهذه التعليمات مؤرخــة فى ١٦ اكتوبر ١٨٧٩ م — يجب أن يكون واضحا فى الأذهان أنه اذا قسمت الامبراطورية العثمانية الى أقاليم وأصبحت مصر مســتقلة فان الجــزء من مصر الذى يستحوذ على اهتمام انجلترا هو ساحل البحر الأحمر ، الى جانب الخطوط الحديدية ووسائل المواصلات الاخرى عبر برزخ السويس (قناةالسويس) واذا تم فعلا تقسيم مصر ذاتها وبقى ســاحل البحــر الأحمــر ووسائل المواصلات تحت سيطرة انجلترا أى خاضعة للنفوذ الانجليزى بينما ظلت داخلية البلاد من جهة أخرى فى حالة من الاستقرار فى ظل نظام حكميكفل هذا هذا الاستقرار فان انجلترا لن تجد فى هذه الحالة سببا يدعــوها الى القلق أو عدم الرضا (٥) .

وهكذا حدث الاحتلال الانجليزى لمصر عام ١٨٨٢ م لتصبح لانجلترا السيطرة على مداخل البحر الأحمر الجنوبية (عدن) والشــمالية (قناة السويس) . وحتى عندما أرغمت انجلترا مصر على اخلاء السودان دافعت البحرية البريطانية عن ميناء سواكن وظلت تحتفظ به — باســم مصر — طوال عهد الدولة المهدية فى السودان ، ولذلك لا تعجب أن نسمع اللورد سالسبورى أحد قادة الاستعمار البريطانى يصف البحر الأحمر بأنه وتر بريطانيا الحساس .

وعندما قامت الثورة المصرية عام ١٩٥٢ م تطلعت الى ضمان أمن البحر الأحمر بواسطة الاقطار التى تقع على شواطئه دون وجود قــوى خارجية ، ومن هنا ظهر ما عرف بميثاق أمن جدة عام ١٩٥٦ م الذى ضم كلا من مصر والمملكة العربية السعودية واليمن وهو وان كان ميثاقادفاعيا

---

(5) Langer : European Alliances Chap. 8.

الا أنه يعنى حماية أمن البحر الأحمر من خلال الدفاع المشترك عن الدول العربية الموقعة على الميثاق ضد العدوان الخارجى سواء فى الأرض أو البحر .

ثم جاء مؤتمر تعز فى مارس ١٩٧٧ م نتيجة لمبادرة الـرئيس جعفر نميرى لتثير القضية من جـديد امام خطر شـديد . وفى هـذه الوريقات سنسرق القضية من عام ١٩٥٦ م مرورا بعام ١٩٧٣ م وحتى مؤتمر تعز عام ١٩٧٧ م .

ميثاق أمن جـــدة :

لم يكن عقد هذا الاتفاق بين حكومات كل من جمهورية مصر ، والمملكة العربية السعودية والمملكة المتوكلية اليمنية بمدينة جدة بتاريخ ٢١ أبريل ١٩٥٦ م وبحضور كل من الرئيس جمال عبد الناصر ، والملك سعود الأول والامام أحمد الا حلقة من حلقات الاتفاقات بين الأقطار العربية كانت مصر محورها وقلبها .

وذلك انه منذ فبراير ١٩٥٥ م بدأت مصـر بسلسـلة من اللقاءات العربية والاتفاقات الثنائية والثلاثية والجماعية من أجل التضامن العربى ضد القوى الخارجية ، كان منها المؤتمر الذى شاركت فيه حكومات كل من الاردن وسوريا واليمن والسعوودية الى جانب مصر وأصدر قراراته بالقاهرة فى ٨ فبراير ١٩٥٥ م ، وكان منهـا البيان السـورى المصرى الصادر بدمشق فى ٣ مارس ١٩٥٥ م والذى انضمت اليه المملكة العربية السعودية فى ٥ مارس من نفس العام ، وينص على عدم الانضـمام الى الحلف التركى العراقى أو أية احلاف اخرى ، وعلى اقامة منظمة دفـاع وتعاون اقتصادى عربى مشترك ، وعلى الالتزام بالاشتراك فى صد أى عدوان يقع علي احدى دول المنظمة ، وعلى انشاء قيادة مشتركة دائمة ، وعلى عـدم قيام أية دولة مشـتركة فى المنظمـة بعقد اتفاقـات دولية عسكرية (٦) .

---

(٦) أمين سعيد : تاريخ الدولة السعودية جـ ٢ ص ١٢٩

كما كان من بين هذه الاتفاقات العربية ميثاق الحلف العسكرى الذى تم التوقيع عليه فى القاهرة فى ٢٧ أكتوبر عام ١٩٥٥ م بين كل من المملكة العربية السعودية وجمهورية مصر لضمان الأمن والسلام ورد العدوان الخارجى عند وقوعه فى اطار من مبادىء الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية .

ثم جاء ميثاق أمن جدة لتكتمل المسيرة فى اطار التحالفات العربية حيث جاء فى البلاغ الذى أذيع فى ختام الاجتماعات التى عقدت بين الزعماء الثلاثة بمدينة جدة فى العاشر والحادى عشر من شهر رمضان ١٣٧٥ هـ الموافق العشرين والحادى والعشرين من شهر أبريل سنة ١٩٥٦ م ، بأنه قد عقدت خلال هذين اليومين عدة اجتماعات تم فيها بحث المسائل التى تهم الدول الثلاث بوجه خاص ، وتتصل باقرار الأمن والسلام فى العالم العربى بوجه عام ، ودارت المباحثات والمشاورات بين الرؤساء فى جو ودى خالص وتكاتف كامل ، وحرص الجميع على تمكين أواصر الاخاء والتعاون بين دولهم مستهدفين فى ذلك أمانى الشعوب العربية والكرامة والأمن والسلام .

وقد اسفرت هذه الاجتماعات عن عقد اتفاقية دفاع مشترك وقعها الزعماء الثلاثة واتاحت لهم تبادل الرأى فى وضع الخطط العملية التى تكفل نمو الروابط الاقتصادية والثقافية والفنية بين الدول العربية وتوثيق عرى التعاون بينها لتحقيق خير الامة العربية .

من هذه المقدمة للاتفاق تتضح المبررات لعقده بين الدول الثلاث . وهى الدول التى تمسك بكل شاطىء البحر الأحمر الاسيوى ومعظم الشاطىء الأفريقى . والتى تمسك بمدخل البحر الأحمر من الجنوب والشمال ، وأن كان الاتفاق دفاعيا الا انه يمكن القول أن أمن البحر الأحمر عمل دفاعى .

ومن ثم جاء فى صلب الميثاق : « أن حكومات جمهورية مصر والمملكة العربية السعودية والمملكة المتوكلية اليمنية ، توطيد الميثاق الجامعة العربية وتأكيدا لاخلاص الدول المتعاقدة لهذه المبادىء ، ورغبة منها فى زيادة تقوية وتوثيق التعاون العسكرى ، وحرصا على استقلال بلادها

ومحافظة على سلامتها وايمانا بأن اقامة نظام أمن مشترك فيما بينهــا يعتبر عاملا رئيسيا فى تأمين سلامة واستقلال كل منها ، وتحقيقا لامانيها فى الدفاع المشترك عن كيانها ، وصيانة الأمن والسلام وفقا لمبادىء ميثاق جامعة الدول العربية وميثاق الامم المتحدة وأهدافها ، وعملا بما نصت عليه الفقرة الأولى من المادة التاسعة من ميثاق الجامعة العربية ، قد اتفقت على عقد اتفاقية لهذه الغاية » .

ويقينى أن النص على ايمان كل من حكومات مصر والسعودية واليمن بأن اقامة أمن مشترك فيما بينها يعتبر عــاملا رئيسيا فى تأمين سلامة واستقلال كل منها ، دليل على اصرار هذه الأقطار الثــلاثة ، على تأمين سلامتها الاقليمية سواء فى الأرض أو البحر ، وحيث انها تطل على البحر الأحمر ، وحيث انها تطل على البحر الأحمر ولها فيه مياه اقليمية فان تأمين هذا البحر ضد أى اعتداء خارجى من مسئولية هذه الأقطار كدفاعها عن الأرض .

كما ان يقينى بأن الدفاع عن كيان واستقلال هذه الأقطــار الثلاثة يستلزم بالضرورة الدفاع عن البحر الأحمر الذى تطل عليه من الناحيتين وأن هذا الدفاع عن الأرض والبحر يحقق أمانيها فى الدفاع المشترك عن كيانها بحسبان البحر الأحمر جزء من مســئولية هذه الاقطــار فى تأمين السلامة الاقليمية لها .

ومن ثم فقد نصت المادة الأولى من هذا الميثاق ،لا متى على حرصى الأقطار الموقعة عليه على « دوام الأمن والسلام واستقرارهما » وهــذا يعنى اعتزام كل من مصر والســعودية واليمن على تأمين الأرض والبحر ضد كل عدوان خارجى ولكن — كما جاء فى نفس المادة — باللجوء أولا الى أسلوب « فض جميع منازعتها الدولية بالطرق السلمية » . وذلك تمشيا مع نصــوص ميثاقى هيئة الامم المتحــدة وجامعــة الدول العــربية بهذا الخصوص .

كما نصت المادة الثانية من الميثاق على أن « تعتبر الدول المتعاقدة كل اعتداء مسلح يقع على أية دولة منها أو على قواتها اعتداء عليها ، ولذلك فانها عملا بحق الدفاع الشرعى الفردى والجماعى عن كيانها تلتزم بأن تبادر

كل منها الى معونة الدولة المعتدى عليها وبأن تتخذ على الفور جميع التدابير وتستخدم جميع ما لديها من وسائل بما فى ذلك استخدام القوة المسلحة لرد الاعتداء ولاعادة الأمن والسلام الى نصابهما .

ويقينى ايضا ان ضمان امن البحر الأحمر عمل جماعى ودفاع مشترك لا تنفرد به دولة واحدة ، ومن ثم نصت هذه المادة الثانية على مشاركة دول الميثاق فى ضمان الأمن والسلام حتى وان استدعى الامر اللجوء الى استخدام القوة المسلحة ضد العدوان الخارجى على رض أو مياه دول الميثاق مجتمعة او احدى دولة حتى ينتهى العدوان وتعود الى الأرض أو المياه الاقليمية الأمن والاستقرار ويستتب السلام ... وحسبانى أن مياه البحر الأحمر مياه اقليمية لدول ميثاق أمن جدة الثلاث باعتبارها تشرف على هذا البحر من جانبيه الافريقى والأسيوى وتمتلك معظم شواطئه على القارتين .

كمانصت المادة الثالثة على أن « تتشاور الدول المتعاقدة فيما بينها بناء على طلب احداها ، كلما توترت واضطربت العلاقات الدولية بشكل خطير يؤثر فى سلامة أراضى أية واحدة منها او استقلالها ، وفى حالة خطر الحرب الداهم او قيام حالة مفاجئة يخشى خطرها تبادر الدول المتعاقدة على الفور الى اتخاذ التدابير الوقائية والدفاعية التى يقتضيها الموقف » .

واعتقادى ان توتر أو اضطراب العلاقات الدولية بصورة تؤثر على أمن وسلامة أراضى ومياه دول الميثاق أمر يستدعى التشاور لاتخاذ الاجراءات اللازمة لضمان الأمن والسلامة لأراضى مصر والسعودية واليمن وبينها مياه البحر الأحمر الواقع وسط هذه الأراضى ، ومن ثم التزمت هذه الأقطار الثلاثة باتخاذ التدابير الوقائية والدفاعية الضرورية لضمان استمرار الأمن والسلام للمنطقة أرضها وبحرها .

وحرصت المادة الرابعة من الميثاق على تأكيد التزام الأقطار الثلاثة بالدفاع المشترك وضمان الأمن حتى فى حالة وقوع عدوان خارجى مفاجىء على احدى دول الميثاق سواء حدث العدوان على الأرض أو المياه الاقليمية لتلك الدولة . وجاء هذا التأكيد فى النص على انه « بالاضافة الى

الاجراءات العسكرية التى تتخذ لمواجهة هذا العدوان ، تقرر الدول الثلاث فورا الاجراءات التى تضع خطط هذه الاتفاقية موضع التنفيذ (٧) .

وتتوالى مواد الميثاق لتؤكد التزام الدول الثلاث بضمان أمن وسلامة أراضيها ومياهها باتخاذ الاجراءات اللازمة لتنفيذ هذا الالتزام ومن بين هذه الالتزام ومن هذه الاجراءات ما نصت عليه المادة الخامسة بتشكيل عدة أجهزة تتولى تنفيذ ما نص عليه الميثاق من التزام دفاعى مشترك مثل: المجلس الأعلى ، والمجلس الحربى ، والقيادة المشتركة .

وقد عالجت المواد السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة كيفية تشكيل هذه المجالس واختصاصاتها ووظائفها وتمثيل دول الميثاق الثلاث فيها . فالمجلس الاعلى يتكون من وزراء الخارجية والحربية للدول المتعاقدة ، والمجلس الحربى يتكون من رؤساء أركان حرب الجيوش الثلاثة التابعة لدول الميثاق ، بينما تتكون القيادة العامة من قائد عام وهيئة أركان الحرب والوحدات التى يتقرر وضعها لتأمين القيادة المشتركة وادارة أعمالها . وتمارس هذه القيادة عملها وقت السلم والحرب وهى ذات صفة دائمة .

ويقينى أن هذه الاجهزة هى الادوات أو الوسائل العلمية الكفيلة بضمان الأمن والاستقرار وأن مجرد قيامها دليل على التزام دول ميثاق أمن جدة بالدفاع عن أراضيها ومياهها . هذا وقد تشكلت القيادة العامة وجعل على رأسها قائد عام مصرى واختيرت القاهرة مقرا لهذه القيادة العامة .

وانتهى الميثاق بالمادتين الحادية عشرة والثانية عشرة ، الاولى نصت على عدم تعارض نصوص الميثاق مع مواثيق هيئة الامم المتحدة ، بينما نصت الثانية على سريان الميثاق لمدة خمس سنوات تتجدد بتلقاء نفسها لمدة خمس سنوات أخرى وهكذا ، ولأى دولة من الدول المتعاقدة أن تنسحب منها بعد ابلاغ الدولتين الآخريين كتابة برغبتها فى ذلك قبل سنة من تاريخ انتهاء أى من المدة المذكورة سابقا .

---

(٧) وزارة الخارجية : مكة المكرمة : مجموعة المعاهدات

وهكذا كان ميثاق أمن جدة خطوة عربية لضمان أمن البحر الأحمر ولمواجهة أية تهديدات خارجية لهذا البحر ، وبالتالى للدول المطلة عليه ، لأن تهديد أمن البحر الأحمر تهديد للدول الواقعة على شواطئه الافريقية والأسيوية فى آن واحد ، كما أن تهديد أمن الدول التى لها سواحل على البحر الأحمر تهديد لأمن هذا البحر وجعله مسرحا لاضطرابات دولية بل وتنافس عالمى حول امكانيات البحر الأحممر واكانيات دولية فى وقت واحد .

ومما هو جدير بالذكر ان ميثاق أمن جدة الذى شاركت فى التوقيع عليه حكومات كل من مصر والسعودية واليمن فى ٢١ ابريل عام ١٩٥٦م تمشت مواده ونصوصه مع مواد ونصوص ميثاق الحلف العسكرى الذى تم التوقيع عليه فى القاهرة بتاريخ ٢٧ اكتوبر عام ١٩٥٥ م بين كل من حكومتى جمهورية مصر والمملكة العربية السعودية . أى ان الميثاق الثنائى الذى عقد بالقاهرة عام ١٩٥٥ م كان هاديا ومقدمة لميثاق الأمن الثلاثى الذى عقد بجدة فى العام التالى .

مؤتمر تعز عام ١٩٧٧ م :

لم يكن انعقاد مؤتمر تعز فى ٢٢/٢٣ مارس ١٩٧٧ الا آخر الخطوات التى اتخذتها الدول المطلة على البحر الأحمر حتى الآن للبحث فى كيفية ضمان أمن هذا البحر بعد ان تعرض هذا الامن لتهديدات قوى خارجية أو معادية للأقطار العربية المطلة على هذا البحر . اذ كانت هناك خطوات اخرى فردية وجماعية من جانب الأقطار العربية ومنذ ميثاق أمن جدة حتى مؤتمر تعز للحفاظ على امن واستقرار البحر الأحمر من بين تلك الخطوات موقف المملكة العربية السعودية من مرور السفن الاسرائيلية فى خليج العقبة تحت مظلة قوات الطوارىء الدولية فى شرم الشيخ عقب حرب السويس عام ١٩٥٦ م ذلك الموقف العنيد الذى استنكر مرور السفن الاسرائيلية باعتبارها سفنا معادية تهدد أمن البحر الأحمر والدول العربية المطلة عليه ، وجاء ذلك الاستنكار فى البيان الرسمى الذى أصدرته الحكومة السعودية يوم ١٤ شعبان سنة ١٣٧٦ هـ الموافق لعام ١٩٥٧ م (٨) . كما

(٨) أمين سعيد : تاريخ الدولة السعودية جـ ٣ ص ١٩٨ .

جاء هذا الاستنكار مرة أخرى فى مذكرة وزارة الخارجية السعودية الموجهة لوزارة الخارجية الامريكية بتاريخ ٢٧ ذى القعدة ١٣٧٦ ه ردا على بيان وزارة الخارجية الأمريكية الصادر فى ٥ يونيو عام ١٩٥٧ م باعتبار خليج العقبة ممرا عالميا حرا تستطيع السفن الامريكية المرور فيه متى شاءت ، بينما لم تكن تستطيع ذلك عندما كانت شرم الشيخ فى يد القوات المصرية، وخليج العقبة خليج عربى تمر فيه فقط السفن المصرية والسعودية والأردنية كما جاء هذا الاستنكار أخيرا فى حديث اذاعه سياسى سعودى بالتليفزيون الأمريكى يوم ١٦ ذى الحجة سنة ١٣٧٦ ه (٩) .

ثم جاء عدوان اسرائيل عام ١٩٦٧ م على مصر والاردن وهما من دول البحر الأحمر الى جانب سوريا لينبه الى خطورة انطلاق اسرائيل الى مياه هذا البحر جنوبا الى آسيا وأفريقيا وهذا يستلزم المواجهة العربية للوقوف أمام دخول السفن الاسرائيلية المعادية الى مياه البحر الأحمر ولكن لم تتخذ اية خطوة عربية فى هذا السبيل قبل حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ..

ولعلنا نتذكر ما أعلنته مصر فى بداية المعركة — ٦ أكتوبر ١٩٧٣ م — ان كل البحر الأحمر من باب المندب جنوبا الى قناة السويس شمالا منطقة عمليات عسكرية وأن مصر تحذر من دخول أية سفن الى البحر الأحمر أثناء المعارك — وحتى اشعار اخر — حتى لا تتعرض للقذائف المصرية من السفن الحربية او طائرات القتال . وحقيقة هذا الاعلان — فى رأيى — هو منع السفن الاسرائيلية من المرور فى هذا البحر أو دخول سفن أجنبية بهدف مساعدة اسرائيل ، حفاظا على أمن هذا البحر وضمانا لحرمان العدو من المساعدات الأجنبية الخارجية .

وفى اعتقادى ان هذا الاعلان شبيه بالاعلان الذى صدر عن الدولة العثمانية فى القرن السادس عشر ، عندما احتلت مصر والحجاز ووصلت الى اليمن بأن البحر الاحمر تطل عليه الارض التى تتشرف بوجود الأماكن المقدسة فيها فيحرم على السفن المسيحية المرور فى مياه هذا البحر . والاعلان العثمانى يهدف فى المقام الأول الى حرمان السفن البرتغالية من دخول البحر الأحمر حيث كانت البرتغال آنذاك أعدى أعداء الشعوب

---

(٩) نفس المصدر ص ٢٠١ .

الاسلامية . واعلان مصر عام ١٩٧٣ م يهدف فى المقام الأول الى ضمان أمن البحر الأحمر لمصلحة مصر والدول العربية المطلة عليه وحرمان القوة المعادية ومن يساندها من انتهاك أمن هذا البحر وتهديد سلامة وكيان الأقطار العربية « البحر أحمرية » وفى مقدمتها مصر .

ثم جاء مؤتمر تعز عام ١٩٧٧ كخطوة عملية بارزة المعالم على طريق ضمان أمن البحر الأحمر ضد التهديدات الخارجية ومن هنا لا بد من الوقوف على مبررات عقد هذا المؤتمر قبل أن نبحث فى كيفية انعقاده ونتائج الاجتماعات أى القرارات التى صدرت عن المؤتمر ومدى مناسبتها لضمان أمن البحر الأحمر .

لعل أهم المبررات التى دفعت بالقضية الى الظهور فى الأقطار العربية المطلة على البحر الأحمر هى :

أولا : حدوث ثورة اشتراكية فى اثيوبيا أدخلت الإتحاد السوفييتى الى مياه البحر الأحمر عند السواحل الاثيوبية والارترية .

ثانيا : ازدياد اشتعال الثورة الارترية ضد السيطرة الاثيوبية .

ثالثا : الصدام بين اثيوبيا والصومال حول اقليم أوجادين الذى تسيطر عليه اثيوبيا رغم أن معظم سكانه صوماليون ودخول الاتحاد السوفييتى وكوبا الى جانب اثيوبيا .

رابعا : محاولات اسرائيل التعاون مع اثيوبيا ضد الدول العربية من أجل ان تجد لها مواقع فى جنوب البحر الأحمر .

خامسا : الصراع البحرى على شواطىء المحيط الهندى قرب مدخل البحر الأحمر بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى .

سادسا : الخلافات العربية « البحر أحمرية » خاصة بين اليمن الشمالية واليمن الجنوبية ، وبين اليمن الجنوبية وسلطنة عمان .

هذه أهم المبررات لعقد هذا المؤتمر ، وهى ما يمكن تسميته بخريطة الصراع التى دفعت بالرئيس جعفر محمد نميرى الى اعلان مبادرته التى انتجت عقد مؤتمر تعز .

أولا : الثورة الاثيوبية :

تعتبر اثيوبيا هى الدولة غير العربية الوحيدة التى تطل على البحر الأحمر ، ومن ثم نجدها تنظر بارتياب الى أى اجتماع يدعو اليه أحدالزعماء العرب حتى ولو كان الاجتماع لبحث موضوع اثيوبيا طـرفـا فيه مثل أمن البحر الأحمر . ثم ان اعلان الثورة الاشتراكية فى اثيوبيا منذ عام ١٩٧٤ م قد باعد بينها وبين التعاون مع الأقطار العربية « البحر أحمرية » وخاصة مصر والسعودية والسودان واليمن الشمالية بسبب ادخال الاثيوبيين للوجود السوفييتى والكوبى الى مياه البحر الأحمر . مما اعتبرته الاقطار العربية تهديدا لأمنها وأمن البحر الأحمر ولا شك أن هذا مبرر قوى من المبررات التى كانه وراء الدعوة لعقد مؤتمر لبحث ضـمـان أمن البحـر الأحمر .

ثانيا : الثورة الارترية :

ترجع أصول القضية الأرترية الى سـنوات طويلـة منـذ أن أنهى الامبراطور هيلاسلاسى امبراطور اثيـوبيا كيان الاقليم وجعله جـزءا من امبراطوريته . هذا على الرغم من أن الثورة فى الاقليم لمتبدأ الا منذ حوالى عشرين عاما حين هاجم الثوار آنذاك احدالمخافر الحكومية فى أقصى حدود ارتريا الغربية الملاصقة للسودان . ومنذ ذلك الحين والثورة تشـتدضدحكم الامبراطور ثم ضد الحكم العسكرى فى أديس أبابا حتى سيطر الارتيريون على حوالى ٨٠ ٪ من أراضى الأقليم .

ومما يزيد فى حدة الأزمة الأريترية أن النظرة الأمهرية لحكام أثيوبيا الجدد للثورة فى الأقليم لا تكاد تختلف عن نظرة الامبراطور هيلاسلاسى اذ كان الامبراطور يحاول أن يحبسها عن سمع العالم كله ، يصورها وهما بأنها نوع من « الشفتا » — أى قطاع الطرق الجبلية ، وحكام أثيوبيـا العسكريون يصورونها الآن بأنها مجرد عمليات عنف مصدر من الخارج من بعض الدول العربية من أجل القضاء على الامبراطورية الأثيوبية (١٠) .

ونظرا لاشتعال الثورة الأريترية والموقف المتصلب لحكام أديس أبابا فلا يمكن اعتبار الموضوع مسألة داخلية ، حيث أن للأقليم الأريترى تاريخه

---

(١٠) جريدة الأهرام عدد الجمعة ١٥ أبريل ١٩٧٧ م .

الذى كان فيه غير خاضع لأثيوبيا ، ثم ان الاقليم يقع على ســـاحل البحر الأحمر وبه ميناءا عصب ومصوع اللذان تعتمد عليهما اثيوبيا كل الاعتماد — الى جانب ميناء جيبوتى بجمهورية جيبوتى — فى حركة التجارة الاثيوبية مع العالم الخارجى . ومن هنا لابد للأقطار « البحر أحمرية » من ان تبحث الموقف فى اريتريا لأن اســتمرار التوتر هنـــاك يهدد أمن البحر الأحمر والأقطار المطلة عليه .

ثالثا : الصدام الصومالى الأثيوبى :

منذ ان حصلت الصومال على استقلالها فى أول الستينات من القرن الحالى وهى تنظر باهتمام الى الأقاليم الصومالية الخاضعة لدول أفريقية أخرى منذ أن سيطر الاستعمار الغربى على شرق أفريقيا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، ومن بين هذه الأقاليم الصومالية اقليم أوجادين التى تسيطر عليه اثيوبيا رغم أنه يكون جزءا طبيعيا متمما للصومال وغالبية ســكانه العظمى من الصـــوماليين ، ومن هنا كان التوتـــر بين الدولتين المتجاورتين اثيوبيا والصومال .

ومما يزيد من حدة الصراع بين الدولتين اصرار اثيوبيا على عـــدم التفاوض مع الصومال لتقرير مصير اقليم أوجادين المتنازع عليه ، ورغم أن الاتحاد السوفيتى كان صديقا للطرفين : جمهورية الصومال الديمقراطية ذات النظام الاشتراكى ، والحكم العسكرى فى اثيوبيا الأكثر اتجاها نحـــو الاشتراكية ، الا أنه من الواضح أن السوفييت أكثر تعاطفا مع الاثيوبيين . وهذا يفتح بابا لتدخل قوى أجنبية فى مسألة « بحر أحمرية » مما يهدد أمن البحـــر الأحمـــر .

ومما تجدر ملاحظته أن لروسيا ومنذ القرن التاســـع عشر تطلعات نحو اثيوبيا بصفة خاصة وتشير الوثائق البريطانية الى محاولات روسيا القيصرية ايجاد موضع لها فى اثيوبيا ســـواء بادعاءات دينية أو لتقـــديم مساعدات عسكرية للاثيوبيين ضد أعدائهم .

فتذكر « موسكو جازيت » فى عددها الصادر فى ١٦ سبتمبر ١٨٨٧م أن من الخطأ تجاهل المصالح الروسية فى اثيوبيا والبحر الأحمر فى الوقت

الذى تتواجد فيه مطامع انجليزية وفرنسية هناك . وان مصالح روسيا مع اثيوبيا تعتمد على الارتباط الدينى بين البلدين إذ أن مذهبهما الدينى واحد هو الأرثوذكسية(١١) .

وتحقيقا لما نادت به « موسكو جازيت » بدأ توافد الروس على اثيوبيا فى شكل جماعات أو حملات منظمة ، فيرسل القنصل البريطانى فى بورسعيد بتاريخ ٦ يناير ١٨٨٩ م أن ١٤٦ رجلا روسيا مع قليل من النساء ورجال الدين غادروا بورسعيد انذاك على باخرة نمساوية متجهين الى أوبوك(١٢) كما أبرق القنصل البريطانى فى سواكن بأن هذه البعثة الروسية والتى اتضح أنها بقيادة الجنرال نيكولاييف Nicolaieff وعدد أفرادها حوالى ١٥٠ فردا قد غادرت أوبوك على نفس الباخرة وتراقبها سفينة حربية ايطالية(١٣) ثم أضاف حاكم سواكن عن طريق سير ايفلن بارنج المعتمد البريطانى فى مصر — أن هذه البعثة الروسية تنوى التوجه الى وبوك الى جنوب الحبشة عن طريق هرر للعمل فى الجيش الأثيوبى ، حيث تحتاج اثيوبيا لعدد من الضباط ، وحيث يوجد فعلا بعض القوزاق فى أوبوك ومن المنتظر وصول المزيد الذين يحتمل وصول عددهم الى الفين (١٤) .

كما أن السفير البريطانى فى سان بطرسبرج أرسل لوزير الخارجية البريطانية يذكر أن حملة روسية يقودها كارجوبولوف Kargopoloff فى طريقها الى الحبشة ، حيث غادرت طشقند وستمر بكل من فارس ،

---

(11) F. O. 403/90175 Sir R. Morier to the Marquis of Salisbury, St. Betorsbuds, Septemher 20, 1867.

(12) F. O. 403/123/12, Burrell to Salisbury, Port Said, 61/1/1889.

(13) F. O. 403/123/13, Baring to Salisbury, 15/1/1889.

(14) F. O. 403/123/15, Baring to Salisbury, 17/1/1889.

بومباى وعدن الى جيبوتى ، ثم تتقدم الى هرر تحت أدعــاء بأن مهمتها البحث العلمى(١٥) .

وكانت هناك بعثة ثالثة بقيادة الكابتن الروسى ليونتييف Leontieff فى طريقها الى الحبشة واستمرت هذه البعثة حوالى خمس سنوات من بدء رحـلتها حتى عودتها وقد تابع البريطـانيون هذه البعـثة سواء فى نزولها بالقاهرة ومحاولة دخول الحبشة عن طريق الخرطوم ، أو عودتها بعد وصولها عن طريق البحـر الى الحبشـــة ، وردا على استفسارات البريطانيين فى شرق افريقيا اجاب الأيرل أوف كمبرلى Earlof kimberley بأنه فهم من السفير الروسى فى لندن بأن هدف بعثة ليونتييف الوحيد هو الجانب الدينى فقط(١٦) .

وقد سقت هذه الشواهد لأدلل على اهتمام الروس من ووقت مبكر بشرق أفريقيا مدخـل البحـر الأحمر ، فما نشـــاهده الان ومنذ أوائل السبعينات من القرن الحالى من تواجدهم فى القرن الافريقى ما هو الا احياء لأطماعهم القديمة منذ الثمانينات من القرن المـاضى .

وفى اعتقادى انه على الرغم من أن الصومال كانت أسبق من اثيوبيا فى الارتباط باروس حتى وصل هــذا الارتباط الى اعطائهم تسهيلات فى ميناء بربرة الصومالى ، الا أن أثيوبيا عندما حدثت بها الثورة الاشتراكية أصبحت أكثر اغراء من الصومال بحكم وجود ظروف اقتصادية واجتماعية تشجع على انتشـار المبادىء الاشـتراكية المـاركسية فى أثيوبيا عن الصومال ناهيك عن عامل الدين . فالصـومال بلد اسلامى شعبه الفقير يتمسك باسلام دينا ، بينما أكثر الأثيوبيين مسيحيون شرقيون . والروس كانوا قبل الثورة البلشفية مسيحيين شرقيين . لهذا صار الاتجاه الروسى نحو اثوبيا يهدد أمن البحر الأحمر ويهدد مصالح الأقطار العربية المطلة على هذا البحر .

---

(15) F. O. 403/125/93, Morier to Salisbury, St. Petersburg, 7/4/1890.

(16) F. O. 403/221/54, Kimberley to Lascelles, F. O, 5/2/1895.

رابعاً : اسرائيل ومداخل البحر الأحمر :

منذ أن أصبح لاسرائيل ميناء على خليج العقبة وصارت سفنها ــ خاصة بعد احداث السويس عام ١٩٥٦ م ــ تمخر عباب البحر الأحمر اتجهت لتكوين صلات قوية مع اثيوبيا لتصبح للسفن الاسرائيلية قدم فى مواجهة الغلبة العربية على مياه البحر الأحمر ومداخله من الشمال والجنوب . ومن هنا حدث التعاون الاسرائيلى فى المجالات العسكرية والاقتصادية والفنية .

وعندما تحققت الغلبة العربية على مياه البحر الأحمر أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ م حاولت اسرائيل من جديد اثارة مخاوف اثيوبيا من هذه الغلبة لكى يصبح لاسرائيل موضع قدم فى أى مكان من الجزر الصخرية العديدة الخالية من الحياة والتى تتناثر حول المدخل الجنوبى للبحر الأحمر فى مواجهة جزيرة ميون أو بريم التى تحكم مضيق باب المندب ، علما بأن تلك الجزر الصخرية تتنازع السيطرة عليها كل من حكومات الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية وأثيوبيا . ومحاولات اسرائيل هذه تهدد أمن البحر الأحمر وبالتالى تزيد من تهديداتها لأمن الأقطارالعربية المطلة على هذا البحر .

خامسا : أمريكا وروسيا ومدخل البحر الأحمر :

استطاع الأمريكيون الحصول على عدد من القواعد العسكرية فى المحيط الهندى فى كل من موريشيوس ومالديف وجزر دييوجارسيا ، كما استطاعوا أيضا استئجار جزيرتى دهلك وسنتيان لمدة ٢٥ سنة من أثيوبيا ، والجزيرتان من الجزر الأخوات السبع التى لا تبعد عن مضيق باب المندب بأكثر من ٦ أميال بحرية(١٧) . وفى المقابل حصل الاتحاد السوفيتى على تسهيلات بحرية فىعدن وفى ميناء بربرة الصومالى ، وفى موزمبيق وبدأ يتطلع الى الموانى الاثيوبية على البحر الأحمر .

وهذه التحركات الأجنبية عند مدخل البحر الأحمر الجنوبى تتطلب بالضرورة اليقظة واعداد العدة لضمان أمن البحر الأحمر ودوله وأبعاده عن الصراعات الدولية والمطامع الأجنبية .

---

(١٧) جريدة الأهرام عدد الجمعة ١٥ ابريل ١٩٧٧ م .

سادسا : الخلافات العربية ((البحر احمرية)) :

ان وجود خلافات — مهما كانت اسبابها — بين قطر او اكثر من الاقطار « البحر أحمرية » يهدد بالضرورة أمن البحر الأحمر وأمن اقطاره ناهيك عن صعوبة القيام بعمل مشترك لابعاد الأخطار الخارجية والصراع الدولى عن البحر الأحمر وأقطاره . فالخلاف القائم بين جمهورية اليمن الجنوبية وسلطنة عمان ، والخلاف بين الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية ، ومن ذلك النوع من الخلافات التى تحول دون الاتفاق على عمل مشترك لضمان أمن البحر الأحمر وخاصة تأمين مدخله الجنوبى أمام المحاولات الخارجية للتدخل وفرض الوجود .

كانت تلك — فى رأيى — مبررات كافية لأن ينعقد مؤتمر تعز ، ولكن هل كانت تلك المبررات لمجرد اجتماع رؤساء أربع دول فقط من دول هذا البحر ؟ فى الواقع جاءت مبادرة الرئيس جعفر نميرى لعقد مؤتمر يبحث فى كيفية ضمان أمن البحر الأحمر موجهة الى كل دول البحر الأحمر وفى مقدمتها مصر والمملكة العربية السعودية والسودان والصومال وجمهوريتى اليمن الشمالية الجنوبية الى جانب اثيوبيا . ولكن دول السودان والصومال ودولتى اليمن فقط هى التى استجابت للنداء واجتمع رؤساؤها فى تعز فى مارس ١٩٧٧ .

ولسنا بصدد الدخول فى تفاصيل اللقاء الرباعى ، ولكننا نستعرض بالمناقشة التوصيات التى صدرت عن المؤتمرين ، وقد سبقت تلك التوصيات كلمات للرؤساء ابراهيم الحمدى رئيس اليمن الشمالية وجعفر نميرى رئيس جمهورية السودان ، توضح الهدف من المؤتمر واستجابة الأقطار الأربعة للمبادرة السودانية .

ومما جاء فى كلمة المقدم ابراهيم الحمدى : « اننا كدول مطلة على حوض البحر الأحمر مسئولة عنه بحكم حقنا فى السيادة الوطنية على مياهنا الاقليمية كما أن هذا اللقاء يعتبر فريدا من نوعه عمليا واستراتيجيا وبخاصة ومحادثاتنا ليست مقتصرة على موضوع بعينه وانما ستتناول العديد من المواضيع التى تهمنا كمسئولين فى دولنا وشعوبنا اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا » .

وهذا فى رأيى هام للغاية فلا يمكن النظر الى ضمان أمن البحر الأحمر باعتبارها مسألة استراتيجية فقط ، لأن وجود تخلف اجتماعى واقتصادى على شواطىء البحر الأحمر يساعد على عدم الاستقرار ويفتح بابا للصراع الدولى يدخل منه ويفرض نفوذه . ومن هنا كانت كلمة رئيس اليمن الشمالية لها دلالتها الواعية ، ودعوة للعمل الجاد المتكامل الشامل .

وأضاف الرئيس الحمدى فى كلمته « ان هذا اللقاء ليس مظاهرة ضد أحد ولا من أجل التآمر على أحد ولا أرى فيه خروجا عن حقنا المشروع كأخوة أشقاء فى أن نلتقى لنتدارس أمورنا وقضايانا صغيرة وكبيرة وخصوصا ما يتعلق بالتعاون المشترك على ما فيه حماية سيادتنا على أراضينا ومياهنا الاقليمية فى حوض البحر الأحمر . وعلينا اليوم تقع مسئولية عظيمة هى الخروج بأوطاننا من شباك الصراع الدولى . وفى سبيل الحفاظ على أمن البحر الأحمر فى حاجة بالطبع الى مساندة أشقائنا العرب ، ومن مبدأ وحدة النضال العربى ضد الصهيونية وقوى الغزو الأجنبى ومن مبدأ أن أول خطر يتهدد منطقة عربية هو خطر على العرب أجمعين (١٨) » .

كانت هذه الكلمات علامات على أهداف المؤتمر وما ينبغى عمله لتحقيق تلك الأهداف ، وازالة مخاوف اثيوبيا والتمسك بميثاق الأمم المتحدة الداعية الى السلام والاستقرار ، وكانت تلك الكلمات مقدمة للوصول الى التوصيات التى صدرت عن المؤتمر فى شكل بيان صحفى كان أهم ما جاء به .

« بسم الله الرحمن الرحيم : انطلاقا من روح التضامن العربى وأهمية التشاور بين الأشقاء وفى يوم الثلاثاء الثانى من شهر ربيع الثانى ١٣٩٧هـ الموافق ٢٢ من شهر مارس ١٩٧٧ م تم لقاء تشاورى على مستوى قمة بين كل من :

---

(١٨) جريدة الثورة اليمنية : العدد ٢٩١١ الأربعاء ٣ ربيع الثانى ١٣٩٧ هـ/ ٢٣ مارس ١٩٧٧ م .

ـ فخامة الرئيس جعفر نميرى رئيس جمهورية السودان الديمقراطية .

ـ فخامة الأخ محمد سياد برى الأمين العام للحزب الاشتراكى الثورى الصومالى ورئيس جمهورية الصومال الديمقراطية .

ـ فخامة الأخ سالم ربيع على رئيس مجلس الرئاسة لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

ـ فخامة الأخ المقدم ابراهيم محمد الحمدى رئيس مجلس القيادة والقائد العام للقوات المسلحة للجمهورية العربية اليمنية .

وبعد أن جريت لهم مراسم الاستقبال ... تشاوروا حول تنسيق جهود دولهم مع الدول العربية المقتدرة فى سبيل تطوير مواردها والرقى بشعوبها فى اطار التعاون والتضامن العربى . وفى هذا الشأن تم الاتفاق على تحرك مشترك . وتناول الرؤساء الوضع فى حوض البحر الاحمر واتفقوا على ضرورة أن يظل منطقة سلام ووئام وأن تعمل الدول المطلة عليه على تحقيق هذا الهدف بالتشاور والتنسيق فيما بينها نظرا للعلاقات الطيبة بين فرنسا والدول العربية . وتحقيقا لوعود فرنسا المعلنة والمتعلقة فى أعطاء الساحل الصومالى ـ جيبوتى(١٩) ـ استقلاله التام عن طريق الديمقراطية الحقة ، يناشد الرؤساء الأربعة فرنسا بمنح جميع المواطنين فى الساحل الصومالى حقهم الشرعى فى ممارسة الاقتراع على أسس وطنية وديموقراطية ، وليس على أسس قبلية مما قد يؤدى الى التناحر وتهديد الأمن والسلام فى البلاد وتأزم الموقف فى المنطقة » .

« وشدد الرؤساء على أهمية التضامن لمواجهة السياسة العدونية لاسرائيل والقوى الصهيونية التى تدعمها . واتفق الرؤساء على أهمية استغلال ثروات البحر الأحمر لما فيه خير شعوب الدول المطلة عليه ، وتقرر فى هذا الشأن تكوين لجنة فنية مشتركة لاجراء الاتصالات الضرورية اللازمة للدول المطلة على البحر الأحمر واعداد الدراسات اللازمة وأن

---

(١٩) لم تكن قد حصلت بعد على استقلالها .

تواصل الدول المشتركة في هذا اللقاء جهودها من أجل عقد لقاء موسع يضم كافة الدول المطلة على البحر الأحمر... » (٢٠)

« صدر في تعز يوم الاربعاء الثالث من ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ الموافق ٢٣ من شهر مارس ١٩٧٧ م » .

وليس لنا تعليق على هذا البيان الصحفي الذي صدر في ختام يومين من الاجتماعات بين رؤساء الأقطار العربية الأربعة التي تمسك بزمام مدخل البحر الأحمر الجنوبي الا أن نقول أنه كان بداية لاثارة قضية لها أهميتها وتنبيه الأقطار العربية « البحر أحمرية » الى الأخطار التي تهددهم سواء كانت أخطارا خارجية ترجع الى الصراع الدولي حول المنطقة أو أخطارا داخلية تتمثل في وجود تحركات اسرائيلية وشكوك اثيوبية ، أو كانت مخاطر تخلف الأقطار العربية اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وعسكريا بصورة تساعد على عدم الاستقرار بل وتتيح الفرصة للتدخل الأجنبي ، الى جانب الخلافات بين الأقطار العربية ذات الأثر الخطير على كل عمل مشترك لمصلحة العرب .

---

(٢٠) جريدة الثورة اليمنية : العدد ٢٩١٢ الخميس ٤ ربيع الثاني في ١٣٩٧ هـ الموافق ٢٤ مارس ١٩٧٧ م .

٣٠

استراتيجية البحر الأحمر

فى اطار حرب اكتوبر عام ١٩٧٣

للعميد أ . ح صلاح الدين فهمي محمد حسن
(بالقوات المسلحة)

مقـــدمة :

بنظرة قريبة على أهمية البحر الأحمر بالنسبة لدول العالم بصفة عامة .. ودول منطقة الشرق الأوسط بصفة خاصة .. نجد أن أحداثا جديدة قد فرضت نفسها على المنطقة فى اطار الصراع العسكرى بين العرب واسرائيل ، فقبل بدء الصراع وخلاله دار الجدل حول حرية الملاحة فى خليج العقبة ، كما دار جدل فقهى حول قانونية هذه الحرية نعرضه ببساطة وايجاز فى ثلاث نقاط . **أولاها :** أن خليج العقبة هو خليج عربى فى رأينا ولكنه فى رأى الخصوم خليج دولى ، **وثانيهما :** أن مضيق تيران مضيق مصري ولكنه فى رأى الخصوم مضيق دولى ، **وثالثهما :** فى رأينا أنه ليس للسفن الاسرائيلية حق المرور فى المضيق وفى الخليج ويرى الخصوم أن لاسرائيل هذا الحق(١) .

ويجدر بنا أن نلقى نظرة موجزة حول تطور هذا الموضوع ، فان خصومنا يرون أن اسرائيل تكتسب هذا الحق بحكم أنها احدى الدول المطلة على الخليج .. ولكننا نعتبر أن وجود اسرائيل كاحدى الدول المطلة على الخليج أمر غير شرعى حيث قامت اسرائيل بخلق تواجد لها بالقوة المسلحة حين قامت فى ١٦ مارس عام ١٩٤٩ بالاستيلاء على « أم الرشراش » (ايلات) مخالفة بذلك اتفاقية الهدنة الموقعة فى ٢٤ فبراير عام ١٩٤٩ ،

---

(١) وردت بعض أجزاء هذا الموضوع ضمن التقرير المقدم لندوة خليج العقبة التى عقدتها الجمعية المصرية للاقتصاد والتشريع فى ٢٩ مايو ١٩٦٧ .

وقد تم هذا العمل على الرغم من وقف جميع التحركات العسكرية وفقـا لأحكام الهدنة التى فرضها مجلس الأمن ، وفى هذا المكان أنشىء مينـاء ايلات ، وقد يقول الجانب الاسرائيلى أن الأردن قد وافقت على هذا بموجب اتفاق الهدنة المبرم بينهمـا فى ٣ ابريل عـام ١٩٤٩ ، ورأينا فى ذلك أن الخطوط المحددة فى اتفاق الهدنة هى خطوط حدود دولية مؤقتة ليس لها أية قيمة من الناحية القانونية ، فلا يمكن أن تعتبر حدودا سياسية دائمة الا بعد ابرام معاهدة صلح نهائية تسجل تلك الحدود ، وفيما يتعلق بحرية الملاحة فان مضايق تيران تفصل بين بحر عام هو البحر الأحمر وبحر وطنى عربى هو خليج العـقبة ، من حيث وقوعه ككل داخل المياه الاقليميـة العربية والثابت منذ اقدم العصور أن مضيق تيران لم يسبق أن وصف بأنه مضيق دولى(٢) ، وفيما يتعلق بالمرور البرىء بين جزء من البحار العالية والبحر الاقليمى لدولة أجنبية والذى ورد بالفقرة الأولى من المـادة ١٤ من اتفاقية جنيف المنعقدة فى ٢٩ ابريل عام ١٩٥٨ عن حق المرور البرىء فان أحكامها لا تطبق الا فى حالة العلاقات السلمية بين الدول ، أما فى حالة الحرب فان الدول تفقد هذا الحق وما يتطبق على السفن الاسرائيلية أو السفن الأجنبية التى تحمل بضائع لاسرائيل ، ولقد استمر فرض الحظر على حرية الملاحة الاسرائيلية فى خليج العقبة الى ان حدث العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ وما ترتب على ذلك من تواجـد قوات الطـوارىء الدولية للفصل بين القوات المصرية والاسرائيلية واكتسبت بذلك اسرائيل حرية المرور عبر مضايق تيران وترتب على ذلك زيادة النشاط الاسرائيلى عبر البحر الأحمر انطلاقا نحو المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية مع بعض الدول الافريقية والأسيوية ومن هنا تجسدت المصالح الحيوية لاسرائيل فى الملاحة عبر مضـايق تيران والبحر الأحمر لتحقيق اهدافها فى جميع المجالات حيث شكل هذا الاتجاه منفذا رئيسيا للانفتاح الاسرائيلى خاصة فى المجال الاقتصادى ومن الناحية الاستراتيجية فقـد كان البحر الأحمر يمثل الشريان الحيوى لامدادات البترول الايرانى لاسرائيل ، ودخلت حرية الملاحة فى مضايق تيران وعبر البحر الاحمر ضمن التقديرات الرئيسية لنظـرية الأمن الاسرائيلية حيث أعلن ايجال آلون فى كتابه عن بناء الجيش الاسرائيلى حول ما حصـلت عليه اسرائيل بعد حرب ١٩٥٦ « أن الامم المتحده والدول الكبرى لم تقدم أى ضمانات واضحة وفعالة بأن مصر سوف

---

(٢) الدكتور حامد سلطان — القانون الدولى فى وقت السلم ، دار النهضة العربية — القاهرة ١٩٦٢ ص ٦٢٠ — ٦٢٨ .

تلتزم الى اجل غير مسمى وقد يمكن القول بأن الضمان الوحيد قد تمثل فى اعلان حكومة اسرائيل من جانب واحد بأنها سوف تعتبر أن اغلاق مضائق تيران سبب فى الحرب ، وفى حالة الاغلاق ستعتبر نفسها حرة فى أن ترد على ذلك بالقوة العسكرية اذا لزم الأمر » .

وفى مواجهة الضغط اعلامى والحرب النفسية التى كانت تشنها بعض الدول العربية الموصوفة بالرجعية ضد الجمهورية العربية المتحدة خلال عام ١٩٦٧ بخصوص احتماء مصر خلف قوات الطوارىء الدولية والسماح لاسرائيل بالمرور عبر مضايق تيران فقد صدر قرار الرئيس الراحل جمال عبد الناصر فى ٢٢ مايو ١٩٦٧ بقفل مضيق تيران فى وجه الملاحة الاسرائيلية فى اطار تصاعد الأحداث قبيل بدء حرب يونيو ١٩٦٧ .

وقد ترتب على نتائج حرب يونيو ١٩٦٧ أن حرمت مصر من استخدام قناة السويس وما ترتب على ذلك من اطلاق حرية اسرائيل فى المرور عبر مضيق تيران والبحر الأحمر بالاضافة الى تعزيز مركزها ونفوذها لدى بعض الدول الافريقية مثل أثيوبيا وجنوب أفريقيا والكونغو .. الخ بالاضافة الى استمرار تعاملها الاقتصادي والسياسى مع دول جنوب شرق آسيا واستغلالها لحقول البترول الموجودة بسيناء .

وعلى الجانب الآخر فقد اتصف الموقف العربى عقب حرب يونيو ١٩٦٧ بالتعاطف مع موقف كل من مصروسوريا والأردن ازاء الظروف الصعبة التى فرضت نفسها واقعا ملموسا ، وتفاوتت درجات هذا التعاطف وفقا للمصالح الذاتية لكل دولة فى اطار التضامن العربى لمواجهة الموقف المترتب على نتائج هذه الحرب ، ونقتصر هنا على التركيز على المجال الخاص بالملاحة الاسرائيلية عبر مضايق تيران والبحر الأحمر ويكفى التنويه أن اسرائيل استمرت فى المرور عبر هذا المسطح المائى بحكم الواقع منذ وقف لقتال عقب حرب العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ولم تتحرك إى دولة عربية و أفريقية من الدول المطلة على حوض البحر الأحمر لمنع السفن الاسرائيلية كمجرد تفكير أو تخطيط أو السعى لتحقيق ذلك ؛ الى أن بدأ التفكير الذاتى لمصر خلال عام ١٩٧١ فى النظر بعيدا باتجاه باب المندب سعيا وراء احداث توازن استراتيجى فى مواجهة احدى ركائز نظرية الأمن الاسرائيلى . ومن هنا ننتقل الى مجال الوقع فى مسرح الأحداث فوق مسرح عمليات البحر الأحمر وسط مناخ سياسى معقد وشديد الحساسية على المستويين العربى والافريقى تأثرا وخضوعا لاتجاهات السياسة الدولية التى يتحكم فيها كل من القوتين الكبريين الولايات المتحدة والاتحاد اسوفييتى .

اولا : تطور الفكر العسكري الاستراتيجى لمصر تجاه البحر الأحمر فى اطار التخطيط لاستئناف الصراع المسلح ضد اسرائيل

تقتضى أسس التخطيط الاستراتيجى فى مقدمة بنودها الى ضرورة تقدير وتحليل الاستراتيجية المعادية والوصول الى عوامل القوة التى يرتكز عليها العدو ونقاط الضعف التى يحاول أن يتفاداها .

ومن هنا كان لزاما على القيادات المخططة على المستوى الاستراتيجى فى مصر أن تضع نصب أعينها — وهى بصدد التخطيط لاستئناف الصراع المسلح مع العدول الاسرائيلى — أن تفعل ذلك وصولا الى أفضل تصور لتحقيق الأهداف الاستراتيجية .

فى هذا المجال يمكن أن نستعرض أهم عناصر الأمن الاسرائيلية وانعكاساتها على الاستراتيجية المصرية . ومما لا شك فيه أن نظرية الأمن الاسرائيلية نبعت من أسس الأهداف السياسية الاسرائيلية والتى تتضمن مبدأ التوسع الجغرافى التدريجى على حساب الدول العربية ، والاحتفاظ بقوة مسلحة متفوقة تشكل الهدف والوسيلة مع الارتباط بقوى دولية كبرى كحليف مضمون يعاونها على تحقيق أهدافها مرحليا ، ثم العمل على اضعاف وتهديد الطاقات العربية .

وانطلاقا من ذلك اهتدت العقلية الصهيونية الى تحديد نظرية الأمن الاسرائيلية لتكون ستارا لتحقيق أهدافها التوسعية ووسيلة لخداع الرأى العام العالمى وخلق قناعة لدى الاسرائيليين لتقبل مغامراتها العسكرية المتتالية .

وارتكزت نظرية الأمن الاسرائيلية على تفوق عسكرى اسرائيلى لاحباط النوايا الهجومية لدى مصر ، وأن خط قناة السويس هو أنسب الحدود الآمنة التى يسهل الدفاع عنها ، مع السبق فى توجيه الضربة الأولى عند ظهور أى نوايا عدوانية مصرية اعتمادا على قوات جوية متفوقة ، وتمشيا مع نظرية الحدود الآمنة فقد ركزت اسرائيل جهودها على المضايق البحرية فى شرم الشيخ لتأمين خطوط مواصلاتها البحرية عبر البحر الأحمر ، ويخدم كل ما سبق نظام ممتاز للاستخبارات قادر على اكتشاف أى نوايا هجومية قبل وقوعها .

وأمام رفض اسرائيل لجميع الحلول السلمية التى طرحت عقب حرب يونيو ١٩٦٧ ، أطلقت دعاياتها فى العالم بأن العرب تتفوق مقدمتهم

مصر — تحولوا الى جثة هامدة لن تقوم لهم قائمة ، وبذلك سدت كل الأبواب أمام أى حل سلمى عادل ففرضت الحرب حتميتها ولم يبق أمام مصر الا ادارة الصراع المسلح مرة أخرى لانتزاع حقوقها وحقوق العرب وتركز فى هذا المجال على **الاعتبارات الرئيسية التى بنيت عليها الاستراتيجية للحرب .**

فى المقام الأول فان هذه الاستراتيجية تتم فى اطار قيود وحدود الصراع مع اعتبارات الموقف العالمى البالغة التعقيد والقائمة على ضوابط التوازن النووى وسياسة الوفاق بين القوتين العظميين اللتين فرضتا الاسترخاء العسكرى فى المنطقة مع تناقض اهتماماتهما السياسية والاستراتيجية فى منطقة الصراع ، وعلى ذلك فقد تم التخطيط لحرب اكتوبر ١٩٧٣ على أنها حرب محلية تستخدم فيها الأسلحة التقليدية فقط ويكون لها أهداف استراتيجية حاسمة تقلب الموازين فى المنطقة ؛ وكان من ضمن أهدافنا العسكرية العليا العمل على هدم نظرية الأمن الاسرائيلية عن طريق عمل عسكرى شامل متعدد الأهداف على أن يكون هذا العمل نابعا من الفكر المصرى الصميم باستغلال التقدم العلمى والتكنولوجى العسكرى العالمى .

وفى مجال هدم نظرية الأمن الاسرائيلية كأحد الركائز التى هدفت لها الاستراتيجية العسكرية المصرية فقد تم ، بعد دراسات تفصيلية ، تحديد اتجاهات العمل العسكرى فى هذا المجال على نحو متسلسل مع مبادىء الحرب يمكن ايجازه فى العناصر الرئيسية التالية :

١ — اتخاذ قرار المبادأة باستخدام القوة المسلحة تحديا لأسلوب الردع النفسى .

٢ — الهجوم الشامل لهدم اسلوب الرد الغادى .

٣ — هدم الخط الحصين المقام على الضفة الشرقية للقناة لدحض ادعاءات اسرائيل بأن هذا الخط هو أنسب حدود امنة لها مع مصر .

٤ — شل عناصر التفوق الاسرائيلى فى القوات الجوية والمدرعات بوسائل مضادة لها تحبط فعاليتها بقدر كبير .

٥ — تنسيق العمل العسكرى بين مصر وسوريا لتشتيت جهود اسرائيل العسكرية على جبهتين فى وقت واحد .

٦ — أهمية خداع العدو عن نوايانا الهجومية سعيا لتحقيق المفاجأة .

٧ — اهدار قيمة التواجد العسكرى الاسرائيلى فى شرم الشيخ بعرقلة مواصلاته البحرية فى منطقة باب المندب .

وسنتناول فى بحثنا تفصيليا ما تم انجازه تخطيطا وتنفيذا على المستوى الاستراتيجى — بالنسبة للبند الأخير — للتعرض لخطوط مواصلات العدو البحرية عبر البحر الأحمر .

ثانيا : دور البحر الأحمر فى نظرية الأمن الاسرائيلية :

بعد اقتناع اسرائيل بأهمية سيطرتها على شرم الشيخ عقب حرب يونيو ١٩٦٧ كضمان لحرية الملاحة فى خليج العقبة بدأت تتضح أمامها الظروف المناسبة لتطوير تجارتها واتصالاتها فى المجالات المختلفة مع دول أفريقيا وجنوب شرق آسيا والحصول على امداداتها البترولية من ايران بشكل رئيسى وبدا لها الاستقرار والأمن بدأ يستتب لصالحها فى هذا الاتجاه الحيوى ، وفى نفس الوقت لم تظهر أية نوايا عدائية من قبل لدول العربية أو الافريقية لتهديد الملاحة الاسرائيلية فى هذا الاتجاه الى أن وقع حادث التعرض للناقلة « كورال سى » خلال النصف الأول من عام ١٩٧١ اثناء رحلتها البحرية عبر البحر الأحمر متوجهة الى اسرائيل ولم يكن هذا الحادث مخططا على المستوى العربى ولكنه كان أحد الأعمال الفدائية المخططة بدقة ، ورغم دلالاته بعيدة المدى ، ورغم الصدى العالمى الذى أحدثه هذا العمل الا أنه جذب نظر اسرائيل فى توقيت مبكر الى احتمالات تهديد جديدة ، الأمر الذى دفعها الى السعى للحصول على تسهيلات بحرية وبرية فى منطقة جنوب البحر الأحمر من خلال اثيوبيا ، وبدأت الصحافة العربية والمصرية تلقى أبعادا دعائية على الموضوع .

وقد بدأ البحر الأحمر يفرض ثقله كعامل رئيسى فى احداث التوازن الاستراتيجى لاحباط نظرية الحدود الآمنة التى تنادى بها اسرائيل وخاصة فى مجال ابطال مفعول أهمية سيطرتها العسكرية على شرم الشيخ .

وكان .. على المخططين العسكريين فى مصر ضرورة اعداد الدراسات التمهيدية للوصول الى أفضل تخطيط استراتيجى لتحقيق الأهداف فى هذا الاتجاه الحيوى ، ولقد كانت دراسة المقومات الاستراتيجية للدول المطلة على البحر الأحمر فى مقدمة العوامل التى رأى هؤلاء المخططون ضرورة دراستها لاستغلال القدرات المتاحة فى اطار سياسة الممكن وحساب الامكانيات ومجالات الحركة السياسية والعسكرية محليا ودوليا .

وكانت أولى الخطوات فى هذا المجال هى اعداد دراسة نظرية على مستوى الجامعة العربية لعرضها على مؤتمر وزراء الدفاع العرب خلال النصف الأول من عام ١٩٧١ والذى أصدر توصياته بايفاد لجنة عسكرية من الجامعة العربية لبحث مطالب جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية لدعم قدراتها على تأمين مضيق باب المندب .

وكان مصاحبا لذلك على الجانب الآخر فى اسرائيل ، تصريحات محمومة لكبار الساسة الاسرائليين فى هذا المجال وضعت موضع الاعتبار أمام المخططين المصريين خلال تخطيطهم ، ونذكر من هذه التصريحات ما قاله شيمون بيريز فى مارس ١٩٧١ بأنه « لن يكون هناك سلام حقيقى اذا لم تظل شرم الشيخ والمنطقة حولها تحت سيطرة اسرائيل، وحتى لو وضعت قوة دولية فى شرم الشيخ فماذا سيحول دون اغلاق العرب للملاحة فى البحر الأحمر جنوب شرم الشيخ ، وهل يتعين على القوات الاسرائيلية فى هذه الحالة أن تظل بدون رد فعل من جانبها » وتمشى مع هذا التصريح تصريحات أخرى لكل من أبا ايبان وايجال آلون وديان تؤكد على اصرار اسرائيل على عدم التخلى عن شرم الشيخ كعامل أول وأساسى لأمن اسرائيل(٣) .

ثالثا : الدراسات التمهيدية لمسرح العمليات المنتظر فى جنوب البحر الأحمر:

وفى الرابع من نوفمبر عام ١٩٧١ صدرت تعليمات وزارة الخارجية بتشكيل لجنة عسكرية من أربعة ضباط أحدهم ليبى للتوجه الى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بهدف استكمال وتناول المعلومات عن الموقف العسكرى فى المنطقة واستيضاح مدى النشاط الاسرائيلى بها واستطلاع مجموعة الجزائر العربية الموجودة بمنطقة جنوب البحر الأحمر والتابعة لجمهورية اليمن الديمقراطية والوقوف على حقيقة الموقف بها من جميع الوجوه .

---

(٣) تصريح موشى ديان فى مارس ١٩٧١ « ان وجود شرم الشيخ فى يد اسرائيل بدون سلام أفضل من سلام بدون شرم الشيخ وذلك لاعتبارات استراتيجية وعسكرية واقتصادية تدور حول أمن اسرائيل وعلاقاتها بدول المنطقة » .

تصريح ايجال آلون فى مارس ١٩٧١ «ان اسرائيل تحتاج فى الجنوب الى نقاط استراتيجية ضرورية لضمان حرية الملاحة فى مضيق تيران حتى ايلات » .

وقد أحيطت مهمة اللجنة وسفرها بسرية تامة حيث سافرت اللجنة يوم ٧ نوفمبر ١٩٧١ من القاهرة الى عدن حيث وصلت عدن مساء نفس اليوم فى زى مدنى .

وبوصول اللجنة بدأت بلقاءات مع كبار المسئولين فى جمهورية اليمن الديمقراطية بدءا بالسيد رئيس الوزراء والسيد نائب وزير الدفاع للشئون السياسية والمعنوية خلال يوم ٨ نوفمبر ١٩٧١ ومع السيد رئيس أركان الجيش ورئيس جهاز الأمن بالدولة بتاريخ ٩ نوفمبر ١٩٧١ والسيد مدير أمانة ميناء عدن يوم ١٤ نوفمبر ١٩٧١ .

وقد قامت خلال يوم ٨ نوفمبر ١٩٧١ بزيارة واستطلاع جزيرة « بريم » وساحل عدن الجنوبى ومضيق باب المندب ، وبعد ذلك تم استطلاع جزائر « حافليش » و « زوكار » و « أبو عيل » و « كمران » وساحل الجمهورية العربية اليمنية خلال يوم ١٣ نوفمبر ١٩٧١ كما تم استطلاع ميناء عدن ومنشاته وقد ركزت اللجنة خلال استطلاعها على تحقيق الهدف من هذه الزيارة فى جميع المجالات ، ففى مجال التخطيط الاستراتيجى سعت اللجنة للحصول على المعلومات عن منطقة البحر الأحمر والجزائر بها من وجهة نظر الموقع والأهمية الاستراتيجية وطبيعة الأرض والساحل ، ومدى الصلاحية والسعة التكتيكية ، مصادر المياه ، السكان المحليون ، أسلوب الدفاع عن الجزيرة والساحل ، امكانية المراقبة الانذار ، امكانيات النقل والامداد ، المناطق المجاورة وتأثيراتها ، امكانيات العمل من الجزيرة ثم الطقس والعوامل الجوية .

وقد اتضح للجنة خلال مقابلاتها مع السيد / على ناصر محمد رئيس الوزراء ووزير الدفاع ترحيبه باستجابة مصر السريعة بايفاد اللجنة تنفيذا للاتفاق الذى تم بين سيادته والسيد الدكتور محمود فوزى رئيس الوزراء والسيد وزير الحربية المصرى فى هذا الوقت حيث ذكر سيادته أن بلاده تتعرض لمؤمرات رجعية واستعمارية تهدف الى اسقاط نظام الحكم التقدمى بها الأمر الذى يعوق جمهورية اليمن الديمقراطية عن قيامها بواجبها حيال الصراع العربى الاسرائيلى ، ونوه أيضا بأن بلاده تمر بموقف اقتصادى صعب خاصة بعد اغلاق قناة السويس وأن جهودهم مركزة حاليا للدفاع عن حدودهم ضد أعمال السلاطين والمرتزقة وأن الدولة تحتاج الى مساعدات فى المجالات المختلفة وهم يتطلعون الى جمهورية مصر العربية فى هذا الشأن مع تقديرهم للظروف الصعبة التى تمر بها مصر بالنسبة لمشكلة الشرق الأوسط والحرب مع اسرائيل .

كما ذكر سيادته أن قواتهم البحرية والجوية ليست بالحجم والمستوى الذى يكفل تأمين سواحل البلاد والجزائر التابعة لها والممتدة الى مناطق بعيدة عن سواحلهم وأن الأعداء — بمساعدة بريطانيا — قد تمكنوا من الوثوب الى بعض هذه الجزائر التابعة لهم .

وفى ختام الجلسة تطرق سيادته مستفسرا عن وجهة نظرنا فى كيفية وامكانيات تأمين المنطقة وحماية الجزائر ضد أى أعمال تعرضية من الخارج خاصة وأن اسرائيل لها نوايا للسيطرة على منطقة جنوب البحر الأحمر وأن هذا يهم الدول العربية بالمنطقة ولذا يجب اتخاذ موقف موحد فى هذا الشأن ، وأنه يرى ضرورة اشتراك الصومال والسودان فى الدراســة المشتركة ، وســينتظر سيادته نتيجة عمل اللجــنة وتقريرها ومناقشته فى الاجتماع الذى سيعقد فى القاهرة لهذا الغرض .

وفى اللقاء مع المقدم الركن أحمد صالح عبده رئيس أركان الجيش ركز سيادته على أسئلة محــددة عن كيفية الدفاع عن جزيرة بريم وحجــم القوة التى يمكن أن تستوعبها الجزيرة ونوع وامكانيات القــوة البحرية المطلوبة لنفس الغرض ووسائل وأمكانيات المعاونة الجــوية وأخيرا تساءل عن امكانية العمل من الساحل المجاور (الجمهورية العربية اليمنية) عند رأس الشيخ سعيد .

ولقد قابلت اللجنــة خــلال عملها بجمهــورية اليمن الديمقراطيــة الاعتبارات والمصاعب فرضت نفسها على أسلوب عمل اللجنــة والنتائج التى يمكن التوصــل اليها ، ويمكن القاء اضوء بايجاز على بعض العقبات التى واجهت اللجــنة حيث أنه اتضح للجــنة أنه ليس لدى أى جهــة مسئولة فى البلاد معلومات كاملة ومحددة عن الموقف بالمنطقة أو الجزائر التابعة لهم وهنا فقد ركزت اللجنة جهدها لتوضيح مدى اهمية الموضــوع وحيويته فى الوقت الحاضر ، كما اتضح أن كل اهتمام المسئولين موجــه للامن الداخلى وجميع جهــود المسئولين بالحكم وبوزارة الدفاع والجيش مركزه فى موضوعات حزبية ومشــاكل داخلية بالاضــافة الى اشتباكات الحدود تعتبر التهديد الأساسى لهم فى الوقت الحاضر ، وفى مجال التحرك للاستطلاع كان لضعف الامكانيات المتيسرة للتحرك جوا أو بحرا محدودة جدا وأفادوا أن النزول على بعض الجــزائر أو الاقتراب منها غير مأمون خاصة وأن ليس لديهم معلومات عن هذه الجزائر منذ أربع سنوات وأصروا على أن الانتقال لجزيرة « سوقطرة » يعتبرغير ضرورى نظرا لابتعادها عن باب المندب وليست ذات تأثير مباشر .

نتائج تنفيذ اللجنة لمهمتها :

يجدر بنا فى هذا المجال أن نلقى الضوء على أن أهداف اللجنة غير المعلنة أمام المسئولين فى جمهورية اليمن الديمقراطية كانت تنطـوى على أهداف استراتيجية ترتبط بهدم نظرية الأمن الاسرائيلية ومدى قدراتنا على العمل فى هذا الاتجاه الحيوى بالاعتماد على القدرات المصرية أسـاسا وما يمكن استغلاله من العوامل والاعتبارات المحلية بالمنطقة **فمن الوجهة الجغرافية لمسرح العمليات** اتضح أن جميع الجزائر العربية والتى تعتبر جمهورية اليمن الديمقراطية تبعيتها لها تقع جميعها على مسافات متباعدة عن ساحل البلاد ويواجه معظمها ساحل الجمهورية العربية اليمنية فيما عدا جزيرة سوقطرة التى تقع بالمحيط الهندى وقد استمدت جمهـورية اليمن اليمقراطية حقها فى تبعية هذه الجزائر لها من مجال نشاط الاستعمار البريطانى للجنوب العربى ، كما لا يوجد لجمهـورية اليمن الديمقراطية سيطرة أو وجود على هذه الجزائر الا مجرد وجـود رمزى ومحدود بكل من جزيرة بريم وكمران .

وبالنسبة لجزائر جبل الطير وأبو عيل فقد ذكر الجانب اليمنى أن أثيوبيا لها وجود على هذه الجزائر العربية حيث تم ذلك بواسطة بريطانيا منذ تاريخ الاستقلال ، وقد ثبت للجـنة من دراسـة الوثائق التى أمكن الحصول عليها من أمانة ميناء عدن انه يوجد أفراد أثيـوبيون على هاتين الجزيرتين لادارة وتشغيل الفنارات ، ورصـدت هـذه الفنارات خـلال استطلاع الجزيرتين جوا .

وبالنسبة لجزائر جانيش الكبرى وجانيش الصغرى فقـد اتضـح من واقع الاستطلاع الجوى بالنظر بالاضافة الى ما ذكره المسئولون فى عدن بأنه لا يوجد عليهما أى وجود ، أما الزبير فليس لليمن أى وجود عليها ويوجد بها فناران قديمان غير مستخدمين .

وتولدت لدى اللجنة قناعة كاملة بأن جزيرة « بريم » بحكم موقعهـا الجغرافى فى مدخل خليج باب المندب تعتبر ذات أهمية قصوى مع ربطها بالوضع النسبى للساحل اليمنى عند رأس الشـيخ سعيد بالاضـافة الى سهولة الدفاع عنها والتمسك بها ، كما أن تدخـل اسرائيل ضـدها أمـر مستبعد ، الا فى حالة الارتكاز على مجموعة الجزائر الاثيوبية أو الساحل الاثيوبى .

وأن مجموعة الجزائر العربية الأخرى تأتى فى المرتبة الثانية من حيث الأهمية مع ربطها أيضا بالساحل اليمنى عند المخا ، من حيث التأثير على حركة الملاحة البحرية بالمنطقة . هذا مع اعتبار أن مجموعة جزائر « دهلك » الأثيوبية المواجهة لها تتساوى معها فى هذا المجال ، وذلك على ضوء ما تردد من أخبار عن وجود اسرائيلى على هذه الجزائر الأثيوبية .

هذا ويمكن فى حالة ثبوت وجود أثيوبى على بعض الجزائر اليمنية (جبل الطير وأبو عيل) ونظرا للتعاون القائم بين أثيوبيا واسرائيل (ميناء مصوع وعصب وجزر دهلك) فانه من المحتمل أن تقوم اسرائيل عند الضرورة بتنفيذ أعمال تعرضية ضد السفن العربية ، ومن المرجح أن تكون قائمة حاليا بتنفيذ بعض أعمال المراقبة والانذار مستخدمة فى ذلك سفن وزوارق الصيد بالاضافة الى عدد من الزوارق المسلحة ولقد أهتمت اللجنة اهتماما خاصا بميناء عدن من حيث الامكانيات والقدرات للارتكاز عليه فى انطلاق المدمرات المصرية لتنفيذ مهامها فى باب المندب واللجوء اليه عند الضرورة .

رابعا : العوامل المؤثرة على التخطيط الاستراتيجى لقفل باب المندب :

١ — تقييم مواقف الأطراف المعنية بمنطقة جنوب البحر الأحمر وتأثير ذلك على التخطيط الاستراتيجى

بنى هذا التقييم لمواقف الدول حول منطقة حوض البحر الاحمر على أساس المواقف فى ذلك الوقت (قبل حرب اكتوبر ٧٣) والتى تمدراستها خلال الزيارات المختلفة عامى ٧١ ، ٧٣ بواسطة اللجنة العسكرية الخاصة وتتركز مواقف تلك الدول فى الاتى : —

أ — موقف جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

١ — يسير النظام الحاكم فى اتجاه ماركسى واضح ومعلن على المستوى الحكومى والشعبى الا أن القاعدة لا تبدى تجاوبا مع الجهاز الحاكم فى هذا الاتجاه .

٢ — يسيطر الاتحاد السوفييتى على التنظيمات السياسية والقوات المسلحة ويخطط ويدير اعمال الصراع العسكرى والسياسى القائمة بين اليمن الديمقراطية وكل من المملكة السعودية والجمهورية العربية اليمينية .

٣ — أعطت اليمن الديمقراطية تسهيلات بحرية للاتحاد السوفييتى فى كل من جزيرتى بريم وسوقطرة وميناء عدن كمرتكز لها فى الخليج العربى

والمحيط الهندى ولدى المسئولين فى عدن إقتنـــاع كامل بكفـــاية المعونات السوفييتية ويرفضون ى مساعدات عربية .

٤ — لا تحتفظ اليمن الديمقراطية بأية علاقات ودية مع الدول العربية المجاورة كما ان النظام الحاكم الحالى مهدد من خلال الصراعات على السلطة فى عدن .

٥ — تعطى اليمن الديمقراطية تسهيلات بحرية لبعض قطعنا البحرية فى ميناء عدن بالثمن ولا ينتظر أن يستمر ذلك اذا تعارض مع مصـــالح الاتحاد السوفييتى فى المنطقة وعلى ذلك فان دور حكومة عدن نحو جنوب البحر الاحمر سيكون مقيدا ومحـــدودا ولكن لا يمكن الاســـتغناء عن هذه التسهيلات من وجهة النظر المصرية .

ب — موقف الجمهورية العربية اليمنية

١ — تسير حكومة الجمهورية العربية اليمنية فى اتجـــاه معتدل المظهر الا انه فى حقيقته يعبر عن المصالح الاستراتيجية للملكة العـــربية السعودية وبالتالى المصالح الغربية فى تلك المنطقة .

٢ — اظهر المسئولون مشاعر طيبة وتعاونا كبيرا للتعاون فى جميع المجالات معنا ويؤيد هذا الاتجاه المملكة العربية السعودية بعد ظهورحسن النوايا المصرية تجاه المملكة العربية السعودية .

٣ — تعانى الجمهورية العربية اليمنية من مشاكل الحدود مع اليمن الديمقراطية حيث تقف موقف المدافع فى معظم الحالات .

٤ — لا ينتظر ان تسير اجراءات الوحدة بين شطرى اليمن فى اتجاه عملى لتحقيقها حيث ان الوحدة المنتظرة لا تخدم اهـــداف الاســـتراتيجية السوفيتية او مصالح الغرب فى المنطقة .

جـ — موقف أثيوبيا

١ — تحاول أثيوبيا اظهار حسن نواياها نحو منطقة جنـــوب البحر الاحمر ومصر بصفة خاصة وذلك بحرصها على الاعلان المتكـــرر عن عدم اعطاء اسرائيل أى تسهيلات عسكرية فى الجزائر والســـاحل الاثيوبى ، لاحداث توازن فى موقف الدول العربية لحجب تأييدها لجبهة تحرير ارتيريا وكل ذلك لا ينفى القرائن الدالة على نشاط استطلاعى اسرائيلى متقطع فى جنوب البحر الاحمر يرتكز على الساحل الاثيوبى .

٢ — تمنح اثيوبيا تسهيلات بحرية وجوية للولايات المتحدة الامريكية بالمطارات والموانى الاثيوبية وتقوم بدور فعال فى استقرار هذه المنطقة بمعاونة الولايات المتحدة . (٤)

٣ — تشير الدلائل الى وجود مخطط للتعاون بين الولايات المتحدة واثيوبيا واسرائيل لتأمين السفن الاسرائيلية فى منطقة جنوب البحر الاحمر (قيام مدمرة امريكية وناقلة ليبيرية وسفينة نقل اسرائيلية بانقاذ ركاب سفينة هندية غرقت يوم ٢ يوليو ١٩٧٣) .

٤ — تجرى اثيوبيا اتصالات مع بعض دول المنطقة لتنسيق المواقف والجهود لمواجهة التغلغل السوفييتى الذى بدا واضحا بشكل يهدد الاستقرار فى المنطقة .

د — موقف المملكة العربية السعودية :

١ — تحافظ المملكة العربية السعودية على موقف تقليدى فى هذا الاتجاه حيث لا ترغب فى اقحام نفسها بشكل مباشر فى الصراع حول جنوب البحر الاحمر وتمارس حركتها فى هذا المجال من خلال الجمهورية العربية اليمنية .

٢ — تتجنب المملكة العربية السعودية أى عوامل تهديد لمصالحها نتيجة لقيامها بدور فعال فى مواجهة الملاحة الاسرائيلية فى جنوب البحر الاحمر ولا ينتظر ان تتخذ موقفا فعالا فى هذا الصدد .

هـ — موقف السودان :

ترى السودان أن دورها ثانويا بالنسبة لمنطقة جنوب البحر الاحمر وعلى ذلك فان دور السودان سوف يقتصر على تقديم تسهيلات بحرية أو جوية فى المطارات والموانى السودانية لأى قوات مصرية تتمركز بها للتعرض لخطوط الملاحة البحرية الاسرائيلية عبر البحر الاحمر ، كما ان السودان يشكل عمقا طبيعيا للمسرح البحرى فى باب المندب ، وعلى ذلك فمن الممكن أن يأتى السودان فى المرتبة الثانية من أهمية الموقع الاستراتيجى لقفل باب المندب .

---

(٤) ولكن حدث بعد ذلك انقلاب عسكرى فى اثيوبيا ، وتولى الماركسيون الحكم فانحازوا الى جانب الاتحاد السوفييتى .

و — موقف الصومال :

١ — تتبع الصومال سياسة موالية للاتحاد السوفييتى (٥) وقد حاول الصومال التقارب مع مصر فى هذا الوقت لكسب تأييدها عن مشكلةالحدود بين كل من الصومال واثيوبيا وكينيا بالاضافة الى سعيه لمزيد من المعونات الاقتصادية والثقافية .

٢ — يعطى الصومال تسهيلات بحرية للسوفييت فى موانيه (قمايو وبوبو).

٣ — ينتظر أن يتجاوب الصومال نحو تقديم تسهيلات لتمركز بعض قطعنا البحرية فى موانيه البحرية طالما أن ذلك لا يتعارض مع مخططات الاتحاد السوفييتى فى المنطقة وعلى ذلك فان دور الصومالفى منطقة جنوب البحر الاحمر سيكون ثانويا ومقيدا وغير مضمون شأنه فى ذلك شأن موقف جمهورية اليمن الديمقراطية عدا ان موقعه الجغرافى لا يخدم قفل باب المندب بشكل مباشر .

ز — موقف جمهورية مصر العربية :

١ — تمثل منطقة جنوب البحر الاحمر أهمية استراتيجية كبيرة بالنسبة للموقف القائم فى منطقة الشرق الاوسط بأبعادها الحالية فى ذلك الوقت وفى تقديرنا ان التعرض لخطوط المواصلات البحرية لاسرائيل عبو البحر الأحمر امر لا تستطيعه سوى مصر من حيث القدرة العسكرية وذلك من خلال تمهيد سياسى وعسكرى مع الدول المحيطة بحوض البحر الاحمر . ويمثل هذا الدور عاملا حاسما وحيويا فى المجال الاقتصادى والاستراتيجية العسكرية بالنسبة لاسرائيل ويهدم تماما أحد اركان نظرية الأمنالاسرائيلية وعلى ذلك فان تحرك مصر فى هذا المجال يجب ان يكون محسوبا بدقة سياسيا وعسكريا لضمان تحقيق الهدف ، كما ان السرية نحو اخفاء النوايا أمر حيوى لتحقيق المفاجأة من حيث الهدف واسلوب التنفيذ ، ومن هنا تنبع الظروف الاستثنائية التى أحاطت بالموقف المصرى فى هذا الاتجاه الحيوى تمهيدا وتخطيطا ثم تنفيذا .

---

(٥) حدث بعد هذا أن خرجت الصومال من دائرة النفوذ السوفيتى ، وتعمل الولايات المتحدة الامريكية فى الوقت الحاضر على ايجاد قواعد أو تسهيلات على الساحل الصومالى .

ومن هذا المنطلق بدأ التحرك المصري في اطار التنسيق العربي الثنائي من خلال جامعة الدول العربية حيث تم تجميع المعلومات الاساسية عن المناخ الذى سيتم فيه التخطيط والتنفيذ فى هذا الاتجاه ، وقد حدد المسار المصرى مع دول هذه المنطقة فى اطار المصالح المشتركة على قدر الامكان مع تفادى الحساسيات القائمة بين دول المنطقة ، رغم القدرة المحدودة لدى مصر للتأثير على مواقف الدول المعنية مثل اليمن الديمقراطية وعدن والصومال .

٢ ـ ولقد كان التخطيط لقفل باب المندب فى وجه الملاحة الاسرائيلية يشكل بعدا استراتيجيا مؤمنا بدرجة كبيرة فى منأى عن القدرة العسكرية المباشرة لاسرائيل الامر الذى سيزيد من وطأة التأثير المباشر على المصالح الحيوية لاسرائيل ويحقق توازنا فى اطار استئناف الصراع المسلح فى منطقة الشرق الاوسط من حيث حتمية دراسة وتقدير احتمالات جديدة خلال مراحل نشاطه .

ومن المسلم به أنه كان لمصر تواجد بحرى فى منطقة جنوب البحر الأحمر الا أن ذلك يحتاج الى تنظيم وتكامل القدرة العسكرية العربية فى هذا الاتجاه الحيوى لامكان تحقيق الهدف .

٣ ـ ومما لاشك فيه أن عامل الوقت سيكون حيويا فى مجال اتخاذ الاجراءات العملية لاستكمال شكل وحجم التواجد العسكرى فى تلك المنطقة وذلك بما يمكن ان تحققه اسرائيل فى هذا المجال .

وكان فى تقديرنا أن اى نشاط فى هذه المنطقة سوف لا يلقى تأييدا او ارتياحا من جانب الولايات المتحدة او الاتحاد السوفييتى وكذا اثيوبيا وبعض الدول العربية الا بالقدر الذى يتفق عليه مسبقا مع الدول العربية المعنية فى هذه المنطقة فى اطار متزن مع مصالح دولتى الوفاق (الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى) .

خامسا : ملامح الفكر العسكرى المصرى فى الاتجاه الاستراتيجى بجنوب البحر الأحمر :

لقد اصبح مقررا على المستوى السياسى والعسكرى فى مصر أن التخطيط الاستراتيجى لادارة الصراع المسلح فى منطقة الشرق الأوسط ـ سوف يتضمن فى بعادم وفكرته التخطيط للتعرض لخطوط الملاحة الاسرائيلية بالبحر الاحمر وقد اتخذت فكرة التخطيط فى هذا المجال بعدين محددين ، حيث يتناول البعد الاول التخطيط للتعرض المباشر فى منطقة

مدخل خليج العقبة وخليج السويس فى اطار ابعاد محددة وواضحةوالبعد الثانى يتناول التخطيط للتعرض البحرى فى منطقة جنوب البحر الاحمر لاضفاء العمق المناسب والبديل المؤكد . ونظرا لما يتطلبه هــذا البعــد من استكمال وتدقيق للمعلومات التى يبنى عليها التخطيط فى هــذا المجال ، على ذلك فقد كان من الضرورى استكمال بيانات ومعلومات الموقف بالجزائر التى ترددت أنباء وجود أسرائيلى عليها وتحديد طبيعة هذا الوجود ومداه، كما أن تحديد مؤثرات الموقف بدول المنطقة واتجاهاتها على ضوء المتغيرات الدولية والمحلية ودراسة الامكانيات المتاحة لحرية العمل والخروج من كل ذلك بنظرية دقيقة عن الاحتمالاتوردود الفعل وبالتالى الفكرة الاستراتيجية للعمل فى هذا الاتجاه الحيوى .

وتنفيذا لذلك أوفدت لجنة عسكرية خاصة الى منطقة جنوب البحــر الاحمر خلال الفترة من ٣٠ ابريل الى ١٤ مايو ١٩٧٣ وارتكزت اللجنة فى عملها على كل من اليمن الديمقراطية الشعبية والجمهورية العربية اليمنية وضمت اللجنة احد قادة التشكيلاتالبحرية الرئيسية وثلاثة مختصين آخرين فى التخطيط من القيادة العــامة للقوات المســلحة ، وكل ذلك فى اطار الجامعة العربية وقد قامت اللجنة بالتوجه الى عدن حيث تم تسليمالخطاب الموجه من رئيس الأركان فى القاهرة الى رئيس أركان الجيش فى عدن متضمنا الغرض من حضور اللجنة حيث ظهر الخط الرسمى لحكومة عدن وتولى السيد / عبد الله الخامرى وزير الاعلام التحدث معنا باسم الدولةوتضمنت آراؤه استبعاد جزيرة بريم ومنطقة الساحل المؤدى اليها من مجال عمــل اللجنة حيث أن ذلك كان خارج موضوع البحث فى اجتماع رؤساء الاركان بالقاهره وان عمل اللجنة يجب أن ينصب من وجهة نظــره على الجزائر الخالية سواء من السكان او المشاكل السياسية ، وانه يرى أن الدفاع عن جزيرة « بريم » أو السواحل يخص جمهورية اليمن الديمقراطية وحــدها وان الحكومة فى عدن ليست فى حاجة الى مشــورة أو مقترحات لتأمين وحماية الجزيرة واضاف بأن قواتهم المسلحة لا تحتاج لأى مســاعدة من الجامعة العربية وان ماذكره هو موقف ورأى حكــومته ، واستطرد الى القول بأنه قد تم الاتفاق مع الجمهورية العربية اليمنية على حل مشــكلة الجزائر وتأمينها بقوات مشتركة من الدولتين دون المساس بموقف اثيوبيا فى كل من « جبل الطير وأبو عيل » وتضمن اتفاقهما ايضا حماية الجزائر الخالية وهى « زوكار وحافليش الكبرى وحافليش الصغرى » وانالموضوع حساس للغاية ويجب عدم اثارة اى مشاكل سياسية او متاعب مع اطراف أخرى فى المنطقة على أن يكون التحــرك العســكرى مرتبطا بالدراســة السياسية وتجنب ردود الفعل ، وعلى هذا الاساس يمكن التعاون معلجنة الجامعة العربية .

وقد عاودت اللجنة العسكرية عرض الموضوع على المسئولين فى عدن ولكن دون أى بادرة تعاون أو تفاهم من جانبهم ، وركزت اللجنة على اتصالها بشكل غير علنى ومنفرد مع قائد التشكيل البحرى المصرى الموجود فى عدن وخاصة فيما يتعلق بتصور الاعمال القتالية المنتظر تنفيذها للتعرض لخطوط المواصلات البحرية الاسرائيلية فى جنوب البحر الاحمر على أن يتم استكمال التنسيق بعد ذلك فى الاسكندرية والقاهرة .

وفى ٣ مايو ١٩٧٣ توجهت اللجنة الى تعز على طائرة خاصة ورافق اللجنة السيد/عبد الله الخمرى الذى فرض وجوده وأمكن التخلص منه فى مطار تعز من خلال المندوب اليمنى الذى كان فى استقبالنا وبدأت اللجنة وجهتها وعملها مع المسئولين فى اليمن الشمالية دون تدخل او تأثير نتيجة زيارة الوزير الخمرى .

وقد أبدى السيد رئيس الاركان فى اليمن الشمالية ومعاونوه ترحيبا كاملا واستعدادا للتعاون لأقصى درجة مع اللجنة لتنفيذ مهمتها والموافقة مقدما على أى مقترحات تقدمها اللجنة حول تأمين الجزائر العربية وحمايتها والاستعداد لتنفيذ أى خطط تضعها اللجنة مع تقديم اى قوات من الجمهورية العربية اليمنية للمشاركة فى هذا المجال ورافق اللجنة خلال عملها مساعد رئيس الاركان وقائد القوات البحرية حيث تم استطلاع الجزائر والمناطق الساحلية فى الجمهورية العربية اليمنية وأمكن تحقيق **النتائج الآتية خلال هذه الزيارة :**

١ — تعتبر اللجنة انها قد اتمت تنفيذ مهمتها بنجاح حيث قامت باستطلاع ودراسة الجزائر العربية والسواحل اليمنية القريبة منها وذلك بالاستطلاع الجوى والبحرى والتصوير حيث تم تغطية المجال الحيوى لكل من جزائر « جبل الطير ومجموعة جزائر الزبير وجزيرة ابو عيل وجزيرة زوكار وحافيش الكبرى وحافيش الصغرى وجزيرة بريم » .

وبالرغم من رفض السلطات فى عدن التعاون مع اللجنة لاستطلاع جزيرة « بريم » فقد تم استطلاع الساحل اليمنى تفصيلا حتى رأس باب المندب عند رأس الشيخ سعيد حيث تم استطلاع جزيرة « بريم » والممرات الملاحية حولها استطلاعا تفصيليا .

٢ — ولقد كان من اهم أعمال اللجنة هو تشجيع الجمهورية العربية اليمنية على التوجه لهذه الجزائر لاثبات الوجود العربى بها وذلك تمشيا مع أهدافنا فى هذه المنطقة وفى اطار المصلحة العربية .

٣ — ومن ابرز النتائج أن اللجنة تأكدت من عـدم وجـود عسكرى اسرائيلى على جميع الجزائر العربية بجنـوب البحر الاحمـر وان هناك شواهد تؤكد قيام اطراف أخرى سبق وصولها الى جزيرة زوكار عن طريق البحر الأحمر والاقامة فيها لفترات قصيرة وأن جميع الجزائر العـربية — باستثناء « كمران » (التى استردتها العربية اليمنية من اليمن الديمقراطية) « وبريم » (التى يحتلها السوفييت) — غير محتلة بأى عناصـر عربية من دولتى اليمن والجزائر خالية من اى وجود فيما عدا اطقم تشغيل الفنارات الموجودة بكل من جزيرة « جبل الطير وجـزيرة أبو عيل » ويشـرف عليها شركة اثيوبية مقرها أسمرة هى :

L. Savon and Ries (Ethiopian Shiping) Co.

وقد افاد المسئولون فى صنعاء ان اثيوبيا تعترف بحق العربيةاليمنية فى هذه الجزائر واحتمالات تسليم هذه الفنارات للعربية اليمنية يرتبطبمدى توافر الامكانيات لدى اليمن لادارتها .

٤ — تشير بعض الشواهد الى أن هناك نشاطا استطلاعيا يجرى بواسطة عائمات سريعة فى منطقة المر الملاحى عند جزيرة « أبو عيل » وخاصة فى مواعيد مرور السفن بالمنطقة ومن المرجح أن تكون بعضالعناصر تؤدى ذلك لصالح اسرائيل .

٥ — تعتبر منطقة المر المـلاحى عند « أبو عيل » وهى تمثل عنق الزجاجة بالاضافة الى منطقة « المخا » وجزيرة « بريم » وتعتبر هذهالمناطق ذات اهمية استراتيجية للارتكاز عليها فى مجال العمل للتعـرض لخطوط المواصلات البحرية بخلاف البحر الاحمر .

كما أن منطقة « المخا ودياب » تعتبران عاملا مساعدا بدرجة فعالة فى اطار الخطة وتعتبر منطقة « رأس الشيخ سعيد » افضل الاماكن لمراقبة حركة السفن عبر « باب المندب » لارتفاعها .

سادسا : ملامح التخطيط الاستراتيجى للتعرض لخطوط الملاحة الاسرائيلية بجنوب البحر الأحمر

بعد استعراض ما تم انجازه من اجراءات تحضيرية خلال عامى ٧١، ١٩٧٣ والظروف التى تمت فيها تلك الاجراءات وتقييم الاعتبارات الجغرافية السياسية التى سوف تؤثر على حجم واسلوب الحركة فى منطقة حوض البحر الأحمر ، فقد تمكنت اللجنـة من خـلال ذلك العمـل فى اتجاهين رئيسيين :

١ — الاتجاه الاول :

وكان يأخذ شكل العمل العربى فى اطار جامعة الدول العربية لتقديم التوصيات اللازمة نحو دعم الوجود العربى بمجموعة الجزائر العربية بجنوب البحر الأحمر من حيث تقديم المشورة للدول المعنية عن خطة العمل وتحديد المطالب والمعونات الممكن تقديمها بواسطة الجامعة العربية وفى هذا المجال تم تحديد المطالب الأساسية التى يجب أن يرتكز عليها العمل العربى فى منطقة جنوب البحر الأحمر وتركزت فى خلق وجود يمنى مناسب على الجزائر اليمنية الهامة وتوفير نظام انذار بحرى وجوى يربط الجزائر المشرفة على المسطح المائى والمناطق الحيوية على امتداد الساحل اليمنى وفى النهاية توفير تجميع بحرى وجوى لتأمين المنطقة تحت قيادة مشتركة فى مكان ما على الساحل اليمنى .

وسوف لا يمكن التطرق خلال هذا البحث لتفاصيل عناصر هذا التقرير نظرا لسريته والتى لن يسمح بنشرها فى المستقبل القريب .

ولا يفوتنا أن ننوه هنا بأن دراسة القدرات الاسرائيلية على العمل فى هذا الاتجاه الحيوى قد كانت عنصرا أساسيا فى هذا التقدير فمن الضرورى تقدير ذلك والعمل على احباطه ومواجهته وفى مقدمة الموقف الاسرائيلى تقدير الأهمية الحيوية لحرية الملاحة عبر البحر الاحمر بالنسبة لاسرائيل وخاصة لناقلات البترول المتجهة اليها من ايران والعلاقات التجارية لها مع افريقيا وجنوب شرق آسيا ، ومن الشواهد التى تم رصدها استغلال اسرائيل للتسهيلات التى تمنحها اثيوبيا لسفن الصيد الاسرائيلية فى مينائى مصوع وعصب حيث يمكنها من هذه الأوضاع القيام بالاستطلاع تمهيدا لاعداد قوة بحرية تؤمن بها حرية ملاحتها فى جنوب البحر الأحمر ، وفيما عدا ذلك فتعتبر القوات الجوية الاسرائيلية هى العنصر الرئيسى الذى يمكن ان يعتمد عليه العدو آنذاك للرد على عملياتنا ضد خطوط مواصلاته حيث يصل مدى بعض طائراته الى شمال الحديدة وباعادة التزود بالوقود فى الجو يمكنه الوصول الى عدن ورغم ذلك فان تدخله جوا سوف يكون محدودا وغير مستمر ويمكن التعامل ضده أما من حيث قدرة العدو البحرية الموجودة فى ذلك الوقت فى منطقة البحر الأحمر « شرم الشيخ » فانها لا تحقق له تنفيذ أعمال بحرية مضادة فعالة عدا بعض العمليات الخاصة ومما هو جدير بالذكر أن الجاسوس الاسرائيلى باروخ الذى اعتقل بالجمهورية العربية اليمنية كان يحاول تغطية النشاط الاستطلاعى المصرى خلال عام ١٩٧١ .

٢ — الاتجــاه الثانى :

وكان يهدف بعمل اللجنة — من وجهة النظر المصرية — الى الاعداد النهائى لفكرة التعرض لخطوط مواصلات العدو البحرية عبر جنوب البحر الأحمر دون الافصاح عن ذلك لغير المعنيين تحت أى ظروف من الظروف ، وقد تم ذلك فى اطار من السرية الشـــديدة وعلى أسس المــوقف الفعلى بالمنطقة والامكانيات الذاتية لمصر دون أى اشتراك خارجى عربى او أجنبى، كما أن ربط هذا التخطيط قد وضع موضـــعه المناسب فى اطار الأهداف الاستراتيجية التى تهدف لها الخطة الشاملة لحرب اكتـوبر ١٩٧٣ وفى النهاية فقد اكتسب التخطيط للتعرض لخطوط الملاحة البحـرية فى جنوب البحر الأحمر كافة الخصائص التى اكتسبتها وتميزت بها الخطة الشاملة فى مجال شمول واتساع نطاق الصراع المسلح مما يشتت جهود اسرائيل بالاضافة الى تهديد مصالحه الحيوية وهــدم أهم ركائــز نظــرية الأمن الاسرائيلية مع تحقيق توازن ضمون لابعاد الصراع فى المجالين العسكرى والسياسى .

سابعا : الحــرب :

وفى السادس من اكتوبر ١٩٧٣ بدأت الحـــرب وحــدثت المفاجأة لاسرائيل وللعالم وفى مجال حرية الملاحة بجنوب البحر الأحمر فقد مارست جمهورية مصر العربية عن التحذير لسفن الدول بعدم الاقتراب من مناطق العمليات البحرية طبقا لقواعد القانون الدولى .

من لحظة الاعلان بدأت القوات البحرية المصرية تباشر مهــامها فى مجال التعرض لخطوط مواصلات العدو فى البحرين المتوسط والاحمر . وفوجئت اسرائيل بهذا البعد الجديد الذى فرض نفسه على حسابات مجال الصراع ولم تستطع التحرك او اتخاذ اجراء فورى، فقد كان عليها بعد وقوع المفاجأة ان تستجمع قواها وتتحرك بأوليات درجات التهــديد المباشر فلم تستطع دخول خليج السويس لنقل بترول سيناء الى ايلات وأصيبت بخسائر فى هذا المجال نتيجة استصدام سفنها بحقول الالغام البحــرية فى مدخل خليج السويس ، وعلى البعد الاستراتيجى فى هذا الاتجاه الحيوىبجنوب البحر الأحمر لم تستطع اسرائيل الا السعى لمعاونة الدول الكبرى لفــك الحصار البحرى المصرى المفروض على باب المندب ولكن دون جدوى .

وحتى بعد وقف اطلاق النار وبدأ مباحثات فض الاشتباك عند كم ١٠١ فقد أتيحت لى فرصة الاشتراك فى هذه المباحثات كعضو بالجانب المصرى حيث كان المطلب الملح والمتكرر للجانب الاسرائيلى على لسان رئيس وفدهم

الجنرال آهارون باريف أهمية فتح باب المندب فى وجه الملاحة الاسرائيلية حيث ظهرت وطأة قفل الملاحة فى باب المندب على اسرائيل كأحد عناصر الاهتمامات الحيوية بالنسبة لها بشكل يهدد مصالحها الاستراتيجية والاقتصادية بشكل مباشر رغم بعده غير المباشر .

هذا بالاضافة الى أنه اثبت للعالم زيف اسرائيل فى ما تدعيه حول نظرية الحدود الآمنة حيث ظهرت عدم أهمية شرم الشيخ لحرية الملاحة الاسرائيلية بالاضافة الى أن اسرائيل هزمت خلال حرب اكتوبر ١٩٧٣ من حدود كانت آمنة من وجهة نظرها . الأمر الذى غير وجهة نظر الرأى العام العالمى بشكل عام والرأى العام الاسرائيلى بشكل خاص عن الضوابط الاستراتيجية التى تحكم الصراع العسكرى فى الشرق الاوسط ومستقبله .

ولا يفوتنى أن أنوه هنا بأن قائد التشكيل البحرى الذى كان يمارس العمل فى قفل باب المندب قد أبرق للقاهرة يوم ٦ اكتوبر بما يفيد اعتراض سلطات عدن لعمله فى المنطقة الا ان ذلك الموضوع قد تمت تسويته على المستوى السياسى وباشرت القوات البحرية مهامها .

وبذا أمكن لمصر منذ الساعات الأولى لبدء الحرب تحقيق أهم الأهداف الاستراتيجية العسكرية « قفل الملاحة البحرية فى منطقة باب المندب » وبذلك سقطت نظرية الامن الاسرائيلية التى أصبحت موضع شك من قبل واضعيها ومخططيها الاسرائيليين ومن قبل الشعب الاسرائيلى نفسه .

ثامنا :

نظرة نحو مستقبل البحر الأحمر :

ان تجاوز الابعاد والمؤثرات المجلية المحيطة بحوض البحر الأحمر أمر يفرض نفسه فى اطار حلقات الاهتمامات الاقتصادية والسياسية لدولتى الوفاق (الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى) فكلاهما حريص على ان يحصل على التفوق فى هذا المجال من خلال الواقع المتغير للدول العربية والافريقية المطلة على حوض البحر الأحمر ، ولم تكتمل حتى الان الصورة النهائية لهذا الصراع وتمر المنطقة حاليا بتفاعلات لم تتحدد نتائجها .

وفى تصورنا أن ضمان الأمن لخطوط المواصلات البحرية عبر البحر الأحمر شمالا وجنوبا يرتبط ارتباطا وثيقا بالمصالح الحيوية للدول الكبرى اقتصاديا وعسكريا وسيظل كذلك على المدى القريب والبعيد .

وعلى المستوى العربى والافريقى نجد أن الاهتمامات العربية الحالية قد تجاوزت حدود التصور الذى كان قائما عام ١٩٧٣ بالنسبة لأهمية الملاحة عبر البحر الأحمر . حيث بدات تظهر اهتمامات لبعض الدول العربية فى هذا المجال ترتبط بتعزيز السيطرة السوفييتية فى المنطقة مثل « عدن واثيوبيا » حيث تمنح تسهيلات بحرية وجوية وبرية لدول المعسكر الشيوعى فى المناطق الحيوية بحوض البحر الاحمر . وعلى الجانب الاخر فهنالك ردود فعل مضادة لهذا المسار لدى باقى الدول تتركز فى مواجهة هذا المد الشيوعى الذى بدأ يأخذ طابع العنف لفرض السيطرة على بعض الدول المعنية بالمنطقة . الامر الذى أشعل جذوة الخلافات بين الدول العربية والافريقية بشكل مباشر عوضا عن الصراع غير المباشر بين الدول الكبرى ونتيجة لذلك نجد ان متغيرات جديدة قد فرضه نفسها على الاستراتيجية العربية فى منطقة البحر الأحمر وبالتالى فان التصور الذى نراه مناسبا للتحرك والعمل فى هذا المجال — يجب أن يأخذ طريقه بحساسية تستمد قدراتها من تنسيق سياسى عربى نابع من نظرية تتفق مع الامن القومى العربى ويلى ذلك ترتيب أوضاع عسكرية عربية تضمن تحقيق المصلحة العربية فى المقام الأول .

وسوف يترتب على ذلك ضرورة تحديد استراتيجية عربية للبحر الأحمر فى الظروف الساكنة للصراع مبنية على أساس احترام حقوق جميع الدول فى المرور البرىء يمكن ان تتحول عند سخونة الصراع الى اتخاذ الاجراءات التى تتفق وأمن ومصلحة الدول العربية بالاسلوب الذى يتفق عليه .

ولا يفوتنا أن نتدارك حقيقة هامة فى مجال اثبات السيطرة والأحقية العربية على مجموعة جزائر البحر الأحمر فى اطار تضافر الامكانات العربية المتاحة من خلال الجامعة العربية وقد سبق تقديم تخطيط محدد فى هذا المجال ضمن تقرير اللجنة العسكرية الخاصة التى أوفدت للمنطقة فى مايو ١٩٧٣ . ترتكز على مقومات محددة وهى :

أولا : خلق المناخ السياسى للتحرك من خلال تنسيق عربى تشرف عليه الجامعة العربية تتركز فى اعطاء المصلحة العربية الاهتمام الأول دون غيرها .

ثانيا : تكوين قوة عربية مشتركة تمارس عملها تحت قيادة عربية تباشر السيطرة على هذا المجال الحيوى من موقع مناسب وليكن « الحديدة » .

ثالثا : حجم وتكوين هذه القوة يجب أن يحقق تكاملا فى القدرة القتالية فى مجال العمل الجوى والبحرى والبرى لتحقيق السيطرة على الجزائر العربية بالبحر الأحمر والسواحل العربية بأسبقية الاهمية الاستراتيجية فى هذا المجال والتى قد لا يكون الوقت مناسبا للافصاح عنها حاليا .

ومن الضرورى ان ننوه هنا ان عامل الوقت يلعب دورا حيويا قياسا بمعدل تحرك الأحداث فى المنطقة وقد يسبقنا غيرنا دون مبرر قد يلحق الضرر بالمصالح العليا العربية .

٣١

أمن البحر الأحمر

بعض الملاحظـــات الجيوبوليتيكية

الدكتـــور ابراهيم صـــقر

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ــ جامعة القاهرة

يهمنا فى هذا المجال ان نشير الى بعض السمات التى يتميز بهـــا البحر الأحمر ذات الصلة بالموضوع الذى نتناوله ...

من هذه السمات أن البحر الأحمر بحر ضيق فى عمومه يبلغ عرضه فى المتوسط ١٩٠ ميلا ويصل فى أقصاه الى ٢٤٠ ميلا ، ويضيق بشـــكل واضح فى مداخله ممتدا فى خليجين طويلين ضيقين هما خليج السويس وخليج العقبة ــ فى ناحية وحيث يتقارب جانباه الى أن يأتى المدخل الاخر عند باب المندب فى الناحية الأخرى ، هذا فضـــلا عن الجـــزائر العديدة المنتشرة فى هذه المناطق .

ولقد كان من نتائج هذه السمة ، سهولة التفاعل ــ صراعا وتعاونا ــ بين جوانبه وعلى مدى التاريخ الطويل (١) .

ومن هذه السمات انه بحر يمتد طويلا ولكن بشكل يكاد يكون رأسيا بين الشمال والجنوب ، من مناطق الشمال المعتدل الى الجنوب المدارى والاستوائى .

وهو حلقة طويلة وهامة فى سلسلة الطريق الهام بين المناطق المعتدلة والباردة فى شماله وشـــماله الغـــربى من ناحية وبين المنـــاطق المدارية

---

(١) وهذا يتضـــمن الاتجار بين اجـــزائه المختلفـــة فى منتجاتهـــا المختلفة ..

والأستوائية فى جنوبه وجنوبه الشرقى من الناحية الأخرى (٢) . الأمر الذى يجعل من مصلحة الجانبين أن يقوم بينهما تبادل مفيد للمنتجات يزيد حجم التجارة العابرة على هذا الطريق ، وخاصة انه الطريق الأقصر — وبوضوح — بين المناطق المتبادلة للتجارة على جانبى البحر الأحمر .

واذا أخذنا فى الاعتبار ان انشاء قناة السويس قد جعل من هذا الطريق طريقا مستمرا — لا تتخلله أية حلقة أرضية تفرض التفريغ واعادة الشحن هذا فضلا عن أن النقل البحرى هو — وبشكل واضح — أرخص أنواع النقل ... فان هذا الطريق البحرى ، المستمر الاقصر من الطرق المنافسة هو .. الطريق المتفوق — وبشكل بارز — فى نقل التجارة الضخمة المشار اليها فيما سبق ... ومن ثم يكون البحر الأحمر — وهو حلقة طويلة على هذا الطريق — ذا أهمية كبيرة لهذه التجارة العابرة الضخمة .

وزاد من هذه الأهمية أن الطريق يربط ما بين البلاد المتقدمة عموما من ناحية والبلاد المتخلفة عموما — والتى استعمرتها بلاد من المجموعة الأولى — من ناحية أخرى ... الأمر الذى جعله طريقا هاما لخدمة التجارة بين هاتين المجموعتين من البلاد ، وهى تجارة تقوم على اختلاف مراحل التطور ، وعلى أساس من الاستغلال الاستعمارى غير المتكافىء . وهى على أى الاحوال ذات أهمية خاصة بالنسبة للبلاد المتبادلة لها على جانبى البحر الأحمر .

وفى هذا المجال فقد ازدادت أهمية طريق السويس الاقتصادية والاستراتيجية وبشكل بارز ... ومن ثم ازدادت اهمية البحر الأحمر كمعبر للتجارة ، مع تزايد اهمية البترول وبروز — أهمية الخليج العربى كمنتج ضخم وكمصدر أول فى العالم له ومع اهميته الحيوية لأوربا الغربية وامريكا على الجانب الاخر من الطريق .

ومن هذه السمات أيضا ، ان البحر الأحمر كانت له أهمية فى تاريخ الاستعمار كمنفذ بحرى على طريق الهند والشرق الأقصى ، وفى استعمار الدول الغربية لأفريقيا الشرقية ولقد زادت هذه الأهمية بعد حفر قناة السويس وشهد البحر الأحمر نشاطا وتنافسا اقتصاديا وعسكريا زاخرا .

---

(٢) وفيما يتصل بالمناطق المعتدلة الى الجنوب والجنوب الشرقى فأن اختلاف الفصول بين الشمال والجنوب يؤدى أيضا الى قيام تبادل تجارى بين المناطق التى تقع على جانبى البحر الأحمر .

ومن هذه السمات أن البلاد العربية تكاد تغطى كل سواطىء البحر الأحمر الا ان الوجود الاسرائيلى الصغير على خليج العقبة وأهمية البحر الأحمر كمنفذ لتجارة اسرائيل مع المناطق الى جنوبه وشرقه ، يجعل البحر الأحمر مجالا من مجالات الصراع بين اسرائيل والبلاد العربية . واذا كانت محاولات الوصول الى تسوية الدائرة منذ مدة الى الان قد تخففف اذا انتهت الى تسوية — من الصراع بين اسرائيل وبعض البلاد العربية فان من المحتمل ان الصراع بين اسرائيل وبعض البلاد العربية الاخرى ســوف يستمر وسوف يستمر لأمد غير قصير ... وســـوف يعكس ذلك نفســه بالضرورة فى البحر الأحمر .

ويمكننا أن نضيف الى هذه الصورة بعض الظواهر الهامة فى عالمنا الراهن ... وهى ظواهر لها انعكاساتها على موضوع هذه الندوة ، أى على البحر الأحمر ... وعلى الصراع فيه ... وعلى مشاكل أمنه .

ومن هذه الظواهر ، ظاهرة تزايد أهمية الوطن العربى والشرق الأوسط ككل .. بمنافذه المتعددة ... المتنوعة ... وفى اتجاهات شتى، ببتروله ... الضخم انتاجا ... واحتياطيا .. وتصديرا .. وأرصدة .. وقوة
الضخم انتاجا ... واحتياطيا .. وتصديرا .. وأرصدة ... وقوة مالية لها أثارها فى العالم .. متقدمة ومتخلفة ، بقدرته الشرائية الضخمة بتلاصقه مع جنوبى الاتحاد السوفييتى .. أحد العملاقين ، بوجوده ... كحلقة وصل متوســطة فى قلب الثالوث القارى بكل ما له من أهميــات خطيرة ، وعلى المداخل من الشمال والشرق للقارة الافريقية ...

وهذا ينقلنا الى الظاهرة الثانية التى تهمنا وهى تزايد أهمية القارة الافريقية فى المرحلة الراهنة ... بثرواتها الضخمة ... والمتنوعة ... والمتزايدة بما يكتشف من جديد فيها ، اليوم تلو اليوم ، بســوقها الكبــير والمتزايد سواء لحاجات الاستهلاك ، أو الانتاج والنمـــو ... او كمجال للاستثمار .. كبير ومتزايد بأهميتها الاستراتيجية .. كمصـــدر لكثير من المواد ذات الاهمية الاستراتيجية ..

وكعمق لأوربا الغربية والشرق الأوسط ... يقرب انبعاج فيه (عند داكار) من نصف الكرة الغربى ، كما لا تقرب أية نقطة اخرى فى العالم القديم ... ويبتعد طرف فيه (فى نهايتها الجنوبية) عن الكتلة الشرقية كما لا تبتعد أية نقطة اخرى فى الثالوث القارى ... وكشاطىء تمر حواليه الطرق البحرية الهامة ... طريق السويس وطريق رأس الرجاء الصالح ... الخ .

ويقود ما سبق الى الحديث عن ظاهرة ثالثة فى عالمنا الراهن ... وهى ظاهرة تزايد الصراع .. الدولى فى ، وبين وعلى هذه المناطق وعلى بلاد العالم الثالث عموما ويظهر ذلك بشكل ابرز فى نصف الكرة الشرقى ...

ذلك أن ما تحقق من توازن الرعب النووى أو توازن الردع النووى أدى — فيما أدى اليه — الى درجة أكبر من التركيز — فى الصراع بين الكتلتين الغربية والشرقية وبالأساس بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتى — على بلاد العالم الثالث ، التى تعانى الان من درجة متزايدة من الاستقطاب .

وتتفاعل هذه الدرجة المتزايدة من الاستقطاب مع درجة متزايدة من الصراع الاجتماعى فى بلاد العالم الثالث ، بين القوى التى تنشد التغيير لصلحة الطبقات الأفقر التى تشكل الغالبية الساحقة فى هذه البلاد ، بين القوى التى تحاول مقاومة التغيير او تعطيله .

وتتداخل مستويات الصراع أو دوائره ... المحلية ... والاقليمية والعالمية ... وتتساند فيه الجوانب ذات المصالح المشتركة او المتقاربة ، فى مواجهة الجوانب المضادة التى تتساند هى الاخرى ويدعم بعضها بعضا ..

وتتزايد حدة هذا الصراع .. وتبرز ضراوته ... وتستعمل فيه كل الوسائل المتاحة . وتزداد هذه الحدة بشكل واضح فى المناطق ذات الاهمية الاقتصادية والاستراتيجية والسياسية ... ومن هذه المناطق ... الوطن العربى والشرق الأوسط على وجه العموم .. وكذلك القارة الافريقية ، وان كنا نخص بالذكر منها — وخاصة هنا — أى فيما يتصل بموضوع الندوة — منطقة القرن الافريقى .

من كل ماسبق يمكننا أن نقرر ، ان للمنافذ المختلفة ، وخاصة البحرية منها — فى عالم اليوم الذى يموج بالصراع دورا كبيرا ... وأهمية متزايدة وان للبحر الأحمر اهميته الخاصة بين هذه المنافذ .. وخاصة مع أهمية المناطق المحيطة به ..

وقد كثر الحديث فى الماضى القريب وخاصة فى الفترة الاخيرة عن البحر الأحمر ، وعن أمنه ، واهتمت بذلك الحكومات ، وتحركت الهيئات المختلفة للبحث والنقاش فى الموضوع ويكفى أن نشير الى اللقاءات الحكومية المتعددة ثنائية ومتعددة الأطراف ، فى العامين الماضيين وخاصة

الى البيانات الصادرة عن هذه اللقاءات والتصريحات المعلنة عن الرسميين فى العديد من البلاد .. ويكفى أن نشير كذلك على سبيل المثال الى هذه الندوة التى فكر فيها من مدة ، وانتهت الى الشكل الذى تتخذه اليوم والى المشروع البحثى المشترك الذى يقوم به مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية التابع لمؤسسة الأهرام ، بالتعاون مع مجموعات بحث من ايطاليا والمانيا الغربية (٣) .

وفى منطقتنا ... يتحدث البعض عن تحويل البحر الأحمر الى « بحيرة » عربية وعن السيطرة على « مداخله » او « مخارجه » ، واغلاق العرب له على من يريدون ، أو دون من يريدون وعن ابعاد البجر الاحمرعن « نفوذ القوى الكبرى » ، وعن الصراع الدولى .. الخ .

وفى مناقشة هذه الأهداف .. نبدأ بابراز بعض النقاط المتصلة بالصراع الدولى الواسع الذى يعتبر ما يجرى فى البحر الأحمر جزءا منه .. لا ينفصم عنه ... بل ان بينهما علاقة عضوية .

وبادىء ذى بدء ، فان مجرد السيطرة على الشواطىء ، او على نقط ذات أهمية استراتيجية عليها ، او على جزائر ذات موقع هام فى مرحلة معينة .. كل ذلك،رغم أهميته،فانه لايضمن وحده ــ السيطرة البحرية فى منطقة ما .. ذلك أن العنصر الأهم فى السيطرة البحرية ، هو القوة البحرية ذاتها .. هذه القوة ــ اذا حققت تفوقا على غيرها ــ هى التى كانت تحقق السيادة فى البحر ... وتعوق غيرها او تمنعه .. وهى التى كانت تثبت مراكزها فى النقط ذات الاهمية الاستراتيجية ... وتمنع غيرها من ذلك .. وكانت حتى تخرجه أحيانا منهـا أن حارس هـذه « البوابات » والنقط الاستراتيجية على العموم هو اساس . ان « البوابات » والنقط الاستراتيجية لا تحقق فى ذاتها ... سيطرة أو سيادة أنها تساعد وتدعم .... ولكن العبرة أساسا بالقوة التى تحقق السيادة والسيطرة ..

---

(٣) اذا نظرنا الى البحر الأحمر كجزء من وامتداد للمحيط الهندى فأننا نلاحظ الاهتمام المتزايد بالمحيط الهندى وكثرة الدراسات والبحوث واللقاءات التى تناولت هذا المحيط .. وخاصة فى السنوات العشر الماضية ولا زال الاهتمام بالمحيط الهندى يتزايد بأطراد .

ويكفى فى ابراز ذلك أن نشير الى تفوق البرتغاليين بعد عصر الكشوف البحرية . لقد فشل البنادقة والمصريون فى مواجهتهم ، ووقف مدهم وتفوقهم فى التجارة بين الشرق والغرب .. واكثر من ذلك فان الأسطول البرتغالى دخل الى البحر الأحمر وحتى خليج السويس ..
وأن نشير الى تفوق الانجليز ، وسيطرتهم ، فيما بعد ، على ناصيته البحار ولمدة ثلاثة قرون تقريبا ، وفرضهم (للسلام البريطانى) كسادة للبحر فى هذه الفترة . ويكفى ان نشير هنا الى فشل بونابرت فى مصر والشرق ... وفشله بالنهاية فى المواجهة الشاملة ، والى أهمية استمرار السيادة البريطانية على البحار فيما تلا ذلك من صراعات . لقد اثبتت معيار الدولتين التاليتين فعاليته ، لقد كان التفوق فى القوة البحرية هو الذى يحقق التفوق فى البحر ، بل ويدعمه بسيطرة هذه القوة البحرية المتفوقة ، على النقاط ذات الأهمية الاستراتيجية ، وحرمان الغير منها .
ويمكن أن نشير أيضا الى ايطاليا ، والى أحلامها الكبيرة بتحويل البحر المتوسط الى « بحيرة ايطالية » ورفعها لشعار «Mare Nostrum» لقد كانت النتيجة ، ليس فقط أن هذا الشعار لم يتحقق ، وانما أيضا ان خطوط اتصال الدولة الأم والامبراطورية قد تقطعت . لقد كان التفوق فى القوة البحرية عاملا هاما ... بل وحاسما وانتهى الحلم .. وانتهت الامبراطورية .

وبعد الحرب العالمية الثانية ... كان التفوق البحرى الأمريكى صارخا ... وفى كل مكان ... وفرض ما سماه البعض آنذاك « السلام الأمريكى » ولكن هذه الفترة لم تطل كثيرا اذ كان العملاق الاخر فى العالم يزداد بروزه . وبدأ هذا العملاق الثانى يمد زراعه البحرى ، الى كل مكان فى العالم ، بالتدريج وبسرعة ... ونحن نعيش اليوم مرحلة العملاقين البحريين .. كما هما عملاقان فى كل مجال آخر .... الفارق بينهما وبين غيرهما كبير .. كبير ، حتى أنه ليشار الى الاخرين ... أيا كانوا .. على انهم الدول الاقل (The Lesser Powers)

ان الدولتين العملاقين .. هى دول عالمية بحق (Clobal Powers) وهى دول ذات مصالح عالمية ، تسندها قدرة على استعمال ما لديها من أدوات متنوعة للقوة فى أى مكان فى العالم ، وفى أكثر من مكان ، فى وقتواحد ... وهنا يمكن أن نرى أهمية وجود الدولةالعملاق البحرى ، الذى تسنده قواتها البحرية ... وقواتها على وجه العموم .

ونحن نعيش فى ظل التوازن النووى .. مرحلة الانفراج (Détente) وهى مرحلة الصراع المحكوم . ذلك ان الدولتين بينهمـــا تناقض لا مجـــال للتوفيق فيه ، ومن ثم فلا مندوحة من استمرار الصراع بينهما ... ولكن بتحفظ أساسى هو الا يؤدى الصراع الى حرب ، تتحول الى حرب نووية بينهما ... ومن هنا ، فأنهما تديران الصراع ، بكل الوسائل المتاحة ... فى اطار يقف بحركته عند حد احتمال ان تؤدى هذه الحركة الى صراع نووى وفى موضوعنا هنا ، نجد أن الدولتين العملاقين اللتين تتعايشان فى عالم اليوم مع صراع وتنافس ... تعملان فى بحار مفتوحة بالكامل لهما ... ان احدا لا يستطيع اغلاقها وان أيهما لا يتصور أن يفكر فى حرمان الاخر من استعمالها ... الأمر الذى يعنى حرمانه من تحقيق مصـــالح حيوية ، ومن ثم يؤدى الى مواجهة نووية لا يحتملها الطرفان .

ان لأمريكا مصالحها الحيوية فى البحر الأحمر كمعبر للتجارة العالمية عموما ومعبر للبترول ، وحلقة هامـــة فى انسياب قواتها البحـــرية على المستوى العالمى وتواجدها حيث تستدعى الأحداث ، داخل هذا البحـــر أو فى أى مكان آخر ... عن طـــريقه لتسند الاصـــدقاء وتردع الأعداء فتستعرض العضلات وتظهر الوجود ، وعلى أى الأحوال لتوازن الوجود السوفيتى بوجود أمريكى .

وان للاتحاد السوفييتى هو الاخر مصالحه الحيوية فى البحر الأحمر كمعبر للتجارة العالمية وجزء هام من طريق حيوى يربط بين أجزاء الاتحاد السوفييتى ، وحلقة هامة فى انسياب قواته البحرية على المستوى العالمى وتواجدها حيث تستدعى الأحداث ، داخل هـــذا البحر أو فى أى مـــكان آخر ... عن طريقه ، لتسند الأصـــدقاء وتردع الأعـــداء ، لتســـتعرض العضلات وتظهر الوجود ، وعلى أى الأحوال لتوازن الوجود الأمريكى — والوجود الغربى عموما — بوجود سوفييتى ..

ان جزءا من عالمية مصالح الدولتين العمـــلاقتين وقوتهمـــا ، هـــو تواجدهما فى كل مكان على ظهر البسيطة .. ومن ثم ، لا يمكن أن ينغلق دونهما أى بحر عام مهما كان صغيرا ، أو ضيقا ، ولا يتصور أحد أن تسمحا

---

(٤) لو كان ما نعيش فيه مرحلة وفاق (Entente) بين الدولتين العملاقتين كما يصور البعض لاختلف الوضع عما هو عليه ،بشكل جذرى ، ولأنطلقت أيدى الدولتين — فى توفيق وتنسيق — فى السيطرة وتقسيم العالم الى مناطق نفوذ بدرجة لا يمكن أن تحدث فى الظروف التى نعيشها .

بذلك .. ومهما أمتنعت القواعد والتسهيلات فسوف تعملان على التواجد مهما كلفهما الأمر ... وقد يكون ذلك صعبا .. ولكنه ليس مستحيلا بأى حال من الأحوال ...

ان التموين فى البحر حقيقة قائمة .. وله أبعاد كبيرة .. ويعوض عدم توفر التسهيلات الأرضية الكافية . ان التقدم فى بناء السفن ، والتطور فى استعمال الوقود لا يحتاج الى وجود قواعد متعددة .. متقاربة .. كما كان الأمر يقتضى فى الماضى .. حتى الماضى القريب .

ثم ان التقدم فى الطيران الاستراتيجى ، والامكانيات الضخمة فى نقل القوات المحمولة جوا ... تشكل عند اللزوم ، سندا هاما للقوات البحرية ، فى قيامها بمهماتها فى أماكن كثيرة فى العالم .

وينبغى علينا أن نذكر بنقطة هامة .. وهى أنه فى هذا العالم ، الذى يزداد فيه التركيز فى الصراع على بلاد العالم الثالث ، تتداخل فيه دوائر الصراع ، فان من غير الصحيح ، ان يتصور البعض ، انه بحرمانه جانبا عملاقا من استعمال تسهيلات كان يستعملها سابقا ، يمكنه أن يحرم هذا الجانب ، من الوجود فى منطقة ما ، والتأثير فيها بفاعلية ... ذلك أن الدولة العملاق الى جانب أنها لن تسمح بذلك ، مهما كلفها الأمر (٥) . فأنها عادة ما تكسب تسهيلات فى أماكن اخرى ، حين تفقد التسهيلات فى بعض الاماكن . ويكفى أن نشير على سبيل المثال الى ان السوفييت، فى الوقت الذى خسروا فيه بعض التسهيلات فى البحر الأحمر وما وراءه ، فى مصر والسودان والصومال فأن التسهيلات التى يتمتعون بها قد زادت فى اليمن الجنوبية واثيوبيا وفى اماكن عدة فى المحيط الهندى ...

ولو تصورنا من الناحية الافتراضية البحتة ، أن القوى المحلية وقفت جميعها معا — وهذا فى الظروف السائدة فى المرحلة التى نعيشها ، افتراض غير واقعى — وان هذه القوى أرادت أن تحول بحرا ما الى « بحيرة » فيما بينهما ، وان تبعد عنه الدول العملاقة ، والصراعات الدولية فيما بينها .. فان ذلك أمنيات لا يمكن ان تتحقق .. ان التواجد فى البحر الأحمر ، كحلقة فى سلسلة طرق الملاحة العالمية ترتبط بما وراءها من المنافذ

---

(٥) يكفى أن نشير ، على سبيل المثال ، الى تحركات القوات البحرية الأمريكية من الفلبين والقوات السوفييتية من فلاديفوستوك ، الى المحيط الهندى فى الأيام الأخيرة ، والى وجود سفن تموين مع هذه القوات .

البحرية ... بل أن التواجد فى البحر الأحمر ذاته ، كواحد من بحار العالم ، وبأهميته الاستراتيجية الكبيرة .. كل ذلك مسائل اساسية ... ولا يمكن أبعاد القوى العالمية عن هذا البحر .. مهما كانت المحاولات .. فضلا عن الأحلام والأمانى ..

بل أن الصراع والتنافس بين الدولتين العملاقتين ... لا يفرض فقط أن يتواجد العملاقان فى البحر الأحمر .. وانما يعطى للاخرين .. درجة أكبر من حرية الحركة فيه ... ولا يمنح أحدا من استعمال هذا البحر ذى الصفة الدولية .. وذى الأهمية الاستراتيجية ..

أن الدول الأقل (The Lesser Powers) الكبيرة .. فضلا عن الأعراف الدولية ... وحرية ذرع البحار .. تتمتع بدرجة أكبر من حرية الحركة عن ذى قبل .. وهى عادة ما تنتمى الى كتلة .. فى الصراع فى مواجهة الأخرى ، ومن مصلحة اصدقائها .. ان تتواجد فتضيف نشاطا وتضيف قوة ... وتضيف مساندة .. ومن المهم ان نضيف هنا ... انه فى عالم التدخل غير المباشر ، الذى نعيشـــه فى هذه المرحلة .... فى عالم التدخل بالوكالة (Intervention by Proxy) فاننا كثيرا ما نجد لهذه الدول نصيبا هاما عند توزيع الادوار (Role Distribution) وفى لعب هذه الأدوار . ان وجود هذه القوى فى البحار ضرورى لها ... وضرورى لغيرها .

ان الدول الصغيرة هى الاخرى .. فضلا عن الأعراف الدولية ... وحرية ذرع البحار ... تتمتع بدرجة أكبر من حرية الحركة عن ذى قبل وبعضها — على الاقل — يلعب دورا بالوكالة فى المنطقة التى يقوم فيها وهو بذلك .. اذا كان لا يربح طرفا ما فى صراع العمالقة والكتل فأن يقدم شيئا ... وقد يكون شيئا كثيرا ... على المستوى الاقليمى .. للطرف العملاق الاخر بمساندة اتجاها سياسيا او جماعة معينة ، او بمحاربته اتجاها سياسيا او جماعة معينة وحرية حركة هذه القوى فى البحار .. ليست فقط مسألة جيوية لمصالحها هى ... وانمـــا هى كـــذلك مسألة ضرورية لحركة الكبار .. وتفاعلهم فى الاطار الدولى الراهن .

وفى عصر تداخل مستويات او دوائر الصراع ... الذى نعيشه فى عالمنا — مع طقس التعايش المتنافس السائد ... فان الدول الأصغر .. فى الاقليم .. فضلا عن الأعراف الدولية .. وحرية ذرع البحار .... تتمتع — فى ظل أصدقائها الاكبر — بدرجة اكبر من حرية الحركة .... لم تكن تحلم بها من قبل ..

ان الضغط والمنح .. والحرمان — فى ظروف الاستقطاب الدولى بما يتسم به من صراع محكوم .. تعايش .. وتنافس فى وقت معا — مسألة غير واقعية ولا يمكن ان يتصور .. الا اذا اتفق عليه العملاقان .. او سكت عنه العملاقان معا وفى وقت واحد .. وهذا شىء لا يسهل تصوره فى ظل الصراع الدولى القائم اليوم .

وهذا ينقلنا الى مايزعمه البعض .. وما يتمناه البعض الاخر ... من أن ينجح العرب — اذا اجتمعت كلمتهم — فى أن يغلقوا البحر الأحمر على اسرائيل . ويهمنا هنا — ان نتناول الأمر بشىء من الموضوعية ...

أ — فحتى لو تصورنا أن تتحد كلمة كل الدول المطلة على البحر الأحمر — فيما عدا اسرائيل — على منع هذه الدولة من استعمال البحر الأحمر ... فأن هذا لا يضمن تحقيق الهدف لأن هناك — بالمصلحة والضرورة والواقع — دولا خارجية يمس هذا التصرف مصالحها ومكانتها ولا تستطيع أن تسكت عليه .. وهى قادرة على شل حركة من يحاولون هذا المنع .. وليس من مصلحة الجانب الآخر .. فى الصراع الدولى المحكوم الذى نعيشه .. ان يساعد على هذا المنع .. بما يحمله من معان وما قد يؤدى اليه تصرفه من مضاعفات .

ب — هذا فضلا عن افتراض أن تتحد كلمة كل الدول المطلة على البحر الأحمر .. فى ظروف الاستقطاب التى يمر بها بلاد العالم الثالث .. افتراض غير واقعى ..

ج — بل ان افتراض أن تتحد كلمة كل الدول العربية المطلة على البحر الأحمر .. فى ظروف الاستقطاب والصراع الاجتماعى التى تمر بها بلاد العالم الثالث .. افتراض غير واقعى ..

د — ولقد اثبتت تجربة حرب اكتوبر ١٩٧٣ مع اسرائيل ، بعد أيام من بدئها ان محاولة اغلاق البحر الأحمر على اسرائيل لا يمكن ان تستمر لأن الكتلة الغربية ... والولايات المتحدة بالأساس ... لا يمكن ان تسمح بهذا ..

هـ — هذا فضلا عن أن لأسرائيل مخرجا آخر على البحار ، عن طريق البحر المتوسط .. ورغم ان هذا المنفذ — وكان هو منفذ اسرائيل الأساسى الى افريقيا الشرقية والى جنوبى وشرقى آسيا — رغم أنه منفذ أطول كثيرا مما لو استعمل البحر الأحمر كمنفذ الى هذه المناطق فان اسرائيل ، قبل عام ١٩٥٦ ، لم تركع على ركبتها فى صراعها ، ولم تشل

حركتها مع المناطق المذكورة ... ولقد اظهرت الأحداث فيما بعد ، ان اغلاق البحر الأحمر على اسرائيل مسألة لا يمكنها .. ولا يمكن لاصدقائها الكبار ان يسلموا بها ويسكتوا عليها .

و ــ وبعد كلّ هذا ... فالكلام فى هذا الموضوع هذه الايام ... بعد ، ومع محاولات الوصول الى تسوية نهائية مع اسرائيل .. وهى تسوية تضمن ــ بنصوص واضحة ــ حرية حركة اسرائيل ... وحرية الحركة منها واليها .. يصبح غير ذى موضوع ..

ويمكن أن ننتهى من كل ما سبق ، الى أن السيطرة المطلقة على البحر الأحمر ــ فى الظروف الدولية السائدة ــ بواسطة قوة من خارجه او عدة قوى داخل هذا البحر .. أمر غير وارد .. وترتبط بهذه الحقيقة الحقيقة التالية .. وهى أن أبعاد أية قوة عن البحر الأحمر ، أو منع أية قوة ، داخلية أو خارجية ، من أن تذرع هذا البحر وتستعمله ، وتمر منه الى ما وراءه .. هذا الابعاد .. امر غير وارد . ومن ثم فان ابعاد البحر الأحمر عن وجود القوى الكبرى ... أمر غير وارد .. ذلك بارز اليوم كما لم يبرز فى أى وقت مضى .. فى ظروف الاستقطاب السائد فى الظروف الراهنة .. ومع ظروف التداخل الشديد بين مستويات أو دوائر الصراع .. محلية كانت .. أو اقليمية .. أو عالمية ..

ان تشابك المصالح وترابطها بين الجوانب المتقاربة ، على المستويات الثلاثة .. من ناحية وتعارضها مع المصالح المتشابكة والمترابطة بين الجوانب المتقاربة ، على المستويات الثلاثة فى الطرف الآخر للصراع .. من ناحية أخرى .

هذا مع امكانية العمل المشترك .. وفاعليته الأكبر .. يجعل من مصلحة الأطراف المتصارعة ، تواجد الاصدقاء .. على المستوى الاقليمى .. وعلى المستوى الدولى الأشمل .. هذا التواجد مسألة بالقطع مفيدة . ومن ثم فهى مسألة تهم هذه الأطراف لدعم المساندة فى المواجهة .

بل ان وجود القوى الصديقة لدولة ما أو عدد من الدول فى بحر ما سواء كانت هذه الدول الصديقة من داخله أو من خارجه ، فضلا عن أن أحدا لا يستطيع أن يمنعه ببساطة فأنه مفيد لهذه الدولة أو هذه الدول ، من حيث أنه يوازن وجود الآخرين .. من غير الأصدقاء ، ومن

حيث أن هذا الوجود ، فى ذاته ، يشكل رادعا لمن تحدثه نفسه من غير الأصدقاء بالتحرك المضاد .

وفى ضوء كل ما سبق فان التحدث عن تحويل البحر الأحمر الى بحر « محايد » أو « بحر سلام » كما يدعو البعض ، لن يتجاوز مجرد الكلام ، ولا يمكن أن يتحقق فى ظروف عالم اليوم . ويكفى أن نشير هنا الى ماحدث بالنسبة لتحويل المحيط الهندى الى « بحر سلام » ، وازالة القواعد العسكرية الموجودة فى أجزائه المختلفة ، وذلك ، رغم قرارات الأمم المتحدة ، ورغم بيانات مجموعة دول عدم الانحياز .. الخ ان أقصى ما قيل قريبا من هذه « الحيدة » على لسان دولة كبرى .. هو أن يتحقق ذلك على أساس المساواة .

ومن ثم .. فكلما كان وجود طرف قائما ومستمرا فان الطرف الآخر سيسعى للتواجد والاستمرار ولن تتوقف هذه العملية لقرار يتخذ هنا أو رغبة تبدى هناك .. بل ان بعض الأطراف المحلية والاقليمية — قد ترى تواجدا ما مفيدا لها ، بعكس تواجد ما فى الجانب الآخر من الصراع — فتغض الطرف عن التواجد الأول ، وتحمل بشدة على التواجد الثانى ، ويغلب أنها حين تتحدث عن ابعاد « القوى الكبرى » والنفوذ الأجنبى ، انما تقصد التواجد الثانى دون التواجد الأول .

يبقى بعد ذلك موضوع هام وهو العمل على تطوير التعاون بين البلاد المطلة على البحر الأحمر ، وهو همزة وصل تجمع فيما بينهما . سواء أكان ذلك بين كل بلاد البحر الأحمر أو بين البلاد العربية المطلة عليه .

ولا يمكن أن يقوم عاقل ضد محاولات تطوير هذا التعاون والتنسيق بين هذه البلاد سواء فيما بين نشاطاتها كدول ، أو فى عملها المشترك على استغلال ثروات البحر الأحمر ذاته .. والعمل فى هذا المجال بأقصى الطاقة والى أقصى مدى ممكن أمر مطلوب(٦) .

---

(٦) على أننا لابد وأن نحتفظ — مرة أخرى — مذكرين ، بأن الظروف الراهنة ، عناصر تعمل أثرها ، وتضع الحدود والقيود ، على انطلاق هذا التعاون والتنسيق .. وان ما يتسم به الوضع الراهن ، من تركيز على بلاد العالم الثالث ، وخاصة المناطق ذات الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية فيها ، ومن تدخل ، ومن تداخل بين مستويات الصراع المتعددة ، لابد أن يعكس على هذه المنطقة ، ويترك آثاره فيها .

وتدخل فى هذا المجال قضية حيوية ، هى قضية الأمن فى كل بلد من بلاد البحــر الأحمر ، قضيةالأمن الجماعى لبلاده العربية ، أو لبلاده جميعا . ولا شك أن العمل المشترك فى هذا المجال أمر مطلوب .. وكما ذكرنا سابقا لأقصى مدى ممكن .

وتدخل فى هذا المجال أيضا قضية حيوية أخرى ، هى قضية تأمين حركة البترول عبر البحــر الأحمر الى الشـــمال والغرب . فنكتفى هنا

بأن نقرر أن هذه مسألة حيوية بالنسبة للكل ، بما فى ذلك الدول الكبرى والعملاقة ، الأمر الذى يجعلها تهتم باستمرار انسياب البترول بحرية ، فى جميع منافذه . هذا فضلا عن وجود طريق بديل ، للطريق الذى يمثل البحر الأحمر حلقة هامة فيه ، وهو طريق رأس الرجاء الصالح .

ونختتم حديثنا بأن البحــر الأحــمر سيبقى — ولأمد غير قصير — مجالا للتعاون ، ومجالا للصراع ، بين دوله عربية أو غير عربية .. مع تداخل بين ذلك الصراع وبين الصراعات العالمية فى المنطقة وعليها .

ولا يمكن أن يهدأ الوضع فيه ، بما يوسع دوائر التعاون ويعمقها ، الا اذا استقرت الأمور على أساس سليم من رضى الشعوب ، فى أجزائه المختلفة ، وفيما بين هذه الأجزاء ، وفيما بين القوى الفاعلة فى الصراع الدولي علي وجه العموم .

الأمن العربي والصراع الاستراتيجي

في منطقة البحر الأحمر

د . علي الدين هلال
مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام

١ ـ تحديد المفاهيم :

تتناول هذه الدراسة البحر الأحمر كأحد مناطق الأمن الوطني المصري والأمن القومي العربي ، وربما يحسن البدء بتعريف لمفهوم الأمن القومي National Security ومنطقة الأمن Security zone

أما الأمن القومي فيقصد به « تأمين كيان الدولة ـ أو مجموعة من الدول ـ من الأخطار التي تهددها داخليا وخارجيا ، وتأمين مصالحها ، وتهيئة الظروف المناسبة لتحقيق أهدافها وغاياتها القومية(١) . ومن ثم فان هذا المفهوم يدور حول ثلاثة محاور رئيسية :

---

١ ـ قليلة هي الدراسات التي عالجت مفهوم الامن القومي من الناحية النظرية باللغة العربية انظر : د . حامد ربيع : نظرية السياسة الخارجية (القاهرة : د . ت) ، روبرت ماكنمارا : جوهر الامن ترجمة يونس شاهين (القاهرة ، ١٩٧٠) .

أنظر باللغة الانجليزية .

A. Wolfers, National Security as an Ambiguous Symbol, in D. S. Mclellan et al, The Theory and Practice of International Relations (New Jersey, 1960) : Berkowitz, the Emerging Field of National Security, World Politics (1966) : D. Sohulman, What Does Security Mean Today, Foreign Affairs (1971) and W. W. Whitson, ed., Foreign Policy and US National Security (New York, 1976).

— تأمين كيان الدولة ، أو مجموعة الدول ، الذى يتمثل فى المقام الأول فى وحدة اراضيها وحماية اقليمها .

— ان هـذا التـأمين يكون فى مواجهة كافة الأخطـار الداخلية والخارجية ، القائمة والمحتملة .

تحقيق الأهداف العـامة للمجتمع التى تتمثل عادة فى الاسـتقرار السياسى والاجتماعى والتنمية الشاملة مع اختلاف الأساليب التى يمكن أن تتحقق بها هذه الأهداف .

القضية التى تثيرها دراسات الأمن القومى هى تحديد الظـروف السياسية والاقتصادية والاجتمـاعية والعسـكرية التى يتحققفى ظلها استقرار المجتمع ورفاهيته ووحدته الاقليمية ، وكذلك تحديد الظـروف أو المواقف التى تمثل خطـرا على هـذا الأمن ، وتتطلب سرعة الحركة لمواجهتها أو العمل أصلا للحيلولة دون قيامها . الأمن القومى اذن ليس مجرد قضية عسكرية وحسب ولكنه مسألة متعددة العـوامل والأبعـاد تختلط فيها السياسة بالاقتصـاد ، الجغـرافيا بالعسـكرية ، والوضع الاجتماعى بقوة الدولة ، والنظام السياسى بالاستراتيجية .

ويثير تساؤل عما اذا كان هنا كمفهوم للامن العـربى أم ربما كان الأصح الحديث عن الأمن المصرى وحسب(٢) . والحقيقة أن كلا المفهومين يمثلان مستويين مختلفين للتحليل ، فهناك بالتأكيد مقومات لمفهوم مصرى للامن يرتبط بمصر كموقع جغرافى وبشرى وتاريخى واقتصادى يمكن تتبعه عبر العصور ، وهناك أيضا فهوم عربى للامن يدخل فى اعتباره العلاقات القائمة بين شعوب الأمة العربية وطبيعة انتمائها وتطلعـاتها وأهدافها وأنماط التفاعلات بينها . الأمن المصرى والأمن العربى اذن لا يجب أحدهما الآخر بل يكمله ويتممه ، فصحيح أن هناك « أمنا مصريا » ولكن هذا الأمن

---

٢ — حول مفهومى الامن العربى والامن المصرى انظر امين هويدى : الامن العربى فى مواجهة الامن الاسرائيلى (بيروت ، ١٩٧٥) واللـواء عدلى حسن سعيد : الامن القـومى واسـتراتيجية تحقيقـه (القاهرة ١٩٧٧) .

هو جزء من كل وهو « الأمن العربى » ومن هنا التمييز فى الاصطلاح بين الأمن الوطنى المصرى والأمن القومى العربى .

فى هذا الاطار يقصد بمناطق الأمن لدولة أو لمجموعة من الدول تلك المناطق التى يمكن أن تؤثر مباشرة على سلامتها واستقرارها من خلال ارتباطها الوثيق بمصالحها وسياستها الإستراتيجية . ويمكن أن تتحدد منطقة الأمن وفقا لثلاثة معايير :

(أ) المعيار الجغرافى : ويثار فى هذا الصدد ما يتضمنه عنصر الجوار من صلات طبيعية وبشرية وما يوجده من تفاعلات ومصالح اقتصادية وأمنية تنعكس على الأطراف المتجاورة ايجابا أو سلبا .

(ب) المعيار السياسى أو الايدولوجى : الذى يتعلق بالعقيدة السياسية للدولة وما تتصدى له من أهداف ونوع الأفكار ملسائدة فيها بما توجده من ارتباطات وانتماءات .

(جـ) معيار قوة الدولة : فهناك علاقة ايجابية بين قوة الدولة ونطاق أمنها ، فكلما ازدادت قوة الدولة وتنوعت مصالحها وتعددت ارتباطاتها نطاق أمنها .

وكما هو واضح فان هذه المعايير ليست على نفس الدرجة من الثبات والاستمرار ، فبينما يميل الاول — نسبيا — الى الاستقرار ، فان الثانى اكثر عرضة للتغيير نتيجة تغير شكل نظام الحكم أو القيادة السياسية أو الظروف الداخلية .

٢ — البحر الأحمر كمنطقة أمن :

البعد التاريخى والطرح المعاصر :

اى نظرة لخريطة المنطقة العربية لابد ان تتوقف أمام البحر الأحمر كأحد مناطق الأمن الرئيسية من زاوية الامن المصرىاو العربى . هذه المنطقة التى يحدها شمالا خليج السويس والشاطىء الغربى لخليج العقبة بينما يقع الشاطىء الشرقى للخليج ضمن حدود المملكة العربية السعودية وفي اقصى شمال الخليج يوجد ميناء العقبة الذى يعد المنفذ الوحيد للاردن

على البحر الأحمر والى الغرب منه يقع ميناء ايلات فى اسرائيل ، أما الحد الجنوبى للبحر فتطل عليه دولتا اليمن (الشمالية والجنوبية) والصومال وجيبوتى واثيوبيا . من هذا العرض أن اغلب هذه الشواطىء تقع ضمن حدود دول عربية ، فالدول الواقعة على الساحل الشرقى بأكمله دول عربية (الأردن والسعودية ودولتا اليمن) وان حوالى ٢٠٠٠ ميل من الساحل الغربى يقع فى مصر والسودان وجيبوتى والصومال بينما تشغل السواحل الأرترية التابعة لاثيوبيا حوالى ٤٠٠ ميل من هذا الساحل (٣).

ان أهمية البحر الاحمر يمكن أن تثار من جانبين : الاول هو الجانب العسكرى الأمنى . فالبحر الاحمر هو مدخل البلاد العربية الى افريقيا وآسيا ، وهو المنفذ البحرى الوحيد لكل من السودان والاردن والصومال (واثيوبيا) ، وهو طريق نقل البترول من منطقة الخليج الى البلاد المستهلكة ، وهو يمكن أن يكون — بالتعبير العسكرى — « جبهة تعرض » لمصر العليا ومنابع النيل ، وهو علاوة على ذلك وبسببه أحد بؤر الصراع الاستراتيجى العالمى . فأمن البحر الاحمر يرتبط بأمن المحيط الهندى من ناحية ، وبأمن الخليج العربى من ناحية ثانية ، وبأمن البحر الابيض المتوسط من ناحية ثالثة ، وهو همزة وصل بين الأساطيل البحرية فى البحر المتوسط والمحيط الهندى بالاضافة الى وجود عدد من القواعد والتسهيلات العسكرية لدول أجنبية فيه . اما الجانب الثانى فهو اقتصادى، فحركة الملاحة فى البحر الاحمر تمثل المصدر الأساسى للدخل فى اليمن الجنوبية ومصدرا هاما للدخل فى الصومال وجيبوتى كما تتردد احتمالات وجود ثروات بترولية فى قاعة ، هذا الى جانب أهميته كطريق للنقل البحرى وبالذات البترول وارتباطه بحركة الملاحة فى قناة السويس . ومن هنا فان أمن البحر الاحمر ينبغى أن يكون أحد قضايا ومشاغل الفكر الاستراتيجى العربى الرئيسية .

---

٣ — انظر بصفة عامة الملف الخاص عن البحر الاحمر فى السياسة الدولية ، عدد ٥٤ (اكتوبر ١٩٧٨) ص ٦٦ — ١٠٧ وكذا

The Middle East, No. 30 (April 1977). pp. 17 - 26 and J. Campbell, The Red Sea and Suez in A. J. Cottrell and R. M. Burrell, eds., The Idian Ocean its Politics, Economics and Military Importance (New York, 1972), pp. 129 - 151.

ولا تقتصر أهمية البحر الأحمر على الفترة المعاصرة بل تظهر جليا فى التاريخ القديم فى شكل العلاقات التجارية بين مصر وبلاد بونت (الصومال) للحصول على البخور ، والعطور ، والاخشاب ، وفى العصور الوسطى لعب البحر الاحمر دوره كطريق للملاحة والتجارة والمواصلات جنت من ورائه مصر الكثير . ولكن القوة البرتغالية الصاعدة دخلت مع مصر فى صراع انتهى فى بداية القرن السادس عشر (١٥٠٩) بهزيمة الاسطول المصرى فى عهد الغورى .

واذا كان اكتشاف رأس الرجاء الصالح قد قلل لمدة من أهمية البحر الأحمر ، فقد جاء افتتاح قناة السويس (١٨٦٩) ليعيد له هذه الأهمية كممر للتجارة وارتبط ذلك ببدء التنافس الاستعمارى للسيطرة على المراكز الاستراتيجية فيه فاستولت انجلترا على عدن (١٨٣٩) وفرنسا على ميناء اوبوك (١٨٦٢) وايطاليا على عصب بعد ذلك .

ويقدم د. شوقى عطا الله الجمل فى دراسته عن سياسة مصر فى البحر الاحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر عرضا يوضح فيه كيف تأثرت مصر كثيرا بموقعها على البحر الاحمر ، وان السياسة المصرية وقتذاك عبرت عن تصور متكامل وهدفت الى ضمان الامن المصرى من خلال الوجود والسيطرة فى البحر الاحمر وردع القوى الاوربية المتطلعة الى ذلك . فمن الناحية العسكرية كان الأسطول البحرى المصرى يجوب البحر فارضا وجوده فى مواجهة أساطيل البلاد الاوربية الطامعة فيه ، ومن الناحية السياسية بدأت مصر بأن طلبت من السلطنة العثمانية خضوع ميناءى سواكن ومصوع للادارة المصرية (١٨٦٥) ، ثم انشأت محافظة سواحل البحر الاحمر ، ثم ضمت زيلع الى الادارة المصرية ، ومنها خرجت حملة مصرية لفتح سلطنة هرر (١٨٧٥) ولم يأت عام ١٨٧٧ الا وكانت مصر تسيطر على ساحل البحر الاحمر الغربى كله وعلى ساحل عدن (٤) .

---

٤ — د . شوقى عطا الله الجمل : سياسة مصر فى البحر الاحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (القاهرة ، ١٩٧٤) وكذلك الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر ١٨٦٣ — ١٨٧٩ (القاهرة : د . ت) .

رغم ذلك فان امن البحر الاحمر لم يطرح بشكل ملح على المستوى السياسى العملى العربى الا فى عام ١٩٧٧ عندما تضافرت مجموعة من العوامل التى تراكمت عبر عدة سنين وادت فى النهاية الى طرح القضية. وتتمثل هذه العوامل فى اعلان مصر اغلاق باب المندب خلال حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، وتصاعد الثورة فى أرتريا ، وانفجار الموقف فى القرن الأفريقى بين أثيوبيا والصومال بخصوص اوجادين ، وتدهور العلاقات بين اثيوبيا والسودان ، وقيام طائرات مجهولة الجنسية — رجح انها اسرائيلية — بالاستطلاع فوق باب المندب واليمن الشمالية فى ديسمبر ١٩٧٦ .

فى هذا السياق التاريخى تتابعت الأحداث سراعا خلال عام ١٩٧٧ ففى شهر يناير اثارت اليمن الشمالية ضرورة الوصول الى صيغة جماعية للامن فى منطقة البحر الاحمر ضمن نطاق معاهدة الدفاع العربى ، وأثير فى هذا الصدد ان عددا من الخبراء العسكريين من مصر والسعودية قد وصل الى باب المندب للقيام بدراسات ميدانية حول كيفية توفير الحماية والأمن للمنطقة (٥) .

وفى ٢٧ — ٢٨ فبراير انعقد مؤتمر القمة الثلاثى بين مصر وسوريا والسودان فى الخرطوم وكان احد موضوعاته الرئيسية هو أمن البحر الاحمر ورغم ان احد العبارات التى ترددت هو شعار « ان البحر الاحمر هو بحر عربى » فان البيان الرسمى للمؤتمر اكتفى بالاشارة الى الحاجة الى توفير السلم والامن فى منطقة البحر الاحمر وان تكون منطقة سلام لصالح الشعوب وفى منأى عن الصراعات الدولية . وجدير بالذكر ان اثيوبيا هاجمت بعنف هذه التحركات العربية واعتبرت أى اشارة الى البحر الاحمر « كبحر عربى » بمثابة تعبير عن نوايا استعمارية ونزعات رومانسية قومية عربية باعتبار أنها تتجاهل وجود دول غير عربية فى منطقة البحر الاحمر .

وشهد شهر فبراير ومارس عددا من التحركات الأخرى مثل زيارة الشيخ زايد بن نهيان رئيس دولة الامارات العربية المتحدة لليمن الجنوبية، وجولة الرئيس جعفر نميرى فى سلطنة عمان والصومال ودولتى اليمن ،

---

٥ — القبس الكويتية فى ١١ و ١٢ يناير ١٩٧٧ .

ودعا البيان السوداني — الصومالى المشترك الى ضرورة وصول الدول المطلة على البحر الى استراتيجية مجددة لابعاد هذه المنطقة عن الصراع الدولى والاطماع الصهيونية ، كما دعا الرئيس نميرى الى مؤتمر موسع للدول المطلة على البحر ، وفى نفس الفترة زار فيدل كاسترو اليمن الجنوبى واخيرا عقد مؤتمر تعز فى مارس بحضور رؤساء السودان والصومال ودولتى اليمن الذى اكد بيانه على ضرورة ان تظل منطقة البحر الاحمر منطقة سلام .

وفى أبريل سافر وزير الدفاع الصومالى الى السعودية والكويت لمباحثات تتعلق بالبحر الأحمر ، وسافر مبعوث خاص للرئيس نميرى الى دول الخليج لعرض نتائج مؤتمر تعز وبرز فى هذا الاطار دور السودان الذى صرح وزير خارجيته فى ٢٤ فبراير الى صحيفة الأيام السودانية أن مسألة أمن البحر الأحمر هى الشغل الشاغل والرئيسى للسودان .

وبينما ذكرت نفس الصحيفة أن موقفا مصريا سودانيا موحدا قد اتخذ لمواجهة أى تدخل يمس أمن المنطقة فقد أعلنت اثيوبيا أن المناورات التى تقوم بها البحرية المصرية فى البحر الأحمر موجهة فى الأساس ضدها كما هاجم الاتحاد السوفييتى بعنف التحركات المصرية السعودية واتهم هذه الجهود بأنها تسعى الى تشكيل حلف عسكرى سياسى لخدمة المصالح الأمريكية فى المنطقة وضد أثيوبيا .

وفى مايو قام السلطان قابوس حاكم عمان بزيارة مصر ، وأعلنت فرنسا عن قرارها باعطاء اقليم عفار وعيسى الاستقلال فى ٢٧ يونيو مع الاحتفاظ بعلاقات عسكرية واقتصادية بين البلدين ، وكررت السودان دعوتها لعقد مؤتمر موسع لبحث قضية أمن البحر الأحمر وهو ما أيده رئيس دولة الامارات العربية المتحدة .

وفى يوليو قام نائب رئيس الصومال بزيارة دولة الامارات ، واقترحت جامعة الدول العربية انشاء قوة ردع تشرف على أمن البحر الأحمر بعد تردد أنباء وجود عسكرى اسرائيلى فى بعض الجزائر القريبة

من ساحل أرتريا بموافقة اثيوبيا ، وأدرج هذا الموضوع فى جدول أعمال وزراء الخارجية العرب فى سبتمبر(٦) .

هذا النشاط المكثف بخصوص أمن البحر الأحمر لا يمكن فصله عن التحولات فى توازن القوى وأنماط التحالفات الدولية التى حدثت فى هذه الفترة واشتعال الحرب فى القرن الافريقى فقد كانت هناك محاولات — لم تنجح فى النهاية — لاحتواء اليمن الجنوبى وربطه بهذه التحركات ، والصومال الذى كان قد ارتبط ارتباطا وثيقا بالاتحاد السوفييتى قام بالغاء معاهدة التعاون والصداقة بين البلدين وبطرد الخبراء والمستشارين السوفييت وبقطع العلاقات مع كوبا ، وبالعكس فان اثيوبيا شهدت تحولا راديكاليا ثوريا بالانقلاب الذى قام به منجستو ماريان والذى أدى الى تقليص العلاقة مع الولايات المتحدة والى مزيد من الارتباط بالاتحاد السوفييتى الذى وصل الى درجة الاسهام العسكرى المباشر — ومن خلال كوبا — فى الصراع المسلح فى منطقة أوجادين(٧) .

وكما هى العادة فى السلوك السياسى العربى فكما ظهر موضوع أمن البحر الأحمر بعنف وبالحاح على سطح الحياة السياسية العربية مع بدايات عام ١٩٧٧ حتى بدا وكأنه الاهتمام الرئيسى لعديد من البلدان العربية فقد انزوى مع نهاية العام مع ظهور قضايا واهتمامات جديدة لعل أبرزها زيارة الرئيس أنور السادات الى القدس وما تلاها من تطورات وما أحدثته من آثار .

٣ — الصراع الاستراتيجى فى البحر الأحمر :

ينبغى التمييز بادىء ذى بدء بين الوجود العسكرى لقوى أجنبية فى المنطقة كالاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة وفرنسا ، ودور

---

٦ — فى هذه التطورات انظر النشرة الاعلامية الاسبوعية التى تصدرها هيئة الخبراء بوزارة الاعلام خلال الفترة يناير — يوليو ١٩٧٧ .

٧ — فى تفاصيل الصراع فى القرن الافريقى ومواقف الدول الكبرى تجاهه ، انظر ملف السياسة الدولية عدد ٥٤ (اكتوبر ١٩٧٨) ص ٨ — ٦٥ .

وسياسات بعض الدول الاقليمية من تلك التى تطل على البحر مع التأكيد على وجود ترابط بين المستويين كما سوف يتضح من العرض .

(أ) القـوى الأجنبية :

تتمثل أهمية البحر الأحمر فى موقعه كمعبر الى المحيط الهندى من ناحية ولأهمية المنطقة التى يمر فيها من ناحية أخرى . فالبحر الأحـمر هو مدخل المحيط الهندى الذى يدور فيه التنافس الدولى بين القوى الكبرى على أشده(٨) وبالذات بعد بروز القـوة البحرية مرة أخرى كأحد عناصر التوازن العسكرى الرئيسية بعد أن كانت الصـواريخ العابرة للقـارات والطـائرات قد قللت من أهميتها فى الفترة التى تلت الحرب العـالمية الثانية ، وبعد بروز القوة البحـرية السـوفيتية حتى أن بعض المحللين الاستراتيجين الغربيين يرون أن تطور البحـرية السـوفيتية — وبالذات نتيجة لأزمة كوبا فى ١٩٦٢ — هى أهم تطورات الاستراتيجية العسكرية فى العالم فى الستينات .

فى مارس ١٩٦٨ دخلت قطع الأسطول السوفييتى لأول مرة بشكل مكثف المحـيط الهندى وكان ذلك حدثا له مغزاه شـبهه بعض المعلقين الغربيين بصفقة الأسلحة السوفيتية لمصر عام ١٩٥٥ نظرا لأهمية الممرات البحرية عموما فى الاستراتيجية السوفيتية ولأن هذا الوجود مهد الطريق لمحاولات السوفييت للتمركز عند مدخل البحر الأحمر ففى يوليو ١٩٧٤ وقعت معاهدة الصداقة والتعاون مع الصومال التى حصلت بموجبها على تسهيلات بحرية ، ثم حصلت على تسهيلات أخرى فى ميناء عدن ، وتدعم هذا الوجـود البحـرى فى أعوام ١٩٧٥ — ١٩٧٨ بالوجـود العسكرى والسياسى الكوبى والسـوفييتى فى بعض البلدان الافريقية مثل انجـولا

---

٨ — حول الصراع الدولى فى المحيط الهندى انظر

R. Burt, Strategic Politics and the Indean Ocean, Pacific Affairs, vol. 47 (1974 - 1975), pp. 509 - 514; A. Ghebhart, Soviet and US Interests in the Indean Ocean, Asian Survey, (1975), pp. 672 - 683 and World Armaments and Disarmament Book, Sipri Yearbook (London, 1977).

وموزمبيق وغينيا بيســاو واثيوبيا وكذا فى اليمن الجـنوبى والذى يمكن اعتباره بمثابة « التعويض » أو « الرد » السوفييتى على انتكاســة نفوذه فى المنطقة الغربية .

وهكذا فقد وطد الاتحــاد الســوفييتى أركان وجـوده فى الجـزء الاستراتيجى الجنوبى للبحر الأحمر بعد أن أوجد ركيزة له أولا فى الصومال وبعد خروجه منها فى اثيوبيا .

هذا بالاضافة الى تأثيره المتزايد على اليمن الجنوبى وبالذات بعد الأحداث السياسية التى أطاحت أولا بالرئيس قحطان الشعبى ثم بالرئيس سالم ربيع . فضلا عن وجود قوات كوبية ومستشارين عسكريين سوفييت فى اثيوبيا واليمن الجنوتى والانتصـــارات التى حققتها فى صراع القــرن الأفريقى وانسحاب الصومال من منطقة أوجادين .

أما الوجود الغربى فى المنطقة فيتمثل أولا فى الوجود الأمريكى الذى تعرض لقدر من التقلص نتيجـــة اتجاه اثيوبيا ولجوئها الى المســاعدة السوفيتية وعدم تجديدها للاتفاقية العسكرية التى انتهت فى يناير ١٩٧٨ وبمقتضاها كان للولايات المتحـــدة قاعدتان فى أسمرة ومصوع . ويتركز الوجود العسكرى الأمريكى فى عدد من القواعد الموجودة فى المحيط الهندى مثل ديجو جارسيا وموريشيوس ومالديف .ويدعم النفوذ الأمريكى الأدوار التى تقوم بها عدة دول أخرى مثل فرنسا واسرائيل وعدد من الدول العربية المطلة على البحر .

أما فرنسا فقد ظلت تسيطر على عفار وعيسى بشـــكل مباشر حتى منتصف عام ١٩٧٧ عندما أعلن استقلال جمهورية جيبوتى ولكن لأهميتها الاستراتيجية من ناحية وللخـــلافات الكامنة بينهـــا وبين كل من أثيوبيا والصومال فقد استمر الوجود العسكرى الفرنسى فيها بعد الاستقلال .

(ب) القوى الاقليمية :

نستخدم تعبير القوى الاقليمية فى هذا الصدد للاشارة الى الدول التى تقع جغرافيا فى المنطقة ولعل أبرز البـــلاد التى تســـعى الى فرض وجودها فى البحـــر الأحمر بشكل واضح هى اسرائيل وبالذات بعد عام

١٩٧٣ وان كانت السياسة الاسرائيلية لها جذورها وابعادها التى تمتد الى ما هو أبعـــد من ذلك بكثير . لقد كتب موشى ديان فى مؤلفه بعنوان « مذكرات حملة سيناء »(٩) ان واحدة من أهم قضايا الصراع بين مصر واسارئيل هى حرية الملاحة الاسرائيلية فى البحــر الأحمر وكان يقصــد بذلك كما وكح هو حرية استخدام كل من مكيق تيران وقناة السويس . وتتابعت عدة أحداث لتبرز الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر من المنظور الاسرائيلى(١٠) .

* حادثة قيام لنش بحرى مسلح فى باب المندب تابع لاحدى منظمات المقاومة الفلسطينية بعملية قصف لسفينة تجارية اسرائيلة تدعى كورال ـــ سى كانت ترفع العلم الليبيري . ووقتها أسرع حاييم بارليف رئيس الأركان بزيارة اثيوبيا وتعركت الصحف الاسرائيلية للخطـــورة التى يمثلها باب المندب بالنسبة لاسرائيل .

* محاولة اسرائيل الوجـــود العســـكرى المباشر فى بعض الجزر المتحكمة فى مدخل البحر الجنوبى وتردد فى هذا المجال وجود اسرائيل فى ١٢ جزيرة منها حنش الكبرى والصغرى على بعد ١٣٦ كيلومترا من باب المندب ، وجزيرة زكر (أو زكور) على بعد ٣٢ كيلومترا من الشـــاطىء اليمنى ، وجزيرة أبو عيل شمالى زكر بحوالى ٥ كيلومترات .

كما تردد أن الطيران الاسرائيلى يقوم بطلعات جوية منتظمة لمراقبة الأنشطة المختلفة التى تتم فى المنطقـــة ومكنهـــا من ذلك امتلاك طائرات فانتوم ـــ ١٥ وهو ما أشار اليه اليمن الشمالى فى ٢٦ نوفمبر ١٩٧٦ من

---

9 — M. Dayan, Diary of Sinai Campainn (London, 1967), p. 17.

١٠ ـــ الدراسات عن اسرائيل والبحر الاحمر متعددة ، انظر على سبيل المثال :

M. Abir, Oil, Power and Politics : Conflict in Arabia, The Red Sea and the Gulf (London, 1971) and Red Sea Politics, Adelphi Papers No. 93 (London, 1972) and R. Reppa, Israel and Iran : Bilateral Relations and effect on the Indean Ocean (New York, 1974).

قيام طائرتين معاديتين بالاستطلاع فى باب المندب فى يومى ١٨ و ٢٥ نوفمبر على التوالى .

* وجاء تحرب اكتوبر ١٩٧٣ واعلان مصر اغلاق با بالمندب أمام السفن الاسرائيلية لتبرز بشكل اوضح من أى وقت مضى الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر فى الصراع مع اسرائيل .

ان الأهداف الاسرائيلية فى البحر الأحمر متعددة منها ضمان الملاحة التجارية لميناء ايلات ، وتوسع التجارة مع الدول الافريقية والآسيوية وبالذات شرق وجنوب أفريقيا واستراليا ، وتوفير احتياجاتها من البترول الخام .

ويثار فى هذا الصدد العلاقات الاسرائيلية الأثيوبية والتى تحتل موقعا خاصا فى سلم الأولويات الاسرائيلية حيث اعتبرت أثيوبيا رأس جسر لاسرائيل فى أفريقيا وموطىء قدم لتثبيت وضع عسكرى استراتيجى فى مدخل البحر الأحمر ، ودعم من هذا الوضع — تاريخيا — عدة اعتبارات :

* ان كلا من أثيوبيا واسرائيل يمثلان نوعا من « الهامش الاقليمى » فى المنطقة على جدود الدول العربية .

* ازدهار العلاقات الاقتصادية والعسكرية فى عهد الامبراطور هيلاسلاسى والتى تمثلت فى عديد من الشركات الاسرائيلية والمختلطة والتدريب وتزويد الخبرة الفنية .

* وجود جالية يهودية فى أثيوبيا « الفلاشا » وهى من أقدم الجاليات اليهودية فى العالم وتعمل اسرائيل على مساعدتهم اقتصاديا ورفع مستواهم الاجتماعى .

* استغلت اسرائيل دعم الدول العربية وتأييدها لاستقلال ارتريا لكسب ود اثيوبيا .

وان كان من الجدير بالذكر الاشارة الى عدم اتضاح صورة العلاقات الأثيوبية — الاسرائيلية الراهنة بعد قيام الحكم العسكرى الراديكالى ووجهته السوفيتية فبينما تنكر المصادر الأثيوبية أى علاقة اسرائيل ، وتتخذ منها موقفا عدائيا ، أشار بعض المسئولين الاسرائيليين الى استمرار التعاون

العسكرى الذى يتمثل فى تزويد اثيوبيا ببعض الأسلحة الخفيفة والمعدات اللازمة لحرب العصابات ضد الثورة الأرترية .

وأخيرا تنبغى الاشارة الى دور المملكة العربية السعودية التى تولى اهتماما كبيرا بمنطقة البحر الأحمر — فهى الدولة الوحيدة التى يمتد اقليمها من الخليج العربى الى البحر الأحمر — وتؤكد ضرورة التنسيق بين الدول المطلة على البحر منذ عام ١٩٧٢ . ويدعم من دور السعودية ازدياد وزنها المالى ، وغياب اية أدوار عربية أخرى مؤثرة ، وتشجيع الولايات المتحدة لها باعتبارها أكثر القوى المعبرة عن مصالح لا تتعارض مع مصالحها فى ظل نمو التيارات اليسارية فى القرن الافريقى . وتسعى السعودية الى القيام بدور رئيسى فى تأمين البحر والملاحة فيه وتستعمل فى ذلك صلاتها الوطيدة بكل من مصر والسودان والصومال واليمن الشمالى وهو ما دفعها الى الدعوة الى عقد مؤتمر قمة للدول العربية السبع المطلة على البحر .

ولا تكتمل صورة الصراع الاستراتيجى فى منطقة البحر الأحمر بدون عرض سريع وملخص لقضايا الصراع الاقليمى التى تدور بين بعض دول المنطقة والتى توفر البيئة الموضوعية لتدخل القوى الخارجية وهى :

* الثورة الارترية وتتمثل قيمة اقليم ارتريا من الناحية الاستراتيجية فى أن سواحله تمتد فى مواجهة سواحل دولتى اليمن امتدادا لسواحل مصر والسودان والصومال الى جنوب البحر الأحمر وهى بحكم تبعيتها لاثيوبيا تعتبر الساحل الوحيد غير العربى فى جنوب البحر كما تعتبر المنفذ الوحيد لاثيوبيا على البحر .

* الصراع الصومالى الاثيوبى فى القرن الافريقى الذى يدور حول مناطق الحدود ويثير مشكلة مدى تمثيل الحدود السياسية التى ورثتها الدول الافريقية بعد الاستقلال للواقع الاجتماعى والبشرى القائم وكذا للحدود التاريخية فى أفريقيا . وتبدو خطورة هذا الصراع فيما أدى اليه من صدام مسلح عام ١٩٧٧ بما ترتب عليه من تدخلات اقليمية ودولية . فقد أدى الصراع الى تدخل قوات كوبية ومستشارين سوفييت الى جانب اثيوبيا ، كما أدى الى قيام عدد من دول المنطقة بتأييد الصومال (ايران ،

والسعودية ، ومصر) أو أثيوبيا (اليمن الجنوبى) فأضاف بعدا جديدا للاستقطاب الناشىء فى المنطقة .

* الخلافات الكامنة حول الحدود فى المنطقة مثل مطالب الصومال الاقليمية ازاء كل من كينيا وجيبوتي . كما ان جيبوتى تمثل أهمية خاصة بالنسبة لاثيوبيا . فنتيجة للثورة الارترية وسيطرة الثوار على عدد من موانيها فان جزءا كبيرا من التجارة الاثيوبية يتم من خلال جيبوتي .

٤ — أمن البحر الأحمر : المخاطر والتحديات

لقد ادى الصراع الدولى الذى يستخدم فى أغلب الأحيان أدوات اقليمية والوجود العسكرى لعدد من الدول فى البحر الاحمر والمصالح المختلفة التى تسعى الدول الخارجية والاقليمية الى تحقيقها الى بروزعدة اتجاهات سياسية :

— اتجاه المملكة العربية السعودية الى القيام بدور فعال فى المنطقة يتفق مع تطلعاتها العامة للعب دور أكبر فى المنطقة يتناسب مع ثرواتها المتزايدة ، وينبع من واقع الحرص على تأمين وانتاج ونقل بترولها وذلك بالدعوة الى تحييد المنطقة ووضع نظام لأمن البحر الأحمر على أساس جعله بحيرة عربية ، وتشجيعها السودان واليمن الشمالى والصومال للتحرك فى هذا الطريق وتأييدها حركة تحرير ارتريا . وبصفة عامة فان هذا الاتجاه يهدف الى مواجهة النفوذ السوفييتى النامى فى شرق افريقيا .

— اتجاه اسرائيل لتثبيت مبدأ حرية الملاحة فى البحر الأحمر وضمان عدم اغلاق مضيق باب المندب فى وجه تجارتها وذلك من خلال العمل على افشال اى محاولة لتقريب وجهات النظر بين دوله للوصول الى صيغة بشأنه واعتبار ذلك جزءا من اى تسوية للصراع العربى الاسرائيلى .

— اتجاه اثيوبيا — بوحى من مصالحها وبتشجيع من الاتحاد السوفييتى — لأية ترتيبات جماعية عربية فى البحر الاحمر ، وعدم تحمس اليمن الجنوبى لذلك مع التأكيد على ضرورة اشراك كافة الدول المطلة على البحر الاحمر فى أية ترتيبات بما يعنى مساهمة أثيوبيا . وجدير بالذكر أن

اثيوبيا ترفض بالذات الوصف الذائع للبحر الأحمر بأنه بحيرة عربية ففى تعليق وزارة الخارجية الاثيوبية على مؤتمر الخرطوم فى فبراير ١٩٧٧ ورد أن تصريحات الرؤساء الثلاثة عن أمن البحر الاحمر تنزع الى السيطرة والتدخل وان وصف البحر الاحمر بأنه بحيرة عربية يثير القلق والدهشة لأن اثيوبيا تمارس سيادتها على جزء كبير من سواحله وان « من إنتدبوا انفسهم لاتخاذ قرارات بشأن امور تمس سيادة اثيوبيا البحرية على الجزائر التى تخصها فى البحر الاحمر فانهم يتدخلون فى الشئون الداخلية لدولة أخرى . »

أن هدف تحييد البحر الاحمر او اعلانه منطقة سلام هو مسألة لا تتوقف على ارادة الاطراف المحلية بقدر ماترتبط باستراتيجيات القوى الكبرى والتى رغم اهدافها ومصالحها فانها تتفق على الرغبة فى الاستمرار فى الوجود العسكرى فى المنطقة . وهكذا فان التحييد يدخل فى باب النوايا الطيبة اكثر من اعتبار احد البدائل السياسية المتاحة ، كما أن الحديث عن عروبة البحر الاحمر او اعتباره بحيرة عربية قد يكون تعبيرا عن آمال او تطلعات ولكن نعوزه الفرص والامكانات . ان السؤال الحقيقى الذى يجب ان يطرح هو كيف يمكن للدول العربية المطلة على البحر الاحمر تحقيق أقصى درجة من الأمن القومى لها على ضوء معطيات الصراع الدولى فى المنطقة .

هل يمكن مثلا أن يتحقق نوع من التنسيق العسكرى فيما بينها لتحقيق أهداف معينة ؟

هل يمكن اقامة قوات بحرية عربية مشتركة او قيادة بحرية مشتركة فى البحر الاحمر ؟

هل يمكن ان يزداد الوجود العسكرى العربى فى البحر بشكل مؤثر وفعال ، وان تطور الدول العربية اسلحتها البحرية ؟

هل تنجح البلاد العربية فى اخراج المنطقة بقدر الامكان من دائرة الصراع بين الدولتين الأعظم ؟

ان تحقيق اى من هذه الاهـداف او بعضـنها يتطلب الاتفاق حول حد أدنى من مفهوم الامن العربى فى البحر الاحمر وتحديد الاسـاليب التى يمكن اتباعها لحمايته .

ولعل احد المسائل الهامة التى يمكن أن تثار فى هـذا الصـدد هو الصدد هو تكريس الوجود البشرى والاجتماعى والحضارى فى الجـزائر العربية الموجودة فى البحر الاحمر . فبعض هذه الجـزائر غير مأهـول بالسكان ، وسكانها يعيشون فى مسـتويات بدائية ومتدنية من النواحى الاجتماعية والاقتصادية .

نحن نعرف ان السيادة فى عصرنا هذا ليست مسألة قانونيةوحسب ولكنها ممارسـة وأمر واقع أيضا . ومن ثم فان اقامة حياة عربيـة متكاملة من جوانبها الاقتصادية والعمرانية والثقافية والاجتماعية فى هذه الجزائر تصبح قضية استراتيجية هامة لابد ان تتضافر من اجل تحقيقهـا الدول العربية ، واول ما يجب توفيره فى هذا المجال هو صورة دقيقة لما هو قائم فى هذه الجزائر فالمعلومات التى نعرفها كثيرا ما تكون مشـوشة أو غير دقيقة .

قد قيل كثيرا ان البحر الاحمر « بحر عربى » . هذه حقيقة جغرافية تحولت الى واقع عسكرى وأمنى فى حرب اكتوبر وبقى أن تصبح حقيقة استراتيجية تضعها كل الدول فى اعتبارها عند تحديد اهدافها وخططهـا فى هذه المنطقة فى العالم . وقتها يصبح البحر الأحمر لنا وليس علينـا ومصدرا للامن والسلم وليس مجالاً للتهديد والصراع والتنافس بين الدول الكبرى .

٣٣

الصراع الدولى فى القرن الأفريقى

واستراتيجية البحر الاحمر

للدكتور عبد العزيز رفاعى

الكلية الفنية العسكرية

يمتد الصراع الدولي فى القرن الافريقى فى اصوله فى اعماق التاريخ الوسيط لهذا القرن وذلك منذ بداية نشأة اثيوبيا بنزعتها التوسعية الاقليمية وقد ازداد ذلك شدة مع نهضة شعوب افريقيا وظهور الامبريالية فى العصر الحديث والمعاصر بما هدد استراتيجية البحر الاحمر .

ويمثل القرن الافريقى ، فى موقعه ، قوة فى مفهوم استراتيجية البحر الأحمر ، فاذا كانت الاستراتيجية كما انتهت اليه ، هى فن استخدام وسائل القوى لتحقيق الهدف السياسى ، تبين لنا مدى خطورة ذلك الصراع على مصير البحر الأحمر وما وراءه وحوله من شعوب ودول .

فمن يتحكم فيه يستطيع ان يتحكم فى طرق النقل بين شرق أفريقيا وأوربا وبالعكس وكذلك فى أمن البحر والدول المحيطة به استراتيجيا وذلك لموقعه من مدخل البحر الأحمر بما يتيح له تحقيق ما يستهدفه من غايات سياسية .

والقرن الافريقى هو حلقة الاتصال بين اجزاء الوطن العربى فى قارتى آسيا وافريقيا وقد سمى بالقرن الافريقى لانه يشكل ذلك النتوء البارز فى الجانب الشرقى من وسط القارة الافريقية ، وهو يطل على بحر العرب شمال غرب المحيط الهندى ، كما يشكل مع جمهورية اليمن

الشعبية الجنوبية ومع الصومال وجيبوتي والحبشة واريتريا المدخل الجنوبي للبحر الاحمر الذى يقف عند مدخله باب المندب .

وهذا القرن الافريقى يعتبر جسر الاتصال للامتداد العربى من الناحية الجنوبية كما تعتبر قناة السويس فى مصر جسر الاتصال للامتداد العربى من الناحية الشمالية ومن هنا برزت الاهمية الاستراتيجية لكل منهما للمداخل الشرقية للقارة الافريقية سواء من الناحية العسكرية او الاقتصادية ، وذلك لان هذا القرن يتحكم فى طريق البترول بين منطقة الخليج ودول اوربا الغربية والولايات المتحدة الامريكية ، كما يتحكم فى الطرق الدولية للتجارة العالمية الى المحيط الهندى او عبر البحرين الاحمر والمتوسط .

يتكون القرن الافريقى من الصومال وجيبوتى واثيوبيا واريتريا . وتشغل الصومال معظم المناطق الساحلية التى تقع على المحيط الهندى وخليج عدن . وتكمل جيبوتى تلك المنطقة الساحلية للصومال من ناحية الشمال حتى نهاية خليج عدن .

أما الحبشة فهى تقع فى داخل القرن الافريقى وليس لها سواحل سوى فى منطقة اريتريا التى تطل على البحر الاحمر من مدخله الجنوبى .

ويتحكم الصومال بوضعه الخاص فى مدخل البحر الأحمر .

ولقد بدأ الصراع الدولى حول القرن الافريقى من قبل ومن بعد ، فاختلفت اطراف الصراع ما بين القديم والحديث ولكنها كانت تستهدف كلها غاية واحدة تقريبا .

كانت أطراف الصراع فى القديم : الصومال فى مواجهة اثيوبيا متحالفة مع البرتغال وكان ذلك أمرا شبيها الى حد كبير بقوى الصراع الدولى اليوم .

واطراف الصراع اليوم : اثيوبيا والصومال ، كما كانت بالأمس البعيد ولكن مع تحالف اثيوبيا والولايات المتحدة الامريكية أولا ثم تحولها الى التحالف مع الاتحاد السوفييتى ، أما عن هدف هذين اللونين من الصراع الدولى فلم يكن الا هدفا استراتيجيا لما وراءه من أهداف سياسية .

ومنذ بدا هذا الصراع سار فى مراحل عدة ، كانت تواكب عصرها اولها بدا مع قيام الحبشة باطماعها فى التوسع الاقليمى فى القرن الميلادى الاول وقد بدات المرحلة الثانية لهذا الصراع من احتدام الاستعمار التجارى فتمثل فى تحالف البرتغال مع الحبشة فى مواجهة العرب والقوى الاسلامية فى القرن الـ ١٦ .

اما المرحلة الثالثة ، فقد قامت فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر مع نشأة الرغبة فى تقسيم القارة الافريقية وكانت عناصر انجلترا وفرنسا وايطاليا واثيوبيا ثم نشأت المرحلة الاخيرة المتميزة مع انبثاق الوعى القومى الافريقى بعد الحرب العالمية الثانية ، ونهضة الصومال (الكبير) لاستكمال استقلاله وحل مشاكل الحدود .

وكان لكل مراحل هذا الصراع تأثيراته الاستراتيجية على البحر الاحمر .

ولقد بدأت نواة الصراع مع نشأة الحبشة بأطماعها الاقليمية في أحضان القرن الافريقى .

فمن الهجرات الوافدة على الجزء الجنوبى لشبه جزيرة العرب الى المرتفعات الحبشية الشمالية ، وفدت جماعات اتخذت منها مقرا تشيد فيه البيوت وتنشىء فيه الخزانات وتمارس فيه الزراعة وتعنى بوسائل المعيشة وقد أخذت تفرض سلطانها على العناصر الحامية المقيمة حتى امتزجت بهم فنشأت من ذلك سلالة جديدة باسم حبشى .

وقد استطاعت هذه السلالة تكوين دولة (١) ترتكز على بلدة اكسوم بالقرب من ارتريا فى القرن الميلادى الأول ، ثم بلغت ذروتها فى القرن الرابع ولكن ما لبث الانحلال ان دب فى جسم الدولة فى القرن السابع الميلادى .

ومع ظهور الاستعمار التجارى فى أوربا ونهاية الصراع بين العرب، والامارات المسيحية فى شبه جزيرة ايبيريا اتجهت البرتغال بأنظارها الى

(١) د . راشد الداوى الحبشة ص ٥٠ .

الساحل الافريقى على نحو انتهى بالتحالف بينها وبين الحبشة فى مواجهة المسلمين والعرب وكان البرتغاليون اذ ذاك .. يحملون معهم لواء حركة دينية كانت امتداد للحركة الصليبية تستهدف تعقب القوى الاسلامية تطويقها مستعينة بملك الحبشة المسيحى ومستهدفة تطويق الدول الاسلامية والقضاء على مصدر قوتها الذى كان يتمثل فى تجارة الشرق والسيطرة على شريين الملاحة المؤدية الى هذه التجارة (٢) .

ولا شك ان الحملات التى قام بها هنرى الملاح ورحلات البرتغاليين من أمثال باثليمو دياز وفاسكو داجاما والمبدأ والبوكرك كلها كانت تحقيقا لدافع قوى هو ضرب العرب فى مقتل اى توجيه ضربة قاتلة للقوى العربية للقضاء على احتكارهم لتجارة الشرق وأحدث هذا كله اثره مبدأ يجف مورد ثروتهم وقوتهم المادية والعسكرية .

ومن الظرف ان البرتغال وجهت بعض جهودها فى هذا المجال لتحويل الدولة الافريقية المسيحية الوحيدة وهى اثيوبيا الى المذهب الكاثوليكى ، بعد أن تمت لها السيطرة على التجارة بين الهند والحبشة ولكن اضطرت القوتان الى التآلف الموقوف فى وجه القوة الاسلامية التى كان على راسها البطل الصومالى محمد جراتى الذى توجه جنوب الحبشة تؤيده قوةالاتراك العثمانيين وعرب جنوب شبه الجزيرة وامدت البرتغال الحبشة بقوة الى راسها احد ابناء فاسكو داجاما وقد منيت القوات البرتغالية بخسائر فادحة .

ولكنه لم يستطع أن يحقق نصرا حاسمة على الحبشة(٣) . ولكن ذلك كان قد انتهى كله بتحقيق مارب البرتغاليون التوسعية والسياسية .

ولقد كان من أبطال فترة الصراع الصومالى الحبشى فى القرن السادس عشر شهاب الدين احمد بن عبد القادر وقد ظل تاريخه مجهولا مدة

---

(٢) عبد الملك عودة : السياسة والحكم فى افريقيا ص ٦٠ وما بعدها .

(٣) المقريزى : الامام من بارض الحبشة من ملوك الاسلام — شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ص ٥ وما بعدها (٢) د. جلال يحى العلاقات المصرية الصومالية ص ١٦٧ وما بعدها .

طويلة ، وذلك بفضل الحملات التى كانت تستهدف التهوين من الكفاح الصومالى القومى فقد قال عنه المستشرق الفرنسى ريفية ماسيه انه كان اكثر حيادا من غيره وقد شاهد بنفسه المعارك التى دارت اذ ذاك .

واذا كان هذا الصراع قد هدأ بعد ذلك فقد تجدد اكثر عنفا فى القرن التاسع عشر حين اتجهت أوربا لتقسيم القارة الافريقية منذ مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥ .

ولقد تميزت هذه المرحلة من الصراع بعناصر تعارفت على تقسيم القرن الافريقى وتصارعت حول بسط النفوذ على مدخل البحر الاحمر وقد غرست بذورا مضت تنمو مع الايام لتصبح أصولا لذلك الصراع الدولى المعاصر .

وجاءت البداية على يد انجلترا بعد احتلالها مصر سنة ١٨٨٢ فلكى تجعل احتلالها لمصر عمقا استراتيجيا عملت ان تضم اليها ما انتهى اليه امتداد الدولة المصرية فى افريقيا من العمل على توحيد بلاد الصومال معها ، وما أصبح تحت سيادتها . فقد ادعى اذ ذاك كرومر بأن ادارة مصر للاقاليم الصومالية يعتبر خسارة فى الاموال والرجال فاستباحت بريطانيا اجتزاءها من النفوذ المصرى دون استئذان القسطنطينية او القاهرة مستفيدة بانتصار الثورة المهدية واضطرار مصر الى الجلاء عن اقاليمها الافريقية الجنوبية .

وقد عملت بريطانيا على تقسيم (٤) سواحل الصومال الى قسمين ويشتمل على بلهار وبرىء ثم قامت بريطانيا بالتنفيذ وسهلت انسحاب الادارة المصرية من ساحل الصومال واحتلت انجلترا برى وزيلع وهرر ووضعت امكانيات الساحل الصومالى فى خدمة قاعدتها البحرية الحربية فى عدن كما يفعل الاتحاد السوفيتى اليوم فى صراعه مع الصومال .

أثارت بريطانيا بهذه المطامع الاستعمارية مع فرنسا وايطاليا والمانيا .

---

(٤) جلال يحى (الدكتور) العلاقات المصرية الصومالية ص ١٦٧ وما بعدها .

كان القسم الأخير من بلاد الصومال من نصيب ايطاليا وحصلت علية فى وقت تقسيم الاسلاب الافريقية وفى الفترة الواقعة بعد ابعاد المصريين عن هذه البلاد ، وبعد عقد مؤتمر برلين .

ولقد بدأ النشاط الايطالى على سواحل بلاد الصومال المطلة على المحيط الهندى فى ممتلكات سلطان زنجبار ، ومع الشيوخ المحليين الى الشمال من هذه الممتلكات فى نفس الوقت تقريبا . ولكن ايطاليا كانت قد وصلت الى تلك الجهات متأخرة عن غيرها ، فكان عليها أن تحسب حسابا للنفوذ البريطانى الذى كان قد ثبت أقدامه على الشاطىء الشرقى لافريقية ، والنفوذ الألمانى الذى كان يستعد لانشاء مستعمرة تنجانيقا(٥) .

ولم ينشغل بال الحكومة الايطالية بسواحل بلاد الصومال المطلة على المحيط الهندى الا فى عام ١٨٨٥ ، وهو العام الذى بدأت فيه هـذه الدولة الأوربية فى التوسع فى البحر الأحمر من مصوع .

شعرت السلطات القنصلية البريطانيـة فى زنجبار ان الايطـاليين يحاولون الحصول على بورت درنفورد أو قسمايو ، أو اى ميناء آخر يقع على سواحل الصومال ويكون قريبا من مصب نهر الوجبا . فعارضوا فى هذا النشاط الذى يهدد خططهم الاستعمارية فى هذه المنطقة وكانت المانيا تستعد لتقسيم سواحل زنجبار مع انجلترا ، فانضمت بالتالى الى هـذه المعارضة . أما فرنسا فان علاقاتها كانت قد ساءت مع ايطاليا بعد احتلال تونس ، وكانت تتأهب . نفس الوقت للحصول على اعتراف كل من انجلترا والمانيا بحمايتها على جزائر « القمر » فى نظير تركها سواحل شرق أفريقية لهاتين الدولتين ، فوقف الى جانبهما(٦) .

أسرعت انجلترا والمانيا بتحديد مناطق نفوذهما فى شرق افريقية ، ودعوا فرنسا للمشاركة فى اللجنة المختصة بذلك ، نظير حصـولها على جزائر القمر(٧) ومنح السلطان خليفة عقد الامتياز آلمانيا على حلول الجزء

---

(٥) أنظر : د. جلال يحيى التنافس الدولى فى شرق افريقية ص ٢١٤ .
(٦) لوملى الى روزبرى فى ٢٤ ابريل سنة ١٨٨٦ .
(٧) انظر : التنافس الدولى شرق افريقية ، للمؤلف ، مطبعة المعرفة .

الجنوبى من سواحله . فعملت ايطاليا على اعادة فتح مسألة قسمايو . وكان كريسبى هو رئيس الوزارة الايطالية (١٨٨٨) مما جعل الانجليز يتوقعون تطور الحوادث بسرعة وبعصبية مفتعلة .

وما أن رضخ السلطان فى زنجبار للضغط البريطانى فى ٢١ مارس سنة ١٨٨٩ ووافق على منح امتياز للشركة الامبراطورية لاستغلال بلاده حتى قامت المفاوضات بين هذه الشركة وبين وزارة الخارجية الايطالية عن طريق القائم بأعمال السفارة الايطالية فى لندن ، واتفقا على أنه بمجرد أن يعطى السلطان عقد الامتياز للشركة البريطانية لاحتلال موانى براوة ومركا ومقديشو وورشيخ ، وهى التى تقع الى الشمال من مصب نهر الجويا ، سيحتفظ الشركات الايطالية والجزء الواقع إلى الجنوب من الشركة البريطانية .

وقد انتهى الأمر باعلان ايطاليا حمايتها على كل أجزاء الساحل الشرقى لافريقية ، من الحدود الشمالية لاراضى قسمايو حتى خط ٥٢/٣٠ من خطوط العرض شمالا .

ثم أخذت ايطاليا فى تحديد منطقة نفوذها فى شرق افريقية ، من البحر الأحمر فى الشمال حيث توسعت من مصوع ، وأعلنت حمايتها على الحبشة ، حتى أقصى بلاد الصومال فى الجنوب عند مصب نهر الجويا . واقترحت ايطاليا على انجلترا خطا يسير من سواحل البحر الأحمر فى شمال الارتريا متجها نحو الغرب ثم يتجه جنوبا تشكل يفصل الحبشة عن السودان ، ثم شرقا لكى يفصل بين « الصومال الايطالى » وبين منطقة نشاط شركة افريقية البريطانية ، التى كانت ستتحول بالتالى الى مستعمرة كينيا . كما اقترحت ايطاليا على انجلترا خطا آخر يحدد منطقة الحماية البريطانية فى بلاد الصومال ، حول زيلع وبربرة ، بشكل يترك المساحة الواقعة بين هذين الخطين للنفوذ الايطالى ، ويترك الأقاليم الواقعة فيما وراءها للنفوذ البريطانى ، فى السودان وأوغندا وكينيا والصومال .

ولقد حدث صراع بين انجلترا وفرنسا حول بلاد الصومال وكانت انجلترا تعرف أنها لا تستطيع ابعاد فرنسا عن بلاد الصومال وخليج عدن الا بالقوة خصوصا فى هذه الفترة التى امتازت بتكالب الدول الاستعمارية على القارة الافريقية ، ولن يكون ابعاد فرنسا ، حتى فى حالة نجاحها

الا على حساب مضايقات أخرى تقوم بها فرنسا ضد انجلترا فى مصر نفسها . ولذلك فان وزارة الخارجية البريطانية قد قبلت مبدأ ملكية فرنسا لأوبوك ، ولكنها أرادت أن توقف التوسع الفرنسى فى هذه المنطقة الاستراتيجية الهامة . فنجدها تقترح على فرنسا عدم اثارة المشاكل فى وجهها بالنسبة لملكيتها لأراضى أوبوك ، وذلك فى نظير قبول فرنسا ابلاغ انجلترا عن الحدود المضبوطة لهذه الأراضى ولم تكن الحكومة الفرنسية من السذاجة والبلاهة بأن ترد على مثل هذا الاقتراح فى الوقت الذى أخذت فيه انجلترا تستعد للاستيلاء على الامبراطورية المصرية الافريقية ، ورغما عن المعاهدات الدولية القائمة .

وكان وجود لاجارد نفسه فى أوبوك يدل على أن الحكومة الفرنسية قد صممت على العمل بنشاط على توسيع حدود أراضى أوبوك . وتطلب هذا من فرنسا الاحتفاظ بحرية العمل ، لا بتقييد نفسها دلخل حدود المنطقة التى اشترتها فى سنة ١٨٦٢ والتى أرادت انجلترا أن تحصرها فى داخلها .

اتخذت الحكومة الفرنسية منطقة أوبوك قاعدة توسعية لها فى بلاد الصومال وارسلت سفينة حربية الى ذلك الميناء وأمرتها بالبقاء فيه . وانزلت هذه السفينة حامية على الساحل ، وكان قائدها يتمتع بسلطات المقيم السياسى ، أى نفس السلطات التى تعطيها بريطانيا لممثلها فى عدن . وعقدت الحكومة الفرنسية اتفاقا مع احدى المؤسسات لانشاء مخزن للفحم فى أوبوك ، ووعدتها باصدار أمرها الى السفن الفرنسية بالذهاب والتزود من أوبوك بدلا من عدن . وكانت فرنسا تهدف فى حقيقة الأمر الى أن توفر للسفن الحربية الفرنسية نقطة وقاعدة فى بلاد الصومال ، تستطيع أن تتمون فيه باوقود ، دون أن تبقى تحت رحمة السلطات البريطانية فى عدن . وأخيرا فان فرنسا قد عملت على الاستيلاء على جزء من ساحل الصومال المجاور ، وبدأت فى العمل على الاتجار مع الداخل ، هادفة بذلك الوصول الى ثروات القارة عن طريق هرر .

وقد استعدت الحكومة الفرنسية لاحتلال تاجورة لتوسيع منطقة أوبوك وفتحت اعتمادا ماليا باسم لاجارد لتنفيذ هذا المشروع وأبرق وزير

البحرية الى قائد أوبوك فى ٧ من سبتمبر عن طريق قنصل فرنســا فى عدن يقول :

أرجو أن تتأكد سرا مما اذا كان مشروع تاجــورة قد بدأ فى التنفيذ وأن تتفاوض اذا اقتضى الأمر مع الشــيوخ المحــليين الذين سيصبحون سادة البلاد ، وذلك لاغرائهم على وضع أنفسهم تحت حماية فرنســا . ان السلطان أحمد بن محمد قد كتب الى رئيس الجمهورية بهذا الشــأن مرات متعددة .

ويمكنك أن تدرك اهمية التى ستكون للاستيلاء على تاجورة بالنسبة العلاقات مع الداخل ، وكان الهدف ليس الا منع انجلترا من النزول اليها دون المجازفة بالاصطدام معها .

ولذلك فان رئيس الوزراء قد فتح لك اعتمــادا خمسين ألف فرنك لتسهيل تلك المفاوضات الدقيقة التى قد تضطر الى الدخول فيها(٨) .

وكان الانجليز فى ذلك الوقت يحاولون الضغط على « سلطان » تاجورة واجباره على عقد معاهدة يضع بها منطقته تحت حماية حكومة جلالة الملكة ولكن لاجارد تمكن من دعوة هذا « السلطان » الى أوبوك للاشتراك فى « مجلس » يخص القاء القبض على بعض أقاربه ، لمسألة تافهة . ثم دعاه الى العشاء مع « وزير » وبدأ فى تقديم الهدايا لهما بدعوى قيامهم بالحكم فى الخلافات المحلية . وبدأت بعد ذلك « المفاتحــات » ثم المحادثات . وبعد ساعات طويلة أعلن السلطان أنه يقبل ويرغب فى وضع بلاده تحت حماية مرت بطريقة فعالة ، خصوصا فى حالة تدخــل احدى الدول الأجنبية(٩) . وفى ٢١ من سبتمبر سنة ١٨٨٤ عقد لاجارد معاهدة مع هذا السلطان . أعطى بها هذا الأخير لفرنسا بلاده الممتدة من رس

---

(8) F. O : M. 1022, Depeche - Id.

(٩) لاجارد الى وزير البحرية والمستعمرات فى ٢٤ من سبتمبر سنة ١٨٨٤ — وثيقة رقم ٥٢ — سنة ١٨٨٤ م .

— د . جــلال يحيى العلاقات المصرية الصــومالية ص ١٩٣ وما بعدها .

على حتى قبة الخراب وتعهد فيها بعدم ابرام اى معاهدات مع أية دولة أجنبية دون موافقة قائد أوتوك .

وتظهر قيمة هذا الاتفاق من أنه قد منح فرنسا اقليما هاما يوسع من مستعمرة أوبوك ويكملها بكل الجزء الواقع الى الشمال من خليج تاجورة ، ويعطيها مفتاح الطريق التجارى الذى تستخدمه القوافل للوصول الى شوا.

وكان هذا الطريق هو أقرب الطرق الموصلة الى شوا وأقلها صعوبة . فكان من السهل على الفرنسيين استلام وشحن المنتجات الافريقية فى داخل خليج تاجورة ، والحصول على الماء والحشائش اللازمة للقوافل التى تعمل مع الداخل . وكان لسلطان تاجورة نفوذا كبيرا على رجال المنطقة وسيطرة فعالة على جمالهم وقوافلهم . ولم يكن من السهل على أى قافلة أن تسافر بدون أمر منه خصوصا وأن صديقه لهيطة ، سلطان الدناقل ، لم يكن يصرح لها بالمرور فى أراضيه ما لم يتأكد من عدم معارضته سلطان تاجورة فى سفرها .

نجح لاجارد اذن فى شراء بعض الرؤساء وفى تأكيد معارضته الأهالى لتسليم بلادهم لانجلترا ، بعد احتلال هذه الدولة الأخيرة لمصر . ولكن فرنسا عقدت المعاهدة مع سلطان تاجورة فى الوقت الذى كانت فيه القوات المسلحة المصرية لا تزال موجودة فى هذه المحافظة . وكان فى استطاعة انجلترا أن تؤخر أو تلغى أمر سحب هذه القوات . ولذلك فان لاجارد قد أبرق الى باريس طالبا تدخل القنصل الفرنسى العام فى القاهرة لكى يحصل على أمر من الوزارة المصرية توجه فيها سلطاتها فى الصومال الى عدم معارضته الاحتلال الفرنسى لتاجورة(١٧) .

ولقد حاولت فرنسا بعد احتلالها لتاجورة أن تتدخل فى شئون هرر ولكن كلا من الميجر هنتر والسير ايفلنج بارنج وجد « أن أحسن ضمان لطلب عدم تدخل فرنسا فى هرر هو الامتناع (الانجليزى) عن التدخل

---

(١٠) برقية لاجارد الى وزارة البحرية فى ٢٥ من سبتمبر سنة ١٨٨٤، م .

فى تاجورة(١١) » فقبل الوزير المفوض والقنصل الفرنسى العام فى القاهرة اصدار أمره الى نائب قنصله فى بلاد الصومال بالامتناع عن التدخل فى شئون هرر بأى شكل من الأشكال(١٢) .

ولقد نظر تحكومة لندن الى التوسع الفرنسى حول أوبوك نظــرة واقعية اذ أنه سيبطل امكانية أى معارضة قد تقوم بها حكومة باريس ضد استيلاء الانجليز على زيلع وبربرة . واذا ما أرضت ايطاليا طموحها ورغبتها فى التوسع الاقليمى حول عصب . فان حقوق السيادة العثمانية فى خليج عدن وحتى فى شمال مضيق باب المندب ستصبح اسمية وغير ذات قيمة أمام انكار ثلاث دول عظمى لها فى نفس الوقت . أرادت انجلترا اذن أن أن تستفيد من توسع الفرنسيين حول أوبوك وتوسع الايطاليين حــول عصب حتى لا تظهر وحدها بمظهر المعتدى على حقوق السلطان . ويمكن لانجلترا فى حالة اثارة مسألة الحقــوق الدولية والاقليمية للامبراطورية العثمانية فى هذه المناطق أن تستند الى حياد كل من فرنسا وايطاليا ، ان لم تحظ بتأييدهما .

ولكن تنافسا واضحا على اقتسام الأسلاب الافريقية ظهر بين ممثلى السلطات الانجليزية والفرنسية فى بلاد الصومال . فنجــد أن الانجليز يعملون على احتلال جزائر موسى وأوباض ، القريبة من الساحل والتى تتحكم فى مدخل قبة الخراب التى استولى الفرنسيون عليها وعزموا على اتخاذها قاعدة بحرية لهم : وادعى الانجليز أنهم يستندون الى معاهدات كان الكابتن مورسبى قد عقدها فى عام ١٨٤٠ فى هذه الأرجاء .

واستمر التنافس بين الطرفين بخصوص أمبادو . ثم قام الفرنسيون بعقد معاهدة مع أبى بكر ابراهيم . محافظ زيلع . بصفته أميرا على هــذه المدينة قبل مجىء المصريين ، ووافق على وضع نفســه تحت الحمــاية الفرنسية . ادعى الفرنسيون أن هذه المعاهدة قد أمضيت فى عام ١٨٥٩ . ولكن ضعف السند التاريخى والسند القانونى لها ، وعزم انجلترا على

---

(١٢) بارنج الى جرانفيل فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٨٤ م .

(١٣) بارنج الى جرانفيل فى ٥ من ديسمبر سنة ١٨٨٤ م .

منع توسع فرنسـا ، ولو بالقـوة ، فى منطـقة زيلع اضطر الحكومة الفرنسية الى التراجع فى هذه المسألة(١٣).

ورغم اتفاق حكومتى لندن وباريس فى أكتوبر سـنة ١٨٨٥ على « الاحتفاظ بالوضع القـائم » فى أملاكها المطـلة على خليج عدن ، فان الحوادث قد استمرت نتيجة لنشـاط السلطات الاستعمـارية المحلية — فحاول الفرنسـيون الاسـتيلاء على امبادو التى تقع بين رأس جيبوتى وزيلع ، وعلى دنجاريتا التى تقع بين زيلع وبلهار ، ابعـادا للانجـليز صوب الشرق . وهدفا الى السيطرة على رأس الطريق الموصـل الى هرر وشـوا ، ولاستخدامها ان لزم الأمر فى المقـايضة مع انجلترا فى المفاوضـات المقبلة . وحاول الانجليز ضـمان السيطرة على كل الاقليم اللازم لتموين عدن ، وعدم ترك مجال حيوى لفرنسا بشكل قد يساعدها ، فى يوم من الأيام ، على التفوق فى خليج عدن والتأثير على علاقتهم بالهند. وعلى أى حال فقد أظهرت كل من فرنسا وانجلترا استعدادها فى أوائل عام ١٨٨٧ لتسوية المسألة .

وبدأت المفاوضات فى لندن بين اللورد سالسبورى ، ووادنجتون السفير الفرنسى الذى شرح استعداد حكومته التنازل عن « حقوقها » على الأقاليم والقبائل الواقعة الى شرق زيلع على شرط أن تعترف انجلترا بالحماية الفرنسية على الأقاليم والأراضى الواقعة الى الغرب من هـذه المدينة . كما اقترح خطا مستقيما يمتد على الخريطة من زيلع الى هرر كأساس لحدود « المحميتين »(١٤) الانجليزية والفرنسية .

ولكن السلطات البريطـانية فى الهند ، وهى المشرفة على شئون عدن ، وبالتالى على شئون الصومال ، رفضت هذا الخط واقترحت خطا آخر يبدأ من جيبوتى الى هرر(١٥) . ووافقت فرنسا على ذلك . وأعلنت انجلترا حمايتها على بلاد الصومال المواجهة لعدن فى ٢٠ من يوليو سنة

---

(١٣) د . جلال عيسى : التنافس الدولى فى بلاد الصومال صـ ١٧٨ — ١٨٣ .

(١٤) دانجتون الى فلوران فى ٩ من مارس سنة ١٨٨٧ .

(١٥) دانجتون الى سالسبورى ابريل سنة ١٨٨٧ .

١٨٨٧ . وتم تبادل الخطابات بين وادنجتون وسالسبورى فى ٢ و ٩ من فبراير سنة ١٨٨٨ بخصوص مصالحهما فى بلاد الصومال ، بعد أن قبلت انجلترا ترك راس جيبوتى نفسها لفرنسا ، ووافقت الدولتان على عدم تدخلهما فى شئون هرر ، رغم اصرارهما على عدم التنازل عن « حقهما فى منع أى دولة أخرى من الحصول على أى حقوق فى هرر أو فرضها عليها » .

وهكذا أنهت هذه الاتفاقية خلافات فرنسا مع انجلترا فى بلاد الصومال ، بل ان فرنسا قد حصلت بها على اعتراف انجلترا «بحقوقها» فى بلاد الصومال .

حقيقة أن الحدود الشمالية والغربية لساحل الصومال الفرنسى ، مع الايطاليين فى عصب ، ومع الأحباش فى الداخل ، لم تكن قد رسمت بعد ولكن فرنسا سارت بخطوات واسعة نحو الاهتمام بساحل الصومال والوصول عن طريقه الى منتجات داخل القارة وموارد جنوب الحبشة .

وعملت فرنسا على نقل قاعدتها من أوبوك الى جيبوتى . واستعدت بذلك لعمليات أخرى أكثر جرأة ، خصوصا وان الأحوال السياسية استمرت فى تغيرها قرب هذه المنطقة نتيجة لنشاط كل من الأحباش والايطاليين . وعملت فرنسا على الاستفادة من هذا التغيير .

ولقد ظل ذلك التقسيم الاستعمارى حتى احتلال ايطاليا للحبشة سنة ١٩٣٥ فلما هزمت تلك فى الحرب العالمية الثانية ولم تكن المطامع الاقليمية الاستعمارية بسيطرتها على مدخل لبحر الأحمر لتدوم طويلا حتى انطلق الطرف الأصيل فى هذا الصراع وهو الصومال يطالب بحقه فى استعادة بلاده فأشعل بهذا الأصول الأولى للصراع وشحنها بالحركة ومن ثم أخذ الصراع الدولى فى القرن الافريقى يحتدم فى شكل جديد فى ظل نهضة الصومال القومية .

ولقد نهض الصومال نهضته الكبرى من نبعةنهضة افريقيا ووعيها(١٦)

---

(١٦) دكتور عبد العزيز رفاعى : الاتجاه القومى الحديث فى افريقيا . الباب الثالث .

الحديث وتغير الظروف الدولية وأخذ يواجه العناصر الطامعة فى بلاده انجلترا وأثيوبيا من خلال النزعة القبلية المصحوبة برد فعل النزعة الاسلامية حتى تحقق استقلاله ثم سعى بعد ذلك لتحقيق وحدة الصومال الكبير. واذ ذاك كان عهده بالنزاع الدولى قد اخذ شكل النزاع حول الحدود من أجل استرداد ما سلبته منه اثيوبيا وقد اتخذ ذلك شكلا مسحا سنة ١٩٦٣ فى الصومال الغربى .

وتكشف هذه الصراعات والمنازعات عن عدد من المؤشرات والاتجاهات ذات الأهمية فى التحليل والاستكشاف وبالتالى فى بقاء الاحتمالات ومن ذلك :

أنها كانت تصدر فى غالبيتها عن التناقضات الاقليمية بين عدد من دول القارة المتجاورة ، وقد تلاقت فى معظمها ، الملامح الأساسية لنزاعات الحدود بين الدول الافريقية ، والمظاهر الرئيسية لمشكلات تصفية الاستعمار فى القارة . ولقد ترتب على ذلك أنها كانت تبطن صراعا سياسيا وأيدولوجيا عبر عن وجوده بأنشطة عدائية علنية أو سرية ، تجاه دولة أخرى .

— أن غالبية دول القارة ومنظمة الوحدة الافريقية ، قد التزمت الى حد بعيد بمبدأ قدسية الحدود السياسية القائمة بين الدول الافريقية وبعضها ، وبغض النظر عن الظروف التى استدعت رسم تلك الحدود فى المرحلة الاستعمارية السابقة . وهذا المبدأ قبلته جميع الدول الافريقية الأعضاء فى المنظمة منذ عام ١٩٦٣ ، فيما عدا الصومال والمغرب .

وفى الواقع تكشف بعض هذه الصراعات عن خلاف سياسى بين مبدأين خطيرين تقوم عليهما ايديولوجية منظمة الوحدة الافريقية :

أولهما : مبدأ قدسية الحدود واحترامها ، وثانيهما : مبدأ حق تقرير المصير . ويتضح هذا الخلاف فى نزاع الحدود بين أثيوبيا والصومال ، كما يتضح فى الصراعات المرتبطة بالمسألة الاريترية . فالمنطق الاثيوبى ، وهو منطق محافظ ، وتؤيده غالبية الدول الافريقية ، يرى أن لحدود التى تفصل بين دول القارة لا يمكن تعديلها بحجة أنها من عمل الاستعمار ، وأن حق تقرير المصير مقصور فقط على الشعوب التى مازالت تحت سيطرة

الاستعمار الأجنبى . أما المنطق الصومالى والاريترى ، وهو منطق ثورى ، لم تقـــره أغلب الدول الافريقية ، فهو يرى أن الحدود القـــائمة فى القارة يجب اعادة النظـــر فيها اذا كانت حـــدودا ظالمة ، كما يرى أن حق تقرير المصير سلاح لمكافحة الاستعمار ، وان هذا الاستعمار اذا كان فى الغالب أوربيا أجنبيا عن القارة ، فانه قد يكون افريقيا ليس غريبا عن القارة .

ولقد كانت تلك الصراعات الاقليمية منفذا دائما للتـــدخل الأجنبى فى شئون دول القارة وتوجيه التطورات فيها وجهة معينة تتوافق مع مصـــالح الدول الكبرى . ولقد كان ذلك واضحا فى غمـــار الحرب الأهليـــة فى الكونغو كنشاسا « زائير » ومحاولة الانفصال باقليم كاتنجا « شابا » سواء فى مطلع الستينات أو فى مطلع عام ١٩٧٧ ، كما كان واضحا فى محاولة الانفصال باقليم بيافرا والحرب الأهلية فى نيجـــيريا « ١٩٦٧ — ١٩٧٠ » وهو ما يتضح بصفة خاصة فى منطقة القرن الافريقى فى هـــذه المرحلة ، منذ مطلع عام ١٩٧٧ ، حيث تتراكم شحنات السلاح وتتـــدفق المساعدات الاقتصادية والمالية والعسكرية ، على الحدود المتجاورة فى هـــذه المنطقة تعبيرا عن طرف دولى . موسكو أو واشنطن أو بكين أو باريس — الخ .

فهذه القوى الكبرى لا تقف مكتوفة الأيدى ازاء الصراعات والتطورات الداخلية فى دول المنطقة وما يترتب عليها من علاقات خارجية ، بل انهـــا تتسابق عن طريق « الحركات » التى تشنها عناصر مرتبطة بها أو تابعة لها، على تحقيق هدف لا يستهان به ، الا وهو السيطرة على « طريق البترول » وعلى الطريق المؤدى الى المحيط الهندى . وبالتالى يبدو أن جميع عناصر « الصراع الدولى » قائمة فى المنطقة وثمة حـــرب أهلية افريقية ســـتفتح الطريق الى التدخل الأجنبى . وهكذا تتحول القارة الافريقية بسبب تعدد — بؤرات التوتر الى ميدان معركة باردة لعكس صراع القوى المستقر بين تلك الأطراف الدولية وبعضها البعض .

لقد أصبحت منطقة القرن الافريقى بالفعل مسرحا لعدة صراعات زادت فى حدتها سريعا ، وتفتح الباب بنفس المعدل للتدخل الأجنبى ، وعلى نحو مخالف للانماط التقليدية والتصورات الابتغائية ، سواء فى حسابات التحرر أو تقدير مواقف الأطراف المختلفة .

هناك « مسألة اريتريا » — المنطقة الساحلية التى تطل على البحر الأحمر وتتبع أثيوبيا ، حيث تقترب من النهاية ، الحرب الدائرة فيها منذ وقت طويل ضد حكومة اديس أبابا ، بانتصار عسكرى للثوار الاريتريين .

وكان هناك الصراع الاثيوبى — الصومالى حول منطقة « أوجادين » فى الجنوب الشرقى لاثيوبيا ، حيث تساند الصومال « جبهة تحرير غربى الصومال » .

هناك نزاع اثيوبى — صومالى حول دويلة جيبوتى التى استقلت فى شهر يونيو ١٩٧٧ . وربما لهذا الاعتبار فقد اتفقت الدول المجاورة وغالبية الأحزاب فى جيبوتى — على مضض — على أن أفضل ضمان لاستقرار الدويلة الجديدة — فى الأجل القصير — هو ضرورة احتفاظ فرنسا بوجود عسكرى فى الاقليم بعد الاستقلال . وعلاوة على ذلك ، حصلت فرنسا على تأييد السعودية واليمن الشمالى لقيام دولة اسلامية فى جمهورية جيبوتى . ولكن معظم الأطراف المعنية تدرك أن اغلاق موانيها فى وجه اثيوبيا سيشكل استفزاز غير محتمل لاديس أبابا . وانتحارا اقتصاديا للاقليم .

ثم هناك الصراع الصومالى — الكينى ، حول منطقة الاقليم الشمالى الشرقى فى كينيا الذى تطالب الصومال بضمه الى (الصومال الكبير) وان كانت هذه الجبهة بدأت تنعم ببعض الهدوء .

وهناك الحرب الكلامية المتبادلة بين أثيوبيا والسودان . فمع نهاية شهر يناير ١٩٧٧ ، دشن الجنرال « تفرى بنتى » الرئيس السابق للمجلس العسكرى الحاكم فى أثيوبيا — مرحلة جديدة فى المواجهة بين البلدين ، الت ىكانت شفوية حتى ذلك الحين ، حيث شجب الدسائس « التخريبية » التى تحركها حكومة الخرطوم ، كما اتهم الرئيس نميرى بتقديم المساعدات الى كل من الانفصاليين الاريتريين ، والقوى « المناهضة للثورة » حيث تسمح السودان « للاتحاد الديمقراطى الاثيوبى » بالعمل من أراضيها ضد حكومة اديس أبابا . كما بدأ السودان يؤكد اعلنا لستعداده لبذل قصارى جهده لمساندة الجبهات التى تناضل من أجل استقلال اريتريا .

وعلى الرغم من أن هذه الصراعات ظلت تغلى تحت السطح لعدة سنوات ، الا أنها وصلت الى هذا المستوى الحاد نتيجة لثلاثة عوامل :

أولها — التطورات المتعاقبة التى لحقت باثيوبيا بعد عزل الامبراطور هيلاسيلاسى وتولى المجلس العسكرى للسلطة منذ عام ١٩٧٤ ، وبصفة خاصة النتائج التى ترتبت على عملية التصفية الأخيرة فيما بين المجموعة العسكرية الحاكمة ، واستيلاء الكولونيل مانجستو على السلطة . ومن ابرز هذه التطورات اعلانه طرد البعثة العسكرية الأمريكية من اثيوبيا فى ابريل ١٩٧٧ ووقف صفقات السلاح الأمريكى اليها ، وهو ما أكد عملية اعادة التحالف التى تجرى فى منطقة القرن الافريقى . ذلك أن اثيوبيا التى ظلت تابعة للمعسكر الغربى لمدة تزيد على الثلاثين عاما ، انتقلت سريعا الى دائرة العلاقات الوثيقة مع الاتحاد السوفيتى . ولقد اقترن بذلك اتجاه مجموعة أخرى من دول المنطقة الى الارتباط بالغرب .

ثانيها — توجيهات الاستراتيجية السوفيتية فى افريقيا ، وبصفة خاصة الاستراتيجية البحرية ومتطلبات السيطرة على الممرات المائية الدولية ، ويعتبر مدخل البحر الأحمر هو طريق البترول الى أوربا وفى نفس الوقت يشكل الطريق العكسى فيه مدخلا الى المحيط الهندى . فضلا عن رغبة موسكو فى تعويض هزيمة سياستها فى الشرق الأوسط وتدعيم وجودها فى مناطق افريقيا الأخرى .

ولهذا يسعى الاتحاد السوفيتى الى تشكيل كتلة من الدول التى تتبنى الاتجاه الاشتراكى عند مدخل البحر الأحمر ، حيث كانت لديه علاقات وثيقة بالفعل مع الصومال واليمن الجنوبى ، كما بدأت اثيوبيا فى الاتجاه نحو السوفيت . وكانت موسكو تتطلع الى تحييد أو على الأقل احتواء الخلافات الوطنية والعنصرية لاصدقائها القدامى والجدد وذلك فى نطاق وحدة ايديولوجية مدعمة بخطة واسعة من الدعم العسكرى .

ويبدو أن الاتحاد السوفيتى كان يعتقد بما له من العلاقات المميزة بينه وبين الصومال أنه استطاع أن يعزز سياسته فى المنطقة حتى ولو

كانت على حساب الصومال . ولكن ما أن انطلقت قوة اثيوبيا العسكرية حتى اسرع الاتحاد السوفيتى فى تأييد نظامها ظنا منه انها قد تبدو أرضا أخصب لانتشار الشيوعية . بعد فشلها فى الصومال ، ومن ثم كان التصادم بين موسكو ومقديشو . فانطلقت قوات جبهة تحرير الصومال فى حرب مع قوات اثيوبيا . وأعلنت الصومال معارضتها لسياسة روسيا . وان أمن الصومال جزء من امن الأمة العربية . ولم تخفى المصادر المسئولة ان الاتحاد السوفيتى كان قد بدأ فى التفكير فى التحكم فى البحر الأحمر والمحيط الهندى لأمرين اساسيين (الانطلاق بالنفوذ السوفيتى الى قلب افريقيا) وثانيهما مراقبة الممرات المائية التى تسلكها ناقلات البترول بهدف السيطرة على — المنطقة العربية سيما مصر والسودان وقد جرت بالفعل محاولات لجعل الصومال اداة — للتخطيط السوفيتى كان من أبرزها تلك الزيارة التى قام بها بدجورنى ورئيس كوبا لمقديشو فى وقت واحد لاقناع سياد برى بانضمام الصومال الى اتحاد فيدرالى يضم اثيوبيا وارتريا واليمن الديمقراطية وكان عقد لهذا الغرض اجتماع سرى فى عدن حضره سياد برى ومنجستو وسالم ربيع وفيدل كاسترو وقد رفض فيه سياد برى مشروع الاتحاد لانه بانضمامه اليه مع اثيوبيا وانما يعزز الاستعمار الاثيوبى لمنطقة القرن الافريقى كله .

أسفر الشرق والغرب عن أهدافهما بوضوط : شاء الأول أن يكون سيد المحيط الهندى والبحر الأحمر وبدا الثانى كما لو كان يتجه الى تكرار أخطائه رغم تسليمه بأن الأهمية الاستراتيجية لاثيوبيا قد انتقلت للصومال وكان البنتاجون قد ادرك أواخر عهد هيلاسلاسى عدم أهمية اثيوبيا بعد تطور الأسلحة النووية .

ومن الأمور اللافتة للنظر ، بخصوص الدور الأجنبى فى الصراعات الاقليمية بين دول القرن الافريقى ، ما شهدته المعارك الطاحنة التى دارت رحاها فى اقليم أوجادين طوال شهر أغسطس بين ثوار « جبهة تحرير الصومال الغربى » من ناحية والقوات المسلحة الاثيوبية — من ناحية أخرى ، والتى كانت على وشك أن تصل الى مرحلة الحرب النظامية بين الصومال واثيوبيا . فالاتحاد السوفيتى أصبح المؤيد الرئيسى لاثيوبيا ، بينما يتضح اكثر فأكثر أن الدول الغربية خاصة الولايات المتحدة الأمريكية ستصبح هى المؤيد الرئيسى للصومال . والمفارقة هنا تتجسد فى أن السلاح

الصومال وهو سلاح سوفيتي فى الأساس سيوجه ضد الدولة التى تساندها موسكو ، بينما السلاح الاثيوبى ، وهو سلاح أمريكى فى الأساس، سيوجه ضد الدولة التى تساندها واشنطون . والأكثر خطورة ودلالة من ذلك وهو أن الاتحاد السوفيتى يؤيد « المنطق المحافظ » الذى تنادى به اثيوبيا بخصوص تنازع المبادىء التى تقوم عليها منظمة الوحدة الافريقية وخاصة التنازع بين مبدأ قدسية الحدود القائمة ، وبدأ حق تقرير المصير، بينما تقف الولايات المتحدة الامريكية الى جانب « المنطق الثورى » الذى تنادى به الصومال . وان كان هدف السياسة الأمريكية فى حقيقته هو التشجيع على « بلقنة » هذه المنطقة بحيث يمكن على سبيل المثال ، تفتيت اثيوبيا وتجزئة السودان .

ومن هنا يجد الاتحاد السوفيتى نفسه فى مأزق حقيقى ، يتمثل فى كيفية الاحتفاظ بنفوذه ووجوده فى كل من اثيوبيا والصومال . ويبدو أنه يقامر بأن بوسعه ، على أفضل الاحتمالات ، توسيع نطاق نفوذه فى اثيوبيا بدون فقد مركزه فى الصومال ، وانه على أسوأ الاحتمالات ، سيكون قادرا على مساعدة اثيوبيا فى قمع ثورة ارتيريا ، وفى كلتا الحالتين سيكون دخوله البحر الأحمر تعويضا كافيا عن فقد الصومال شريطة ان يظل بموطىء قدم السوفيت فى اليمن الجنوبى بالمحيط الهندى على حاله دون أن يمس . ان مستقبل جميع دول المنطقة غير مؤكد الى حد كبير ، ولكن سيكون من قبيل المفارقة القاسية أن تتمخض محاولة السوفيت الانغماس فى اثيوبيا — وهى محاولة مستمرة منذ ثلاثين عاما تقريبا — عن السيطرة فحسب على ذلك الجزء الذى تحيط به الأراضى من كل جانب فى امبراطورية متداعية . وحتى هذا الجزء المحاصر ، يمكن أن يطيح انقلاب عسكرى بكل الامال التى وضعت عليه .

وبالاضافة لما تقدم ، فان فرنسا ينتابها القلق بخصوص مخططات كل من الصومال واثيوبيا حول جيبوتى ، المستعمرة الفرنسية السابقة التى لا تزال فرنسا تقيم فيها وجودا عسكريا حتى بعد الاستقلال « يونيو ١٩٧٧ » لقد كانت فرنسا تتعاون طوال استعمارها للاقليم مع نظام الامبراطور هيلاسلاسى فى اثيوبيا ، ومن بعده مع النظام العسكرى الحاكم هناك ، الى ما قبل سيطرة الكولونيل مانجستو على السلطة . كما كانت السلطات

الفرنسية تتعاون مع الاقلية ذات الأصوات الاثيوبية فى اقليم جيبوتى «العفر» فى حكمها للاقليم حتى مرحلة قريبة ، ضد الأغلبية ذات الأصول الصومالية فى الاقليم « العيسى » وبالتالى ضد الصومال الذى تبنى الاتجاه الاشتراكى، والذى منح الاتحاد السوفيتى تسهيلات بحرية فى ميناء بربرة ، فضلاً على أن يرفع شعار « الصومال الكبير » منذ استقلاله الذى يعنى فى التنفيذ استعادة اقاليم واسعة فى اثيوبيا وكينيا وجيبوتى . ومن ناحية أخرى كانت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وراء تدعيم القوات المسلحة الكينية التى كانت تشتبك مع الصومال أيضا فى نزاع على الحدود .

ان الصومال مدخل البحر الأحمر ، اذ ينتمى الى الوطن العربى بوضعه التاريخى والجغرافى والسياسى والقومى يقاوم هذا الصراع الدءوب من منطلق شعوره بالمخاطر على الوطن ويرفض محاولات التغلغل واثارة الفتن التى تحركها اطماع قوى الاستعمار الجديد لدعم نفوذها وسيطرتها على القارة الافريقية الغنية بالموارد والثروات الطبيعية .

ويرى الصومال فى توفير الأمن بالبحر الأحمر تأمينا لجميع الشعوب العربية الثمانية المطلة عليه وهى : مصر والسودان والسعودية والأردن واليمن الشمالية واليمن الجنوبية واريتريا وجيبوتى والصومال .

وهذا الموقع الاستراتيجى الهام يؤثر تأثيرا مباشرا او غير مباشر على دول القارة الافريقية بصفة عامة والدول العربية بصفة خاصة .. ولهذا قامت الدول العربية من ناحيتها باتخاذ مواقف سياسية عربية موحدة للحفاظ على حيدة وعروبة البحر الأحمر .

وفكرت بعض الدول العربية فى انشاء قوة دائمة للامن العربى لمواجهة الاخطار المحيطة بأمن البحر الأحمر .. واحباط محاولات الوجود الاسرائيلى فى بعض الجزر القريبة من ساحل اريتريا عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر نظير مساعدتها لاثيوبيا ضد ثوار اريتريا والصومال . ورغم الصعوبات التى واجهت تنفيذ هذا التفكير ، فان العرب يمكنهم احكام السيطرة على البحر الأحمر باتحادهم وتوفير القوة المناسبة للتصدى لهذه الأخطار . .

ومن الناحية الدولية أخذت القوى الكبرى توجه اهتمامها بصفة خاصة نحو منطقة القرن الافريقى والبحر الأحمر . ونجد أن كلا من الولايات المتحدة الأمريكية والصين أصبحتا تعارضان أى وجود أو تغلغل عسكرى سوفيتى فى هذه المنطقة .. وذلك منذ تواجدها فى موزمبيق والصومال فى الأعوام الماضية وفى أثيوبيا فى الوقت الحالى .

وتعتبر الشواطىء الشرقية الافريقية ، وخاصة منطقة القرن الافريقى المطل على المحيط الهندى امتدادا استراتيجيا يؤثر فى المجال الدولى للسيطرة على حرية الملاحة البحرية للتجارة العالمية والبترول .

وخاصة بعد أن وجدت الولايات المتحدة أن سياسة الوفاق الدولى مع روسيا تشوبها الكثير من السلبيات والمراوغات .

٣٤
مواقف القوى من البحر الأحمر

محمود توفيق محمود
كلية التربية ــ جامعة القاهرة
فــرع الفيوم

تمهيــــد :

يبدو البحر الاحمر اليوم من فرط الاهتمام المتزايد به وكأنه قد اعيد اكتشافه من جديد ، فهو يبدو للناظر اليه كما لو كان مائدة شهية انشقت عنها الارض فتزاحمت من حولها وتكالبت عليها فى كل منها تســـعى لكى تتبوأ منها مقعدا .

والبحر الاحمر كجزء من اقصــر واســرع طريق بحــرى بين الشرق والغرب قد توافرت له المزايا والخصائص الجيولوليتكية التى جعلته دائما محورا رئيسيا تتحرك عليه صراعات القوى الكبرى ومواجهاتها ومناوراتها تحقيقا لمصالحها الديولوجية والاقتصادية والسياسية والعسكرية المتزايده لذا كان البحر الاحمر اختزالا مثاليا لتاريخ العلاقات الدولية ، التى تقوم منذ القدم على توازن القوى بين الدول صاحبة النفوذ ، ســـواء كان هذا التوازن بسيطا او مركبا .

وطالما أن هذه الدراسة تتناول تحليل المــواقف على ضـــوء المطالب والاحتياجات فان المعالجة سيغلب عليها الطابع الجيولولتيكى (١) . وان

---

(١) الجيولوليتكس فرع من الدراسات الجغرافية الســياسية التى تعنى تعنى بدراسة الوحدات السياسية فى بيئتها الجغرافية . ومن أهم ما يميز الجيولوليتكس انها تدرس المطالب الكافيـــة وانعكـــاس ذلك على توجيه الوحدات والقوى السياسية وبصفة اخرى انها تدرس الــدول من وجهة نظر معينة خاصة فى حين أن الجغرافيا السياســية تدرس الدولة من وجهة نظر المكان ، لذا فهى تعتمد على التحليل الموضوعي .

كان هذا لايعنى اغفال جانب الجغرافيا السياسية لانها ستقدم الحقائق التى على ضوئها سنحلل مطالب القوى من البحر الاحمر وما يترتب على ذلك من مواقف وسلوك تنهجه القوى لتحقيق هذه المطالب .

البعد التاريخى :

من المؤكد أن البعد التاريخى يعد جزءا هاما من أية دراسة علمية جادة تتناول اى واقع جيولولتيكى قائم الان وبغير هذا العمود التاريخى تصبح الاحداث المتعلقة بهذا الواقع القائم مجرد احداث مادية مفتعلة ، لا تخضع للتحليل الجيولوليتكى الذى لا يتعامل الا مع الاحداث المتكررة لان التاريخ اذا كرر نفسه فلن يكون ذلك الا من خلال الجغرافيا باعتبارها المسرح الذى تدور عليه عمليات التاريخ وأحداثه التى تنضبط بخصائصه وتتأثر بشخصيته .

والمتتبع لتاريخ البحر الاحمر سيلاحظ على الفور ان هناك تكرار لكثير من الوحدات الهامة المتشابهة ، ولكن اذا تأمل هذه الاحداث مرة أخرى بدقة سيجد ان ثمة اختلافا بين هذه الاحداث التى تبدو متكررة وهو اختلاف من حيث الدرجة لا من حيث النوع . وهذا فى الحقيقة لايدحض نظرية « التكرار الجغرافى للتاريخ » بقدر ما يؤكد صحتها . فهذا التقارير والاختلاف قد ارتبط أساسا بتغاير مقابل فى خصائص المكان وانعكاس ذلك على علاقته بالاماكن الاخرى ، فلكل مكان قضبان تجرى عليها أحداث معينة لا تتغير الا بتغير خصائص هذه القضبان . ويعد البحر الاحمر نموذجا واضحا للعلاقة بين الاحداث التاريخية وخصائص المكان ولبيان ذلك ولتوضيحه ايمكن تقسيم دور البحر الاحمر (كمكان) عبر التاريخ الى المراحل التالية :

المرحلة الاولى :

وهى المرحلة البر مائية ، التى كان فيها البحر الاحمر مجرد بحر داخلى وخليج عربى طويل يتوغل بين اليابس الاسيوى والافريقى ، الذى كان يحتفظ باتصاله واستمراره عبر برزخ السويس . ومن هنا كان الطريق البحرى ينتهى عادة بالقرب من برزخ السويس ثم تقوم طرق برية بالربط بين محطات هذا وموانيه وبعض المدن القائمة فى وادى النيل وفى مرحلة تالية

مجرى استخدام النيل وفروعه كهمزة وصل بين طريق البحر الاحمر وطريق البحر المتوسط شمالا .

ويذكر التاريخ ان قدماء المصريين قد استخدموا هذا الطريق البرمائى للوصول الى بلاد بونت (ساحل الصومال) وجنوب الجزيرة العـــربية . كما تعددت محاولاتهم لشق قنوات تصل بين النيل والبحر الاحمـــر اقتناعا منهم بأن الماء اصلح من اليابس كطريق لانتقال الانسان والمصانع من مكان لاخر . وقد جرت هذه المحاولات فى عهـــد الملكة حتشبســـوت والاسرة السادسة والعشرين، حيث تم حفر ترعة تمر لوادى الطميلات ، وقدتكررت المحاولة على يد بطليموس الثانى وتراجان وعمرو بن العاص (٢) .

ومنذ ان فتح الاسكندر مصر بدأ البطالمة التوسع فى استخدام هـــذا الطريق البرمائى بتطوير الدور الذى يقوم به اليابس المصرى كحاجز طبيعى برى بين البحرين الاحمر والمتوسط فى فقد تحول دور اليابس المصرى من مجرد المستورد المستهلك الى دور الوسيط الجغرافى التجارى بين الشرق والغرب الذى يقوم بالاستيراد والتصدير . كما اهتم البطالمة ومن بعدهم الرومان بتركيز طرق التجارة الوافدة من افريقيا وبلاد العرب والهند عبـــر البحر الاحمر وانشاء عدد من الموانىء بالعرب ففى المدخل الجنوبى للبحر الاحمر .

وبعد الفتح العربى لمصر ، ازدهر طريق البحر الاحمر البرمائى بعد ان سيطر العرب تماما على البحار الشرقية فأصبحت التجارة العربية بلا منافسة فى الخليج (الفارسى) والبحر العربى والبحر لاحمر ودانت للعرب السيطرة على مفاتيح الطرق بين الشرق والغرب ، حتى ان جزيرةسيلان وهى التى لم تخضع قط للحكم العربى قد اصبحت فى القرن الثامن مركـــزا للتجارة العربية ، بل يكاد يكون من المؤكد ان التجار العـــرب قد وصلوا الى الصين (٣) . ولا شك ان انفرادالعرب بالبحار الشرقية انما يرجع الى

---

(٢) جلال يحيى . البحر الاحمر والاستعمار — القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر فى ١٩٦٣ ، ص : ٨

(٣) جيمر فيرجريف . الجغرافيا والســـيادة العـــالمية — مترجم — القاهرة : النهضة المصرية ١٩٥٦ ، ص : ١١٣

ذلك الحاجز البرى الذى يفصل بين البحـار الشرقية والغـربية وسيطرة العرب عليه .

وازدهار التجارة العربية فىالبحار الشرقية ارتبط به ازدهار مماثل فى البحر المتوسط يعتمد على موقع مصر كحاجز برى بين البحار الشرقية والغربية . ففى أوربا المتوسطة نشأت مدن وموانىء تجـارية تسـتقبل بضائع الشرق الثمينة(٤) . وتقـوم بدورها بتوزيعها على بقية أنحاء أوربا كجنوة والبندقية .

المرحلة الثانية :

وهى المرحلة المحيطية التى تبدأ باكتشاف البرتغاليين طـريق رأس الرجاء الصالح فى أواخر القرن الخامس عشر واثبات حقيقة اتصال الماء وانقطاع اليابس . وباكتشاف هذا الطريق أصبح هناك طريق مباشر يربط الشرق بالغرب تتوفر له كل مزايا الطريق المائى البحت . واستطاع هـذا الطريق المحيطى المكشوف أن يستحوذ على التجارة التى كانت تمر عبـر الطريق البرمائى القديم فيما يشبه الاسر الملاحى Naval Capture ، حيث قام هذا الطريق المحيطى القوى بأسر الطريق البرمائى الضـعيف ، فتحول البحر الاحمر بذلك الى بحر داخلى Inland Sea وطريق ضامر Misfit route تقتصر اهميته على التجارة الساحلية وكانت نتيجة هذا التحول ان انقطعت عن طريق البحر الاحمر — او كادت — الحركة البشرية وتيارات الحضارة الانسانية ، وتدهورت قيمة واهميـة موانىء ودول البحر الاحمر ، وانتقلت هذه المزايا مجتمعـة الى موانىء ودول المحيط الاطلنطى التى ظلت طوال المرحلة السابقة على هامش هذا العام ، ونفس هذا المصير واجهته موانىء ودول البحر المتوسط خاصـة

---

(٤)احتلت القوافل اهمية خاصة بالنسبة للتجارة بين الشرق والغرب ويرجع ذلك الى تميز هذه السلعة بالوزن الخفيف والحجم والثمن المرتفع، ويرجع تزايد طلب اوربا على هذه السلعة الى أهمية التوابل بالنسبةللحم المقدد الذى كان يختزنه الناس للشتاء حين تصبح الارفف عامرة من الانتاج فاضافة بعض البهارات الى هذا اللحم يخفظه كما تريد من شهية الانسان ونشاطه الذى يبعثه الطعام .

تلك الواقعة فى الحوض الشرقى باعتبارها تقع على جزء من هذا الطريق الضامر .

وعلى الرغم من ذلك الاضمحلال الذى أصاب الطريق البرمائى القديم فانه احتفظ ببعض أهميته باعتباره اقصر واسرع طريق بين الشرق والغرب لذلك شهدت هذه الفترة التى اعقبت اكتشاف طريق رأس الرجاء اهتماما متزايدا من جانب كل من فرنسا وبريطانيا بالطريق القديم بصفة عامةومصر بصفة خاصة باعتبارها الطريق البرى المتمم للبحر الاحمر . فقد حاولت فرنسا احياء هذا الطريق بالحصول على امتياز يقضى بتخفيض الرسوم الجمركية على بضائعها المارة بمصر ثم تطور اهتمامها بهذا الطريق بالعمل على شق قناة عبر برزخ السويس (٥) تصل بين البحرين الاحمر والمتوسط. اما انجلترا فقد استمرت فى استخدام طريق رأس الرجاء الصالح الذى يربط بينها وبين اكبر مستعمراتها فى الهند خاصة بالنسبة لنقل البريد والمسافرين بين الهند وانجلترا ، بينما خصصت طريق الرجاء الصالح للتجارة . وقد زادت كفاءة هذا الطريق بعد استخدام السفن التجارية بداية القرن التاسع عشر حيث كان قليل النفع بالنسبة للسفن الشراعية التى تعتمد فى تحركها على قوة دفع الرياح ، ولذلك لم يكن فى استطاعة السفن الشراعية الابحار من الهند الى السويس الا فى فترة الرياح الجنوبية الغربية التى تمتد من يونية الى سبتمبر ، اما الابحار من السويس الى الهند فكان يقتصر على فترة الرياح الشمالية الشرقية التى تمتد من ديسمبر الى فبراير (٦) . حتى لا تضطر الى السير فى اتجاه الرياح .

المرحلة الثالثة :

وهى المرحلة البحرية ، وتأتى فى اعقاب شق قناة عبر برزخ بين اليابس الاسيوى والافريقى وتحقق الاتصال بين البحرين الاحمر والمتوسط فى حيث شكلا معا ممرا مائيا واحدا وطريقا بحثيا من الدرجة الاولى .

---

(٥) كان هذا المشروع أحد الأهداف الرئيسية للحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ ولكن النتيجة التى توصل اليها علماء الحملة جاءت مخيبة للآمال حيث أثبتت أن سطح البحر الأحمر يرتفع عن سطح البحر المتوسط ببضعة أمتار .

(6) U. S. Navy Department H. O., Red Sea and Gulf of Aden Pilot, No. 157, 1921, p. 47.

وبهذا الاتصال المائى البحت اعيد مرة أخرى توجيه réorientatin خطوط المواصلات البحرية الى البحر الاحمر الذى أصبح اكثر قوة واهمية مما كان عليه كطريق برمائى ، واستطاع بذلك أن يتخلص من أسر الطريق المحيطى بعد ان اصبح اقصر واسرع طريق بحرى بين الشرق والغرب ، حيث اختصر ما يقرب من ثلثى المسافة بين الشرق والغرب عن طريق رأس الرجاء ، فالمسافة على سبيل المثال بين الكويت وليفربول انخفضت من ١٣٥٠٠ ميل عن طريق رأس الرجاء الصالح الى نحو ٧٠٠٠ ميل عن طريق البحر الاحمر ، أى بوفر يقدر بنحو ٥٨ ٪ من طول المسافة ، كما انخفضت المسافة بين سنغافورة وليفربول من ١٥٠٠٠ ميل الى مايقرب من ٩١٠٠ مايقرب من ٩١٠٠ ميل عن طريق البحر الاحمر ، أى لوفر أعدل بنحو ٣٩٪ من طول المسافة . وهذا الاختصار فى المسافة يقابله اقتصاد فى تكاليف النقل البحرى والوقت الذى يستغرقه ، فطريق البحر الاحمر يوفر نحو ١٤ يوما بين سنغافورة وليفربول ونجر عشرة ايام بين الكويت وليقربول .

ولا شك ان هذا الطريق البحرى قد ساهم بوضوح فى الطفرة الصناعية والحضارية الحديثة التى شهدتها اوربا الغربية حتى وصلت الى درجة التشبع فهذا الطريق البحرى قرب المسافة هذه الدول وبين مصادر المواد الخام وأسواق التصدير فى آسيا وافريقيا بأرخص التكاليف واقل الأوقات ، ويكفى ان هذا الطريق يستقطب نحو ٧٤٪ من حمولة أساطيل العالم .

وابتداء من الثلاثينيات من هذا القرن ، ومع بداية تدفق البترول فى الخليج العربى : طرأ تغير جوهرى على وظيفة هذا الطريق البحرى حيث تحول من مجرد حمر مائى الى شريان تغطى بالدرجة الاولى ، تمر به اهم سلعة استراتيجية فى عالم اليوم ، فحركة البترول تمثل نحو ٧٢ ٪ من الحمولة الكلية التى تمر به (قبل ١٩٦٧) فلا عجب اذن ان تجارة نقل البترول الخام تحملت زيادة فى التكاليف عقب اغلاق قناة السويس عام ١٩٦٧ بلغت ما يعادل ٦٥ ٪ من اجمالى زيادة تكلفة النقل البحرى (٨) .

---

(٧) الاهرام الاقتصادى — العدد ٤٧٨ — ١٥ يوليو ١٩٧٥ (الرقم يشير الى ماقبل عام ١٩٦٧)

(٨) الاهرام الاقتصادى — العدد ٤٦٩ — ٦ مارس ١٩٧٥

كما ان معدل مرور ناقلات البترول بلغ نحو ٢٧ ناقلة يوميا (٩) .

منطقة الدراسة :

البحر الاحمر « بالمفهوم الجغرافى » يمتد بين خطى عرض ١٢ر٣٦ و ٣٠ شمالا ، اى بين رأس باب المندب فى أقصى الطرف الجنوبى الشرقى وبين السويس فى اقصى الطرف الشمالى الغربى . وتطل على مياهه ثمان دول بسواحل متفاوتة الاطوال : اذا تتبعناها على الخريطة فى اتجـــاه عقارب الساعة سنجدها على التوالى : اسرائيل ، الاردن ، السعودية، اليمن الشمالية ، جيبوتى ، اثيوبيا ، السودان ومصر .

ومن بين هذه الدول الثمانية هناك ست دول عربية تتوزع بالتساوى على الساحلين الاسيوى والافريقى للبحر الاحمر ، اما الـدولتان غـير العربيتين فتقع احداهما فى أقصى الطرف الشمالى لساحل البحر الاحمـر وهى اسرائيل ، اما الثانية فتقع فى أقصى الطرف الجنوبى الغربى لساحل البحر الاحمر وهى اثيوبيا .

ويمكن اضافة خليج عدن للبحر الأحمـر الجغرافى على اعتبار انه المدخل الطبيعى للبحر الاحمر ، كما انه يحمل الخصائص الطبيعية لحوض البحر الاحمر كخليج صدعى ضيق،سواحله قاحلة شديدة الاستقامة ومياهه ضحلة ، مرتفعة الحرارة والملوحة ، ومزدحمة بالشعاب المرجانية ، فضلا عن الحافات الصخرية الساحلية المرتفعة التى يتراوح ارتفاعها بين ٢٠٠٠ ، ٧٠٠٠ قدما فوق سطح البحر . وتطل على مياه خليج عدن كل من اليمن الجنوبية شمالا والصومال جنوبا . وبهذا يصبح عدد الدول المطلة عـلى البحر الاحمر الجغرافى عشر دول ، من ثمان دول عربية .

والبحر الاحمر « بالمفهوم الجيولوتيكى » يبدو اكثر اتساعا من البحر الاحمر الجغرافى ، حيث لا يقتصر على الوحدات السياسـية التى تطل

---

(٩) هنرى لابروس . الخليج والقنـاة . مجلة دراسـات الخليج والجزيرة العربية ـــ العدد ٨ ـــ اكتوبر ١٩٧٦ ، ص ١٤٧

مباشرة على البحر الاحمر ، بل يتعدى ذلك ليشمل الوحـــدات السياسية التى ترتبط سياسيا او اقتصاديا أو عسكريا او استراتيجيا بالبحر الاحمر، لذلك فان منطقة مثل القرن الافـــريقى تدخل فى نطـــاق البحـــر الاحمر الجيولوتيكى لانها تتحكم فى المدخل الجنـــوبى للبحر الاحمـــر وترتبط به ارتباطا يكاد يكون عصريا كما ان منطقة الخليج العربى يمكن ان تدخل فى الحوز الجيولوليتكى للبحر الاحمر على اعتبار ان معظم صادراتهاالبترولية تم بالبحر الاحمر ، والمعروف ان البترول يشكل عصب الاقتصاد القـــومى لدول الخليج . وبالمثل يمكن القول بأن دول غرب اوربا الصناعية لهامطالب جيولوليتكية فى البحر الاحمر لانها تعتمد على بترول الخليج اعتمادارئيسيا لسد العجز الذى تعانيه فى الطاقة . كما ان دولة مثل الاتحاد السوفييتى يمكن ان تدخل ايضا فى النطاق الجيولوليتكى للبحر الاحمر الذى يعتبـــر اقصر طريق يربط بين موانيها على البحر الاســـود واســـطولها فى المحيط الهندى الذى يمثل اهمية بارزة فى الاستراتيجية البحرية السوفييتية . والولايات المتحدة الامريكية على سبيل المثال أيضا لا تخرج عن الحـــوز الجيولوليتكى للبحر الاحمر حيث الاحمر حيث يمر بتـــرول الخليج ، الذى تحتكر اكثر انتاجه وتجارته الشركات الامريكية التى يعتمد عليهـــا ميزان المدفوعات الامريكى .

وواضح ان النطـــاق الجيولوليتكى للبحر الاحمـــر هائل الاتســـاع بحيث يمكن ان أشمل الخريطة السياسية للعالم كله وذلك لعدة خصائص جيولوليتكية تميز البحر الأحمـــر وتدفع به فى الصـــدارة من حيث الأهمية الجيوستراتيجية .

الخصائص الجيوبوليتكية :

اولا :

.. البحر الاحمر عبارة عن حوض ضيق ، شريطى الشكل تبلغ مساحته نحو ١٧٨٠٠٠ ميلا مربعا (١٠) . ويبلغ طوله نحو ١٢٠٠ ميلا (١١) . من

(10) Great World Atlas. - N. Y. Reader's Digest, 1963, p. 152.

(11) U. S. Navy., op. cit., p. 13.

السويس الى رأس باب المندب ، بينما يبلغ متوسط عرضه نحو ١٧٠ ميلا ويبلغ العرض مداه بين مصوع وجيزان بمسافة تصل الى ١٩٠ ميلا بينما يبلغ ادناه بين المخا وعصب حيث لا يتجاوز الاتساع ٤٠ ميلا . ويضيق حوض البحر الاحمر كلما اتجهنا شمالا وجنوبا حيث يزداد ضغط اليابس على الماء الى حد الاختناق تجاه الاطراف . وتتمثل نقط الاختناق Choke Points شمالا فى كل من مضيق تيران وجوبال بينما تتمثل جنوبا فى مضيق باب المندب

أما مضيق تيران Tiran Str. فهو يقع عند مدخل خليج العقبة الذى يعد الذراع الشمالى الشرقى للبحر الأحمر الصدعى والذى يمتد شمالا ليشمل وادى عربة والبحر الميت ونهر الأردن ولذلك يصل عمقه الى أكثر من ٣٣٠٠ قدم بينما لا يتجاوز متوسط اتساعه عشرة أميال ، ويضيق الى ثمانية أميال فقط عند المدخل . وداخل مضيق تيران تقع عدة جزائر صغيرة اهمها جزيرتا صنافير وتيران(١٢) اللتان تقومان بتقسيم المدخل أو المضيق الى ثلاثة ممرات ، لا يصلح منها للملاحة سوى المر الواقع بين جزيرة تيران وشبه جزيرة سيناء والذى لا يتجاوز عرضه ٣,٠٧ من الأميال .

أما مضيق جوبال Gubal Str. فيقع عند مدخل خليج السويس الذى يعد الذراع الشمالى الغربى للبحر الأحمر وهو خليج انخفاضى وليس باخدودى كخليج العقبة(١٢) ، ولذلك لا يتعدى عمقه ٣٣٠ قدما بينما يزيد اتساعه حتى يبلغ فى المتوسط نحو ٢٠ ميلا ، وهو يضيق عند مدخله بحيث لا يتجاوز اتساعه ١٨ ميلا . وداخل مضيق جوبال تقع عدة جزائر صغيرة أهمها جزائر أم قمر وسدوان وجوبال .

أما نقطة الاختناق الرئيسية فتتمثل فى مضيق باب المندب جنوبا الذى لا يزيد اتساعه عن ٢٠ ميلا ، فضلا عن أن جزيرة بريم (ميون) :

---

(١٢) مقارنة بالبحر المتوسط نجد أن الميل من ساحل المتوسط يقابله ١١٨,٣ ميلا من المساحة .

(12) Hume, W. Is the Gulf of Suez a Ruft Valey ? - London : Nature, vol. 63, Jan, 1924, p. 49.

تقوم بتقسيم المضيق الى ممرين ، أحدهمـا شرقى يسمى أحيانا باب اسكندر ويبلغ عرضه أقل من ميلين . أما الممر الغربى فيسمى احيانا ممر ميون ولا يتجاوز عرضـه ١٦ ميلا . وغالبا لا يستخـدم الممر الغربى ، خاصة أثناء الليل حيث تنتشر الشعاب المرجانية .

ويمكن أن نضيف الى نقط الاختناق فى البحر الأحمر قناة السويس الذى يتراوح اتساعها بين ٥٠٠ — ٧٠٠ قدم بينما لا يتجاوز عمقها ٣٨ قدما .

ومن هذا يتضح أن البحـر الأحمر من البحـار ذات الامتداد الطولى الكبير ، ولذلك تتميز سواحله بالطول نسبة الى مساحته ، حيث أن كل ميل من الساحل يقابله ٥٧ر٩ ميلا مربعا من المساحة . وبهذا يبتعد شكل البحر الأحمر عن الشكل الحوضى الململوم المندمج ويفتقد بالتالى ميزة ما يمكن أن نسـميه بالملاحة فى العمق Novigation in depth فكلما طال الساحل بالنسبة للمساحة فان هذا يعنى زيادة امكانية السيطـرة على المجرى الملاحى من المواقع السـاحلية الحاكمة ، وبالتالى فان ذلك يحد من حرية الحركة والمناورة فى العمق بعيدا عن تطفل الساحل ، وهذا التطفل الساحلى يتمثل اما فى صورة رسـوم عبور أو جمارك أو خدمات فى حالة الملاحة التجارية ، أو فى صورة اخطـار مسبق وتفتيش واثبات براءة المرور فى حالة الملاحة الحربية .

وتزداد سيطرة المواقع الساحلية على مياه البحـر الأحـمر كلما اتجهنا نحو الشـمال أو الجنوب ، حيث يزداد ضغط اليابس على المـاء الى حد الاختناق وبالتالى يضيق مسطح المياه الدولية ويزيد مسطح المياه الاقليمية والمياه الداخلية ، وان الاختناق فى الأطراف غالبا ما تصـاحبه اعماق ضحلة مما يزيد من ضيق المجرى الصـالح للملاحة بالاضافة الى تضاءل فرصة استخدام هذه الخوانق أمام الغواصات .

ولعل من ابرز الأحداث المتعلقة بنقط الاختناق فى البحـر الأحمر تلك المتعلقة بالصراع العربى الاسرائيلى ، حين حاول العـرب استغلال مواقعهم الحاكمة بالقرب من نقط الاختناق لعرقلة الملاحة الاسرائيلية .

فقد قامت مصر عام ١٩٥٠ — بالاتفاق مع السعودية — باحتلال جزيرتي صنافير وتيران وفرضت قيودا صارمة على مرور السفن الى اسرائيل عبر مضيق تيران فضلا عن منع مرورها بقناة السويس . وكان نتيجة ذلك اشتراك اسرائيل في العدوان على مصر عام ١٩٥٦ واحتلالها منطقة شرم الشيخ التي تتحكم في مضيق تيران . وتكررت المحاولة من جانب مصر مرة أخرى عام ١٩٦٧ وكان نتيجة ذلك أيضا قيام اسرائيل بعدوانها على مصر واحتلال شبه جزيرة سيناء بأكملها وجزيرتا صنافير وتيران . ومرة ثالثة ، قام بمصر في اكتوبر ١٩٧٣ بعرقلة الملاحة الاسرائيلية ولكن هذه المرة عند نقطة الاختناق الرئيسية للبحر الأحمر المتمثلة في مضيق باب المندب على بعد ١١٠٠ ميل من مضيق تيران الواقع تحت سيطرة اسرائيل والذي اصبح بهذا « الخنق الجيوستراتيجي » عند مضيق باب المندب بمثابة خانق مشلول أو نقطة اختناق ثانوية .

ثانيا : يتميز البحر الأحمر بقاع وعر غير منتظم تتخلله أخاديد وحافات انكسارية يغلب عليها الاتجاه الشمالي غربي — الجنوبي شرقي وهو نفس اتجاه البحر الأحمر كما تغطي بعض أجزاء القاع تلال ، بعضها يقترب من سطح الماء وبعضها يظهر فوقه على شكل جزائر . ويرجع عدم انتظام القاع الى طبيعة حوض البحر الأحمر كجزء من الأخدود الافريقي الذي نشأ عن انكسارين متوازيين أصابا قشرة الأرض في المناطق التي يخترقها الأخدود ثم هبطت قشرة الأرض فيما بينهما فبقيت حافتا الأخدود مرتفعتين . وبينهما سلسلة من الأخاديد الصدعية الثانوية التي تختلف اختلافا كبيرا في أعماقها من مكان لآخر . وبصفة عامة نجد أن أقل الأعماق توجد في الأطراف الشمالية والجنوبية من البحر الأحمر خاصة خليج السويس حيث تتراوح أعماقه بين ٢٠٠ — ٣٠٠ قدم ، أما أكثر الأجزاء عمقا فتتمثل في المحور الانكساري الأوسط للبحر الأحمر الذي يمتد بين خطي عرض ٢٥° ، ١٧° شمالا ويصل عمقه الى أكثر من ٦٦٠٠ قدم ، ومن خط ١٧° شمالا تبدأ الأعماق تقل تدريجيا كلما اتجهنا جنوبا حيث تصل بالقرب من جزيرة حنيش الى ١٢٠٠ قدم فقط ، ثم تزيد الأعماق مرة أخرى فيما بين المخا وعصب وتصل الى ٦٦٠ قدما . وتقل الأعماق في اتجاه باب المندب حيث يصل العمق الى نحو ٥٥٠ قدما بالقرب من رأس دوميرا التي تبعد حوالى ١٢ ميلا شمال جزيرة بريم . أما العمق

داخل مضيق باب المندب فيبلغ فى المضيق الشرقى نحو ٨٥ ميلا فقط ، تينما تزيد الأعماق فى المضيق الغربى وتصل الى حوالى ٩٩٠ قدما(١٤) .

وتضرس قاع البحر الأحمر الشديد وعدم انتظام أعماقه من شأنه أن يؤثر على حركة الملاحة وانسيابها خاصة وأن معظم الأجزاء تتسم بالضحولة حيث لا يزيد متوسط العمق عن ١٫٤٩٠ قدما ، ولذلك فان الملاحة فى البحر الأحمر تأخذ بصفة عامة طابع الحرص والحذر لتخير الأعماق المناسبة وتفادى العقبات التضاريسية .

ولا شك أن التضاريس القاعية تلعب دورا هاما فى الاخفاء والتمويه البحرى خاصة بالنسبة لملاحة الأعماق ، حيث يمكن لهذه التضاريس تشويه وتضليل الموجات الصوتية أو فوق الصوتية المرسلة من أجهزة الاستكشاف لرصد الغواصات ، ولكن يقلل من قيمة هذا العامل أن أعماق البحر الأحمر فى كثير من الأجزاء ضحلة بحيث لا تجعل من قاع البحر الأحمر ميدانا صالحا لنشاط وعمل الغواصات .

كما أن ارتباط الأعماق الكبيرة الصالحة لملاحة الأعماق بالأغوار تجعل الملاحة فى البحر الأحمر ترتبط باتجاه هذه الأغوار التى يغلب عليها الامتداد الشمالى غربى — الجنوبى شرقى يعنى هذا أن حركة الملاحة الرئيسية فى البحر الأحمر حركة طولية بالدرجة الأولى بينما تتراجع الملاحة العرضية الى المرتبة الثانوية ، خاصة وأن الملاحة العرضية بطبيعتها أقل كثافة لأنها تربط بين بيئات متشابهة ، فى حين يربط المحور الطولى بين بيئات متباينة أكثر حاجة الى التبادل لتحقيق التكامل ، علاوة على أن الملاحة العرضية الداخلية لا تستخدم غالبا السفن ذات الغاطس الكبير .

والضوابط والقيود التى تفرضها تضاريس أعماق البحر الأحمر على حركة الملاحة تبدو أكثر وضوحا وقوة عند نقط الاختناق خاصة المتمثلة فى المدخل الشمالى والجنوبى للبحر الأحمر ، لأن أعماق نقط الاختناق الرئيسية هى الضابط الأساسى لغاطس السفن المسموط بالمرور لها فى

---

(14) Selim, A., Physical and Chemical Oceanography of the Red Sea. Oceanogr. Mar. Biol. Ann. Rev., 1970 p. 73 - 202.

عبر البحر الأحمر . ومن ناحية أخـرى فانه اذا سمح عمق المدخل الجنوبى (والمقدر بنحو ٩٩٠ قدما)بدخول غاطس كبير فان المدخل الشمالى (٣٨ قدما)لن يسمح بخروج هذا الغاطس من خلاله .

ثالثا : يغطى قاع البحرالأحمر تلال مرتفعة ، يرتفع بعضـها الى ما دون سطح المـاء والبعض الآخر يظهر فوق السطح على شكل الجزائر بعض هذه الجزائر له سمات الجزائر التى تتكون على أعماق كبيرة من القاع ازاء تراكم طفوح بركانية يبلغ منسوبها أحيانا منسوب الجبال وهى التى تسمى بالجزائر المحيطية كجزيرة الزبرجد بالقـرب من رأس بناس على الساحل المصرى(١٥) وجزر ذقر والحنيش الصغيرة والكبيرة بالقرب من المدخل الجنوبى .

وهناك أيضا جزائر ساحلية off - shore - islands وهى جزء مفصول عن اليابس وترتبط به من حيث التركيب البنائى مثل جزيرة بريم وشدوان وقمران وفرسان ودهلك . علاوة على ذلك هناك نوع آخر من الجزائر وهى الجزائر المرجانية الحلقية Atolls وهى عبـارة عن جزائر تتألف من شعاب مرجانية قديمة ذات ارتفاع محدود فوق سطح مياه البحر . وهى تظهر على شكل حلقة دائرية تحصر بينها مستنقعا بحـريا ضحلا Lagoon ونظرا لأن مياه البحـر الأحمر بيئة صالحة لنمو وتكاثر حيوان المرجان لذلك فهى أكثر أنواع الجزر شـيوعا فى البحـر الأحمر خاصة بالقرب من الساحل حيث تتوفر المياه الضحـلة ، وهى ان كانت اكثر الجزر شيوعا الا انها أقلها حجما .

---

(١٥) محمد صفى الدين . مرفولوجية الأراضى المصرية — القاهرة النهضة العربية ، ١٩٦٦ ، ص ٤٨٩ .

(١٦) حسن سيد ، سيد حسن . الاقيانوغرافيا الطبيعية — القاهرة دار المعارف ، ١٩٦٩ ، ص٤٣٦ .

جدول (١)

الدولة	عدد الجزر	أهم الجزائر
السعودية	١٤٤	فرسان
اليمن الشمالية	٣٩	قمران — ذقر
اليمن الشمالية	٢	بريم — حنيش الكبيرة
جيبوتى	٦	جزائر سيبا — موليله
أثيوبيا	١٢٦	جزر دهلك — فاطمة — حالب — دومبرا
السوداء	٣٦	سواكن
مصر	٢٦	شدوان — صنافير — تيران

وتوضح بيانات الجدول رقم (١) أن عدد جزائر البحر الأحمر يقدر بنحو ٣٧٩ جزيرة(١٧) وهو عدد كبير نسبيا وذلك لأن معظم الجزائر قزمية متناهية فى الصغر بحيث يمكن أن نطلق عليها جزيرات islets ولذا فان عدد الجزائر الكبيرة التى تتجاوز مساحتها ثمانية أميال مربعة لا تتعدى جزائر مثل ذقر Zukur والحنيش الكبيرة Gr. Hanish ودهلك الكبيرة Gr. Dahlak وفرسان الكبيرة Gr. Farsan وقمران Kamaran

واذا قارنا بين عدد الجزائر والجزيرات ومساحة البحر الاحمر سنجد أن الكثافة الجزرية للبحر الأحمر تبلغ نحو ١ر٢ جزيرة فى كل ميل مربع من المسطح المائى . وهى كثافة مرتفعة تؤدى بلاشك الى تعقيد المجرى الملاحى وتزيد من احكام وسيطرة اليابس على الماء ، على اعتبار أن هذه البقع الجزرية ما هى الا قواعد متقدمة للساحل داخل المياه .

---

(١٧) اعتمد الباحث فى احصاء الجزائر على خريطة الأدميرالية البريطانية ، نوفمبر ١٩٥٢ ، مقياس ١ : ٧٥٠٠٠٠ ، خمس لوحات .

وتزيد قيمة هذه الجزائر وأهميتها كلما اقتربنا من نقط الاختناق الرئيسية فى البحر الأحمر ، خاصة تلك التى تقع على مقربة من المدخل الجنوبى للبحر الأحمر مثل جزيرتى بريم Perim ومولیلة Mouleleh اللتين تقعان داخل مضيق باب المندب . وتقل أهمية الجزائر كلما ابتعدنا شمالا كما هو الحال بالنسبة لجزائر الحنيش وذقر التى تتوسط المدخل الشمالى لمضيق باب المندب ، بالاضافة الى أرخبيل جزائر اريتريا ، خاصة دوميرا وحالب وفاطمة ودهلك . وتقل تدريجيا أهمية الجزائر كلما اتجهنا نحو القطاع الأوسط ، ثم تعود وتأخذ طابع الأهمية تدريجيا كلما اتجهنا شمالا تجاه نقط الاختناق كما هو الحال بالنسبة لجزائر صنافير وتيران فى مدخل خليج العقبة وجزائر جوبال فى مدخل خليج السويس .

وواضح أنه كلما زادت أهمية الجزائر وقيمتها الاستراتيجية أدى ذلك الى زيادة الطلب من جانب القوى المختلفة على هذه الجزائر . وهذا يعنى من الناحية الأخرى تزايد الأعباء الدفاعية الملقاة على عاتق الدول التى تتبعها هذه الجزائر . ونظرا لأن معظم جزائر البحر الأحمر تابعة للدول العربية (حوالى ٦٦٫٨٪ من مجموع الجزائر) فان ذلك يزيد من مسئولية هذه الدول لحماية هذه الجزائر من أطماع القوى المعادية . ويضاعف من مسئولية الدول العربية لحماية هذه الجزائر ، أن معظمها غير مأهول بالسكان لظروف مختلفة لعل أهمها صعوبة الحصول على المياه العذبة خاصة فى الجزائر المرجانية الواسعة الانتشار وذلك لانخفاض منسوبها بالنسبة لمستوى سطح البحر وتعرضها لموجات البحر العالية بصفة دائمة ، بالاضافة إلى ندرة الجريان السطحى فوق سطح هذه الجزائر لسرعة تسرب المياه بين مسام الصخور الجيرية التى تتكون منها الجزائر المرجانية ، وفوق كل ذلك فان صعوبة الحصول على المياه العذبة يرجع أساسا الى ظروف الجفاف الشديدة فى المنطقة .

رابعا : يبلغ الطول الاجمالى لسواحل البحر الأحمر — بما فى ذلك خليجى العقبة والسويس نحو ٣٠٦٩ ميلا ، يزيد الى ٤٣٤٧ ميلا اذا ما أضيفت سواحل خليج عدن .

جدول (٢)

الدولة	طول الساحل بالميل	النسبة المئوية
السعودية	١١٢٥	٣٦
مصر	٨٩٨	٢٨٫٨
أثيوبيا	٤٢٥	١٥٫٦
السودان	٣٠٩	٩٫٨
اليمن الشمالية	٢٧٥	٨٫٨
جيبوتى (على البحر الأحمر)	٢٥	٠٫٧
اسرائيل	٧	٠٫٢
الأردن	٥	٠٫١

وتوضح بيانات الجدول رقم (٢) أن سواحل البحر الأحمر طويلة — بصفة عامة — بالنسبة لمساحة البحر الأحمر ، حيث أن كل ميل من الساحل يقابل نحو ٥٧٫٩ ميلا مربعا من المسطح المائى .

وزيادة طول الساحل بالنسبة لمساحة البحر الأحمر يعنى جيوبوليتيكيا زيادة قدرة السواحل على التحكم فى البحر Sea Mastery ، ولذلك فان مثل هذا الساحل الطويل يعنى ارتباط سكان الدول الساحلية بالبحر ، خاصة وأن معظم دول البحر الأحمر ليس لها منافذ بحرية أخرى باستثناء كل من مصر واسرائيل والسعودية(١٨) . ولكن يبدو أن طول السواحل لا يكفى فى حد ذاته لتوثيق العلاقة والرباط بين سكان هذه السواحل الطويلة وبين البحر وزيادة درجة تحكمهم فى مياهه . ويبدو

---

(١٨) الدول المزدوجة السواحل هى مصر ولها جبهة متوسطية طولها ٥٣٨ ميلا ، واسرائيل ولها جبهة أيضا متوسطية طولها ١١٨ ميلا . أما السعودية فتملك جبهة بحرية على الخليج العربى طولها ٣٠٠ ميل .

ذلك واضحا فى عدة مظاهر أهمها تخلخل كثافة السكان على سواحل البحر الأحمر وقلة مراكز العمران والطرق الرئيسية — خاصة الحديدية — التى تنتهى الى ساحل البحر وتربطه بالداخل . وتفسير ذلك أن سواحل البحر الأحمر سواحل انكسارية Fault Coasts شديدة الاستقامة مما يقلل الفرصة المتاحة لقيام المرافىء الطبيعية . التى يمكن أن تحول الى موانىء رئيسية بنفقات معقولة فضلا عن أن الساحل صحراوى قاحل تمتد على طول ظهره حوائط صخرية عالية يتراوح ارتفاعها بين ٢٠٠ — ٣٠٠٠ قدم على الساحل الافريقى وبين ٣٠٠٠ — ٧٠٠٠ قدم على الساحل الأسيوى . وارتفاع هذه الحوائط الصخرية على هذا النحو يشكل عقبة بين البحر والداخل ، خاصة بالنسبة لمد الخطوط الحديدية التى تقل بشكل واضح بالنسبة لطول سواحل البحر الأحمر ويستثنى من ذلك خط جيبوتى — أديس أبابا الذى يستغل الأخدود الافريقى فى صعوده الى هضبة الحبشة ، والخط الايطالى الذى يمتد من مصوع حتى منسوب ٨٠٠٠ قدم فوق هضبة الحبشة ، والخط الذى مده البريطانيون فى السودان بين ميناء بورسودان والنيل(١٩) . ومن هنا فان البحر الأحمر يتميز بصفة عامة بقلة الموانىء الجيدة العميقة التى يمكن أن تستقبل السفن العملاقة المحيطية . ولعل موانىء البحر الأحمر تتمثل فى كل من : القصير — بورسودان — مصوع — الحديدة — جدة — العقبة — ايلات ، أى أن كثافة تركز اوانىء على ساحل البحر الأحمر تصل الى نحو ٤٣٨ر٤ ميلا كفاصل يباعد بين كل ميناء وآخر .

والجدير بالملاحظة أن الجبهات البحرية للدول المطلة عى البحر الأحمر يقل طولها بصفة عامة كلما اتجهنا او اقتربنا من نقط الاختناق فى أقصى الشمال والجنوب ، وكأن الدول فى مثل هذه المواقع ، أو تلك التى قامت بصنع هذه الدول على الخريطة السياسية ، تتزاحم لكى تجد لها منفذا ومتنفسا فى مثل هذه المواقع الاستراتيجية الحاكمة .

ولا شك أن طول سواحل الدول المطلة على البحر الأحمر بصفة عامة يجعل هذه الدول شديدة الحساسية لكل ما يمكن أن يؤثر فى التوازن

---

(١٩) محمد صفى الدين . افريقيا بين الدول الأوربية — القاهرة : مكتبة مصر ، ١٩٥٩ ، ص ١٥٢ .

فى البحر الأحمر والذى يرتبط بدوره بالتوازن العالمى . كما أن اعتماد معظم هذه الدول على البحر الأحمر كمنفذ للعالم الخارجى من شأنه أن يعرض أمن وسلامة هذه الدول للخطر ، حيث يمكن شـل حركة هـذه البلاد باحتلال الساحل الذى تنتهى اليه كل طرق المواصلات الاستراتيجية تقريبا ، أو بالسيطرة على نقط الاختناق الثانوية والرئيسية التى تتحكم بقوة فى تنظيم حركة الملاحة فى البحر الأحمر .

خامسا : تتميز مياه البحر الأحمر بارتفاع نسبى فى درجـة الحرارة مقارنة بالبحار الأخرى حتى تلك التى تقع فى نفس العروض ، وربما يرجع ذلك الى صغر مساحته وضيق مجراه ، بالاضافة الى وقوعه بين كتلتين كبيرتين من اليابس الساخن ، فضلا عن وقوعه داخل العروض الحارة ، وبالطبع تتأثر حرارة المياه السطحية (أقل من ٦٠٠ قدم) بحرارة الهواء الملامس لها بينما تظل درجة الحرارة فى الميـاه العميقة (أكثر من ٦٠٠ قدم) ثابتة ، حيث تتراوح بين ١٨°م فى الشمال و ٢٣°م فى الجنوب(٢٠) . أما درجة حرارة المياه السطحية فهى تختلف باختلاف درجة حرارة الهواء الملامس لها وفيما يلى بيان بمتوسط درجة حرارة الهواء الملامس للبحـر الأحمر :

جدول (٣)

	السويس		جده		مصوع	
	يناير	أغسطس	يناير	أغسطس	يناير	أغسطس
النهاية العظمى	٢٣,٥	٣٩,٥	٣٢	٤٢	٣٢	٤٣
النهاية الصغرى	٦	٢٠,٥	١٣,٥	٢٠,٥	١٩	٢٦,٥

المصدر : Selim, A., op cit., p. 85, Table II.

(٢٠) جرجس فهيم : أوقيانوغرافية البحر الأحمر .« الثروة المائية بالدول العربية » ـ المنظمة العربية للثقافة ـ القاهرة : ١٩٧٢ ، ص : ٣ — ٢٧ .

وواضح من بيانات الجدول رقم (٣) ان درجة الحرارة تنخفض كلما اتجهنا شمالا ، فهى تتراوح فى فصل الشتاء بين ٢٣°م فى الشمال و٣٢°م فى الجنوب ، أما فى فصل الصيف فتتراوح الحرارة بين ٥ر٣٩°م جنوبا . وبذلك فان متوسط حرارة المياه السطحية ـ حسب تقدير لوكبس(٢١) ـ يبلغ ٣١°م فى الجنوب تنخفض الى ٢٨°م فى الشمال ، وقد لوحظ أن درجة الحرارة ترتفع على الجانب الآسيوى عنها على الجانب الافريقى وقد يعزى ذلك الى التيارات البحرية الدائرية التى تتحرك فى عكس اتجاه عقارب الساعة حيث تحمل هذه التيارات المياه الأكثر حرارة من الجنوب الى الساحل الأسيوى بينما تحمل المياه الأقل حرارة من الشمال الى الساحل الافريقى .

وارتفاع حرارة المياه فى البحر الأحمر أحد العوامل الرئيسية فى ارتفاع نسبة الملوحة Salinity فى مياه البحر الأحمر ، الذى يعتبر بحق من أكثر المسطحات المائية المفتوحة أو شبه المفتوحة ملوحة فى العالم ، ويرجع ذلك الى أن نسبة الملوحة ترتفع حيث يزداد فعل التبخر ، فارتفاع الحرارة يؤدى الى زيادة كمية المياه المفتودة بفعل التبخر عن تلك المياه المكتسبة بفعل التساقط أو تلك المياه العذبة التى تصبها الأودية النهرية فى البحر . والجدول التالى يوضح المتوسط السنوى للامطار فوق البحر الأحمر .

جدول (٤)

المحطة	المتوسط السنوى (مم)	متوسط عدد الأيام الممطرة
السويس	٣١	٥
جده	٦٣	٥
مصوع	١٩٣	٢١

Selim, A. op cit., 86.

(٢١) جرجس فهيم . نفس المصدر .

وواضح من بيانات هذا الجدول أن كمية الأمطار الساقطة بصفة عامة محدودة للغاية وفى نفس الوقت غير منتظمة السقوط . بالاضافة الى ذلك فان كمية المياه العذبة المكتسبة من طريق الأودية النهرية لا تكاد تذكر ، حيث لا توجد أودية نهرية دائمة تصب فى البحر الأحمر ، بل ان منطقة البحر الأحمر لا يوجد بها سوى نهر النيل الذى موازيا للبحر الأحمر ولا يتقاطع معه ، فضلا عن أن جبال البحر الأحمر تقف عقبة أمام تقدم الرياح الجنوبية الغربية الممطرة نحو البحر الأحمر . وعلى ذلك فان الحرارة هى العامل الرئيسى المتحكم فى توزيع الملوحة ويوضح الجدول التالى العلاقة بين متوسط حرارة المياه السطحية والملوحة .

جدول (٥)

خط العرض	الحرارة	الملوحة [٢٢]
٢٣°م — ١٥°م	٢٧و٩	٣٦و٩
١٥ — ٢٠°م	٢٨و٦	٣٨و١
٢٠ — ٢٥°م	٢٧و٢	٣٩و٤
٢٥ — ٣٠°م	٢٣و٧	٤١و٣

Selim, A. op. cit., p. 102.

وواضح أن هناك علاقة طردية بين درجة الحرارة ونسبة الملوحة : فكلما زاد تالحرارة زادت الملوحة وباستثناء ذلك فان نسبة الملوحة تزيد على الجانب الغربى الافريقى عنها على الجانب الشرقى الأسيوى ، وذلك عكس الزيادة فى الحرارة وتفسير ذلك أن ارتفاع حرارة المياه السطحية

---

(٢٢) الملوحة بالقريب من باب المندب تقل بصفة عامة حيث يحدث اختلاط بين مياه المحيط الهندى الأقل ملوحة وحرارة ، ومياه البحر الأحمر الأكثر ملوحة وحرارة مما يؤدى الى انخفاض نسبة البخر ، كما ترتفع نسبة الملوحة فى خليج العقبة فى أقصى الشمال الى ٤٠ر٦٪ وذلك لعدم حدوث تبادل بين مياه هذا الخليج مع مياه البحر الأحمر العميقة بسبب وجود برزخ مرتفع فى مدخله الجنوبى .

على الجانب الأسيوى تؤدى الى ارتفاع نسبة الرطوبة التى تؤدى تدورها الى ابطاء معدل تبخر المياه السطحية مما يؤدى الى انخفاض نسبة الملوحة(٢٣) . علاوة على ذلك فان نسبة الملوحة تزداد من السطح الى القاع نتيجة لعملية التبادل الرأسى التى تجرى بين المياه السطحية الأكثر ملوحة وكثافة ومياه الأعماق الأقل ملوحة وكثافة .

ومن المعطيات السابقة يتضح لنا أن مياه البحر الأحمر بيئة صالحة لتكون الشعاب المرجانية Coral Reefs التى تحتاج الى الحرارة والملوحة فضلا عن الأعماق الضحلة . ولذلك فان الشعاب المرجانية تمتد على طول سواحل البحر الأحمر على شكل حواجز متوازية يتراوح عرضها بين ١٥٠ — ٣٠٠ قدم ، وتزداد الكثافة كلما اتجهنا جنوبا حيث تزداد الحرارة وتزداد رقعة المياه الضحلة بحيث يصل عرض هذه الشعاب المرجانية أحيانا الى ٨٠٠ قدم . ولا يقطع امتداد الشعاب المرجانية أمام السواحل الا مصبات الأودية الكبيرة التى تشكل ثغرات فى حواجز المرجان مثل تلك الفتحات التى تعرف بالمراسى كمرسى علم وحلايب على الساحل المصرى .

ولعل وجود هذه الشعاب المرجانية كحواجز أمام السواحل أحد العوامل الجيولوجية التى أدت الى ضعف ارتباط السكان فى حوض البحر الأحمر بمياه هذا البحر . كما أن هذه الشعاب المرجانية أحد الأسباب الرئيسية فى صبغ الملاحة فى البحر الأحمر عبر التاريخ بطابع الخطورة خاصة تلك الشعاب المغمورة Submerged Reefs التى لا تظهر فوق سطح المياه الا فى فترات الجزر . ومن ناحية أخرى فان الشعاب المرجانية قد زادت من ضغط اليابس على الماء وتضييق الخناق عليه ، الأمر الذى أدى الى ضيق المجرى الصالح للملاحة فى البحر الأحمر خاصة فى مناطق الاختناق ، مثال ذلك أن وجود هذه الشعاب المرجانية أدى الى أن يصبح العرض الحقيقى لمضيق باب المندب لا يتجاوز تسعة أميال(٢٤) وهو المجرى الصالح للملاحة عبر المضيق الغربى الكبير فضلا عن أن

(23) Selim, A. Ibid. p. 108.

(24) U. S. Navy., op cit., p. 42.

الشعاب المرجانية تكاد تسد المجرى الشرقى أمام السفن خاصـــة الكبيرة منها . ولعل وجود هذه الشعاب المرجانية فضـــلا عن سرعة التيارات البحرية فى مضيق باب المندب والتى تصـــل الى ٢٠٠ ميلا / ٢٤ ساعة أحد العوامل الرئيسية فى خطورة الملاحة بهذا المضيق والذى سمى باب المندب أو بوابة الدموع The Gate of Tears

وارتفاع نسبة الملوحة يلعب أيضا دورا هاما بالنسبة لسرعة اختراق الموجات الصوتية أو فوق الصوتية للوسط المـــائى للبحـــر الأحمر ، حيث أنه من الثابت علميا أن هناك عـــلاقة طردية بين نســـبة الملوحة وسرعة اختراق الموجات للوسط المـــائى وبالتالى فان البحر الأحمر لا يعد ميدانا مثاليا للعمليات العسكرية تحت سطح المـــاء خاصة وأن الغواصات تمثل الآن القوة الضاربة فى التسليح البحرى لمـــا تتميز به من مقـــدرة على المناورة والحركة .

سادسا : يتميز الرصيف القارى Continental shelf للبحر الأحمر بالضيق بصفة عامة حيث يتراوح اتساعه بين ستة أميال ومائة ميل ، بل أنه يكاد يصبح مبتورا فى بعض الأجزاء .

وبصفة عامة فان الرصيف القـــارى فى البحـــر الأحمر يضيق فى الشمال ويتســـع فى الجنوب (جنوب خط ١٧° تقريبا) ، كما أنه أكثر ضيقا على الساحل الافريقى منه على الساحل الأسيوى ، علاوة على ذلك فان الرصيف القارى يبلغ من الضيق أدناه فى القطاع الأوسط حيث يبلغ القاع مداه فى العمق .

---

(٢٥) الرصيف القارى يقصد به ذلك الجـــزء من اليابس الغائص بحذاء الســـاحل والممتد من سيف البحر Shoreline حتى العمق الذى الذى يظهر عنده ازدياد واضـــح فى الانحـــدار نحـــو أعماق أكبر وهو ما يسمى بالانحدار القارى Continentel والذى ينتهى الى قاع البحر Sea Floor وعمق الرصيف القارى لا يزيد عادة عن ٦٠٠ قدم ويتراوح اتساعه بين ١٠ — ١٧٠ ميلا . انظر :

Daly, R. The of the Ocean. New light on old Mysteries. U.S.A. N. Carolina - Urivesity Press, 1942, p. 9 - 10.

وضيق الرصيف القارى أمام سواحل البحر الأحمر انما يرجع الى طبيعة تكوين حوض البحر الأحمر كأخدود صدعى سواحله انكسارية تنحدر أرصفتها بمعدل شديد Steep slope وسريع نحو القاع، Sea Floor

ويعد الرصيف القارى من الناحية الاقتصادية أهم الأجزاء البحرية بالنسبة للاستغلال البشرية حيث تتوفر الظروف الملائمة لتكاثر الكائنات الحية من نبات وأسماك وقواقع نتيجة لوصول ضوء الشمس اللازم لعملية التمثيل الى هذه الأعماق الضحلة (أقل من ٦٠٠ قدم) .

فضلا عن ذلك فان هذه الأعماق الضحلة تسمح بامكانية التنقيب عن الموارد المعدنية واستغلالها .

وضيق الرصيف القارى أمام سواحل البحر الأحمر يعنى — بنص المادة الثانية من اتفاقية جنيف عام ١٩٥٨(٢٦) — أن ضيق المنطقة التى تباشر عليها الدول الشاطئية للبحر الأحمر كافة حقوق السيادة فيما يتعلق باكتشاف واستغلال الموارد الطبيعية ، وقد حددت الاتفاقية عمق هذه المنطقة بنحو ٢٠٠ مترا (٦٦٠ قدما) .

ولا شك أن هذا العامل يؤثر فى التقليل من درجة ارتباط السكان بمياه البحر الأحمر وثرواته لا سيما وان الشعاب المرجانية تغطى اجزاء كبيرة من الرصيف القارى الضيق بطبيعة حاجته فى الجنوب ، ومن الناحية الأخرى نجد أن معظم دول البحر الأحمر من الدول النامية والمتخلفة تكنولوجيا مما يحد من قدرتها على اكتشاف واستغلال ثروات القاع ، فضلا على أن معظم هذه الدول لا تتوفر لديها وسائل حماية هذه الثروات(٢٧) غير المستغلة .

---

(26) Whiteman, M. Conference on the Law of the Sea : Conventi:n on the Continental Sheif. American Journal of Internatenal Law, 1958, p. 629 - 659.

(٢٧) كشفت الأبحاث عن وجود طبقات من الماء الأجاج الساخن الذى يحوى نسبا مرتفعة ومركزه من الحديد والنحاس والنيكل والرصاص والفضة والذهب . وأهم مناطق هذا الكشف تقع بالقرب من الساحل السودانى وتبلغ مساحتها نحو مائة ميل مربع . أنظر : أحمد عمران . الحق العربى فى ثروات البحر الأحمر — السياسة الدولية : العدد ١٩ ، ١٩٧٠ ، ص : ١٠٩ — ١١٤ .

سابعا : يتميز البحر الأحمر بموقع هام بكل المقاييس السياسية والاقتصادية والعسكرية والاستراتيجية .

١ — والبحر الأحمر يمتاز بموقعه المتوسط بين القارات ، فهو همزة الوصل بين قارتي آسيا وأفريقيا وذلك علي الرغم من سواحله الصحراوية القاحلة الطاردة . فالتداخل بين القارتين عبر البحر الأحمر حقيقة واقعة بحكم ضيق البحر الأحمر وانتشار الجزائر الأمر الذى يزيد من تقارب الساحلين باعتبارها مواطىء قدم Foot holds ، فضلاً عن أن مضيق باب المندب كان معبراً أرضيا انتشرت عبره أنواع النبات والحيوان بحرية . هذا التداخل تبودلت فيه الهجرات والغزوات واللغات والثقافات والديانات فضلا عن الأجناس ، فالمعروف مثلا ان ساحل تهامة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر يحمل الطابع الافريقى بوضوح فى دمائه وبشرته ، بل ان الجاليات الافريقية من الصوماليين والأحباش والدناكيل تكاد تكون العنصر السائد خاصة فى موانىء اليمن كالمخا والحديدة وبالمثل نجد السمات والملامح والقسمات العربية واضحة بين الصوماليين والسودانيين والأحباش وقد ساعد على هذا التداخل تناظر وتشابه الظروف المناخية والنباتية والمورفولوجية على جانبى البحر الأحمر : ففى الشمال يسود النظام الصحراوى وفى الوسط النظام السودانى وفى الجنوب النظام الموسمى .

٢ — والبحر الأحمر يتميز بموقعه الوسط بين البحار الشرقية والغربية بصفة عامة وبين البحر المتوسط والمحيط الهندى بصفة خاصة . فالبحر الأحمر يبدو كما لو كان جسرا عائما Pontoon bridge يمتد بانحراف بين الشمال والجنوب بمثل ما هو بين الشرق والغرب ، فالحقيقة أن أهم ما يميز البحر الأحمر كطريق هو امتداده بين الشمال الغربى والجنوب الشرقى بحيث يربط بينها من أقصر طريق ، فهو يمثل ما يشغل من درجات العرض ثمانية عشر درجة (١٢° — ٣٠° شمالا) فانه يشغل ايضا من درجات الطول احدى عشر درجة (٣٢° — ٤٣° شرقا) وبهذا تتحقق له صفة أقصر وأسرع طريق بين الشرق والغرب بصفة عامة وبين المحيط الهندي والبحر المتوسط بصفة خاصة .

فالمحيط الهندى تتمثل اهميته فى وجود سياج مرتفع من اليابس حول مياهه من ناحية الشمال ، تتخلله مجموعة من المنزات المائية التي تخترق

هذا الحصار المضروب من قبل اليابس حول مياه المحيط الهندي ، وتربط مياهه بمياه المعمور الفعال في الشمال ، وبالتالي فإن أهمية المحيط الهندي تكمن في أنه يتحكم في مجموعة من الممرات المائية الإستراتيجية . ولو تتبعنا هذه الممرات المائية في اتجاه عقارب الساعة من الغرب الى الشرق ستجدها تتمثل على التوالي في : طريق الرجاء الصالح ، قناة موزمبيق ، باب المندب ، مضيق هرمز ، مضيق ملقا .

أما البحر المتوسط فهو يكاد يتوسط قارات العالم القديم الثلاث أوربا وآسيا وافريقيا ، لذا فهو بحر مغلق يحيطه اليابس المرتفع وتتخلل هــذا اليابس عدة ممرات مائية هامة تتمثل على وجه التحديد في : مضــيق جبل طارق ، المضايق التركية (الدردنيل — مرمره — البوسفور) وقنــاة السويس . ومن هنا تبدو أهمية البحر المتوســط كملتــقى ابســتراتيجى Strategic Sea - Lane لمجموعة هامة من الممرات المائية التى تصل بين قارات العالم الثلاث وبين البحار الشرقية والغربية .

٣ — والبحر الأحمر يتميز بموقعه الانتقالي بين العروض المناخية ، فهو يمتد فوق ما يقرب من ثمان عشر درجة عرضية تتناوب عليها عروض مناخية انتقالية ما بين موسمية وسودانية وصحراوية لذلك فان البحــر الأحمر يكاد يبدأ من الشمال وسط ظروف مناخية تختلف عن تلك التى ينتهى اليهــا .

بصيغة اخرى ن البحر الأحمر يمتد فوق عروض مناخية انتقالية بحيث يمكن أن نميز بصفة عامة بين عروض دفيئة حارة في الجنوب وعــروض دفيئة باردة في الشمال . فهو اذن منطقة انتقال بين مناطق تستقبل الطاقة الشمسية طوال الوقت وأخرى تستقبلها بعض الوقت .

ونفس توزيع الطاقة الشمسية يكاد يتفق ويتطابق مع توزيع أهــم مصادر الطاقة المعدنية ونعنى به البترول ، الذى يمثل نحو ٤٤٫٨٪ مــن مجموع مصادر الطاقة المستهلكة .

فالبحر الأحمر يمتاز أيضا بموقعه الوسيط بين أكبر مناطق انتــاج البترول في العالم ، وهي في نفس الوقت أكبر مناطق الفائض وبين أكبر مناطق استهلاك البترول في العالم ، وهي في نفس الوقت أكبر مــناطق العجــز .

وإذا كان البحر الأحمر قد عجز عن نقل الطاقة الشمسية من الجنوب الشرقى الى الشمال الغربى فانه نجح — وبامتياز — فى نقل البترول من مناطق الانتاج والفائض الى مناطق الخليج(٢٨) التى بلغ انتاجها عام ١٩٧٦ نحو ٤٨٩ر٢١ مليون برميل(٢٩) أى ما يعادل ٣٨٪ من انتاج العالم . كما تمتلك هذه المنطقة داخل مصايد بترولها بين الصخور احتياطيا مؤكدا يبلغ نحو ٥ر٨٥٪ من الاحتياطى العالمى . أما أكبر مناطق الاستهلاك والعجز التقليدية فنعنى بها الدول الصناعية الغربية(٣٠) التى بلغ استهلاكها من البترول عام ١٩٧٦ نحو ٣٣١١٠ مليون برميل(٣١) أى ما يعادل ٣ر٥٦٪ من مجموع استهلاك العالم من البترول ، تستورد ما يقرب من ٩ر٥٦٪ من احتياجاتها من دول الخليج .

مواقف القوى :

واضح من العرض السابق للخصائص الجيولوتيكية ان كل ملامح وسمات وخصائص الطريق تنطبق على البحر الاحمر وتدمغ بقوة شخصية الجيوبوليتكية ، وذلك بحكم الشكل الطولى والاتساع المحدود والموقع الوسيط الذى يحقق الترابط بين المواقع المتباعدة والتكامل بين المواضع المتباينة جغرافيا وحضاريا واستراتيجيا .

ولعل شخصية البحر الاحمر كطريق عالمى للملاحة فرضت نفسها على الرغم من الخصائص السلبية التى تقلل من كفاءة هذا الطريق كارتفاع الحرارة وشدة الجفاف وانتشار الشعاب المرجانية وقلة الموانىء العميقة التى تخدم هذا المجرى الملاحى ، فهذه الخصائص السلبية وان كانت فيما مضى يمكن ان تعرقل الملاحة الا انها الان لا تشكل عقبة كبيرة امام التقدم

---

(٢٨) تشمل هذه المنطقة كلا من السعودية ، العراق ، قطر ، البحرين ، عمان وايران .

(٢٩) منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول . تطورات الطاقة ، استهلاك — سياسات — مصادره — الكويت : ١٩٧٨ ، ص ٦٠ . جدول .

(٣٠) تشمل هذه الدول كلا من الولايات المتحدة فى كندا ودول غرب اوربا .

(٣١) نفس المصدر — ص ٤٩ جدول ١١

الهائل في التكنولوجيا الملاحية البحرية ، لا سيما بالنسبة للملاحة الطولية التى تتحرك مع الاتجاه الرئيسى للبحر الاحمر ، بينما يمكن ان يظهر تأثير هذه الخصائص السلبى بصورة اوضح بالنسبة للملاحة العرضية .

ومن هنا فان البحر الاحمر توفرت له معظم الخصائص الجيوبوليتكية التى تجعل منه ممراً بالدرجة الاولى ومقرا بالدرجة الثانية . وليس هذا فحسب ، بل ان البحر الاحمر له من الخصائص التى يمكن ان تجعله ممرا بحريا من الدرجة الاولى بين طرق الملاحة العالمية . فالبحر الاحمر هو بحق الطريق الاستراتيجى Strategic junction فى عالم اليوم .

ونظرا لاهمية البحر الاحمر كطريق ممتاز فانه كان دائما بؤرة لاهتمام القوى المختلفة ، وميدانا للتنافس بينها ، ومطلبا عزيزا لكل منها . ولذا يمكن دراسة مواقف القوى المختلفة من البحر الاحمر والتمييز بينها على ضوء احتياجاتها ومطالبها .

أولا :

القوى الاقليمية :

١ — الكتلة العربية : تشكل السواحل العربية على البحر الأحمر بالمفهوم الجغرافى نحو ٢ر٩٠٪ من الطول الاجمالى لسواحل البحر الاحمر وخليج عدن . والبحر الاحمر يكاد يتوسط رقعة المجموعة العربية سواء بالمفهوم الجغرافى او بالمفهوم القومى ، ثم انه أيضا المنفذ الرئيسى والوحيد لكثير من الدول العربية خاصة بالنسبة للاردن واليمن الشمالية والجنوبية وجيبوتى والسودان . علاوة على ذلك فان البحر الاحمر هو الممر الرئيسى الذى يتدفق عبره البترول العربى الى اسواق التصدير لا سيما وان اقتصاديات معظم الدول العربية تعتمد بصفة اساسية على تصدير البترول الذى يشكل ما بين ٩٣ — ١٠٠ ٪ من مجموع صادرات بعض الدول العربية كالسعودية والكويت وعمان وقطر والامارات والبحرين . ومن ناحية اخرى فان تزايد احتمالات وجود ثروات معدنية فى قاع البحر الاحمر كالفضة والنحاس والحديد والرصاص يضاعف من اهمية البحر الاحمر بالنسبة للمجموعة العربية سواء بالمفهوم الجغرافى او القومى .

وعلى الرغم من هذه الاهمية الاستراتيجية التى يمثلها البحر الاحمر بالنسبة للعرب، وبالرغم من سيطرة العرب الجغرافية على سواحله الا انه ليس هناك استراتيجية عربية واضحة المعالم ونافذة المفعول حيال هذا البحر ، بل تركت القوى الاجنبية والمعادية تتحكم فى توازن العالم من خلال التحكم فى مثل هذه المنطقة الاقليمية الهامة من العالم .

ويبدو أن سلبية المجموعة العربية لاتقتصر فقط على عدم وجود تضارب فى السلوك والمواقف تجاه هذا البحر ، فبينما مثلا تقوم بعض القوى العربية كالسعودية ومصر بدعم نضال جبهة التحرير الاريترية ضد نظام الحكم فى اديس ابابا ، تقوم بعض القوى العربية الاخرى كاليمن الجنوبية وليبيا منذ عام ١٩٧٦ بتأييد نظام اديس ابابا ودعمه المسلح ضد ثوار اريتريا بمعاونة قوى خارجية ومعادية تتمثل فى الاتحاد السوفييتي وكوبا واسرائيل ، ولا شك ان موقف كل من ليبيا واليمن الجنوبية تجاه البحر الاحمر ليس له مبررات جيولوتيكية .

ولعل من أوضح الامثلة على سلبية المجموعة العربية تجاه البحر الاحمر ذلك المصير الذى انتهت اليه بعض الجزائر العربية فى البحر الاحمر كصنافير وتيران وذقر والتى أصبحت تحت سيطرة اسرائيل عسكريا وتتمثل السلبية العربية فى اهمال شأن هذه الجزائر غير المأهولة بالسكان وتركها دون تدعيم عسكرى ، بالاضافة الى وجود خلافات بين الدول العربية نفسها على ملكية هذه الجزائر كما هو الحال بالنسبة للخلاف القائم بين اليمن الشمالية والجنوبية حول جزيرة قمران ، الامر الذى يتيح الفرصة لتدخل القوى المعادية أو الخارجية .

خلاصة القول ، أن تزايد مصالح ومطالب المجموعة العربية فى البحر الاحمر يتطلب من هذه المجموعة اتخاذ سياسة عربية موحدة وواضحة ازاء هذا الممر الاستراتيجى الهام دون الاكتفاء بالبيانات والنوايا والتمنيات (٣٣) . وضرورة تدعيم الاسطول الحربى لتحقيق التوازن بن

---

(٣٣) عقد فى تعز عام ١٩٧٦ مؤتمر للدول العربية المطلة على البحر الاحمر حضرته كل من اليمن الشمالية والجنوبية والصومال والسودان والسعودية وانتهى المؤتمر الى مجرد بيان تعرب فيه هذه الدول عن أن البحر الاحمر بحيرة عربية ينبغى ان تبقى بعيدا عن الصراعات الدولية ، وعقب انتهاء المؤتمر كانت قوات اليمن الجنوبية تعاون قوات اديس ابابا ضد الصومال وارتيريا .

المطالب وامكانية تحقيق هذه المطالب ، وضـرورة اتخاذ موقف فعـال فى الصراع الدائر على الساحل الاريترى الاستراتيجى والقرن الافريقى على اعتبار انه امتـداد للصـراع الدئر فى الشـرق الاوسـط بين اسرائيل والعرب (٣٣) .

٢ ـ الكتلة الاسرائيلية الاثيوبية :

يمكن القول بأن مطالب كل من اسرائيل واثيوبيا فى البحـر الاحمر بدأت تلتقى وشطابق منذ ان ظهـرت الدعـوة الى جعل البحـر الاحمر « بحيرة عربية » كجزء من استراتيجية عربية لوقف نشـاط اسرائيل فى البحر الاحمر ، حينئذ بات واضحا لدى كل من اسرائيل واثيوبيا ـ وهما الدولتان الوحيدتان فى البحر الاحمر غير العربيتان ـ أن هذه الدعوة تمثل تهديدا مباشرا لمصالحهما القومية (٣٤)

اما بالنسبة لاسرائيل ، فهى بالرغم من ان ساحلها لا يزيد طوله من سبعة اميال الا انها ترتبط بالبحر الاحمر ارتباطا قويا ، وذلـك لانه يمثل بالنسبة بالنسبة لها منفذاً تتنفس من خلاله باعتبارها دولة محاصرة تماما خاصة وان تملق قناة السويس امام الملاحة الاسـرائيلية يجعل منفذها لمتوسطى عاجزا عن حمل اسرائيل الى المناطق الافرو اسيوية . ومن هنا فان مسألة فرض حصار بحرى جزئى او كلى على منفذها الجنوبى عـلى البحر الاحمر يشكل فى نظر صانع القرار الاسـرائيلى حالـة ترقى الى مستوى التهديد بالحرب ، فالبحر الاحمر بالنسبة لاسرائيل يعنى امكانيـة القفز فوق « سور » الحصار العربى السياسى والاقتصادى والوصول الى افريقيا وآسيا لتحقيق التوازن الدبلوماسى ، ويعنى البحر الاحمـر ايضا امكانية ضرب المقاطعة العـربية الاقتصـادية والوصـول الى الاسواق الافرو آسيوية ومصادر المواد الخام .

---

(33) John, F., Rumblings along the Red Sea : The Eritrean Question. Foreign Affairs. vol. 48, No. 3, April, 1970, p. 537 - 548.

(34) Legum, G., The Middle East and the Horne of Africa : Internatonal politics in the Red Sae Area. Middle Contemparary Survey, 1976 - 1977. N. Y. & London, p. 58.

وبالطبع فان اسرائيل بعد سيطرتها على مضايق تيران وبعد السماح بالمرور عبر قناة السويس اصبحت مشكلة اسرائيل الرئيسية بالنسبة للبحر الاحمر تنحصر فى مضيق باب المندب البوابة الرئيسية لطريق البحر الاحمر .

اما اثيوبيا فان البحر الاحمر بالنسبة لها هو المنفذ الرئيسى الذى يربطها بالعالم الخارجى ويتمثل هذا المنفذ البحرى فى موانىء ساحل ارتيريا متمثلة فى مصوع وعصب . والخطر الذى يتهدد اثيوبيا يكمن فى مطالبة السكان الذين يستقرون على هذا الساحل باستقلالهم . ويعنى انفصال الاقليم الساحلى عن جسم دولة اثيوبيا ان تعود هذه الدولة كما كانت راهبة داخل ديرها التاريخى القديم فوق طضبة الحبشة ، بعيدا عن العالم الخارجى كدولة مغلقة داخلية Land - Locked State

وتلتقى مصالح اسرائيل بمصالح اثيوبيا حين يصبح العرب هم العدو المشترك لكل منهما ، والعرب فى صراع تقليدى مع اسرائيل حول فلسطين والعرب هم ايضا الذين يساندون الشعب الارتيرى فى قضية بحكم صلة الدم واللغة والدين ، وكجزء من الدعوة الى جعل البحر الاحمر بحيرة عربية خالية .

وقد اتخذ التلاقى الاستراتيجى بين اسرائيل وثيوبيا صورا مختلفامن التنسيق والتعاون ، فانفصال ارتيريا وتوجهها صوب العرب يعنى احكام العرب قبضتهم على مضيق باب المندب لذلك تقوم اسرائيل بدعم اثيوبيا

---

(٣٥) محمود توفيق . الجغرافيا السياسية لاسرائيل — القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٧ ص ١٧٦ — ٧

(٣٦) الاريتريون هم مزيج من الجاميين والساميين ويقدر عددهم بنحو ثلاثة ملايين نسمة ، ويدين معظمهم بالاسلام ، ويتحدثون باللغتين العرتية والتجرينية ، وتبلغ مساحة اقليم ارتيريا نحو ٧٥٠٠٠ ميل مربع . وكان اقليم ارتيريا مستعمرة ايطالية حتى عام ١٩٤١ ثم احتلته بريطانيا حتىعام ١٩٥٠ ، وفى عام ١٩٥٢ فرضت الامم المتحدة على الاقليم الاتحادالفيدرالى مع اثيوبيا وفى عام ١٩٦٢ قامت اثيوبيا باحتلال ارتيريا عسكريا والغت الاتحاد الفيدرالى .

سى مختلف المجالات الاقتصادية والعسكرية خاصــة بعــد توقف شحنات السلاح الامريكية لاثيوبيا منذ ابريل ١٩٧٧ وفى مقابل ذلك جعلت اسرائيل على امتيازات استراتيجية واضحة ، شملت استخدام موانىء ارتيريا فى تجارتها مع الدول الداخلية كالكنغو وافريقيا الوسطى وجنوب السودان ، وانشاء قواعد عسكرية بحرية فى جزيرتى فاطمة وحالب بالاضــــافة الى قاعدتين جويتين فى شمال غرب ارتيريا على الحدود الســـودانية مباشرة تنطلق منها الطائرات الاسرائيليــة مباشرة الى اســرائيل . كما تستخدم اسرائيل جزيرة « درميرا » فى المراقبة والاستطلاع حيث تقع هذه الجزيرة على بعد لا يزيد عن ٢٠ ميلا من جزيرة بريم بالاضافة الى ذلك ؟ قامــت اسرائيل بالاستيلاء على جزيرة ذقر اليمنية التى تقع فى مدخل باب المندب وأقامت بها محطة للاتصالات .

ولا شك ان موقع ارتيريا ذا الثقل الاستراتيجى أدى الى تعقيدالمواقف الجيولوليتكية فى جنوب البحر الاحمر ، ذلك ان موقع ارتيريا الاستراتيجى الحاكم قد جعل مصالح ومواقف اسرائيل — وهى الحليف الامريكى القوى — متفق ومواقف كل من الاتحاد السوفييتى وكوبا ازاء اديس ابابا . كما أن موقع ارتيريا الهام بالنسبة للولايات المتحدة قد اجبر واشــنطون على التمسك بأثيوبيا رغم تحولها اليسارى وعدم اتخاذ موقف معادى صريحمنها فضلا عن عدم تلبية الولايات المتحــدة لطلبات الصــومال من الاســلحة الهجومية رغم تحول الصومال تجاه اليمين . اما فيما يتعلق باتفاق موقف كل من اليمن الجنوبية وليبيا من اديس ابابا مع موقف موسكو وتل أبيب وهذا هو الذى يخرج عن اطار التحليل الجيولوليتكى ، حيث لا توجد مبررات جيولوليتكية واضحة لهذا الموقف .

ثانيــا : القوى العالميــة :

١ — الكتلة الغربية :

ظل البحر الأحمر لفترة طويلة احد منـــاطق النفوذ التقليدية للغرب منذ ان كان البحر الاحمر طريقا للتوابل حتى اصبح شريانا للنفط ، بحكم الطبيعة الجزرية أو شبه الحرارية التى أقامت للغرب فرصة الخروج المبكر

الى مجال الاستعمار والتفرق كقوى بحرية ، ولكن منذ أن تراجع الاستعمار التقليدى عن هذه المنطقة حدث فراغ اتاح للقوى الاخرى الفرصة لشغل هذا الفراغ .

ونظرا للطبيعة الجيولوليتكية للبحر الاحمر التى لا تجعل منه ميدانا صالحا لتمركز القطع البحرية ، لا سيما حاملات اطائرات والغواصات التى تشكل القوة الضاربة فى الاسطول الامريكى ، فان الغرب لجأ بعد خروجه الى الاعتماد على الانظمة (المحافظة) فى منطقة البحر الاحمر وكذلك على تحالف (البترو دولار) كأداة لتحقيق اهداف الغرب والمحافظة على مصالحه . ولا شك ان ذلك يشكل فى حد ذاته ثقبا فى شبكة الاستراتيجية الغربية فى المنطقة لأن هذه الاستراتيجية تعتمد على عوامل وعناصر سياسية بالدرجة الاولى وتكون عرضة للتغير من وقت لاخرخاصة وان النظم القائمة فى منطقة البحر الاحمر غير مستقرة ومعرضة دائما لتيارات قومية وتقدمية وراديكالية . مثال ذلك تحول اليمن الديمقراطية — التى كانت حتى وقت قريب مستعمرة بريطانية — الى اقصى اليسار السوفييتى وتحول اديس ابابا — التى كانت حتى عهد قريب قلعة للنفوذ الغربى — الى اليسار الماركسى بعد سقوط نظام هيلاسيلاسى المحافظ ومجىء نظام منجستو هيلا مريم التقدمى .

وتبدو خطورة هذه الاستراتيجية الغربية بدرجة اوضح اذا علمنا أن المطالب والمصالح الغربية فى المنطقة مصالح استراتيجية هامة . ولعل اهم مطلب للغرب فى المنطقة يتمثل فى حاجة الغرب الشديدة الى بترول المنطقة ، فالبحر الاحمر فى السياسة الغربية هو بالدرجة الاولى الشريان الرئيسى الذى يحمل نفط الخليج الى دول الغرب الصناعية التى تعانىعجزا كبيرا فى الطاقة وتعتمد اعتمادا رئيسيا على البترول القادم من الخليج لتشغيل مصانعها وتدفئة منازلها وادارة افتقادها باستثمارات البترو دولار .

ولذلك فان الهدف الرئيسى للقوة العسكرية الامريكية فى المنطقة هو تأمين استمرار تدفق النفط الى الدول الغربية وحماية شركات البترول الغربية العاملة فى منطقة الخليج لضمان اسهام هذه الشركات فى ميزان المدفوعات .

ومن هنا تبدو أهمية المحيط الهندى (٣٧) . الذى عاد من جديد يحظى بمكان هام فى الاستراتيجية الغربية بوصفه قاعدة عامة للتحكم والسيطرة بالنسبة لمنابع البترول وأيضا بالنسبة لطرق نقله ، حيث يسلك بترول الخليج اما طريق السويس او طريق الرأس وهو فى الحالتين يمر بميـــاه المحيط الهندى بالاضافة الى طريق ثالث طلبت الغرب التقليدى فى آســـيا وهى اليابان . ولذلك تحتفظ الولايات المتحدة الهندى والبحر الاحمر بقوة بحرية عملاقة قوامها حاملات الطائرات والمدمرات والغواصات النووية ،بالاضافة الى عدة قواعد بحرية وجوية أرضية تقوم على خدمة هذه الوحدات البحرية وهذه القواعد تتوزع على النحو التالى .

قاعـــدة الظهران :

وهى قاعدة جوية للقاذفات الاســـتراتيجية على الســـاحل الغربى للخليج وهى تستخدم أيضا كمحطة للانذار المبكر .

قاعدة الحفير :

وتقع فى البحرين ، وهى مركز لقيادة القوات البحرية الامريكيـــــة فى الشرق الاوسط .

قاعدة المعيرة :

وتقع فى جزيرة المعيرة فى مواجهة ساحل سلطنة عمان على المحيط الهندى وهى قاعدة بحرية تستخدم لخدمة الغواصات النووية فى المحيط الهندى .

قاعدة دييجو جارسيا :

وهى قاعدة جوية وبحرية فى جزيرة دييجو جارســـيا الواقعة الى الجنوب من جزر مالديف ، وهى تشرف على طرق النفط الموجهة الى البحر

---

(٣٧) كان المحيط الهندى فيما سبق يعتبر من مناطق النفوذ التقليدية للغرب ولكن تقلص هذا النفوذ بعد الانسحاب الجزئى الامريكى من جنوب شرق آسيا والانسحاب الفرنسى من مدغشقر وافريقيا البرتغالية والصومال الفرنسى والانسحاب البريطانى من منطقة شرقى السويس .

الاحمر ورأس الرجاء . وهى تعد من أهم القواعد الامـــريكية فى المحيط الهندى للقاذفات الاستراتيجية ، كما انها تعد ايضا اكبر محطة للاتصالات فى المحيط الهندى .

قاعدة كانيو :

وهى أكبر محطة للاتصالات فى منطقـــة البحر الاحمـــر بل وخارج الولايات المتحدة ، وترجع أهمية هذه المحطة الى وقوعها على ارتفاع يصل الى ٧٥٠٠ قدم شمال اسمرة عاصمة اقليم ارتيريا مما يزيد من محيطدائرة الاستقبال والارسال . ولعل هذه القاعدة الضخمة احد العوامل الرئيسية لتمسك واشنطون باستمرار التحالف مع اثيوبيا الان .

قاعدة مصوع :

وهى قاعدة بحرية ضخمة لقطع الاسطول الســـابع الامـــريكى . بالاضافة الى ذلك تتمتع قطع الاسطول الامـــريكى بتســـهيلات فى موانىء الحديدة وجدة فى البحر الاحمر .

٢ ـــ الكتلة الشرقية :

يمكن القول بأن الوجود السوفييتى فى البحر الاحمر لا يتعدى نهاية الستينات شأنه فى ذلك بقية وجـــوده فى البحـــار العالميـــة . فالاتحاد السوفييتى ظل الى بداية الستينات قانعا بقوته الترية التقليدية حتى وقعت أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢ . والتى انتهت بتراجع الســــوفييت تحت تهديد الحصار البحرى الذى فرضته وحدات وقطع الاسطول الثانى الامريكى حول كوبا .

وخرج الاتحاد السوفييتى من هذه الازمة مقتنعا اكثر من اى وقت مضى بفكرة الادميرال الفريد ماهان Mahan. A. عن أن القوة البحرية هى السبيل للسيطرة على العالم والانتقال من مرحلة القوة الاقليمية الى مرحلة القوة العالمية ، وذلك لما تمتاز به القوة البحرية من مرونة الحركة والقدرة على المناورة بعيدا عن قيود اليابس والتزاماته . وانطلاقا من هذا الاقتناع بدأ الاتحاد السوفييتى يركز على تدعيم القوة البحـــرية ، بحيث أصـــبح الردع بالقوة البحرية عنصرا أساسيا فى الاستراتيجية السوفييتية .

ويبرز البحر الاحمر فى الاستراتيجية السوفييتية كأقصر واسرع طريق بين البحر الاسود والمحيط الهندى ، الذى أحظى بأهمية خاصة تفوق بحق اهمية المناطق . الحيوية الاخرى من العالم . وترجع أهمية المحيط الهندى بالنسبة للاستراتيجية السوفييتية لعدة أسباب أهمها ما يلى :-

١ ـ أن مياه المحيط الهندى تتحكم فى مجموعة من أهم الممرات المائية فى العالم ، والتى تربط بحريا بين قواعد الارتكاز السوفييتية على المحيط الهادى والبحر الاسود (٣٨) .

٢ ـ تقويض القوة الاستراتيجية للغرب وذلك بالضغط العسكرى على الدول الحليفة فى المنطقة ، وخاصة الدول البترولية منها ، وتهديدها الدائم بالخطر بغرض اجبار هذه الدول على فك الارتباط بالغرب للخروج من دائرة التهديد .

٣ ـ تأمين سلامة اليابس السوفييتى امام خطر التهديد النووى المتمركز فوق سطح مياه المحيط الهندى وفى اعماقه فى ذلك بعد أن ادخلت الولايات المتحدة منذ منتصف الستينات نظام التسليح البحرى النووى ، الذى يقوم على الصواريخ البعيدة المدى ذات الرؤوس النووية مثل صواريخ بولاويس Polaris وبوسيدون Poseidon ، ويمكن لهذه الصواريخ ان تنطلق من الغواصات حتى لو تعرضت هذه الغواصات للاغراق .

٤ ـ حماية خطوط الملاحة التجارية السوفييتية فى المحيط الهندى من ناحية ، وتهديد خطوط الملاحة التجارية الغربية .

٥ ـ الحد من النفوذ الامريكى فى المحيط الهندى والتقليل من فاعلية التأثير السياسى للاسطول السابع خلال الازمات الطارئة فى المنطقة ،وذلك

---

(٣٨) تتمثل اهم القواعد البحرية السوفييتية على ساحل المحيط الهادى فى قاعدتى فلادى فوستاك Viladivostok وبترو بافلونسك كامتشاتكى Petropavlovs Kamchatsky قاعدة سفاستوبول Sevastopol فهى اهم القواعد الاستراتيجية البحرية على البحر الاسود .

بغرض تحقيق نفوذ سياسى سوفييتى من خلال القوة البحرية ، وتوسيع نطاق العلاقات التجارية مع دول المنطقة النامية .

وانطلاقا من أهمية المسطح المائى الدافىء الذى يربط بين الموانىء والقواعد السوفييتية على المحيط الهادى من ناحية والبحر الاسود من ناحية أخرى ، فان الباحث يعتقد بأن الاتحاد السوفييتى سيضع ثقله كقوة بحرية على هذا البحر المحيط ، وذلك لتأمين وضمان هذا الاتصال الحيوى البحرى .

وتحقيق السيطرة السوفييتية على البحر المحيط يعنى بالمفهوم الجيولولتيكى تحويل اليابس السوفييتى الى « جزيرة عالمية » وذلك على اعتبار أن اليابس الفاصل بين الاتحاد السوفييتى « والبحر المحيط » يشكل المجال الحيوى Lebensraum للاتحاة السوفييتى .

وبافتراض صحة هذا التصور الجيولولتيكى ، فان الاتحاد السوفييتى سوف يضع على رأس مطالبه الاستراتيجية ضرورة احتواء Containment الدول الساحلية Coastal States عن طريق ما يعرف بالسيطرة الهامشية Marginal Control (٣٩) . فالسيطرة على ساحل الدولة تكفى للسيطرة على الدولة الداخلية التى ستفقد بدورها معابرها الى البحر وتصبح دولة معزولة Aloof state

والى جانب أسلوب الضغط العسكرى والتهديد الدائم بالخطر فى وجود قوة بحرية سوفييتية عملاقة فى « البحر المحيط » ، فان الاتحاد السوفييتى ، كما دأب دائما ، سوف يستغل الصراعات والخلافات المحلية والاقليمية لتوطيد اقدامه فى الدول الساحلية ، وباستغلال حاجة هذه الدول الى المساندة والدعم العسكرى . وقد نجح بالفعل هذا الاسلوب فى توطيد اقدام الاتحاد السوفييتى فى دول مثل : الهند فى صراعها معباكستان واندونيسيا فى نزاعها مع ماليزيا ، والعراق فى صراعه مع ايران واليمن الجنوبية فى نزاعها مع اليمن الشمالية والدول التى تسندها فى الجزيرة العربية .

---

(39) Prescott., J. The Political Geography of the Oceans. N. Y. : A Halsted Press Book, 1975, p. 32.

ولكى يحقق الاتحاد السوفييتى سيطرته على البحر المحيط لابد أيضا ان يدعم وجوده بالقرب من نقط الاختناق الاستراتيجية التى تكتنف هذا النطاق المائى . وهى تتمثل على التوالى فى : المضايق التركية ـ قناة السويس ـ باب المندب ـ مضيق ملقا . وواضح ان البحر الاحمر له أهمية خاصة كخانق استراتيجى طويل تكنفه نقط اختناق رئيسية تتمثل فى قناة السويس وباب المندب ، ومن هنا جاء عرض الاتحاد السوفييتى على ضرورة توطيد اقدامه بالقرب من هذه الممرات الاستراتيجية . وقد نجح فى استغلال الصراع العربى ـ الاسرائيلى لتدعيم وجوده فى مصر التى تتحكم فى قناة السويس . وبالرغم من تراجع النفوذ السوفييتى حاليا عن مصر وتدهور العلاقات بينهما بعد جنوح مصر تجاه الغرب الا ان الاتحاد السوفييتى حريص على استمرار العلاقات الطبيعية مع مصر لضمان استخدامه لقناة السويس . وموقف الاتحاد السوفييتى من مصر يذكرنا على الفور بموقف الولايات المتحدة من اثيوبيا لقد حرصت أيضا على استمرار العلاقات معها رغم تحول اثيوبيا تجاه اليسار اما بالنسبة للمدخل الجنوبى للبحر الاحمر فان الاتحاد السوفييتى استطاع ان يشغل الفراغ الذى تركه البريطانيون فى عدن وتحويلها لقاعدة سوفييتية رئيسية فى المنطقة . وامتد نشاط الاتحاد السوفييتى بعد ذلك الى الساحل الجنوبى لخليج عدن حيثما عقد معاهدة صداقة وتعاون مع الصومال عام ١٩٧٤ مستغلا فى ذلك حاجة الصومال الى الدعم العسكرى فى صراعه مع اثيوبيا فى اقليم اوجادين . وقد استطاع الاتحاد السوفييتى من خلال هذه الصداقة ان يقيم قاعدة بحرية فى بربرة مع حصوله على تسهيلات بحرية وجوية فى مقديشيو العاصمة .

وبمجيء نظام يسارى فى أديس أبابا عام ١٩٧٤ اكتمل للسوفييت تحقيق السيطرة على المدخل الجنوبى للبحر الاحمر وبناء حائط يسارى يتكون من عدن ومقديشيو واديس ابابا . وقد حاول السوفييت تدعيم هذا الحائط باعطائه شكل تحالف اشتراكى اقليمى فيما يسمى بالسلام السوفييتى (Pax Sovitica) (٤٠) ولكن سرعان ما سقط الجانب الصومالى من هذا الحائط بعد اكتشاف حقيقة الدور المزدوج الذى

(40) Legum, G, op. cit., p. 63.

قام به السوفييت فى المنطقة (٤١) حيث قام السوفييت بتزويد اثيوبيا بالأسلحة والخبراء فى حربها مع الصومال .

ولا شك أن سقوط الصومال من التحالف السوفييتى قد اضعف سيطرة السوفييت على هذه المنطقة الاستراتيجية ، ولكن لا شك أيضا أنه لو كان للاتحاد السوفييتى ان يختار بين الصومال واثيوبيا فانه يختار حتما الثانية ولأنها تفضل الأولى كموقع استراتيجى حاكم بالنسبة لمضيق باب المندب .

ويحتفظ الاتحاد السوفييتى حاليا بعدد من القواعد العسكرية ، التى تقوم على خدمة اهدافه ومصالحه فى المنطقة . ولعل أهم هذه القواعد هى تلك التى يحتفظ بها فى اليمن الجنوبية والتى تتمثل فى قاعدة (بين الجبلين) الجوية وقاعدة (التواهى) البحرية كما يستخدم السوفييت عددا من المطارات الحربية الفرعية فى محافظات الجبلية وعتق والمكلا ، يضاف الى ذلك القاعدة الجوية والبحرية فى جزيرة سوقطرة ، التى تعتبر المحافظة السادسة من محافظات اليمن الجنوبية . وتحتفظ أيضا كوبا بقاعدة عسكرية تضم مطارا حربيا ومركزا لتدريب القوات الخاصة بمنطقة يافع السفلى بالرميلة . وقد تردد اخيرا ان الاتحاد السوفييتى قد استأجر مؤخرا احدى جزائر ارخبيل دهلك امام امام ساحل ارتيريا وقام بها قاعدة بحرية .

---

(٤١) قلب السودان مائدة الاستراتيجية السوفييتية المحكمة فى المنطقة حينما اكتشف وجود ثغرة متعمدة فى شبكة الرادار التى أقامها السوفييت فى الصومال ، وهذه الثغرة اتاحت لطائرات النقل السوفييتية التحليق فى الاجواء السودانية محملة بالسلاح والذخيرة من ليبيا الى اثيوبيا . وذلك وفقا لمعاهدة سرية بين اديس ابابا وموسكو .

المحتويات

من الى

تقـــديم

الاستاذ الدكتور أحمـــد عزت عبد الـــكريم . . . . هـ — ح

القسم الأول

البحر الأحمر فى التاريخ القديم

البحر الأحمر فى « العهد القديم »

الدكتور رشـــاد الشـــامى . . . . ٣ — ٨

دور البحر الأحمر فى تاريخ مصر

الأستاذ الدكتور مصطفى كمال عبد العليم . . . . ٩ — ٢٨

الرومان والبحـــر الأحمـــر

الأستاذ الدكتور سيد احمد على الناصرى . . . . ٢٩ — ٦٨

القسم الثانى

البحر الأحمر فى التاريخ الوسيط

البحر الأحمر طريقا للدعوة الاسلامية

الدكتور عبد الشافى غنيم عبد القادر . . . . ٧١ — ٩٢

البحر الأحمر والفتح العربى لمصر

الأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف . . . . ٩٣ — ١٠٤

البحر الأحمر فى العصر الأيوبى

الدكتور حسنين محمـــد ربيع . . . . ١٠٥ — ١٢٤

علاقات مصر بعالم البحر الأحمر

الدكتور قاسم عبده قاسم . . . . ١٢٥ — ١٥٨

من الى

تجارة البحر الأحمر فى عصر المماليك الجراكسة
الدكتور محمد أمين صالح . . . . ١٥٩ — ١٨٠

مصر وأسطورة البحر الأحمر
الدكتور احمد رمضان احمد . . . . ١٨١ — ٢٠٢

القسم الثالث

البحر الأحمر فى العهد العثمانى

البرتغاليون والبحر الأحمر
الدكتور سعد زغلول عبد ربه . . . . ٢٠٥ — ٢٢٢

الصراعات المحلية والدولية فى البحر الأحمر
الأستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم . . . . . . ٢٢٣ — ٢٤٠

النشاط التجارى فى البحر الأحمر
الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم . . . ٢٤١ — ٢٦٠

أهميـة ثغـر جـدة
الدكتور فائق بكر الصواف ، الدكتور مصطفى محمد محمد رمضان
٢٦١ — ٢٩٠

أهمية بندر السويس فى العصر العثمانى
الدكتورة ليلى عبد اللطيف احمـد . . . . . . ٢٩١ — ٣٠٦

علاقات مصر الثقافية مع دول البحر الأحمر
الدكتور عبد الله محمـد عزباوى . . . . . . ٣٠٧ — ٣٣٢

القسم الرابع

البحر الأحمر فى التاريخ الحديث

سياسة مصر واستراتيجيتها فى البحر الأحمر
الأستاذ الدكتور احمد عزت عبد الكريم . . . . . ٣٣٥ — ٣٤٦

التأثير الاستراتيجى والسياسى المتبادل
بين منطقتى البحر الأحمر
الأستاذ الدكتور عبد العزيز سليمان نوار . . . . ٣٤٧ — ٣٥٦

من الى

التنافس الدولى فى جنوب البحر الأحمر
الدكتور فاروق عثمان أباظـــة . . . . ٣٥٧ — ٣٨٨

سياسة مصر واستراتيجيتها فى البحر الأحمر
الأستاذ الدكتور شوقى عطا الله الجمل . . . . . ٣٨٩ — ٤١٨

السياسة البريطانية فى جنوب البحر الأحمر
الدكتور على محمد بركات . . . . ٤١٩ — ٤٣٨

مصر والصومال فى البحر الأحمر
الدكتور سمير محمد طـــه . . . . ٤٣٩ — ٤٦٠

بريطانيـــا والصومال
فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر
الدكتور خالد محمد طه . . . . ٤٦١ — ٤٨٦

موقف بريطانيا فى البحر الأحمر
الدكتور محمد محمود السروجى . . . . ٤٨٧ — ٥٠٢

البحر الأحمر والسياسة الدولية
الدكتور محمد عبد الرحمن برج . . . . ٥٠٣ — ٥١٨

جزيرة قمران بين الاحتلال العسكرى
الدكتور يونان لبيب رزق . . . . ٥١٩ — ٥٤٠

البحر الأحمر بين الحربين العالميتين (١٩١٩ — ١٩٣٩)
الدكتور محمود متولى . . . . ٥٤١ — ٥٦٨

القسم الخامس

البحر الأحمر فى السياسة الدولية المعاصرة

مضايق تيران فى أزمة الشرق الأوسط
الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى . . . . . . ٥٧١ — ٥٩٠

البحر الأحمر فى الصراع بين مصر واسرائيل
الدكتور عبد العظيم رمضان . . . . ٥٩١ — ٦١٤

أمن البحـــر الأحمـــر
الدكتور رأفت غنيمى الشـــيخ . . . . . . ٦١٥ — ٦٣٤

	من	الى
استراتيجية البحر الأحمر		
العميد أ.ح صلاح الدين فهمى محمد حسن	٦٣٥	٦٥٨
أمن البحـــر الأحمـــر		
الدكتور ابراهيم صقر	٦٥٩	٦٧٢
الأمن العربى والصراع الاستراتيجى		
الدكتور على الدين هـــلال	٦٧٣	٦٨٨
الصراع الدولى فى القرن الأفريقى		
الدكتور عبد العزيز رفاعى	٦٨٩	٧١٠
مواقف القوى من البحر الأحمر		
محمود توفيـــق محمود	٧١١	٧٤٨

مطبعة الجبلاوى
٢٠ شارع الترعة البولاقية

رقم الايداع بدار الـكتب ١٩٨٠/٣١٢٦